

المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم



تاريخ

الجغرافية والجغرافيين

في الأندلس

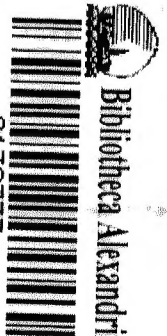
بحث في الملكة العلمية العربية عن طريق
تاريخ علم واحد في بلد عربي واحد

تأليف

بهيمن مؤنس

مع اللغة العربية بالقاهرة
لامى بكلية الآداب بجامعة القاهرة
سات الإسلامية في مدريد سابقا

0130733



Bibliotheca Alexandrina

لطبعة الثانية

١ هـ - ١٩٨٦ م

مكتبة مدبولي

تاريخ
الجغرافية والجغرافية
في الأندلس

الطبعة الاولى
مدريد ١٣٨٦ هـ - ١٩٦٧ م



الطبعة الثانية ١٩٨٦

جميع الحقوق فيما عدا هذه الطبعة الثانية محفوظة للمؤلف

تاريخ
الجغرافية والجغرافية
في الأندلس

تأليف

حسين مؤنس

أستاذ التاريخ الإسلامى بكلية الآداب بجامعة القاهرة

مدير معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد — سابقاً

عضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة



تقديم

د. محيى الدين صابر

المدر العام للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم

كان فضل العلماء العرب كبيرا فى مجال علم الجغرافيا . فكانوا فيه روادا ، شأنهم فى كثير من مجالات المعرفة الانسانية ؛ وقد كانوا يطلقون عليه علم «تقويم البلدان» و«المسالك والممالك» .

ولقد كان الاندلس هو الجناح الثقافى العربى الثانى ، فى تكامله مع وثبة الفكر العربى ور يادته وعطائه وابداعه فى المشرق . وقد نبغ فى الاندلس من العلماء العرب ، فى كل ميادين الفنون والعلوم ، كثيرون .

ومن الميادين العلمية التى أسهم فيها الاندلسيون اسهاما واسعا ، التاريخ والجغرافيا ، وهما صنوان ، فى تصورهما للحياة فى الزمان والمكان .

ومن أبرز الجغرافيين العرب ، وطلائهم فى الاندلس أحمد بن محمد الرازي ، الذى نشأ فى قرطبة فى القرن الرابع الهجري - العاشر الميلادى ، وهى يومئذ مركز اشعاع حضارى عالمى ، وقد شارك فى ترجمة كتاب هروشيئش الى العربية ، وعنوانه : « كتب التواريخ السبعة فى الرد على الوثنيين » وفيه معلومات عن تاريخ الرومان وآراء الاقدمين فى شبه الجزيرة الايبيرية ، الى جانب وصفه هولها ، بحكم كونه اندلسى المولد والنشأة والوطن .

وقد ألف الرازي فى جغرافية الاندلس - فهو فى كتابه « اخبار ملوك الاندلس » يحدد موقع شبه الجزيرة الايبيرية من الاقاليم ، وهيئتها ، فيقول انها هيئة « مركنة ذات ثلاثة اركان » أى مثلثة ، ثم يعقد فصلا للمناخ شبه الجزيرة ، ويقسم الاندلس الى اقليمين متباينين من حيث المناخ « فى اختلاف هبوب ارياحها ، ومواقع امطارها ، وجريان انهارها : أندلس غربى ، واندلس شرقى ، فالغربى منها ماجرت أوديته الى البحر المحيط الغربى ، وتمطر بالرياح الغربية ، والحوز الشرقى المعروف بالاندلس الاقصى ، وتجري أوديته الى الشرق ، وأمطاره بالرياح الشرقية » . ثم يتحدث عن انهار الاندلس وجباله بدقة علمية هى موضع تقدير العلماء المعاصرين ، فاذا فرغ من هذه المعلومات عن جغرافية الاندلس الطبيعية ، انتقل الى القسم الاكثر أهمية وهو جغرافية الاندلس السياسية والبشرية ، فقسم الاندلس الى كور ومدن ، ثم تناولها بالوصف العلمى الشامل ، بحيث لا يمكن أن يضاف اليوم الى وصف جغرافى جامع مختصر لاندلس الاسلامى شىء كثير مما فعل فى كتابه .

على أن القرن الممتد من ٤٥٠ - ٥٥٠ هـ (١٠٥٨ - ١١٥٥) م يعتبر فترة متميزة من نالق الانتاج الفكرى الاندلسى ، يتمثل ذلك فى صورة التأليف العلمى ودقته وتخصصه ، وفى وفرة انتاج اعلام الكتاب والمؤلفين والباحثين ، وفى لكامل الجهود فى مختلف ضروب العلم حتى لا يكاد يخلو ضرب منه ، من مؤلفات مجيدة مبرزة . وتجلى ذلك بخاصة فى الرسائل المختصرة التى تعالج موضوعا بعينه ، بحيث أصبحت تلك الدراسات فنا مستحدثا : منهجا واسلوبا وموضوعا .

في هذه الحقبة ظهر الشريف الادريسي وهو بحق أول جغرافي متخصص في هذا العلم، فلقد فاق في هذا الميدان بطليموس، وزاد عليه، وأخرج في الجغرافية ما لم يخرج عالم قبله، وبذلك رفعها إلى مصاف العلوم الميدانية، منهجا وتناولا، واستيعابا...

وظهر قبل الرازي وبعد الادريسي اعلام من الجغرافيين الاندلسيين، منهم على سبيل المثال قاسم بن أصبغ البياضي، والوراق أبو عبد الله محمد بن يوسف، وإبراهيم بن يعقوب الطرطوشي، وأحمد بن عمر بن أنس العنزي، وأبو عبيد البكري، وعبد الله بن إبراهيم بن وزمر الحجاري، وابن بشكوال، واليسع بن عيسى بن حزم الغافقي، وأبو حامد الغرناطي وسواهم كثيرون.

وقد عكف على دراسة موضوع الجغرافيا والجغرافيين في الاندلس المؤرخ العربي الاستاذ الدكتور حسين مؤنس، حين كان مديرا لمعهد الدراسات الاسلامية في مدريد، في فترة من السنوات الستينات. وكان من حصاد بحوثه ودراساته، هذا الكتاب الذي نشره للمرة الاولى في مدريد لسنة ١٣٨٦ هـ - ١٩٦٧ م، بعنوان «تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الاندلس».

ولاهمية هذه الدراسة، وعمقها، وضافتها الجديد، في إسهام الفكر العربي في تاريخ العلوم، استأننت المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، الاستاذ المؤلف في إعادة طبع الكتاب، وقد وافق كرّما، بعد أن أضاف إلى الطبعة الاولى، ما رآه محققا لهدف الكتاب.

وإني، إذ أقدم هذا السفر الجليل، في طبعته الجديدة المنقحة، إلى القارئ العربي في اعتزاز، بما يمثله من منهجية علمية، ومن جهد أمين، قام عليهما قادرا المؤرخ العربي الكبير، الصديق الاستاذ الدكتور حسين مؤنس، إضافة جديدة إلى ما أسهم وأبدع ويسهم ويبذل في الثقافة العربية الاسلامية، فاني أقدم اليه بالشكر المستحق على العمل النافع الذي قسّم لأمته ولثقافتها.

والله يعين على الخير ويهدي اليه.

مقدمة الطبعة الثانية

"حمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، الرحمة المهداه .

أما بعد ، فقد صدرت الطبعة الاولى من هذا الكتاب فى مدريد فى يناير سنة ١٩٦٧ ، ولقيت لأول صدورها من حسن قبول الناس ماعوضنى خير العوض عن الجهد الشاق الذى بذلته فى كتابته . وقد فتحت به بابا جديدا من ابواب البحث فى تاريخ الجانب العلمى من الحضارة الاسلامية الزاهرة ، فأن الجغرافية كانت من ابواب العلم التى أجاد المسلمون فيها بل ابدعوا ، وقد ذهب بعض الباحثين الغربيين إلى ان الاغريق والرومان سبقوا العرب فى وضع اساس هذا العلم ، وزعم بعضهم أن العرب اخذوا علم الخرائط ورسمها من الاغريق ، وان خرائطهم قامت على اساس خرائط بطليموس ، فأثبتنا فى هذا الكتاب بالبرهان العلمى القاطع ان الخرائط التى تنسب إلى بطليموس القلوذى Claudios Ptolemaios هى اساسا خرائط الادريسي . فأن خرائط بطليموس ضاعت ولم يعثر عليها ، واثبتنا ان الخرائط التى نشرها ايرازموس ومن جاء بعده من الذين تولوا نشر جغرافية بطليموس وخرائطها ابتكروا هذه الخرائط ورسموها على اساس من خرائط الادريسي ، وبهذا يكون الشريف الادريسي اول من رسم خرائط للارض والاقاليم وصلت إلينا .

وقد ادخلنا الادريسي فى زمرة الجغرافيين الاندلسيين لأنه ينحدر من شجرة الحموديين الادارسة الملقبين الاندلسيين ، وهو قمة الجغرافية الاسلامية — مشرقية ومغربية واندلسية — وخصصناه لهذا بدراسة موسعة فى كتابنا هذا ، ولهذا ايضا فقد ادخلنا بين الجغرافيين الاندلسيين محمد بن عبد المنعم الحميرى وابنه محمد مع انهما مغربيان من سبته ، ولكنهما ينحدران من شجرة العلم الاندلسي ، وقد صنف ابن عبد المنعم الحميرى معجمه الجغرافى المسمى « بالروض المعطار فى خبر الافطار » شاملا العالم الاسلامى كله ، ولكن مواده الاندلسية من أوفى مالدينا عن الاندلس ، فاستحق الحميرى بهذا ان يُسَلِّكَ فى نظام الجغرافيين الاندلسيين .

وقد تفضلت المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم فتبنت إعادة طبع هذا الكتاب الذى نفذت طبعته الاولى من زمن طويل واشتدت الحاجة اليه . ولما كان صلب الكتاب سليما لم ينقصه شئ ذوبال من تاريخ الجغرافية والجغرافيين فى الاندلس ، فقد رأينا ان يكون الطبع بطريق التصوير (الافست) بعد تصحيح الاخطاء المطبعية وتعديل بعض الفقرات . وجعلنا ما طرأ لنا من الاضافات الطويلة ، وكذلك الكلام على ما أضاف الباحثون الآخرون بعدنا من ابحاث ودراسات قيمة وما تضمنته من معلومات ودراسات ظهرت بعد طبع كتابنا ، جعلنا ذلك كله فى ملاحق اضعناها ذولا فى آخر الكتاب ، واشرنا الى كل ذيل فى الفصل الخاص به فى صفحات المتن ، ولهذا فأننا نرجو القارئ أن ينظر فى الملاحق وهو يقرأ المتن حتى لا يقع فى أذهان بعض الاخوة أننا لم نطلع على ما كتبوا أو اغفلناه ، ونحن والحمد لله أبعد مانكون عن ذلك .

ولم نستطع أن تزيد عدد الخرائط المنشورة فى ذيل الاصل ، ولكننا استكملنا ذلك فى باب « علم الخرائط الجغرافية عند المسلمين » من « اطلس التاريخ الاسلامى » الذى يظهر هذا العام إن شاء الله .

وقد نشرنا بعد ظهور الطبعة الاولى من ذلك الكتاب نص وصف الادريسي لمصر مقتبسا من الطبعة الكاملة لنزهة المشتاق النى نشرتها جمعية المستشرقين الايطاليين ، وكان لى شرف المساهمة فيها بنشر الأجزاء الخاصة بمصر ، ثم عدت بعد ذلك فنشرت ترجمة انجليزية لها مع تعليقات منا منافية عليها فى عدد من متتاليين من مجلة Studi Maghibini الإيطالية .

وبعد فلا يسعنى فى ختام هذا التقديم للطبعة الثانية الا أن أسكر المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ومديرها الأخ الكريم العلامة الدكتور محيى الدين صابر على التفضل بأعادة نشر هذا الكتاب ، واخراجه فى ذلك الثوب الفشيب بعناية السيد ابراهيم فريح ومطبعته الفنية بالقاهرة .

والحمد لله فى البداية والنهاية ، فهو سبحانه من وراء القصد والنية وهو الموفق إلى كل خير وصاحب كل نعمة ، وباسمه بدأنا وباسمه نختم .

د . حسين مؤنس

عضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة
الاساذ بجامعة القاهرة

القاهرة ، جمادى الأولى ١٤٠٦

يناير ١٩٨٦

مقدمة الطبعة الاولى

—

كلامنا عن العلوم عند العرب كثير ، وحديثنا عن فضلهم على الحضارة العالمية أكثر ، ولكننا إذا استثنينا قلائل منا صرفوا العناية إلى التأليف في العلوم عند العرب وخدموا هذا المطلب بالبحث والتأليف من أمثال أحمد عيسى ومصطفى نظيف ومصطفى الشهابي ونفيس أحمد وركي وليدى وبهجة الأثرى وقدرى حافظ طوقان ونقولا زيادة وغيرهم من أجلاء العلماء ، وجدنا أن معظم ما نفخر به في هذا المجال إنما هو من كشوف غيرنا من أمثال جيورج روشكا وهانز فون بيجيك وجورج سارتون ونرثر نالينو وبول كراوس وألدو ميبلي وهابنريش سوتر وماكس مايرهوف وكونراد ملر وخوان بيرنيت وغيرهم كثيرين جداً ممن انفقوا — وينفقون — العمر في دراسة المخطوطات العربية في العلوم وحل رموزها وإثبات فضل العرب وأهل الإسلام على هذا العلم أو ذاك بالحجة البالغة والبرهان الناطق .

وهذا هو الذى حدانى إلى تجشم متاعب تأليف هذا الكتاب ، فقد رأيت أن واجبنا نحو العلم الذى نخدمه ونحو العرب الذين ننسب إليهم أن نؤدى واجب العرفان بالجميل نحو رجال أكرمونا بجهودهم ورفعوا مقامنا بين الأمم بما وصلوا إليه من الفتوح في ميادين العلوم .

ورأيت في نفس الوقت أن أجعل هذا العمل بحثاً في الملكية العامة العربية وحدودها وطاقاتها وما استطاعت الوصول إليه ، فإن نفرأ من الناس زعموا أن دور العرب في ميدان العلوم دور نقل ولا زيادة : تساموا من اليونان والهنود والفرس وغيرهم ، ثم أساموا ما نقلوا كما هو إلى شعوب أوربا عند النهضة ، فبدأ لي أن أقطع الشك باليقين عن طريق دراسة كاملة في تاريخ علم أملك وسائل دراسته ، ثم أعرض النتائج بعد ذلك على الناس ليروا بالدليل الواقع مبلغ ما وصلت إليه العبقريّة العربية في الميدان الأكبر لتفاضل الأمم وهو العلم كما يقول صاعد بن أحمد الطليطلي رحمه الله .

وقد اخترت الجغرافية إذ هي توأم التاريخ في طبيعتها وتاريخها : ثم إن لي إليها مداخل وبها اتصال بحكم العمل في التاريخ ، وقد رأيت مع هذا أن أبدأ بدراسة العلم الجغرافي نفسه وأقرأ فيه بتوسع لأعرف حقائقه ومعناه ومناهجه وأهدافه وحدوده وأبعاده وتاريخه ، فقرأت في ذلك ما تيسر من أعمال ديمارتون وفليور وفيدال لبلاش وهبولت ومن في طبقتهم من أعلام الجغرافيين المحدثين ، وعلى هدى ما قرأت مضيت في أعقاب الجغرافيين العرب ، واقتصرت منهم على أهل الأندلس ، لأنني قدّرت أن الاقتصار على بلد عربي واحد أخرى بأن يوفى بي على ما طلبت من الاتقان والشمول ، وأعان الله فوجدت المادة ذات سعة والحصول وافراً فمضيت على بركة الله .

وقد طال البحث وامتد وتشعب ، فمضيت معه حيث تطلّب ، وخرجت منه آخر الأمر بأن فضل العرب على العلم الجغرافي يفوق في الحقيقة كل ما قيل إلى يومنا هذا ، فإن كل ما وصل إليه تجييك وكراشكوفسكي وكرامرز ودوبلر لم يتعد الظاهر في معظم الحالات ، ولا نقول هذا غمطاً لجهود أولئك الأساتذة الأجلاء ، فنحن العرب نعرف الفضل وأهله ولا ننكر لأحد يداً منها صغرت ولكن لكل رجل حدوده ، ومن الشطط أن نطلب إلى رجل مثل كرامرز

أن يقرأ كل ما كتب أبو عبيد البكري مثلاً ليقدر ملكته الجغرافية تقديراً سليماً ، فقد كتب البكري مئات الصفحات في ذلك العلم ، ولم يكن من الممكن بداهة أن يقرأ كرامرز ذلك كله ، وهو مشكور ألف مرة على ما فعل .

أقول اننى خرجت من هذا البحث بأن دور العرب في تاريخ العلوم أكبر وأوسع مما كنا نقول ، لأن ما وصل إليه الجغرافيون في بلد عربي واحد — هو الأندلس — يعتبر بالفعل صفحة بيضاء تزهى بها الانسانية كلها . والجغرافية كانت في العصور الوسطى عاملاً لا يدر كسباً ولا يخلع على صاحبه جاهاً أو يفتح له طريقاً في الحياة ، وقد كنا نقول أن دافع العرب إلى الاشتغال بالجغرافية هو معرفة طرق الحج ، فثبت لنا من هذا البحث أن أدلاء القوافل ما كانوا يقرأون كتب الجغرافيين أو أوصاف الرحلات ، ولعل معظمهم لم يسمع في حياته باسماء مثل ابن خرداذبة أو ابن رسته أو البكري أو الإدريسي ، لأنهم — أى الادلاء — يسبرون في الطرق بفضل التجربة والمشاهدة لا بقراءة الكتب ؛ ثم ان كتب الجغرافية لم تكن مما يدرس في حلقات الشيوخ ، ولم يكن التجويد فيها مما يحشد أصحابها في زمرة العلماء ، بل كان حرياً بأن يسلكهم في جملة الخليلين الذين يصرفون جهدهم إلى ما لا ينفع ، وقد بلغ الأمر بأحد المشتغلين بالجغرافية وهو محمد بن عبد المنعم الحيرى إلى حد أن اعتذر في فاتحة كتابه عن اشتغاله بتأليف المعجم الجغرافي المعروف باسم « الروض المعطار في خبر الأنطار » وقال — كأنه يطلب الصفح عن جرم ارتكبه : « ومع هذا فقد لمتُ نفسي على التشاغل بهذا الوضع الصاد عن الاشتغال بما لا يغني عن أمر الآخرة والمهم من العلم المزلّف عند الله تعالى ، وقلت : هذا من شأن البطالين وشغل من لا يهمه وقته ؛ ثم رأيت ذلك من قبيل ما فيه ترويح لهذه النفوس ، ومن حسن تعليلها بالمباح حتى تنشط إلى ما هي به أعنى ، ثم هو مهيج يسلكه الناس واعتنى به طائفة من العلماء وقيده جماعة من أهل التحصيل ، فلا حرج في الاقتداء بهم بل أقول : أعوذ بالله من علم لا ينفع ! وأسئغفره وأسئغياه ،

وأسأله التجاوز عن الهفوات ، والصفح عن الاشتغال بما لا يفيد في الآخرة ،
 فيارب عفواً عن اقتراف ما لا رضى لك فيه ، فأنت على كل شيء قدير! » .
 ومن هنا فإن الذين طلبوا الجغرافية وألفوا فيها من العرب إنما دفعهم
 إلى ذلك الشغفُ بالعلم والرغبة في المعرفة لوجهها لا لكسب أو جاه ، ومن هنا
 يكون اشتغال العرب بها دليلاً ناطقاً على ملكة عالمية أصيلة في نفوسهم ،
 ويكون ما وصلوا إليه من الفتوح ثمرة النزوع العالى الصادق والرغبة في كشف
 المجهول وتبديد الظلمات ، وهذه أجل نزعة عند البشر وأكثرها دليلاً على
 إنسانية الإنسان .

وإذا كان هذا مبلغ ما وصلت إليه الملكة العالمية العربية في ذلك العلم رغم
 ذلك ، فما بالك بما وصلت إليه في علوم كانت تدر الأرزاق وتفتح أبواب الجاه
 كالطب والأعشاب والهندسة والكيمياء والفقه والأدب والتاريخ وما إليها ؟
 إلى هنا أقف بهذا التقديم ، إذ لا معنى للأطالة والكتاب بين يدي
 القراء يقرأون فيه ما يشاءون متفضلين ، رزقه الله منهم القبول .
 هذا وفاء بدين نحو الماضين ، فأرجو أن يكون جديراً بما طلبتُ به
 وأهلاً لأن يهدى إلى الناس في عصر العلم والنور .
 وقد وقفت على تصحيح تجارب الطبع بنفسى ، ونورُ البصر قليل ، فربما
 شرد خطأ في لفظ أو وقع سهو في اسم علم فاسأل القارئ التجاوز ، وأقدم
 له الشكر الصادق على تحمل عناء الرحلة في هذه الصفحات .
 والله المستعان سبحانه ، له الحمد والمنة في البداية والنهاية ، والسلام م

مدريد في رمضان ١٣٨٦ الموافق يناير ١٩٦٧

حسين مؤنس



(١) صورة الأرض للأدريسي ، تقلا عن رسم لها نشره الجميع العلمي المراق

رجاء إلى القارئ الكريم

اضفت في نهاية هذه الطبعة الثانية تعقيبا استدركت فيه
أهم ماجد في ميدان دراسات الجغرافية في الاندلس منذ
صدور الكتاب في طبعته الاولى. فارجو القارئ التفضل
بمراجعة هذا التعقيب ومواد هذا التعقيب مرقمة بحسب
ترتيب فصول هذا الكتاب ،

« المؤلف »

أصول التأليف الجغرافي عند الأندلسيين

تمهيد : ١ — الجغرافية عند المساميين وراث الهنود والفرس واليونان

ظهر علم الجغرافية في الأندلس مع علم التاريخ في آن واحد كما هو الحال في المشرق ، فكما كان هشام بن محمد السائب الكلبي (توفي ٢٠٤ أو ٢٠٦) وأبو حنيفة الدينوري (توفي ٢٨٢ / ٨٩٥) وابن قتيبة (توفي ٢٧٦ / ٨٨٩) وابن واضح اليعقوبي (توفي ٢٨٤ / ٨٩٧) وغيرهم من رواد علم التاريخ في المشرق رواداً لعلم الجغرافية في نفس الوقت ، وأثرت عنهم وعن معاصريهم المؤلفات الصغيرة والكبيرة في هذه الناحية أو تلك من نواحي جغرافية الجزيرة العربية والعالم الإسلامي^(١) ، فكذلك كان أول مؤرخ أندلسي كبير وهو أحمد ابن محمد الرازي مؤرخاً وجغرافياً . بل هو الذي وضع أساس هذين العلمين في الغرب الإسلامي .

ذلك أن التاريخ والجغرافية كانا في نظر العرب فرعين متلازمين من شجرة المعارف العامة التي كانت تسمى « الأدب » بصورة عامة ، فكما كانت من الضروري للعربي أن يعرف لغته ، نثرها ونظمها وشعراءها وكتابتها ، فكذلك

(١) راجع في هذه النقطة ما كتبه نفيس أحمد في كتابه القيم « جهود المسلمين في الجغرافيا » ترجمة فتحى عثمان (مجموعة الألف كتاب ، رقم ٢٧٢) القاهرة ، بدون تاريخ ، وخاصة الفصل الثانى س ٤٢ وما يليها .

كان لا بد له أن يعرف أنساب العرب وأخبارهم وسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وأخبار الفتوح الإسلامية وتواريخ الخلفاء والدول ، وكان لازماً عليه — إكمالاً لتفاوته — أن يعرف بلاد الإسلام ومدائنها والطرق إليها مع ما ييسر من أحوال أهلها وصفاتهم وعاداتهم . ومن هنا فإنه من العسير أن تفصل بين المؤرخ والجغرافى والأديب فى تاريخ الفكر الإسلامى . ولو أننا تناولنا كتاباً أدبياً صرفاً كالبيان والتبيين للجاحظ ودرسناه دراسة تدقيق لاستخرجنا منه من المعلومات التاريخية الصرفة والملاحظات الجغرافية الخالصة ما يضع أباً عثمان عمرو بن بحر فى صفوف المؤرخين والجغرافيين . وقد أفاض فى هذه الناحية شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت الحموى فى فاتحة « معجم البلدان »^(١) .

وإن من يقرأ هذه المقدمة وما يماثلها من مقدمات كتب البلدان كفاتحة « أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم » لأبى عبد الله محمد بن أحمد المقدسى ليتبين بوضوح أن الاتجاه إلى التأليف فى الجغرافية لم يصدر عند المسلمين عن مجرد الرغبة فى معرفة طرق الحج ، كما يذهب عامة المؤلفين الغربيين المحدثين ومن تابعهم من كتاب العرب ، فإن طرق الحج كانت معروفة مقررة لا يحتاج طالب الحج إلى الاطلاع على كتاب ليعرفها ، ثم إن الحاج كان يخرج فى ركب كبير يقوده أدلاء عارفون بالطرق ومسالكها ، وقلما كان أولئك الأدلاء ممن يقرأون الكتب . ومن المستبعد أن نتصور أدلاء قوافل الحج يسرون على هدى ما كتبه الاصطخرى وابن رسته مثلاً ، بل الأصح أن مؤلفى هذه الكتب كانوا يسترشدون بالأدلاء فيما يكتبون . إنما صدر التأليف فى الجغرافية عند المسلمين عن ذلك النزوع العام نحو المعرفة الذى امتازت به أمة الإسلام فى عصر

(١) ياقوت الحموى ، كتاب معجم البلدان ، طبعة الساسى ، القاهرة ١٩٠٦ ، ج ١ ص ٢ وما يليها .

النهوض ، وهو مظهر من مظاهر الشعور بالعزة الذى يصاحب الأمم الصاعدة ، والعلم — كما يقولون — سيادة^(١) .

ولو أن العلم الجغرافى عند المسلمين سار فى طريقه وتطور فى اتجاهه البسيط الأول ، وهو جمع المعلومات عن الأرض وأهلها لكان توفيق المسلمين فى ميدان الجغرافية أعظم مما وصلوا إليه ، ولما وقعوا فى أخطاء كبيرة فى تحديد المواقع والتعريف بمواضع القارات والمحيطات وبحارى الأنهار وما إلى ذلك . ولكن اتصالهم بإيران والهند جلب إليهم نظريات جديدة أصبحت بعد ذلك أساساً لاتجاه جديد للتأليف الجغرافى عندهم ، وهو الاتجاه الكونى أو الفلكى الذى سنشير إليه بعد قليل ؛ وعلى الرغم من أن بعضهم استبان أن هذا الاتجاه الهندى الإيرانى يقوم على نظريات وهمية لا تستند إلى أساس من بحث أو تحقيق ، فإنهم مضوا فيه وزادوا عليه ، واجتهد بعضهم فى ضبطه وتحقيقه فلم يصلوا إلى نتيجة ، لأن الأساس نفسه كان خاطئاً .

(١) راجع مثلاً قول المقدسى فى مقدمة أحسن التقاسيم : « وجدت العلماء قد سبقوا إلى العلوم ، فصفوا على الابتداء ، ثم تبعهم الأخلاف فشرحوا كلامهم واختصروه ، فرأيت أن أقصد علماً قد أغفلوه ، وأفردت بهن لم يذكره إلا على الإخلال ، وهو ذكر الأتالم الإسلامية وما فيها من المفاوز والبحار والبحيرات والأنهار . . . وعلمت أنه باب لا بد منه للمسافرين والتجار ، ولا غنى عنه للصالحين والأخيار ، إذ هو علم ترغب فيه الملوك والكبراء ، وتطلبه القضاة والفقهاء وتجهبه العامة والرؤساء . . . » .

تحقيق دى خوية (الطبعة الثانية ١٩٠٦ ، ص ١ و ٢)
وقول ابن حوقل فى مقدمة صورة الأرض : « وكان مما حضى على تأليفه وحضى على تصنيفه وجذبني إلى رسمه أننى لم أزل فى حال الصبوة شغفاً بقراءة كتب المسالك ، متطلعاً إلى كيفية البين بين الممالك فى السير والحقائق ، وتباينهم فى المذاهب والطرائق . . . وترعرعت فقرأت الكتب الجليلة المعروفة والتواليب الشريفة الموصوفة ، فلم أقرأ فى المسالك كتاباً مقنعاً ، وما رأيت فيها رسماً متبعاً ، فدعاني ذلك إلى تأليف هذا الكتاب . . . » .

صورة الأرض ، تحقيق ج. هـ. كرامرز ، لايدن ١٩٣٨ ، ج ١ ص ٣
وانظر أيضاً فى هذا المعنى مقدمة كتاب البلدان لأحمد بن واضح الكاتب المعروف بالعقوبى ، لايدن ١٨٦٠ ص ٢ — ٣

وأهم هذه النظريات تقسيم الأرض إلى أقاليم سبعة ، والقول بأن للأرض خط طول رئيسياً يمر بما سموه « قبة العرين » وهو تحريف لاسم موضع زعموا أن الهنود أقاموا فيه مرصداً اتخذوه أساساً لخطوط الطول الأخرى ، مع أن « العرين » هذا كان اسماً اصطلاحياً لجزيرة وهمية بين الهند والحبشة ذكرها ديودور الصقلي باسم أورانوس . وعلى أساس هذا الوهم رسموا خطوط طول وهمية حافلة بالخطأ ، وجعلوها تتقاطع مع خطوط عرض وهمية هي الأخرى أخذوها من حدود الأقاليم السبعة وأجزائها ، واجتهدوا في أن يضعوا المعالم الجغرافية على هذه الشبكة التخيلية ، فكان من ذلك أن اضطربت صورة الأرض في أذهانهم .

وزادهم استمساكاً بهذه النظريات نقل كتابي الجغرافية والمجسطى لبطليموس الاسكندري إلى العربية ، فقد فتنوا بهما وترجموها أكثر من مرة خلال القرن التاسع ومنتصف العاشر ، وزادهم إقبالا على بطليموس أنهم وجدوه يؤكد نظرية الأقاليم السبعة ويكمل ما أخذوه من الهنود بمعلومات طريفة عن الجانب الغربي للأرض ، ويربط بين الأجرام السماوية والأماكن الأرضية ، فثبتوا على القول بذلك ونقلوا عن بطليموس نقولا بحرفة جعلت معلوماتهم خارج مملكة الإسلام مجموعة أوهام وتصورات وعجائب وخوارق ، هذا إلى الخلط الشديد في تحديد مواضع الأمكنة والبقاع داخل العالم الإسلامي نفسه ، ومن هنا فإن سلسلة الجغرافيين الفلكيين التي تبدأ بمحمد بن موسى الخوارزمي صاحب كتاب « صورة الأرض » تعتبر من أقل ما ألف المسلمون في الجغرافية قيمة من الناحية العلمية . ومع أن المدققين المحققين من علماء الإسلام استبانوا فيما بعد خطأ الجغرافية البطليموسية ، فإنهم لم يستطيعوا التحلل من القول بالأقاليم السبعة وخطوط الطول الوهمية وتشويش أذهانهم بها . ومثال ذلك أن أبا الريحان البيروني استبان خطأ الحساب البطليموسي ، وتبين أن هناك أماكن كثيرة « نجدها

الآن مبينة في الجغرافية البطليموسية إلى الشرق من أماكن أخرى في حين أنها تقع إلى غربها والعكس بالعكس » إلا أنه استمر يقول بالأقاليم السبعة مما عرضه لكثير من الخطأ^(١).

بيد أن البيروني استطاع بعقريته الفذة أن يعود بعلم الجغرافية عند العرب إلى قواعده الأولى : قواعد المشاهدة والرحلة والتجربة الشخصية ، فقد رحل

(١) كان وصول آراء الهنود والإيرانيين في الفلك والجغرافية إلى العرب سابقاً على معرفتهم لأراء الإغريق ، فقد ترجم المسلمون كتابي الساهدانتا (السند هند) وأركان الدين ألفها براهما جوبتا حوالي سنة ٧٧١/١٥٤ وقام على الترجمة نفر من الهنود ورواد الفلك والجغرافية المسلمين مثل ابراهيم ابن حبيب الفراري وبعقوب بن طاروق وغيرها . وعن الهنود أخذ العرب القول بالخط الذي يقسم القبة السماوية ويمر بموقع أرين أو العرين . ثم قسموا دائرة القبة بعد ذلك إلى ٣٦٠ قسماً سمي كل قسم منها درجة ويمر بكل منها خط من خطوط الطول ، أما كلاوديوس بطليموس الاسكندري فقد عاش في القرن الثاني المسيحي ، وقد عرف العرب مؤلفه الرياضي الكبير « جامع الرياضيات He Mathematike Syntaxis » الذي اشتهر بعد ذلك باسم Magiste وعربه العرب أيام المأمون إلى المجسطى وعنده أخذ علماء أوروبا في العصور الوسطى ذلك الكتاب باسمه العربي Almageste . وقد جمع بطليموس فيه كل النتائج التي وصل إليها سابقوه من الفلكيين الإغريق وخاصة هيباركوس . أما كتاب بطليموس الثاني الذي يسميه المسلمون « جغرافياً » فهو كتاب « دليل الجغرافية Geographike Huphegesis » ولم ينشر نصه الإغريقي إلا في سنة ١٥٣٣ في مدينة بازل بسويسرا بتحقيق ارازموس ، أما قبل ذلك فقد كان عماد الناس في الرجوع إليه على ترجمات لاتينية عملت مباشرة أو عن العربية ، وسبب أهميته أنه قال لأنه لا يمكن رسم خريطة للأرض إلا على أساس تقسيمها إلى أقاليم Klimata أي مناطق عرضية ، وقد أخذ هذا القول عن هيباركوس . أما خطوط الطول فيجتمل أن يكون قد أخذها عن هيباركوس أيضاً ، وهذا أخذها عن مريئوس الصوري ، وهو الذي نقل هذا المفهوم الهندي إلى الإغريق ناقلاً الخط الرئيسي من قبة العرين إلى جزائر الحالدات أو فرطناطش . وقد جعل بطليموس خط الاستواء أعلا بكثير مما هو في الحقيقة ، ثم تصور حدود الأقاليم السبعة بعد ذلك موازية له شمالاً . وجغرافية بطليموس ليست إلا جدولاً لتقسيم سطح المعمور من الأرض مع ذكر أسماء البلاد والنواحي في منطقة البحر الأبيض على الخصوص ، ولكنه لا يعطى أى تفاصيل عن المناخ أو السكان أو النبات والحيوان ، وقد أكل العرب ذلك بمعلوماتهم الواسعة عن نواحي المعمور .

Cf. M. Ninek, *Die Entdeckung Europas durch die Griechen*, Basel 1945.

O. Cuntz, *Die Geographie des Ptolemaios*, Berlin 1923.

H. Berger, *Geschichte der wissenschaftlichen Erdkunde der Griechen*, 3 Bände, Leipzig, 1903.

Ruska, Georg, *Zur geographischen literatur im islamischen Kulturbereich*. Geographische Zeitschrift, Band 33 (1927) pp. 517-589.

بنفسه إلى البلاد التي كتب عنها وسأل واستقصى ، ودون ثمرة ذلك في كتب فريدة في نوعها مثل « تحقيق ما للهند من مقولة ، مقبولة في العقل أو مرذولة » وصنع بيده أدوات الرصد التي أقام عليها كتابه « القانون المسعودى » وسار على منهج الجاحظ في التأمل والمشاهدة . ووصل إلى ما لم يصل إليه العلم الحديث إلا بعد قرون ، كالقول بأن الكثير من الأرضين كانت أصلها قيعان بحار ، فقال مثلاً « فهذه بادية العرب ، وقد كانت بحراً فأنكبس ، حتى أن آثار ذلك ظاهرة عند حفر الآبار والحياض بها ، فإنها تبدى أطباقاً (= طبقات) من تراب ورمل ورضراض ، ثم فيها من الخزف والزجاج والعظام ما يمتنع أن يُحمل على دفن قاصد إياها هناك ، بل تخرج منها أحجار إذا كسرت كانت مشتملة على أصداغ وودع وما يسمى آذان السمك ، إما باقية على حالها وإما بالية قد تلاشت ، وبقي مكانها متشكلاً بشكلها »^(١) .

والبيرونى يجرى هنا على الطريقة العقلية الواقعية التي سار عليها رواد الجغرافية العربية ممن نهضوا بذلك العلم العربى الصرف الذى عرف بالمسالك والممالك ، وما أشبه منهجه في المثل الذى ضربناه بمذهب ابن رسته في التدليل على كروية الأرض : « أجمعت العلماء على أن الأرض أيضاً بجميع أجزائها من البر والبحر على مثال الكرة ، والدليل على ذلك أن الشمس والقمر والكواكب لا يوجد طلوعها ولا غروبها على جميع مَن في نواحي الأرض في وقت واحد ، بل يُرى طلوعها على المواضع المشرقية قبل غيوبتها عن المغربية . ويتبين ذلك من الأحداث التي تعرض في العلو ، فإنه يُرى وقت الحدث الواحد مختلفاً في نواحي الأرض ، مثل كسوف القمر ، فإنه إذا رُصد بين بلدين متباعدين بين المشرق والمغرب ، فوجد وقت كسوفه في البلد الشرقى منهما على ثلاث ساعات من الليل مثلاً ،

(١) انظر الفصل القيم عن البيرونى في كتاب « جهود المسلمين في الجغرافيا » تأليف نفيس أحمد وترجمة فتحى عثمان (مجموعة الألف كتاب ، رقم ٢٧٢) . القاهرة ، بدون تاريخ .

أقول : وُجد ذلك الوقت في البلد الغربي على أقل من ثلاث ساعات بقدر المسافة بين البلدين ، فتدل زيادة الساعات في البلد الشرقى على أن الشمس غابت عنه قبل غيوبتها عن البلد الغربى^(١) « فأين هذا من قول المسعودى في « التنبيه والاشراف » ناقلًا عن اليونان ومتابعًا لهم في مذاهبهم الفلكية الرياضية ومجملًا بعض آرائهم : « قد تنازع الناس في الفلك ممن سلف وخلف ، فقال أفلاطون وثامسطيوس والرواقيون وعدَّة ممن تقدم عصر أفلاطون وتأخر عنه من الفلاسفة : إنه من الطبائع الأربع التي هي الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة ، إلا أن الغالب عليه النارية ، وليست ناريته محرقة ، إنما هي مثل النار الغريزية في الأبدان. وقال آخرون : إنه من النار والهواء والماء دون الأرض . وذهب ارسطاطاليس وأكثر الفلاسفة ممن تقدم عصره وتأخر عنه وغيرهم من حكماء الهند والفرس والكلدانيين إلى أنه طبيعة خاصة خارجة عن الطبائع الأربع ، ليست فيه حرارة ولا برودة ولا رطوبة ولا يبوسة ، وأنه جسم مدور أجوف يدور على محورين وهما القطبان ، أحدهما رأس السرطان ، ومنتهى « بنات نعش » من تلقاء نقطة الجنوب ، والآخر رأس الجدى ، وفيه كواكب مثل « بنات نعش » من تلقاء نقطة الشمال . وخط الاستواء في وسط الفلك ، وهو خط ما بين الشمال والجنوب ، وأوسع موضع فيه من نقطة المشرق إلى نقطة المغرب . وهو منقسم بأربعة أرباع ، كل ربع منها تسعون درجة على خطين يتقاطعان على مركزه ، وهو موضع الأرض ، منه أحد الربعين ، وهو أحد القطبين ، نقطة الشمال وبأزائه نقطة الجنوب . والربع الثالث نقطة المشرق ، وبأزائه نقطة المغرب . وهو يدور دورانًا طبيعيًا دائمًا ، وبدورانه ودوران الكواكب التي فيه تنفعل الكيفيات ، وانبسطت الأركان

(١) ابن رسته ، أبو علي أحمد بن عمر ، كتاب الأعلاق النفيسة . نقل هذه الفقرة ر. بلاشير و ه. درمون في « منتخبات من آثار الجغرافيين في القرون الوسطى » ، الطبعة الثانية ، باريس ١٩٥٧ ، ص ٤٢ — ٤٣

الأربعة وهي الماء والهواء والنار والأرض . . . »^(١) . فهذا كلام نقله المسعودي دون أن يحققه ، إذ هو مستحيل التحقيق .

وهذه الآراء وأمثالها هي التي أضعفت التفكير الجغرافي عند المسلمين وأضاعت جهد الكثيرين من علمائهم ، وجعلت العلم الحديث ينظر إليها على أنها أوهام لا تدرس إلا في مجال البحث عن تاريخ علم الجغرافية وآراء القدماء فيه ، في حين أن كلام ابن رسته الذي ذكرناه حقيقةً عامية ثابتة اليوم يتعلمها التلاميذ في المدارس .

ومن هنا فإن الخط الحقيقي للجغرافية الإسلامية هو خط « المسالك والممالك » و « البلدان » أو « البرود » ، فهو خط سليم قائم على الرحلة والملاحظة وسؤال أهل البلاد وتحقيق ما يدلون به من معلومات ومقارنتها بغيرها ودراسة الكتب السابقة ومراجعتها .

وليس بغريب أن يكون الميلاد الحقيقي لهذا النوع هو نفس ميلاد التاريخ العالمي عند المسلمين ، فإن أول من وضع كتاباً في « البلدان » هو أحمد بن أبي يعقوب ابن واضح الكاتب المعروف باليعقوبي (توفي بعد ٢٧٨ / ٨٩١) وهو واضح أول تاريخ للعالم عند المسلمين . وهذا في ذاته مثال واضح للارتباط الوثيق بين الجغرافية والتاريخ عند المسلمين . وإليك منهج اليعقوبي كما بينه في فاتحة كتاب البلدان ، أثبت فقرات منه لأنه يعين — في نفس الوقت — الاتجاه الذي سارت عليه الجغرافية عند الأندلسيين ابتداء من محمد الرازي وابنه أحمد بن محمد ، قال : « إني عنيت في عنفوان شبابي وعند احتيال سني وحدة ذهني « بعلم أخبار البلدان » والمسافة ما بين كل بلد وبلد ، لأنني سافرت حديث السن ، واتصلت أسفاراً ودام تغربي ، فكنت متى لقيت رجلاً من تلك

(١) المسعودي ، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي : التنبيه والاشراف ، « منتخبات من آثار الجغرافيين في القرون الوسطى » ، ص ٢١٣ — ٢١٤

كتب الرحلات

٩

البلدان سألته عن وطنه ومقره ، وإذا ذكر لى محل داره وموضع قراره سألته عن بلده ذلك فى ... لدته^(١) ما هى وزرعه ما هو ، وساكنيه من هم : عرب أم عجم ؟ ... شرب أهله حتى أسأل عن لباسهم ... وديانتهم ومقالاتهم والغالبين عليه والمتأسيين فيه ... [وما] مسافة ذلك البلد ، وما يقرب منه من البلدان ... ثم أثبت كل ما يخبرنى به من ائق بصدقه ، وأسْتَظْهِرُ بمسألة قوم بعد قوم ، حتى سألت خلقاً كثيراً وعالماً من الناس فى الموسم وغير الموسم من أهل المشرق والمغرب . وكتبت أخبارهم ورويت أحاديثهم ، وذكرت من فتح بلداً بلداً ، وجنّد مصرّاً مصرّاً من الخلفاء والأمراء ، ومبلغ خراجهم ، وما يرتفع من أمواله ، فلم أزل أكتب هذه الأخبار ، وأؤلف هذا الكتاب دهرّاً طويلاً ، وأضيف كل خبر إلى بلده ، وكل ما أسمع به من ثقات أهل الأمصار إلى ما تقدمت عندى معرفته^(٢) ... » .

ومن هذا الاتجاه السليم تفرع أدب الرحلات الذى نعتبره جانباً هاماً من جوانب الجغرافية الإسلامية ، فإن الرحالة جغرافى متنقل ، ووصفُ رحلته مصدر مأمون إلى حد كبير للمعلومات الجغرافية من كل نوع . وإذا كان العربى بطبعه رحالة دقيق الملاحظة متفتح الذهن فقد كان من الطبيعى أن يوفق المسامون فى هذه الناحية توفيقهم فى أدب المسالك والممالك والبلدان ، بل كان توفيقهم فى هذا الميدان أعظم وأبعد مدى ، حتى أصبحت بعض كتب رحلاتهم من معالم الأدب العالمى .

والرحالة المسلمون الذين أثرت عنهم أوصاف لرحلاتهم من كل نوع وصنف من الناس : فيهم الرسول الذى ترسله الدولة إلى ناحية من النواحي للكشف عن مسألة عامية مثل سلام الذى أرسله الخليفة الواثق (٢٢٧/٨٤٢—٢٣٢/٨٤٧)

(١) كذا فى الأصل الذى نشره دى خويه ص ٢ ، والغالب أن هذه بقية كلمة « بلدته » .

(٢) اليعقوبى ، أحمد بن أبى يعقوب بن واضح الكاتب ، كتاب البلدان بتحقيق ميخائيل يانوس

دى خويه ، ليدن ١٨٦٠ ص ٢ — ٣

ليستطلع أمر سد ياجوج وماجوج^(١) . وفيهم صاحب البريد ، أى من المتولين أمور هذا المرفق الهام من مرافق الإدارة الإسلامية الذى يتولى نقل مراسلات الدولة ورُسُلها ، كما نجد عند أبى الفرج قدامة ابن جعفر (المتوفى بعد سنة ٣٢٠ / ٩٣٢) ، فقد تصدى لكتابة موسوعة شاملة لكل ما يحتاج إليه كُتّاب الدولة من المعارف وأسماء « كتاب صناعة الكتابة » اختص منه البرد والطرق بجزء كبير دون فيه معلومات وملاحظات لا تتأنى إلا عن الرحلة والمشاهدة المباشرة ، وهذا الجزء هو الذى نشر بعضه دى خويه (ليدن ١٨٨٩) باسم « كتاب الخراج » . وفيهم الجاسوس الذى ترسله جماعة سياسية دينية لاستطلاع الأخبار وتعرف الأحوال كما نرى فى حالة أبى القاسم محمد بن حوقل النصيبى المتوفى بعد سنة ٣٦٧ / ٩٧٧ . وفيهم الطَّلعة الذى يرحل لجرد الرحلة ويكتب ليشيع رغبة فى نفسه كأبى حامد الفرناطى (٤٧٣ — ٥٦٥ / ١٠٨١ — ١٠٦٩ — ٧٠) ، وفيهم المغامر الذى يتجشم المشاق ويتعرض للأخطار مدفوعاً بشوق عظيم نحو المعرفة كأبى عبد الله محمد بن أحمد المعروف بالمقدسى (توفى بعد ٣٧٨ / ٩٨٨) الذى يبدأ المغامرة فى فاتحة كتابه نفسها ، فينقد سابقه جميعاً فى أسلوب لاذع لا يفرقه له إلا أن كتابه « أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم » أحسن ما ألف المشاركة فى باب المسالك والممالك والبلدان والرحلات . وفيهم السفير الذى يندبه الخليفة للسفارة إلى بلد غريب مثل أحمد بن فضلان (كتب فى أوائل القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى) الذى أرسله الخليفة رسولا إلى ملك البلغار فى حوض الفلجا ، فعاد يحكى غرائب أولع الناس بها وبأمثالها ولعاً شديداً فيما بعد ، مثل خبر السمكة التى تخرج كل يوم للناس من البحر فيقطعون حاجتهم من لحمها ثم تعود إلى الماء لترجع إليهم فى اليوم التالى . وفيهم

(١) أورد طرفاً منها ابن خرداذبة فى المسالك والممالك ، طبعة دى خوية ليدن ١٨٨٩ ص ١٦٢ وما بعدها ، وكذلك الإدريسي فى نزهة المشتاق . وكلامه حافل بأحاديث العجائب التى استهولها الجغرافيون السامون وشكروا فى صدقها .

الملاح الذى يتحدث عن عجائب البحر مثل بُزْج بن شهریار الذى كتب فى نهاية القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى . وفيهم التاجر الذى يقطع آلاف الأميال فى برار وقفار ومخاطر ثم يسجل ذكرياته ومشاهداته ، مثل سليمان التاجر (كتب فى نهاية القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى) وقد وصف فى كتابه « سلسلة التواريخ » الرحلة بالبر إلى الصين والهند عن طريق فارس . ومهما يكن من رأى النقاد المحدثين فى هذه المؤلفات ، فلا شك أنها تعطى فى مجموعها صورة واضحة عن عالم العصور الوسطى سواء داخل مملكة الإسلام أو خارجها ، وهى من هذه الناحية ذات قيمة علمية باقية ، بخلاف ما كُتب اعتماداً على كتب الهنود والفرس واليونان وغيرهم ، فهو غير ذى قيمة حقيقية كما ذكرنا .

أما ما نجده فى ثنايا هذه الكتب من حديث العجائب ، فقد كانوا يكتبونه للتسلية والتشويق دون أن يأخذوها هم وقراؤهم — نحسب — مأخذ الجد ، وقد تجمعت هذه المادة القصصية واندرجت فى أطف مجموع قصصى أخرجته العصور الوسطى وهو « ألف ليلة وليلة » ^(١) .

وفى هذين الضربين : المسالك والممالك أو البلدان والرحلات كتب أهل الأندلس والمغرب ووصلوا بهما إلى القمة كما سنرى عند آل الرازى وأبى عبيد البكرى والإدريسى وابن جبير وابن بطوطة ، وسنرى أيضاً كيف نبغوا فى نوع آخر من الرحلات وهو رحلات العلم أى للقاء الشيوخ والأساتذة والأخذ منهم والحديث عنهم ، كما سنرى عند ابن رُشيد الفهرى والعبدرى .

(١) انظر عن اتجاهات الجغرافية عند المسلمين وعلاقتها بعلوم اليونان :

César E. Dubler, *Abū Ḥāmid el Granadīno y su Relación de Viaje por Tierras Euro-asiáticas* (Madrid 1953).

فقد قدم الأستاذ دوبلر لترجمته لنص رحلة أبى حامد بمقدمة وافية أجل فيها كل آراء المستشرقين عن الجغرافية الإسلامية بأوفى مما فعله ج. ه. كرامرز فى مادة جغرافية *Djughràfiya* التى نشرها فى ملحق الطبعة الأولى لدائرة المعارف الإسلامية ص ٦٢ وما يليها .

٢ — أسس التأليف الجغرافى عند الأندلسيين

على هذين الأساسين السليمين (البلدان أو المسالك والممالك والرحلات) قام التأليف فى الجغرافية عند الأندلسيين ، فلا نحس فى مؤلفاتهم ذلك التأثير البعيد بالنظريات الشرقية واليونانية الذى نجده غالباً على كثير من المؤلفات الجغرافية فى المشرق . وقد عرف الأندلسيون كيف يفيدون من مؤلفات الإغريق واللاتين ومن أخذ عنهم واعتمد عليهم من الاسبان خلال العصر القوطى : أفادوا منهم فى الوصف العام لشبه الجزيرة الأندلسية وما اتصل بها وقرب منها من بلاد أوروبا ، وأفادوا منهم فى تحديد المواقع وتقدير المسافات ، وانتفعوا بهم فيما ذكروا من تاريخ شبه الجزيرة وتاريخ بعض بلدانها فى القديم . ولكنهم لم يقتيدوا بهم فى التقسيم الجامد إلى أقاليم ذات خصائص فلكية أو علاقات ببروج الفلك .

وإذا كان ابن حزم قد أشار إلى أثر الأقاليم التى يقع فيها الأندلس فى أخلاق أهلها وملكاتهم فى رسالته المعروفة فى « فضل الأندلس » فقد كان ذلك فى معرض المفاضلة بين الأندلسيين وأهل المشرق ، فكأنه أراد أن يجاريهم فى مذاهبهم ويحاورهم على أسلوبهم ليبين فضل بلاده على بلادهم عند ما قال : « وأما فى قسَم الأقاليم ، فإن قرطبة ، مسقط رؤوسنا ، مع سُرٍّ من رأى فى إقليم واحد ، فلنا من الفهم والذكاء ما اقتضاه إقليمنا ، وإن كانت الأنوار لا تأتينا إلا مُعربة عن مطالعها على المعمور ، وذلك عند المحسنين للأحكام التى تدل عليها الكواكب ناقص من قُوى دلائلها ، فلها من ذلك على كل حال حَظٌّ يفوق حَظَّ أكثر البلاد ، بارتفاع أحد التَّيَرَيْنِ بها تسعين درجة ، وذلك من أدلة النمكن فى العلوم والنفاذ فيها عند من ذكرنا ، وقد صدّق

ذلك الخبر وأبأنته التجربة . . . »^(١) وأغلب الظن أن ابن حزم اعتمد في ذلك على كتاب مشاركة ، لأننا لا نجد أحداً من جغرافيي الأندلس سلك ذلك المذهب الفلكي في الجغرافية ، فيما عدا علي بن سعيد ، وهو متأخر على ابن حزم^(٢) . وغاية ما نجد من تأثر الجغرافيين الأندلسيين بالتقسيم البطليموسى هو إجماعهم على أن الأندلس تقع في الأقاليم الرابع والخامس والسادس ، وهم يكتفون بذلك لتحديد موقع شبه الجزيرة من « أطلس الإسلام »^(٣) ، أى تحديد هذا الموقع بالنسبة لبقية البلاد الإسلامية . ولا يستطردون إلى ما وراء ذلك .

(١) ابن حزم ، رسالة في فضل الأندلس ، نفع الطيب ، طبعة محي الدين (القاهرة ١٩٤٩) ج ٤ ص ١٥٧-١٥٨

(٢) قد يكون أبو عبيد البكرى تكلم عن التقسيم إلى أقاليم وأثر ذلك في أخلاق الناس وملكاتهم في الجزء الأول من مسالكة الذى خصه للمقدمات الجغرافية ، ولم يبق لنا من هذا الجزء إلا قطع قليلة أوردها ابن فضل الله العنبرى في الجزء الأول من مسالك الأبرار .

(٣) كان أول من استعمل هذا المصطلح أ. ميلر في مجموع الخرائط القيم الذى نشره تحت عنوان : A. Miller, *Mappae Arabicas. Arabische Welt und Länderkarten des 9.-13. Jahrhunderts*. Bände I-V und Beihäfte. Stuttgart 1929-1930.

وقد جمع فيه كل الخرائط التى توجد في كتب الجغرافية الإسلامية ورتبها مع شرح يسير ، وكلا الترتيب والشرح لا يخلوان من أخطاء .

وقد جعل ملر لفظ أطلس مرادفاً للفظ « صورة » الذى يستعمله الجغرافيون المسلمون في مقابل ما نسميه نحن اليوم خريطة (انظر الاصطخرى ، ص ٣) واستعمل لفظ Mappemundi مقابلاً لما يسميه المسلمون صورة الأرض . وقد ذهب ملر إلى أن أول من رسم الخرائط بين المسلمين هو أبو زيد أحمد ابن سهل البلخى المتوفى سنة ٣٢٢/٩٣٤ فقد وضع في سنن متقدمة كتاباً سماه « صور الأقاليم » ورجح ملر اعتماداً على إشارة للمقدسى في فاتحة « أحسن التقاسيم » أن هذا الكتاب كان أطلساً ، أى مجموعة من الخرائط لا يصاحبها إلا نص قصير . وقد ضاع النص ولكن فقرات منه مع معظم الخرائط نقلها الاصطخرى وابن حوقل ، وإلى هذا يرجع التشابه اللفظي تقريباً بين كثير من فقرات فاتحة هذين الكتابين ، ويتضح من هذه الفقرات أن البلخى وضع أطلساً لبلاد الاسلام بالفعل ، فقد جاء فيما نقله الاصطخرى عنه : « ثم أفردت لكل إقليم من بلاد الاسلام صورة على حدة ، بينت فيها شكل ذلك الاقليم وما يقع فيه من المدن وسائر ما يحتاج إلى علمه مما آتى على ذكره في موضعه إن شاء الله تعالى » (ص ٣) .

وانظر ما ذكره كرامرز عن « أطلس الاسلام » في مادة جغرافية . ملحق دائرة المعارف الإسلامية (الطبعة الأولى) ص ٧٠ ، والمراجع الوافية المعطاة في آخر هذه المادة (ص ٦٨) ونشير بصفة خاصة إلى كتاب :

Ahmet Zeki Walidi, *Der Islam und die geographische Wissenschaft. Geographische Zeitschrift*, 1934.

٣ — أوصاف الفينيقيين واليونان والرومان لشبه الجزيرة^(١)

وقد كتب اليونان والرومان عن شبه الجزيرة كثيراً ، ولا يعنينا هنا مما كتبوه إلا ما يتصل بالنقط التي أفاد المسلمون منهم فيها ، أى ما يتصل بهيئة شبه الجزيرة ومسافاتها . أما ما ورد عند أولئك المؤلفين من إشارات إلى المدن والأعلام الجغرافية فسندكر ما تمس إليه الحاجة منه في تعليقاتنا على نص جغرافية شبه الجزيرة الإيبيرية لأحمد بن محمد الرازى التى نرجو أن يتسع المجال لنشرها بعد الفراغ من هذا البحث .

يصف معظم كتاب اليونان والرومان إيبيريا بأنها شبه جزيرة Χερσόνησος أو شبه جزيرة تنسح كما سرنا نحو الجنوب αρα أو αρα كما نجد عند إراتوستينيس ، واكتفى بلينيوس بالقول بأنها رأس كبير بارز من أوروبا يربطه بها خليج ضيق Sinus Europae ، وأن هذا الرأس يبرز بين خليجى بسكايه وجنوا . وقد أخذ بهذا الرأي الأخير باولوس أوروزيوس الذى كتب أيام القوط ولكنه يسمى خليج اوروبا Sinus Aquitanicus .

ويسمى استرابون الجزء الضيق الذى يصل شبه الجزيرة بالقارة الأوروبية — وهو الذى تقطعه جبال البرت من طرف لطرف — بالبرزخ ἰσθμός ، ويصفه مارسيانوس بأنه عنق αὐγὴν . وهذا الوصف يقوم على ما كانوا يتصورونه من أن شبه الجزيرة إنما هو بمثابة الرأس لبدن القارة الأوروبية .

وقد صور بعض هؤلاء القدماء شبه الجزيرة على أنه مربع أى مستوى طوله مع عرضه ، وقدروا أن طوله وعرضه ٨٥٠ كيلومتراً . وتصوره بعضهم الآخر على أنه معين مقلوب ، ضلعه الأصغر فى الجنوب ، وجعلوا الضلع الأعلى

(١) اعتمدت فى هذا الفصل على :

Adolf Schulten, *Iberische Landeskunde Geographie des Antiken Spanien*, Band I (Strasbourg / Kehl, 1955). SS. 12 sqq.

(الكبير) يمتد من رأس أورتيجال^(١) إلى رأس بيار^(٢) ، أما الضلع الأسفل — الأصغر — فيمتد من رأس سان فينتي^(٣) إلى رأس غاطة^(٤) . ومنهم من جعلها في هيئة الخمس .

وذهب أفينوس Avienus ثم بطليموس إلى أن الساحل الشرقى لاسبانيا ينتهى عند رأس غاطة هذا ، أى إلى الشمال قليلا من المرية ، ومن هذا الموضع يتجه الساحل من الشرق إلى الغرب حتى رأس جبل طارق الذى قالوا إن عنده أعمدة هرقل . ولكن نفراً من القدماء قالوا إن الساحل الشرقى يصل إلى أعمدة هرقل ، وهى عندهم موضع التقاء البحر الأبيض بالحيط . وقالوا أن هذه الأعمدة تقع فى منتصف المسافة للراجل بالبحر من رأس بيار إلى رأس أورتيجال ، وجعلوا هذه المسافة ٦٠٠٠ استاديوم^(٥) .

وجاء فى وصف الرحلة التى قام بها رجل يسمى مساليوس واحتفظ أفينوس Avienus بقطع منه أن طول ساحل إيبيريا على البحر الأبيض (من رأس بيار إلى أعمدة هرقل) ٧٠٠٠ استاديوم ، تُقطع فى سبعة أيام بلياليها . وهذا التقدير أقل من التقدير السابق بألف استاديوم . وجعل ساحل الحيط (من

(١) رأس أورتيجال هو الطرف الأخير للساحل الشمالى المطل على خليج بسكايه وهو غير رأس فنستر Cabo Finisterre (نهاية الأرض ، الذى قال العرب أن عنده الصم المشبه بصم قادس ، وهو عندهم الركن الثالث من أركان الجزيرة) وسماه أبو عبيد البكرى صم جليقية (نفج ١٢٥/١) .

(٢) يقابل على وجه التقريب رأس باخور Cabo Bajur والعرب يجعلون بدلاً من ذلك موضعاً يسمونه هيك الزهرة وهو يقابل Port-Vendres الذى كان يعرف فى القديم باسم Portus Veneris . انظر الروض المعطار ، ص ٢ ، وترجمة لينى بروفنسال ص ٥ وهامش ص رقم ١

وتقويم البلدان لأبى الفدا ، طبعة م. رينو ودى سلين ، باريس ١٨٤٠ ص ١٨٢

(٣) يعرف عند العرب برأس كنيسة الغراب . وعند الرازى : هو الموضع الذى فيه صم قادس المشهور بالأندلس . نفج ١٢٨/١

(٤) لم يصر العرب إلى هذا الركن الرابع ، لأنهم أخذوا بالرأى القائل بأن شبه الجزيرة مثلث كما سيحى .

(٥) الاستاديوم Stadium مقياس روماني للمسافات . والكيلومتر يساوى ٥٤٣٢ استاديوم .

رأس أورتيجال إلى الأعمدة (٥٠٠٠ استاديوم . وجعل صاحب هذه الرحلة طول جبال البرت من شاطئ بسكاية إلى البحر الأبيض مسيرة سبعة أيام ، أى ٣٥٠ كيلومتراً^(١) .

وحوالى سنة ٥٠٠ قبل الميلاد قام ملاح يسمى بيثياس Pytheas برحلة على طول سواحل اسبانيا وصل فيها إلى الشاطئ الجنوبي لخليج بسكاية ، واستبان أن إيبيريا فى الحقيقة شبه جزيرة لا تفصلها عن بقية أوروبا إلا جبال البرت ، وأن هذه الجبال تسير من الشرق إلى الغرب فى امتداد ساحل بسكاية ، وأن الإنسان يستطيع السير على الأرض من رأس أورتيجال إلى رأس بيار . وقال إن طول الساحل الشرقى من رأس بيار إلى أعمدة هرقل ٦٠٠٠ استاديوم . ولكنه قال إن الساحل الجنوبي يصل إلى رأس روكا Cabo Roca أى إلى موضع الاشبونة الحالية . وجعل المسافة من أعمدة هرقل إلى رأس روكا ٣٠٠٠ استاديوم ، ومن رأس روكا إلى رأس أورتيجال ٣٠٠٠ أخرى . وتابعه فى ذلك كله إيراوستثنيس ، غير أنه قسم المسافة من أعمدة هرقل حتى رأس روكا إلى قسمين : من الأعمدة إلى قادش Gades ٥٠٠ استاديوم ، ومن قادش إلى رأس روكا ٢٥٠٠

وابتداء من بوليبيوس يختفى هذا التصور السليم لشبه الجزيرة ومسافاتها الذى أقامه اليونان على تجارب الرحالة والحساب الهندسى . وبدلاً من ذلك نجد صورة غريبة لشبه الجزيرة أهم معالمها ما يلى :

١ — أن الشاطئ الغربى لشبه الجزيرة يسير فى خط مستقيم من الشرق إلى الغرب ، أى أنه يصبح الشاطئ الشمالى ، وتختفى بهذا الحقائق السليمة الخاصة بخليج بسكاية وسواحل حتى الشاطئ الجنوبي لشبه جزيرة بريتانى .

(١) قدر ابن سعيد هذه المسافة بأربعين ميلاً . نفح ١/١٢٧

٢ — أن جبال البرت تسير من الشمال إلى الجنوب . وعلى هذا فهي تتعامد مع الساحل الشمالى فى رأى بوليبيوس ومن تابعه (الشمالى والغربى فى الحقيقة) .

٣ — وهو يسمى جبال البرت الناحية الشرقية لشبه الجزيرة ويجعل طولها ٣٠٠٠ استاديوم .

٤ — أما الساحل الشرقى (رأس بيار — أعمدة هرقل) فقد اعتبره ساحلا جنوبياً . جعل طولهُ ٩٥٠٠ استاديوم .

٥ — والساحل الشمالى يلتقى مع الساحل الجنوبى عند أعمدة هرقل . أى أن شبه الجزيرة أصبح فى هيئة المثلث الطويل الممتد برأسه ناحية الغرب . وعن بوليبيوس أخذ هذا التصور من جاء بعده مثل ايبانوس Appianus وأرتيميدور Artimidor وفارو Varro وإن اختلفوا فى موضع رأس المثلث ، فبعضهم قال إنه رأس سان فينتى (ايبانوس وأرتيميدور) ، وبعضهم الآخر قال إنه رأس روكا (فارو) . وهذا الأخير يسمى رأس روكا البروز الأعظم Promentium Magnum ، وقال إن جزء الساحل الممتد من رأس روكا إلى قادش هو جبهة اسبانيا Frons Hispaniae . وجعل طول الساحل الشمالى ١٢٥٠ ميلا ، وطول الساحل الجنوبى ١١٨٢ ميلا . ومعلوماته عن سواحل اسبانيا تقف عند رأس روكا .

وعن بوليبيوس أيضاً أخذ اسطرابون هذه الصورة لشبه الجزيرة مع تعديل واضح يبدو أنه أخذه عن بوزايدينيوس : جعل الساحلين الشرقى والجنوبى لشبه الجزيرة ساحلا واحداً يمتد من الشرق إلى الغرب ، أى من رأس بيار إلى أعمدة هرقل ، ومن هناك يطلع إلى الشمال ما يسميه بالساحل الغربى . أما الساحل الشمالى فيجعله أقصر من الجنوبى . أى أن شبه الجزيرة عنده مستطيل ممتد إلى الغرب فى البحر قاعدته إلى الجنوب ، وضلعه الشرقى (جبال البرت) أقصر من ضلعه الغربى المطل على المحيط .

والصورة التي يرسمها ميلا Mela لشبه الجزيرة أصبح من صورة اسطرابون فهو يذكر خليج بسكاية وشبه جزيرة بريتاني ، ويبدو أنه أخذ ذلك عن بوزايدنيوس الذي اعتمد على فارو ، ولكنه يتمسك بأن جبال البرت تسير من الشمال إلى الجنوب . والساحل الغربي يسير موازياً له ، ولكنه لا يبدأ عند أعمدة هرقل أو رأس سان فينتي وإنما عند رأس الطرف الأغر . وهو يسمى الزاوية الشمالية الغربية برأس الكلت Promontium Celticum .

وتصور بطليموس شبه الجزيرة في هيئة مربع يكاد يكون ضلعا الشمال والغربي على استقامة واحدة ، رؤوسه الأربعة رأس بيار ورأس غاطة ورأس سان فينتي ورأس ناريجي Nariga (بدلا من رأس أورتيجال) ، وهيئة العامة نتيجة لذلك أقرب إلى المثلث ، وهو يجعل جبال البرت تسير من الشمال إلى الجنوب ، أي أن بطليموس عاد إلى التصور السليم الذي رأيناه عند يثياس وإيراستينس ، وإن كان الذين أتوا بعده فهموا كلامه على أنه تصوير لشبه الجزيرة في هيئة المثلث .

٤ — كتب هروشي

ثم نصل إلى أوروزيوس Horosius الذي عرف العرب كتاباته وأخذوا عنه وسموه باسمه هروشي^(١) ، وكان راهباً شاهد دخول قبائل السوييف اسبانيا واستقرارهم في غربها ، ثم فر خوفاً منهم إلى إفريقية سنة ٤١٥ ميلادية ، وهناك لقي القديس أوغسطين ، فنصحته هذا بالذهاب إلى بيت المقدس ، حيث اشترك في النزاع المذهبي الذي كان يفرق أهل الكنيسة المسيحية شيعاً ، وقد أخذ جانب القديس جيروم الكاتب المسيحي الأشهر . وفي بيت المقدس أخذ يكتب بادئاً برسالة المساة كتاب المديح Apologeticus Contra Pelagium في نقض مذهب

(١) يسمى عادة باولوس أوروزيوس ، ولكن الحقيقة أننا لا نعرف اسمه . أما باولوس فقد وضع بعض العلماء تفسيراً لحرف P. الذي كان يسبق اسم أوروزيوس ، والمراد به في الحقيقة Presbiter وهي مرتبة من مراتب القسس ، ولد عربيه الأندلسيون إلى برشبت .

بِلَاَجِيُوس ، فحق عليه القساوسة واضطر إلى الانزواء خوفاً منهم . ثم عاد إلى اسبانيا . ويبدو أنه مر بأفريقية ولقى أوغسطين مرة أخرى ، وكان هذا قد فرغ من كتابه « مدينة الله » ، وقراه هرويش وأعجب بما قاله من أن ما أصاب الامبراطورية الرومانية من التفكك والاضطراب إنما هو عقاب من الله سبق أن أنزل مثله بأمم سابقة انحرفت عن الطريق السوي ، وقرر أن يكتب كتاباً يتوسع فيه في هذا الرأي ويفصله تفصيلاً . فكتب كتابه الذي يعرف عادة باسم تواريخ أوروزيوس وعنوانه الكامل :

«Adversus Paganos Historiarum Libri Septem»

أى « كتب التاريخ السبعة في الرد على الوثنيين » وهو ذيل على « مدينة الله » ، وخاصة الجزء الثالث منه المتعلق بالتاريخ . وهو تاريخ للدنيا منذ آدم إلى سنة ٤١٦ ميلادية ، ألفه في سنة ونصف معتمداً على « مدونة أوزيب » وكتابات تيتوس ليفيوس ويوليوس قيصر وتاسيتوس ويوستينيوس وغيرهم . واعتمد بعد ذلك على نفسه فيما يتصل بأحداث أيامه وما سبقها بقليل .

وقد لقي كتاب هرويش إقبالا شديداً ، وأثنى عليه معاصروه ثناء عظيماً ، وأصبح معتمد الناس فيما بعد فيما يكتبون عن تاريخ العصور القديمة ، وبلغ من ذبوعه أن عدد مخطوطاته الباقية إلى اليوم يزيد على مائتين ، منها ما كتب في القرنين السادس والسابع . وفي العصور الحديثة طبع أصله اللاتيني أو مترجماً إلى اللغات الأوروبية مرات كثيرة . وهو يعتبر أول تاريخ عالمي كتب من وجهة النظر المسيحية ، وهو يشيد فيه بجامعة الثقافة الرومانية والعقيدة المسيحية التي تضم المسيحيين جميعاً ، وهو يتابع القديس أوغسطين في القول بأن عظمة روما إنما قامت على تعاسة بقية بلاد الدنيا ، ويفخر بأن اسبانيا قاومت الرومان مائتي سنة^(١) .

Juán Hurtado, J. de la Serna y González Palencia. *Historia de la Literatura Española* (١) *ñola* (6ª edición, Madrid 1949), p. 14.

Justo Pérez de Urbel. *Las Letras en la Epoca Visigoda en Historia de España*; dirigida por Ramón Menéndez Pidal, vol. III *España Visigoda*, pp. 382—387.

لا غرابة والحالة هذه أن يجد العرب عند دخولهم ذكر هذا الرجل وكتابه على كل لسان ، وأن يطلع الكثيرون منهم على ما فيه عن طريق بعض نصارى الأندلس الذين استعربوا أو دخلوا في الإسلام ، وكان الكثيرون منهم يعرفون اللاتينية ، أو يستطيعون على الأقل أن ينقلوا إلى إخوانهم جُملًا من كلام هذا المؤرخ الكبير . وإذا كان كتّاب المسلمين لم يجدوا شيئًا ينقلونه عنه فيما يتصل بتاريخ الشرق القديم ، فقد كانت لديهم أصول شرقية عربية أخرى ينقلون عنها في هذه الناحية ، فإنه لم يكن لهم مفر عن الأخذ عنه فيما يتعلق بتاريخ الدولة الرومانية وتاريخ اسبانيا . ومن هنا فقد أخذوا عنه معلومات طيبة عن تاريخ الرومان وتلك اللغات القليلة الاسطورية الطابع التي نجدها عندهم عن الأمم التي حكمت اسبانيا قبل الإسلام ، وعن آراء الأقدمين في صفة شبه الجزيرة ثم ما أضافه هو نفسه إلى هذه الآراء .

ويعيننا هنا كلامه عن جغرافية الجزيرة ، فقد قال إن هيئتها ذات ثلاثة أركان ، أحدها في الشرق عند بيار والثاني عند بَرِغَنْتِيَم (بريجانتيوم Brigantium) فيما يعرف اليوم بكورونيا ، والثالث في الجنوب عند قادش . وقال إن جبال البرت تسير من الشمال إلى الجنوب تقريبا ، أي أننا نجد عنده نفس الخلط بين الصحيح وغير الصحيح الذي وجدناه عند اسطرابون وبطليموس^(١) .

وقد أخذ الجغرافيون الأندلسيون عن هرويش هذه الآراء المتصلة بهيئة شبه الجزيرة وثبتوا عليها ، ثم أضافوا ما تجمع لهم من مادة جغرافية سليمة دقيقة مبنية على الخبرة والرحلة والمشاهدة . ونجد هرويش مذكوراً باسمه في مؤلفاتهم وخاصة عند العذرى والبكرى وابن خلدون ، وربما يكون الرازي قد أشار إليه

(١) اعتمدت في هذا العرض على ما أورده شولتن في كتاب :

Adolf Shulten, *Iberische Landeskunde. Geographie des Antiken Spanien* (Band I, Strasbourg—Kehl 1955) SS. 1-21.

وهذا الكتاب يورد بأكل تفصيل ما أجله اليان بولوفر في بحثه المعروف :

Alemany Bolufer, J., *La Geografía de la Península Ibérica en los textos de los escritores griegos y latinos*. Separata de la Revista de Archivos, Bibliotecas y Museos. Madrid, 1911.

إلا أن جغرافيته التى استطعنا جمع أشتاتها من مختلف الأصول إنما هى مختصر لكتابه المطول . ولم يعن الجغرافيون والمؤرخون المسلمون بتصحيح هذه الآراء ، لأنهم كانوا يجعلونها فى مقدمات كلامهم عن صفة الجزيرة على اعتبار أنها معلومات عامة غير داخلة فى صلب الجغرافية . والسبب فى ذلك أنهم ألفوا فيها على مذهب البلدانين والمسالكين ، تعنيهم البلاد وأوصافها والأقاليم وما فيها والمسافات وأطوالها . وفى هذا المجال كانوا فى غنى عن النقل عن غيرهم ، فقد كانوا أهل البلاد يعيشون فيها ويذرعونها طولاً وعرضاً .

وجدير بالملاحظة أن الهيئة المثلثة البطليموسية لشبه الجزيرة كانت توافق تصورهم العام لشبه الجزيرة ، وتؤديها تجارب الملاحين الذين كانوا يتنقلون بسفهم بين موانئ شبه الجزيرة وما يقابلها من موانئ المغرب . وسنلاحظ عند كلامنا عن جغرافية البكرى كيف أن أولئك الملاحين كانوا يعتقدون أن موانئ المغرب (حتى بجاية) تقابل موانئ شرق اسبانيا (حتى طركونة) ، ومن هنا تأكد لديهم صدق النظرية البطليموسية فى توازى الساحلين ، ونتيجة لهذا ثبتوا على القول بأن جبال البرت تسير من الشمال إلى الجنوب .

٥ — التراث الجغرافى للأندلس

لا نستطيع أن نكتب تاريخاً لعلم الجغرافية عند الأندلسيين إلا معتمدين على تجميع مجهود لما نُقِلَ من المؤلفات الأولى فى المراجع التى وصلت إلينا ، لأن الذى وصل إلينا كاملاً من مؤلفاتهم فى هذا الباب جزء ضئيل . وقد يدهش القارئ إذا قلنا إننا لا نملك — باستثناء الإدريسي — كتاباً واحداً كاملاً ألفه أندلسى فى جغرافية الأندلس فى لغته العربية . فأما جغرافية الرازى فليس لدينا من نصوصها الكاملة إلا ترجمات مقتضبة محرفة إلى البرتغالية والاسبانية ومختصرات عربية لها وصلتنا قطعاً متناثرة فى ثنايا الكتب ، وسنحاول

إثبات هذا النص اعتماداً على هذه المختصرات والنقول على قدر ما يتسع المجال. أما كتبه الأخرى فإما اختفت كاملة أو بقيت لنا منها شذرات قليلة، وكتاب « الجغرافية » لمحمد بن أبى بكر الزهرى لا نملك منه إلا قطعة صغيرة نظن أنها جزء من مختصر من الكتاب الأصيل ، وكتاب « نظام المرجان » لأبى عمر أحمد بن يوسف العذري الدلائى لم نجد منه إلا قطعاً أعدها للنشر ضمن مطبوعات هذا المعهد الدكتور عبد العزيز لاهوانى، ومؤلفات محمد بن يوسف الوراق اختفت هي الأخرى إلا من نقول وردت متفرقة في أصول شتى، وليس لدينا من صفة الأندلس لأبى عبيد البكري إلا أوراق قليلة، وما لدينا من كتابي اليسع ابن موسى بن عبد الله بن اليسع وأبى بكر عبد الله بن عبد الحكم المعروف بالنظام لا يعدو فقرات قليلة في «نفح» المقرئ، أما كتاب الروض المعطار فمعجم جمعه صاحبه محمد بن عبد المنعم الحميري في الزمن المتأخر، وهو لا يعتبر كتاب جغرافية أو بلدان من الطراز الذي ننشده، والكتاب الوحيد الذي لدينا في وصف الأندلس هو القسم الخاص بهذا البلد من جغرافية الادريسي وستحدث عنها في موضعها.

وهذا هو كل ما لدينا من الانتاج الجغرافى الفزير لأهل الأندلس ، وهو انتاج لا يقتصر على جغرافية الأندلس بل كان الكثير منه كتباً واسعة في الجغرافية العامة ، وسنرى بعد قليل أن «زهة المشتاق» للادريسي إن هو إلا تنويع لجهود كثيرة سابقة وتجميع طيب لمادة غزيرة قامت على تقليد أندلسى عريق في التأليف الجغرافى . وليس ذلك بغريب فقد كان الأندلسى بطبعه رسالة طلمة ذكياً يجب أن يرى بنفسه ويختبر بمشاهدته ، وسنرى شواهد ذلك كله عندما نتحدث عن جغرافيتهم واحداً واحداً .

ولا شك أن الأندلسيين كتبوا الكثير في وصف بلدهم ، فعلاوة على الكتب التى ذكرناها ، لابد أن نحسب كتب التاريخ أيضاً ، ما وجدناه منها وما لم نجده بعد ، لأن التاريخ لم ينفصل عن الجغرافية في المفهوم الاسلامى إلا نادراً كما قلنا ، وفي الأندلس بالذات لا نجد جغرافياً إلا وجدناه مؤرخاً في

نفس الوقت ، والرازى الذى سئى أنه أبو الجغرافية الأندلسية هو أبو التاريخ الأندلسى أيضا .

وإذا نحن تركنا جانبا كتب التاريخ الأندلسى العام^(١) أو التى كتبت فى تاريخ عصر بعينه أو دولة أو ناحية معينتين ، وجدنا أمامنا حشداً من المؤلفات عن تاريخ شتى نواحى الأندلس وبلادها أو تاريخ الأدب والأدباء والفقهاء فيها ، وهذه الكتب تبدأ دائماً بفصول طويلة عن جغرافية هذه النواحى كما نرى فى الإحاطة فى أخبار غرناطة لابن الخطيب ، ومن هنا فنحن حريون بأن نعد هذه الكتب فى الحصاد الوافر الذى كتبه أهل الأندلس فى هذا الباب ، وفيما يلى بعض أسامى هذه الكتب ومؤلفيها نذكرها على سبيل المثال لا الحصر :

قاسم بن سعدان (ت ٩٥٨/٣٤٧) تاريخ فقهاء ريه .
عمر بن عبيد الله بن يوسف الزهراوى (٣٧٠-٤٥٤/٩٨١-١٠٦٢) :
تاريخ قرطبة .

مطرف بن عيسى الغسانى (ت ٩٨٧/٣٧٧) : المعارف فى أخبار كورة إلبيرة وأهلها وفوائدها وأقاليمها وغير ذلك من منافعها .

أبو الأصمغ عيسى بن محمد (ت ١٠١٢/٤٠٣) : تاريخ فقهاء إلبيرة .
اسحاق بن سلمة اللبتي (عاش أيام الحكم المستنصر) : أخبار رية وحصونها وولاتها وفقهائها وشعرائها . وكتاب أخبار الأندلس .

عبد الله بن ابراهيم بن وزمر الحجارى (النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى/الحادى عشر الميلادى ، والنصف الأول من القرن السادس الهجرى/الثانى

(١) لدينا على الأقل أسماء ستة ألف كل منهم تاريخيا عاما للأندلس وهم : احمد بن موسى العروى وأحمد الحجام وابن الحكيم الرندى وعيسى ابن أحمد الرازى وأبو الوليد الفرضى ومحمد بن مزين .

عشر الميلادى) : مغناطيس الأفكار فيما تحتوى عليه مدينة الفرج من النظم والنثر والأخبار .

احمد بن عبد الرحمن بن المطاهر الأنصارى (ت ١٠٩٥/٤٨٩) : تاريخ فقهاء طليطلة وقضاةها .

محمد بن عبد الواحد بن ابراهيم بن مفرج الملاحى (٥٤٩-١١٥٤/٦١٩-١٢٢٢) : تاريخ علماء البيرة وكتاب انساب الأمم والعرب والعجم المسمى بالشجرة .

ابن المواعينى ، محمد بن ابراهيم بن خيره (ت ١١٦٨/٥٦٤) : تاريخ غرناطة .

أبو المطرف بن احمد بن عبد الله بن عميرة (٥٨٠ أو ٥٨٢-٦٤٨ أو ٦٥٦ أو ٦٥٨/١١٨٤ أو ١١٨٦-١٢٥١ أو ١٢٥٨ أو ١٢٦٠) : كتاب فى كائنة ميورقة وتغلب الروم عليها .

أبو عبد الله محمد بن على بن خضر المالكى المعروف بابن عسكر (٥٨٤-٦٣٦/١١٨٨-١٢٣٨) : تاريخ مالقة أو الاكمال والاتمام فى صلة الأعلام من أهل مالقة الكرام .

ابن حمادة (من أهل القرن السادس الهجرى/الثانى عشر الميلادى) : تاريخ لوشة .

ابن الحاج البليقى ، أبو البركات محمد بن محمد بن ابراهيم (ت ٧٧٤/١٣٧٢) : تاريخ المرية وبجانة .

وغيرها كثير ، ونضيف إليها كتباً مثل « تاريخ بنى الطويل » و « كتاب فى أصحاب المعامل والأجناد الستة بالأندلس » وكلاهما مجهول مؤلفه ، ثم كتاب « تاريخ المنتزين والقائمين بالأندلس » لابن فرج الجياني وما شاكلها ، وما ضاع من كتب الجغرافيين والمؤرخين الذين سنلم بذكرهم . وهو كثير أيضاً .

والخلاصة أن الحصاد الجغرافى فى الأندلس كان وافراً غنياً ، وإننا إذ نعرض تاريخ هذا العلم فى ذلك القطر معتمدين على ما لدينا فحسب إنما نعرض جانباً صغيراً مما ألفوه . والغالب أن ما نذكره عنا أكثر مما أحصيناه . ولا بد أن نقرر ذلك ، فقد يظهر فى مقبل الأيام من الكتب ما يعين غيرنا على استكمال البحث بصورة أوفى .

ميلاد التأليف في الجغرافية في الأندلس

ليس لدينا ما يدل على أن أحداً من أهل الأندلس كتب في البلدان قبل أحمد بن محمد الرازي . وليس لدينا كذلك ما يفيد أن شيئاً مما كتبه المشاركة في هذا الباب دخل الأندلس في زمن مبكر ، ونحن نجد في فهرسة ابن خير ذكراً لطائفة من المؤلفات المبكرة في التاريخ مثل مغازي ابن عقبة ومغازي ابن اسحاق ، ولا نستبعد لهذا أن يكون الأندلسيون قد عرفوا بعض الكتابات الجغرافية الأولى مثل كتاب « البلدان الكبير » وكتاب « البلدان الصغير » وكتاب « الأنهار » وكتاب « الأقاليم » وما إليها مما ألفه أبو عبيدة السكوني والحسن الهمداني وأبو الأشعث الكندي وغيرهم من أصحاب البواكير في التأليف الجغرافي في المشرق ، فقد كانت هذه كلها مراجع ينتفع الناس بها في تفسير القرآن وفهم الأحاديث وسيرة النبي صلى الله عليه وسلم^(١) . ونقول هذا لأننا نجد أبا بكر بن خير يذكر في فهرسته رسائل من هذا الطراز كانت تقرأ في الأندلس مثل كتاب الأنواء وكتاب النبات وكتاب القبلة لأبي حنيفة الدينوري وكتاب المعارف وكتاب الأنواء لابن قتيبة^(٢) ومن الملاحظ بصفة عامة أن أصحاب كتب التراجم يهتمون ذكر كتب الجغرافية والعلوم ، لأنها لم تكن في حسابهم مؤلفات

(١) اقرأ عن هؤلاء : بهجة الاثرى : الجغرافيا عند المسلمين ، مجلة المجمع العلمي العراقي ، سنة ١٩٥٢ والمراجع الواردة هناك .

(٢) فهرسة ابن خير ص ٣٧٦ و ٣٧٧

تؤيد مركز العالم، ويكفي أن نذكر أن المواد التي لدينا في معاجم الترجمة الأندلسية لا تذكر شيئا عن جغرافية البكري أو مؤلفات ابن رشد الفلسفية.

وقد كتب عبد الملك بن حبيب في كتاب « مبتدأ خلق الدنيا » المعروف بتاريخ ابن حبيب شيئا في الجغرافية ، ولكن كتابته في هذا الفن تدخل في باب « العجائب » الذي سيكثر فيه نفر من الجغرافيين ، وواضح من كتابته أنه أخذ ما كتبه في هذا الباب عن المشرقين والمصريين منهم خاصة ، ومن الغريب أنه وهو أندلسي يكتب عن بلده يصوره وكأنه مجمع أعاجيب وغرائب لا تصدق^(١) .

وقد أثبت الدكتور مكى في دراسته عن « مصر وأصول التاريخ في الأندلس » أن القسم الطويل الذي يدور حول حياة موسى بن نصير من كتاب الإمامة والسياسة لابن قتيبة مأخوذ من تأليف لمصرى أندلسي الأصل هو معارك بن مروان حفيد موسى بن نصير ، وفي هذا الجزء إشارات جغرافية لا بأس بها وإن كانت من باب العجائب أيضا .

١ — محمد بن موسى الرازي

ولكن أول من أثر عنه التأليف في التاريخ مع جانب من الجغرافية هو محمد بن موسى بن بشير بن جناد بن لقيط الكنانى الرازي الذي يقول عنه ابن الأبار في التكملة « والد أبى بكر أحمد بن محمد صاحب التاريخ ، غلب

(١) راجع عن ذلك مقال الدكتور محمود على مكى :

Egipto y los Orígenes de la Historiografía Árabe-Española.

صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد . المجلد الخامس سنة ١٩٥٧ م ١٥٧ وما بعدها من القسم الفرنجى . والمطر النموذج الذى نشره الدكتور مكى ذيل على هذا المقال من كلام عبد الملك ابن حبيب ، وخاصة ابتداء من الفقرة ١٧ م ٢٢٧ وما بعدها .

عليه اسم بلده ، وكان يقدر من المشرق على ملوك بني مروان تاجرا ، وكان مع ذلك مفتنا في العلوم ، وهلك منصرفه من الوفادة على الأمير المنذر بن محمد بالبيطرة في شهر ربيع الآخر سنة ٢٧٣ (اكتوبر ٨٨٦) ذكره ابن حيان^(١) .

وقد أورد محمد بن عبد الوهاب النسابي سفير مولاي اسماعيل إلى كارلوس الثاني ملك اسبانيا في كتابه « رحلة الوزير في افتكاك الأسير » إشارة عظيمة الفائدة عن كتاب اسمه « كتاب الرايات » ألّفه محمد بن موسى الرازي ، قال : « قال محمد بن مُزَيْن : وجدت في خزانة باشيلية سنة إحدى وسبعين وأربع مائة ، أيام الرازي بن المعتد ، سفراً صغيراً من تأليف محمد بن موسى الرازي سماه بكتاب الرايات ، ذكر فيه دخول الأمير موسى بن نصير ، ومم راية دخلت الأندلس معه من قرش والعرب ، قَعَدَهَا نيفا وعشرين راية ، منها رايان لموسى بن نصير ، عقد له إحداها الأمير عبد الملك بن مروان على إفريقية وما وراءها ، والأخرى عقدها له أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك على إفريقية أيضا وما يفتحها وراءها إلى المغرب ، وراية ثالثة لابنه عبد العزيز الداخل معه ، وسائر الرايات لمن دخل معه من قرش ومن قواد العرب ووجوه العمال ، وذكر فيه سائر البيوتات ممن دخل دون راية » ثم قال بعد ذلك : « . . . فقيل إن اجتماعهم لهذا المشهد الكريم كان في الموضع الذي كان فيه مسجد الرايات في الجزيرة الخضراء ، وأنه باجتماع الرايات في ذلك اليوم سمي ، وبها سمي الرازي كتابه . وقال إن موسى بن نصير رحمه الله لم يبرح موضعه ولا فارق مشهده حتى أمر بتخطيط الموضع واتخاذ مسجد^(٢) » .

(١) ابن الأثير ، التكملة ، ترجمة رقم ١٠٤٨ ص ٣٦٦

(٢) رحلة الوزير في افتكاك الأسير لمحمد بن عبد الوهاب النسابي بتحقيق الفريد البستاني (منشورات مؤسسة الجنرال فرانكو) تطوان ١٩٣٩ وقد نشر هذه الفقرة جايانجوس في ترجمته الإنجليزية لفصول من فتح الطيب المعروفة باسم :

History of the Muhammedan Dynasties in Spain.

(ج ١ ص ٣١٤) وعنه أخذها بونس بويجيس ص ٤٥ — ٤٧

وفي نبذة قصيرة عن محمد بن موسى الرازي يكرر المقرئ نفس المعلومات التي أوردها ابن الأبار نقلاً عن المقتبس لابن حيان^(١).

وإذن فقد كان أول من دخل الأندلس من بيت الرازي تاجراً سَفَّاراً يتردد بتجارته بين المشرق والأندلس ، وكان إلى جانب ذلك ذا علم وأخبار ومعارف تؤهله لصحبة الملوك والوزراء ، فأصبح من جملة رجال الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط ، فصار يعهد إليه في مهام كبيرة ، فبعثه في الوفد الذي ذهب للتوفيق بين العرب والمولدين عندما وقعت الفتنة الكبيرة بينهم ، وقد توفي وهو عائد من هذه المهمة في بلدة إلبيرة في شهر ربيع الآخر سنة ٢٧٣ / ٨٨٦ أكتوبر أيام الأمير المنذر .

وهذه الفقرة التي أوردها من كتاب محمد بن موسى الرازي تدل على أنه اشتغل بالتأليف ، وأن من آثاره كتاب الرايات هذا الذي نعتبره كتاب تاريخ وجغرافية في آن واحد ، فإن ذكر القبائل التي دخلت الأندلس مع موسى « من قریش ومن قواد العرب ووجوه العمال وذكر سائر البيوتات ممن دخل دون راية » عظيم القيمة بالنسبة للجغرافية البشرية للأندلس ، ولا شك في أن ابنه أحمد بن محمد انتفع بهذه المعلومات فيما كتب عن جغرافية الأندلس وتاريخه . ولا شك كذلك في أن المعلومات الطيبة التي يوردها ابن حزم في جمهرة انساب العرب عن القبائل والبيوت العربية التي دخلت الأندلس ، وكذلك البيان الذي يورده ابن غالب في فرحة الأنفس وأورده المقرئ في نفح الطيب عن منازل العرب في الأندلس ، إنما يرجع الفضل فيها إلى ما دونه محمد بن موسى في هذا الكتيب الذي ذكره محمد بن مزين .

(١) نفح الطيب (طبعة محي الدين) : ١٠٨/٤

٢ - قاسم بن أصبغ البياني وترجمة كتب هرويش

وقبل أن نتحدث عن أحمد بن محمد الرازي لا بد أن نقف هنا وقفة قصيرة عند استاذة قاسم بن أصبغ البياني، فسنبز أنه صاحب فضل كبير في توجيه الناس إلى التأليف في التاريخ والجغرافية في الأندلس إلى جانب دوره العظيم في تطور علوم الدين واللغة في الأندلس؛ وهو من رجال جيل فريد من علماء الأندلس عاش خلال النصف الثاني من القرن الثالث الهجري والنصف الأول من القرن الرابع، وعاصر العصر الذهبي الأندلسي، عصر عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم المستنصر، جيل جليل نقل الأندلس بعمله وجهده وإخلاصه للعلم من دور النقل والتبعية إلى دور الإبداع واستقلال الشخصية، بل إلى القيادة في كثير من نواحي المعرفة. ورجال هذا الجيل هم الذين وسعوا نطاق العلم والمعرفة في الأندلس، فلم تقتصر عنايتهم على علوم الدين من قرآن وحديث وقعه، بل شمل اهتمامهم الأدب والتاريخ وتراجم الرجال والجغرافية والفلسفة والطب والنبات وعلوم الأوائل أيضا. ومعظم رجال هذا الجيل من أصحاب الرحلات الطويلة إلى الشرق، رحلات البحث والطلب والسماع على الشيوخ في شتى نواحي العالم الإسلامي، واتساع أبحاثهم الكتب والعودة بها إلى الأندلس ونشرها بين أهله. ومن أعلام هذا الجيل محمد بن عاصم المعروف بالأقبشتين (ت ٩١٩/٣٠٧) الذي يوصف بأنه كان «متصرفا في علم الأدب والخبر» وهو أول من ألف في طبقات الكتاب في الأندلس؛ وعثمان بن ربيعة (ت ٩٢٢/٣١٠) وهو صاحب كتاب في طبقات الشعراء في الأندلس؛ وأبو عبد الله محمد بن عمر بن لُبابة (ت ٩٣٢/٣٢٠) الأديب الشاعر المحدث الأورخ، وهو أستاذ ابن القوطية، وكان شيخ أهل الأدب في عصره؛ وأبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه الذي نقل في «عقده» جانباً كبيراً من الثروة الأدبية المشرقية إلى الأندلس، وقد طال عمره حتى عاصر خمسة من أمراء

الأندلس آخرهم عبد الرحمن الناصر ، وتوفى سنة ٩٣٩/٣٢٨ ؛ واحد بن محمد ابن عبد البر (ت ٩٤٩/٣٣٨ - ٩٥٠) — وهو غير أبي عمر بن عبد البر — وقد أُلّف في انساب العرب وفي تاريخ فقهاء الأندلس ، واعتمد عليه أبو الوليد الفرضي في كتابه « تاريخ علماء الأندلس » المعروف وغيرهم كثيرون .

وقاسم بن أصبغ البياني من أعلام هذا الجيل فقد ولد في ٢٠ ذى الحجة سنة ٢٤٤/٢ نوفمبر ٨٥٩ في بلدة بيانة من أعمال قرطبة وعمر ستا وتسعين سنة هجرية « وخمسة أشهر غير سنة أيام » كما يقول أبو الوليد الفرضي ، فكانت وفاته في ١٥ جمادى الأولى سنة ٣٤٠/٢٠ أكتوبر ٩٥١ أيام الحكم المستنصر . رحل قاسم في شبابه رحلة طويلة إلى المشرق فسمع من أعلام العصر في مصر والحجاز والشام والعراق ، واهتم اهتماما خاصا بالتاريخ ، فسمع من أحمد بن زهير بن حرب المعروف بابن أبي خيثمة « تاريخه » الذي أُلّفه في رجال الحديث والأسانيد على غرار التاريخ الكبير للبخاري ، واتصل بعبد الله بن مسلم بن قتيبة وسمع منه كثيرا من كتبه ، ومعظمها تاريخ وجغرافية وأنساب وأدب ومعلومات شتى ، وسمع من أحمد بن يحيى بن يزيد المعروف بشعلب ومن محمد بن يزيد المبرد وغيرهم من أئمة اللغة والنحو ، ولم يفته أن يسمع في القيروان من محمد بن يزيد المعلم وبكر بن حماد التاهرتي الشاعر « في عدة سواهم وهم كثير ممن أذكركم في الكتاب الكبير الذي أوّمل جمعه على المدن واتقصاهم فيه إن شاء الله » . وانصرف قاسم بن أصبغ إلى الأندلس بعلم كثير ، ومال الناس إليه في تاريخ أحمد بن زهير بن حرب (ابن أبي خيثمة) وكتب ابن قتيبة ، وكانت الموردة عليه في هذه الكتب دون صاحبيه محمد بن أيمن وابن أبي عبد الأعلى ، وسمع منه كثيرا من هذه الكتب أمير المؤمنين عبد الرحمن بن محمد (الناصر) قبل ولايته الخلافة ، ثم سمع منه ولى عهده الحكم رحمه الله وأخوته ، وطال عمره فسمع منه الشيوخ والكهول والأحداث ، ولحق الصغار الكبار في الأخذ عنه . وكانت الرحلة في الأندلس إليه ، وفي المشرق إلى أبي سعيد بن

الأعرابي ، وكانا متكافئين في السن . وكان قاسم ابن اصبغ بصيرا بالحديث والرجال ، نبیلا في النحو والغريب والشعر ، وكان يشاور في الأحكام^(١) .

وليس في هذا كله إشارة إلى اشتراك قاسم بن أصبغ في ترجمة تاريخ هرويش ، وهو في اعتبارنا من أهم ما أداه هذا العلامة الجليل من خدمات إلى الحركة العلمية في الأندلس ، فإن هذه الترجمة وذيوها بين أيدي الناس كانت نقطة البدء بالنسبة لعصر جديد من عصور التأريخ في الأندلس من ناحية ، ونقطة البدء بالنسبة للتأليف الجغرافي من ناحية أخرى ، فإن كتاب هرويش في صورته العربية يبدأ بمقدمة جغرافية وافية يوجز فيها وصف العمور على أيامه ، وقد اعتمد فيها على كثير من المؤلفات الإغريقية واللاتينية التي كانت في متناول يده ، وهي مقدمة قصيرة بعض الشيء ولكنها دقيقة وافية بالغرض ، وفيها كلام عام عن جغرافية شبه الجزيرة الأندلسية ، وسرى أنه مع إيجازه أصبح فيما بعد أساسا من أسس الوصف الجغرافي لشبه الجزيرة وهيأتها عند مسلمي الأندلس ، وسيرددونه جميعا من أحمد بن محمد الرازي إلى أحمد ابن محمد المقرئ .

أما قصة ترجمة هرويش إلى العربية فقصة طريقة تناولها بالبحث نفر من العلماء قدامى ومحدثين ، وقد اختصها المستشرق الإيطالي ج. ليفي دِلَّا فيدا ببحث مطول نشره في مجلة الأندلس (مجلد ١٩ سنة ١٩٥٤ عدد ٢ ص

(١) ابن الفرضي ، تاريخ علماء الأندلس طبعة (كوديرا ، مدريد ١٨٩٠) رقم ١٠٦٨ ص ٢٩٧ . وانظر أيضا عن قاسم بن أصبغ : جذوة المقتبس للحميدى (طبعة محمد بن تاووت الطنجي ، القاهرة ١٩٥٣) رقم ٧٦٩ ص ٣١١ ، وبغية المتوس للضي رقم ١٢٩٨ ونفح الطيب للمقرئ (طبعة محي الدين) ج ٢ ص ٢٥٢-٢٥٣ ، والديباج المذهب لابن فرحون ص ٢٢٢ وبغية الوعاة للسيوطي (القاهرة ١٣٢٦) ص ٢٧٥ وشذرات الذهب في أخبار من ذهب للعقاد الحنبلي (القاهرة ١٣٥٠) ج ٢ ص ٣٧٥ وكشف الظنون لحاجي خليفة (طبعة فلوجل ، لايدن) ج ١ ص ١٤٥٨ وولس بويجيس رقم ١٩ ص ٥٩ وما يليها .

٢٥٧ — ٢٩٣) ، ونظراً لأهمية هذا المقال فقد رأيت أن أعرض ما يهمننا منه بخصوص هذه الترجمة مع ترجمة الفقرات الهامة وتعليقاتها^(١) .

قال الاستاذ دلا فيدا انه لم يكن أول من تنبه إلى وجود مخطوطة للترجمة العربية لتاريخ هرويش ، فقد سبقه إلى ذلك إجناس كراثشكوفسكى مع أن الشائع في أوروبا انه هو الذى نبه إلى وجوده ، وقال انه رغب من زمن بعيد في^(٢) نشره ثم حالت الظروف دون ذلك ، قال : « إن باولوس أورويزوس^(٣) (هرويش) « حجة العصور المسيحية » الذى قبس القديس أغسطين من لغته اللاتينية (دانتي ، الفردوس . النشيد العاشر . سطور ١١٩ — ١٢٠) غير معروف كثيراً في أيامنا هذه إلا في أوساط الدارسين للتاريخ والأدب القديمين » بل إن هناك باحثين معروفين في ذلك الميدان يجهلون اسم

(١) النسخة الوحيدة المعروفة لنا إلى الآن من الترجمة العربية لتاريخ هرويش مخفولة في مكتبة جامعة كولومبيا في نيويورك تحت رقم X, 993.712 H. وهى مخطوطة جيدة تقع في ١٢٩ ورقة . تنقصها بضع أوراق في الأول إذ هى تبدأ عند جزء من الفهرس وينقصها جزء كبير في آخرها ، لأنها تصل بالحوادث إلى سنة ٣١٣ ميلادية في حكم قسطنطين الكبير امبراطور الدولة البيزنطية في حين أن الأصل اللاتينى يصل إلى سنة ٤١٦ ميلادية . والمخطوطة مكتوبة بخط أندلسى واضح جميل ولكنها مصابة بقطوع كثيرة من فعل الأرضة وأوائل الكثير من الصفحات متآكل تمسر قراءته .

(٢) لنشر فيليب حتى بحثاً قصيراً عن مخطوطة تاريخ هرويش في :

Journal of the American Oriental Society, 59 (1939) p. 125.

وكتب كراثشكوفسكى بحثاً عن نفس المخطوطة في نفس المجلة مجلد ٥١ سنة ١٩٥١ ص ١٧١ —

١٧٢ ومجلد ٦٣ (سنة ١٩٤٣) ص ١٨٧ . وانظر أيضاً :

Michelangelo Guidi: « Roma e gli arabi », in Roma, *Revista di Studi e di Vita Romana*, 20 (1942) 17—18.

O. A. Machado, *La Historia de los Godos según Ibn Jaldūn*, en *Cuadernos de Historia de España*, I—II (1944), 143—144. "

C. Sánchez Albornóz: *San Isidoro, Rasis y «La Pseudo-Isidoriana»*, en *Cuadernos de Historia de España*, IV (1946), 73—113.

(٣) وانظر أيضاً إشارة رامون مئندز بيدال إلى مكانة أورويزوس في تاريخ الثقافة في العصر القوطى في مقدمة المجلد الثانى من تاريخ اسبانيا العام الذى يشرف على إصداره ، المجلد الثانى (اسبانيا الرومانية) (مدريد ١٩٣٥) ص ٣٤ — ٣٨ من المقدمة ، والمجلد الثالث « اسبانيا القوطية » (مدريد ١٩٤٠) ص ٣٨٢ — ٣٨٦ (هذا القسم كتبه الأب Justo Pérez de Urbel) .

هروشيئ ، وأن الترجمة الانجليزية التي صدرت منذ بضع سنوات لم تنفع في تعريف الناس به أكثر مما نفعت الترجمة الانجليزية القديمة التي أمر بعملها الفريد الكبير ملك إنجلترا في القرن التاسع الميلادي^(١) ، أما في العصور الوسطى فقد كان لتاريخ أوروزيوس المعروف باسم *Historiarum Libri Septem adversos Paganos* (كتب التاريخ السبعة في الرد على الوثنيين) من الشهرة ما يزيد على أى كتاب آخر في التاريخ العام . ومع أن هدفه لم يكن رواية الأخبار الماضية وإنما التذليل على أن الله هو المحرك الدائم لحوادث التاريخ ، إلا أن كتابه كان يُقرأ ويشرح على أنه مرجع تاريخي . ثم ان قيمته العامة من هذه الناحية قليلة إلا فيما يتصل بقسمه الأخير ، لأن عصرنا لم يعد يتذوق أسلوب الطعن الذي يجري عليه ولا تلك السذاجة اللاهوتية التي يتسم بها تلميذ القديس أوغسطين . . . كان من المعروف منذ زمن طويل أنه توجد ترجمة عربية لهروشيئ ، وهو الوحيد من بين مؤلفي اللاتين في العصور القديمة الذي ترجمه العرب إلى لسانهم ، وهم من نعرف اهتماماً بترجمة كتب اليونان ؛ فقد أشارت إلى هذه الترجمة تواريخ الأدب اللاتيني^(٢) . وإذا لم أكن مخطئاً فإن أول من أشار إلى

(١) قام بترجمة تاريخ أوروزيوس من اللاتينية إلى الانجليزية I. W. Raymond ونشرت الترجمة في نيويورك سنة ١٩٣٦ (مطبعة جامعة كولومبيا) .

(٢) يقول سيموليت في كتابه « تاريخ مستعربى إسبانيا » (مدريد ١٨٩٧-١٩٠٣) ص ٤٧ من المقدمة — دون أن يذكر المراجع التي استند إليها — إن بعض ما كتبه Colomella الزراعة ترجم إلى العربية ، ولم أعثر على خبر يؤكد ذلك . وبمناسبة الترجمة العربية لهروشيئ أبلغني صديق الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب أن لديه مخطوطة تشبهها ، وتفضل فأرسل إلى صورتها الفوتوغرافية . وأصل هذه المخطوطة محفوظ في مكتبة جامع سيدى عقبة في القيروان ، وبعض أوراقها اضررت به الأرض والرطوبة ، وبعض صفحاتها ملتنصق ببعضها الآخر بحيث لا يمكن فصلها إلا باستخدام الوسائل الفنية اللازمة لذلك . وفي الأوراق التي أمكن تصويرها ، وعددها ٣٢ ورقة ، نقرأ عرضاً عظيم القيمة لتاريخ الدنيا ، ومنه يتبين دون شك أن هذا التاريخ مسيحي يتناول الحوادث من أوائل أيام المسيحية حتى نهاية الفتح العربى لإسبانيا مع أخبار وحكايات كثيرة مستقاة من الانجيل أو الكتب القديمة أو الكنسية ، وهذا الكتاب يقسم التاريخ إلى سبعة عصور ، وهو تقسيم تقليدى عند المؤرخين القدامى ، وقد أتبعه إيزيدور الاشبيلي . وقد ورد ذكر هروشيئ وجيرولامو في هذه المخطوطة . =

وجود هذه الترجمة هو اسحاق سلفستردى ساسى ، فقد نشر نصا غربيا أخذه من « عيون الانبياء فى طبقات الأطباء » لموفق الدين أحمد بن أبى القاسم المعروف بابن أبى أصيبعة من أهل القرن السابع الهجرى/الثالث عشر الميلادى ، وهذا النص وارد فى ترجمة أبى داوود سليمان المعروف بابن جلجل (عاش فى القرن الرابع الهجرى/العاشر الميلادى) ، وقد نقله ابن أبى أصيبعة عن مقدمة كتاب « تفسير أسماء الأدوية المفردة لديسقوريدس » وهو نص طويل نوجزه فيما يلى : أن كتاب ديسقوريدس ترجم فى بغداد أيام الخليفة المتوكل على يد اصطفن بن بسيل الترجمان ، ثم راجع الترجمة وصححها حنين بن اسحاق . وقد ترجم اصطفن ما استطاع ترجمته من أسماء الأدوية وترك ما لم يعرفه على صورته اليونانية لعل أحداً ممن يأتون بعده يستطيع العثور على ما يقابله بالعربية . وقد ظلت هذه الترجمة مستعملة بالشرق والأندلس إلى أيام عبد الرحمن الناصر ، « فكتبه أرمانىوس الملك ملك قسطنطينية ، أحسب فى سنة سبع وثلاثين وثلثمائة ، وهاداه بهدايا لها قدر عظيم » فى جملتها كتاب ديسقوريدس « وكتاب هُرويسُ صاحب القصص ، وهو تاريخ للروم عجيب فيه أخبار الدهور وقصص الملوك الأول وفوائد عظيمة ، وكتب أرمانىوس فى كتابه إلى الناصر إن كتاب ديسقوريدس لا تجتنى فائدته إلا برجل يحسن العبارة باللسان اليونانى ، ويعرف أشخاص تلك الأدوية ، فإن كان فى بلدك من يحسن ذلك فزت أيها الملك

= ولا شك فى أنها من كتابات المستعربين . ولكننى لم استطع أن أثبت ما إذا كانت ترجمة لأصل لاتينى يمكن التعرف عليه أو جمعاً وتصنيفاً من أصول شتى ، وربما كان الفصل فى ذلك يتعدى حدود قدرتى . وقد تبينت فى بعض أوراق مخطوطة القرويين التى تتناول التاريخ العام فقرات من محاورات لصراية اسلامية ، وبعض هذه الفقرات تضم المحاوراة المعروفة بين الجائليق النسطورى طيمائوس (Timoteo) والخليفة العباسى المهدى (انظر عنها كتاب G. Graf المسمى *Gesch. der christl. arab. Literatur II*, 115-118) وفقرات أخرى من محاوراة بين كاثوليكى و « أعرابى » ولم استطع التعرف على حقيقتها . وهذان النصان يدلان على أنه كانت هناك علاقات أدبية بين المستعربين والكنائس المسيحية الشرقية ، ووجود هذه العلاقات ثابت من الترجمة اللاتينية لقوال الكندى فى فضل الاسلام .

بفائدة الكتاب ، أما كتاب هروسيئس ، فعندك في بلدك من اللطينيين من يقرأه باللسان اللطيني ، وإن كَشَقْتَهُم عنه نقلوه لك من اللطيني إلى اللسان العربي^(١) .

« ولم يكن امبراطور الدولة البيزنطية في سنة ٩٤٨ أو ٩٤٩ هو رومانوس الأول ليكابينوس (٩١٩—٩٤٤) أو رومانوس الثاني (٩٥٩—٩٦٩) وإنما قسطنطين السابع المعروف ببورفيروجينيتوس (٩٤٤ أو ٩٤٥—٩٥٩) الذي يذكر المؤرخون الأندلسيون بالفعل أنه أرسل سفارة إلى قرطبة في صيف ٩٤٩/٣٣٨ وأخرى سابقة عليها سنة ٩٤٧/٣٣٦—٩٤٨ ، فقد ذكر ابن خلدون ذلك وأضاف أن خليفة قرطبة أرسل سفارة ردا على هاتين السفارتين ، ولا أهمية هنا للاختلاف الواضح في التواريخ ، فإن للخطأ فيها أسبابا شتى^(٢) . »

« ومع أنه لا يبدو أنه ليس هناك ما يدعو إلى الشك في اهداء الامبراطور البيزنطي لكتاب ديوسقوريدس ، رغم الخلط بين رومانوس وقسطنطين السابع ، فإن الشك في إرساله كتاب هروشيئس له ما يبرره ، فإنه ليبدو لنا مستحيلا — أو بعيد الاحتمال على الأقل — أن توجد في القسطنطينية مخطوطات لاتينية في القرن العاشر^(٣) ، وربما يكون اسم كتاب هروشيئس قد أضيف إلى اسم

(١) انظر ابن أبي أصيبعة : كتاب عيون الأنباء في طبقات الأطباء — الباب الثالث عشر في أطباء إفريقية والأندلس ، بتحقيق نور الدين عبد القادر والحكيم هنري جاهيم (الجزائر ١٩٥٨) ص ٣٩—٤٠ وانظر أيضا : مقدمة كتاب « طبقات الأطباء والحكماء لابن جلجل بتحقيق نؤاد السيد (القاهرة ١٩٥٥) ، وقد أفرد الأستاذ المحقق في تلك المقدمة فصلا ضافيا عن كتاب هروشيئس وترجمته إلى العربية وأورد في أثناء هذا الفصل ملخصا لقال ليني دلا فيدا الذي نحن بصددده ، انظر ص كط—لج من المقدمة .

(٢) انظر :

E. Lévi-Provençal, *Hist. de l'Espagne Musulmane*, II, (Paris 1950) 143—153

ولاحظ نفس المراجع الخاصة بمخطوطات ديوسقوريدس في ص ١٥٠ من المقال المذكور .

وانظر : César Dubler, *La Materia Médica de Dioscorides*, I (Barcelona 1953), 50—51

(٣) ربما لا يكون ذلك بعيد الاحتمال إلى هذا الحد ، انظر :

F. Dölger: *Rom in der Gedankenwelt der Byzantiner*, in *Zeitschrift für Kirchengeschichte*. LVI (1937), 1—42

وخاصة ص ٦—٧ من هذا المقال وآخره .

كتاب ديوسقوريدس- بسبب الخلط والاضطراب الذى أحاط بالخبر كله ، وربما يكون السبب كذلك أن ترجمة عربية لكتاب هرويش ظهرت فى الأندلس حوالى ذلك الوقت .

« ويمطينا ابن خلدون ، وهو المؤلف العربى الوحيد الذى انتفع انتفاعا كبيرا بكتب هرويش فى تصنيف تاريخه المعروف^(١) ، معلومات دقيقة عن ظروف هذه الترجمة ومن قاموا بها ، فقد قال فى كلامه عن حكام بنى إسرائيل بعد يوشع يذكر بعض مراجعه : « وما نقله أيضا هرويشوش مؤرخ الروم فى كتابه الذى ترجمه للحكم المستنصر من بنى أمية قاضى النصارى وترجمهم بقرطبة وقاسم ابن أصبغ... »^(٢) ويقول فى فصل آخر « وخبر هرويشوش مقدم ، لأن واضعيه مسلمان كانا يترجمان لخلقاء الإسلام بقرطبة ، وهما معروفان ووضعا الكتاب ، فإله أعلم بحقيقة الأمر فى ذلك »^(٣) .

« والحكم المستنصر هو ثانى خلفاء بنى أمية فى الأندلس ، فقد خلف أباه عبد الرحمن الناصر فى سنة ٩٦١/٣٥٠ ، ولكن ترجمة كتاب هرويش لا بد أن تكون قد تمت قبل ذلك بسنوات ، أى بينما كانت الحكم لا يزال وليا للعهد . وقد عثر قاسم بن أصبغ البيانى طويلا فقد ولد فى سنة ٨٥٩/٢٤٤ ومات سنة ٩٥٢/٣٤١ وقد ذاكترته قبل موته بسنوات (فى سنة ٩٤٨/٣٣٧ — ٩٤٩) بسبب كبر السن ، ومن هنا فإننا نستبعد أن يكون قد قام بترجمة كتاب ضخمة مثل تاريخ هرويش وصل إلى الأندلس فى تلك السنة الأخيرة أو فى التى قبلها على أقل تقدير . وإذن فلا بد أن يكون قاسم قد قام بهذا العمل قبل ذلك ، ربما بسنوات كثيرة . لقد كان قاسم مؤدبا للحكم فى شبابه

(١) أشار إلى انتفاع ابن خلدون بتاريخ هرويش : O. A. Machado فى مقاله الآف الذكر

مجلد ١ و ٢ ص ١٤١ — ١٤٢

(٢) ابن خلدون ، كتاب العبر . مطبعة بولاق ، ج ٢ ص ٨٨

(٣) نفس المصدر والجزء ص ١٩٧

(عندما تولى إلهكم الخلافة بعد حياة أبيه الطويلة كانت السن قد تقدمت به) ومن الممكن أن يكون قيامه بالترجمة أيام كان مؤدياً للحكم . والآن نسأل : من كان « قاضى أو مترجم النصارى » الذى اشترك فى العمل مع قاسم ؟ لا نستطيع أن نقطع برأى فى ذلك ، وعلى أى حال فإننا نستبعد أن يكون مسلماً كما قال ابن خلدون ، فإن وظيفة قاضى النصارى التى يرد ذكرها مراراً فى المراجع الأندلسية كان يتولاها نصرانى ، بل يبدو لى أنه كان من رجال الدين^(١) . وقد كان سيمونيت هو آخر من توفر على دراسة هذا الموضوع . وقد ذكر اثنين من قضاة النصارى يحتمل أن يكون أحدهما قد قام بذلك العمل وهما حفص بن ألب (أو ألفارو) والوليد بن خيزران الذى كان يسمى أيضاً ابن مغيث ، والثانى منها كان معاصراً للحكم المستنصر ، ومن الممكن أن يكون هو الذى اشترك مع قاسم فى ذلك العمل .

« والغالب أن التعاون بين الاثنين جرى على أن يقوم النصران بنقل مضمون النص إلى صاحبه ، وذلك بحسب معرفته باللاتينية والروايات التاريخية القديمة ، مهما كانت هذه المعرفة ، ويتولى قاسم صياغة ذلك فى قالب عربى مضيفاً عليه بلاغة تسيغه لقراء العربية . ونلاحظ آثاراً واضحة لعمل كل منهما فى مخطوطة جامعة كولومبيا . ولا شك أن المخطوط اللاتينى الذى ترجمه الاثنين كان من أصل اسباني ، وذلك يبدو واضحاً من الطابع الخاص الذى تبدو به هذه الترجمة العربية إذا راجعناها على أصول لاتينية أخرى . »

« ولم يشك فى أصالة الترجمة العربية لتاريخ هروشيوش أحد من العلماء القلائل الذين تتبعوا آثارها فى الكتب العربية المختلفة ، ولو أن بعض الفقرات

Simonet, *Historia de los Mozárabes de España*, pp. 111—112, 171, 622 (١)

E. Lévi Provençal, *Hist. de l'Espagne Musulmane*, III (Paris 1953), 219 . وانظر أيضاً :

التي وردت في تلك الكتب لا توجد في الأصل الذي لدينا^(١)، مما جعل دى
سلان يقول إن ترجمة هرويش مختلفة أو مزعومة^(٢)، وذهب اشتاينشneider
إلى أن ترجمة عربية لهرويش لا وجود لها إلا في رأي بعض العلماء^(٣)، وبعد
ذلك بقليل قرر وليام مارسيه بما عُرِف عنه من ملكة النقد الدقيق أن المعلومات
التي يوردها ابن خلدون عن تاريخ الرومان قبل الامبراطورية لا بد أن يكون
مرجعها الأخير تاريخ هرويش، ولو أنه وقع في أخطاء كثيرة عند النقل^(٤).
إلى هنا ينتهى ما نقلناه من كلام ليني دلا فيدا بهذا الصدد^(٥).

وإذن فقد تداول أهل العلم في الأندلس خلال النصف الأول من القرن
الرابع الهجرى كتاباً عاماً في الجغرافية والتاريخ يقدم إليهم جانباً طيباً من
المعلومات الصحيحة إلى حد ما عن وصف المعمار وتاريخ العصور القديمة،
وهو كتاب مصوغ في لغة أدبية جيدة تغرى القارىء بالمطالعة وتفتح أذهان
المتطلعين إلى الجغرافية والتاريخ على آفاق جديدة من العلم والمعرفة وتبعث من
يريد منهم على الاتجاه بملكاته إلى هذه الناحية. ومن الواضح أن أثر هذه
الترجمة في هذا الميدان كان مباشراً، فمن بين تلاميذ قاسم بن أصبغ ظهر أول
مؤرخ جغرافى أندلسى وهو أحمد بن محمد الرازى، وقد كتب كتابه على غرار

(١) لم يعن بعد سلفستر دى ساسى بتتبع آثار ترجمة هرويش في الكتابات العربية إلا
جوستات فلوجل في المقال الذى نشره في *Allgemeine Encyclopidie der Wissenschaften und Künste*
التي قام بتحريرها Ersch und Gruber، القسم الثالث، الجزء الخامس (١٨٣٤) ص ٥١٤، فقد
أضاف إلى المادة التي جمعها سلفستر دى ساسى عبارة وردت في كشف الظنون لحاجى خليفة (طبعة
أوروبا ج ٥ ص ١٧١—١٧٢ تعليق رقم ١٠٦٢)، وإشارة أخرى وردت في فهرست ابن
النديم، ص ٢٥٥ يتتبع فلوجل أن المراد بها هرويش.

(٢) انظر ترجمته الفرنسية لمقدمة ابن خلدون، ج ١ ص ٤٧٤ وج ٣ ص ٢٤١ وكذلك مجموع

مختاراته المسماة *Notices et Extraits des Manuscrits Arabes* المختارات رقم ١٩ و ٢١

(٣) *Steinschneider, Die arabische Uebersetzungen aus dem Griechischen, in Beihefte zum Centralblatt für Bibliothekswesen, V (1890), 18—19*

(٤) أنظر *Revue critique d'histoire et de littérature, N. S. 96 (1929), 262*

(٥) *G. Lévi Della vida, La Traduzione Arabica della Storia di Orosio. Al Andalus, vol. XIX, fasc. 2, pp. 257—265*

كتاب هروشيئش : مقدمة جغرافية وافية يليها التاريخ ، وأخذ عن هروشيئش الوصف العام لشبه الجزيرة والتصور البطليموسى لهيئتها ووصفها . وعلى هذا الأسلوب مضى من أتى بعد الرازى من مؤرخى الأندلس وجغرافيه ، فقد حرص كل مؤرخيه على أن يقدموا لمؤلفاتهم بمقدمات جغرافية ، وأما الجغرافيون منهم فقد ضمنوا أوصافهم للبلاد ما حضرهم من وقائع التاريخ كما نرى عند العذرى والبكرى . ومن الجدير بالملاحظة أننا لا نجد كتاباً في التاريخ في الأندلس لا نستطيع أن نعهده أيضاً كتاب جغرافية .

ويرجع هذا في المكان الأول إلى الصورة التي ظهر بها تاريخ هروشيئش في ترجمته العربية ، ويرجع في الحل الثانى إلى أسلوب قاسم بن أصبغ ، فهو أسلوب سليم قوى بليغ في معظم أجزائه وإلى مكانة قاسم نفسه ، فقد كان اشتراكه في ترجمة هذا الكتاب إعزازاً للجغرافية والتاريخ وأشعاراً للناس بأنهم من العلوم الجديرة بعناية أهل العلم وطالبه .

ولا شك في أن قاسم بن أصبغ بذل جهداً عظيماً في صياغة هذه الترجمة ، فإن النص حافل بالأعلام الجغرافية والتاريخية التي كانت تعتبر جديدة على العرب إذ ذاك . ومع أن نص هروشيئش جامد جاف يسرد أسماء المواضع وحدودها على طريقة بطليموس ، ويورد وقائع الحروب متوالية لا يربط بينها إلا منهجه الخاص في تفسير التاريخ ، إلا أن قاسماً عرف كيف يعرّب الأعلام الجغرافية والتاريخية أو يزسمها على نحو بالغ الدقة يذكرنا بأسلوب رفاعة رافع الطهطاوى ومدرسة المترجمين التي عملت معه في القاهرة منذ قرن ونيف ، وما أشبه الأمس بأول أمس ! وواضح أن الوليد بن خيزران وقاسم بن أصبغ اجتهدا في أن تكون الترجمة مطابقة للأصل على قدر الإمكان ، حتى فاتحة الكتاب التي يخاطب هروشيئش فيها أغشئين (القدس أوغسطين) والتي يشبه نفسه فيها بالكلب الأمين الذى يتبع «أربابه» عن حب غريزى لهم مُرَكَّب في طبعه ، حتى هذه يوردها في صورة هى أقرب ما تكون إلى صورتها اللاتينية ، مع مجافاة هذا التشبيه للذوق العربى .

ويعني هنا القسم الجغرافي ، وهو صغير ولكنه دقيق . هذا القسم هو الباب الثاني من الجزء الأول من الكتاب ويبدأ بقوله : « قسم العلماء الماضون دَوَّرَ الأرض المحدث عليه البحر المحيط على ثلاثة أقسام : قسم يسمى أرضه أشيه ، وهو سهم سام بن نوح ، وقسم يسمى أوربَّا ، وهو سهم يافث بن نوح ، وقسم سُمِّي إفريقيا ، وهو سهم حام بن نوح » . وقاسم بن أصبغ لا يستعمل اسم « قارة » بل يسميها « قسما » أو « سهما » ولعل هذا هو الذي حال بين الكثيرين من جغرافي الأندلس وبين أن يتبينوا انقسام الدنيا القديمة إلى قارات ثلاث . والترجمة العربية لهرويش في هذا القسم الجغرافي مطابقة للأصل اللاتيني كلمة كلمة تقريباً ، فلم يسقط المترجمان إلا عبارات قليلة لا تؤثر في السياق . وقد تبينت عند مقابلة الترجمة على الأصل عظم الجهد الذي بذله قاسم للعثور على مرادفات عربية صحيحة لمصطلحات جغرافية لاتينية كثيرة استعملها هرويش . أما الرسم العربي للأعلام فدقيق غاية الدقة ، وقد تكلف قاسم عناء شديداً في إيراد هذه الأعلام في صورة هي أقرب ما تكون لرسمها اللاتيني ، كما سنتبين في النماذج التي سنعرضها فيما يلي .

بعد كلام عام مختصر عن تقسيم العالم القديم إلى ثلاثة أقسام يبدأ الكتاب بنظرة عامة على كل قسم منها ، فيقول عن قسم أوروبا « إن ابتداءه من ناحية الجوف من النهر الذي يدعى طنائي (Tanai) من مهرق ماء الجبال المنحرفة على المحيط الذي يدعى شَرْمَطُنُم (Sarmaticum) ، ثم يجاوز ذلك النهر متالئ الاسكندر الأعظم ومواقع محاربة قيصر إلى تخوم الروبشكين^(١) . فهناك يغمر المروج التي تدعى مَوَطِدِش (Maeotides) . وتفيض تلك المياه فيضاً

(١) المراد هنا « حتى نهر الروبيكون Rubicon » وهو النهر الذي كان يحدد منطقة نفوذ قيصر قبل محاربة بومي . والنص اللاتيني الذي أراجع عليه يقول هنا : Roxalorum Sinibus Situs : تخوم خليج الروكسلانيين . والأصل العربي أصبح هنا وهو مترجم عن مخطوطة يرد فيها اللفظ في صورة Robascarum و Rhobascorum كما نرى في مخالقات النص اللاتيني المنشور (راجع تعليق ١٠ ص ١١) وقول المترجمين « مواقع محاربة قيصر » يدل على أنها كانوا يعرفان المراد بهذا اللفظ .

عظيما عند مدينة طودوشية (Theodosia) . ثم يتسع موقعها فى البحر الذى يدعى أخشئين (Pontus Euxinus) . وهذه المروج تمتد متضايقة نحو القسطنطينية إلى أن تتصل ببحرنا (mare Nostrum) هذا الذى نسميه المتوسط . وآخر قسم أوروبا فى الغرب بلد الأندلس (Hispania) والبحر المحيط . وأقصى ذلك عند جزيرة قادس حيث ضم هَرْكَلَش ، وحيث يكون مدخل البحر المتوسط فى البحر المحيط » وهذا مثل من أسلوب الترجمة تظهر فيه الدقة فى الأداء ورسم الأعلام وسلامة الأسلوب ، بل بلاغته .

وبعد أن يلقى هروشيش نظرة موجزة عن كل من قسى افريقية وآسية ، يعود إلى تفصيل ما أجمل قائلا : « وستصف سهم أوروبا بأقصى ما ندرك من وصف » . ولكنه لا يفصل الكلام ، وإنما يعرض بلاد أوروبا بلداً بلداً فى إيجاز شديد . وقد رأيت أنه من المفيد فى هذا المجال أن آتى بنص كلامه عن أوروبا حتى تبين قيمة المادة الجغرافية التى أتاحها عمل قاسم بن أصبغ لأهل العلم فى الأندلس^(١) . وإنما اخترت أوروبا لأنها كانت إلى ذلك الحين بالنسبة لأهل الجغرافية فى شرق العالم الإسلامى وغربه أشبه بالعالم المجهول ، وستتدر التفاصيل الواردة فى هذه الترجمة الطريق أمام جغرافى الأندلس بعد ذلك . وسنرى فيما يلى من أجزاء هذا البحث كيف طوّر الجغرافيون الأندلسيون هذه المعلومات القليلة الجافة التى لا تزيد على ذكر أسماء البلاد وحدودها إلى جغرافية بشرية حقيقية ، فيها كلام عن السكان وصفاتهم وأعمالهم وصناعاتهم وزراعتهم وعوائدهم ، وستبين هذا بوجه خاص فيما يتصل بالأندلس . وفرق عظيم بين كلام هروشيش وكلام الرازى عن ذلك البلد ، وكلاهما من أبنائه . فعلى حين يكتفى هروشيش بحدود البلد وبعض أقسامه ومدنه ، نجد الرازى يبدأ بمقدمة طويلة عن الجغرافية العامة لشبه الجزيرة ، ثم يشكلم عن كل ناحية من نواحيه بتفصيل واف ، ثم

(١) القطعة التى سأوردها خاصة بأوروبا توجد فى مخطوطة هروشيش من أسفل من ١٧ إلى

منتصف من ٨ ب . ويقابلها فى الأصل اللاتينى المطبوع الذى أراجع عليه من س ٢٢ إلى س ٢٨

يجيء العذرى فيزيد ويفصل ويعرض نواحي الزراعة والحاصلات والرى والخراج والضرائب ، ثم يليه من بعده فينوعون الكلام ويوسعون أطرافه حتى نصل إلى قم علم الجغرافية في أوروبا في العصور الوسطى على الاطلاق : الادريسي وابن خلدون وابن سعيد وابن الخطيب .

ومن أسف أن المخطوطة التي نعتمد عليها أفسدت بعض أجزائها الأربعة وأكل الزمن والإهمال أطراف صفحاتها ، وسنحاول أن نعوض بعض الناقص بالمقابلة على الأصل اللاتيني ، وتبقى بعض ذلك فراغات يسيرة وقلق في بعض العبارات ، ونرجو أن تتاح لنا مخطوطة أخرى تعيننا على تدارك ما لم يسعفنا به ما بين أيدينا . وقد وضعتُ المقابل اللاتيني لكل الأعلام الجغرافية كما وردت في النص المطبوع لكتاب هرويش ، ولم أورد مفارقات هذا الأصل اللاتيني ، لأنها كثيرة جدا ، وإنما اكتفيت منها بالصورة القريبة من الرسم العربى في الترجمة التي بين أيدينا .

« [من جبال رفايه المجاورة لنهر طنائى وسهول مؤطدش]^(١) والتي هي في الشرق ، وعلى [سيف]^(٢) البحر المحيط الجوفى حتى إلى بلد [غَالْلِيْشْ] بليقه ونهر رُودْنَه [^(٣) الذى هو من ناحية الغرب ، ومنها إلى نهر دُوبِيَّة Danubium الذى هو في القبلة ، وجريته إلى الشرق حتى يدخل في البحر المتوسط]^(٤) .

(١) العبارة ناقصة من الأصل ، وقد أكتتها من اللاتينية ، ونصها هناك :

A montibus Rhiphaeis ac flumine Tanai, Maeotidisque paludibus..

(٢) هذه الكلمة في الأصل متأكلة ، وهي تقرأ هناك : ريف . وقد جعلتها سيف ، لأن النص

في اللاتينية : *per littus septentrionalis oceani* وسيف البحر هو شاطئه .

(٣) اسم البلد وما بعده متأكلا في الأصل ، وفي اللاتينية :

ad Galliam Belgicam et flumen Rhenum

ويقابل ما وضعته في المتن بين توسين . وسيرد الكلام على عاليه بليقه هذه ، وهي جزء من غالة كانت تسكنها قبائل البلجيين *Belgae* .

أما نهر رودنه فهو الرين .

(٤) النص اللاتيني لا يحدد هنا البحر الأبيض ، بل يقول : *ponto excipitur*

وواضح أن المراد هنا تحديد عام لجزء كبير من شرق أوروبا يعتد به المؤلف اقلها واحدا ، ويقول لأنه يبدأ من جبال في الشرق يسميها جبال رفايه عند نهر طنائى الذى يبدو أنه الدنيبر ثم يقول إن المحيط الشمالى (الجوفى) يحيط بها (من الشمال) حتى ما يعرف الآن ببلجيكا ، ويحدها من الغرب نهر الرين والوطنه .

«فإن شرق هذا البلد يدعى ألانية (Alania) وفي وسطها بلد داجية (Dacia) وبعدها غوشية (Gothia) وبعدها يرمانية (Germania) ، الذي أعظم أجزائه بأيدي الشَّوابين (Suevi) ^(١) . في رجوا ^(٢) وفي جميع هذه البلاد من الأجناس أربعة وخمسون جنساً .

«وسنصف ما يغلغ عليه نهر دَنُوبية» (Danubium) إلى بحرنا المتوسط دون الأجناس التي وصفها .

«البلد الذي يدعى مَواشِية (Moesia) : شرقيه مدخل نهر دنوبية ، ومن تحت الشرق إلى الجنوب بلد طراجية (Thracia) ، ومن ناحية القبلة بلد مجدونية (Macedonia) ، وفيما بين القبلة والغرب بلد دلازية (Dalmatia) . ومن ناحية الغرب [بلد إشتريه Istria] ، وما بين الغرب والجوف بلد بنونية (Pannonia) ومن ناحية الجوف نهر دنوبية ^(٣) .

البلد الذي يسمى طراجية : شرقيه خليج خارج من البحر المتوسط ^(٤) ومدينة قسطنطينية ^(٥) . ومن ناحية الجوف بعض بلد دلازية ، وخليج خارج من البحر الذي يقال له أخشينوس Pontus Euxinus المتوسط في الغرب . وما بين الغرب والقبلة بلد مجدونية . وفي القبلة الموضع الذي يقال فيه للبحر المتوسط أياؤه ^(٦) .

(١) المؤلف هنا يذكر القبائل الجرمانية التي استقرت في ذلك الجزء الكبير الذي يصفه ، وهو ينسب كل جزء من أجزائه إلى القبيلة التي سكنته معتبرا إياها بلدها .

(٢) وردت هذه الكلمة هكذا في الأصل . ولا وجود لما يقابلها في النص اللاتيني :

...Suevi teneti quorum omnium sunt gentes quinquaginta quatuor

(٣) هذه العبارة محرفة في النسخة التي لدينا ، لأن مقابلها اللاتيني :

Ab occasu Istriam, a circio Pannoniam وإلى الغرب لإستريه ، ومن ناحية الجوف بنونية .

(٤) الأصل اللاتيني يقول هنا : Propntidis sinum .

(٥) هنا أسقط المترجم عبارة quae Byzantium prius dicta est .

(٦) كذا . وفي الأصل اللاتيني Aegaeum وهو ما يعرف اليوم ببحر إيجه ، وعلى هذا فيمكن

تصويب الصورة الواردة في الترجمة إلى إيجاهوه أو إيجاوة .

نألفها . هي بلاد الآلان وعوشيه (كذا) هي بلاد القوط ويومانه هي بلاد الجرمان .

« البلد الذى يدعى مجذونية (Macedonia) : شرقة الموضع الذى يسمى فيه البحر المتوسط أياؤه [وجنوبه بلد طراجية ، ومن تحت الشرق إلى الجنوب بلد أبويه وخليج مجذونية]^(١). وفيما بين الشرق والقبلة بلد أفايهه (Achaia) ، وخليج خارج من المتوسط ، وهو خليج بلد مجذونية . ومن ناحية القبلة والغرب بلد دَلْمَازِيَه ،^(٢) وما بين الغرب والجوف بلد دَرْدَانِيَه (Dardania) ، وفي الجوف بلد مُوَأَشِيَه (Moesia) .

« البلد الذى يدعى أفايهه (Achaia) : يكاد البحر يحدق به من كل جهاته . شرقة بحر مِرْتِيَه (Myrtoum mare) ، وما بين الشرق والقبلة بحر جزيرة قريطش (mare Creticum) ، وفي القبلة البحر اليونانى (Ionium mare) ، وما بين الغرب والقبلة ، وفي الغرب الجزيرتان اللتان يقال لهما جِبَلَانِيَه (Cephalonia) وقسبوريه (Cassiopa) ، وفي الجوف خليج مدينة قُرْنُثَه (Corynthis) ، ليس بالبعد من مدينة الأطيناشيين (Atenai) من الروم الغريقيين (Graeci) .

« البلد الذى يدعى دَلْمَازِيَه (Dalmatia) : شرقة بلد مجذونية ، وفيما بين الشرق والجوف بلد دردانية (Dardania) ، وفي الجوف بلد موأشيه ، وفي الغرب بلد إشتريه (Istria) والخليج الذى يسمى لبُورِيَه (Sinum Liburicum) والجزائر التى يقول لها لِبُرْنُقِشْ (Liburnicas)^(٣) ، وفي القبلة الخليج الذى يدعى أدرياطِقُر (Adriaticum) .

(١) أسقط المترجم هذه العبارة وهى فى الأصل اللاتينى :

à borea Thraciam, ab euro Euboeam et Macedonicum sinum.

(٢) سقطت من الترجمة العربية هنا عبارة كبيرة :

a favonio montes Acroceranios in angustius Adriateci Sinus, qui montes sunt contra Apuliam atque Brundisium.

(٣) فى الأصل لبثرش وهو تصحيف ، لأن الأصل اللاتينى Liburnicum وقد قومت الكلمة فى

المتن على هذا الأساس . وقد سقطت هنا من الأصل العربى الذى بين أيدينا عبارات كثيرة . راجع

الأصل اللاتينى ص ٢٤

« البلد الذى يدعى بنونية ونورقش^(١) [وراثيه] : شرقها بلد مواشية وبعض بلد استرية (Istria) ، وفيما بين القبلة والغرب جبل ألبس (Alpes Penninas) المتصل بالأندلس الأعلى . وفي الغرب بلد غالية بليقه ، [وفيما بين الجوف والقبلة من نهر دنوبية توجد الحدود الفاصلة بين بلد يرمانية وبلد غالية الواقع فيما يلى نهر دنوبية . وفي الجوف نهر دنوبية]^(٢) وبلد يرمانية .

« البلد الذى يدعى إيطالية : وهو بلد مستطيل ما بين الشرق والقبلة إلى ما بين الغرب والجوف ، وحدّه فيما بين القبلة والغرب البحر المتوسط ، وما بين القبلة والشرق الخليج المسمى أدرياطقو ، ويحصر هذا البلد من هذه الناحية مستطिला جبال ألبه (Alpes) ، وذلك فى ناحية الموضع الذى يقال فيه للبحر [الخليج] الفالتي (sinum Gallicum) إلى الخليج المسمى لغشتقو (Ligusticum sinum) متاخما لكورة نربونه . ثم إلى بلد غالليش وبلد راسية (Raetia أو Rhetia) [حيث ينفصل بلد غالليش عن بلد راسية]^(٣) حتى ينتهى إلى الخليج المسمى ليرنيقو (Sinum Liburnicum) .

« البلد الذى يدعى غالية بليقه (Gallia Belgica) : شرقه ريف نهر رانه (Rhenus = الرين) وبلد يرمانية . وما بين الشرق والقبلة جبل ألبه (Alpes) الذى يقال له أبنيه (Alpes Penninas) ، وفي القبلة بلد نربونه ، وفي الغرب بلد لغدون (Gallia Lugdunensis) . وما بين الغرب والجوف البحر المحيط الذى هو بلد برطانية^(٤) . وفي الجوف برطانية .

(١) فى الأصل اللاتينى Pannonia et Naricus et Raetia ولهذا فيلبنى تقويم نورقش إلى نوريقو .

(٢) هذا السطر يقع فى أول الورقة وهو متآكل غير مقروء ، وقد عوضت النقص من النص اللاتينى الذى يقول هنا :

...a circio Danubii fontem, et limitem, qui Germaniam et Gallia inter Danubium Galliamque secernit, a septentrione Danubium et Germaniam.

(٣) العبارة الواردة بين الحاصرتين ساقطة من المخطوط ، وهى فى الأصل اللاتينى :
deinde Galliam Rhetiamque secludit

(٤) النص اللاتينى يختلف هنا بعض الشيء عن ذلك ، فهو يقول : a circio oceanum Britannicum = وفى الجوف بحر بريطانيا .

« البلد الذى يدعى غَالِيَّة لُغْدُون (Gallia Lugdunensis) : هو بلد مستطيل ضيق مستدير يحيط بنصف أرض أقطانية (Aquitania) ، شرقه بلد غالية بليقة ، وقبلته بعض بلد نربونه (Provincia Narbonensis) حيث مدينة أَرِلَّطَه^(١) ، ومدخل نهر ردان (Rhodanus) فى البحر المتوسط الذى يدعى البحر الغالى^(٢) .

« البلد الذى يدعى نربونه (Provincia Narbonensis) : شرقه بعض بلد غَالِيَّة ، وجبل ألبة ، حيث يسمى الجبل قَوَّاش (Cottias)^(٣) فى غرب الأندلس^(٤) . وما بين الغرب والجوف بلد أقطانية ، وفى الغرب بلد لُغْدُون . وما بين الجوف والشرق كورة غالية بليقة . وفى القبة البحر الغالى الذى بين سردانية وجزائر ميورقة ومنورقة . وله جزائر فى الموضع الذى يدخل فيه نهر رُودَنُه (Rhodanus) فى البحر المتوسط تسمى اشتقادس Insulas Stechadas .

ثم يلى ذلك الكلام على اسبانيا ، وهو أهم ما يعيننا هنا ، ولهذا ، فقد رأيت أن أضع الأصل اللاتينى فى مقابل الترجمة العربية تيسيراً للمقابلة وإظهاراً لما بذله المترجمان العربيان من جهد فى العمل الذى قاما به :

« البلد الذى يدعى الأندلس^(٥) : Hispania universa terrarum situ
جميعه محدَّقٌ عليه إلا قليلاً بالبحر trigona est, et circumfusione

(١) المراد هنا مدينة آرل Arles . وفى الأصل اللاتينى Arelas والصورة العربية صحيحة لأنها تقابل Arelate .

(٢) الترجمة العربية هنا موفقة جداً ، لأن الأصل اللاتينى :

... et mare Gallico Rhodani flumen excipitur...

(٣) فى المخطوط قرئش وقد قومته بما يقابل الاسم فى الأصل اللاتينى . والاسم القديم الكامل

لجبال الألب هنا Alpes Cottiae

(٤) كذا ، والصحيح فى شرق الأندلس . والمراد بالأندلس هنا شبه جزيرة لميرية .

(٥) يلاحظ أن المترجمين غيرا فى نظام بعض الجبل ، ككهايتين الجبلين الأولين مثلاً ، ولذلك لم أستطع أن أضع كل واحدة منهما أمام ما يقابلها من الترجمة العربية ، ولكى اجتهدت فى ذلك ابتداء من جملة « فركنه الواحد . . . » . وقد استغنى المترجمان عن بعض العبارات فيما يلى من النص ، وذلك واضح من مقارنة النصين .

Oceani Terrhenique pelagi pene insula efficitur. Hujus angulus prior, spectans ad orientem, a dextris Aquitanica provincia, et sinistris Balearico mari coartatus, Narbonensium finibus inseritur. Secundus angulus circium intendit: ubi Brigantia Calleciae civitas sita, altissimam pharum, et inter pauca memorandi operis, ad speculam Britanniae erigit. Tertius ejus angulus est, qua Gades insulae intentae in african, Atlantem montem interjecto sinu Oceani prospiciunt.

Hispaniam citeriorem ab oriente incipientem, Pyrenaei saltus a parte septentrionis usque ad Cantabros Asturesque deducunt, atque inde Vaccaeos et Oretanos, quos ab occasu habet, posita in

البحر المتوسط ، وهو بلد مُرَكَّبٌ ذو ثلاثة أركان ، فَرَكْنُهُ الواحد يقابل الشرق ، فيما بين بلد أقطانية وبين البحر المتوسط مقابل جزيرة ميورقة ومنورقة . وهناك يجاور بحر تَرَبُونَه .

وركنه الثاني فيما بين الغرب والجوف بناحية مدينة برغنسية في جليقية^(١) حيث الجبل العالى الذى فيه المنارة مقابل بلد برطانية .

وركنه الثالث بناحية جزيرة قادس بين الغرب والقبلة ، مقابل جبل إفريقية المسمى اتلاتش والأندلس أندلسان^(٢)

فالأندلس الأدنى مبتدأ من ناحية الشرق ، ماضياً مع جبل البرنيو مع الجوف حتى إلى مدينة قنتابرية^(٣) وكورة اشتورية ثم إلى البَشْقُس والأوريطيين ، وهم غربه ، حتى يبلغ بحرنا الأوسط عند [ساحل قرطاجنة .

(١) لى الأصل برغنسية في جليقية ، وذلك سهو من الناسخ ، إذ قدم الغين على الراء .

(٢) أضاف المترجمات هذه العبارة زيادة في الإيضاح . وقد أصبحت بعد ذلك عبارة تقليدية نحتها عند كثير من جغرافي الأندلس .

(٣) هنا أيضاً وهم الناسخ أو المملى فكتب قنتابرية بدل قنتابرية .

Nostri maris littore Cartago determinat. Hispania ulterior habet ab oriente Vaccaeos, Celtiberos, et Oretanos; a septentrione Oceanum, ab occasu oceanum, a meridie Gaditanum Oceani fretum; unde mare nostrum, quod Tyrrhenum vocatur, immittitur.

والأندلس الأقصى حده من ناحية الشرق بلد البشقنس والشلطبريين والأوريطيين وفي [الجوف والغرب منه البحر المحيط الغربي وفي القبلية [البحر الذي يحيط بقادس^(١) والخليج الخارج المتصل ببحرنا الذي يسمى بحر تيران^(٢) .

ثم يستطرد النص ليستكمل ذكر بلاد أوروبا ، وسأكتفي هنا بالترجمة العربية مع إيراد مقابل الأعلام الجغرافية في الأصل اللاتيني :

« وفي البحر المحيط جزيرتان يقال لهما برطانية وإ[بارنية واقعتان مقابل شاطئ الأند[لس^(٣) بناحية بلد غالية ، رأيت أب أضيفها في هذا الموضع وهما : [جزيرة برطانية^(٤) التي في البحر المحيط ، فإنها مستطيلة من القبلية إلى الجوف

(١) وضعت هذه العبارة في مقابل Gaditanum Oceani Fretum لأت ذلك المصطلح اللاتيني كان يستعمل للدلالة على المضيق الذي يفصل إفريقيا عن اسبانية . ويسمى عند بلينيوس Fretum Herculeum وعند تيتوس ليفيوس Fretum Hispanum . ولفظ Fretum معناه الذراع الممتد من البحر بين أرضين .

انظر : Valbuena, *Diccionario Latino-Español* (Paris) ص ٣٧٩ عمود ٢

(٢) ما بين الحواصر كله ساقط من الأصل . وقد ترجمته عن الأصل اللاتيني . وعبارة بحر تيران أو البحر التيراني موجودة في الجغرافية العربية ويفسرونه بأنه البحر الذي يقسم الأرض ، وذلك قريب جداً من معنى Mare Tyrrhenum .

(٣) في موضع هذه العبارة قطع كبير في الورقة ، والنص اللاتيني هنا :

Et quoniam oceanus habet insulas, quas Britanniam et Hiberniam vocant, quae in aversa Galliarum parte ad prospectum Hispaniae sitae sunt, breviter explicabuntur.

(٤) القطع في الورقة يمتد حتى يضع هاتين الكلمتين .

وقبله [غالاً] يش^(١) . ومرسى هذه الجزيرة عند مدينة روط (Rhutubi Portus)^(٢) التي في ساحلها ، وطولها ثمانى مائة ميلا ، وعرضها ألف ومائتا ميل ، ويظهر منها في لجة البحر جزائر الأركاذيين (Orchney = Arcadas) ، منها عشرون جزيرة مقفرة وثلاث عشرة جزيرة مسكونة ، وخلفها جزيرة تسمى ثُلْيَة (Thulia) متفردة من غيرها في لجة البحر ، قل من يعرفها لبعدها .

« وأما جزيرة إبارنية (Hibernia وهي إيرلندا) فإنها بين جزيرة برطانية والأندلس ، ممتدة مما بين الشرق والقبلة ، إلى بين الغرب والجوف ، مقابل الجبل المطل في البحر مدخل نهر شِنَا (Scenae flumen وهو نهر الشانون) في البحر المحيط . وهي أضيق قاعة من جزيرة برطانية ، إلا أنها أطيب جواً وأكثر ثماراً ، يسكنها مع الاسكوثيون (Scotti) ، وهم من الفرنج . وتجاورها أيضاً جزيرة يقال لها مفانية (Mevania)^(٣) . طيبة القاعة معتدلة الجو يسكنها الاسكوثيون أيضاً

وهذا انقضاء وصفنا بلاد أوروبا . »

وإنما أوردت الفصل الخاص بأوروبا من هذه الترجمة على تواليه لأنه يعطينا فكرة واضحة عن المادة الجديدة التي أضافتها هذه الترجمة إلى الثروة الجغرافية لدى مسلمى الأندلس في ذلك العصر ، وهي مادة طيبة تقدم صورة موجزة سهلة التصور للمعمور من الأرض في ذلك الحين ، فقد عرف الناس أن اليابس ينقسم إلى ثلاثة أقسام كبرى ، في كل قسم منها بلاد وشعوب ومدن وبحار وأنهار وجبال ، وأخذ الناس فكرة واضحة عن ذلك كله ، وانضاف

(١) تكملة من الأصل اللاتيني : Gallias .

(٢) كذا في الأصل اللاتيني ، والصحيح Portus Rutupiae وهو الإسم اللاتيني لبلدة Richborough على مقربة من لندن .

(٣) كذا في الأصل والترجمة . والاسم الصحيح Mannia وهو الأصل اللاتيني لاسم جزيرة مان Isle of Man

إلى معلوماتهم حشد من أسماء الأعلام الجغرافية ما بين أسماء دول وشعوب وقبائل وأنهار وجبال وخلجان وشواطئ وما إلى ذلك . وإذا كان الجغرافيون من أهل المشرق قد عرفوا قبل ذلك معلومات أوفى مما يقدمه كتاب هرويش عن آسيا وإفريقية ، فإن المعلومات الخاصة بأوروبا كانت جديدة دون شك ، وهذه كتب الجغرافية والرحلات التي كتبها المشارقة حتى أوان هذه الترجمة بل إلى أواخر القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي لا تكاد تجد فيها شيئاً تستطيع الاعتماد عليه عن أوروبا ، فأما رسالة ابن فضلان فلا تصف إلا البلقان وبلاد الروم والبلغار ، وأما كتاب البلدان للياقوت فيقف بالكلام عند الأندلس ، وأبو زيد البلخي لا نجد عنده أى إشارة إلى أوروبا ، وكذلك المقدسي . أما الذي يتحدث عنها بعض الشيء فهو ابن حوقل في الفصل الذي أداره على « بحر الروم » والصورة التي رسمها له مع شرحها ، ومادته لا تتعدى سواحل البحر الأبيض وجزائره وبعض بلاد الدولة البيزنطية مع خلط وخطأ كثير^(١) .

وإذن فهذه هي أول مادة مقبولة عن ذلك القسم من المعمور كتبت بالعربية ، صحيح أنها تصور أوروبا وشعوبها في النصف الأول من القرن الخامس الميلادي ، ولكنها أعطت على أى حال صورة واضحة معقولة لجزء من العالم كان إلى ذلك الحين مجهولاً أو كالمجهول تماماً .

وشيء آخر جدير بالتنويه ، وهو المصطلح الجغرافي الذي استحدثته هذه الترجمة ، وهو مصطلح جديد يختلف إلى حد كبير عن المصطلح المشرقى الذي كان جارياً إلى ذلك الحين ، وقد صاغ قاسم بن أصبغ هذه المصطلحات بمهارة ودقة بالفتن ليعبر عن مفهومات جديدة سواء فيما يتصل بالمعالم الجغرافية كمنابع الأنهار ومصابها أو السهول الخضراء المغطاة بالغابات أو الخلجان الصغيرة أو تحديد

(١) انظر كتاب صورة الأرض لابن حوقل طبعة كرامرز (لیدن ١٩٣٨) ج ١ ص

١٩٠ - ٢٠٥ - وانظر الصممه رقم ٢ من الضمائم التي أضفناها في آخر الكتاب.

الاتجاهات بما يقابل قولنا اليوم مثلا الشمال الشرق أو الجنوب الغربى ، هنا كان توفيق قاسم بن أصبغ عظيما حقا ، وسأورد هنا — على سبيل المثال — بعض المصطلحات التى نجدُها فى ذلك القسم الخاص بأوروبا وما يقابلها فى الأصل اللاتينى ومعناها فى مصطلحنا اليوم ، وسنلاحظ أن هذه المصطلحات ستجرى فى الاستعمال الجغرافى الأندلسى فى نفس الحدود الدقيقة التى استعمالها قاسم بن أصبغ فيها :

قارة	Pars	قسم
فى الشمال	a septentrione	فى الجوف — من ناحية الجوف
	ab oriente	فى الشرق
	(١) ab africo	فى الغرب
فى الجنوب	a meridie	فى القبلة
		فى الجنوب
فى الجنوب الغربى	ab africo	بين القبلة والغرب
فى الشمال الغربى	a circio	بين الغرب والجوف
		تحت الشرق
فى الجنوب الشرقى	ab euro	من تحت الشرق إلى الجنوب
		ما بين الشرق والجنوب
فى الجنوب الغربى	ab occasu	بين الغرب والقبلة
فى الجنوب الشرقى	{ a borea ab euro	بين الشرق والقبلة
فى الشمال الشرقى	ab aquilone	فيما بين الشرق والجوف

(١) المعنى الدقيق لهذا المصطلح : من ناحية الجنوب الغربى راجع : Valbuena, *Diccionario*

Latino-Español, مادة Africus من ٣٥

متلع (متالع)	terminus	سهل ، سهل
حد	lime	
يفلق على	secludit	يحيط بـ
خليج	sinus	
مستدير	inflexus	منحن أو مقوس
كورة	provincia	ولاية
ركن	angulum	زاوية
مُرْكَنٌ	trigonus	مثلث
ضيق ، متضيق	angustius	
محيط	oceanus	
مستطيل	obiscius-longus	

وهذا النموذج الذى قدمناه من جغرافية هرويشش يكفى للدلالة على قيمة الثروة الجغرافية التى قدمها قاسم بن أصبغ إلى أهل العلم فى عصره وعلى الروح التى بها فىمن حفزته ميوله إلى التأليف فى التاريخ والجغرافية . فقد أصبح فى متناول الأندلسيين مرجع قيم فى تاريخ العصور القديمة ، وخاصة اليونان والرومان والبيزنطيين ، وأطلعوا على تاريخ متصل الحلقات للمسيحية كما يرويه أهلها ، فالتسع أفقهم التاريخى وصارت أحكامهم على ذلك كله أدق وأسلم من أحكام من لم يعتمدوا على أساس طيب كهذا ، وسنرى أثر ذلك بوضوح عند ابن خلدون ، وهو المؤرخ المغربى الأندلسى الوحيد الذى تصدى لكتابة تاريخ عالمى ، وهو يشير فيه المرة بعد المرة لكتاب هرويشش كما رأينا ولا غرابة والحالة هذه أن يكون هذا التاريخ قبة من قم التأليف التاريخى عند المسلمين ، لأن قدر المؤلف يتوقف على ملكاته وسراجه معاً ، وفى هذا المجال كان حظ ابن خلدون أوفر من حظوظ أمثاله من أعلام المؤرخين ، وعن ابن خلدون أخذ تلاميذه وخاصة

تقى الدين أحمد بن علي المقرئ ، وهو من الذين اعتمدوا على هرويش وأشاروا إليه .

أما من الناحية الجغرافية فهذه المقدمة الجغرافية الموجزة التي قدم بها هرويش لتاريخه وضعت قاعدة سار عليها كل مؤرخي الأندلس بعد ذلك وهي التقديم للتاريخ بالجغرافية ، أي وصف الميدان قبل ذكر الحوادث ، أي أنهم أصبحوا جغرافيين ومؤرخين في آن واحد ، وعنوا بالجغرافية عنايتهم بالتاريخ ، ومن هنا غنيت المكتبة الجغرافية الأندلسية على نحو فريد في بابها حقاً ، وانفتح المجال أمام هذا العلم الإنساني الكبير ليتطور ويرقى في كل اتجاه : اتجاه الوصف الطبيعي والاتجاه البشري (السكان وعلاقتهم بالبيئة واستخدامهم للموارد الطبيعية وأثر ذلك في أحوالهم وأخلاقهم) واتجاه وصف الرحلات .

وعند أحمد بن محمد الرازي أول تلاميذ قاسم بن أصبغ سنرى نموذجاً بديعاً للاتجاهين الأولين ، سنراه يأخذ المادة البسيطة التي يقدمها هرويش بالإضافة إلى المادة المشرقية الطيبة التي وصلت إليه ، ويبني على ذلك كله جغرافية متكاملة الأندلس تتناول الوصف الطبيعي : الهيئة العامة لشبه الجزيرة ووصف الموقع والسطح (خاصة الجبال والأنهار) ثم تتناول الأقسام الإدارية واحداً واحداً بالوصف والتفصيل مع ذكر ما فيها من منابع الثروة ووجوه الانتفاع بها . وقد كانت بداية الرازي أساساً اعتمد عليه من أتى بعده من المؤرخين والجغرافيين ، فأما المؤرخون منهم فقد اقتصروا على نقل كلامه وربما اختصروه ، وأما الجغرافيون فقد اعتبروه نقطة بداية وأساساً وزادوا وتوسعوا ، كلٌّ بحسب ميوله ومفهوم الجغرافية عنده . وفي كلا الحالتين نرى الخيط متصلًا وخطوات التطور مرتبط بعضها ببعض حتى نصل إلى أعلام من طراز البكري والإدريسي وابن خلدون ، وكل واحد منهم مدرسة قائمة بذاتها في تاريخ علم الجغرافية عند العرب . وإنها لصفحة مشرقة في تاريخ العلوم عند العرب نراها في انتقال كتابات هرويش إلى عرب الأندلس عن طريق عالم فقيه طموح إلى المعرفة وقسّ

نصراني مستعرب لسانا وروحا وثقافة ، وقد قاما بهذا العمل بإيحاء خليفة مستنير هو الحكم المستنصر كان أقرب إلى العلماء المنصرفين إلى البحث والدرس منه إلى ذوى الجاه والسلطان ، ثم تناولها جغرافي مؤرخ موهوب هو احمد بن محمد الرازي فبنى على كلام هرويش ووسعه ، وأضاف إليه المادة المشرقية الوفرة وأنشأ جغرافية طبيعية بشرية متكاملة ، ثم جاء من بعده فأكملوا بناءه ووصلوا به إلى أبعد ما وصلت إليه الجغرافية عند العرب من شمول وضبط وتحقيق . ثم تنقضى أيام المسلمين ويحيى ملك علامة نصراني هو ألفونسو العاشر فيأمر بترجمة جغرافية الرازي إلى الاسبانية ويضمنها تاريخاً عاماً لاسبانيا ، وعلى أساس هذا التاريخ العام يقوم التأليف في الجغرافية والتاريخ في اسبانيا إلى نهاية القرن السادس عشر الميلادي .

فأى برهان هو أنصع من هذا على اتصال شجرة المعرفة الانسانية واستمرارها من عصر لعصر وتعاون الأجيال على رعايتها والعناية بها رغم اختلاف الأديان واللغات والعصور ؟ وأى برهان هو أكد من هذا على ما قام به العرب من دور جليل في تطوير المعرفة الانسانية والسير بمشعل الحضارة الانسانية خلال العصور التي تسمى مظلمة — وما هي مظلمة بحال؟ هنا نرى دور العرب من الوضوح بحيث يكاد يلمس باليد . وهذا في فرع واحد من العلوم ، وفي الميادين الأخرى براهين أخرى لمن درس وبحث وطلب الحقيقة في بطون المؤلفات .

احمد بن محمد الرازى ومعا صروه

يعتبر احمد بن محمد الرازى أبا الجغرافية والتاريخ فى الأندلس فى آن واحد ، فقد أخذ عن أبيه محمد بن موسى الميلى إلى التاريخ والاهتمام بالتأليف فيه ، وزاده اهتماما بهذا الفن شيخه قاسم بن أصبغ البياضى ، وقد رأينا عنايته بالتاريخ واشتهار أمره به فى الأندلس ، ورأينا كيف انصرف مع الوليد بن خيزران إلى ترجمة كتاب هرويش وكيف قاما بها على ذلك النحو الفريد . فإذا ذكرنا أن هذه الترجمة لم تكن إلا جزءا يسيرا من ذلك النشاط الثقافى الذى زخرت به قرطبة أيام الحكم المستنصر ، تصورنا البيئة العلمية الأندلسية فى ذلك العصر : بيئة تأليف وترجمة وتجديد وطلب دءوب للعلم والمعرفة مما جعل قرطبة خلال القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى مركزا من مراكز القيادة والاشعاع للحضارة فى العالم أجمع .

فى هذه البيئة المواتية نشأ احمد بن محمد الرازى ، وكان بطبعه طلبة متهما بأحوال الدنيا وأخبار البشر ، فانصرف إلى الجغرافية والتاريخ انصرافا تاما أرسى به أسس هذين العلمين فى بلاده ، فلا تقتصر أهمية عمله فى هذا الباب على ما كتبه بنفسه ، وهو كثير ، بل تشمل الحركة التى قادها والأسس التى وضعها وسار عليها من أتى بعده . وستكون كتبه المعين الذى سيستقى منه كل مؤرخى الأندلس وجغرافيه فيما بعد ، والمدرسة التى سيمضى التأليف والجغرافية فى الأندلس على أصولها إلى آخر أيام الأندلس الإسلامى .

ويعيننا هنا احمد بن محمد الرازي الجغرافي لا المؤرخ ، وإن كان الفصل بينهما عسيراً نظراً للتراطيب الوثيق بين مفهومي هذين العالمين عنده . والمعلومات التي لدينا عن حياته قليلة على أى حال ، معظمها يعتمد على الفقرة القصيرة التي كتبها عنه أبو الوليد الفرضي في « تاريخ علماء الأندلس » ونقلها عنه ووسعها بعض الشيء أبو محمد علي بن حزم في رسالته المعروفة عن فضل الأندلس التي أورد نصها المقرئ . قال ابن الفرضي : « احمد بن محمد بن موسى بن بشير بن حماد بن لقيط الرازي الكناني ، من أنفُسِهِمْ . من أهل قرطبة ، يكنى أبا بكر . وفد أبوه على الإمام محمد ، وكان من أهل اللسان والخطابة . ولد احمد بالأندلس ، وسمع من احمد بن خالد وقاسم بن أصبغ وغيرها . و (كان) كثير الرواية حافظاً للأخبار ، وله مؤلفات كثيرة في أخبار الأندلس وتواريخ دول الملوك فيها ، أديباً بليغاً شاعراً ، توفي رحمه الله يوم الخميس لاثنتي عشرة ليلة خلت من رجب سنة ٣٤٤ وكان مولده يوم الاثنين في عشر ذي الحجة سنة ٢٧٤ . ذكر ذلك محمد بن حسن^(١) » أما كلام ابن حزم فهذا نصه : « ومن الأخبار تواريخ احمد بن محمد بن موسى الرازي في أخبار ملوك الأندلس وخدمتهم وغزواتهم ونكباتهم^(٢) كتاب كبير ، وذلك كثير جداً ، وكتاب له في صفة قرطبة وخططها ومنازل الأعيان بها ، على نحو ما بدأ به ابن أبي طاهر في أخبار بغداد ، وذكر منازل صحابة أبي جعفر المنصور بها^(٣) » ثم قال بعد ذلك : « وكتاب لأحمد بن محمد بن موسى في أنساب مشاهير أهل الأندلس في خمسة أسفار ضخمة ، من أحسن كتاب في الأنساب وأوسعها^(٤) » .

(١) ابن الفرضي ، تاريخ علماء الأندلس ، رقم ١٣٥ ص ٤٠
(٢) كذا في النص كما أورده المقرئ ونجا نقله عن الضبي . وقد جعلها ناشر جذوة المقتبس للحبيدي « وركبائهم » واعتقد أن سحتها « وكتابهم » .
(٣) رواه المقرئ في نفح الطيب ، ج ٤ ص ١٦٦
(٤) نفس المصدر والجزء ، ص ١٦٧

وقد اعتمد محمد بن فتوح الحميدى على كلام ابن حزم فى المادة التى اختص بها احمد بن محمد الرازى ، ولكن الأمر اختلط عليه ، فأورد مادتين فى الجذوة أولاهما عن « احمد بن محمد التاريخى (رقم ١٧٤) والأخرى عن احمد ابن محمد بن موسى الرازى (رقم ١٧٥) ، فأما الأولى فنصها : « احمد بن محمد التاريخى ، عالم بالأخبار ، ألف فى مآثر المغرب كتباً جمة ، منها كتاب ضخيم ذكر فيه مسالك الأندلس ومراسيها وأمهاات مدنها وأجنادها الستة ، وخواص كل بلد منها ، وما فيه مما ليس فى غيره ، ذكره أبو محمد على بن احمد (ابن حزم) وأثنى عليه^(١) » وأما الثانية فقد أورد فيها كلام ابن حزم الذى ذكرناه وختمه بقوله : « كذا قال أبو محمد (ابن حزم) ولم يبين إن كان هو الأول أو غيره ، لأنه ذكر ذلك فى موضعين ، وأنا أظنه الذى قبله والله أعلم^(٢) » ولم يكن الحميدى بحاجة إلى هذا التساؤل فإن احمد بن محمد التاريخى هو احمد بن محمد الرازى ، والمادتان تدوران على رجل واحد فى الحقيقة ، ولكن الحميدى كان يكتب فى بغداد بعيداً عن مراجعه وأصوله ، فلم يستطع التثبت مما نقل عن أستاذه ابن حزم .

ولكن مادنى الحميدى تنطويان رغم ذلك على فائدة تنفعنا هنا ، فقد ذكر فى أولاهما كتاب الرازى عن « مسالك الأندلس » وفى الثانية ذكر تأليفه فى التاريخ ، فكان الأولى عن الرازى الجغرافى والثانية عن الرازى المؤرخ ، وهذا توفيق لم يقصده الحميدى ، ولكنه كان من حظّه ، لأن أحداً غيره من أصحاب معاجم التراجم لم تيسر له هذه الإشارة اللطيفة إلى ما كتب الرازى فى الجغرافية ، نعم إن ما يسمى هنا « بمسالك الأندلس ومراسيها . . . » إنما هو

(١) الحميدى ، جذوة المقتبس (بتحقيق محمد بن تاووت الطنجى ، القاهرة ١٩٥٢) رقم ١٧٤

ص ٩٧

(٢) نفس المصدر رقم ١٧٥ ص ٩٧

المقدمة الجغرافية لتاريخ الرازى الكبير ، ولكن هذا لا يقلل من فضل الحميدى فى هذا المقام . وكما هى العادة نقل احمد بن يحيى بن عميرة الضبي المادتين بنصهما فى بغية الملتبس دون أن يكلف نفسه عناء التثبت من أمر يسير كهذا^(١) .

وصف الأندلس للرازى

تناول احمد بن محمد الرازى الجغرافية على أنها علم متمم للتاريخ ، وجغرافيته الباقية بين أيدينا هى فى الغالب مقدمة لكتابه « أخبار ملوك الأندلس » ، لأن القطعة الباقية منها فى ترجماتها إلى البرتغالية والاسبانية القديمتين تستطرد بعد وصف الأندلس إلى الكلام عن ملكه ومن دخله من الشعوب قبل الفتح العربى . ولا شك فى أن النقول الجغرافية الكثيرة التى نجدها فى نفع الطيب متصلة بقرطبة إنما هى من كتاب احمد الرازى فى صفة قرطبة . أما كتاب « أعيان الموالى بالأندلس » فيغلب أنه كان كتاب تراجم لا يضم مادة جغرافية كثيرة ، وإن كنا لا نستبعد أن تكون فيه هذه الاستطرادات الجغرافية المعروفة فى كتب التراجم المطولة .

سلك احمد الرازى فى جغرافية الأندلس طريقا لا نجد له شبيها فيما نعرف من كتب الجغرافية السابقة عليه فى المشرق : بدأ بتحديد موقع شبه الجزيرة من الأقاليم دون إسراف فى ذلك ، فاكفى بالقول بأنه فى الإقليم الرابع ، فى حين أننا سنجد على بن سعيد فيما بعد يجعل بعض الأندلس فى الإقليم الرابع وبعضه فى الخامس ، ويجعل له حظا فى السادس أيضا . ثم تحدث الرازى بعد ذلك عن هيئة شبه الجزيرة ، فقال إنها هيئة « مركبة ذات ثلاثة أركان » أى

(١) الضبي ، بغية الملتبس ، رقا ٣٢٩ و ٣٣٠ ص ١٤٠

مثلية ، ناقلا بذلك عبارة هروشيش Hispania trigona est ، ثم يلي ذلك تحديد مواضع تلك الأركان . ويغلب على الظن أنه اتبع ذلك بالفقرة الخاصة بالأسماء التي كانت تطلق على شبه الجزيرة قبل الإسلام ، لأن القطعة التي تدور حولها والمنسوبة لأبي عبيد البكري ترد في سياق كلام كله لأحمد بن محمد الرازي .

ثم عقد الرازي بعد ذلك فصلا لمناخ شبه الجزيرة بادئا إياه بعبارة سينقلها عنه الكثيرون من الجغرافيين بعده ، وهي عبارة « والأندلس أندلسان » وقد أضافها الرازي من عنده إلى ما أخذه عن ترجمة هروشيش من تقسيم اسبانيا إلى قسمين كبيرين ، وبينما نجد تقسيم هروشيش لاسبانيا لا يزيد على أن يكون تقسيما سياسيا منقولاً عن التقسيم الروماني الأول إلى Hispania Citerior و Hispania Ulterior مع بيان لحدود كل منهما ، نجد الرازي يستطرد إلى ما هو أبعد من ذلك ، فيجعل قسمي اسبانيا اقليمين مناخيين متباينين « في اختلاف هبوب أرياحها ومواقع أمطارها وجريان أنهارها : أندلس غربي وأندلس شرق ، فالغربي منها ما جرت أوديته إلى البحر المحيط الغربي ، وتمطر بالرياح الغربية . . والحوز الشرقي المعروف بالأندلس الأقصى ، وتجري أوديته إلى الشرق ، وأمطاره بالرياح الشرقية »^(١) . هنا نجد ذلك الجغرافي المؤرخ الحصيف يمس نظرية كبرى سيعرضها ويفصلها مؤرخو اسبانيا في العصر الحديث : حقيقة انقسام اسبانيا إلى اسبانييتين : متوسطة La España Mediterranea واسبانيا أطلسية La España Atlántica وهي نظرية سيتوسع فيها رامون منندز بيدال في مقدمة الجزء الأول من تاريخ اسبانيا العام الذي ينشر تحت إشرافه وفي الفصول الأولى من تاريخه لاسبانيا في القرن الخامس الهجري والحادى عشر الميلادى المعروف باسم « اسبانيا في عصر السيد » . وهذه الالتفاتة من جانب أحمد بن محمد الرازي تدل على

(١) رواه المقرئ في نفع الطبيب ، ج ١ ص ١٢٨ — ١٢٩

صدق تصويره الجغرافى والتاريخى وعلى فهمه العميق لطبيعة البلد الذى انتهى إليه وعاش فيه وتصدى للكتابة فى جغرافيته وتاريخه .

ولدينا بعد ذلك من جغرافية الرازي فى نصّها البرتغالى والاسبانى فقرتان على أعظم جانب من الأهمية الجغرافية ، الأولى تتحدث عن أنهار الأندلس والثانية تتحدث عن جباله . وقد وردت هاتان الفقرتان فى نهاية هذين النصين ، أى بعد ذكر الكور والمدن^(١) . ويناب على ظننا أن مكان هاتين الفقرتين ييجي بعد الفقرة التى أوردنا طرفا منها عن تقسيم الأندلس إلى أندلسين ، لأن الطبيعى ، بعد ذكر التقسيم بحسب الرياح والأمطار وبحارى الأنهار أن ييجي تفصيل هذه الأخيرة ، خاصة وأن الذين أتوا بعد الرازي ، كابن النظام سيتوسعون فى هذه النظرية ، وسيذكرون كيف أن جبال اسبانيا أيضاً تسير من الغرب إلى الشرق أو من الشرق إلى الغرب « هابطة جبالا بعد جبل » .

(١) انظر الترجمة البرتغالية لجغرافية الرازي الواردة فى :

Crónica Geral de Espanha de 1344, (edição crítica do texto português per Luís Filipe Lindley Cintra), vol. II, (Lisboa, 1954), pp. 39 sgg.

ويؤيد ما قلناه فى المتن أن الفقرة الخاصة بتقسيم اسبانيا إلى قسمين تأتى هنا قبل ذكر الأنهار والجبال مباشرة .

أما الترجمة الاسبانية الواردة فى *Crónica General de España de 1344* فقد أورد نصها Pascual de Gayangos فى خطاب الاستقبال الذى ألقاه فى حفل قبوله عضوا فى مجمع التاريخ الاسبانى ولقبر بعنوان : *Memoria sobre la autenticidad de la Crónica denominada del Moro Rasis*.

س ٦١ و ٦٢

وقد عثر ليني بروفنسال على أوراق من جغرافية البكرى تضم هاتين الفقرتين ، ونشر الأولى فى الذيل رقم ٤ الذى علقه على الترجمة الفرنسية للروض المعطار فى خبر الاقطار لابن عبد المنعم الحيرى ، س ٢٥٠ من القسم الفرنسى . ونشر الثانية الخاصة بالأنهار ذيل على الترجمة التى عملها من البرتغالية لجغرافية الرازي ، التى لصرها بعنوان :

La Description de l'Espagne de Razi, Al-Andalus, vol. XVIII, fasc. I, p. 104—104

وعثرنا نحن على مخطوط أوفى سنتحدث عنه فى الفصل الخامس بأبى عبيد البكرى .

هاتان الفقرتان تعتبران من أجل نماذج التدقيق في الوصف والتحديد الذى تمتاز به جغرافية الرازي ، ولا نستطيع القول بأنه نقلهما عن مؤلفين قدامي ، فإننا لا نجد فى كتاباتهم شيئا مجتمعا واضحا عن أنهار شبه الجزيرة وجبالها كما نجد فى كلام الرازي ، نعم إن المعلومات التى أوردها توجد عند كتاب اليونان واللاتين ، ولكنها متفرقة فى كتب كثيرة ، والكثير منها يرد فى أثناء التفاصيل التاريخية ، وليس من المعقول أن يكون الرازي قد أطلع على ذلك كله ثم قام بإيجازه ، ثم إن أحدا من أولئك اليونان واللاتين لم يشر إلى العلاقة بين رياح شبه الجزيرة وأمطارها وأنهارها ، ولم يكن اهتمامهم منصرفا إلى أهمية هذه الأنهار فى الرى كما نجد عند الرازي ، بل إلى ناحيتها للملاحة ، لأن اليونان والرومان اعتمدوا عليها فى التوغل داخل شبه الجزيرة . ومن الجدير بالملاحظة أن أنهار شبه الجزيرة كانت فى العصور القديمة أغزر ماء وأوسع وديانا وأحواضا ، ومن هنا فقد كانت أهميتها للملاحة أكبر وأهم ، وكانت هى التى استلقت اهتمام اليونان والرومان . والفرق الرئيسى بين وجهتى النظر اليونانية الرومانية من ناحية والعربية من ناحية أخرى هو أن الأول كانوا يكتبون عن بلاد أجنبية عنهم يريدون احتلالها والسيطرة عليها ، فلا يهتمون إلا بما ييسر ذلك لهم ، أما الرازي فقد كان أندلسيا عربيا يكتب عن بلاده واصفاً نواحيها وجبالها وأنهارها مهما بناحية الرى والزراعة فيها . فحتى إذا كانت بعض معلومات كتاب اليونان والرومان قد وصلت إليه فإن فضله يتبين فى توجيه تلك المعلومات هذه الناحية الأندلسية الصرفة ، والنظر إلى شبه الجزيرة على أنه معاش ووطن لا على أنه ميدان للغزوات والاستغلال .

ولنصف إلى ذلك أن معلومات الكثير من أولئك الكتاب اليونان واللاتين قامت على السماع ، ومن ثم فقد حفلت بالأخطاء ، أما معلومات الرازي فبنية على المشاهدة والمعلومات المأخوذة من وثائق الدولة . ومن ثم فهي أقرب إلى الصواب وأحرى بالثقة . ومثال ذلك أن افينوس يقول اعتمادا على كلام صاحب

« الطواف حول شبه الجزيرة » أن نهر الإبرو يسمى نهر الزيت Oleum flumen ، وحوض الإبرو لم يكن مشهورا في تلك الأعصر بأشجار الزيتون ، وإنما بحقول القمح والكروم أى بالنبيذ ، وإنما أتى الخطأ من تحريف لما قاله صاحب الطواف من أن نهر الإبرو يسمى Elaios وربما كان ذلك تحريفا للفظ Elaisos وهو أحد أسماء شبه الجزيرة في القديم . ومن^(١) الواضح أن الرازي لم يأخذ معلوماته عن الأنهار عن بطليموس ، فإن هذا الأخير يقول مثلا إن طول هذا النهر (الإبرو) ٢٥٠٠ ستاديوم أى ٤٦٠ كيلومترا في حين أن الرازي يجعل طول النهر ٢٠٤ ميلا أى نحو ٣٠٠ كيلومترا .

ومن أسف أن البكري عندما نقل الفقرة الخاصة بالجبال أوجزها إيجازاً أضاع الكثير من قيمتها (ولعل كاتب النسخة التي وصلتنا هو الذي فعل ذلك) ، ونصها عنده « ومن الجبال المشهورة بالعظم في بلد الأندلس منها جبل البيرة (La Sierra de Elvira) وجبل الثلج (Sierra Nevada) وهو متصل بالبحر المتوسط ، منتظم بجبل رثيه ولاصق بالجزيرة مع البحر . . . ومنها جبل البرت ، وهو الحاجز بين بلاد الإسلام وبلد غاليش ، ومبتدأه من البحر القبلي المتوسط المجاور طرطوشة ، ومنتهاه إلى البحر الغربي بين الأشبونة وجليقية ، ومنها الجبل الحاجز بين بلاد إفريقية وبلاد الصقالبة »^(٢) (يريد جبال الألب) .

وهذه الصورة الموجزة لا تعطى إلا فكرة مشوهة عن حقيقة ما كتبه الرازي عن جبال اسبانيا ، وها هو مستخرجا من الترجمة البرتغالية ومقربا إلى أسلوب الرازي قدر الإمكان : « وليس في الأندلس على ما عرفناه في الحقيقة

(١) Cf: Adolf Schulten, *op. cit.* I, p. 308

(٢) انظر الذيل رقم ٤ على الترجمة الفرنسية للروض المعطار التي قام بها ليني بروفنسال ولشمرها

باسم :

La Péninsule Ibérique au Moyen Age d'après le Kitāb ar-Rawḍ al-Mi'tār (Leiden 1938), p. 250

إلا ثلاثة جبال تقطعه مستعرضة من البحر إلى البحر ، ولا يقطع هذه الجبال نهر في أى موضع من مواضعها . وفي هذه الجبال حصون منيعة لكل حصن منها الأراضي الواسعة الكثيرة الخيرات ، وأول هذه الجبال جبل قرطبة (Sierra Morena) ومبتدأه في شرق الأندلس عند ساحل البحر الذى يتوسط الأرض ماراً ببلنسية وباجة واشطمبار^(١) وإقليم الجوف ومنتهاه عند البحر الغربى الكبير . « أما الجبل الثانى فمبتدأه عند ساحل البحر الشرقى مقبلاً من ناحية أربونة ، وهو الحاجز بين الأندلس وبلاد إفرنجة ، والفرنجة تسميه جبل رنشفالة (Roncesvalles) ، ويسير موازياً لبلد بشقاية (Vizcaya) وبلد اشتريس ومنتهاه عند البحر فى جليقية فى أقصى الشمال^(٢) .

« والجبل الثالث فمبتدأه عند البحر المتوسط مجاوراً لطرطوشة ، ويمر غير بعيد من قرطبة ومنتهاه عند البحر الغربى على خمسة عشر مجرى^(٣) من الاشبونة . « ومن جبال الأندلس الأخرى غير هذه جبل الثلج ، ومبتدأه عند البيرة وينتهى عند البحر المتوسط عند الجزيرة الخضراء ، والجبل الذى يسمونه جبل ريه (Sierra de Málaga) . ويلتقى هذان الجبلان عند البيرة^(٤) .

(١) علق بسكوال جيانجوس على ذكر باجة هنا بقوله لأنها لا يمكن أن تكون فى إقليم الجوف el Algarve خاصة وهو يتحدث هنا عن جبل قرطبة (سيرا مورينا) (ص ٦١ تعليق ٣) . أما انشطمبار فقد وردت فى الأصل اسطمبه Estumba ، ولا وجود لموضع بهذا الاسم ، ولهذا عدله إلى هذه الصورة . (تعليق ٤) .

(٢) فى النص الاسباني : en derecho del septentrione

(٣) فى الاسبانية 15 migeros وهو جمع لفظ مجرى العربى وهو مقياس لطرق البحر عند المسلمين ومعناه مرحلة من مراحل الرحلة بالبحر .

(٤) فى الاسبانية :

Et otra sierra que llaman Raya entra la dicha sierra de la Eluda et metese una por otra, et vase a Elibera.

راجع مقال جيانجوس الآنف الذكر ص ٦١ وكذلك مقال ليني برنفسال عن جغرافية الرازي الذى أشرنا إليه ص ١٠٠ — ١٠١

وهذه الفقرة تعطينا فكرة عن الجغرافية الطبيعية لشبه الجزيرة الإيبيرية كما كتبها الرازي . وربما كان كلامه عن الأنهار أدق وأوفى من كلامه عن الجبال . لأن اهتمام العرب بالمياه وبحارها وقيمتها بالنسبة للرى كان عظيماً . وسنورد منه فقرة واحدة فيها غناء . قال الرازي عن نهر الوادي الكبير : « ومن الأنهار المشهورة ببلاد الأندلس نهر قرطبة ، ويعرف بنهر بيطى (Baetis) . مخرجه من ناحية رَيْمِيَّة^(١) . وبين منبعه إلى موقعه في البحر بعد اشيلية ثلاثمائة ميل وعشرة أميال ، ويقع فيه سنجل (شَنْجِل) ، وهو ينبعث من الثلج من جبال البيرة . وعليه مدينة استجه »^(٢) . فهذا كلام جغرافي يعرف حدود العلم الذي يتولاه ومطالبه ، فهو يصف منبع النهر ومصبه وما يمر به من النواحي وما يقع فيه من الروافد ، ويذكر طوله . وعندما يتحدث عن الأندلس من الناحية السياسية والبشرية ، سيأتينا بمعلومات أوفى وأدق عن الأقاليم التي يمر بها ومدنها ومعادنها وحاصلاتها ، أي أننا نخرج بفكرة واضحة دقيقة عن حوض الوادي الكبير من كل ناحية تقريباً .

فإذا فرغ الرازي من هذه المعلومات العامة عن الجغرافية الطبيعية للأندلس دخل في القسم الأهم ، وهو الجغرافية السياسية والبشرية ، فقَسَم الأندلس إلى كور ومدن ، والمدينة في الأندلس قسم إداري كالكورة له زمام واسع تقع فيه مدن وقرى وحقول واسعة ، وكان الأندلسيون يسمون القسم الإداري الواقع على الحدود أو المحيط بالعاصمة مدينة ، وقد أخذوا ذلك عن النظام الروماني الذي كان سائداً في شبه الجزيرة قبلهم ، وكان يجعل لكل مدينة زمناً واسعاً يتبعها

(١) علق ليلى بروفنسال على هذا اللفظ بقوله إن كل المخطوطات تورده في صورة Reymon أو Remon وصحته ريميه ، وهو موضع ذكره ياقوت باسم وجميه (٩٤٥ / ٤) . وقد ورد ذكره في الروض المطار بصورته الصحيحة (انظر رقم ٨٠ ص ٧٩ من النص العربي) وقال إنها تعرف بمدينة بنى راشد .

(٢) انظر الدليل رقم ٦ على مقال ليلى بروفنسال الآنف الذكر ، ص ١٠٠ - ١٠١

ويخضع لسلطان المجلس البلدى فيها ، وكانت تسمى عندهم مونيثيا Municipia ، وقد تناولنا هذا الموضوع بما فيه الكفاية من الشرح والتفصيل فى كتابنا « فجر الأندلس » فليرجع إليه من يريد التوسع فيه (١) .

وسأورد هنا نموذجين من كلام الرازي عن كور الأندلس ومدنها ، الأول خاص بكورة والثانى خاص بمدينة من الطراز الذى تحدثت عنه آنفا حتى يتبين الفرق بين مفهوم الكورة ومفهوم المدينة عند الأندلسيين ، إلى جانب ما يتجلى من خصائص هذه الجغرافية البشرية التى كتبها الرازي :

« كورة بلنسية (٢) : ويتصل بحوز كورة تدمير حوز كورة بلنسية ، وهى شرق من تدمير وشرق من قرطبة (٣) ، ولحطة بلادها مسافة بعيدة ، ومنافعها لأهلها عظيمة . جمعت البر والبحر والزرع والضرع ، ولها السهل والجبل . » وبها مدن عظيمة وحصون قديمة ، فمن مدائنها مدينة بلنسية ، وهى المعروفة بمدينة التراب ، ولها حصن ارغيرة ؛ ودانية ، وهى على ضفة البحر ، ولها أقاليم كثيرة متسعة ، ومرساها من أعجب المراسى ، وجميع أقاليمها وجبالها مغترسة بالكروم وأشجار التين والزيتون ؛ ومدينة الجزيرة ، ومبنتها على نهر شقر .

(١) فجر الأندلس ، ص ٥٦٥ وما بعدها .

(٢) أخذت هذه القطعة من نص « تعليق منتقى من فرحة الأنفس فى تاريخ الأندلس للحافظ محمد بن أيوب بن غالب الغرناطى الذى نشره الدكتور لطفى عبد البديع فى مجلة معهد المخطوطات العربية ، مجلد ١ ص ٢٨٥ ، فقد تبين لى بعد البحث والمقارنة أن معظم القطع التى أوردها الذى قام بعمل ذلك التعليق المنتقى إنما هى من كلام الرازي نفسه . وسيرى القارئ فيما يلى كيف أن مواضع الخلاف بين هذا النص والترجمتين الأسبانية والبرتغالية لجغرافية الرازي قليلة .

(٣) فى الترجمة البرتغالية : E. Vallença jaz no levante de Tussuyr et ao levante de Cordova وفى الترجمة الأسبانية : et Valencia yace al levante de Tudemir et al levante de Córdoba وقد ترجمها لطفى بروفنسال « شرق من تدمير وغرب من قرطبة » وهو غير صحيح لأن الأقرب إلى المفهوم الجغرافى فى تلك العصور : شرق من تدمير وشرق من قرطبة ، لأنهم كانوا يعتقدون أن الساحل الشرقى الحالى كان يسير من الشرق إلى الغرب موازيا لساحل أفريقية ، وعلى هذا فتكون بلنسية إلى شرق تدمير وهى مرسية وهذه إلى شرق قرطبة . و Tussuyr الواردة فى النص البرتغالى تصحيف للفظ تدمير وقد ورد فى صورته الصحيحة فى هامش الصفحة السابقة ٤٨

« ولها من المدن والمعقل حصن شاطبة ، وهو قديم أوَّلُ مَطل على بطاح وأنهار ؛ ومدينة مُزْبِيطَر ، ولها قصر يطل على بطحائها وعلى البحر ، يحار فيه الناظرُ وتعجز عنه الحكاية .

» ويتصل بها إقليم بُرِّيَّانة ، ولها أرض طيبة . ولها مدينة أُنْدَه ، وهي كثيرة المياه غزيرة الفواكه ، فيها معدن حديد . ولها مدينة شُبْرُب^(١) ، يوجد فيها القمح والكتنان . ولها حصن شارقة وغيره من الحصون . ومدينة جزيرة شقر فيما بين بلنسية وشاطبة .

وهذه عبارة موجزة ولكنها وافية بالفرض من مقدمة جغرافية ، وكل لفظ فيها له قيمته الجغرافية ومعناه الاصطلاحي الخاص . فالخوز هو زمام الكورة كله ، أى ما يتبعها من الأرضين والبلاد . وخطة البلد هى المساحة التى تغطيها المدينة نفسها وما يتبع حكومتها من الارياض والقرى . ومعنى أنها جمعت البر والبحر هو أنها ميناء له ميزات الموانى ومدينة لها خطة واسعة ، أى يتبعها ما يسمى بالهَنْتَرْلَانْد أى الأرض الزراعية التى تغذيها بالاطعمة والمحاصيل الوفيرة ، ولهذا يقول بعد ذلك أنها جمعت الزرع والضرع ، ثم يضيف أنها جمعت ميزات السهول وميزات الجبال ، وهى عبارة لها معناها الاقتصادى والعمرانى .

أما قوله إن لها مدنا عظيمة وحصونا قديمة فيراد به إحصاء ما يتبع كورة بلنسية من المدن الكبيرة وما يدخل فى زمامها من الحصون المنيعة ، لأن « القديمة » هنا تشمل معنى القدم ومعنى المنعة فى آن واحد ، ولم تكن هناك حصون مهجورة أو متروكة ، لأن الحصون كانت تقام فى مواقع معينة لها ميزات

(١) هكذا ضبطها ياقوت (معجم البلدان ٢٣١/٥) والغالب أنه نقل رسمها من العذرى . وليس بين بلدان بلنسية موضع بهذا الاسم ، وإنما الموجود Segorbe وهى اسقفية تابعة لبلنسية من الناحية الدينية ولديرية قسطليون Castellón de la Plana من الناحيتين الإدارية والقضائية . Cf. Madoz, *op. cit.* XIV, 67-74.

العسكرية والدفاعية ، فكانت لهذا تجدد وتعمر بالجند وتشك بالسلح عصرأ بعد عصر . وذكر الحصون هنا إشارة إلى منعة الكورة وأمان ساكنيها .

ثم يبدأ الرازي بذكر المدن ، وكلامه عنها مختصر ، لأنه سيفصل تاريخ إنشائها وبناء عمارتها فيما يلي من التاريخ ، وسنرى العذري يأخذ من المادة التاريخية للرازي ما يتصل بإنشاء المدن وما أضافه الأمراء والخلفاء إلى عمارتها ويجعله مع جغرافيته . وهو يذكر من مدن كورة بلنسية القاعدة نفسها ويقول إنها المعروفة بمدينة التراب ، ويضيف إليها حصنا لم أستطع تحقيقه وهو أرغيره ، ويبدو أنه تحريف لاسم حصن صغير لم يبق له وجود . والنص البرتغالي يحرفه إلى Aljazira أى الجزيرة ، والمراد جزيرة شقر ، وهو غير صحيح ، لان الرازي سيذكر جزيرة شقر بعد ذلك ، وقد راجعت مادة بلنسية المطولة عند العذري فلم أجد فيها حصناً بهذا الاسم . وهو لا يفصل بعض الشيء إلا عند الكلام على دانية . وقد لاحظت عند المراجعة أن نص فرحة الأنفس سقط منه اسم مدينة مريبطر ، وهو موجود في الترجمتين الاسبانية والبرتغالية .

وإذا نظرنا إلى هذه المادة في مجموعها تبين أنها تقدم لأهل العصر أهم ما يحتاجون إليه من المعلومات عن كورة بلنسية^(١) ، فهو يحدد الموقع والحدود والمدن والحصون ويذكر الميزات الخاصة من الوقوع على البحر والاتصال بالسهول والأنهار ، ثم يذكر الحاصلات سواء أكانت زراعية أم معدنية ، مع إشارة واضحة إلى الحصون التي تعطى الناس فكرة عن منعة الناحية وأمان من فيها .

وننتقل الآن إلى نموذج من كلامه عن مدينة ، أى عن قسم إدارى يشبه الكورة ، ولكنها كورة عسكرية تقوم في منطقة الثغر أوفى ناحية هامة من الوجهة

(١) سنورد عند كلامنا عن العذري كلامه عن نفس الكورة — أى بلنسية — وذلك حتى نبين كيف أن هذا الأخير أخذ كلام الرازي واعتبره أساساً ثم أضاف إليه الكثير من عنده ، مما يدل على تطور مضطرد في التأليف الجغرافى عند الأندلسيين .

الحربية ، كالمنطقة التي تقوم فيها عاصمة الخلافة وهي قرطبة ، فهذه لم تكن معتبرة كورة بل مدينة كورة ؛ والمنطقة الواقعة إلى شمالها ، وهي فَرِيشْ ، كانت أيضا معتبرة مدينة لها حكومة يغلب عليها الطابع العسكري الدفاعي ، مدينة كورة إذا شئنا مزيدا من التوضيح . وسنختار مدينة تَطِيلَةَ :

« [وتتصل أحواز مدينة أشقة بأحواز مدينة تطيلة] ^(١) ، [وهي في جوف أشقة وشرقي قرطبة] ^(٢) ، حازت الغاية من شرف البقعة ، وحت طيب الزرع ودرّ الضرع وكثرة الثمار والأنهار ^(٣) . [وأنهارها كلها تنصب في نهر إبرة] ^(٤) ، ويطيف بِجَنَّات تطيلة نهر كالش ^(٥) ، وهي أقصى ثغور المسلمين وباب من الأبواب التي يدخل منها إلى أرض المشركين ^(٦) ، [وعند باب تطيلة القنطرة المقامة على نهر إبرة ، وتمت أقواس القنطرة الأرحاء التي تدفعها مياه النهر أبدا] ^(٧) ، واختطت تطيلة في أيام الحكم بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية ^(٨) . [وكان الذي اختطها عمرو بن يوسف ، وكان يوسف هذا عاملا على سرقسطة وتوابها] ^(٩) . [ومن كبار مدائن طرسونة] ^(١٠) وكانت مستقر العمال والقواد بالفغور ، وكان أبو عثمان عبيد الله بن عثمان المعروف بصاحب الأرض اختارها محلا وآثرها

-
- (١) ترجمت هذه العبارة عن الترجتين البرتغالية والاسبانية مستخدما مصطلح الرازي . وعند ياقوت « مدينة بالأندلس في شرق قرطبة تتصل بأعمال أشقة » (٣٩٢/٢) ، وفي الروض المعمار : « مدينة بالأندلس في جوف وشقة ، وبين الجوف والفرق من مدينة سرقسطة » (ص ٦٤) .
- (٢) ترجمت هذه العبارة أيضا مستعينا بعبارة الروض المعمار الواردة في التعليقات السابق .
- (٣) هذه العبارة واردة بنصها في « التعليق المنتقى » (ص ٢٨٧) .
- (٤) وردت هذه العبارة في الترجتين البرتغالية والاسبانية ، ولم ترد في الأصول العربية التي لدينا .
- (٥) وردت هذه العبارة في الترجتين وفي الروض المعمار (ص ٦٤) ونهر كالش هو Quetiles من نهيرات إبرة .
- (٦) انفرد بإيراد هذه العبارة « التعليق المنتقى » (ص ٢٨٧) ومن الطبيعي أن تسقط في الترجتين .
- (٧) هذه العبارة وردت في الترجتين ولم ترد في أي من الأصول العربية ، فأضفها بين حواصر .
- (٨) كذلك هذه العبارة ، ولكنها وردت مفصلة عند العذري .
- (٩) هذه العبارة وردت في الترجمة البرتغالية محرفة جدا وقد أصلحها على هذه الصورة ليني بروفنسال في ترجمته الفرنسية (ص ٧٦) .
- (١٠) لم ترد هذه العبارة في الترجتين ؛ والسياق لا يستقيم بدونها .

على مدن الثغور منزلا . وكانت تَرِدُ عليه عشر مدينة أربونه وبرشلونة . ثم عادت طرسونة من بنات تطيلة عند تكاثر الناس ، بتطيلة ، وإيثارهم لها لفضل بقعتها واتساع خطتها^(١) .

« ولا إقليم تطيلة مدن وحصون كثيرة ، أخصها أرنيط Arnedo ، وهي مدينة أولية^(٢) . [وهناك أيضاً مدينة قلهرة ومدينة ناجرة وبقيرة Viguera ولها حصن في غاية النعمة على ضفة نهر يفصل بينها وبين الجبل المطل عليها]^(٣) .

[ومن تطيلة إلى سرقسطة ٣٠ ميلا ، ومن قلعة أيوب إلى تطيلة ٢٥ ميلا ، ومن قلهرة إلى تطيلة ١٢ ميلا ، ومن ناجرة إلى تطيلة ٥٠ ميلا ، ومن بقيرة إلى تطيلة ٣٣ ميلا ، ومن أرنيط إلى سرقسطة ٨٠ ميلا ، ومن طركونة إلى تطيلة ١٢ ميلا]^(٤) .

وواضح جداً من وصف الرازي « لمدينة » تطيلة أنه يتحدث عن منطقة عسكرية ثغرية ، فهو يتكلم عن الحصون والقلاع والميزات الحربية للمنطقة كلها ، بخلاف ما رأينا من كلامه على كورة عادية مثل بلنسية ، فهو يتكلم هناك عن الزروع والثمار والخيرات والمراسي والمعادن وما إلى ذلك . ومما يستوقف النظر استعماله

(١) هذه العبارة كلها وردت في الروض المعمار ص ١٢٣ وقد أخذها ابن عبد النعم الحميري ينصها عن الرازي بدليل وجودها في الترجمتين الاسبانية (طبعة جايانجوس ص ٤٥) والبرتغالية (طبعة لندلي سترا ص ٥٤ — ٥٥) . وانظر أيضاً مقال ليفي بروفنسال عن جغرافية الرازي مقابل ص ٥٦) .

(٢) وردت هذه العبارة في الروض المعمار رقم ١١ ص ١٤ . وقد أدخل المترجم الاسباني بخصوص هذا البلد ما يلي :

Et quando Espania de Moros era, era Arrayt (sic. L. Arnyt) su escudo contra los cristianos = وعندما كانت اسبانيا بيد العرب كانت ارنيط درعا لهم من النصارى .

(٣) ترجمت هذه العبارة من الترجمتين الاسبانية (ص ٤٥) والبرتغالية (ص ٥٥) . وقد وردت في التعليق المتفق مختصرة هكذا : « ومدينة فارة ومدينة ناجرة » وأظن أن فارة هذه تصحيف لاسم قلهرة إذ لا توجد هنا مدينة باسم فارة .

(٤) ترجمت هذه الفقرة عن الترجمتين الاسبانية والبرتغالية .

لفظ قصر بمعنى الحصن ، فقد استعمل الأندلسيون هذا اللفظ بمعناه الأصلي ، إذ من المعروف أن العرب أخذوه من Castra اللاتينية . وهذا يعلل لنا استعمال لفظ alcázar في الإسبانية بمعنى القلعة .

وهذان النموذجان كافيان لإظهار ميزات هذه الجغرافية وما استطاع أحمد بن محمد الرازي أن يحشده فيها من المعلومات على اختصارها . فلو أننا أردنا أن نقدم اليوم وصفاً جغرافياً جامعاً مختصراً للأندلس الإسلامي لما احتجنا أن نضيف إلى كلام الرازي شيئاً ، وهذا خير تقدير لذلك الجغرافي العربي الذي كتب في القرن الرابع الهجري ، العاشر الميلادي .

ومن الدلائل الناصعة على أهمية جغرافية الرازي اعتماد الاسبان عليها حتى القرن الثالث عشر في حل الكثير من مشاكل التنظيم الإداري التي اعترضتهم فيما استولوا عليه من بلاد المسامين . وما يؤيد ذلك أن الرازي أورد في جغرافيته هذه بعد ذكر الأنهار والجبال تقسيمها الكنسي ، وهو المعروف بقسمة قسطنطين ، والمراد به تقسيم اسبانيا إلى مناطق كنسية تتبع كل منها لأسقفية على رأسها . أسقف ، وهو تقسيم عام للعالم المسيحي كله وضعه رجال الدين من النصارى بعد صدور منشور ميلان سنة ٣١٣ ميلادية . وقد أخذ الرازي ما يخص اسبانيا منه عن إحدى القوائم التي تبين ذلك التقسيم Nomina Sedium Episcopatum والتي كانت متداولة في اسبانيا على أيام العرب . ومن الغريب أن هذه القوائم اللاتينية كلها كانت قد ضاعت قبل منتصف القرن الثالث عشر الميلادي . فقد ذكر بسكوال دي جيانجوس أنه عندما استولى الملك خايمه الملقب بالغازي Jaime el Conquistador على بلنسية سنة ١٢٣٩ ثار نزاع بين أسقفيتي طليطلة وطركونة حول تبعية إقليم بلنسية لأيهما ، ولم ينحسم النزاع إلا بعد أن « قدِّمت إلى المجلس المختص أربعة كتب عربية وقرئت بمعرفة رجل عربي وآخر يهودي ، وأحد هذه الكتب للرازي الذي قيل إنه عربي ألف كتباً كثيرة في الفيزياء ، والثاني تأليف Abiba Cacahabi الذي كان ضليعاً في

شريعة العرب ، وتبين من هذين الكتابين ومن الاثنين الآخرين — أنه في تقسيم قسطنطين لاسبانيا إلى ست مناطق (كنسية) يتبع إقليم بلنسية اسقفية طليطلة^(١).

ويبدو أن Abiba Cacahabi المشار إليه في النص هو أبو عبيد البكري ، إذ أن صورة اسمه كما كانت تكتب كانت شيئا قريباً من Abuuba(id)Albakri والتحريف من هذه الصورة إلى الصورة التي وردت في النص اللاتيني ممكن جداً ، خاصة في الكتابات الاسبانية من القرن الثاني عشر فصاعداً ، فقد كان معظم أصحابها لا يعرفون من الأسماء العربية شيئاً ، ويعرفون ما يصادفونه منها على نحو قل أن نجد له مثالا فيما نعرف من صور التحريف والتصحيح .

ولهم لدينا أن هذا النص يثبت أن قسمة قسطنطين التي أورد نصها البكري منقولة عن جغرافية الرازي ، ولهذا فسوردها ضمن نص هذه الجغرافية عند ما يتيسر لنا نشرها^(٢)

(١) أورد إسكوال دي جيانجوس نص هذا الخبر باللاتينية مع ترجمته إلى الأسبانية . ونظرا لأنني اعتمدت على هذا النص في القول بأن قسمة قسطنطين التي أورد لصها البكري منقولة من الرازي ، أوردته هنا :

« Postquam cuatuor libros arabicos in iudicio nobis exhibitos inspetimus, et fecimus legi in libris illis per unum judaeum et alium sarracenum, et ipsi legentes in dictis libris, scilicet in libro Rasis, qui multos libros feceret de physica, ut sarracenus decibat, et in libro Abiba Cacahabi, qui peritus fuerat in legibus eorum, et in duobus aliis libris, quorum auctores non erant; dixerunt nobis quod intra sex divisiones dictas factas a Constantino Imperatore in Hispania, erat civitas Valentia sub civitate Toletis », Loaysa, *Collectio Conciliorum Hispaniae*, p. 131. Cf. Pascual de Gayangos. *Memoria sobre la autenticidad de la crónica denominada del Moro Rasis*, leída en la Real Academia de la Historia, p. 9.

(٢) راجع عن ذلك الفصل الحادي عشر عن « الإدارة والمال » في فجر الأندلس ، القاهرة ١٩٥٩ . فقد تناولنا فيه الأصول العربية التي نعتمد عليها في جمع جغرافية الرازي وخصوصا ابتداء من ٥٣٤ . وقد ناقش موضوع أصول الرازي الأستاذ كلاوديو سانشيث البرنوث الظل :

Claudio Sánchez Albornoz: *Fuentes latinas de la historia romana de Rasis* (Publicaciones del Instituto Argentino Hispano-Arabe). Vol. I. Buenos Aires, 1942.

ولفس المؤلف :

Fuentes para el estudio de las divisiones eclesiásticas visigodas, (Boletín de la Universidad de Santiago, 1934) p. 44 sqq.

Fr. Javier Simonet, *Historia de los Mozárabes de España*, pp. 739-808.

الوراق ، أبو عبد الله محمد بن يوسف

ومن معاصري أحمد بن محمد الرازي رجل يعد في طليعة جغرافي المغرب والأندلس وإن لم يبق لنا مما كتب إلا قطع قليلة معظمها عند أبي عبيد البكري وابن عذارى . وهو أبو عبد الله محمد بن يوسف المعروف بالوراق (٢٩٢/٩٠٤ — ٣٦٣/٩٧٣) ويلقب بالتاريخي لكثرة اشتغاله بالتأليف في هذا الفن . وهو أندلسي أصله من وادي الحجارة ، ثم هاجر به أهله إلى إفريقية واستقروا بالقيروان ، وبها نشأ وتعلم وانتشر له صيت في العلم بأحوال إفريقية والمغرب وتاريخها ، واجتذبه بلاط الحكم المستنصر الأموي والجو العلي الذي يحيط به ، فشد رحاله إلى قرطبة ، واتصل بالحكم ، وكان هذا معنيا بشئون المغرب مهموما بمحاولات الفاطميين لبسط نفوذهم عليه ، فوجد في هذا القيرواني عالما بشئون أقطار المغرب وتاريخها ، فقربه إليه وحفزه على التأليف ، فكتب له « كتابا ضخما في مسالك إفريقية وممالكها » وألف « فن أخبار ملوكها والغالبين عليهم (أى على أهل إفريقية) كتباً جمّة » ، وكذلك ألف أيضاً « في أخبار تيمرت ووهران وتونس وسجلماسة ونكور والبصرة هنالك » ، وغيرها تواليف حسنا^(١) . فأما كتابه عن مسالك إفريقية وممالكها فقد استصفاه أبو عبيد البكري في كتابه « المسالك والممالك » وأما رسائله الأخرى فأعتقد أن ابن عذارى لخص الكثير منها في « البيان المغرب » ؛ فنحن نجد في الجزء الأول الخالص بتاريخ المغرب من هذا الكتاب فصولا معترضة عن تاريخ بعض نواحي المغرب التي نسب الحميدى إلى الوراق كتبها في تاريخها ، ففي أثناء حديثه عن أبي عبد الله الداعي ومسيره إلى سجلماسة لاستنقاذ عبيد الله الشيعي من سجن صاحبها اليسع بن مدرار

(١) جذوة المقتبس للحميدى رقم ٩٠ — بنية الملتبس للضي ، رقم ٣٠٤ ص ١٣١ —
التكملة لابن الأبار ، رقم ٣٤٤ ص ٣٤٤

يضيف فصلا قائما بذاته في « التعريف بأمر سجلهامة من ابتدائها إلى هذه السنة المؤرخة »^(١) ، وبعد أن يورد خبر خروج أبي القاسم الشيعي لغزو مصر للمرة الثانية يورد فصلا عن « تلخيص أخبار أمراء مدينة تكور من حين بنائها على الجبل إلى هذه السنة »^(٢) المؤرخة وفي أثناء كلامه عن حوادث سنة ٩٣٠/٣١٨ أثناء حكم عبيد الله الشيعي نجد كلاما عن « مدينة جراوة »^(٣) ثم ذكر « مدينة تيهرت »^(٤) ثم نجد فصلا قائما عن تاريخ تيهرت بعنوان « ذكر من ملك مدينة تيهرت من حين ابتدائها من بني رستم وغيرهم »^(٥) ، وفي حوادث ٩٦٣/٣٥٢ وبمناسبة وفود أبي صالح زموذ البرغواطى رسولا من أمير برغواطى على الحكم المستنصر في هذه السنة يقول إن الحكم سأل الرسول عن نسب برغواطى ومذهبهم ، فأخبره ، ثم يلى ذلك « خبر برغواطى » وهو فصل كامل عن تاريخ هذه^(٦) القبيلة ، وبعد ذلك بقليل نجد فصلا عنوانه « ذكر مدينة »^(٧) أصيلا « وهو تاريخ مجمل لها ، ويليه فصل عن تاريخ مدينة البصرة (المغربية) بعنوان « ذكر من ولى مدينة البصرة »^(٨) .

وهذه الفصول كلها معترضة ، وابن عذارى بعد أن يفرغ من كل منها يقول : « فلنرجع إلى نسق هذا التاريخ » مما يدل على أنه أخذ هذه القطع من أصول غير التي كان يعتمد عليها في « نسق التاريخ » . فإذا لاحظنا أن معظم هذه الفصول يدور حول تواريخ تلك النواحي من إفريقية التي نسبت للوراق

(١) البيان المغرب لابن عذارى ، (طبعة كولان وبروفنس) ج ١ ص ١٥٦

(٢) نفس المصدر ، ص ١٧٦

(٣) نفس المصدر ، ص ١٩٦

(٤) نفس المصدر والصفحة .

(٥) نفس المصدر ، ص ١٩٧

(٦) نفس المصدر ، ص ٢٢٣

(٧) نفس المصدر ، ص ٢٣٢

(٨) نفس المصدر ، ص ٢٣٥

كتب عنها مال بنا الظن إلى أنها مستقاة من رسالات الوراق . ويقوى هذا الظن ذلك الخبر المروى عن تاريخ برغواطية ، وهو خلاصة حديث أدلى به إلى الحكم المستنصر ، وكان الوراق هو العالم الموكل بهذه الناحية في بلاطه ، ومن المستبعد أن يكون قد فاته تدوين هذا الخبر الطويل ، وهو الإفريقي المعنى بأخبار المغرب وجغرافيته ، خاصة وقد كانت له عناية بأنساب البربر واشتغال بالتأليف فيها ، فقد ذكر له البيهقي خادم محمد بن تومرت كتابا سماه « أنساب البربر » وأخذ عنه في موضعين . ومن الغريب أن هذا الكتاب فات صاحب « مفاخر البربر » فلم يذكره أو يشر إليه أو إلى صاحبه ، ربما لأن الوراق لم يكن بربرى الأصل والنسب ، لأن مؤلف مفاخر البربر لا يعنى إلا بدوى الأصول البربرية .

والمهم لدينا أن محمد بن يوسف الوراق أول من كتب في الغرب الإسلامي كتابا بعنوان « المسالك والممالك » ؛ وهكذا نرى أن أول جغرافى أندلسى — احمد الرازى — كان بلدانيا ، في حين أن ثاني جغرافى كتب في الأندلس كان مسالكيا . ومن المقتبسات التى نقلها عنه البكرى يتبين أنه هو الذى ابتكر مزج الجغرافية بالتاريخ ، أى الوقوف عند كل موضع وقعت فيه واقعة تاريخية وذكرها فى شيء من التفصيل ، وهى طريقة سيسير عليها البكرى فى أجزاء كثيرة من « مسالكه » ، وسيتبعها نفر من الرحالة كالتيجانى بعد ذلك .

وقد اعتمد البكرى على مسالك الوراق اعتمادا تاما فى الجزء الذى كتبه عن افريقية ، ومن حسن الحظ أن هذا الجزء قد وصل إلينا كاملا . والبكرى يسند إليه ما يقتبسه منه أحيانا ، ولكنه لا يسند أحيانا أخرى ، ولهذا فنحن لا نستطيع أن تثبت على وجه التحديد نصيب الوراق من كتاب البكرى ، خاصة وأن هذا الأخير لم يكن مجرد ناقل ، بل كان جغرافيا متصرفا يعدل فيما ينقله ويزيد عليه وينقص منه ، ويعسر لهذا إصدار رأى قاطع فى هذه الناحية ، وسنشير إلى ذلك فى كلامنا عن البكرى . ويكفى أن نقرر هنا أن محمد بن

يوسف الوراق كان أحد أعلام المدرسة الجغرافية التي ازدهرت أيام الحكم المستنصر برعايته وتشجيعه . وانه لمن الفريد في تاريخ الفكر الإسلامي ذلك النشاط المتعدد الجوانب الذي بعثه ذلك الخليفة العلامة في بلاده ، فهو يستجلب كتب اليونان واللاتين ويأمر بترجمتها ، ويستدعى علامة مغربيا ويطلب إليه التأليف في تاريخ بلاده وجغرافيتها ، بل لا يكاد يفد عليه رسول من بلد بعيد حتى يطلب إليه أن يكتب رسالة أو رسائل عن بلاده أو عن أمر من أمورها ثم يحتفظ بهذه الرسائل في مكتبة القصر العاصمة ، لا لتكون جزء من محفوظات الدولة ، بل لكي تكون مرجعا للعلماء والباحثين فيما يطلبونه من المعلومات عن هذا البلد أو ذاك ، فقد رأينا الوراق يورد نص رسالة كاملة أدلى بها رسول من أهل إفريقيا للحكم . وفي الفقرة التالية سنرى فضلا آخر من أفضل الحكم المستنصر على العلم الذي يعنينا في هذا البحث .

ابراهيم بن يعقوب الطرطوشى

ومن معاصري احمد بن محمد الرازى أيضا يهودى من أهل طرطوشة يسمى ابراهيم بن يعقوب الطرطوشى ، ويسمى أيضا ابراهيم بن يوسف ، وكتبه بعضهم ابراهيم بن احمد . وهو تاجر ممن كانوا يعملون في جلب الرقيق الأوروبي إلى الأندلس ، ولهذا كان يقوم برحلات إلى المانيا وبلاد الصقالبة وشمالى أوروبا . وقد كتب هذا الرجل رسالة للحكم المستنصر عن رحلة قام بها إلى المانيا أيام الامبراطور أوتو الكبير على الأغلب ، واحتفظ لنا البكرى بجانب كبير من هذه الرسالة فيما بقى لنا من أجزاء جغرافيته . وقد عنى بهذا الجزء نفر من المستشرقين مثل كرونك وروزن وفيجرسن وجيورج ياكوب فنشروه على حدة وترجموه إلى الروسية والألمانية والهولندية .

ومن الباحثين من كان يستبعد أن يكون ابراهيم بن يعقوب أندلسياً ، وغلب على رأيهم أنه من المغرب ، ولكن العذرى يسميه الطرطوشى ، والبكرى يضيف إلى اسمه : الإسرائيلى ، وعنه فى الغالب أخذ ابن عبد المنعم الحميرى صاحب الروض المعمار . وقد أورد له العذرى فقرة تدل على أنه كان بالفعل أندلسياً عارفاً بشتون الأندلس ، وأورد له البكرى قطعة أخرى من هذا الطراز^(١) . ثم إن رسالته إلى الخليفة المستنصر تؤيد هذا رأى .

والقطعة التى أورها البكرى من رسالة ابراهيم بن يعقوب الطرطوشى تصف رحلته إلى شرق أوروبا ، وكيف عبر البحر الأدرياتي ووصل إلى بلاد « صقالبة الغرب » ، وزار براج وشرق المانيا ووصل إلى مجدبرج حيث كان الامبراطور أوتو يقيم ، وهناك التقى مع أعضاء سفارة من عند ملك البلغار ، ثم سار بجذاء نهر الألب ، وضى فى بلاد الصقالبة حتى وصل إلى إشفارن (Schwerin) على مقربة من البحيرة المسماة بذلك الاسم . ومن العسير تحديد خط سيره على وجه الدقة ، لأن أسماء المواضع فى النص الذى لدينا محرفة تحريفاً شديداً ، ولكن التفاصيل التى يعطيها عن بلاد الصقالبة ذات أهمية كبرى بالنسبة لتاريخهم ، وخاصة الغربيين منهم . ويقدم لنا الطرطوشى معلومات طريفة عن تجار العرب الذين لقيهم فى المانيا مقبلين من بلاد الحجر ، فيقول إنهم كانوا يحملون من هناك الدقيق والقصدير والفراء . ومن الطريف أنه زار بلاد الخزر جنوبى ما يعرف اليوم ببحر قزوين ولم يقل إن أهلها يهود ، وكتّاب اليهود يطيلون الحديث عن دخول الخزر فى اليهودية وانتشار هذه الديانة بينهم فى ذلك الحين .

(١) لم نثر إلا على فترتين من كلام ابراهيم بن يعقوب عن اسبانيا ، وسنذكرهما فى آخر هذا الكلام نقلاً عن مخطوطة المسالك والممالك للبكرى التى احتفظت لنا بقطعة لا بأس بها من صفة الأندلس .

وهذه القطعة ذات أهمية كبرى بالنسبة للروس القدامى وأحوالهم ، وقد فصل ذلك كونك وروزن تفصيلاً وافياً فى دراستهما حول هذه القطعة^(١) .

ويذكر القزوينى فى « عجائب المخلوقات » أن أحد بن عمر بن أنس العذرى اعتمد على ابراهيم بن يعقوب الطرطوشى فى مواضع كثيرة من جغرافية الأندلس التى كتبها (وستحدث عنها) ، وبالفعل نجد فى نص العذرى إشارة إلى ابراهيم بن يعقوب الإسرائيلى الطرطوشى ونقلاً عنه فى مادة تدمير (مرسية) بمناسبة شجرة زيتون عجيبة « فى حومة بجبل على مقربة من مدينة لورقة^(٢) » وقد نقل ذلك الخبر ابن عبد المنعم الحميرى (عن البكرى عن العذرى فى الغالب)^(٣) . والخبر مؤرخ بسنة ٣٥٠ / ٩٦١ (يجعله ابن عبد المنعم الحميرى

(١) بين أهمية هذه الرسالة دى خويه فيها درسه من « المسالك والممالك » للبكرى ، وكان شيفر Schefer قد عثر على ذلك الجزء فى مكتبة جامع نورى عثمانى فى الاستانة سنة ١٨٧٥ . وفى سنة ١٨٧٨ نشر النص العربى للرسالة ا. كونك و ف. روزن مع مقدمة وترجمة إلى الروسية :
A. Kunik i V. Rosen: *Izvestija al-Dakri i drugich avotrov o Rusi i Slavjanach*, I, St. Petersburg 1878.

(أخبار البكرى وغيره من الكتاب عن الروس والصقالبة) . وقد أضاف كونك إلى النص تعليقات ضافية . وفى سنة ١٨٨٠ نشر دى خويه ترجمة هولندية للأصل العربى وجانباً كبيراً من تعليقات كونك فى :

Verlagen in Mededeelingen der Konigeltjeke Akademie van Wetenschappen. Afdeling Letterkunde. 2 de Reeks. Deel IX. Amsterdam 1880, S. 187-216.

والنظر أيضاً :

Mémoires de l'Académie Impériale des Sciences de Saint-Petersburg. (Appédice vol. XXXVI).

أما بحث فيجرز Th. Wiggers فقد نشر فى

Fahrbericht des Vereins für nachtenburgische Geschichte und Altertumskunde. 43. Jahrgang, Schwerin 1880, S. 3-20.

G. Jacob: *Ein arabischer Berichtstatter aus dem 10. Jahrh. über Fulda, Schleswig, Soest, Paderborn und andere Städte des Abenlandes.* Berlin, 3, Auflage 1896.

Arabische Berichte . . . Gesandten an germanische Fürstenhöfe des 9. u. 10. Jahrh. übersetzt und erläutert (Quellen zur deutschen Volkskunde, 1) Berlin, 1927.

والنظر : بروكلمان . ملحق ١ / ٤١٠

(٢) العذرى ، نظم الرجان ، مخطوط ، مادة تدمير .

(٣) الروض المعطار : ١٧١ ويسميه ابراهيم بن يوسف .

سنة ٣٠٥ خطأً) مما يدل على أنه كان عند « ملك الروم » فى هذه السنة ، والمراد به أتو الكبير امبراطور الدولة التيوتونية التى تسمى بالرومانية المقدسة أيضاً ، وهذا التاريخ صحيح فإن ف. روزن و ا. كونك يجعلان زيارته لأتو حوالى سنة ٩٧٣ (٣٦٢ و ٣٦٣ هـ) .

وقد اعتمد البكرى على ما كتبه ابراهيم بن يعقوب الطرطوشى اعتماداً يكاد يكون تاماً فيما كتب عن وسط أوروبا وشرقها ، والقطع التى أدرجها فى مسالكة هى أطول ما بقى من كتابه وأدله على طبيعة مادته الجغرافية ، ومن حسن الحظ أننا عثرنا عليها ، وقد نشرها كونك وفون روزن كما قلنا ، واعتمادنا هنا على نشرتهما التى سبق أن أشرنا إليها وكذلك على الترجمة الألمانية التى قام بها جيورج ياكوب .

وعلى الرغم من التحريف الشديد للإعلام الجغرافية فى مخطوطة البكرى فقد استطاع الناشران والمترجم تحقيق معظمها . ويكفى أن نذكر أن اسم مجدبورج ورد « مادي فرغ » وبوهيميا (Böhmen) وردت بوهيمية والنورمان ورد المزان وما إلى ذلك . وبعد تحقيق هذه الأسماء وأعلام الأشخاص تبينت القيمة الحقيقية لما كتب سواء من الناحية الجغرافية أو التاريخية . وأهم ما فى الكتاب من هذه الناحية الأخيرة كلام ابراهيم بن يعقوب الطرطوشى عن تجارة الرقيق فى أوروبا فى ذلك العصر ، وقد كان هو نفسه من المشغولين بها على ما ذكرناه .

وابراهيم بن يعقوب الطرطوشى رحالة ، ولكن وصف رحلته أقرب إلى كتب البلدانين والمسالكين ، فهو يذكر البلدان ويصفها ويعدد حاصلاتها وما يتاجر فيه أهلها ، ثم يذكر الطرق ومسافاتها بالأميال ، وكل ذلك بتفصيل واسع تتخلله معلومات هامة عن الأحوال الاجتماعية والسياسية .

وفى عدا الفقرات القليلة التى أوردها العذرى وابن عبد المنعم الحيرى ما كتب ابراهيم بن يعقوب عن الأندلس لا نجد إلا فقرات قصيرة بقيت فيما وصل

إلينا من وصف الأندلس للبكرى ، وهى أوراق قليلة محرفة تحريفاً مؤسفاً بل إن سياقها مضطرب اضطراباً لم أستطع التعرف على سببه ، فإننا نجد فيه فقرة عن الأنهار تذكر نهراً من أنهار الأندلس ثم تقطعها وسط السطر بكلام عن الجليقيين وبعد بضع صفحات يعود الكلام عن الأنهار وهكذا .

وقد رأيت أن أورد هنا فقرتين استطعت أن أجمع شتاتهما ، وهى فى ص ٢٢٦ و ٢٢٧ من مخطوطة الخزانة العامة بالرباط :

« جملة القول فى بلاد الجليقيين وغيرهم من قبائل النصرارى إلى بلد الصقالبة على ما أورده ابراهيم بن يعقوب الإسرائيلى الطرطوشى :

قال ابراهيم : بلد الجليقيين جميعه سهل ، والغالب على أرضه الرمل ، وأكثر أقواتهم الدخن والذرة ، ومعولهم فى الأشربة على شراب التفاح والبشكة^(١) ، وهو شراب يتخذ من الدقيق . وأهله أهل نجدة ودناءة أخلاق . ولا يتنظفون ولا يفتسلون فى العام إلا مرة أو مرتين بالماء البارد ، ولا يفسلون ثيابهم منذ يلبسونها إلى أن تنقطع عليهم ، ويقولون إن الوسخ الذى يعلوها من عرقهم ينعم أجسامهم . وثيابهم أضيّق الثياب ، وهى مُقَرَّجَة يبدو من تفريجها أكثر أبدانهم . ولهم بأس وشدة ، لا يرون الفرار عند اللقاء فى الحرب ويرون الموت دونه .

ذكر البرتونيين^(٢) : لهم لغة تمجها الأسماع ومناظر قبيحة وأخلاق سيئة . ولهم لصوص يقطعون على الافرنج ويسرقونهم . والافرنج يصلبونهم إذا ما ظفروا بهم . ومن البرتونيين والجليقيين والبشاكسة حشد طيطوش إلى الشام حين خرج يريد بيت المقدس .

(١) لعلها تقابل Vasco .

(٢) Bretones .

أحمد بن عمر بن أنس العذرى الدلائى

أما العذرى الذى أشرنا إليه أكثر من مرة فيما سبق فهو أحمد بن عمر ابن أنس العذرى الدلائى ، نسبة إلى دلالية Dalías إحدى قرى المرية ، ولهذا فهو يسمى كذلك بالمريى نسبة إلى هذه الأخيرة ، وهو من أهل الطبقة الثانية من الجغرافيين الأندلسيين بعد أحمد بن محمد الرازى ومعاصريه ، فقد ولد فى المرية سنة ٣٩٣/١٠٠٢ وتوفى سنة ٤٧٦/١٠٨٣ أو ٤٧٨/١٠٨٥ ببلسية .

وقد ترجم للعذرى الحميدى والضبي وابن بشكوال وياقوت ، ولكن ترجماتهم قليلة الغناء بالنسبة لنا ، فالحميدى يذكر أنه من المرية وأنه رحل مع والده « بُعِيدَ الاربعائة » إلى مكة ، « فسمع الكثير من شيوخها ومن القادمين عليها » ثم يلى ذلك بيان بمن سمع منهم ، وكلهم رجال فقه وحديث ، ثم يقول : « وكتب هناك قطعة كبيرة من المصنفات والنوارخ ، وسمنا منه بالأندلس ، وكان حياً بها وقت خروجي منها فى سنة ثمان وأربعين وأربعائة »^(١) أما ابن بشكوال فيقول إن رحلته إلى المشرق كانت سنة ٤٠٧/١٠١٦ وأنه جاور بمكة أعواماً من ٤٠٧/١٠١٧ — ١٠١٨ إلى ٤١٦/١٠٢٥ بعد أن سمع من شيوخ أجلاء من طبقة أبى ذر الهروى .

ونقل الضبي مادة الحميدى حرفياً تقريباً على عادته مع جدوة الحميدى^(٢) . وتتضمن مادة ابن بشكوال اسمه الكامل ونسبه : « أحمد بن عمر بن دلهات ابن عمران بن مُنيب بن زُعَيْبَةَ بن قُطَيْبَةَ العذرى ويعرف بابن الدلائى ، من أهل المرية ، يكنى أبا العباس » . وربما دل هذا النسب على أن أعراقاً عربية

(١) الحميدى ، جدوة المقتبس بتحقيق محمد بن تاورى الطنجى . القاهرة ١٣٧٢ ، رقم ٢٣٦

ص ١٢٧ — ١٢٩

(٢) الضبي ، البنية ، رقم ٤٤٦ ص ١٨٢ — ١٨٤

ومغربية اختلطت فيه وإن كان الدكتور عبد العزيز الأهوانى يرى أن الرجل عربى خالص من قبيلة عُدرة ، ومن الحق أن دَلَايَة كانت دار عُدرة بالأندلس ، كما يقول ابن حزم فى الجمهرة^(١) . ويذكر ابن بشكوال أن أحمد العذرى بعد أن خرج من المشرق ، مر بمصر « ولم يكن له بها سماع » واستمر فى الطلب بعد عودته إلى الأندلس ، فسمع من شيوخ نذكر منهم أبا عمر بن عفيف وأبا محمد بن حزم ، ثم تصدر للاقراء فسمع منه رجال نذكر منهم أبا عمر بن عبد البر وأبا محمد بن حزم وأبا الوليد الوقشى وأبا على الصدفى ، وقد قال هذا الأخير : « أخبرنى أبو العباس أن مولده فى ذى القعدة ليلة السبت لأربع خلون منه سنة ٣٩٣ وتوفى رحمه الله فى آخر شعبان سنة ٤٧٨ ، ودفن بمقبرة الحوض بالمرية ، وصلى عليه ابنه أنس بتقديم المعتصم بالله محمد بن معن^(٢) (بن حمادح) » .

ويستوقف نظرنا فى هذه التراجم أنها تخلو من أى إشارة إلى اهتمامه بالجغرافية والتأليف فيها ، وهذا طبيعى لأن الاشتغال بالجغرافية لم يكن — فى رأى أهل هذه العصور — مما يستحق الذكر فى تراجم العلماء ، خاصة إذا كان العالم محدثاً من طبقة عالية كالعذرى ، فقد كان الرجل شيخاً من شيوخ عصره فى الحديث . وتلاميذه لا يحصون كثرة .

ولهذا فإن الانسان ليدهش من انصراف هذا المحدث الجليل إلى التأليف فى الجغرافية فى عصر فتنه وأخطار لم يكن الناس يعنون فيه إلا بعلوم الدين والأدب : الأولى لحاجة الناس إليها والثانى لأن أسراء ذلك العصر طلبوا الشعراء واستكثروا الأمداح وكانت هذه الأخيرة شارة الملك الوحيدة التى قدروا عليها .

(١) انظر عن منازل بنى عُدرة بالأندلس :

Elías Terés, *Linajes Árabes en Al-Andalus*, Segunda parte Al-Andalus XXIII, fasc. 1, 1958, p. 365.

واصوس عن الأندلس للعذرى بتحقيق الدكتور عبد العزيز الأهوانى ، المقدمة ، ص ١ - ب

(٢) ابن بشكوال ، الصلاة ، رقم ١٣٦ ص ٦٩ — ٧٠

أما الذين أشاروا إلى تأليفه فى الجغرافية فهم الجغرافيون ، فقد ذكره البكرى وكتابه « نظام المرجان فى المسالك والممالك » وكذلك ذكره الإدريسى فى مقدمة « نزهة المشتاق » وذكره ابن عبد المنعم الحميرى ونقل عنه دون أن يذكر اسم الكتاب . وفى فهرسة ابن خير ذكر لكتاب آخر من تأليفه هو « افتضاض أبكار أوائل الأخبار » وظاهر من عنوانه أنه فى التاريخ ، وإن كان هذا العنوان ذاته لا يخلو من تكلف . وذكره ياقوت الحموى فى كلامه على المرية قال : « وينسب إليها أبو العباس أحمد بن عمر بن أنس العذرى ، ويعرف بالدلائى المرى . رحل إلى مكة ، وسمع من أبى العباس أحمد بن الحسين الرازى وطبقته ، وبمصر جماعة أخرى . وهو مكث . سمع منه الحميدى وابن عبد البر وأبو محمد بن حزم ، وكانا شيخيه ، سمع منهما وكان قديماً كلما رجع من المشرق سمعا منه . وله تأليف حسان منها كتاب أعلام النبوة ، وكتابه المسمى بنظام المرجان فى المسالك والممالك ، ومولده فى ذى القعدة سنة ٣٩٣ وتوفى سنة ٤٧٦ وقيل ٧٨ ببلنسية^(١) .

ومن حسن الحظ أن لدينا الآن قطعة من كتاب « نظام المرجان فى المسالك والممالك » وقد حقق ما وجده منه الدكتور عبد العزيز الأهوانى لينشر بين مطبوعات معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد ، ونحن نعتمد هنا على ذلك التحقيق الوافى ، وقد وجد المخطوط فى صورة أوراق غير مرتبة أو مرققة ، بل لا توجد فى أواخرها ألفاظ الإحالة التى تعين على تعرف الورقة التالية ، وقد بذل الدكتور الأهوانى جهداً عظيماً فى ترتيب الأوراق^(٢) . والذى لدينا بعد ذلك يتضمن كور تدمير (مرسية) وبلنسية وسرقسطة ووشقة وقرطبة وإلبيرة واشبيلية ولبلة وشذونة والجزيرة الخضراء .

(١) ياقوت ، معجم البلدان (طبعة الخانجى ، القاهرة ١٩٠٦) : ٤٣/٨

(٢) ولهذا فإننا لن نشر إلى صفحات المخطوط فى الفقرات التى سنوردها من جغرافية العذرى ، ونحن نعتمد على النسخة التى كتبها الدكتور الأهوانى بيده .

ومن هذه الأجزاء التي لدينا يتبين أن الكتاب كتاب جغرافية وتاريخ ،
فإلى جانب المعلومات الجغرافية يورد العدري تفاصيل تاريخية خاصة بالمواقع
التي يصفها ، وهي تفاصيل طويلة معتمده فيها على أحمد بن محمد الرازي وابنه
عيسى ، وفي أحيان كثيرة يكمل العدري الأخبار إلى أيامه ، بل لدينا خبر
يصل إلى سنة ٤٧٦ أى قبل وفاة المؤلف بسنتين .

وإذا كان العدري قد لجأ إلى الاختصار فيما يتصل بالتاريخ ، فإنه على
العكس من ذلك أسهب في الجغرافية الاسهاب الذي نرجوه . وهو ينهج في
هذه الناحية منهجاً سليماً لا نعرفه عند أحد ممن سبقه من الجغرافيين ، ويتلخص
هذا المنهج فيما يلي :

١ - يقسم العدري كتابه إلى ما يشبه الفصول ، كل فصل يدور حول
كورة من كور الأندلس .

٢ - يبدأ الكلام بمكان الكورة من قسمة قسطنطين لا من تقسيم
بطليموس ، وهو أمر يستوقف النظر ، فإن قسمة قسطنطين تقسيم كنسي انفتحت
عليه الجوامع الدينية النصرانية التي بدأت تنفقد بعد اعتراف قسطنطين بالمسيحية ،
والغرض منه تقسيم البلاد التي فيها مسيحيون إلى مناطق اسقفية ، وقد تم ذلك
التقسيم على أساس التقسيم الإداري للدولة الرومانية ، فاعتبرت كل مديرية من
مديريات الدولة منطقة اسقفية يقيم الأسقف في قاعدتها وتتبعه من الناحية
الدينية كل البلاد الداخلة في زمام تلك المديرية ، وهذا التقسيم الكنسي هو
الذي أصبح فيما بعد أساساً للتقسيم الإداري للدول التي قامت في أوروبا بعد
انتهاء الغارات الجرمانية واستقرار كل جماعة من الجرمان في ناحية وإنشائهم دولة
فيها . وقد حافظ العرب في الأندلس على هذا التقسيم ولم يدخلوا عليه تعديلاً
إلا بالقدر الذي اقتضته الظروف الخاصة بنظام دولتهم ، وقد سبق أن شرحنا
ذلك بالتفصيل في بحث آخر .

٣ — ثم يعقب ذلك بذكر الطريق من قاعدة الكورة السابقة إلى قاعدة الكورة التي يتحدث عنها ، وهو يصف الطريق على أساس المحلات أو على أساس الأميال أو الفراسخ . والمحلة في مصطلحه هي الموضع الذي يستطيع الركب أو المسافر أن يريح فيه ويتزود لما يليه . والأغلب أن تكون هذه المحلات هي المحطات المتعارف عليها في تنقلات الجيوش ورجال الدولة ، فإذا صح هذا الفرض جاز القول بأن خطوط هذه المحلات تعين لنا الطرق الرئيسية التي كانت الدولة تعنى بصيانتها في الأندلس .

٤ — ثم يلي ذلك الكلام على المدن التابعة للكورة واحدة واحدة . وهو يتكلم عن كل منها كلاماً مفصلاً يعتمد على ما أخذه من أحمد الرازي أولاً ، ثم يضيف من عنده تفصيلات غاية في الأهمية تدل على اطلاع ومعرفة ومشاهدة أيضاً ، خذ مثلاً المادة التي كتبها عن مدينة بلنسية : يبدأ بعبارة من كلام أحمد الرازي : « وهي قاعدة من قواعد العمال القديمة ، وإليها تنسب الكورة ، وهي مدينة التراب » ثم يقول : « قال أحمد بن عمر : وهي مدينة مسورة ، قد أتقن سورها المنصور عبد العزيز بن عبد الرحمن بن أبي عامر ، ولا يُعلم ببلاد الأندلس أتقن بناء من سورها ولا أجمل منه ، ولها خمسة أبواب :

الباب الشرق يسمى بباب القنطرة ، ويُخْرِجُ منه على قنطرة قد صنعها المنصور عبد العزيز بن أبي عامر ، ليس في الأندلس أتقن منها ، وعلى هذه القنطرة تخرج الرفاق إلى طليطلة وسرقسطة وطرطوشة وما هنالك .
وبعدده إلى ناحية الشرق باب يعرف بباب الوراق ، ويُخْرِجُ منه وِيسْلَكُ إلى الربض على قنطرة خشب يُعَبَّرُ عليها الوادي إلى ربض هناك .

وفي القبلية باب ابن صخر

وفي الجوف باب الحنش

وفى الغرب باب يعرف باب بُيْطَالَة

ويليه فى الغرب باب يعرف باب القيسارية . ومن هذين البابين تخرج الرفاق إلى غرب الأندلس ، وإلى دانية وشاطبة والجزيرة .

ثم يعقب ذلك بكلام عن أهل بلنسية وخلقهم فيقول : « وقد أظبرت مدينة بلنسية بقلة الهم ، لا تكاد ترى فيها أحداً من جميع الطبقات إلا وهو قليل الهم ، مليئاً كان أو فقيراً ، قد استعمل أكثر تجارها لأنفسهم أسباب الراحة والفُرج ، ولا تكاد تجد فيها من يستطيع على شيء من دنياه إلا وقد اتخذ عند نفسه مغنية وأكثر من ذلك ، وإنما يتفاخر أهلها بكثرة الأغاني . يقولون عند فلان عودين (كذا) وثلاثة وأربعة وأكثر من ذلك . وقد أُخبرْتُ أن مغنية بلغت فى بلنسية أكثر من ألف مثقال طيبة . وأما دون الألف فكثيرات » .

ثم يعود بعد ذلك فيضيف شيئاً خاصاً بوصف البلد يغلب أنه أخذه عن أحمد الرازى : « وهى أطيب البلاد وأحسنها هواء وأجلها بساتين . ولها خطة فسيحة . وهى بلدة منيعة ، جمعت البر والبحر والزرع والضرع والفواكه . ولها سهل وجبل ومدن كثيرة وحصون » .

٤ - ثم يتحدث عن ثلاث مدن من كورة بلنسية هى شاطبة ودانية وجزيرة شقر . وحديثه عنها حديث العارف بما يصف المشاهد له . وتتخلل كلامه ملاحظات عظيمة الأهمية ، ففى حديثه عن شاطبة يقول « وفيها يتجهز التجار بالأمثلة إلى غانة وبلاد السودان وإلى جميع بلاد المغرب » وهى ملاحظة فريدة فى بابها بالنسبة لمن يدرس الأحوال الاقتصادية للأندلس وعلاقاته التجارية مع غيره من البلاد . وفى كلامه عن جزيرة شقر يقول « وهى جزيرة قد أحاط بها الوادى من جميع جهاتها ، ولم يبق لها إلا موضع لطيف يُدخل منه إلى هذه الجزيرة ، قد صُنِعَ فيه حفير ، وعليها ما يلى ذلك الموضع سور

وباب يُصعد إليه على درج « وهذا كلام دقيق لا يصدر إلا عن مشاهدة شخصية ، وتبين لنا دقته إذا قارناه بما يقوله ابن عبد النعم الجبري في هذا الموضع : « شقر ، جزيرة بالأندلس قريبة من شاطبة ، وبينها وبين بلنسية ثمانية عشر ميلا . وهي حسنة البقعة ، كثيرة الأشجار والثمار والأنهار ، وبها أناس وجلة . وبها جامع ومسجد وفنادق وأسواق . وقد أحاط بها الوادي . والمدخل إليها في الشتاء على المراكب ، وفي الصيف على مخاضة^(١) » فهذا كلام عام لا يحدد شيئا كثيراً ، وقد اختصر الجبري ما قرأه عند العدري اختصاراً مخلاً .

هـ — وللعدي اهتمام خاص بالطرق ومسافاتها والمحلات التي تمر بها ، وإلى أى النواحي يؤدي كل منها ، وأى باب من أبواب المدن يفضى إليها . وهو دقيق جداً فيما يعطى من تفاصيل خاصة بذلك . ففيما يتصل بكورة بلنسية مثلاً يذكر :

ا — أبواب مدينة بلنسية وإلى أى ناحية يؤدي كل باب .

ب — الطرق من مدينة بلنسية إلى المواضع التي من عملها ، فيذكر الطريق إلى سربيطر وإلى جزيرة شقر (٢٥ ميلا لا ١٨ كما قال الجبري) وإلى حصن المنارة .

ج — المسافات بين هذه البلاد بعضها وبعض ، وبينها وبين البلاد الهامة الأخرى من بلاد الكورة .

د — الطريق من قاعدة الكورة السابقة إلى قاعدة الكورة التي يتحدث عنها .

هـ — وهو يذكر مسافات هذه الطرق بالأميال في الغالب ، ولكنه يكتفي بذكر المحلات في أحيان قليلة ، والمحلات هي المحطات في عرفنا ، وذكر الطرق على أساسها لا يقل قيمة ولا تحديداً عن ذكرها بالأميال بالنسبة للمسافرين في العصور الوسطى .

(١) الروض المطار : ١٠٢ — ١٠٣

وهو يذكر هذه الطرق ذكر من سار فيها وعرف ما يشاهده الإنسان فيما يمر به من مدنها وقراها ، فيقول مثلاً : « من بلنسية إلى مريبطر ، وهو حصن شرق مدينة التراب ، خمسة عشر ميلاً ، وفي مدينة مريبطر أثر الأول ، ولها من آثار الأول قصر يحار فيه الناظر وتعجز عنه الحكاية^(١) » ويقول في موضع آخر : « ومن أُنْدِه على ثلاثة أميال قرية أرطانة ، وفي أعلى هذه القرية منبع عين يخرج من غار إلى حوض^(٢) ، فيغزر الماء في الحوض سرّة ويقل أخرى ، كالمند والجزر ، يُرى ذلك في كل يوم مراراً في ذلك العين ، ولا يخفى على من تأمله . ولقد وقفت إلى ذلك العين وحملت إليه لأراد ، فرأيتُه كما ذكر : يمد ويجزر^(٣) » .

٦ - وأهم ما في جغرافية العذرى ذكره لأقاليم كل كورة وأجزائها ، والأقليم في الأندلس كما قال ياقوت قسم من الكورة ، وهو يعدل الرستاق في المشرق ، أى أنه قسم إدارى أصغر من الكورة ، وقد بينا في « فجر الأندلس » أن الإقليم كان وحدة زراعية مالية تضم قرى كثيرة ، ولكن الضرائب كانت تقدر عليه جملة ، وبيننا كذلك أن الأجزاء كانت مساحات واسعة من الأرض تركتها الدولة مشاعاً للمرعى ، ولم تقدر عليها جباية ما ، وذكرنا أن العرب ساروا في ذلك على أساس قديم وجد من أيام الرومان ، وهو يجعل لكل مدينة أو قرية منطقة مراعى مشاعاً معفاة من الضرائب^(٤) .

(١) يقول مادوث في معجمه الجغرافى أنه لم يبق في مريبطر على أيامه شىء من الآثار القديمة التى خلفها السغونتيون Los Saguntinos وهم منسوبون إلى بلدة سغنتم Saguntum وكانوا يدافعون عن هذه الناحية ضد الرومان أثناء الحروب بين قرطاجنة وروما فى اسبانيا .

Pascual Madoz, *Diccionario Geográfico, Estadístico, Histórico de España*, (Madrid 1818), vol. XI, p. 776.

(٢) ذكر هذه العين مادوث فى معجمه الآنف الذكر . وقال إنها تنبع من أصل جبل مونتي Monti . مجلد ١٢ ص ٢٧٥ مادة Onda .

(٣) فى الأصل : يملأ ويحصر ، وهو تحريف من الناسخ .

(٤) انظر المناقشة فى كتابنا « فجر الأندلس » ص ٥٨٥ - ٥٨٧ . وانظر كذلك مقالنا :

La División Político-Administrativa de la España Musulmana, en Revista del Instituto de Estudios Islámicos, vol. V, (1957), pp. 102 sqq.

والعذرى يذكر أقاليم كل كورة ثم يتبع ذلك بالأجزاء التى فيها ، وربما أهمل هذه القاعدة فى بعض الكور ، ولكن هذا هو الغالب على كتابه . وهو يذكر فى الغالب أيضاً عدد القرى فى كل اقليم ومقدار الضرائب المقدرة عليه ، وهو يفصل هذه الضرائب تفصيلاً دقيقاً ، فيقول مثلاً :

« عدد أقاليم قرطبة ، وهى خمسة عشر اقليماً :

اقليم المدور : عدد قراه فى المغارم تسعون قرية ، منها فى العشور ثلث [. . .]

القمح : ٨٥ مدياً و ٤ أفقرة

الناض : ٣٩٨٠

الطبل للعام : ٤٢٤٠ ديناراً

الصدقة والبيزرة : البيزرة ٤١٢ ديناراً و ٤ دراهم

اقليم القصب : القرى فى الوظائف ٨٧ منها فى العشور ٥٦

القمح : ١٠٠ مدى وأر [. . .]

الشعير : ١١١ مدناً

الطبل للعام : ٢٧٠٠ [. . .] و ٤ دراهم

ومن الناض للحشد : ٤٧٠٢ $\frac{٢}{٧}$

الصدقة والبيزرة : ٢٠٣ دنانير و ٤ دراهم

وهكذا فى بقية أقاليم قرطبة . ومع أنه يقول إنها خمسة عشر إلا أنه لا يذكر إلا اثني عشر .

ومثل هذه البيانات لا يأتى بها إلا رجل مطلع على سجلات الدولة ينقل عنها ، فإن الذى يقول مثلاً إن ضريبة الناض للحشد ، أى الضريبة المالية المقررة على اقليم القصب لمعونة الجيوش تبلغ ٤٧٠٢ $\frac{٢}{٧}$ (ديناراً فى الغالب) لا يمكن أن يقول ذلك إلا نقلاً عن سجلات إمامه . وسجلات الدولة لم تكن فى

هذه الأيام فى متناول كل إنسان ، وإنما كان يطلع عليها من يعملون فى دواوين الدولة وفى إدارتها المالية بوجه خاص . وهذا فى ذاته يكشف عن حقيقة لم تكن نعلمها عن العذرى ، وهى أنه لابد أن يكون قد عمل فى الإدارة وتناولت يده الأوراق ونظر فيها ، أو على أقل تقدير لابد أن يكون قد اتصل برجل له هذه الصفة ونقل من دفاتره هذه البيانات . وما الذى يجعل رجلاً كأحمد عمر ابن أنس العذرى ، فقيه محدث كل همه منصرف إلى السماع والاسماع ورواية الأحاديث على نحو من الضبط يجعله من شيوخ العصر الذين يسمع منهم رجل مثل أبى محمد بن حزم ، ما الذى يجعل رجلاً كهذا يميل إلى الكتابة فى صفة الأندلس ونواحيها وأقاليمها وأجزائها وحدود كل ناحية وإقليم وضرائبه وما إلى ذلك ؟ إلا أن تكون المعلومات قد يُسّرَت له ووجد فى نفسه ميلاً إلى أن يسجلها فى كتاب ، ودفعه هذا إلى استيفاء الموضوع فقرأ ما كتب غيره ورحل ليرى بنفسه حتى يكون كتابه فى مستوى ما كتبه الرازى مثلاً ؟

هذا ما نعتقد ، ويؤيدنا فيه أن الكثير من المعلومات التى يسجلها تبدو لنا ناقصة ، كأنه سجل ما لديه وانتظر بالباقي حتى يستكمّله ، ثم لم يجد وسيلة إليه أو صرفته شواغل الأيام فترك الكتاب كما هو : فهو مثلاً يقول إن أقاليم قرطبة خمسة عشر ثم لا يذكر إلى اثني عشر ، وهو يذكر كل أنواع الضرائب فى إقليم ويغفل بعضها فى أقاليم أخرى ، وقد يذكر أن مدن الكورة الفلانية هى كذا وكذا فإذا بدأ يتحدث عن كل منها بالتفصيل لم يذكر إلا اثنين أو ثلاثاً وترك الباقي ، وهذه طريقة مُصنّفٍ جَمَعَ ونقل وأثبت ما استطاع الوصول إليه وانتظر بالباقي ليستكمّله ، ثم لم يستطع ، ولو أنه عمد إلى تأليف كتاب فى الجغرافية من أول الأمر كما فعل المقدسى مثلاً لرأينا فى الكتاب تناسقاً أكثر مما فى نسخته التى لدينا .

ولكن ذلك لا يقلل من الفائدة التى نخرج بها من ذلك الكتاب ، فهو بشكله الحالى أحسن وأوسع ما لدينا فى صفة الأندلس الإسلامى ، سواء من

حيث الطريقة التى سلكها العذرى فى تأليفه أو من حيث المادة التى ضمنها إياه ، هذا إلى دقته فى التحديد وضبطه فى رسم الأعلام . ويبدو أنه عندما شرع فى جمع المادة حرص على أن يقرأ ما كتب غيره قراءة فهم وتدبر ، ومن هنا فإننا نجد عنده عبارات ذات أهمية كبرى بالنسبة لتصوير العرب ومن قبلهم لشبه الجزيرة . مثال ذلك قوله بعد الفراغ من الكلام على كورة تدمير ، وسنقسم كلامه هنا إلى فقرات نعطيها أرقاماً حتى تسهل مناقشتها :

١ — « تم ذكر الأندلس الأول على قسمة قسطنطين ، وهو الذى جزأها ستة أجزاء :

٢ — أضاف الثلاثة فسمها بالأندلس الأدنى ، وذلك من قرطاجنة الخلفاء وهى لورقة ، وجعل معها مدينة بلنسية ومدينة شاطبة إلى أقصى الغرب .

٣ — وأضاف الثلاثة أيضاً فسمها بالأندلس الأقصى ، وذلك من أوريولة إلى سرقسطة وما وازاها .

٤ — وسمها غير قسطنطين بالأندلس الغربى وبالأندلس الشرقى ، وذلك بجرى الأنهار ، فما جرى منها إلى الغرب سماه الغربى ، وما جرى من أنهاره إلى الشرق سماه الشرقى .

٥ — والقسمة من تدمير ، ونهرها جار إلى الشرق .

وهذا الكلام أقرب إلى أن يكون محاولة للتوفيق بين تقسيمات إدارية وكنسية مختلفة لاسبانيا ، أو محاولة لشرح مصطلحات إدارية وجغرافية رومانية أو قوطية وصلت إلى علم العذرى ، فاجتهد فى توضيحها قدر ما استطاع ، شأن العالم المتخصص الحريص على استيضاح كل ما يصل إليه من المعلومات .

وسنناقش عبارة العذرى فقرة فقرة :

١ — فأما قوله « تم ذكر الأندلسى الأول على قسمة قسطنطين » فعناه فيما نظن : تم ذكر الأقسام الداخلة فى الأندلس الأدنى *Espania Citerior* كما قسمه قسطنطين (إلى خمسة أجزاء هى : نربونه *Narbona* وجليقية *Galicia* وقرطاجنة *Cartagena* ولشدانية *Lusitania* وباطقة *Betica*) .

ويلاحظ أن العذرى وضع بلنسية فى الجزء الرابع من قسمة قسطنطين ، أى من التقسيم الكنسى الذى أشرنا إليه . ولورقة عنده تقابل قرطاجنة فى التسمية الكنسية .

٢ — وأما قوله « أضاف الثلاثة فسمها بالأندلس الأدنى ، وذلك من قرطاجنة الحلفاء وهى لورقة ، وجعل معها مدينة بلنسية ومدينة شاطبة إلى أقصى الغرب » ففيه خلط ظاهر ، فإن قسمة قسطنطين لم تضيف الثلاثة ولم تُسمَّها الأندلس الأدنى ، بل الذى حدث هو أن التقسيم الإدارى الرومانى الأول الذى تم حوالى سنة ١٩٧ ميلادية تقريباً كان يجعل اسبانيا قسمين إداريين كبيرين هما ولاية اسبانيا الدنيا *Provincia Hispania Citerior* وولاية اسبانيا القصوى *Provincia Hispania Ulterior* ، والأولى توازى الساحل الشرقى ، والثانية توازى الساحل الجنوبى حتى مصب نهر الوادى الكبير ، وكان يحكم كلا منهما قنصل سابق *Proconsul* ثم استبدل فى تلك السنة بمقدم *Praetor* . والحد الفاصل بين هذين القسمين كان يبدأ بالفعل من قرطاجنة اسبانيا أو قرطاجنة الجديدة *Cartago Nova* ويسير فى اتجاه شمالى غربى إلى أقصى ما عرف فى المصطلح الجغرافى العربى ببلاد الغرب . فكان خط التقسيم يصل إلى *Emerita Augusta* وهى ماردة . وكانت تدخل فى هذه الولاية شاطبة *Saetabis* . ودخلت فيها فيما بعد بلنسية *Valentia* عندما أنشئت لتحل محل سغونتوم *Saguntum* التى خربتها الحروب البونية .

فإشارة العذرى إذن إنما هى إلى ذلك التقسيم القديم الأول ويبدو أنه ظل

واضح العالم فى أذهان أهل الجزيرة رغم ما ناله من تغير وتطور على أيدي الابطارة بعد ذلك .

وقد سبق أن ذكرنا أن قسمة قسطنطين هذه كانت معروفة فى الأندلس الإسلامى ، يتداول نصاراه نسخاً مختلفة منها ، بعضها عربى . وقد أثبت أحمد الرازى نص إحداها فى جغرافيته ونقلها عنه البكرى ، ويغلب على الظن أيضاً أن العذرى ذكرها فيما ضاع من أقسام كتابه ، بدليل إشارته إليها فى الفقرة التى نناقشها .

٢ — وأما قوله « وأضاف الثلاثة أيضاً ، فسماها الأندلس الأقصى ، وذلك من أوربوله إلى سرقسطة » حقيقة ما وقع أن قسمة قسطنطين قسمت الأندلس الأقصى Provincia Hispania Citerior إلى ثلاث ولايات أسقفية هى : باطفة Baetica (وهى الجزء السادس فى الترجمة العربية لقسمة قسطنطين التى أوردها أحمد الرازى والبكرى) وقاعدتها اشبيلية .

لشدانية Lusitania : وهى الجزء الخامس من هذه الترجمة ، وقاعدتها ماردة . جليقية : Galicia : وهى الجزء الثانى من هذه الترجمة ولم تحدد لها قاعدة .

٣ — أما قوله فى نهاية هذه الفقرة الثانية « وأضاف الثلاثة أيضاً فسماها بالأندلس الأقصى ، وذلك من أوربوله إلى سرقسطة وما وازاها » فيريد به أن الحد الفاصل بين الأندلس الأقصى والأندلس الأدنى خط يسير من أوربوله إلى سرقسطة .

وهكذا نرى كيف سار أحمد بن عمر بن أنس العذرى بعلم الجغرافية فى الأندلس خطوة واسعة إلى الأمام . فإذا كان الرازى قد وضع الأساس السليم الذى حدد مفهوم الجغرافية الطبيعية والبشرية فى أذهان الناس ، فقد بدأ العذرى من حيث انتهى الرازى ، فحاول أن يضيف تفاصيل جديدة إلى وصف

هيئة شبه الجزيرة وتقسيمها الجغرافى العام ، وتوسع فى الجغرافية البشرية ، فأطال الكلام عن كل كورة أو قسم إدارى ، فلم يكتف بوصفه العام ومدنه الرئيسية ومنابع الثروة فيه ، بل فصل الوصف تفصيلاً علمياً حافلاً بالمعلومات ، ووصف المدن نفسها واحدة واحدة ذاكراً زمامها وحدودها وأبوابها إذا استطاع ، ثم ذكر الطرق بين بلاد الكورة نفسها وبين قواعد الكور المجاورة وبلادها ، حريصاً دائماً على ذكر المسافة من قاعدة الكورة إلى قرطبة عاصمة الدولة . وهو لا يكتفى بذلك بل يورد أقاليمها وما يتبع كل واحد منها من قرى ، ثم يذكر الأجزاء ، ويضيف إلى ذلك فائدة كبرى : ينقل من سجلات الدولة مقادير الضرائب المقررة بأنواعها على كل إقليم يذكره ، ويوردها بغاية الدقة مما يلقى ضوءاً باهرًا على نظام الضرائب فى الأندلس وأحواله الاقتصادية بصفة عامة .

وإذا كان الوصف الدقيق لجغرافية الرازى هو أنها من طراز البلدان فقط فإن جغرافية العذرى ضمت البلدان والمسالك والممالك ، فهى تصف الطرق وتقدر المسافات وتعين المراحل والمحلات فى دقة تشهد بدقة علمية جديرة بالتنويه . وقد رأينا الرازى يتحرر من أسر القيود التى وضعها بطليموس على علم الجغرافية ، فينقله من جداول فلكية وهمية تحشد فيها البلاد على صورة جافة ، إلى دراسة إنسانية تتناول الأرض ومن عليها من الناس وعلاقة هؤلاء بهذه ، ثم يحمى العذرى فيضيف حشداً من المعلومات عن الجغرافية السياسية والاقتصادية للبلاد ، ولا يشير إلى أقاليم بطليموس وإنما إلى قسمة قسطنطين ، أى إلى التقسيم الإدارى المالى ، ويقترب بالجغرافية من مفهومها فى العصر الحديث ، فهو لا يكتفى بذكر الحاصل الرئيسية للناحية ، بل يضيف مقادير الجبايات من كل نوع ، معتمداً فى ذلك على سجلات الدولة الرسمية ، وهذه البيانات الدقيقة عن الضرائب تمكننا من تعرف مساحات الأراضى الزراعية وأعداد السكان . ثم إن كلامه الدقيق عن مجارى المياه وعيونها وذكره الأنهار وفروعها والترع

وما تسقيه ، يكشف لنا عن ناحية كبرى من نواحي الحضارة العربية في الأندلس : ناحية الري والسقيا والقنوات . والمعلومات التي يقدمها العذرى في هذه الناحية تزيد في الدقة على ما يقدمه المقرئى في خططه عن هذه الناحية في مصر ، وذلك فضل ينبغي أن نذكره لذلك الجغرافى الأندلسى الفريد . والعذرى دقيق فيما يستعمل من مصطلحات دون أن يلجأ إلى التعبير عنها تعبيراً عاماً يفقدها قيمتها الاصطلاحية ، فهو يسمى عاصمة الكورة بالقاعدة ، ويسمى عاصمة المدينة أى الكورة الثغرية « قرار العمال والقواد » ويسمى منبع النهر « عُصره » والقناة التى تشق للرى بالساقية ، وهو لا يقول « شق قناة » وإنما « أخرج ساقية » ، وهو يفرق فريقاً واخماً بين الساقية والناعورة . وهو يذكر « المعادن » أى المناجم ، ويعين قدر ما يستخرج منها فى العام . وعند كلامه على الفُندُون يقول « صفته صفة النيل ، إنما يسقى مرة واحدة ، ولا يحتاج إلى غير ذلك » ، أى أنه يسقى بفيض النهر عندما يعلو ماؤه ويروى ما حوله ، فإذا انحسر الماء زرع الناس دون حاجة إلى سقى آخر ، ثم يضيف بعد ذلك بيانات عن وفرة ثمر ما يزرع فيه . وهو يسمى الفُتُحات التى توجد فى الجبال أو تصنع فيها لكى يصل الناس إلى الماء الجارى داخلها بالمناهر ، مفردة منهر ، وهو مصطلح نقرؤه عنده أول مرة فى كتب الجغرافيين .

وهو يقف عند كل موضع هام ويذكر ما تيسر من تاريخه ، ومعلوماته هنا دقيقة يبدو أن معتمده فيها على تاريخ أحمد بن محمد الرازى ، وهذه المعلومات المفصلة أدخل فى باب التاريخ ، ولكنها لا تخلو من فائدة لدارس الجغرافية البشرية والاقتصادية والسياسية ، فنحن نثبين من خلالها الأقوام التى سكنت الناحية وتاريخهم فيها واختلاطهم بأهلها ، وصورة ذلك الاختلاط وفوائد أخرى ذات أهمية كبرى ؛ ففي أخبار ابن وضاح فى لورقة يقول : « وكان بقرى رجل يسقى على نوبة له » فنفسهم أن الناس كانوا يتناوبون فى الانتفاع بالسواقي ، كل منهم يسقى وقتاً معيناً يسمى « النوبة » ؛ وعند كلامه على أوريلة يقول إن تفسيرها

باللاتينى الذهبية ، وهو تفسير صحيح لأن أصل الاسم Aureola . وعند كلامه على ديسم بن اسحاق يقول إنه أدى « قطعاً » من الجباية أى جانباً منها ، ويقول إنه « كان يجبّس الخيل والسلاح على أهلها » أى يرصد خيلاً وسلاحاً خاصة للدفاع عن أهل لورقة . ومن خلال كلامه نعرف المعنى الدقيق لعبارة « سَجَلْ له بها » أى اعترف الأمير بولايته على الناحية وكتب له سجلاً بذلك ، وعبارة « استعمل الراحة والفرج » أى أخذ بأسباب الملاهي وهو يذكر « بلد نُوبته » وهو المصطلح الأندلسى لذلك الطراز من المدن الذى ظهر في أوروبا ابتداء من القرن العاشر الميلادى Villa Nova (Villeneuve أو Villa Nueva) ولفظ « نازل » ويراد به الذين استقروا من العرب الفاتحين في ناحية ما ، فيقال مثلاً ان حسين بن يحيى الأنصارى « مِنْ نَازِلِ سرقسطة » ؛ ولفظ « ضغط » بمعنى طارد ؛ ولفظ الثمر أو الثمرة أو الثمار بمعنى شجر الفاكهة ؛ وغير ذلك كثير .

ويهتم العذرى بأحاديث العجائب والغرائب ، ولكنه يذكرها تحت هذا العنوان ولا يخلط بينها وبين الوصف الجغرافى ، ثم اننا إذا قرأنا الكثير مما يورده على أنه « غرائب » وجدناه في كثير من الأحيان يتحدث عن ظاهرة طبيعية يمكن تحليلها وقد تكون باقية إلى اليوم ، وهو لا يسرف ولا يغرب في عجائبه تلك على أى حال .

بين العذرى والبكرى

فيما بين العذرى والبكرى ، أو كان معاصرا لأحدهما ، عدد من أئمة التاريخ في الأندلس تضمنت كتبهم مقدمات جغرافية أو استطرادات في ذلك الفن على النحو الذى جرى عليه أصحاب التاريخ في الأندلس عامة ، فقد رأينا كيف أن الفاصل بين التاريخ والجغرافية عندهم كان غير واضح ، وأنه ما من مؤرخ عندهم إلا يمكن اعتباره جغرافياً ، وما من جغرافيّ إلا وهو مؤرخ في نفس الوقت . وتلك من خصائص التاريخ والجغرافية عند الأندلسيين ، نعم إن نفرأ من الجغرافيين أو المؤرخين في المشرق جرى على هذا النهج ، ولكن ذلك كان قليلا ، والأغلب أن يكون المؤرخ في المشرق محدثا أو مفسراً ، أما في الأندلس فإن الجغرافية والتاريخ كانا متلازمين ، وهذا يفسر لنا السبب في أن معظم ما كتبوه في الجغرافية إنما هو من قبيل الجغرافية البشرية .

ومن أسف أننا لم نثر بعدُ على الجانب الأكبر من مؤلفات أولئك المؤرخين ، ولكن ما وصل إلينا من بقاياهم يكشف عن طبيعته ومزايده كما ينم الحطام على السفين الفارق ، ومن حسن الحظ أن المتأخرين من مؤرخى الأندلس مضوا على سنن المتقدمين من افتتاح كتبهم بالمقدمات الجغرافية وتضمينها ما تدعو إليه الحاجة من التفاصيل الجغرافية عند الإلمام بالمواضع والبلاد ، وقد أخذوا ذلك من مؤلفات السابقين عليهم ، فحفظوا لنا بذلك فقرات وإشارات طويلة أو قصيرة تعيننا على تكوين فكرة سليمة عن الأصول التي أخذوا

عنها . وأحفل هذه الكتب بالنقول نفح الطيب للمقرى والمعجب لعبد الواحد المراكشى والإحاطة لابن الخطيب ومقدمة ابن خلدون وتاريخه ومعجم البلدان لياقوت ونزهة المشتاق للأدريسى والروض المعطار لابن عبد المنعم الحميرى وأصول أخرى تضم قطعاً أقل أهمية ، وعلى هذه كلها معتمدنا فيما سنذكر عن هؤلاء الكتاب جغرافيين ، وسنكتفى منهم بمن لدينا من النقول عنهم ما يسمح بتكوين فكرة عنهم جغرافيين ، أما من أثر عنه السطر والسطران أو لم يرد إلا اسم كتابه مثل اسحاق بن سامة الليثي (عاش أيام الحكم المستنصر) الذى ألف كتاباً فى « أخبار رية وحصونها وولاتها وحروبها وفقهائها وشعرائها »^(١) وكتاباً آخر فى « أخبار الأندلس »^(٢) وأبى مروان عبد الملك بن سراج بن عبد الله بن محمد المعروف بابن المطاهر (توفى ٤٨٩/١٠٩٥) الذى ذكروا له كتاباً فى « تاريخ فقهاء طليطلة » وأبى عمر أحمد بن محمد بن عفيف (٣٤٨-٤٢٠/٩٥٩-١٠٢٩) الذى يصفه الضبى بأنه « تاريخى مشهور »^(٣) فقد استطرّدنا عن ذكرهم لأن ما لدينا عنهم لا يفى .

وسنقف عند أربعة من أهل النصف الثانى من القرن الرابع والنصف الأول من القرن الخامس لدينا من كتاباتهم وأقوال المؤرخين عنهم ما يجعل لهم مكاناً فى تاريخ التأليف الجغرافى فى الأندلس ، بل إن إشارات بعضهم تبلغ من الدقة والتفصيل ما لا يستغنى عنه من يجمع أقوال الأندلسيين فى جغرافية بلادهم . وهؤلاء الأربعة هم : ابن الفرضى وابن حيان وابن النظام وابن أبى الفياض ، ولن نطيل الوقوف عند كل منهم ، فهذا مكانه فى الكلام عنهم كمؤرخين ، وإنما سنكتفى بقدر يسير يتناسب مع ما لدينا من الفوائد الجغرافية لكل منهم .

(١) الضبى ، تاريخ علماء الأندلس رقم ٥٥٦

(٢) نفس المرجع رقم ٣٤٤

ابن الفرضي

فأما ابن الفرضي (أبو الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف بن نصر الأزدي) (٣٥١-٤٠٣/٩٦٢-١٠١٢) فهو شيخ أصحاب معاجم التراجم الأندلسية ومقرر أصول هذا الفن الذي اتصل في الأندلس والمغرب بعد ذلك قرونا طويلة ، وكتابه الوحيد الباقي بين أيدينا « تاريخ علماء الأندلس » إن هو إلا ثبت طويل بأسماء علماء الأندلس إلى عصره يتضمن ما كان الناس يحتاجون إليه في ذلك العصر من المعلومات عن أولئك العلماء . ولسنا في حاجة إلى التنبيه على أن « تاريخ العلماء » الذي لدينا إنما هو اختصار للكتاب ، فإن ابن الفرضي ينص في المقدمة على أنه كان يريد أن يؤلف كتابا « موعبا على المدن يشتمل على الأخبار والحكايات ، ثم عاقت عوائق عن بلوغ اعداد فيه ، فجمعنا هذا الكتاب مختصراً . . »^(١) ويؤكد في نهاية تلك المقدمة أن نيته لا زالت معقودة على « جمع الكتاب الذي تقدم ذكره على البلدان وتقصى ما اختصرناه في كتابنا هذا من الحكايات والأخبار إن تأخرت بنا مدة وصحبنا من الله معونة »^(٢) . وقد كشف ليفي بروفنسال في مقال ممتع عن طوق الحمامة لابن حزم عن فقرات لابن الفرضي موسعة مفصلة بأكثر مما في « التاريخ » الذي لدينا بكثير^(٣) ، مما يحمل على الظن بأن ابن الفرضي شرع على الأقل في الكتاب المطول ، ومن الجائز أيضاً أن يكون قد أتمه ، وعاش الكتابان جنباً إلى جنب حتى أخلت المختصرة المطولة كما حدث « لمطمح » ابن خاقان . ومن هذه النسخة المطولة أخذ ابن الخطيب ما أورده في أعمال الأعلام

(١) ابن الفرضي ، المقدمة ، ص ٦ - ٧

(٢) نفس المصدر ، ص ٧

(٣) E. Lévi-Provençal, *En relisant le «Collier de la Colombe» Al-Andalus*, vol. XV, (١٩٥٠) fasc. 2, pp. 335-877.

وابن حزم ما أورده في الطوق . وما يعيننا هنا هو أن رجلاً يزعم أن
يؤلف معجم تراجم على البلدان ، أى مرتباً بحسب بلدان الرجال الذين يترجم
لهم ، لابد أن يتكلم عن هذه البلدان في ذاتها . ومن هنا على الأغلب أخذ
المقرى الفقرات التي أوردها في الفصل الخاص بقرطبة من النفح ، وهي فقرات
طويلة تدور الأولى منها على زيادة المنصور ابن أبي عامر في جامع قرطبة ،
وهي فقرة طويلة من ذلك النوع الذي نجده عن ذلك الجامع عند الجغرافيين
من أمثال الرازي وابن عبد المنعم الحيمري^(١) . والثانية تدور حول مدينة
الزهراء ، قال : « كان يعمل في جامعها حين شُرع فيه من حذاق الفعلة كل
يوم ألف نسمة منهم ثلثمائة بناء ومائتا نجار وخمسمائة من الأجرأ وسائر
الصنائع ، فاستتم بنيانه وإتقانه في ثمانية وأربعين يوماً ، وجاء في غاية الاتقان
من خمسة أبهاء عجبية الصنعة ، وطوله من القبلة إلى الجوف — حاشا المقصورة —
ثلاثون ذراعاً ، وعرض البهو الأوسط من أبهائه من الشرق إلى الغرب ثلاث
عشرة ذراعاً^(٢) . . . » وهذه الفقرة وبقيتها لا يكتبها إلا رجل مقتدر على
الكتابة في البلدان وأوصافها والمباني وهيأتها ومقاييسها ، ولا يحتمل أن يكون
ابن الفرضي قد أخذ ذلك الكلام عن غيره ، فإنه هو نفسه معاصر لبناء الزهراء
وجامعها ، ومعلوماته تدل على أنه سأل واستقصى وقاس وحقق بنفسه . وأدل
على هذه الناحية عند ابن الفرضي قوله في الفقرة التالية التي نقلها المقرى : « وفي
صدر هذه السنة كمل للناصر بنيان القناة الغربية الصنعة التي جرى فيها الماء
العذب من جبل قرطبة إلى قصر الناعورة غربى قرطبة في المناهر المهندسة ،
وعلى الحنايا المعقودة ، يجرى ماؤها بتدبير عجيب وصنعة محكمة إلى بركة عظيمة
عليها أسد عظيم الصورة بديع الصنعة شديد الروعة لم يشاهد أبهى منه فيما صور

(١) المقرى ، نفح الطيب ٨٦/٢ — ٨٧

(٢) نفس المصدر ، ١٠٠/٢

الملوك في غابر الدهر^(١) . . . » ولا حاجة إلى إيراد بقية الفقرة على تواليها ، فهي في كتاب مطبوع بأيدي الناس ، ويكفي ما أوردناه لتتجلى موهبة ابن الفرضي الوصاف المدقق المعنى بمجاري المياه ومنابعها ومواردها وأطوالها وما ترويه من أرض .

أبو مروان بن حيان ، جغرافياً

أما أبو مروان حيان بن خلف بن حسين بن حيان (٣٧٧ — ٤٦٩ / ٩٨٧ — ١٠٧٠) عميد مؤرخي الأندلس فمن المعروف أن معتمده الأول في كتابه « المقتبس » كان على أحمد بن محمد الرازي ثم على ابنه عيسى بن أحمد ، وهو يتابعهما في دقة ، مما يحمل على الظن أنه نقل الجزء الجغرافي الذي صدر به أحمد بن محمد الرازي تاريخه ، ومن دلائل ذلك أن المقرئ أورد في النسخ نقلاً عن مقتبس بن حيان الفقرة الطويلة الخاصة بأشبان والأمم التي حكمت الأندلس قبل العرب ، وهي قطعة من المقدمة الجغرافية^(٢) للرازي . وقد مضى ابن حيان على هذا المنهج في بقية تاريخه ، فأورد في ثناياه فقرات جغرافية طويلة على سبيل الشرح والتوضيح ، فقد نقل عنه المقرئ كلامه عن جسر قرطبة^(٣) ووصفه لمدينة الزهراء^(٤) وكلاماً طويلاً عن مساجد قرطبة ودورها وحماماتها^(٥) وعن مباني الزهراء . وهو في هذه الفقرات يجري على طريقته في الاعتماد على الأصول المباشرة ، فهو في كلامه عن الزهراء يقول : « ألفت بخط ابن

(١) المقرئ : فتح الطيب ، ١٠٠/٢ — ١٠١

(٢) نفس المصدر ، ١٣٤/١ وما يليها .

(٣) فتح الطيب ، ١٤٧/١

(٤) نفس المصدر ، ٦٧/٢

(٥) نفس المصدر ، ٧٩/٢

دحون الفقيه ، قال مسلمة بن عبد الله العريف المهندس : بدأ الناصر بهارة الزهراء أول سنة ٣٢٥ . . « (١) . أما ما يرد في ثنايا المقتبس من التفاصيل الجغرافية عن المواضع فيمكن أن يكون كتيباً لا بأس به إذ جمع فيه ما في الأجزاء التي وجدت من هذا الكتاب . ولا يستغنى من يريد أن يتعرف جغرافية الأندلس الإسلامى عن أن يستصفي الفوائد الجغرافية الواردة في كتابات ابن حيان ، فإنه يعنى بذكر المدن والحصون والقرى والكور وحدودها وما فيها ، ويؤرخ لاختطاط المدن وإنشاء الحصون والموانئ والجسور والقناطر والأسوار . وهو في وصف الغزوات ومسير الجيوش يذكر الطرق التي تمر بها ويصفها ويذكر ما فيها من جبال وهضاب ، وما يلتقاه الجيش من حصون ومدن وقرى ، كل ذلك في دقة كاملة لا نظير لها في مرجع آخر . ويكفى أن نذكر أن الجزء الصغير الذي نشره الأب ملشور انطونية من تاريخ ابن حيان خاصاً بإمارة الأمير عبد الله يضم أسماء نحو ٦٠٠ موضع كلها مضبوط برسمه ومكانه ووصفه في كثير من الأحيان .

أبو بكر عبد الله بن عبد الحكم بن النظام

ويعتمد ابن حيان في بعض ما يورد على ابن النظام ، وهو أبو بكر عبد الله بن عبد الحكم بن النظام الذي أورد له المقرئ في النسخ قطعة طويلة تدل على ملكة جغرافية سليمة ، ولسنا نعلم عن حياته شيئاً ، ولولا أن ابن حيان أخذ عنه وذكره لما عرفنا أنه من المتقدمين عليه . وقد ذكر بونس بويجس أن الضبي اختصه بمادة يقول فيها أن أبا عامر بن مسلمة ذكره (في كتاب

حديقة الارتياح في وصف الراح على الأغلب) وأورد له ستة أبيات من شعر في الخمر ، وقد نقل الضبي هذه المادة عن الحميدى ، ولكن ذلك غير صحيح ، فإن المذكور هناك اسمه عبد الملك أما عبد الله بن النظام الذى يعيننا هنا فقد اختصه ابن بشكوال في التكلة بمادة من سطرين ، يقول فيها : « عبد الله بن عبد الحكم من أهل قرطبة يعرف بابن النظام ، ويكنى أبا بكر كان أديباً اخبارياً تاريخياً ، يحكى عنه ابن حيان في كتابه »^(١) .

والعبارة التى أوردتها المقرئ لابن النظام^(٢) تكاد تكون أحسن ما لدينا عن مناخ شبه الجزيرة وأمطارها وأثر ذلك في مجارى الماء فيها ، وهى عبارة مشهورة تعتبر توسيعاً وشرحاً لعبارة مماثلة للرازى أوردتها المقرئ قبلها . والعبارات التاريخية التى يقتبسها ابن حيان منه تحمل أيضاً طابع الرازى ، فكأن ابن النظام ألف كتابه ناسجاً على منوال شيخ مؤرخى الأندلس وآخذاً عنه ومضيفاً إلى مادته ما حضره من شئ جديد ، وليس فى هذا ضير ، فقد كانت هذه طريقة الأجيال المتعاقبة من مؤلفينا ، والمهم لدينا أنه يضيف من عنده إضافات جعلت ابن حيان ينسب عليه وينسب إليه فضلها ، ولو أنه كان يكتفى بالنقل عن الرازى لما وجد ابن حيان ما يدعو إلى النص عليه فى بعض المواضع . والعبارة التى أتى بها المقرئ مقتبسة دون شك من المقدمة الجغرافية .

وقد أورد المقرئ فى نفح الطيب عبارتى أحمد بن محمد الرازى وابن النظام عن مناخ شبه الجزيرة جنباً إلى جنب (ج ١ ص ١٢٨ — ١٣٠) مما يعيننا عن إيرادها هنا . وفيما يلى مقارنة بينهما تبين كيف أن ابن النظام اعتمد على كلام الرازى ، ثم أضاف من عنده ملاحظات تكشف عن ملكة جغرافية أصيلة .

(١) الحميدى ، جذوة رقم ٦٣٣ ص ٢٦٧ — الضبي بغية رقم ١٠٧٠ ص ٣٦٨ — ابن الأبار ، التكلة ، رقم ١٢٧٠ ص ٤٤٢ . وانظر أيضاً بولس بويجس رقم ٩٩ ص ١٢٤

(٢) نفح الطيب : ١٢٩/١ — ١٣٠

والعبارتان مختلفان في اللفظ والتفاصيل ، ولكن الفكرة الرئيسية التي تقومان عليها واحدة ، وهي انقسام شبه الجزيرة من ناحية الأمطار والرياح واتجاه مجارى الأنهار إلى قسمين : غربى وشرقى ، وأن الحد الفاصل بين هذين القسمين منطقة وسطى يختلفون في تحديدها ، فالرازى يقول إنها تبدأ « مع المفازة الخارجة مع الجوف إلى بلد شنتمرية طالعاً إلى حوز اغريطة المجاورة لطليطة مائلاً إلى الغرب ، ومجاوراً للبحر المتوسط الموازى لقرطاجنة الحلفاء » وهي عبارة غير دقيقة وملبثة بالمشاكل ، إذ أننا لا نعرف ما هي « المفازة الخارجة مع الجوف إلى بلد شنتمرية » والغالب أن المراد هنا شنتمرية الغرب وهي التي تكتب أحياناً شنتبرية وبالإسبانية Santaver ، فتكون المفازة المرادة هنا هي المنطقة التي تعرف اليوم باسترامادوره ، وهي بالفعل في امتداد ما كان يعرف بالجوف في المصطلح الجغرافى الأندلسى ، وهو مساحة واسعة تغطى في التقسيم الحالى لإسبانيا الجزء الشمالى من مديرية ولبه Huelva وكل مديرتى بطليوس وقصرش Cáceres وجزءاً مما يحاذى هذه المديريات طولاً من البرتغال . والتعبير في استرامادوره بالمفازة تعبير لا بأس به . وعلى هذا التفسير يكون الفاصل بين منطقتى الأمطار الغربية والشرقية هي المنطقة القليلة المطر التي ذكرناها . وبقيّة عبارة الرازى تتعلق بامتداد هذه المنطقة الفاصلة إلى الشمال : « طالعاً إلى حوز اغريطة المجاورة لطليطة مائلاً إلى الغرب » إذ يبدو أن المراد بحوز اغريطة هذه منطقة سلسلة جبال جريدوس Serranía de Gredos . والمراد أن المنطقة التي تمطر بالرياح الغربية وتجرى أنهارها غرباً تقع غرب خط يخرق الجوف والمفازة ماراً بشنتمرية الغرب ومنتهياً عند جبال جريدوس .

أما المنطقة الشرقية التي تمطر بالرياح الشرقية وتجرى أنهارها شرقاً فنقع بناء على كلام الرازى شرق خط يبدأ عند قرطاجنة الحلفاء على الساحل الشرقى ويصعد في اتجاه شمالى غربى حتى بلدة شنتمرية الشرق المعروفة عند العرب أيضاً بالسهلة أو سهلة بنى رزين (اليوم Albarracín في مديرية ترويل) حتى

يصل إلى حوض نهر إيره ويسير محاذياً الحافة الشرقية لسلسلة الجبال الإيبيرية El Sistema Ibérico ثم يصل إلى جبال البشكنس ، والأغلب أن المراد بها سلسلة جبال كنتبرية Pirineos Cantábrios .

وهذا التحديد — إن صح — يبدو لنا غريباً من الرازي وهو الذي يعرف أن ثلاثة من أكبر أنهار الجزيرة وهي الوادي الكبير والوادي آنة والدويرة لا تنبع من أي من الحدين الذين عينهما . ولكن الحقيقة أن الجغرافيين كانوا ينقلون أمثال هذه التصورات العامة عن مراجع سابقة أو يأخذونها عن « علماء أهله » أي علماء الأندلس دون التعرض لها بنقد أو تحقيق .

وعلى هذا الأساس أيضاً نستطيع أن ننظر إلى عبارة ابن النظام وما تضمنته من تحديدات ينقصها التحقيق ، فهو يقرر صراحة أنه أخذها عن علماء الأندلس ، أي أنه لم ينقلها عن الرازي أو غيره من المؤلفين العرب ، وهي أوضح من عبارة الرازي فيما يتصل بتقسيم اسبانيا إلى منطقتين مختلفتين من حيث هبوب الرياح وسقوط الأمطار وجريان الأنهار ، وهي دقيقة في تصوير اتجاهات الأودية وأنهارها وسلاسل الجبال التي تفصل بينها « هابطة جبلا بعد جبل » أي سلسلة بعد سلسلة ، ولا يمكن فهم عبارته كما تصورها هو إلا إذا تصورنا أيضاً الحياة المثلثة لشبه الجزيرة على ما وصفناها ، وهو نفسه ينص عليها نصاً صريحاً مفصلاً في الفقرة التالية ، وهي فيما يبدو منقولة عن الرازي . وهو يسترسل في النقل فيتحدث عن الأمم التي سبقت العرب إلى سكنى شبه الجزيرة على الصورة التقليدية التي قبسها الرازي من كتاب الاسبان النصراني ونقلها عنه من جاء بعده من الجغرافيين والمؤرخين العرب على ما هو معروف .

والأغلب أن المقدمة الجغرافية لتاريخ ابن النظام كانت تستطرد على النحو الذي نجده عند غيره ، موسعاً كما عند الرازي ومختصراً كما نرى عند ابن عذارى ، ولكنه يضيف من علمه كثيراً كما رأينا في الفقرة التي أوردناها . وفيما عدا التصورات العامة (وقد ظلت مواضع خلاف عند كافة الجغرافيين حتى

نشوء علمى الجغرافية والخرائط نتيجة لحركة الاستكشافات فى مطالع العصر الحديث (فإنّ الحس الجغرافى لابن النظام سليم وعبارته تدل على ملكة جغرافية أصيلة عرفت كيف تستفيد مما كتب السابقون وتضيف إليها وتخطو بالعلم الجغرافى فى الأندلس خطوة إلى الأمام .

أبو بكر أحمد بن سعيد بن أبي الفياض

وليس لدينا من كتاب العبر لابن أبي الفياض (أبى بكر أحمد بن سعيد ابن محمد بن عبد الله) إلا بضع ورقات اندرجت خطأ فى نهاية مخطوطة « الحلة السبراء » التى لدينا . وهذه الأوراق على قلتها ربما كشفت لنا عن حقيقة هامة تتصل بكتاب العبر هذا ، فهى تبدأ بالتفاصيل الأخيرة لحلة طارق على الأندلس ، وفى نهاية الصفحة الأولى من هذه الأوراق نجد عبارة « تم الجزء الأول » مكتوبة بخط يخالف خط المخطوط ، ثم يلى ذلك عنوان كبير « ذكر استفتاح طارق لجزيرة الأندلس » والسياق يدل على أن هناك خطأ فى ذلك العنوان وأن المراد « ذكر استفتاح موسى لجزيرة الأندلس » . ولا تدل عبارة « تم الجزء الأول » إلا على أن هذا موضع نهاية الجزء الأول من كتاب ابن أبي الفياض وأن الجزء الثانى يبدأ بحملة موسى بن نصير . فإذا صح هذا فعلام يدور الجزء الأول ؟ قياساً على التقليد الأندلسى الذى أشرنا إليه من التمهيد للتاريخ بالجغرافية نستطيع القول بأن هذا الجزء الأول كان يدور على جغرافية الأندلس ، ولدينا على ذلك دليل وهو أن عبد الواحد المراكشى يقول فى الذيل الجغرافى الذى ألحقه بكتاب المعجب : « . . . هذا مع أن هذا الباب خارج عن مقصود هذا التأليف ، ودخل فى باب المسالك والممالك ، وقد وضع الناس فيه كتباً كثيرة ، ككتاب أبى عبيد البكرى

الأندلسي ، وكتاب ابن فياض الأندلسي أيضاً ، وكتاب ابن خرداذبه الفارسي ، وكتاب الفرغاني ، وغيرها من الكتب المفردة لهذا الشأن المستوعبة^(١) له « ولم تذكر مراجعنا أن ابن أبي الفياض كتب كتاباً مفرداً في المسالك والممالك ، أى الجغرافية ، فلم يبق إلا القول بأن المقدمة الجغرافية لتاريخه كانت طويلة مستوعبة جعلت عبد الواحد المراكشي يدرج ابن أبي الفياض ضمن أصحاب كتب المسالك والممالك « المفردة لهذا الشأن المستوعبة له » .

ويؤيد هذا أن مؤلف روض القرطاس يذكر كتابين لابن أبي الفياض نقل عنهما ، الأول مذكور دون تعيين لعنوان (ص ٩ من طبعة أوبسالا) والثاني هو كتاب العبر ، ولم يذكر المؤرخون لابن أبي الفياض إلا كتاباً واحداً في التاريخ ، فالغالب أن الكتاب الثاني هو المسالك والممالك الذي ذكره عبد الواحد المراكشي ، ويغلب أن ابن أبي الفياض جعل كتابه من قسمين أحدهما خاص بالجغرافية والآخر خاص بالتاريخ ، فاعتبرهما بعض المؤرخين كتابين . نقول هذا وليس لدينا شيء من كلام ابن أبي الفياض في الجغرافية ، ولكننا ننبه إلى هذه الحقيقة حتى يتطلب المتخصصون هذا الجزء الأول من تاريخ ابن أبي الفياض ويعرفوا أن معظمه يدور حول جغرافية الأندلس ، فلعلنا نعتز عليه ، فتفيد هذه الإشارة في التعرف عليه .

(١) ابن عبد الواحد المراكشي ، المعجب في تلخيص أخبار المغرب (بتحقيق الأستاذين سعيد العريان ومحمد العلي العربي ، القاهرة ١٩٤٤) ص ٣٤٦
وقد ولد ابن أبي الفياض في استجه حوالى سنة ٣٧٩ / ٩٨٩ — ٩٩٠ ولكنه عاش وعمل في المرية ، أى في نفس البلد الذى ولد وعاش فيه العذرى ، ولعل لذلك أثراً في اتجاهه نحو التاريخ والجغرافية ، وقد اختص ابن الأبار في الصلة بعبادة قال فيها « أصله من استجه وسكن المرية . يكنى أبا بكر . سمع باستجه من يوسف بن عمرو بن بلمرية من أبي عمر الطلمنكى وأبى عمر بن عفيف والمهلب ابن أبي صفرة وغيرهم . وله تأليف في الخبر والتاريخ . وتوفى سنة ٤٥٩ هـ وقد خالق (كذا والأغلب أن صحته جاوز) الثمانين سنة . ذكره ابن مدير « رقم ١٢٤ ص ٦٣ ، وانظر عنه دوزى مقدمة البيان ، ص ٧٥ وجاينجوس الترجمة الإنجليزية للجزء الأول من النفج ج ١ ص ١٩٤ و ٤٧٤ و كتابات العرب عن بنى عباد ، ج ٢ ص ٣٤ وبونس بويجس رقم ١٠٤ ص ١٣٨

أبو عبيد البكري

كان أبو عبيد البكري من تلاميذ أحمد بن عمر بن أنس العنزي ، وهو دون شك من أعلام الجغرافية عند العرب ، وهو واحد من هذه الجماعة الباهرة من الفحول الذين أطلعهم الأندلس خلال القرن الخامس الهجري ، الحادي عشر الميلادي ، فهو معاصر للعنزي وابن حزم وابن حيان وابن بسام ومن إليهم . وهو يشترك معهم في الاتجاه الموسوعي ، سواء في تحصيل المعارف أو في الرغبة في إذاعة هذه المعارف بين الناس . وإذا كانت هذه الموسوعية تتبدى في كتابات ابن حيان وابن بسام وفي شعر الفحول من شعراء ذلك العصر مثل أبي عمر بن دراج القسطلي وأبي بكر بن عمار والمعتمد بن عباد وعبد الحميد ابن عبدون في صورة إشارات وكنائيات في ثنايا النثر والنظم تدل على إحاطة تدعو إلى الإعجاب بتاريخ العرب وأدبهم ، حتى ما خفي منهما في أطواء الشروح والتعليقات ، فإنها تتجلى عند ابن حزم ومعاصره أبي عبيد البكري في التأليف والتجويد في أكثر من صنف من العلوم ، وكما كان ابن حزم فقيهاً مؤرخاً فيلسوفاً متبحراً في العلم بالأديان والعقائد وعالمًا بأسرار النفس الإنسانية وشاعراً فلسفي النزعة والأسلوب ، فإن أبا عبيد البكري كان عالمًا لغويًا ومؤرخًا وجغرافيًا ونباتيًا وشاعراً أيضاً ، وإن كان شعره أقل أدواته وأضعف ملكاته . وهو يمتاز إلى جانب ذلك بميزة كبرى يشارك فيها ابن حزم وبقية أعلام هذا الجيل

بالإضافة الى كلامنا هذا انظر عما جدد من الأبحاث عن البكري بعد صدور الطبعة الأولى من هذا الكتاب الذيل رقم

الموسوعى الفريد ، وهى الدقة ، فقد كان محققاً مدققاً لا يكتب شيئاً إلا بعد أن يستوثق منه تماماً ، ولا يزال يبحث وينقب حتى يصل إلى آخر شيء فى الموضوع ، ونظرة يسيرة فى كتابه معجم ما استعجم تكشف عن هذه الملكة فيه بأجلى بيان ، وهى ليست بالقليلة فى رجل يشتغل بالعلم ويتصدى للتأليف فيه .

وحياة أبي عبيد البكرى صورة من مأساة العصر الذى عاش فيه ، مثلها فى ذلك مثل حيوات معاصريه من أعلام الفكر الأندلسى فى ذلك القرن الخامس الحافل بالمأسى والقلق والحيرة فى الأندلس ، فقد كان أولئك جميعاً من ثمرات عصر الخلافة نشأوا ودرسوا على أيامها ، وأعدوا أنفسهم لحياة حافلة بالنشاط والعمل فى ظلال الأمن والاستقرار ، ثم فاجأتهم الفتنة الكبرى فى مطالع شبابهم ، فإذا الدنيا تنقلب من حولهم وتُصَوِّح آمالهم ، وتفرض الظروف القاسية عليهم طريقاً غير التى أرادوا ، وتجرفهم الحوادث فتصبح حياتهم حيرة متصلة وقلقاً دائماً يصورها ابن بسام بأبلغ بيان فى فاتحة « الذخيرة » ، ويصورها ابن حزم فى صفحاته الباكية من « طوق الحمامة » ، ويصورها ابن حيان فى تلك المرارة التى تفيض بها صفحات كتابه « المتين » ويصورها ابن دراج القسطل فى شعره الذى يتمشى اليأس والألم والموت فى أبياته ، ويصورها عند أبي عبيد البكرى بالاقبال على شرب الخمر اقبالا لا يعلل إلا بالرغبة فى النسيان، فقد قضى معظم عمره منهم مشرداً متنقلاً من ناحية إلى ناحية، لا يكاد يطمئن فى بلد حتى يشد رحالة إلى أخرى، يطارده طواغيت الطوائف من بلد لبلد ويطل عليه شبح المصير الحزن الذى كان الأندلس يقترب منه فى سرعة مخيفة لم يطامن منها إلا تدارك المرابطين إياه.

وأبو عبيد البكرى ، واسمه الكامل عبد الله بن عبد العزيز بن محمد بن أيوب بن عمرو ، من بيت يوصف بأنه بيت إمارة ، على عادة الأندلسيين فى

الحديث عن استبدوا بأمور نواحيهم عند قيام الفتنة الكبرى . وأول من نعرف أخباره من أجداده هو أيوب بن عمرو البكري (نسبة إلى بكر وائل) قال في حقه ابن بشكوال : « صاحب خطة الرد بقرطبة ، والقاضي ببلدة لبلة ، كان ذا علم وفضل وسرو وعفة وسروعة ورحل إلى المشرق فأدى الفريضة ، ولقي جماعة من العلماء ، وكان شديداً في أحكامه ، وتوفي في شهر رمضان سنة ٣٩٨ (مايو ١٠٠٨) ، ودفن بمقبرة الرض ، وحضره جمع الناس ، فأتبعوه ثناء حسناً جيلاً . ذكره ابن حيان ^(١) » وهي عبارة يفهم منها أن أصل هؤلاء البكرين من لبلة Niebla وأن أيوب بن عمرو سار في طريق غيره من الراغبين في العلم فرحل إلى المشرق وحج ودرس ثم عاد ، فتولى القضاء ببلده لبلة ، ثم انتقل إلى قرطبة ، فتولى خطة الرد ، أي إدارة الشكاوى ، واختصاصها النظر فيما يرد إلى مركز الدولة من شكاوى الناس والعمل على إنصافهم ورد المظالم عنهم ، ولهذا تسمى خطة الرد أو رد المظالم ، وهي ليست وظيفة « قاضي القضاة » أو Grand juge كما قال دوزي ^(٢) . وكان الرجل من أهل النباهة والذكر في قرطبة ، فقد ذكر ابن الأبار أن ابن حيان سماه في الذين سمعوا من هشام المؤيد ما أمر بعقده للمنصور محمد بن أبي عامر مجدداً للألفة ، وسمى معه محمد بن عمرو أخاه ، وتاريخ ذلك العقد شهر صفر سنة ٣٨٧ (فبراير مارس ٩٩٧ ^(٣)) . أي أن أيوب وأخاه كانا من شهود العقد الذي كتبه

(١) ابن بشكوال ، الصلة (بتحقيق كوديرا ، مدريد ١٨٨٢) رقم ٢٦٣ من ١١٧

(٢) كتب دوزي في الطبعة الأولى من أبحاثه المعروفة فصلاً طيباً عن البكرين هؤلاء . وقد أسقط هذا الفصل من الطبعتين الثانية والثالثة . وصرحنا هنا إلى الطبعة الأولى (لا بدت سنة ١٨٤٩) :

R. P. A. Dozy, *Recherches sur l'histoire politique et littéraire de l'Espagne pendant le Moyen-Age* (Leyde 1849), I.

وعنوان الفصل :

Notice sur les Becries, seigneurs d'Hueloa et de Djezirah Schaltisch, et sur la vie et les ouvrages du célèbre Géographe Abou Obaid al-Becri, pp. 282—307.

(٣) ابن الأبار ، الحلة السراء ، أورده دوزي في الفصل المذكور في الهامش السابق من ٢٨٥

هشام المؤيد على نفسه مفوضاً أمور السلطان في خلافته للمنصور محمد بن أبي عامر ، بعد جفوة وقعت بينهما عند ما شاء هشام ورجاله استرجاع السلطان من يد محمد بن أبي عامر .

ويبدو أن هذه الواقعة تضع يدنا على حقيقة هامة تتصل بالبكرين ، وهي أنهم كانوا من رجال المنصور بن أبي عامر ومؤيديه فيما سما إليه من الاستئثار بالسلطان ، وإلا فما معنى أن يكون أيوب وأخوه محمد شاهدين على عقد أخرج السلطان من يد الخليفة ورجاله ؟ . ولابن بسام رواية أخرى — عن ابن حيان أيضاً — يمكن تفسيرها بأن أيوب تولى ولبة وشلطيش في أخريات أيامه ، فقد قال ابن حيان في حديثه عن ابنه أبي زيد محمد « وكان هذا الفتى أبو زيد البكرى وارث ذلك العمل لأبيه ، وكان أبوه من بيت الشرف والحسب والجاه والنعمة والاتصال بسلطان الجماعة »^(١) ، وإذا كان الناس لا يتولون الأعمال في تلك الأيام إلا إذا كانوا من رجال المنصور وأهل ثقته ، استطعنا أن نقول إن أيوب وابنه كانا أولاً من رجال الخلافة والجماعة ثم دخلا في زمرة الحزب العامرى الكبير الذى قبض على أزمة الأمور في الأندلس واستبد بها دون الخليفة وآله . ويؤيد ذلك قول ابن بسام بعد الفقرة التى رويناهما : « وكان له — أى لأبي زيد محمد البكرى — وسلفه قبل اسماعيل بن عباد جد المعتضد رسائل وأذمة خلفاها فى الأعقاب ، اغتر بها عبد العزيز (بن أبي زيد محمد) البكرى » ومعنى هذا أن أيوب وابنه كانت لهما صلات وثيقة وذمم قديمة مع اسماعيل ابن عباد جد بنى عباد أظهر رجال الحزب العامرى أواخر أيام المنصور ، ومن أول الخارجين على الجماعة والبادئين بالاستبداد ، وضارب المثل السيئ لغيره من حكام النواحي فى الانتزاع بنواحيهم والسير فى طريق الفرقة الحزن الخوف .

وخلف أبا زيد محمد البكرى ابنه أبو المصعب عبد العزيز مستبدا بأمر هذا

(١) رواه ابن بسام . انظر دوزى : جامع أقوال العرب فى بنى عباد ج ١ ص ٢٥٢

الجزء الصغير من الأندلس الإسلامي ، وهو رقعة صغيرة من الأرض عند ملتقى نهري التنتو Rio Tinto والأوديل Odiel وتكوينهما مصباً واسعاً بعض الشيء ينتهي في المحيط الأطلسي . وفي هذا المصب توجد جزائر صغيرة أكبرها جزيرة شلطيـش Saltes وهي جزيرة صغيرة كان يسكنها نفر من الصيادين يعيشون من سمك يستخرجونه من البحر ويملحونه ويصدرونه إلى اشبيلية وغيرها من بلاد الأندلس كما يقول الإدريسي ، وليس لهم مورد ماء عذب ، لأن مدخل النهر هناك يطغى عليه ماء المحيط ، وهم يجلبون ما يلزمهم من ماء الشرب من الضفة الأخرى لنهر تنتو ، ولا يفصل جزيرتهم عنها إلا مجرى النهر الضيق الذي يقول الإدريسي أن اتساعه لا يزيد على نصف رمية حجر . وهذه هي « الإمارة » التي « اقتعد صهوتها وتسئم ذروتها » أولئك البكريون على حد تعبير ابن بـسام . ومن الطريف أن لبلـة الجـاورة لـولة ، وهي كانت مهد البكرين ، استبد بأمرها رجل آخر يسمى أحمد بن يحيى اليحصبي سنة ٤١٦ / ١٠٢٥ - ١٠٢٦ بقليل ثم توفي سنة ٤٣٣ / ١٠٤١ - ١٠٤٢ تاركاً إياها لابنه يحيى بن أحمد ابن يحيى اليحصبي .

ولم يهنا الأمر للمستبدّين الصغيرين فيما اقتطعاه من تراث الخلافة الأموية ، لأن جـارهاـا المعتضـد بن عباد صاحب اشبيلية طمع فيها وفي كل جيرانه من أصحاب الإمارات الصغيرة التي قامت غربي الوادي الكبير . ولكنه شغل بحرب طويلة بينه وبين جاره المظفر بن الأفطس عن التفرغ للاستيلاء على هذه الإمارات الصغيرة ، وحرص ابن الأفطس كذلك على أن يعين أصحابها على المعتضد ، وحرت بين الجانبين حروب طويلة حول لبلـة خاصة . ولكن أبا الوليد بن جهور صاحب الأمر في قرطبة خاف مغبة الصراع الطويل بين جاريه المتحاربين والعدو على الأبواب ، فتوسط في عقد صلح بينهما ، وتم ذلك في ربيع الأول سنة ٤٤٣ / ١٠٥١ وكان صلحاً مؤقتاً على دخن ، ككل الاتفاقات التي تمت بين أولئك المستبدّين ، وكان المعتضد طامعاً منذ تولى أمر اشبيلية في لبلـة

بسبب ضعفها، وما زال يضيق الخناق على صاحبها محمد بن يحيى اليحصبي الذي خلف أخاه أحمد سنة ٤٣٤/١٠٤٢ ، حتى اضطره إلى التنازل عن الأمر لابن أخيه أبي نصر فتح بن خلف اليحصبي (سنة ٤٤٣/١٠٥١-١٠٥٢) الذي أبي رغم سوء الحال إلا أن يتلقب بناصر الدولة ، ودام الأمر لهذا الأخير دون السنتين ، واضطره المعتضد إلى تسليم لبله له ، فتركها بأهله وأمواله ومضى إلى قرطبة ليقتضى بقية أيامه فيها (٤٤٥/١٠٥٣) . وما لا يخلو من معنى أن هذا المسكين الذي تلقب بناصر الدولة لم يجد نفراً من الجند يرافقه إلى ملجئه ، فأرسل إليه المعتضد « قطعة من خيله أوصلته إلى قرطبة » .

وعند ما سقطت لبله في يد المعتضد أحس عبد العزيز البكرى أن أيامه في ولبة وشلطيش قد دنت ، وملكه الخوف ، فأرسل إلى المعتضد يهنئه باستيلائه على لبله « وذكره بالذمام الموصول بينهما ، واعترف بطاعته ، وعرض عليه التخلي عن ولبة ، واقارره بشلطيش إن شاء ، فوقع له ذلك من المعتضد موقع إرادة ، وردَّ الأمر إليه فيما يعزم عليه ، وأظهر الرغبة في لقائه ، وخرج نحوه يبنى ذلك ، فلم يطمئن عبد العزيز إلى لقائه ، وتحمل بسبقه بجميع ماله إلى جزيرة شلطيش ، وتخلي للمعتضد عن ولبة ، فحازها حوزة للبله ، وبسط الأمان لأهلها ، واستعمل عليها ثقة من رجاله ، ورسم له القُطْعَ بالبكرى ، ومنَعَ الناس طراً من الدخول إليه ، فتركه محصوراً في وسط الماء إلى أن ألقى بيده عن قُرب ، ولم يعزب عنه الحزم ، فسأل المعتضد أن ينطلق انطلاق صاحبه ، فأمنه ولحق بقرطبة »^(١) .

ويستطرد ابن حيان — برواية ابن بسام فيقول « وبوشر منه رجلاً سرياً عاقلاً عفيفاً أديباً يفوق صاحبه ابن يحيى جلالاً وخلالاً ، إلى زيادة عليه يبيت

(١) أورد دوزى هذه القطعة من كلام ابن حيان برواية ابن بسام في مجموع النصوص الخاصة

Scriptorium Arabum Loci de Abbadides, I, 252—253.

بني عباد .

السرو والشرف ، وبإذن له بذ الاقران جمالا وبهاء وسروا وأدبا ومعرفة يكنى أبا عبيد . وتحدث الناس من حزم عبد العزيز يومئذ أنه لما احتل بشلطيش عَلم أنه لا يقاوم عَباداً ، فأخذ بالحزم أولاً ، وتخلّى له عنها بشروط ، وفى له بها ، فباع منه سفنه وأثقاله بعشرة آلاف مثقال ، واحتل قرطبة فى كنف ابن جهور ، المأمون على الأموال والأنفس ، وصفت لعباد تلك البلاد ، وإن شاء الله يدوم صفواها ، والملئك الله وحده»^(١) .

تلك هى قصة إمارة البكرين فى ولبة وشلطيش : إمارة صغيرة لم تقم إلا بسبب تلاشى الحكومة المركزية ، فلم يكن لأصحابها من القوة ما يعينهم على الثبات لأول خطر تعرضوا له ، بل لم يكن لديهم أى نوع من القوة العسكرية ، فقد رأينا أبا المصعب عبد العزيز البكرى يفر إلى جزيرة فى مصب النهر لينجو من المعتضد ابن عباد ، وعندما تم الاتفاق على أن يبيعه سفنه وأثقاله بعشرة آلاف مثقال من الذهب لم يجد قوة من الجند ترافقه حتى قرطبة . قال ابن الأبار فى الحلة السيرة : « وحكى غيره — أى غير ابن حيان — أن البكرى فى قصده قرطبة اجتاز بإقليم البصل وطلايطة (Tejada) . وقد أعد له المعتضد النزل والضيافة هنالك ، ومذهبه القبض عليه وعلى نعمته ، فقدم^(٢) إلى صاحب قرمونه محمد بن عبد الله البرزالى يعلمه باجتيازه عليه ، وبأنه لا يأمن غائلة عَباد ، ويسأله مشاركته^(٣) وغفارته ، فعجل له قطعة من خيل مجردة لقيته بموضع اتفقا عليه ، ولم يَلوَ البكرى على موضع النزل ، وحث حمولته حتى لقيته خيل ابن عبد الله (البرزالى) ، فوصل معها إلى قرمونه . ثم توجه منها

(١) نفس المصدر السابق .

(٢) أى أرسل رسالة قبل وصوله .

(٣) يريد مرافقته .

إلى قرطبه ، ونجا من حائل المعتضد . قال : « وكانت مدة البكرين بسلطيش وما إليها إحدى^(١) وأربعين سنة (هجريّة) » .
 وكان أبو عبيد البكري في صحبة أبيه وآله عندما وردوا إلى قرطبة لاجئين على هذه الصورة . وقد ذكر جايانجوس في إحدى تعليقاته على ما ترجمه من نفع الطيب أن أبا عبيد ولد سنة ٤٣٢/١٠٤٠-١٠٤١ أي أن سنه عندما دخل به أبوه قرطبة (سنة ٤٤٣/١٠٥١-١٠٥٢) كانت إحدى عشرة سنة . ولم يورد جايانجوس مصدره الذي اعتمد عليه ، مما جعل دوزي يرفض هذا التاريخ ، ويؤيد دوزي في ذلك قول ابن حيان أن أبا عبيد في ذلك الحين « بذ الاقران جمالا وبهاء وسرّوا وأدباً ومعرفة » وهو كلام لا يقال عن صبي في الحادية عشرة أو نحوها . ثم إن الآراء متفقة على أن أبا عبيد البكري توفى سنة ١٠٩٤/٤٨٧ عن سن عالية ، فإذا كان قد ولد سنة ٤٣٢ فقد كانت سنه يوم توفى ٥٥ سنة على هذا الحساب ، وهي ليست بالسن العالية . ولنصف إلى ذلك أن ابن خاقان يقول في ترجمته « رأيته وأنا غلام ما أقر هلالى ، ولا نبغ في الذكاء كوثرى ولا زلالى ، في مجلس ابن منظور ، في هيئة كأنما كسيت بالبهاء والنور ، وله سبلة كأنما يروق العين إيماضها . ويقوق السواد بياضها ، وقد بلغ سنّ ابن محمّد » أي أن أبا عبيد كان في الثمانين من عمره عندما كان ابن خاقان غلاما ، لأن ابن محمّد هذا هو عوف بن محمّد الشيباني صاحب البيت المشهور :

إن الثمانين — وبلغتها — قد أحوجت سمعى إلى ترجمان

وما دام ابن حيان يذكر أن أبا عبيد لم يطل مقامه في قرطبة حتى عرف بسعة العلم ، فإننا نستطيع القول إنه دخلها شابا ، بين العشرين والخامسة والعشرين في الأغلب ، ومن الغريب أن ابن بشكوال يعد في « الصلة » أبا

(١) ابن الأبار ، الحلة السبراء ، روى هذه القطعة دوزي في مجموعة نصوص بن عباد ٢٨٧/١

حيان بن شيوخ البكرى ، ومع هذا فإن ابن حيان لم يختصه إلا بمادة قصيرة لا تغنى كثيراً في التعريف به ، وقد أوردناها برواية ابن بسام ، وربما يكون قد اختصرها . وهى رغم اقتضاها وانصرافها إلى سجعات قليلة الغناء تنبئ عن المكانة التى وصل إليها أبو عبيد بين علماء عصره ، وتشبهها فى ذلك المادة التى أدارها أبو نصر الفتح بن عبيد الله بن خاقان على أبي عبيد البكرى فى القلائد ، فهى على طولها لا تنفع الغلة ، ولا يكاد الإنسان يستخرج منها شيئاً نافعاً من خلال حجب السجع والتكلف البالغ .

ولا ندرى كم أقام أبو عبيد فى قرطبة ، ولكن الثابت أنه لم يغادرها إلا بعد أن ذاع صيته بالعلم ورغب بعض أسراء النواحي فى أن ينتقل إلى بلادهم ، ولا تكون هذه الشهرة خارج مقامه فى قرطبة إلا نتيجة لكتب ألفها وتناقلها الناس ، ولهذا فيغلب على ظننا أنه ألف إذ ذاك بعض كتبه الأدبية الصغيرة السابقة على « اللآلى » . فأمثال هذه الكتب التى تعرض علم صاحبها باللغة والأدب « ومعانى الأشعار والغريب والأنساب والأخبار » هى التى كانت تقرر للناس مكانهم من العلم والعلماء إلى جانب كتب الفقه والحديث ، أما كتب الجغرافية والفلسفة والطب والأعشاب وما إليها ، فلم يكن يقدرها أو ينظر إليها إلا المعنيون بها ، ونادراً ما كان أهل الفكر وأصحاب التراجم يحتفلون بأصحابها أو يعتبرونها مؤلفات جديرة بالذكر ، إنما كان أصحاب هذه العلوم والفنون يمارسونها لمزاجهم الخاص ، وحتى فى الحالات التى بلغ اهتمام بعض العلماء بها مبلغ التخصص وتكريس الحياة لها ، كان عليهم أن يصرفوا جانباً من نشاطهم إلى علوم الدين والأدب إذا شاءوا أن يكون لهم مكان بين العلماء أو ذكر فى معاجم الرجال .

وأبو عبيد البكرى مثال ظاهر لتلك الحقيقة (التى لاحظناها فى كلامنا عن العذرى وسنلاحظها فى كلامنا عن ابن عبد المنعم الحنبل) ، فإن من ترجعوا له أو تحدثوا عنه من معاصريه لا يذكرون إلا كتبه الفقهية واللغوية ، فابن

حيان وابن بسام وابن خاقان لا يشيرون إلا إلى علمه الواسع باللغة والأدب وبلاغته وبيانه ، وابن بشكوال في الصلة لا يذكر له إلا كتابه في « أعلام النبوة » والإشارات في كتب الأدب كثيرة إلى بعض كتبه الأدبية الأخرى مثل « اشتقاق الأسماء » الذي ذكره السيوطي وكتاب « شفاء عليل العربية » الذي ذكره حاجي خليفة ، ثم مؤلفه الأدبي الأكبر « اللآلئ » الذي اعتبر منذ تأليفه من الأصول الأساسية في الأدب واللغة .

ويبدو كذلك أنه كتب في هذه الفترة كتابه « التنبيه على أغلاط أبي علي في أماليه » فإن الكتاب يحمل طابع الشباب والرغبة في الظهور عن طريق تعقب شيخ من شيوخ الأدب كأبي علي القالي واستدراك أخطاء عليه . وقد أخطأ أبو عبيد في الكثير من استدلالاته على القالي ، ووقع في أغلاط أخرى ، مما يدل على أنه لم يكن قد اكتمل علمه بعد ، وأن الرغبة في ذبوع الاسم هي التي حملته على الإقدام على هذا التأليف ، وكان التعرض بالنقد لكبار أساتذة المشرق أو من قدموا منه ومحاولة اثبات أن الأندلسيين لا يقلون عنهم باعاً سمة من سمات التأليف في ذلك العصر ، وهذا هو الذي دفع ابن فرج الجلياني إلى تأليف كتاب الحقائق وابن بسام إلى تأليف الذخيرة . ويبدو ذلك الاتجاه واضحاً في قول ابن بسام في أثناء كلامه عن أبي عبيد البكرى : « ولولا تأخر ولادته لأنسى ذكر كنيته المتقدم الأوان » . وكنيته المراد هنا هو أبو عبيد القاسم بن سلام صاحب كتابي الأموال والغريب المصنف ، ويلاحظ أن لأبي عبيد البكرى كتاباً يسمى « صلة المفصول في شرح أبيات الغريب المصنف » ورد ذكره في « اللآلئ » وفي فهرسة ابن خير ، مما يحملنا على الظن أنه أيضاً من نتاج هذه الفترة القرطبية الأولى .

وفي أثناء هذه الفترة الأولى اتصلت الأسباب بينه وبين بعض شعراء قرطبة ، منهم إبراهيم بن محمد بن يحيى المعروف بابن السقاط وزير أبي الوليد بن

جهور ، وله في "وداعه بضعة أبيات اشدها ابن حيان في تاريخه الكبير وأوردها ابن الأبار في الحلة السراء مطلعها :

كذا في بروج السعد ينتقل البدر ويُحسِنُ حيث احتل آثاره القَطْرُ

وهي من ضعيف الشعر الذي يدل على أن صاحبه كان في البداية . ولم يكن أبو عبيد بالشاعر ، ولكن قول الشعر كان من لوازم الوجاهة ودلائل العلم في العالم العربي كله ، وقل أن نجد ققيماً أو كاتباً أو وزيراً إلا وله أبيات ليس فيها من الشعر في الغالب إلا الوزن والقافية . وقد ظل أبو عبيد يقول هذا الطراز من الشعر طول حياته دون أن يكون ذلك سبيلاً إلى نظمه في سلك الشعراء .

وأبو عبيد يخاطب ابن السقاط في هذه الأبيات مخاطبة التابع ، وكان ابن السقاط وزيراً لابن جهور ، ونستنتج من هذا أن أبا عبيد لم يصل إلى درجة الوزارة في قرطبة على هوان أمرها في ذلك الحين ، ويرجع هذا دون شك إلى أنه لم يكن ذا هوى بالمناصب وخدمة الأمراء ، ولو شاء لبلغ في هذه الناحية ما بلغه غيره ممن كانوا أقل منه ، ولكنه كان رجل علم وبحث وأدب واطلاع وانصراف إلى شيء من اللهو والشراب .

وتدل إشارة قلقة لابن الأبار في « الحلة » على أن أبا عبيد انتقل من قرطبة إلى المرية وعاش ردحا من الزمن في كنف محمد بن معن صاحبها ، وهذه الإشارة هي قوله : « وحكى الفتح بن عبيد الله (أى ابن خاقان) فيما وَجَدَ بخط ابن حيان على زعمه أن عبيد الله صار إلى محمد بن معن صاحب المرية ، فاصطفاه لصحبته ، وآثر مجالسته والأنس به ورفع مرتبته ووفر طعمته » وهذه العبارة قلقة من ثلاث نواح : أولاها أننا لا نجد لها في واحد من كتابي الفتح بن خاقان المعروفين ، وثانيها أن الفتح بن خاقان لا يروى عن ابن حيان أبداً والثالثة هي هذا التحفظ الذي يلتزمه ابن الأبار بقوله « على زعمه » ،

ولكننا نعتقد أن لها نصيباً من الحقيقة ، فقد عد ابن بشكوال في الصلة أبا العباس احمد بن عمر العذري بين شيوخ أبي عبيد البكري ، والعذري من أهل المرية وعلمائها . وربما يكون هذا اللقاء مع العذري الجغرافي هو الذي حبيب الجغرافية إلى البكري ورغبه في التأليف فيها ، فإن اتجاه أديب لغوي كأبي عبيد البكري إلى التأليف في الجغرافية لا يأتي عفواً ، وإنما التأليف في هذه الفروع من العلم كان هواية يأخذها رجل عن رجل إذا صادفت من نفسه ميلا ، ومن حسن الحظ أن أبا عبيد كان عظيم الاستعداد للبحث في هذا العلم ، فأقبل عليه وأجاد فيه حتى صار من أعلامه ، واتصل عن طريقه تقليد التأليف الجغرافي في الأندلس من الرازي إلى العذري إليه .

ونمر مسرعين بما لدينا من معلومات عن بقية حياة البكري لكي نفرغ بعد ذلك لدراسة انتاجه العلمي الوافر .

لم يستقر المقام بأبي عبيد في المرية ، فقد كان كغيره من أهل العلم والفن في ذلك العصر قلقاً لا يستقر به المقام طويلاً في بلد واحد ، ثم إن إمارة بني صمادح في المرية كانت من أصغر إمارات الطوائف وأضعفها وأقفرها بالتالي ، وكان العلماء وأهل الأدب يتجمعون رويداً رويداً في اشبيلية في كنف المعتمد ابن عباد ، وأخذ نجمها يعلو كعاصمة فكرية للأندلس الإسلامي . فشد أبو عبيد رحاله إليها .

لم يتقلد أبو عبيد في اشبيلية منصباً أو وظيفة ، ويبدو أنه كان في سعة من المال لا يحوجه الأمر إلى راتب أو مورد عيش ، بل اكتفى بأن يكون من أصحاب المعتمد الذين يحضرون مجلسه ، وقد يقول شيئاً من الشعر في مديحه ، وانصرف بكليته إلى البحث والتأليف . ويغلب على الظن أن انتقاله إلى اشبيلية كان بعد وفاة المعتضد وولاية المعتمد في سنة ١٠٦٨/٤٦١ ، إذ أننا نستبعد أن يكون قد ذهب إلى المعتضد بعد الذي فعله بأبيه وآله . وفي اشبيلية

أقام أبو عبيد حتى توفي وقد نيف على الثمانين كما ذكرناه سنة ١٠٩٤/٤٨٧
أى أنه قضى فيها قرابة خمس وعشرين سنة هى دون شك أحفل سنوات عمره
بالدراسة والانتاج .

وقد نعم أبو عبيد طوال هذه الفترة بهدوء وصفو لم يعكرها شيء من
الاحداث ، ولكن ما أصابه فى الماضى من ضياع ملك أبيه والاضطرار إلى
مغادرة وطنه واللجوء إلى قرطبة هارباً مع أبيه وهو بعد فى شبابه الباكر ، ثم
ما حاق بالأندلس كله من النكبات وسوء المصير ، وما تهدده من الأخطار ،
كل هذا كان حقيقاً بأن يؤثر فى نفسه وفى مزاجه ، وكان بطبعه رجلاً سرف
الحس رقيق الحاشية ، لا يستطيع أن يفصل نفسه عن مأساة وطنه وعصره ،
فقال إلى شيء من الخمر يتسلى به ويفرق فيه همومه إذا سئمت نفسه القراءة
والكتابة . وقد أسرف بعض من ترجعوا له فى نعى هذا العيب عليه ، وأشدهم
فى ذلك ابن خاقان فقد قال : « . . . على هنات كانت فيه مستبشعة الذكر ،
مستبشعة النكر ، تمجها الأوهام والخواطر ، ويثبتها السماع المتواتر . فإنه كان
رحمه الله مباكراً للراح لا يصحو من خمارها ، ولا يححو رسم إدمانه من
مضمارها ، ولا يريح إلا على تعاطيها ، ولا يستريح إلا إلى معاطيها . . . » ولا
شك أن الصفدى نقل عن ابن خاقان عند ما قال إن أبا عبيد « كان معاقراً
للراح لا يصحو من خمارها يدمنها أبداً . . . »^(١) .

والحقيقة أننا إذا نظرنا فى مؤلفات البكري تجلّى لنا رجل هو أبعد ما
يكون عن هذا الادمان الذى رمى به ، فكيف يجمع هذا الجمع الغزير ويصنف
هذا التصنيف العلمى الدقيق الرائق رجل لا يفيق من الخمر ؟ أقرب الآراء إلى
الصحة — كما قال دوزى — أن أبا عبيد كان ذا طبيعة شاعرة وحب للطبيعة
والزهور وميل إلى شيء من اللهو والمسرة ، وأنه لم يكن يتخرج من كأس

(١) رواه عبد العزيز الميمنى فى مقدمة سمط الآلى ، صفحة و .

من الخمر طلباً لمزيد من مسرة أو التماساً للسلوان عن هموم الأيام ، وقد يكون الذى أصابه بهذه السمعة المبالغ فيها شئ من شعر غير متحفظ قاله فى مجلس أنس كقوله :

خليلٌ إلى قد طربتُ إلى الكاس وتقت إلى شم البنفسج والآس
فقوما بنا نلهو ونستمع الفنا ونسرق هذا اليوم سراً من الناس
(فإن نطقوا كنا نصارى ترهبوا وإن غفلوا عدنا إليهم من الراس)
فليس علينا فى التعلل ساعة وإن وقعت فى عُقب شعبان من باس

فهذه ليست أبيات مخمور أو مدمن للشراب ، وإنما أبيات رجل يجب الطبيعة والزهر ولا يجد بأساً من شئ من الشراب ، وليس من الضرورى أن يكون تفسير المصراع الثانى من البيت الأخير أن أبا عبيد كان يستحل الشراب فى رمضان ، وإنما هى مطاوعة للقافية ، وقد كان أمثال البكرى إذا قالوا مثل هذا الشعر افترضوا أن الناس لا يأخذونه بحرفيته ، ثم إن ابن خاقان لم يره يشرب أو مخموراً ، وإنما قال عن خلة الادمان التى رماه بها : « تمجها الأوهام والخواطير ، ويثبتها السماع المتواتر » . أما الذى رأى يشرب بالفعل ، وحضر مجلس القاضى عياض مخموراً حتى استنكهه ليتثبت قبل أن يوقع عليه الحد ، فهو ابن خاقان نفسه ، والخبر مشهور .

مؤلفات البكرى

أحصى الأستاذ عبد العزيز الميمنى فى مقدمته القيمة لكتاب اللآلى اثنى عشر كتاباً لأبى عبيد البكرى ، وهذه المؤلفات تقع فى ثلاثة أنواع : وها هو بيانها مع ملاحظات الأستاذ الميمنى عليها :

مؤلفات لغوية وأدبية

- ١ — كتاب « الإحصاء لطبقات الشعراء » وهو كبير ذكره في اللآلى (٢٠ ، ٥٧) ويظهر أنه حَوَّلَ كتاب الآمدى (المؤتلف والمختلف من أسماء الشعراء) وقد كان البكرى وقف عليه أيضاً .
- ٢ — كتاب « اشتقاق الأسماء » ذكره السيوطى .
- ٣ — « التنبيه على أغلاط أبى على فى أماليه » وطبع قبل بضعة أعوام عن نسخة متقنة الكتابة والضبط جليلة كتبت سنة ٦٦٢ هـ . ولما كان البكرى وقف على الأصول التى أُملى منها أبو على « النوادر » فقد أمكنه أن يتبَّه على مظان الوهم والخطأ والاختلاف فى « الأمالى » بعد معارضتها بتلك الأصول . . .
- ٤ — « شفاء عليل العربية » ذكره الحاج خليفة .
- ٥ — كتاب « صلة المفصول ، فى شرح أبيات الغريب المصنف » (لأبى عبيد القاسم بن سلام) . ويرويه ابن خير عن أبى بكر اللخى المذكور ، وعن الفقيه الشريف أبى عبد الله محمد بن محمد بن عبد الرحمن القرشى ، المعروف بابن الأحمر ، قالوا : حدثنا به البكرى .
- ٦ — « فصل المقال فى شرح كتاب الأمثال » يرويه ابن خير بسندائى المفصول (فهرسة ص ٣٤٤) ووقف عليه ابن الشيخ البلوى (ألف باء ٣٨/١ و ٤٢٩—٨٥/٢ و ٤٤٤) . وذكره الحاج خليفة أيضاً . توجد منه نسخة فى مكتبة الاسكوريال . رقم ٥٢٦
- ٧ — « اللآلى فى شرح أمالى القالى » وهو أكبر مؤلفاته فى ميدان اللغة والأدب . نشره الأستاذ عبد العزيز اليمنى فى مجلدين (القاهرة ١٩٣٦) مع إضافات وتعليقات واستدراكات تحت عنوان سمط اللآلى .

مؤلفات جغرافية

٨ — المسالك والممالك .

٩ — معجم ما استعجم من أسماء الأماكن والبقاع .

مؤلفات في موضوعات أخرى

١٠ — « أعلام نبوة نبينا محمد » . ذكره ابن بشكوال كما تقدم .

١١ — « التدريب والتهذيب في ضروب أحوال الحروب » . ذكره في معجمه (٣٩٨) .

١٢ — كتاب « النبات » كذا سماه ابن خير ، ورواه بسند صلة
المفصول ، وسماه ابن أبي أصيبعة كتاب « اعيان النبات والشجريات الأندلسية » .
ويهمنا من هذه كلها كتاباه في الجغرافية ، ومن حسن الحظ أن واحداً
منهما وصل إلينا كاملاً ، ونشر مرتين (المعجم) والثاني وصلت إلينا قطع
كثيرة منه (المسالك والممالك) .

معجم ما استعجم

يبدو لنا أن هذا الكتاب هو أول ما ألف البكري في الجغرافية . وإذا
كان اتجاهه إلى التأليف في هذا الفن قد بدأ في المرية بتأثير شيخه أبي العباس
أحمد بن عمر بن أنس العذري ، فإن الأغلب أنه بدأ تأليفه إياه فيها ، وما
يؤيد ذلك أنه وسط بين اللغة والجغرافية أو خطوة انتقال بينهما . ويتضح
هذا من قوله في فاتحة الكتاب معرفا بغرضه من تأليفه : « هذا كتاب « معجم

ما استعجم» ذكرت فيه — إن شاء الله — جملة ما ورد في الحديث والأخبار والتواريخ والأشعار من المنازل والديار والقرى والأمصار والجبال والآثار ، والمياه والآبار ، والدارات والحرار ، منسوبة محددة ، ومبوبة على حروف المعجم مقيدة . فإني لما رأيت ذلك قد استعجم على الناس ، أردت أن أفصح عنه ، بأن أذكر كل موضع مبين البناء ، معجم الحروف ، حتى لا يدرك فيه لبس أو تحريف . . « أى أنه إنما وضعه لئلا يستعين به الذين يدرسون الحديث والأدب والأخبار في التعرف على المواضع التي تستعجم عليهم ، وتحجى أن يقيد كل علم بالضبط الكامل حتى لا يقع في رسمه ونطقه لبس .

وهذا فيما أعرف أول معجم جغرافى فى تاريخ التأليف الجغرافى عند العرب ، فان التأليف فى ذلك الفن اقتصر حتى الآن على البلدان والمسالك والممالك . أما أن يفكر عالم فى وضع معجم أبجدى لأسماء المواضع فهو حدث يعين ميلاد نوع جديد من التأليف الجغرافى عند العرب ، نوع سيتطور ويؤثر حتى يصل إلى ذروته فى معجم ياقوت المعروف . نعم إن البكرى قصره على ما ورد فى الحديث والأخبار وكتب الأدب الشرقية من المواضع ، ولكن ذلك لا يقلل من أهمية الخطوة التى خطاها أبو عبيد البكرى بالتأليف الجغرافى عند العرب عندما شرع فى تأليف معجمه هذا . ومن الواضح أن التفكير فيه يدل على عقلية منظمة منهجية عند صاحبها ، فإن إحصاء هذه المواضع وضبطها يتطلب قراءة أصول الحديث والسيرة والشعر والنثر لتقيد ما فيها من الأعلام الجغرافية مع ضبطها وما يرد عنها من التعريف فى كل أصل من هذه ، وهذا مطلب عسير لا يعتمد على سعة الاطلاع وحدها ، بل على منهج مقرر فى القراءة والتقيد والمقارنة على مثال ما يفعله العلماء اليوم فى أمثال هذه التأليف .

والأخبار متواردة عن عناية البكرى بالكتب واجتهاده فى نسخ أصوله منها بيده ومراجعة ما ينسخ مراجعة دقيقة ، ثم العناية الكاملة بالمحافظة عليها ، حتى كان يحفظها فى سباني الشرب ، والتسبيئية شئ أشبه بالمنديل من القماش

الرقيق الغالى ، وسبنيات الشرب أغلاها وأرقها ، فقد كان الناس يدخرونها للولائم وساعات الشراب ، . جل يبلغ به الحب للكتب مبلغ أن يصون كل كتاب فى سبئية لا بد أن يكون ذا حب عظيم للكتب وعناية خاصة بحفظها وصيانتها .

وقد رتب البكرى معجمه على حروف الهجاء حسب ترتيبها عند الأندلسيين فى عصره وهو : ا ب ت ث ج ح خ د ذ ر ز ط ك ل م ن ص ض ع غ ف ق س ش ه وى « وجعل ترتيب الكلمات فى كل باب على ترتيب الحرفين الأول والثانى الأصليين من الكلمة ، دون نظر إلى ترتيب ما بعدها من الحروف ، وإذا كان الحرف الثانى ألفا زائده ، كالألف صاحب وفاضل ، أهمله ، ولم ينظر إليه ، واعتبر الحرف الثانى ما بعد الألف ، وفى هذا ما فيه من العسر والتكلف . ولذلك يضطر الباحث عن كلمة فى حرف من الحروف أن يقلب صفحات المعجم فى هذا الحرف حتى يعثر على ضالته بالمصادفة ، لا بأن يطلبها فى موضعها الذى ينبغى أن تستقر فيه ، بحسب نظام الفهرسة الدقيقة لألفاظ المعاجم » كما يقول الأستاذ مصطفى السقا فى مقدمته الجامعة لمعجم ما استعجم واتباع البكرى لهذه الطريقة لم يكن تكلفا ، ولكن علم المعاجم كانت فى طريق التكوين ولم تكن قد تقرر له أصول ثابتة عند العرب ، فكان كل صاحب معجم يتبع الترتيب الذى يحسبه أيسر من غيره وأعون للباحثين . وقد تغلب فرديناند فستنفلد الذى نشر هذا المعجم أول مرة على هذه الصعوبة بأن أورد فى نهايته ثبثاً أبجديا عاديا للإعلام مع أرقام الصفحات . أما الأستاذ مصطفى السقا الذى نشره مرة أخرى فى القاهرة فقد أعاد ترتيب الأعلام الجغرافية جميعاً ترتيباً أبجدياً حديثاً صرفاً .

وقبل أن يبدأ البكرى فى إيراد ألفاظ معجمه وضع دراسة شاملة لجغرافية شبه الجزيرة العربية ، وهى أوفى ما لدينا فى هذا الباب ، بل إن هذه الدراسة أوفى من صفة جزيرة العرب لأبى محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب بن يوسف

ابن داوود الهمداني البيني المعروف بابن الحائك (توفي ٣٣٤) فجع أن الهمداني من أبناء شبه الجزيرة العربية وقد جابها من طرف لطرف باحثاً منقّباً ، إلا أنه لم يصل إلى دقة البكري وشموله ، إلا فيما يتصل باليمن وجنوبي الجزيرة . مما يشهد للبكري بقدرة فائقة على الجمع والاستيعاب والتنسيق والترتيب وسلامة التصور الجغرافي ، فإنه لم يكن من الجغرافيين الرحالة الذين يكتبون عن مشاهدة ومعاناة مباشرتين ، بل كان يكتب في الجغرافية معتمداً على القراءة والتصنيف والتصور ، وقد فاق فيما وصل إليه من النتائج أهل الرحلة والملاحظة ، ونستطيع كذلك أن نقرر أن القسم الخاص بمصر مثلاً من مسالك البكري هو أحسن وأوفى ما ألف في جغرافية مصر قبل المقرئزي وهكذا .

وذلك كله يرجع إلى أن البكري كان يتصف بدقة لا يدانيه فيها إلا القليلون جداً من مؤلفينا القدامى ، فهو لا يكتفى بما يقع تحت يده من الكتب ، بل يبحث عن الأصول ، ثم يرجع إلى المراجع التي استند إليها أصحاب هذه الأصول يدرسها بنفسه درساً دقيقاً عميقاً صبوراً ، وهي خاصيته الأولى التي رافقته في كل ما ألف . قال الأستاذ عبد العزيز الميمنى في مقدمته « للآلى » : « لا غرو أن البكري كان حريصاً على انتقاء الكتب ذوات الخطوط المنسوبة ، مغرمًا باقتنائها ، ثبّتاً في ضبط الألفاظ وتقييد الروايات على حسب ما كان يجده مثبتاً فيها . وقد ذكر ابن خبير في فهرسته (ص ٣٩٥) أسماء كتب دخل بها أبو على (القالى) الأندلسي ، ونرى صاحبنا (أى البكري) وقف على الكتب التي أملى بها أبو على « النوادر » وعلى أصوله « كالاببدال » لابن السكيت و « أمالى » ابن الأنباري و « نوادر » ابن الأعرابي بخط أبي موسى الحامض ، وعلى كثير من الجوامع كالمنتسخة من كتاب أبي سعيد السكري ، وكتاب أبي على بخطه الذي قرأ فيه على ابن دريد ، والكتاب الذي قرأ فيه على نفطويه ، وهو بخط إبراهيم بن سعدان وشعر ابن أحرر ، وذكر أشعار هذيل رواية القالى ، وإصلاح المنطق روايته ، إلى غيرها من أصول القالى ورواياته . وقد وقف على كثير

من غير خطه أيضاً ككتاب بخط ابن الأعرابي ، وآخر بخط ابن السكيت ، وأنساب عبد شمس للأصمعي بخطه ، وشعر امرئ القيس بخط ابن برد ، وكتاب قرأه الزجاج على اليزيدي وأثبت عليه خطه ، وكتاب بخط ثابت الجرجاني ، وآخر بخط عبد الله بن حسين بن عاصم اللغوي إلى غيرها^(١) . وهذه المعلومات أخذها المصنف من كلام البكري في اللآلئ والمعجم ، لأنه — أى البكري — كان يحرص على الاعتماد على أصول الكتب بخطوط مؤلفيها أو بخطوط رجال موثوق فيما ينقلون وينسخون . وهي مرتبة في التدقيق والتحقيق نادرة فيمن نعرف من المؤلفين كما قلنا .

ولا يتسع المقام لإيراد فقرات من وصفه لبلاد العرب للتدليل على ضبطه ودقته ووضوحه ، فالكتاب مطبوع طبعين جيدتين لا يعسر الرجوع إليهما على أحد ، ويكفي أن نشير مثلاً إلى تحديده لجلال السراة والحجاز وتهامة ونجد ، فإننا نلاحظ الضبط الكامل في الكلام والتحديد ، ونلاحظ إلى جانب ذلك شيئاً آخر على أكبر جانب من الأهمية ، وهو دقة تصور البكري لما يصف ، كأنه كان يرسم لنفسه خرائط ورسوماً يضع عليها أسماء المعالم الجغرافية حتى يعرف بالضبط موضع العلم الذي يتحدث عنه . خذ مثلاً قوله عن تهامة : « وأما تهامة ، فإنك إذا هبطت من الأماية إلى الفرع وغَيَقَة إلى طريق مكة إلى أن تدخل مكة : تهامة ، إلى ما وراء ذلك من بلاد عك ، كلها تهامة ، والحجازة وعُكَّيب وتَنَوَّاتٍ ويَزَن كلها تهامة . وأنت إذا انحدرت في ثنايا ذات عرق مُثَمِّم ، وأنت إذا تَصَوَّبْتَ في ثنايا العرج إلى أقصى بلاد فزارة أنت مُثَمِّم ، فإن جاوزت بلاد فزارة إلى أرض كلب فأنت^(٢) بالجناب . . . » وهذا كلام لا

(١) مقدمة سبط اللآلئ ، صفحة ك .

(٢) معجم ما استعجم ، طبعة مصطفى السقا ، ١٣/١

يكتبه رجل إلا وأمامه مخطط ينظر فيه ويتكلم بناء عليه ، مخطط عليه الأماكن والطرق واتجاهاتها والجبال ومجاريها والقبائل ومنازلها والبلاد وزمامها . ولم يكن ذلك ميسوراً للبكرى إلا بعد دراسة طويلة لكل ما ورد من الإشارات الجغرافية فيما قرأ من الكتب ، وهو ينص على مصادره وأصوله بغاية الدقة ، وقائمة مراجعة طويلة ، ويكفي أن نذكر أنه في الصفحتين الأوليين فحسب من « ذكر جزيرة العرب » يرجع إلى هشام بن محمد بن السائب الكلبى وعبد الله ابن وهب واحمد بن المعذل والمغيرة بن عبد الرحمن والأصمى وأبى عبيد عبد الله بن بشر السكونى والشعبى والخليل وأبى اسحق الحربى . وهو لا يكتفى بذكر المرجع بل يأتى بسنده . هذا إلى إيراد أمثلة من الشعر ورد فيها ذكر المواضع وإشارات طويلة إلى القبائل ومنازلها وحدود هذه المنازل ، وتتخلل ذلك كله إشارات تاريخية طويلة وحكايات قصيرة تتصل بالموضوع .

ويبدو لنا أن البكرى كتب هذه المقدمة الطويلة في جغرافية الجزيرة بعد أن فرغ من المعجم ، فإنه لا يشير إليها في خطبة الكتاب التى يصف فيها منهجه في تأليفه وأسلوبه في الترتيب الأبجدي ، وهو يقول فيها : فجميع أبواب هذا الكتاب ٧٨٤ بابا وهو ما يجتمع من ضرب ٢٨ في مثلها « و ٢٨ هو عدد حروف الهجاء في حسابه ، والرقم الذى أعطاه هو عدد المواد ، ولو كان منهج المعجم كما وضعه البكرى قبل التأليف يتضمن تلك المقدمة الفريدة لأشار إليها أو لأضاف لها بابا في الحساب على الأقل .

هذا ومن الملاحظ إلى جانب ذلك أن النسخ المخطوطة للمعجم تختلف فيما بينهم اختلافاً يسيراً ، ففي بعضها مواضع وتحديدات لا تبدو في بعضها الآخر ، « وقد علل فستنفلد ذلك في مقدمته القيمة لطبعته بأن البكرى كتب المعجم أولاً ، ثم أذاعه وتهاداه الناس والرؤساء ، ثم ردد النظر في المعجم متصفحاً منقحاً ، فبدت له فيه أشياء لم يفتن لها أول الأمر ، فأصلحها على هامش بعض النسخ ، أو كما يقول العلامة فستنفلد في أوراق وجزازات ، وألحقها بموضعها

من الكتاب ، ثم جاء الناسخون ينقلون الكتاب ، فبعضهم عثر على نسخة منه قبل التنقيح ، فنقلها ناقصة ، وآخر عثر على نسخة منه منقحة ، فنقلها كاملة ، وبعضهم نقل الجزاءات كلها ، وبعضهم وجدها ناقصة ، فاختلقت نسخ الكتاب في أيدي الناس ، وهذا أمر عهدنا مثله في مقدمة ابن خلدون ، وفي دواوين كثير من الشعراء^(١) .

فإذا انتقلنا إلى المعجم نفسه وجدنا تحديداً وضبطاً ودقة تشفى غلة أكثر الباحثين طموحاً وتدقيقاً ، ولقد أصاب راينهارت دوزي عند ما قال عنه : « لقد أصدر عالم مشهور هو البارون دي سلان^(٢) حكماً غير منصف لهذا الكتاب عند ما قال : « فبدلاً من كتاب طيب في الجغرافية ، وهو ما كنا ننتظره من مؤلف ممتاز مثل أبي عبيد البكري ، تبين أن كتابه هذا إن هو إلا معجم للأعلام الجغرافية الواردة في أشعار العرب القديمة » ولكنني لا أستطيع أن أعتبر هذا الكلام نتيجة لدراسة نهائية . إن الفكرة العالية عندي عن علم البارون دي سلان وذوقه وذكاؤه لا تسمح لي بذلك . وليس ذنب البكري قطعاً أنه لم يؤلف كتابه على النحو الذي يريده السيد دي سلان ، خاصة وأن البكري كتب كتابه الكامل في الجغرافية الذي تحدثت عنه (الإشارة هنا إلى المسالك) . وعلى هذا فلا بد أن ننظر إلى الكتاب من زاوية أخرى ، لكي نستطيع أن نصدر عليه حكماً أقرب إلى الإنصاف . وإنني لأشعر نحو البكري بشعور عميق من العرفان ، وهو شعور صادر عن انتفاع طويل بالمعجم يحتم على الاعتراف له بالفضل ، وما دمت لن نتطلب في هذا الكتاب أشياء لا ينتظر أن توجد فيه ، نتيجة للخطأ التي رسمها المؤلف لنفسه

(١) رواه الأستاذ السقا في مقدمة معجم ما استعجم .

(٢) يشير دوزي في الهامش إلى الموضع الذي أصدر فيه دي سلان هذا الرأي وهو :

Rapport adressé à M. le ministre de l'instruction publique sur les manuscrits de la Bibl. de Cid Hamouda à Constantine. Voyer aussi M. Re naud, Introduction à la traduction française d'Abou-l-feda, p CIV.

في تأليفه ، فإننا نستطيع القول بأنه أحسن في نوعه من « المسالك » . ومن البديهي أن المعجم لا يهتم بنفس الدرجة عامة القراء الأوربيين ، ولكن لدينا كتباً عربية كثيرة من ذلك النوع (المسالك والممالك) ، ولا بد من تجاوز كثير حتى يمكن القول بأنها كلها أقل قيمة من كتاب البكري (في المسالك) . وعلى العكس من ذلك نجد « المعجم » فريداً في نوعه ، ومن المؤكد الثابت أننا لا نملك أى مؤلف آخر نستطيع أن نقارنه به سواء من ناحية الشمول أو ناحية الدقة والتحقيق في التفاصيل ، فهو يضم أسماء حشد من أسماء أعلام الأماكن والجبال والأنهار وما إلى ذلك مما يرد في كتب التاريخ العربية القديمة والأحاديث النبوية والأشعار خاصة ، مرتبة بحسب ترتيب الأبجدية المغربية . وهو يدرسها برسمها الدقيق ويعين مواضعها ويورد عدداً لا حصر له من الأبيات الشعرية التي يرد فيها ذكر هذه المواضع . وليس هناك ما يحير من يقرأون الشعر العربي القديم أكثر من أسماء المواضع التي لا نعرف في الغالب نطقها وأماكنها . وهذا الكتاب إذن ذو فائدة لا تقدر في حل هذه الصعوبات . ولا غنى عنه لكل من يدرسون تاريخ العرب القديم وجغرافية بلادهم وأشعارهم والأحاديث النبوية ذات المعنى التاريخي ، وقصارى القول أننى أقرر أنه فريد في نوعه ، وقد سبق أن قلت ذلك ، ولكنى أعيد قوله . وكل ما لدينا سواء في هذا الموضوع ضئيل هزيل وغير دقيق بصفة خاصة إذا قورن بهذا المؤلف الجليل الحافل بالتفاصيل الغربية والذي اعتمد مؤلفه في تأليفه على ألوف من الأصول تعتبر اليوم في حكم المفقودة ، ثم إنه — أى المؤلف — أديب وجغرافى كفء كل الكفاية للقيام بالعمل العسير الذى اضطلع به . هذا ولا يخرج الإنسان من كتب الجغرافيين الآخرين إلا بمزيد من الحيرة ، فهم يكذبون الأخطاء فوق الأخطاء والمتناقضات فوق المتناقضات . وخذ مثلاً اسم موضع يرد في قصيدة قديمة وابحث عنه — لا أقول في « مرصد الاطلاع » فهذا الكتاب فوق النقد في هذا المجال — وإنما في أى مؤلف جغرافى آخر ،

وعلى فرض أنك تجد فيه اسم ذلك الموضع (وهو ما يندر وقوعه) فقارن ما عنده بما عند البكرى ، وهنا ستجد — وأنا لا أتردد في ذلك القول — أن المعلومات التي يقدمها الكتاب الأول خاطئة ، أو على الأقل مضطربة ، في حين أن معلومات البكرى واضحة ناصعة دقيقة وصحيحة بعد ذلك كله . وتزيد قيمة هذا الكتاب بسبب مقدمته التي يعين البكرى فيها حدود جزيرة العرب وأقسامها : الحجاز وتهامة واليمن ويتحدث عن القبائل العربية التي نزلت هذه النواحي ، وما أصاب هذه المنازل من تغيير^(١) .

وهذا أحسن تقدير لمعجم البكرى ، وقد نقله بنصه الفرنسى فرديناند فستنفلد في مقدمته لتحقيقه ونشره له ، وأورد ترجمة موجزة له الأستاذ مصطفى السقا في مقدمته لطبعته للمعجم ، وهذا الحكم يضع البكرى في مكانه الصحيح بين جغرافينا ، ويبين أهمية معجمه كنوع فريد لا نظير له في المكتبة العربية ، وهذا يكفي لإفساح مكان ممتاز للبكرى بين الجغرافيين ، ولكننا سنرى أن فضله في « المسالك والممالك » لا يقل عن فضله في المعجم بل يزيد .

وقد نشر المعجم مرتين ، أولاها على يد فرديناند فستنفلد ، اعتمد فيها على أربع مخطوطات ، وانتسخها بيده وطبعها طبعة حجر في مجلدين ، صدر أولها سنة ١٨٧٦ والثاني سنة ١٨٧٧ في جوتنجن في ألمانيا^(٢) . والثانية قام بها الأستاذ مصطفى السقا اعتمد فيها على مخطوطات أخرى وقابلها بطبعة فستنفلد فجاءت غاية في الدقة والكمال وصدرت في أربعة أجزاء في القاهرة سنة ١٩٤٥ .

(١) Dozy, *Recherches sur l'histoire politique et littéraire de l'Espagne pendant le*

Moyen Age (première édition, Leyde 1840) tome I, 303—305.

(٢) Ferdinand Wüstenfeld, *Geographische Wörterbuch des Abū Obeid Allāh ibn Abd*

el-Aziz al-Bakrī, nach den Handschriften zu Leiden, Cambridge, London und Mailand (Göttingen — Paris, 1876—1877).

المسالك والممالك

وننتقل الآن. لدراسة كتاب البكرى الثانى فى الجغرافية ، وهو المسالك والممالك .

لم يدرس هذا الكتاب إلى الآن ككل واحد ، لأن القطع التى وجدت منه متفرقة فى مكاتب ومجموعات شتى ، بما حال دون تكوين فكرة كاملة عنه ، ولهذا فيحسن أن نحصى الموجود منه إلى الآن ، سواء فى صورة مخطوطات أو قطع منشورة أو فى صورة نقول فى كتب أخرى .

١ - أكبر القطع التى لدينا من هذا الكتاب محفوظة فى مكتبة نور عثمانية (رقم ٣٠٣٤) ، وتقع فى ٢٤٦ ورقة ، ومنها نسخة مصورة فى دار الكتب بالقاهرة ، وقد تفضل المسئولون فى الدار فوافونا بصورة منها وعليها معتمدنا فى هذا الكلام .

وهذه القطعة أطول ما لدينا من قطع هذا الكتاب ، ومن أسف أن البكرى أنفق معظمها فى مقدمات طويلة تتناول موضوعات لا تدخل فى صلب الجغرافية ، فهى تتناول « القول فى مدة عمارة الأرض » و « كيفية خلق الجنين » و « القول فى ذرية نوح عليه السلام » و « ذكر زرادشت الذى يدعى موبذ المجوس » و « عيسى وزكريا عليهما السلام » و « من كان فى الفترة من أصحاب الأخدود » وما إلى ذلك ؛ وهذه كلها فصول معلومات عامة وحكايات ونقول تشبه ما نجده عند المسعودى فى « مروج الذهب » و « التنبيه والإشراف » ، ولكنها أقل تفصيلا وأقل ترابطا ، ويبدو أن ذلك يرجع إلى النسخ ، فإننا نلاحظ انتقالات سريعة من مبحث لمبحث دون تمهيد . وليست لدينا فاتحة الكتاب حتى نعرف منهج البكرى فى تأليفه .

غير أن بعض المباحث التي ترد في هذه المقدمة الطويلة ذات قيمة جغرافية ، فهناك فصل عنوانه « جملة القول في جزيرة العرب وشيء من أخبارها » يورد البكري فيه ملخصاً لوصف شبه الجزيرة الذي أورده في « معجم ما استعجم » ، ثم ينتقل إلى « ذكر أخبار العرب العاربة والأمم الدائرة ومذاهبهم وديانتهم وسيرهم » ثم « ذكر معبودات العرب وعلّة عبادتهم الأصنام » ثم « ذكر بيوت النيران » .

وفي هذا الفصل نجد إسم تيتوس (ليفيوس) مذكوراً لأول مرة في العربية إلى جانب نفر من الجغرافيين والرياضيين اليونانيين ، وهو يأخذ فيه عن العذرى مباشرة ويقول « أخبرني العذرى » . وهو يجمع في هذا الباب أخباراً وغرائب نقلها من الكثير مما نعرف من كتب الجغرافيين والأخباريين .

وبعد ذلك ، وفيما نعتقد ، يبدأ القسم الجغرافي من هذه المقدمة ، وهو قسم يدل على تصور جغرافي سليم واطلاع واسع على المهم مما كتبت قبله في المباحث التي تعرض لها . وإذا كان « معجم ما استعجم » يضع البكري في الصف الأول من الباحثين في الجغرافية في العصر الوسيط ، أولئك الذين يجمعون المعلومات الجغرافية ثم يرتبونها على النحو الذي يختارونه ، فإن هذا القسم من المقدمة يقرر بوضوح كيف كانت صورة الأرض واضحة في ذهن أبي عبيد ، وكيف كانت هيأتها وتقاسيمها — بحسب ما انتهى إليه علم العصور التي سبقتها — قد تجمعت في ذهنه وعرف كيف يعرضها عرضاً سهلاً مبسطاً يذكرنا بأحسن ما كتب المنقطعون لهذا الشأن من أمثال أحمد النهاوندى والخوارزمي وأبي معشر والبتاني وأبي محمد بن زكريا الرازي وعلي بن يونس وغيرهم . بل عرف كيف يختار من أقوال أولئك الفلكيين والرياضيين وأصحاب الزيج أقرب ما لديهم إلى فهم القارئ العادي ، ويعرضه عرضاً حسناً يستكمل به صورة الكون والأرض وأقاليمها ، وعلاقة هذه الأخيرة بالبروج دون تكلف أو تعقيد .

وللبكري في ثنايا ذلك لمحات يكشف بها عن حقائق سبق بها زمانه بكثير ، خذ مثلاً قوله : « وأقيانس البحر المحيط ، لا يدري ما وراءه غرباً إلى أقصى عمران الصين شرقاً ، والشمس إذا غابت في أقصى الصين طلعت في الجزائر (الخالدات) وبالضد » وهذه — ولا زيادة — هي الفكرة التي جعلت من كولومبوس ما هو في تاريخ البشر ، وكأبنا أخذ أبو عبيد البكري بيده وقاده إلى ما وقع إليه من كشف عظيم . وليس من قبيل المصادفة البهتة أن يكون أبو عبيد من أبناء ولبة على أميال قليلة من الرابطة La Rábida وفيها الدير الذي لجأ كولومبوس إلى أحبارهِ لكي ييسروا له مقابلة فرناندو وإيزابلا ، ولا هو من قبيل المصادفة أن يكون أبو عبيد قد كتب هذه السطور في إشبيلية ، البلد الذي عاش فيه كولومبوس زمنًا ، وتعلم من أهله وعلمائه وبحارته الشيء الكثير ، بل إنه لا تبدو لنا مصادفة أن يكون خروج مراكب كولومبوس إلى العالم الجديد من ميناء سان لوكار San Lúcar أقرب بلد إلى ولبة ، والمسافة بينهما بضعة كيلومترات .

والبكري يعتمد في كلامه في هذا الفصل على كتابي بطليموس : الجغرافية والمجسطى ، ويحقق كلام ايراتوستينيز (يكتبه اردوستانس) عن محيط الأرض وقطرها ، ويُجَمِّل بعد ذلك أقوال الجغرافيين والرياضيين عن أطوال محيط الأرض قائلاً : « فهي كَوْرُ كَوْرَةِ الأرض المحيطة بالبر والبحر ، فقطرها على هذا ٦٤٢٤ ميلاً بتقريب » وهو تقدير صحيح لِقَطَرِ كرة الأرض، ولو جمعنا هذه العبارة إلى عبارته السابقة عن إقيانس تبين أن فكرة خروج السفن من غربى أوروبا لتصل إلى شرق الصين كانت عند البكري بديهية من البديهيات . ومع ذلك فهو يقول في تواضع عظيم : « وإنما ننقل في كل موضع من هذا الكتاب ما يُسْتَسَخُّ لنا ، وعندنا كتب الناس فننقل ذلك عنهم على حسب ما نجده ، لا ما نقع على صحته » .

ونؤكد ما قلناه آنفاً من معرفة البكري بأن الخارج من غرب أوروبا يصل شواطئ الصين بهذا الخبر الذي يرويه عن بحر الظلمات أو البحر الأخضر أو المحيط : « وقد خاطر بنفسه فتى من أهل الأندلس يسمى خشخاش . وكان من فنيان قرطبة في جماعة من أحداثها ، فركبوا مراكب استعدوها ودخلوا هذا البحر وغابوا مدة ثم أتوا بغنائم واسعة وأخبار مشهورة » ولا ندرى إن كان هذا هو خبر الفتية المغربيين (أو المغربيين) أو خبر آخر ، وعلى أى حال فهو دليل على أن الخروج في المحيط الأطلسي والإيفال إلى الغرب والوصول إلى سواحل بعيدة كان أمراً يستهوى نفوس الأندلسيين وربما تكرر مراراً .

وهو يتحدث في ذلك الفصل عن علة المد والجزر فيقول إنها « القمر على ما بين أبو معشر » ويستطرد إلى أحاديث عجائب كثيرة معظمها نجده عند غيره . ولكننا نجد فيه فصلاً قائماً عن أنهار الأرض ، هو أحسن ما لدينا إلى الآن في ذلك الباب ، وهو يتحدث فيه عن دجلة والفرات حديثاً طويلاً ، ثم عن النيل ويقول « فأما النيل فإن منبعه من تحت جبل القمر وراء خط الاستواء بسبع درجات ونصف من اثنتي عشرة عين فيجتمع من بحيرتين كالبطائح » ، وكلامه عن هذه الأنهار هو الأصل الذي نقل عنه الإدريسي ، فإن كلامهما يتطابق في بعض الفقرات حرفياً ، وفي ذلك الباب نجد فصلاً طويلاً عن أنهار الأندلس ، وهو أوسع في بعض المواضع مما لدينا في القطعة الباقية بين أيدينا من وصفه للأندلس^(١) .

وبعد هذه المقدمة الطويلة يبدأ كلامه عن الممالك والمسالك ، فهو يبدأ فصلاً عنوانه : « ابتداء الممالك » ثم يتكلم من مملكة الهند . وقد أخذ البكري مصطلح الممالك والمسالك بحرفيته ، فهو يبدأ بالكلام عن المملكة ثم يذكر مسالكها . والمملكة هنا هي القطر ، وأبو عبيد يتحدث عن كل مملكة يذكرها

(١) سبق أن أشرنا إلى هذه القطعة وتحقيق ليلى برونسفال إياها .

بتفصيل ، فيصفها ويذكر حدودها ويأتى بشيء من تاريخها ، ويذكر عادات أهلها وخصائصهم ، وبعد ذلك يتحدث عن الطرق ويذكر المسافات ، فيبدأ بالهند كما قلنا ، ثم الصين ثم فارس ، وكلامه عن هذه الثلاثة شديد الشبه بكلام المسعودى ، وهو ينص عليه فى أكثر من موضع . ثم يتحدث عن الروم ، وهنا نراه يأخذ عن هرودشيس دون أن يشير إليه ، ثم ينتقل إلى بلاد الصقالبة والروس ؛ ومعتمده هنا على ابراهيم بن يعقوب الإسرائيلي ، وهنا موضع القطعة الطويلة التى نشرها فون روزن وكونك وأشرنا إليها آنفاً .

ويختم كلامه عن أوروبا بالكلام على مملكة الجلالة ، ويبدو أن معتمده هنا على ابراهيم بن يعقوب وأصول عربية أخرى ، لأنه يذكر فى نهاية كلامه عن مملكة الجلالة وقائع عبد الرحمن الناصر معهم ويختمها بقوله : « وهى للمسلمين عليهم إلى وقت التاريخ » ، ولا يمكن أن يكون البكري صاحب هذه العبارة .

٢ — وتلى ذلك قطعة محفوظة فى مكتبة القرويين بفاس تحت رقم ٤٨٨ وفيها جغرافية إيران (ايرانشهر) ومصر والمغرب وقطعة من وصف الأندلس .

٣ — ثم قطعة أصغر محفوظة فى مكتبة لاله لى (رقم ٢١٤٤) ، عدد أوراقها ٧٧ ورقة وتشمل جزءا من جغرافية الشام والجزيرة العربية .

٤ — قطعة تبدأ بنهاية وصف مصر ثم تورد وصف المغرب ثم صفحات من صفة الأندلس ، محفوظة فى المكتبة الأهلية فى باريس تحت رقم ٥٨٠ (anciens fonds) ، وهى أسوأ ما لدينا من مخطوطات البكري .

٥ — قطعة تشبه الأولى عثر عليها المسيو Berbrugger وضما لمكتبة الجزائر .

٦ — نسخة ثالثة من نفس القطعة محفوظة بمكتبة المتحف البريطانى تحت رقم ٣٧٤ وهذه القطع الثلاث هى التى اعتمد عليها البارون ماك جوكين دى

سلان في نشر صفة المغرب للبكري المعروفة في النسخة المطبوعة باسم كتاب
صفة المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب وبالفرنسية باسم :

Description de l'Afrique Septentrionale par Abou Obeid el Bekri (Paris 1875)

ثم أعيد طبعها سنة ١٩١١ وكان قد ترجمها إلى الفرنسية قبل ذلك ونشر
الترجمة بنفس العنوان سنة ١٨٥٨ في باريس .

٧ — قطعة تتناول جغرافية بلاد الروس والصقالبة نشرت مع ترجمة روسية
بتحقيق كونيك والبارون فون روزن في بطرسبرج سنة ١٨٧٧ وقد تحدثنا عنها
وأتينا بعنوانها في كلامنا عن إبراهيم بن يعقوب الطرطوشي .

٨ — 'نقول' من الأجزاء الأولى من الكتاب تتناول هيئة الأرض والكون
وردت في الجزء الأول من مسالك الأبصار لابن فضل الله العمري . وقطع
أخرى منه تتصل بصفة بعض نواحي الأندلس أوردها ياقوت في معجمه والمقري
في نفح الطيب .

ومن هذه القطع والنقول نستطيع أن نقول إن المسالك والممالك للبكري
يتناول في نسخته الكاملة جغرافية الدنيا كلها على طريقة المسالك والممالك .
ولكن منهجه فيها يختلف بعض الشيء عن مناهج الآخرين كما قلناه ؛ والأجزاء
الخاصة ببلاد العرب ومصر والمغرب تنفرد بميزة كبرى ، وهي أنه يقف عند
كل موضع وقعت فيه حادثة تاريخية ويتحدث عنها بتفصيل . ومن أسف أن
معظم الجزء الخاص ببلده هو — أي الأندلس — لم يعثر عليه إلى الآن . ومن
الطبيعي أن يكون هذا الجزء أحفل أجزاء كتابه بالقيمة والفائدة ، وهو دون شك
معتمد كل من كتب في جغرافية المغرب بعده وخاصة الإدريسي وابن سعيد .
فإذا ذكرنا أن الجزء المطبوع الخاص بالمغرب وحده يعدل نصف حجم « صورة
الأرض » لابن حوقل ، وهو أوسع كتب المسالك والممالك التي بين يدينا وأكثرها
تفصيلا ، تبين أن كتاب البكري هو أوسع ما ألف العرب في هذا الباب
وأشمله على الإطلاق .

وللبكري ميزة أخرى تؤيد ما قلناه ، وهي دقته في رسم الأعلام وحرصه على الثبوت منها والرجوع فيها إلى مظانها وسؤال الناس عنها . ومثالا لهذا نناقش الفقرة الخاصة بأسماء شبه جزيرة إيبيريا ، وهي في فاتحة الجزء الخاص بالأندلس :

« ذكر جزيرة الأندلس وجعل من أخبارها : يُذكر أن اسمها في القديم إباريه (Iberia) من وادي إبره (Ebro) ثم سميت بعد ذلك باطقه (Baetica) من وادي بيطي (Baetis) ، وهو نهر قرطبة ، ثم سميت إشبانية (Hispania) من اسم رجل ملكها في القديم ، كان اسمه إشبان ، وقيل سميت بالإشبان ، سكنوها في أول الزمان على حرمة النهر (يقصد الوادي الكبير) وما والاها . وقيل إن اسمها في الحقيقة إشبانية (Hesperia) ، مسماة من أشبرش (Hasperos) ، وهو الكوكب المعروف بالأحمر ، وسميت بعد ذلك بالأندلس من أسماء الأندليش (Vandali) الذين سكنوها على ما يأتي ذكره » .

وقد وضعت بين قوسين إلى جانب كل علم غير عربي أصله اللاتيني حتى تبين دقة البكري في رسم هذه الأعلام ، بيد أن هذه الدقة تتجلى بصورة أوضح إذا نحن بحثنا عن أصول هذه الأسماء التي كانت تطلق على شبه جزيرة إيبيريا في كتابات الجغرافيين الإغريق والرومان .

فأما قوله إن « اسمها في القديم إباريه من وادي إبره » فقد كان القدماء من الإغريق والرومان يقولون هذا ويعملون إيبيريا مشتق من إبرو ، وعندهم أخذه البكري (ربما بطريق الرازي) . أما الحقيقة فهي أن إيبيريا نسبة إلى إيبيروس Iβηρος وهو الاسم الذي أطلقه الإغريق القدامى على سكان شبه الجزيرة . وقد ظهر لفظ إيبيريا Iβηρια للمرة الأولى خلال القرن السادس قبل الميلاد . وكان هذا الاسم يطلق على جزء من شاطئ شبه الجزيرة محصور بين مصب الوادي الكبير ومصب النهر الأحمر Guadalahmar وهو الجزء الذي نزل فيه الإيبيريون

عند هجرتهم الأولى من شمال إفريقيا إلى شبه الجزيرة ، ثم شمل الاسم شبه الجزيرة كله بعد ذلك تبعاً لانتشار الإيبيريين في البلاد .

وقوله أنها كانت تسمى في القديم « باسم باطقة نسبة إلى وادي بيطي » مأخوذ عن كتاب اليونان والرومان أيضاً ، فإن اليونان نزلوا الجزيرة أول الأمر في الجنوب وسكنوا على ضفة نهر بيطي Bactis الذي عرف فيما بعد بالوادي الكبير ، وأطلقوا على هذا الجزء من شبه الجزيرة اسم Baetica ، ثم غلب هذا الاسم على شبه الجزيرة عند بعض كتابهم ، أما الرومان فقد قصره على جنوب شبه الجزيرة فحسب .

أما قوله « ثم سميت إشبانية من اسم رجل ملكها في القديم كان اسمه اشبان ، وقيل سميت بالاشبان الذين سكنوها من أول الزمان » فقد أخذ البكري عن كتاب الاسبان في العصر القوطي ، وخاصة عن إيزيدور الباجي ، فقد ورد ذلك في كتابه المسمى Etimologiae أى أصول الكلمات . والشك كثير في حقيقة إيزيدور نفسه ، فهناك من يقولون إنه اسم منتحل ابتكره نفر من الوضع في العصر القوطي ونسبوا إليه ما وصل إلينا من الكتب باسمه . وقد اطلع العرب الأندلسيون على كتاباته ، وهم مشكورون على هذا الاطلاع ، ولا ذنب لهم إذا قبلوا ما فيها على أنه معامات صحيحة قالها عالم من أكبر علماء اسبانيا المسيحية كما قيل لهم .

أما الحقيقة فهي أن لفظ اسبانيا هو أقدم أسماء الجزيرة التي عثرنا عليها ، فهو مذكور في كتابات الفينيقيين قبل سنة ١١٠٠ قبل الميلاد ، أى قبل إنشائهم لمدينة قادش Cádiz . وهو مذكور في هذه الكتابات في صورة i-sch-phannim ومعناه « ساحل الأرانب البرية » وكان شبه الجزيرة مشهوراً بهذه الأرانب حتى أصبحت صورة الأرنب البري رمزاً عليه في بعض العصور ، كما نجد في بعض قطع العملة التي ضربها الامبراطور هادريان . واللفظ سامي قديم ، فهو في العبرية القديمة « شَفْهَان » وفي اليمنية القديمة طَفَن ، وجمعه في العبرية

القديمة شفانيم Shphannim . وعن الفينيقيين أخذ اللفظ القرطاجيون ، ثم الرومان بعد استيلائهم على ما كان بيد هؤلاء الآخرين من شبه الجزيرة وحرفوه إلى اسبانيا I-spania أو هسبانيا Hispania وقالوا إن الاسم منسوب إلى شَبَان أو سَفَهان Sphan . وأطلقوا الاسم على شبه الجزيرة . ومنهم من جعل « اسبانيا » مشتقاً من اسم الاله « بان » أو نسبة إلى رجل يسمى هيسبالوس Hispalus وهذه النسب الثلاث الأخيرة واردة في كتاب « الانيسولوجيا » لاييزيدور الباجي . وعنه أخذها العرب . وقد وقف البكرى عليها عند ما نقل ، أما غيره فقد أطلق نلياله العنان ، فجعل سَفَهان أصهبان وقالوا إن أصله من أصهبان ، وأضافوا قصصاً طويلاً لا يخلو من طرافة .

والإسبان ، أهل اسبانيا ، هي الصيغة العربية لثلاث من الصور كانت تستعمل في مقابله في اللاتينية : Hispani (مفردة -us) و Hispanici (مفردة -cus) و Hispalenses (مفردة -is) ، وورد أيضاً في صيغ أخرى مثل : Hispalis للمذكر Hispalia للمؤنث ، ومن هذه الصورة الأخيرة أخذ العرب اسم اشبيلية .

وكذلك قوله : « وقال قوم إن اسمها إنما هو في الحقيقة اشبارية ، مسماة من إشْبِرْش وهو الكوكب المعروف بالأحمر » يرجع إلى إيزيدور الباجي ، فقد استنتج البكرى من قول إيزيدور ab Hespero, Hispaniae rege وهو خطأ ، لأن اشبارية من Hesperia أى أرض الغروب ، وهو لفظ شاعرى استعمله الإغريق للدلالة على إيطاليا أولاً ثم على اسبانيا أيضاً . أما اشتقاقه من Hesperus الذى يعرف في العربية بالنجم الأحمر فقد دل التحقيق الاشتقاق على أنه غير صحيح ^(١) .

(١) مرجعنا في ذلك التحقيق اللغوى إلى أدولف شولتن في كتابه الذى أشرنا إليه قبل ذلك مراراً .

والعبارة الأخيرة من كلامه « وسميت بعد ذلك بالأندلس من أسماء الأندليش الذين سكنوها » تدل على أن البكري ومن أخذ عنه كانوا عارفين بأصل الاسم الذي استعمله العرب للدلالة على البلاد كلها .

وواضح من هذا كله أن البكري بحث ونقب عن أصل الاسم وأتى بروايات شتى كلها له أصول في كتابات قديمة لها مكانها من الاحترام ، وهو لم يقل في أثناء ذلك أن أندلس من الدلس أو التدليس كما فعل غيره ، لأنه يعرف بطبيعة العالم المفكر أن هذه الأسماء لا تفسر هذه التفسيرات اللغوية اليسيرة التي لا يأخذ بها إلا السطحي من الكتاب .

وكذلك يقال فيما بقي لنا من أوراق صفة الأندلس للبكري التي ثبت أنه نقلها عن الرازي ، فسواء نظرنا في قسمة قسطنطين أو في كلامه عن أنهار اسبانيا وجبالها ، فكلامه دقيق واضح مضبوط . أما القطع الخاصة بالكور والمدن وأقاليمها فواضح أنه أخذها عن العذري واختصرها اختصاراً جيداً لا يقلل من قيمتها .

وتتجلى لنا دقة البكري الجغرافي ووضوح الصور الجغرافية في ذهنه وإدراكه لما يتطلبه الناس في كتاب في صفة البلدان إذا نحن نظرنا في جزء مما بين أيدينا من مسالكة وممالكه ، وإلى أن تُنشر الأجزاء المخطوطة منه نكتفي هنا بالنظر في القسم الخاص بالمغرب ، فهو مطبوع متداول بين أيدي الناس . من الواضح أن البكري اعتمد في هذا الجزء اعتماداً كبيراً على ما كتبه محمد ابن يوسف الوراق ، وهو يقرر ذلك في مواضع كثيرة من كتابه ، ولكننا نلمح في كل فقرة أثر البكري وطريقته ودقته . فيقول مثلاً : « برقة : واسمها بالرومية الإغريقية بنطابلس ، تفسيره خمس مدن (Penta-Polis) » ثم يقول بعد قليل في وصف الجبل المعروف اليوم بالجبل الأخضر : « وعلى ستة أميال منها — أي من برقة — الجبل ، وهي (أي منطقة برقة) دائمة الرخاء ، كثيرة الخير ، تصلح بها السائمة ، وتنمى على مراعيها ، وأكثر ذبايح أهل

مصر منها ، ويحمل إلى مصر منها الصوف والعسل والقطران ، وهو يعمل بها بقرية من قراها يقال لها « مقه » فوق جبل وعمر ، لا يرق إليها فارس على حال ، وهي كثيرة الثمار من الجوز والأترج والسفرجل وأصناف الفواكه ، وبمدينة برقة قبر رويفع (بن ثابت الأنصاري) صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحول برقة قبائل من لواته ومن الأفارق^(١) فإذا قارنا ذلك بما عند ابن حوقل — وقد زار برقة وأقام فيها — تبيننا امتياز البكري ، فهو يبحث عن أصل اسم البلد ويفسره ، ويفرق بصورة واضحة بين برقة البلد والجبل الأخضر الذي يبعد عنها ستة أميال ، في حين أن ابن حوقل لا يفرق ، ويتحدث كما لو كان الجبل ملاصقاً لبرقة تماماً . ومع أن ياقوت قد اعتمد على البكري في هذا الموضع إلا أنه أيضاً لم يفرق بين البلد والجبل ولا يعطى هذه الصورة الواضحة^(٢) .

ويتجلى ذلك أيضاً إذا قارنا ما كتبه البكري بما كتبه ابن حوقل عن طرابلس ، فهو يقول « ويذكر أن تفسير اطرابلس بالاجمية الإغريقية ثلاث مدن (Tri-polis) وسماها اليونانيون طَرِبُولِيَّة (Tripolitania) لأن طَر (tre) معناه ثلاث وبليطة politis يعنى مدينة . ويُذكر أن أشفاروش قيصر (Septemius Severus) هو الذي بناها ، وتسمى أيضاً مدينة اطرابلس مدينة أناس .. »^(٣) وأظن أن أناس هذه مصحفة وأن صحتها أياس ، لأن اسم طرابلس في القديم كان أويا Oea وهي ثلاثة المدائن التي نشأ عن جمعها معاً . اسم طرابلس (الاثنتان الأخريان لبد Leptis Magna و صبره Sabratha) . ثم يصف المدينة وصفاً عاماً يعقبه شيء من الاستطراد التاريخي ، ويعود إلى البلد فيذكر موارد مائه في تفصيل دقيق . ويسمى الآبار واحداً واحداً ، ثم

(١) صفة إفريقية للبكري ، طبعة دي سلان ، الجزائر ١٩١٠ ، ص ٤ — ٥

(٢) ابن حوقل ، صورة الأرض ، ٦٦/١ — ياقوت : ١٣٤/٢

(٣) صفة إفريقية للبكري ، ص ٦ — ٧

يتكلم عن فخص البلد المسمى سويجين ويذكر حاصلاته ، ويلم بذكر جبل نفوسه فيصفه ويذكر قراه واحدة واحدة ، ويستطرد حتى زويلة وما فيها من القرى مثل ودان وكاوار والقبائل التي تسكنها ، وينفرد بمعلومات غاية في الأهمية عن هذه النواحي الصحراوية ، ويتحدث في أثناء ذلك حديث الباحث المدقق فيقول عن ودان أنها مدينتان ، ويسمى كلا منهما ويذكر سكانها وجنسهم ويقول « وأكثر معيشتهم من التمر ، ولهم زرع يسير يسقونه بالنضج » وهو التعبير العربى الفنى المقابل لقولهم *culture à sec* أو *al secano* . ولم أجد هذا التعبير إلا عند البكرى ، وكذلك المعلومات عن واحات الصحراء هذه لا نجد لها إلا عند هذا الجغرافى المدقق .

وبينما نجد ابن حوقل لا يذكر القيروان إلا ضمناً أثناء حديثه عن المهديّة^(١) نجد البكرى يقف عندها طويلاً مخصصاً لها ست صفحات لا يدع فيها شيئاً إلا ذكره ، ويصف مسجدها وصفاً مفصلاً مع تواريخ بنائه وما مر عليها من تطورات ، وهذه الفقرة الخاصة بالمسجد هي أحسن وأدق ما لدينا عن ذلك الجامع إلى أيام البكرى .

وهكذا ينتقل بنا البكرى في بلاد المغرب من مرحلة لمرحلة لا يكاد يغادر مدينة أو قرية أو محرساً أو حصناً أو رباطاً أو جبلاً أو بحيرة أو نهراً إلا ذكره بتفصيل يدل على جهد كبير في البحث والاستقصاء ، مع ما لا بد منه من الإشارات إلى الموارد والمحصولات والمعادن والصناعات وأصناف الناس وما تيسر له من المعلومات عن طباعهم . فهو في الواقع ليس مجرد كتاب مسالك وممالك ، وإنما هو جغرافية وصفية بشرية اقتصادية من الطراز الأول . ولم يعتمد البكرى فيه على كتاب محمد بن يوسف الوراق وحده كما يظن ، بل إنه — جرياً على طريقته — جمع كل ما وصل إليه من المراجع وانتفع به انتفاعاً

(١) ابن حوقل ، ٧١/١

طبيعاً ، ودفق في كل ما قرأ فلم يأخذ منه إلا ما تراءى له أنه الصحيح ، وضبط الأعلام ضبطاً محكماً ، ورجع إلى أصولها ما أمكن . وقد اتبع البكري هذه الخطة أيضاً فيما كتبه عن مصر والشام وغيرها مما عثرنا عليه من كتابه . والنسب بين الأجزاء التي خصصها لكل قطر معقولة ، وهو في هذا يمتاز على غيره من أصحاب كتب المسالك التي يغلب عليها التفصيل الشامل في ناحية والإيجاز الخلل في ناحية ، لأن البكري لم يكتب بحسب ما اتفق له من الأصول ، فما حضرته عنه وفرة أطلال فيه وما لم يحضره عبر به مسرعا ، وإنما جمع جمعاً شاملاً وقرأ قراءة واسعة ودون جزائره ورتبها قبل أن يكتب ، وبهذا وحده استطاع أن يقدم لنا أوسع جغرافية للدنيا قبل الإدريسي .

وللبكري في سياق كلامه عناية بالتاريخ ، فهو يرى أن الكلام على ناحية أو موضع لا يتم إلا بذكر طرف من تاريخه ، وهو يعتمد أن تكون هذه الأطراف التاريخية إما متصلة بفتح العرب للبلد أو ذات علاقة بمعالم عمارته كسوره ومساجده وأبوابه وأسواقه وما إلى ذلك ، فأما ما يتصل بالفتح فصدره فيه فتوح ابن عبد الحكم أو بعض أصوله (الليث بن سعد ومسلمة بن عبد الملك وابن لهيعة خاصة) والبلاذري ، وقاما يأخذ عن غيرهم ، وأما ما يتصل بسواه فراجعته شتى يصعب تحديدها ، والغالب أنه استمدّها من الوراق ، وهي لهذا على جانب كبير من الأهمية ، إذ أن كتب الوراق لم يعثر عليها إلى الآن . ومن أغرب ما نجد في هذه القطعة من مسالك البكري الباب الذي خصصه

لذكر مراسي ساحل المغرب من أسلين (إلى غربي تلمسان بقليل) حتى ساحل الشام ، واستطاده في وصف ذلك الساحل حتى مدخل بحر إيجة ، فهذا هو أقدم وصف للشواطئ والموانئ الإسلامية على البحر الأبيض ، خاصة وهو يعنى بذكر ما يقابل المراسي الإفريقية من مراسي الأندلس ، حتى إذا وصل إلى مرسى بجاية قال : « قد خرج عن محاذة جزيرة الأندلس » وهو يذكر كل مرسى ويصفه ويتكلم عن صلاحيته للسفن شتاء وصيفاً ، ويشير إلى درجة

عمران الميناء وموارد مائه وعدد المجارى التى بينه وبين المرسى الذى يليه ، وبينه وما يقابله من مراسى الأندلس ، فكأنه بذلك يصف المسالك البحرية بالإضافة إلى البرية ، وهو منحنى فريد فى بابه لم يسبقه إليه جغرافى آخر . وهذا الفصل من كتابه (ص ٨١ — ٨٨) جدير بدراسة وحده ، نظراً لما يضمه من التفاصيل الكثيرة التى تحتاج إلى أن تحقق وتناقش . ومما هو جدير بالملاحظة أنه بعد أن يصل فى الطريق البحرى إلى ساحل الشام ثم يصعد معه إلى أنطاكية يقول : « ثم إلى انطاكية (Anatolia) ومن أنطاكية تدخل إلى « الجزائر المؤلفة » وهى تسمية لطيفة لأرخبيل بحر إيجه . وبعد أن ينتهى من الحوض الشرقى للبحر الأبيض يعود إلى ساحل تلمسان الذى بدأ منه ، فيذكر مرسى بجزيرة آواى ويصفه ، ثم يعبر عن طريق البر إلى ساحل الأطلسى عند نول ، ثم يأخذ فى ذكر مراسى المغرب الأطلسية واحداً واحداً بدلا من أن يسير مع الساحل من تلمسان إلى سبتة فطنجة ، ثم ينحدر مساحلا إلى الجنوب . ولا يعال هذا إلا بأنه اتبع طريق التجارة ، وقد كان التجار البحريون الذين يصلون إلى مراسى شاطئ تلمسان يتلاقون فى مرسى جزيرة آواى ، ومن هناك تخرج الرفاق (القوافل) « مواجهةً للشرق شهرين مَشَى الإبل إلى مدينة نول ، ومدينة نول آخر بلد الإسلام وأول العمران من الصحراء ، وتسير السفن من ساحل نول إلى وادى السوس ثلاثة أيام^(١)... » ثم يعود مرة أخرى إلى الشرق حتى وجدة ، ثم يذكر الطريق من وجدة إلى سجلماسة ، ويعود بعد ذلك ليصف الطريق من وجدة إلى فاس ، وهنا يذكر الطريق البحرى إلى مليلة ونكور وسبتة حتى طنجة ويعود إلى ذكر مراسى الأندلس التى تقابل كل واحد من مراسى افريقية التى يذكرها فى تدقيق بالغ . وهو يعتمد هنا على محمد بن يوسف الوراق ، فإن له تاليف عن

(١) صفة افريقية للبكري ، ص ٨٦

هذه النواحي كما ذكرنا ، ولكنه لا يقف عنده ، بل يستمر في رواية الحوادث إلى ما بعد وفاة الوراق بزمن طويل ، فهو يذكر مثلاً حوادث وقعت سنة ١٠٤٨/٤٤٠ — ١٠٤٩ بل يصل في رواية بعض الحوادث إلى سنة ١٠٦٧/٤٦٠ وهو يقف بمدينة فاس وقوفاً طويلاً ، ويتسع استطراده التاريخي فيتناول قيام دولة الأدارسة وجانباً كبيراً من تاريخهم بتفصيل ، ثم يتبع ذلك بفصل عن « ممالك برغواطة وملوكهم » وهو تاريخ صرف رواه عن « أبي صالح زمور ابن موسى بن هشام بن وارديزن البرغواطي ، وكان صاحب صلاتهم حين قدم على الحكم المستنصر رسولا من قبل صاحب برغواطة أبي منصور عيسى بن أبي الأنصار . . . بن طريف ، وكان وصوله إلى قرطبة في شوال سنة اثنتين وخمسين ومائتين وكان المترجم عنه بجميع ما أخبر به الرسول الذي قدم معه ، وهو أبو موسى عيسى بن داوود بن عشرين السطاسي ، من أهل شلة ، مسلم من بيت خيرون بن خير ، فأخبر زمور أن . . . » وهذه المقدمة وما يليها من الخبر أشبه بأن تكون نص وثيقة بتاريخ برغواطة كتبت للحكم المستنصر لتحتفظ في سجلاته . والغالب أن يكون البكري قد أخذ نصها عن محمد بن يوسف الوراق ، لأن ابن عذارى يأتي بها في صورة مشوهة مبتورة ، ومع أن ابن عذارى مؤرخ وهذا الخبر أدخل في موضوع تاريخه إلا أن البكري أدرك أهميته بحسه العلمي المرفه ، فأتى به كاملاً ، فأدى لتاريخ المغرب بذلك خدمة لها قدرها^(١) . وقد سبق أن أشرنا إلى طريقة ابن عذارى في النقل عن الوراق .

وابتداء من الفصل الذي عنوانه « الطريق من فاس إلى مدينة سجلماسة^(٢) » تزداد أهمية هذا الجزء من مسالك البكري من الناحيتين الجغرافية والتاريخية ، فهو يصف هنا الحدود الجنوبية للإسلام المغربي من سجلماسة إلى الجنوب وكيف

(١) انظر البيان المغرب لابن عذارى (طبعة برونسال وكولان) ، ٢٢٢/١ — ٢٢٧

(٢) نفس المصدر ، ص ١٤٦

امتدت حتى وصلت إلى بلاد غانة . وفي فصل من الفصول التالية توجد القطعة الفريدة التي كانت إلى حين قريب أوثق مراجعنا عن أصل المرابطين وكيف نشأوا ، وهو يعتمد في بعض تفاصيل هذه الفصول على محمد بن يوسف الوراق ولكنه يرجع أيضاً إلى أصول مغربية أوثق معرفة بجغرافية هذه النواحي وتاريخها ، فهو يقول مثلاً في ص ١٦٠ « الطريق من مدينة أغمات إلى السوس على ما ذكره مؤمن بن يومر الهواري » .

ويقف البكري بهذه القطعة من تاريخ المرابطين عند سنة ١٠٦٧/٤٦٠ أي عند ولاية أبي بكر بن عمر اللمتوني ، وهذا أمر يستدعي النظر ، لأن البكري توفي سنة ٤٨٧ ، أي أنه عاش حتى اكتمل تكوين دولة المرابطين أيام يوسف ابن تاشفين ، بل كان أحد الذين كانوا في وداع المعتمد بن عباد حين عبر إلى المغرب لإقناع يوسف بن تاشفين بضرورة العبور إلى الأندلس بجيوشه مرة ثانية^(١) أوائل سنة ٤٧٨/١٠٨٨ أي قبل وفاة البكري بتسع سنوات ، فكيف وقف في رواية تاريخ المرابطين عند سنة ١٠٦٧/٤٦٠ أي سبعة وعشرين سنة قبل وفاته ؟ لا يحل ذلك إلا بإذن البكري كتب هذا الجزء من جغرافيته في تلك السنة ، وأثبت فيه آخر ما وصله من أنباء المرابطين ، ثم انتقل إلى أجزاء أخرى وأعمال أخرى ، ومضت السنون دون أن تتاح له الفرصة ليعود إلى إكمال ما كتب ، ولعله أكمله في نسخ أخرى لم تصلنا ، فقد رأينا مثل ذلك فيما لدينا من نسخ معجم ما استعجم . وقد كان البكري يؤلف بعض كتبه على مراحل ، أي يكتب ما حضره فإذا أعياء شيء ترك له بياضاً حتى يعثر عليه أو يذكره فيقيد ، قال الأستاذ عبد العزيز الميمنى في مقدمته لشرح اللآلئ إن

(١) ذكر ذلك ابن الأبار في ترجمته لأبي عبيد البكري (الظر النص في أبحاث دوزي الطبعة الأولى ، ٢٨٦) وقد ذكرت أن هذا العبور كان بعد موقعة الزلاقة معتمداً على ما ورد في مذكرات الأمير عبد الله الزيري أمير غرناطة (نصرها ليني بروفنسال في القاهرة سنة ١٩٥٥) ص ١٠٨ ، وهذا يسمح لنا بتاريخ هذا الحادث بأوائل ٤٧٨/١٠٨٨

البكري « بقي يقيد كل ما يمر به من الفوائد برهة ، وما لم يقف له من الأبيات على أثر أخلى له بياضاً ، وقد بقي من هذا النوع كثير لم يستطع سد خلله ، أو لم يتسن له ذلك^(١) » . فلعل مثل هذا حدث في هذا الجزء من جغرافيته . وقف به عند سنة ٤٦٠ التي كتبه بها ، ولم يتسن له العود إليه ، فظل كما هو .

ومهما يكن من الأمر فإن مسالك البكري تعتبر قمة من قم التأليف الجغرافي في هذا النوع عند المسلمين ، فقد وصل بهذا الفن إلى درجة من الشمول والاتساع والدقة لم يصل إليها أحد قبله في الشرق أو الغرب . واتصل على يده التأليف الجغرافي في الأندلس خطأً متكاملًا يخطو كل جيل من الجغرافيين به خطوة . وسيستمر ذلك بعد البكري على أيدي من جاء بعده .

(١) مقدمة سيمط الآلى ، صفحة ٥٠ .

عبد الله بن ابراهيم بن وزمر الحجارى

يصعب الكلام عن الحجارى مؤرخاً وجغرافياً ، لأن بنى سعيد الذين اتخذوا كتابه « المسهب فى فضائل (أو غرائب) المغرب » أساساً لكتابهم الكبير « المغرب فى حلى المغرب » أحسنوا إليه من ناحية وأساءوا إليه من أخرى : أحسنوا إذ عرفوا فضله وحفظوا اسمه ، وأساءوا إذ خلطوا كلامه بكلامهم وغيروا وبدلوا فيه ، فلم نعد نعرف على وجه التحديد ماذا قال . وربما كان كتاب « المغرب » حالة فريدة فى تاريخ الفكر العربى ، فهو تأليف بالمشاركة ، أو كتاب جماعى ، قام على أصل كتبه الحجارى ثم تبنته أسرة من الأدباء وهواة التأليف ، فأضاف كل منهم إليه ما تيسر له ، فأصبح الكتاب وكأنه قصة شعبية ، لا تعرف كيف كانت أول ما قيلت ولا ما أضيف إليها بتعاقب الرواية والانشاد . نقول هذا مع أن بنى سعيد نسبوا إليه فى كتابهم ما يزيد على ٢٥٠ نقلاً ، ولكننا لا نعرف إن كان النقل بحرفه أو مع تعديل وحذف وإضافة . وقد أورد له المقرئ فى الفصل الأول الخاص بجغرافية الأندلس من النفح ما يزيد على ٢٠ قطعة كبيرة هى من أحسن ما نقرؤه فى هذا الفصل ، ويندر أن نجد مؤلفاً أندلسياً كتب بعد الحجارى دون أن يشير إليه مما يدل على أن كتابه كان مرجعاً وحجة ، وأنه أضاف إلى المكتبة الأندلسية شيئاً فريداً تميز به عن سواه ، مما جعل الرجوع إليه والأخذ عنه ضرورة لا معدى عنها لكل من تعرض للتأليف فى أدب الأندلس وجغرافيته وتاريخه .

ويتجلى مما لدينا من المعلومات أن هذا الامتياز لم يقتصر على كتابه بل كان ثمرة من ثمرات شخصيته الفذة وحياته القلقة ، فقد كان الحجارى كبقية

الأفذاذ من أبناء ما بعد الخلافة قلقاً مروعاً جوالاً يوجب آفاق الأندلس التلاشى والعلم يملأ صدره والحسرة تثقل على نفسه ولا يدرى أين يذهب أو أين يستقر له قرار ، وهو من أبناء القرن السادس ، أى من أبناء عصر زاد الحال فيه سوء عما كان عليه في القرن السابق ، وقد صور لنا الحجاري حال هذا العصر وبينه في « المسهب » في عبارة أوردها المقرئ في النسخ ، قال : « وذكر الحافظ الحجاري في المسهب أنه سأل أبا محمد عبد الله بن إبراهيم عن أفضل من لقي من أجواد تلك الخلبة ، فقال : يا بن أخي ، لم يُقَدَّر أن يُقضى لى الانتصار لهم في شباب أسرهم وعنفوان رغبتهم في المكارم ، ولكن اجتمعت بهم وأمرهم قد هزم ، وساءت بتغير الأحوال ظنونهم ، وملوا الشكر وضجروا من المروءة ، وشغلهم الحزن والفتن ، فلم يبق فيهم فضل للافضال ، وكانوا كما قال أبو الطيب :

أتى الزمان بنوه في شيبته فسرَّهم وأتيناها على الهرم

وإن يكن أتاه على الهرم فانا أتيناها وهو^(١) في سياق الموت وفى ظلال الموت والخوف والحاجة عاش أبو عبد الله الحجاري وقال ما قال من الشعر وألف ما ألف من الكتب .

ومع أن ما يربو على ثلث كتاب « المغرب » لبني سعيد مأخوذ عن الحجاري إلا أن المادة التي نجدتها عنه في مخطوطة المغرب التي حققها الدكتور شوقي ضيف صغيرة لا تقدم كثيراً في تعريفنا به ، ومعظمها مع ذلك يبين فضل بنى سعيد عليه ، فعلى بن سعيد مثلاً يسميه « جاحظ المغرب » ويقول : « هو أول من أسى هذا التصنيف ، وفتح بابه لمن بعده من بنى سعيد ، وقد أطنب والدى في الثناء عليه من طريق البلاغة نظماً ونثراً ومعرفة التصنيف ،

(١) رواه أيضاً دوزى في Abbadidis, II, 147 برواية ابن الأبار .

وقال فيه : « وَبِمَ أَصْفَه ؟ وقدرة اللسان لا تنصفه . . . » ثم تلى ذلك قصة وروده على جده عبد الملك^(١) بن سعيد .

ومن الواضح أن هذه المادة الصغيرة التي احتفظ لنا المقرئ بنصها إنما كانت بداية زاد عليها على بن سعيد وتوسع فيما كتب من نسخ المغرب بعد ذلك ، ودليل ذلك أن لسان الدين بن الخطيب أفرد للحجاري مادة أطول وأكثر تفصيلا نسب معظمها إلى على بن سعيد ونص على ذلك^(٢) ، وقد نقل هذه المادة بالنص مع (تغيير لبعض الألفاظ) بدر الدين البشتكي في مختصره للإحاطة المسمى « مركز الإحاطة » وهذا النص الأخير هو الذي نشره دوزي في « جامع أخبار بني عباد » نقلا عن مخطوطة^(٣) باريس .

وخلاصة كلام ابن الخطيب أن والد عبد الله الحجاري وهو إبراهيم بن وزمر الحجاري كان « أديب مدينة الفرج بوادي الحجارة ، المصنّف للأمان ابن ذي النون كتاب « مغنطيس الأفكار فيما تحتوى عليه مدينة الفرج من النظم والنثر والأخبار » .

وقد هاجر عبد الله الحجاري من بلده مدينة الفرج بعد استيلاء النصارى عليها . وقد كان الذي استولى على وادي الحجارة وتوابعها هو ألفونسو السادس ملك قشتالة وليون سنة ١٠٨٥/٤٧٨ فقد صارت إليه هذه الناحية مع غيرها من توابع إمارة طليطلة عند ما تخلى له عنها القادر بن ذي النون في تلك السنة ، وهذا يعين لنا تاريخ هجرة عبد الله الحجاري من بلده ، ويبدو أنه كان شابا مكتمل التكوين عندما وقع له ذلك ، لأنه وجد طريقه إلى الحياة في شلب التي هاجر إليها عن طريق الأدب والكتابة .

(١) ابن سعيد : المغرب ، ٣٥/٢

(٢) لسان الدين بن الخطيب : الإحاطة ، مخطوط أكاديمية التاريخ بمدريد ، ص ٢٣٠ — ٢٣١

(٣) Dozy, *Abbadidis*, II, 141 sqq.

وقد كانت هذه الهجرة بعيدة الأثر في نفسه ، فقد مضى بعد ذلك يضرب في نواحي الأندلس لا يستقر في بلد حتى يشد رحاله إلى آخر حتى اشتهر بالتجول والرحلة ، قال ابن الخطيب : « وله في التجول أشعار وأخبار » نعم إن هذه الحالة من القلق والرحلة الدائمة كان يشاركه فيها غيره من أهل الأدب والفكر في ذلك العصر على ما ذكرناه ، ولكنها ظهرت عند عبد الله الحجاري في صورة قلق عظيم لا يجعله يطيق المقام طويلا في ناحية واحدة ، حتى لو وجد فيها سلام العيش ورخاء كما سنرى ، وقد ألقاه هذا الهيام الدائم في أهوال وأخطار .

لم يطل به المقام في شلب ، إذ خلفها إلى غرناطة ، ومنها إلى قلعة بني سعيد المعروفة بقلعة يحصب ، وتعرف اليوم باسم Alcalá La Real وكانت إذ ذاك من « بنات » غرناطة كما يقول ابن الخطيب ، أي من توابعها ، وكان ينو سعيد قد استبدوا بها بعد انتشار أمر الخلافة كما فعل غيرهم من رؤساء النواحي ، وأول من فعل ذلك منهم خلف بن سعيد الذي يرجع نسبه إلى الصحابي عمار بن ياسر ، ثم جاء بعده ابنه سعيد بن خلف ثم ابن هذا أبو مروان عبد الملك بن سعيد بن خلف بن سعيد « وصادف الفتنة على الملثمين ، فامتنع فيها إلى أن تولى لعبد المؤمن ، وخطب له فيها ، وسجنه عبد المؤمن في مراكش ثم سرحه ، وجل^(١) قدره عنده » .

وعلى أبي مروان عبد الملك بن خلف بن سعيد هذا وفد الحجاري ، ويذكر ابن الخطيب أنه استأذن عليه في زى موخش^(٢) [من زى البوادي]

(١) المغرب في حل المغرب ، بتحقيق الدكتور شوقي ضيف ، ١٦١/٢

(٢) انقل هذه الفقرة عن كلام ابن الأبار في الحلة السراء ، وقد نقلها ابن الخطيب في الإحاطة .
والعبارة الواردة بين حواصر لا توجد في مخطوط الإحاطة ، ولكنها واردة في مختصر الإحاطة المعروف باسم مراكز الإحاطة لبدر الدين البشتكي ، وقد أورد نصها دوزي : Abbadidis, II, 141

فاستخف به القاعدون بيباه إلى أن لطف بعضهم وسأله أن يعرف به القائد ،
فلما بُلِّغَ عنه أمر بإدخاله فأنشده قصيدة مطلعها :

عليك أحوالي الذكر الجميل فحُتَّتْ ومن ثنائك لي دليل
أُتِيتُ ولم أقدم من رسول لأن القلبَ كان هو الرسولُ

فأكرمه وأحسن إليه ، وأقام عنده سنة حتى ألف بالقلعة كتابه « المسهب في
غرائب المغرب » ثم « انصرف إلى قصد ابن هود بروطة بعد أن أعزله على
التحول عنه ، فقال « النفسُ تَوَاقَةُ وما لي بغير التغرب طاقَة » ثم قال بينين
شبه نفسه فيها بالحمام الذي لا يكاد يحط على فنن حتى ينتقل إلى آخر . وهو
تشبيه ضعيف ، لأن الحمام من أكثر المخلوقات إلفاء لعشه وحنيناً إلى وطنه .

والمهم أن عبد الله بن ابراهيم الحجاري أقام سنة عند عبد الملك بن سعيد
ألف له خلالها كتاب المسهب ، وسنتحدث عنه بعد قليل .

ويذكر على بن سعيد أن الحجاري بعد أن غادر قلعة بني سعيد صار إلى
روطة ، وكانت روضة آخر ما بقى لبني هود من بلاد الثغر الأعلى بعد سقوط
سرقسطة في يد الفونسو الأول المعروف بالحارب ملك أرجون في سنة ٥١٢/
١١١٨ . فانتقل إليها عماد الدولة عبد الملك بن أحمد بن هود الملقب بالمستعين ،
وأقام يحكمها تابعا لألفونسو الحارب ، ثم توفي في سنة ٥٢٤/١١٣٠ وخلفه ابنه
سيف الدولة أبو جعفر أحمد بن عبد الملك بن هود الملقب بالمستنصر ، وظل
على ولائه لألفونسو الحارب زمناً ، ثم اختلف معه ووقعت بينهما الحرب ، واستعان
أحمد المستنصر بن هود على ألفونسو الحارب بمنافسه ألفونسو رايونديث ملك
قشتالة الذي تسميه المراجع العربية بالسليطين ، فارتد طمع ألفونسو الحارب عن
روطة ، ولكن أحمد المستنصر بن هود أحس أنه عاجز عن الاستمرار في المحافظة
عليها فنزل عنها لملك قشتالة ، ومنحه هذا عوضاً عنها « نصف تطيلة » أو

حصّة من مدينة طليطلة^(١). كما تقول مراجعنا العربية ، والواقع أنه لم يعطه إلا بعض الأراضي المجاورة لطليطلة بصفة اقطاع ، فانتقل إليها .

وفي أثناء هذه الخلافات والحرب بين ألفونسو المحارب واحمد المستنصر بن هود ، وصل الحجاري إلى روضة ، ولم يكن هذا الجوال الدائم الرحلة ليجد بلداً هو أقل من روضة أماناً ، فقد رأينا حال صاحبها مع جيرانه النصارى ، ويبدو أن المستنصر بن هود قرّبه وأخطاه ، لأنه خرج معه في إحدى مواقعه مع ألفونسو المحارب ، ومن سوء الحظ أن المستنصر انهزم ، ووقع الحجاري أسيراً فنقلوه إلى بسقاية وهي بلاد البشكنس حيث « بقي يحرك ابن هود بالأشعار ويحثه على تخليصه من الاسار ، فلم يُجِدْ عنده ذمامه ولا تحرك له اهتمامه^(٢) » وهذا طبيعي ، فإن أحمد المستنصر بن هود نفسه كان في حاجة إلى من يسعفه وينجده ، وقد آل أمره إلى التخلي عن معقله والمسير إلى بعض نواحي طليطلة والاستقرار بها تابعاً اقطاعياً صغيراً على ما قلناه .

فإذا بلغ به اليأس مبلغه من احمد المستنصر بن هود ذكر صاحبه القديم وراعيه عبد الملك بن سعيد فكتب إليه شعراً يستنجده فيه :

أصبحتُ في بسقاية مسلماً	إلى الأعادي ، لا أرى مسلماً
مكلّفاً ما ليس في طاقتي	مصفاً منتهراً مُرْعَفاً
أطلبُ بالخدمة ، واحسرتي	وحالتي تقضى بأن أُخدماً
فهل كريمٌ يُترجّى لها	إلاك يا أكرمهم ^(٣) منتى؟

وانتظر الحجاري أن يأتيه الفرج فلم يأت ، فعاد فكتب إلى عبد الملك ابن سعيد بشعر آخر « فاجتهد في فدائه فلم يمر شهر إلا وهو قد تخلص من

(١) ابن الخطيب ، الإحاطة ، مخطوط ، ص ١٧١ وانظر بحثنا عن الفر الأعلى الأندلسي وسقوط سرقسطة ، ص ١١٨

(٢) الإحاطة ، ص ٢٣٠

(٣) الإحاطة ، ص ٢٣٠ — ٢٣١ و Abbadidis II, 142

والشطر الأول من البيت الأخير مكسور. والغالب ان صحته : فهل من كريم يترجى لها.

أسره ، واستقر لديه ، فكان طليق آل^(١) سعيد وفيهم يقول . . . » وهنا تنهى أخبار الرجل ، فلا نعود نسمع عنه شيئاً .

وقد ذكر بونس بويجس أن عبد الله بن إبراهيم الحجاري ولد سنة ٥٠٠ وتوفي ٥٥٠ هـ . ولسنا نعلم مصدره الذي اعتمد عليه ، ومن الواضح أن هناك خطأ ظاهراً في تاريخ ميلاده ، لأنه إذا كان قد غادر مدينة الفرج بعد استيلاء الفونسو المحارب عليها ، فلا بد أنه كان في قيد الحياة وبل في سن من يهاجر في سنة ٤٨٧/١٠٨٥ ، فلو فرضنا أن سنه كانت عشرين سنة إذ ذاك فهو على هذا الحساب من مواليد ٤٦٧/١٠٦٥ أو نحوها ، أما وفاته سنة ١١٥٥/٥٥٠ فممكنة وإن كانت غير مؤكدة ، وقد عاش الرجل برهة قصيرة من عمره في ظل عبد الملك بن سعيد ، وكان هذا هو الذي افتكه من الاسر ، وقد توفي هذا سنة ١١٩٤/٥٦٠

وإذن فقد عاش الحجاري حياة حَظَّها من الراحة والمتاع قليل ، فقد تشرد في صدر شبابه عن وطنه واضطر إلى الالتجاء إلى شلب ، وفيها قضى سنوات طويلة يغلب أنها سنوات التحصيل والتكوين ثم التأليف ، فقد ورد لها بعد سقوط وادي الحجارة أى في سنة ٤٧٩ أو ٤٨٠ ، وإذا صدق تقديرنا لتاريخ ميلاده بسنة ٤٦٧ فتكون سنه عند ما دخل شلب ١٢ سنة ، ولم يبارحها إلى غرناطة إلا قبيل ٥٣٠ ، وهى السنة التى ورد فيها على عبد الملك بن سعيد ، وقد رأينا ابن الخطيب يقول إن عبد الملك بن سعيد لم يكد يعلم بوصول الحجاري إلى بابه ويعرف اسمه حتى أمر بإدخاله ورحب به ، مما يدل على أنه كان قد سمع به وبمكانه من العلم ، ثم إن على بن سعيد يصفه في خطبة « المغرب » بأنه « نجاحظ الأندلس » ، أى أن الحجاري كان من أهل العلم الواسع الذين يوصفون بلقب الحافظ ، وهذا ظاهر من فقرات كتابه التى بقيت

(١) نفس المرجعين السابقين .

لنا ، ثم يقول على بن سعيد : « وصف له كتاب « المسهب في غرائب المغرب » في نحو ستة أسفار ، وابتدأ فيه من فتح الأندلس إلى التاريخ الذي ابتدأه فيه وهو سنة ثلاثين وخمسمائة (١) » ولا يفهم من هذه العبارة إلا إلى أن المسهب كتاب تاريخ للأندلس خلال هذه الفترة الطويلة ، والفقرات الباقية بين أيدينا منه تدل على أنه لم يكن تاريخاً صرفاً ، بل تاريخاً وجغرافياً مع تراجم أدباء وشعراء وقطع مما أثر عنهم من النثر والشعر ، ومن هذه الفقرات أيضاً نستنتج أنه كان كتاباً ضخماً — « مسهباً » كما سماه — يقع في أجزاء كثيرة يجعلها ابن سعيد ستة أو نحوها ، ومثل هذا الكتاب لا يؤلف في عام ، والأغلب أنه وضعه في أكثر من العام بكثير ، وأودعه علمه الواسع وما جمع وحفظ على مر السنين . فلنلق نظرة على ما يتضمنه كلامه من هذه العناصر الثلاثة — التاريخ والجغرافية والأدب — حتى نعرف مكان الحجاري بين الجغرافيين والمؤرخين ، وإنصافاً له من التحول الذي وقع فيه عند ما أرادت الظروف أن يتناول بنو سعيد كتابه بالتغيير والتبديل والزيادة والحذف ليظهر أخيراً باسم « المغرب في حلى المغرب » .

وتهمنا هنا الناحية الجغرافية : ينقل المقرئ في نفح الطيب فقرات كثيرة من مسهب الحجاري ، بعضها يتصل بالجغرافية العامة للأندلس وبعضها متصل بأوصاف المدن والنواحي وخواصها ؛ فأما ما يتصل منها بالجغرافية العامة فينفرد به المقرئ ، وأما ما يتصل بالنواحي فنجد في مغرب بنى سعيد ، كل فقرة في موضعها من ترتيب الكتاب .

ونعتقد أن الفقرات الخاصة بالوصف الجغرافي العام للأندلس كانت أيضاً في مغرب بنى سعيد ، في الفصل الناقص من مخطوطته المنشورة المسمى « وشى الطرس في حلى جزيرة الأندلس » ، فإن ما لدينا من المغرب يبدأ بإمارة الحكم

الربضي من الجزء المسمى « كتاب النغم المطربة في حلى حضرة قرطبة » وقد نبه الدكتور شوقي ضيف ناشر الكتاب على ذلك في التعليق رقم ١ من صفحة ٣٨ من النص المنشور بقوله : « بهذه الترجمة يبدأ الجزء الحادى عشر من كتاب المغرب ، فهى أول الأوراق التى بقيت من الأندلس فى النسخة التى نشرها . وبينما فى المدخل أن الجزء العاشر من الكتاب فقد كله ، وهو أول الأجزاء الخاصة بالأندلس ، وفيه كانت المنصة وحديث واسع عن فضائل الأندلس ، ثم القسم الأول من التاج ، ويتضمن ولاية الأندلس الذين اتخذوا قرطبة حاضرتهم ، ثم عبد الرحمن الداخل وابنه هشام ، وفى الفتح أكثر هذا الجزء ، نقله المقرئ بنصه ، ولم نر إعادة نشره » ونعتقد أن الناقص من المخطوط الذى وصل إلينا هو كتاب وشى الطرس كله ومنصة كتاب الحلة المذهبة فى حلى مملكة قرطبة وجزء من « تاجها » .

وقد استعملت هنا مصطلحى المنصة والتاج مجازاً لبنى سعيد فى تنظيمهم الغريب للمغرب وهو كما يلى على وجه التقريب : المنصة وهى الوصف الجغرافى للناحية أو البلد والتاج وهو يتضمن ذكر حكامه من أمراء أو خلفاء أو سلاطين ووزراء وقواد وعمال وما إلى ذلك ، والسلك ويندرج تحته الكتاب والشعراء والحلة وهى تتضمن العلماء الذين ليس لهم نظم ولا نثر ، ولا ينبغى إهمال تراجهم ، والأهداب وهى مختصة بأصحاب فنون الهزل وما ينحو منحاه . وهذا كله مصطلح غريب لا ندرى إن كان صاحبه الحجارى أو بنى سعيد ، وإن كنا نستبعد أن يكون هذا تصور الحجارى الذى يوصف بالبداوة والخشونة ، ونستبعد أيضاً أن يكون من اختراع عبد الملك بن سعيد أو ابنه أحمد ومحمد أو موسى ابن هذا الأخير ، ويغلب على الظن أنه من ابتكار على بن موسى بن سعيد فقد كان رجلاً ذا غرام بالزينة اللفظية وبهارجها ، ولا نبالغ إذا قلنا إن أحداً من مؤلفي العرب لم يبتكر من الأسماء المسجوعة المزركشة قدر ما ابتكر هذا « المصنف الأديب الرجال الطرفة الأخبارى العجيب الشأن » كما وصفه ابن الخطيب .

المهم لدينا أن الحجاري وضع أساس ذلك كله ، والأغلب أنه جعل كتابه قسمين : قسماً للجغرافية وآخر للتاريخ ، وتحت التاريخ أدرج أخبار الأدب والأدباء والعلم والعلماء على طريقة سنها بعد قليل .

فأما جغرافيته فكانت تحتوى على كلام عام عن صفة الأندلس وفضائله وهذا هو القسم الأكبر من الجزء الناقص من مخطوطة المغرب المنشورة ، وليس بغريب أن يكون هذا الجزء ناقصاً من مخطوطة وصلت إلينا بخط على بن سعيد نفسه ، لأن هذه كانت نسخة أولى أو مسودة ، عاد على بن سعيد فحلاً فراغاتها وتممها في نسخ أخرى لم تصل إلينا ، وقد اعتمد المقرئ وغيره على بعض هذه النسخ الكاملة وأوردوا منها تلك النقول الطوال التي لا نجد لها الأصل الذي بين يدينا .

ومن الفقرات التي نقلها المقرئ تبين أن القسم الأول العام من وصف الأندلس من كتاب الحجاري كان يعضى على نفس الخطوط التي مضى عليها الرازي والبكري ومن أخذ عنها ، فهو يذكر أن « طول الأندلس من الحاجز إلى المحيط ١٠٠٠ ميل وأن عرضها في وسطها عند طليطلة ١٦ يوماً » ثم يأخذ كلام الرازي وابن حيان عن أركان الجزيرة ، وفي القطعة التي لدينا يتدخل ابن سعيد شارحاً أو مفصلاً أو مضيفاً تفصيلات نقلها عن الإدريسي . ونستطيع أن نقول مثل ذلك عن بقية ما أورده المقرئ منسوباً إلى ابن سعيد من الأوصاف العامة للأندلس ، فما كان منه منسوباً إلى مؤلفين سابقين على الحجاري أو غير منسوب أصلاً فهو منقول عن كتاب الحجاري ، وما كان منه لمؤلفين بعد الحجاري كالإدريسي والشقندي وابن اليسع وأبي الفضل التيفاشي وغيرهم فهو من إضافات بنى سعيد ، أما ما ينسب إلى مؤلفين عاشوا بعد على بن سعيد فهو من جمع المقرئ نفسه وتصنيفه .

وبعد هذا الوصف العام للأندلس يتحدث الحجاري في مسهبه عن كور الأندلس كورة كورة ، وفي كل كورة يتحدث عن مدائنها وقراها وحصونها ،

وهذه هي « المنصات » التي نجدها في مغرب بنى سعيد ، وهي المقدمات الجغرافية التي يبدأون بها الكلام عن النواحي ، وهي كما تبدو في المغرب لا تجري على نظام واحد ، فهناك مدن كبار لا نجد فيها وصفها غير سطر أو بعض سطر ، وهناك قرى أو أرياض نجد عنها الفقرات الطوال ، مثل ذلك أنه يقول عن مرور وكانت من أعظم كور الأندلس وأكثرها عمارة ومكانا : « ذكر الرازى أنها اشتملت على ^(١) فوائد كثيرة » وهي عبارة لا تقدم ولا تؤخر ، وعن أشونه : « من كور اشبيلية فيما بينها وبين ^(٢) غرناطة » وهي عبارة غير صحيحة على قصرها ، فإن أشونة لم تكن كورة ، بل مدينه كبيرة ، وعن تاجرنا « هي كانت قصبة من الكور ثم خربت ^(٣) » ثم يقول عن طريقه وهي من ضواحي اشبيلية « هي مدينة ممتدة على شاطئ النهر الأعظم في مقابلة النصف من حضرة اشبيلية ، وهي مسورة من جهة الصحراء (أى من جهة البر) وفيها الأسواق والحمامات الضخمة ، وقد بنيت على تاج مطل على النهر ، ومناظرها التي من جهة النهر سنّ فيها المعتمد بن عباد أن تبيض بالكلس ، لثلا تنبو العين عنها ، ومن لا ينهض إلى ذلك فيبنى من جهة الصحراء ، ولا يترك يبنى من جهة النهر ، فجاءت بديعة فتانة المنظر ، أكثر شراحيبها (أى شرفاتها) منقوشة مذهبة تخطف الأبصار ، ويكون فيها من أصناف الطرب في الليالى القمرية ما هو مشهور في ^(٤) البلاد » أما عن شذونة ، وهي كورة كبيرة فيقولون : « من أجل كور اشبيلية محرثا وشجراً ومياهاً وماشية ، وهي إلى جانب ^(٥) البحر المحيط » وهي عبارة عامة لا تحديد فيها وفيها خطأ واضح أيضاً ، في حين يقول عن حصن العقبين وهو حصن صغير من توابع قلعة بنى سعيد :

(١) المغرب ، ٣١٢/١

(٢) المغرب ، ٣١٧/١

(٣) المغرب ، ٣٣٠/١

(٤) المغرب ، ١٩٣/١

(٥) المغرب ، ٣٠١/١

« حصن من حصون القلعة على وادى فرجة ونضارة ، أخبرنى والدى أنه كان كثيراً ما يلم به للصيد فى صباه مع أقاربه وأصحابه ، وكان لهم على الوادى قصر جُزوا فيه ذبول الصبا ، وهبوا فى جنباته هبوب الصبا^(١) . . . » والسبب فى ذلك التفاوت والتناقض أن بنى سعيد ، وخاصة آخرهم علياً ، حوروا المادة الجغرافية التى أخذوها عن الحجارى إلى شىء نستطيع أن نسميه الجغرافية الأدبية أو الفكرية ، فأهمية البلد أو الموضع لا تتوقف عندهم على خصائصه الجغرافية ، بل على من أنجب من الأدباء والشعراء وأهل العلم ، فرب بلد كبير لم ينجب فى رأيهم من هؤلاء ما لا يستحق به إلا سطرًا من الوصف ، ورب ضاحية من بلد انجبت عدداً عظيماً منهم ، فاستحققت لهذا وصفا طويلاً ، وهذا الطول فى الوصف لا يتناول الخصائص الجغرافية الحقيقية ، بل تلك الخصائص التى تهم الكتاب والشعراء : المناظر الجميلة والأنهار وأماكن الفرجة والزهة وما إليها مما كان يعتبر مواضع للإلهام الأدبى والشعرى .

ولكننا نستطيع أن نتبين من المواد التى بقيت كما كتبها الحجارى أن طريقته تتأخص فى الاتيان بشىء من وصف البلد من الرازى أو ابن حيان (نقلاً عن الرازى) وغيرها ، ثم يورد ما لديه من المعلومات ، وهذه المعلومات على جانب كبير من الأهمية لأنها تعطينا فكرة عن أحوال هذه البلاد وأوضاعها الجغرافية فى الوقت الذى كتب الحجارى فيه ، وهو سنة ١٠٣٥/٥٣٠ - ١٠٣٦ وما بعدها بقليل . حقيقة أن بنى سعيد غيروا وبدلوا فيما كتب الحجارى ، وأضافوا من عندهم أشياء كثيرة ، ولكننا نستطيع بالرجوع إلى تواريخ الحوادث أن نفرق بين ما وقع إلى أيام الحجارى ، وما جد بعدها ، وعلى أى حال فإن الصورة الجغرافية للأندلس كما تبدو فى كتاب المغرب هى صورته خلال النصف الثانى من القرن السادس الهجرى على وجه التقريب ، فإن ميزان

القوى بين الإسلام والنصرانية في الأندلس لم يختلف كثيراً خلال القرن السادس الهجري إنما وقع الاضطراب الشديد بعد موقعة العقاب سنة ٦١٩/١٢١٢ وكان على بن سعيد قد غادر الأندلس ، ولم يدخل على الكتاب من هذه الناحية الجغرافية تعديل على ما أثبتته أبوه موسى .

ومن الواضح أن هيكل كتاب المغرب هو نفس الهيكل الذي وضعه الحجارى للمسهب ، فإن على بن سعيد لم يقل إن جده عبد الملك أعاد تنظيم الكتاب ، بل قال بعد أن ذكر تأليف الحجارى للمسهب : « ثم ثار في خاطر عبد الملك (ابن سعيد) أن يضيف إليه ما أغفله الحجارى ، وتولع بمطالعة ابنه أبو جعفر ومحمد ، وأضافا له ما استفاداه ، ولم يزل يزيد إلى أن استبد به محمد ، فاعتنى به أشد اعتناء ، ثم استبد به والدى . وكان أعلمهم بهذا الشأن . . . » وليس في هذا كله إشارة إلى وضع نظام جديد للكتاب ، بل مجرد زيادات وإضافات ، والواقع أن تصنيف هذا الكتاب على أساس التوزيع الجغرافى للأعلام وأهل الأدب شيء طريف مبتكر ، فهو أشبه بخريطة أدبية للأندلس إلى أيام موسى بن سعيد ، وهنا موضع الأهمية بالنسبة لبحثنا هذا ، وما دام الكتاب يشير إلى ما أصاب كل بلد يذكره إلى أيام موسى بن سعيد فأمامنا خريطة جغرافية للأندلس في النصف الثانى من القرن السادس الهجرى والنصف الأول من السابع ، وهى وثيقة ذات قيمة عظمى في هذا الشأن . وإذا كنا قد انتهينا إلى أن الحجارى هو صاحب الفضل في رسم هذه الخريطة ، وأن بنى سعيد لم يفعلوا أكثر من تجويدها وإكمالها وإضافة ما فات الحجارى من الأعلام في هذه الناحية أو تلك أو ما سقط من البلاد في يد النصارى بعد أيام الحجارى فلنأخذ كلام على بن سعيد في مقدمة « المشرق في حلى المشرق » شارحاً لمنهجه في تأليفه على أنه شرح للطريقة التى رسمها الحجارى لتأليف « المسهب » فهو يقول : « كل من التصنيفين مرتب على البلاد ، متى ذكر بلدٌ ذُكرت كُوره ، وأتكلّم عليه وعلى كل كورة منه ،

وابتدىء بكرسى مملكتها وقاعدة ولايتها بحسب مبلغ [علمى] من إعلام بمكانها من الأقاليم ، ومن بناها وما يحف بها من نهر أو منزه أو خاصة معدنية ونباتية ، ومن تداول عليها من أبناء الملوك أولى التواريخ التى لا يجب إغفالها ، ثم نأخذ فى الطبقات واحدة بعد أخرى ، وهى خمس . . . »^(١) أى أن خطة الكتاب الأساسية هى أن يكون كتاب تقسيم جغرافى أولاً وعلى هذا الأساس الجغرافى يقوم كل شىء بعد ذلك ، وهذا طبعى من رجل رحالة طلعة مثل الحجارى .

ولكن الحجارى لم يضع هذا التقسيم الجغرافى على أساس الأوضاع الجغرافية السياسية الخاصة بأيامه ، بل وضعه على أساس أقسام الأندلس الكبير بمحدوده أيام الخلافة ، وهو معذور فى ذلك ، إذ أنه لو اقتصر على أندلس القرن السادس لأسقط أدباء وعلماء كثيرين ينتسبون إلى نواح كانت قد ضاعت فى ذلك الحين ، ولا نلاحظ عنده من معالم التقسيم الجغرافى الذى جدد بعد سقوط الخلافة إلا تقسيمه الأندلس إلى موسطة وشرق وغرب ، وهو تقسيم ظهر أولاً عند ابن بسام ، وهو تقسيم نظرى صرف ، أى لم تكن تقابله حقيقة سياسية ، ويبدو أن المرابطين اتخذوه أساساً فى التعيينات فى الوظائف الكبرى ، فمن الثابت أنه كان لهم قائد لجيوشهم فى شرق الأندلس ، وقاضى قضاة خاص بهذا القسم ، ولسنا متيقنين مما إذا كان هناك قائد أو قاضى قضاة للغرب أو للموسطة ، فذلك رهين بالعثور على أصول لتاريخ المرابطين أوسع وأدق ما لدينا . وقد عوضنا الحجارى عن إهماله للوضع فى أيامه بملاحظات طيبة أضافها إلى ما نقل من الأوصاف الجغرافية عن القدماء ، ثم أكملها بنو سعيد وهى ملاحظات تعين على تصور الأوضاع فى منتصف القرن السادس وأوائل السابع الهجريين ، فنحن نقرأ مثلاً عن رندة مثلاً : « كورة خصبة ، كانت أولاً

(١) رواه الدكتور شوقى ضيف فى مقدمة تحقيقه المشكور للغرب : ٩/١

من كور قرطبة ثم صارت فى الأخير من كور اشبيلية وفيها مزارع القطن كثيرة^(١) وعن رَمَادَه : « إنها من قرى شلب »^(٢) وعن قرية الزاوية : إنها « من أعمال أونة وينسب إليها بنو حزم »^(٣) ويضيف على بن سعيد فى بعض الأحيان إلى مصطلحه القائم على حلية العروس (المنصة ، التاج ، السلك . . . الخ) مصطلحاً يسميه « البساط » وهو يريد البساط الذى تمشى عليه العروس حين زفافها ، والمقصود به هنا زمام البلد ، فيقول مثلاً فى بساط أونة : « غرب من مدينة لبله إلى جهة البحر ، وهى قاعدة عملها »^(٤) . وبهذه المناسبة نذكر أن المصطلحات الإدارية التى تستعمل فى ذلك الكتاب اعتبارية صرفة لا يمكن التعويل عليها ، فهو لا يستعمل فى دقة مصطلحات مثل كورة ومملكة وقرية وحصن ، وقد حاولت أن أثبتن له قاعدة فى هذه الناحية فلم أستطع ، وقد كانت من المنتظر من رجال تولوا القيادة والحكم والإدارة كعبد الملك بن سعيد وموسى بن محمد بن عبد الملك بن سعيد أن يضيفوا ما فات الحجارى الأديب فى هذه الناحية ، ولكن يبدو أن النزعة الأدبية غلبت على ما عداها فى تصنيف ذلك الكتاب ، ومن ثم فقد استعملت الألفاظ بمعانيها الأدبية لا الإدارية ، وليس أدل على ذلك من قولهم عن بلد مثل شلب « هى^(٥) عروس » ويريدون أنها قاعدة لها زمام وتوابع ، ومثل ذلك قولهم عن كثير من المواضع ، أنها « حالية » والمراد عروس حالية لها منصة وتاج وسلك وحلة وأهداب .

والخلاصة أن الحجارى فى مسهبه أضاف تفصيلات جغرافية كثيرة إلى ما وجدناه عند سابقيه من الجغرافيين ، وإضافاته نتيجة مشاهداته وملاحظاته ،

(١) المغرب ، ٣١٠/١

(٢) نفس المصدر ، ٣٩٢/١

(٣) نفس المصدر ، ٣٥٤/١

(٤) نفس المصدر ، ٣٣٩/١

(٥) نفس المصدر ، ٣٨٠/١

فقد كان رحالة طلعة زار جانباً كبيراً من نواحي الأندلس وأثبت بعض ما رأى ، وهو لا يصل فى هذه الناحية إلى شأو العذرى ، ولا يقارن بمعاصره الشريف الإدريسى ، ولكن دارس جغرافية الأندلس الإسلامى لابد أن يجمع ملاحظاته وإضافاته كلها معاً حتى تكتمل لديه الصورة التى يريد رسمها .

وحسب الحجارى أنه حدد معالم ما سميناه بالجغرافية الأدبية أو الفكرية وسار بها شوطاً بعيداً نحو الجغرافية بعد أن كان ابن بسام قد بدأ بها على أنها مجرد تقسيم للتسهيل والتيسير . وإذا كنا نجمع أطراف ما لدينا من جغرافية الرازى فإن مسهب الحجارى يعتبر من المراجع الرئيسية لهذه الجغرافية . ولو أننا وجدنا الفصل الأول من مغرب بنى سعيد المسمى « وشى الطرس فى حلى جزيرة الأندلس » لاستطعنا أن نعطي صورة أوفى عن الحجارى الجغرافى ، ولو أن بنى سعيد تركوا كلامه على حاله ثم أضافوا ما أرادوا لكان ذلك أشبه بمقام الرجل وأقرب إلى إنصافه ، ولكنه رغم ذلك كله يحتل مكاناً مرموقاً فى تاريخ الجغرافية فى الأندلس .

وقد أطلت الوقوف عند عبد الله بن إبراهيم الحجارى ، لأنه باعتراف بنى سعيد أنفسهم صاحب الفضل الأول فى كتابهم المشهور الذى يعتبر من أحسن ما لدينا من المراجع عن تاريخ الأندلس وحضارته ، وقد كانت مشاركتهم إياه فى كتابه داعية إلى التقليل من شأنه ومن مكانه فى تاريخ الفكر الأندلسى ، مع أنه كما رأينا صاحب طريقة ومنهج ومبتدع لون طريف من ألوان التأليف الجغرافى والتاريخى والأدبى فى الأندلس .

الشریف الادریسی

قمة علم الجغرافة عند المسلمین

فی تاریخ الفکر الأندلسی یمثل القرن المتمد من ٤٥٠ إلى ٥٥٠ هجرية (١٠٥٨-١١٥٥ ميلادية) حقبة متميزة بخصائصها عما سبقها أو لحقها من مراحل هذا التاريخ العاصر بالفتوح الفكرية . خلال هذه الأعوام المائة وصل التألیف فی شتى ضروب العلوم فی الأندلس إلى ذروته ، وإذا نحن درسنا ما ظهر من الأعمال قبلها تبینا أنها تمهید أو خطوات نحو النضوج الذی ظهر خلالها ، وما ظهر بعدها كذلك كان نسجاً على طراز ما ظهر فيها ، فإما خلا استثناءات لا تضعف هذا الرأى ، وفی موضوعات الإنتاج الفكری لا یمكن إصدار أحكام جامعة مانعة ، إنما هی محاولات للتأریخ لجانب من جوانب النشاط البشرى قلما یمضی لقاعدة مطلقة أو حکم لا یقبل الاستثناء .

والخصائص المیزة للإنتاج الفكری الأندلسی خلال هذا القرن هی :
 التجوید والإحكام فی التألیف ، ثم وفرة الإنتاج المنسوب إلى كل علم من الأعلام ، وتكامل الجهود فی شتى ضروب العلم حتى لا یکاد یخلو ضرب منه من مؤلفات مجيدة تعتبر معالم واضحة فی تاریخه كله . وخلال هذا القرن أيضاً نرى کیف وصلت الرسائل المختصرة التى تكتب فی موضوع بعینه إلى ذروة لم تعرفها هذه الرسائل قبل ذلك ، ونلاحظ اتجاهاً واضحاً نحو التخصص .

ولقد عرف تاريخ الفكر الإسلامى التخصص من زمن بعيد ولكن فى ميادين معينة كالفقه والحديث واللغة وعلوم القرآن ، أما التخصص فى غير هذه العلوم كالجغرافية والفلسفة والطب والنبات والعقاقير وما إليها فهو الجديد فى الأندلس خلال هذه الفترة . حتى العلوم التى عرف الأندلسيون الانقطاع لها قبل هذه الفترة نجد التخصص فيها يصل بها إلى ذروات لم تعرفها قبلها أو بعدها ، ورجال مثل أبى محمد على بن حزم وعياض بن موسى بن عياض وأبى الوليد الباجى وأبى عمرو الدانى وأبى عمر يوسف بن عبد البر النمرى وابن سيدة المرسى يعينون دون نزاع المراقبة العليا التى وصل إليها الفكر الأندلسى فى الفقه وعلوم الدين والحديث واللغة فى الأندلس .

ومن المعروف أن الإزهار الأدبى فى أندلس القرن الخامس وما تلاه كان ثمرة غراس عصرى الإمارة والخلافة ، وخلال القرن الرابع على الخصوص ، عند ما استقرت أمور الأندلس استقراراً كاملاً وسادها الأمن والنظام والعدالة قرابة قرن متصل من الزمان ، نشطت النفوس خلاله فتفتحت الآمال ، وانصرف الراغبون فى العلم إلى الدرس والتحصيل ، واستقرت أصول العلم ومراكز الدراسة وانتشرت حلقات الشيوخ وكثرت الكتب فى أيدي الناس ، وأطل القرن الخامس والناس آمن ما يكونون ، تتطلع نفوسهم إلى مستقبل أحفل بدواعى الاجتهاد فى العمل والطلب ، فإذا بهم فى هذا الاطمئنان إذ وقعت الواقعة بغتة ، وانقلب كل شيء رأساً على عقب ، وتفرقت الجماعة وانتشبت الفتنة وصوّحت الآمال . وقد جرفت العواصف أهل العلم والأدب ، وآذتهم أذى شديداً ، فانزوى بعضهم من أول الأمر وانصرف إلى درسه ، واجتهد آخرون فى تلافى الكارثة ، ثم أدركهم اليأس فاعتكفوا هم الآخرون . وخلال النصف الثانى من القرن الخامس ، وهى حقبة قصيرة شهدت كارثة طليطلة وزوال ملك معظم أمراء الطوائف واجتماع ما بقى من الأندلس تحت راية المرابطين ، أصبح انصراف

أهل العلم إلى علمهم وابتعادهم عن السياسة وأهلها هو القاعدة التي اتبعتها الأغلبية ، وعلى آثارهم سار من خلفهم من تلاميذهم .

ومعنى ذلك أن العلم أصبح يدرس للعلم نفسه ، فيما عدا ما تدعو إليه مطالب العيش من قبول وظائف القضاء والكتابة دون أن يكون ذلك صارفاً عن الدرس والتأليف . وما دام العلم يطلب لذاته فقد انصرف كل عالم إلى ما أحب ، وأعان على ذلك ضعف أصحاب السلطان وانشغالهم بالحروب والأخطار المتلاحقة ، فأقبل أهل العلم على ما تهوى إليه نفوسهم من ضروبه دون حرج ، ومن هنا ظهر التخصص والتجويد لا في العلوم الأساسية التقليدية بل في غيرها أيضاً ، فوجد أنفسنا أمام عدد كبير من العلماء انقطعوا انقطاعاً تاماً إلى الفلسفة والجغرافية والطب والعقائير والفلك وما إليها ، ووصلوا بها — نتيجة لهذا الانقطاع — إلى ذروتها العليا .

بهذا يكون ظهور الشريف الإدريسي وتخصصه في الجغرافية وانصرافه إليها عمره كله معقولا ومفهوماً ، ولو لم تكن الظروف التي ذكرناها — وأرجو أن يكون الاستقراء هنا صحيحاً — لما كان من الممكن أن ينصرف رجل كالإدريسي إلى الجغرافية هذا الانصراف الكامل الذي يجعل منه بحق أول جغرافي متخصص في هذا الفن في التاريخ ، ولقد فاق في ذلك الميدان بطليموس وزاد عليه ، فقد كان هذا الأخير فلكياً رياضياً ، وكان اشتغاله بالجغرافية تطبيقاً لما درس من الفلك والرياضة ، أما الإدريسي فجغرافي خالص ، وهب نفسه لهذا العلم وأخرج فيه ما لم يخرج به عالم قبله ، ورفع الجغرافية بذلك إلى مصاف العلوم الكبرى ، وهذا فيما أعتقد هو الذي يحدد مكانة هذا العالم الفذ في تاريخ الفكر الإنساني قاطبة .

وليس بين الجغرافيين العرب من طارت شهرته مطار الشريف الإدريسي ، ولم يظفر واحد منهم بحجزه مما ظفر به من دراسات ، فقد عُني كل بلد بنشر

ما كتبه الإدريسي عنه في كتابه الأشهر «نزهة المشتاق» وترجمته إلى إحدى اللغات الحية والتعليق عليه، وتخصص في الدراسات الإدريسية نفر كبير من الباحثين في الغرب، ولكننا لا زلنا إلى الآن بالنسبة للرجل وكتابه في نفس الموقف الذي كنا فيه من نحو ثلاثين سنة. لا زالت المشاكل الرئيسية المتصلة بترجمة حياته وتكوينه الجغرافي دون حل، ولا زال موضوع مصادر معلوماته غامضاً مبهماً كما كان، فيما عدا بعض الفروض والاستنتاجات التي وصل إليها نفر من الباحثين من أمثال ميكيلي أماري وكونزاد ميلر وجويسبي فورلاني وتادويثس ليفيكي وسيزار دوبلر وفلهلم هونرباخ، وهي افتراضات واستنتاجات لا تستند على دليل ثابت أو سند صحيح من نص كلام الإدريسي أو من كتبوا عنه من المسلمين، وسنعرض لها في مكانها من هذا البحث.

والسبب الرئيسي في ذلك أن كل ما لدينا عن حياة الإدريسي لا يخرج عن سطور قليلة أدارها عليه حاجي خليفة في كشف الظنون وصلاح الدين خليل ابن أبيك الصفدي في الوافي بالوفيات والعماد الأصفهاني في الخريدة. وفيما عدا هذه السطور لم يظفر الإدريسي بترجمة مفصلة في أيّ من كتب التراجم في المغرب أو المشرق، وقد رد نفر من الباحثين هذا الإهمال إلى أن المسلمين أغفلوا ذكر الإدريسي لأنهم لم يرضوا عن اتصاله بملك نصراني ودخوله في خدمته^(١)، وذلك غير صحيح، لأن ذلك لم يقلل من قدر الإدريسي في نظر أهل العلم عندنا، ولقيت كتبه من التقدير عند علماء العرب ما هي جديرة به، فلا يخلو كتاب جغرافية كتب بعده من ذكره، واختصته كتب المختارات الأدبية والموسوعات الكبرى بمدح طويل وأكثرت النقل عنه. أما خلو معاجم التراجم من ذكره فيرجع إلى طبيعة حياته نفسها، فهذا رجل قضى معظم

(١) صاحب هذا الرأي هو المستشرق اتين كترنير في مقال نشره في «صحيفة العلماء»

عمره سائحا جوالا أو مغتربا عن بلاد المسلمين ، وربما يكون قد مات في الغربه أيضا كما سنرى ، فلم يقع أصحاب التراجم على سيرته وتفاصيل حياته ، أما كتابه فيكفى للدلالة على ذبوعه أن لدينا من مخطوطاته الجيدة الكاملة قرابة العشرة ، خلا القطع والأجزاء التي لا تخلو منها مكتبة كبرى في الشرق أو الغرب .

والوقائع الثابتة لدينا من حياة الإدريسي قليلة جداً ، وبعض هذا القليل لا يستند إلى أساس متين يمكن أن نطمئن إليه تماماً ، فالشائع عند أهل العلم أنه ولد في سبته سنة ٤٩٣/١١٠٠ وأصل هذا القول عند ميخائيل الغزيري ، فقد ذكر ذلك التاريخ في الفهرس الذي وضعه لمخطوطات الاسكوريال دون أن يعين المرجع الذي استند إليه^(١) ، وأنه كان يتجول في المشرق سنة ٥١٠/١١١٦ — ١١١٧ وأنه أتم كتابه سنة ٥٤٨/١١٥٣ — ١١٥٤ وتوفى سنة ٥٦٠/١١٦٤ — ١١٦٥ ؛ وهذا التاريخ الأخير مرجعه إشارة أوردها الحسن الوزان المعروف بليون الإفريقي في وصف رحلته ، وقد عاش الحسن الوزان بعد وفاة الإدريسي بثلاثة قرون ، وإشارته مع ذلك غير واضحة كل الوضوح^(٢) . ويمكن أن يضاف إلى هذه التواريخ الأربعة خامساً نستنتجه من كلام الإدريسي ، فقد ذكر أنه أنفق ١٥ سنة في تأليف كتابه ، ومعنى ذلك أنه بدأ عمله العلمي الكبير في صقلية سنة ٥٣٣/١١٣٨ — ١١٣٩ ، ومن الممكن أن يكون هذا هو تاريخ وفوده على صقلية ودخوله في خدمة رجار الثاني .

(١) Casiri, *Biblioteca Arabico-Hispana Escorialensis*, II, 13.

وانظر مقدمة الترجمة الفرلسية للقسم الخاص بالمغرب والأندلس وجزء من مصر :

R. Dozy et M. J. de Goeje, *Description de l'Afrique et de l'Espagne*, Leyde, 1866, p. III.

وسنشير إلى هذه الترجمة كما يلي : Dozy, *Espagne...*

Cf. Michele Amari, *Storia dei Musulmani di Sicilia* (Firenze, 1872) IV, (٢) p. 665, n. 3.

وقد ذكر الحسن الوزان أن الوفاة كانت سنة ٥١٦ هجرية ، ولاحظ البارون دي سلان أن هذا التاريخ لا بد أن يكون مصححاً ، وأن صحته في الغالب ٥٦٠/١١٦٤ — ١١٦٥ ، وهذا هو الأساس الذي لستند إليه في القول بأن الإدريسي توفي في هذه السنة . والحسن الوزان ولد سنة ٨٩٣/١٤٨٧ — ١٤٨٨ . وتوفى حوالى ٩٤٤/١٥٣٧ ، أى أن بينه وبين الإدريسي أكثر من ثلاثة قرون .

وما عدا ذلك من وقائع حياته التي يذكرها مترجموه إنما هي استنتاجات وفروض ، فقد ذهبوا إلى أنه أقام في قرطبة ودرس فيها ، بدليل أنه وصفها وصفاً دقيقاً وأورد لمسجدها وصفاً لا يصدر إلا عن عاينه بنفسه ، وهذا التقدير صحيح ، لأن ذلك الوصف فريد في بابه لا نجده عند واحد من سبق الإدريسي من الجغرافيين والكتاب ، وقد نقله عن الإدريسي بعد ذلك نفر من أتوا بعده ، وأصبح من الأصول التي لا يستغنى عن دراستها من يعنون بدراسة تاريخ العمارة الأندلسية .

ولكن هذه الطريقة في الاستنتاج ليست مأمونة دائماً ، فقد ذهب رينو في تعليقاته على ترجمته لجغرافية أبي القدا إلى أن الإدريسي زار شمال غربي فرنسا المعروف ببريطانيا وجنوبي إنجلترا مستنداً إلى وصفه الدقيق لهاتين الناحيتين^(١) ثم تبين بعد ذلك أنه لم يزر أيًا منهما ، بل اعتمد في وصفها على أقوال نفر من أهلها ، وفي دراستي لوصف مصر في « نزهة المشتاق » تبينت اضطراباً واضحاً في تحديد المواقع مع أن الثابت أن الإدريسي زار مصر وأقام فيها . أي أن دقة الوصف ليست دائماً دليلاً على المشاهدة الشخصية ، وانعدامها ليس دليلاً على أن الإدريسي لم يكن في الموضع وفي حالات قليلة جداً كان الوصف الدقيق دليلاً على المعاينة الشخصية ، كما أثبت ذلك رامزي وتوماتشيك فيما يتصل بجزء الإدريسي الخاص بآسيا الصغرى^(٢) وكما يتبين بوضوح من كلام

(١) M. Reinaud, *Géographie d'Aboulféla*, tome I, *Introduction générale à la géographie des orientaux*, Paris 1848, pp. CXIII-CXXII, CCCX-CCCXVI.

César A. Dublen, *Los Caminos a Compostela en la Obra de Idrisi*, al-Andalus, XIV, 1949, fasc. 1, p. 70, n. 3.

(٢) W. M. Ramsay, *The historical Geography of Asia Minor in Royal Geographical Society*, Supplementary papers, IV, London, 1890.

Wilhelm Tonaschek, *Zur historischen Topographie von Kleinasien im Mittelalter* Apud *Sitzungsberichte der Kais. Akademie der Wissenschaften in Wien* (phil-hist. Classe), 124 (1891).

وانظر لنفس المؤلف أيضاً :

Zur Kunde der Hávus-Halbinsel - Die Handelswege im 12. Jahrhundert Nach der Erhündigungen des Arabers Idrisi Apud *Sitzungsberichte der Philosophisch-Historischen Classe der Kais. Akademie der Wissenschaften*, vol. 113, Vienna, pp. 275-373.

الإدريسي على صقلية وسواحل إفريقية القريبة منها والجزء الجنوبي من شبه الجزيرة الايبيرية ، ففي هذه الأجزاء يتجلى أن الوصف الدقيق دليل المشاهدة الشخصية، ولا غرابة والحالة هذه أن تكون هذه الأجزاء بالذات أحسن جغرافية الإدريسي كلها .

لهذا كله لابد من التحفظ في الاستنتاج من النص ، حتى لا تختلط الحقائق الواضحة بالفروض والتصورات في حياة رجل له مقام الإدريسي . فن الأقوال الشائعة مثلاً أن الإدريسي ابن لإدريس العالى سابع الخلفاء من بيت بنى حمود ، وهو خطأ واضح لأن إدريس هذا توفي سنة ٤٤٤/١٠٥٢ — ١٠٥٣^(١) فلا يمكن أن يولد له ولد سنة ٤٩٣/١١٠٠ . ومن الممكن تفسير هذا القول على أنه من أحفاد إدريس العالى هذا ، ويؤيد ذلك أن اسم الإدريسي ورد في مخطوطة أوكسفورد : « أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس أمير المؤمنين العالى بأمر الله » .

وإدريس العالى هذا من أواخر الأدارسة الجوديين الذين أوضاعوا في الفتنة الأندلسية الكبرى عقب انتشار عقد الخلافة الأندلسية وكان لهم فيها دور غير محمود ، فقد هجم جدهم على بن حمود بن ميمون بن أحمد بن على بن عبيد الله بن عمر بن إدريس بن إدريس على الخلافة في آخر دولة سليمان بن الحكم المستعين الثانية ، وادعى أن هشاماً المؤيد عهد إليه بها سراً ، واتخذ لقب الناصر لدين الله وبدأ بداية حسنة ، ولكن أمره لم يلبث أن اضطرب وتخلى عنه أنصاره ونفرت منه الأحزاب المتنافسة حول الخلافة ، وانتهى أمره بأن قتله نفر من غلمانه في الحمام أول ذى القعدة سنة ٤٠٨ الموافق أول يوليو ١٠١٨^(٢) ثم توالى على طلب الخلافة نفر من أهل بيته ، ادعى منهم الخلافة وحمل القابها ثمانية منهم ، لا يكاد الواحد منهم يظهر على مسرح

(١) ابن القطان ، برواية ابن عذارى ، البيان المغرب ، ٣/٢١٧

(٢) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ٣/١٢١ — ١٢٤

الحوادث حتى يختفى قتيلا أو هاربا أو معزولا ، وإدريس العالى هذا سابعهم ، ويعرف بإدريس الثانى ، وهو ابن يحيى المعتلى وحفيد على الناصر لدين الله الذى ذكرناه ، نادى بنفسه فى ٦ جمادى الثانية ٤٣٤/٢١ يناير ١٠٤٣ فى مالقة ، ولم يلبث أن قام عليه ابن عمه محمد بن إدريس المتأيد بن على الناصر لدين الله فى شعبان ٤٣٨/فبراير ١٠٤٦ ، ففر إلى سبتة لاجئا إلى سَوَاجَات البرغواطى ، وكان من رجال بنى حمود هؤلاء يتولى لهم سبتة ، وسَوَاجَات هذا هو الذى يسمى أيضا سقوت أو سكوت ، وقد أصبح هو الآخر أميراً من أمراء الطوائف ، ولكن على سبتة ، وكان له دور كبير فى الفتنة إلى أن قضى عليه المرابطون . وأصله غُمَارَى ثم دخل فى قبيلة برغواطية ، وهذا يعمل صلته بآل حمود الإدريسيين ، لأن دولة الأدارسة قامت فى دورها القاني على أكتاف قبيلة غُمَارَة^(١) .

المهم لدينا هنا أن إدريس العالى هذا لجأ إلى سَوَاجَات إلى أن مات سنة ٤٤٤ كما قلنا ، ولا يستبعد أن يكون نفر من أولاده ظلوا فيها منصرفين إلى مطالب العيش بعيداً عن السياسة ومتاعبها . ولاشك أن حياتهم كانت قلقة غير آمنة طالما عاش سَوَاجَات ، فقد كان رجلا قاسياً أنانياً ، قتل إدريس بن يحيى الثانى الملقب بالقائم بن إدريس الحمودى الأول الملقب بالمتأيد فى سنة ٤٤٤/١٠٥٢-١٠٥٣ ، وإدريس هذا هو المعروف بالثالث وهو تاسع من تلقب بالخلافة من الأدارسة الحموديين وآخرهم^(٢) ، وكان سَوَاجَات حريصاً على أن يعفى آثار هذا البيت حتى يستقيم الملك له ، وقد انفرد بالأمر فعلاً ابتداء من سنة ٤٥٣/١٠٦١ وخلفه ابن له يسمى سَوَاجَات أو سقوت أيضاً وتلقب بعز الدولة ، وظل إلى أن قضى عليه المرابطون^(٣) . وتحت سلطان هؤلاء فى سبتة ولد الشريف الإدريسي ، فهو على هذا أندلسى مغربى ، ومن هنا كان مكانه

(١) ابن خلدون.

(٢) جمع الأستاذ سيكو دى لوثينا أخبار أولئك الحموديين فى رسالة صغيرة عظيمة الفائدة : Luis Seco de Lucena, *Los Hamúides de Málaga y Algeciras*. Málaga, 1955.

(٣) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ٣/٢٥٠

بين أهل الجغرافية في الأندلس ، وسنرى بعد قليل أنه درس في الأندلس بعد أن درس في المغرب ، وأن تكوينه الجغرافي استمرار للتقليد الأندلسي الذي نؤرخ له . ولا نعلم شيئاً عن الإدريسي حتى سنة ٥١٠ / ١٠١٦ — ١١١٧ ، فقد كان في ذلك العام في آسية الصغرى كما تدل عليه إشارة له في نزهة المشتاق ، وكانت سنة ١٠١٦ — إذا صح أن تاريخ ميلاده سنة ٩٣٠ — سبع عشرة سنة هجرية ، وإننا لنتساءل هنا كيف كان في آسية الصغرى في هذه السن الباكورة ؟ إذا كان قد خرج من المغرب الأقصى لطلب العلم أو الحج ، أليس من المنطقي أن يكون قد ذهب إلى مصر والحجاز والشام قبل أن يصل إلى آسية الصغرى ؟ أو هل يكون المركب الذي استقله قد أرسى به في إحدى موانئ آسية الصغرى ، فربناحية اضنه التي يقول إنه شهدها بنفسه سنة ٤١٠ ومن هناك توجه إلى بقية بلاد المشرق ؟ ، وحتى لو استقام هذا الفرض الأخير ، فإن معناه أنه بارح المغرب الأقصى وسنه ١٥ أو ١٦ سنة هجرية ، ولا يصح تبعاً لهذا أن يكون قد درس دراسة واسعة في المغرب الأقصى ، ثم خرج إلى المشرق وحده للاستزادة من العلم ، لأن العلم الواسع لا يحصل في هذه السن الباكورة ، ولا يعقل خروج شاب صغير مثله إلى المشرق إلا إذا كان ذلك في حجة أبيه أو نفر من آله كما حدث للعذري ، ونحن هنا أمام أحد أمرين : إما أن نقبل فرضاً كهذا أو نشك أصلاً في تاريخ مولده كما ذكره ميخائيل الغزيري ، وربما كان هذا الحل الأخير أقرب إلى المعقول .

ويذهب سيزار دوبلر وعبد الله كنون إلى أن الإدريسي أقام في رحلته المشرقية هذه سنتين^(١) ، أي أن سنة عند العودة كانت دون العشرين ، وهذا

César Dubler, *Los Caminos a Compostela en Idrisi, al-Andalus*, XIV, 1949, fasc. (١) 1, p. 70.

وسنشير إلى هذا البحث هكذا : Dubler, *Compostela...*

عبد الله كنون ، الشريف الإدريسي ، سلسلة ذكريات مشاهير رجال المغرب ، رقم ٢٤ ، تطوان ، بدون تاريخ ، ص ١١

أيضاً رأى ضعيف ، فإن الإدريسي قال عند عودته من المشرق أبياتاً من الشعر تجعلنا نستبعد عودته في هذه السن :

إن عَيْباً على المشرق أن أرَّجَع عنها إلى ذيول المغرب
وعجيب يضيع فيها غريب بعدما جاء فكره بالغرائب
ويقاسى الظما خلال أناس .. قسموا بينهم هدايا السحائب

فهذه شكوى لا تصدر عن شاب دون العشرين بعد سنتين قضاهما في المشرق ، فإذا كان يريد أن يبلغ وهو بعدُ دون العشرين ؟ وأي غرائب هذه التي جاد بها ذهنه ولم يقدرها الناس ؟ هذه شكوى لا تصدر إلا عن رجل أقام في المشرق فأطال الإقامة ، ودرس وحصل الكثير وجاء ذهنه بالغرائب ثم لم يجد من الناس تقديراً ، ولهذا كله فأننا مضطرون إلى القول — تمثيلاً مع المنطق — إن إقامته في المشرق طالت أكثر من هاتين السنتين ، وإنه عندما أخذ طريقه إلى المغرب يائساً من إدراك شيء في المشرق كان فوق سن العشرين بكثير ، ربما كان يقارب الثلاثين ، وهذا هو المعقول بالنسبة للنضج الذي سنراه عليه بعد قليل .

ثم إن الإدريسي لم يطلب في المشرق تلك العلوم التي كانت تفتح لأصحابها الأبواب كالفقه والحديث واللغة ، وإنما هو كان يطلب الحساب والهندسة والجغرافية والفلك ، فتلك هي العلوم التي « جاء فكره بالغرائب » فيها حقاً كما يتجلى من مؤلفاته ، وهذه « الغرائب » لم تكن تبهر الناس أو تمهد لهم طريقاً ، إنما كانت هوايات ، ولا شك أن الإدريسي كان يعرف ذلك ، ومن ثم فإن شكواه غير مفهومة ، اللهم إلا إذا كانت من النوع التقليدي الذي تعود أهل المغرب في تلك العصور أن يقولوه بعد إقامة يسيرة في المشرق ، ونجد أمثلة من ذلك عند ابن سعيد المغربي والمقري ، بل إن كثيراً من الأندلسيين

والمغاربة الذين وجدوا المسكنة وسعة العيش في المشرق قالوا مثل هذا الشعر على سبيل التقليد كما نجد عند أثير الدين أبي حيان الغرناطي .

وليس من الواضح إن كان الإدريسي قد عاد من المشرق إلى وطنه سبتة أو ذهب إلى صقلية رأساً ، وربما كان افتراض عودته إلى العدو أقرب إلى المقول لأن ذلك يفسح المجال لامكان سياحته بالمغرب الأقصى وإلمامه بأحواله ومعرفة جهاته من ناحية ثم زيارته للأندلس وإقامته في قرطبة وتجوله في بعض نواحي شبه الجزيرة ، والأمران حقيقتان تدل عليهما إشارات كثيرة في جغرافيته ، ولا يمكن أن نفترض تجوله في المغرب وزيارته للأندلس قبل ذهابه إلى المشرق ، فإن ملاحظاته وإشاراته التي ذكرناها ليست لشاب دون السابعة عشرة ، بل هي لرجل ناضج جيد التكوين واسع العلم بعيد الملاحظة ، وهنا أي بعد عودته من المشرق يمكن القول إنه درس في قرطبة ، فقد كانت أحواله قد استقرت وعاد إليها شيء من رونقها في ظل المرابطين ، وإلى هذه الإقامة يمكن أن نُرجح ما نلاحظه في كتابه من ميل للمرابطين وامتداحه إياهم كلما أتيت له فرصة ذلك ، وإليها أيضاً يمكن أن ننسب نفوره من الموحدين وحملته عليهم ، فإن الرجل بعد أن أقام في الأندلس ولمس اجتهد المرابطين في الدفاع عن الدين وحماية الأندلس الإسلامي كره أولئك الذين قاموا عليهم وحاربوهم وقضوا على سلطانهم . هذا بالإضافة إلى أن المرابطين هم الذين قضوا على سلطان سواجات في سبتة وأراحوا آل إدريس منهم ، في حين أن محمد بن تومرت مهدي الموحدين زعم لنفسه نسباً إدريسياً^(١) وهو أمر ينكره الأدارسة ولا يقرونه .

من العدو ، والأرجح من سبتة ، كما يذهب من ترجحوا للإدريسي ، استدعاه رجاء الثاني ملك صقلية ليؤلف له كتاباً في الجغرافية ، وتلك هي الحلقة غير

(١) كتاب الأنساب في معرفة الأصحاب ، نشر قطعاً منه ليفي بروفنسال في نفس المجلد الذي يضم أخبار المهدي ابن تومرت وابتداء دولة الموحدين لأبي بكر الصنهاجي المكنى بالبيدق ، باريس ١٩٢٨ ، ص ٢٦

الواضحة حقاً في حياة الإدريسي ، إذ كيف علم الملك النورمندی أن هناك في المدوّة رجلاً يسمى الإدريسي ماهراً في الجغرافية قادراً على تأليف كتاب جامع شامل فيها ؟ إلى ذلك الوقت لم يكن الإدريسي معروفاً بالجغرافية ، ولم يكن قد كتب فيها كتاباً حتى يمكن القول بأن رجار اطّلع عليه فاستدعاه ، وليس في مقدمة « نزهة المشتاق » ما يفهم منه أنه كتب إلى رجار يعرض عليه تأليف كتاب في الجغرافية له ، فكيف يمكن تفسير هذا الاستدعاء ؟ إن الإدريسي رجل صريح ، ولو أنه كان قد طلب إلى رجار أن يعمل له كتاباً في الجغرافية لقال ذلك ، وخاصة والكتاب كله مهدي إليه . لا بد أن يكون هناك طريق ما مهد للاتصال بين الرجلين ، فعرف رجار أن الإدريسي جغرافي متضلع ، وأنه قادر على أن يؤلف له الكتاب الذي كان يحلم به ، فبعث يستدعيه .

وهناك نقطة أخرى تزيد المسألة تعقيداً ، فإنه يستنتج من كلام الإدريسي أنه بدأ تأليف كتابه سنة ١١٣٨/٥٣٣ - ١١٣٩ ، فإذا افترضنا أنه وفد على صقلية قبل هذه السنة بقليل ، سنة ١١٣٥/٥٣٠ مثلاً ، وجدنا أن تلك السنة وما بعدها إلى سنة ١١٤٦/٥٤٠ توافق السنوات التي اشتدت فيها حملات رجار الثاني على أفريقية وطرابلس ، وفي ١١٣٥/٥٣٠ بالذات استولى على جزيرة جربة ، وفي مثل ذلك الجو المشحون بالعداوة بين الملك النصراني والمسلمين يستبعد أن يكون الإدريسي قد رغب في خدمته أو سعى إليه ، ويستبعد أيضاً أن يستدعى رجار الثاني عالماً مساماً ، كان في نظره من أبناء الملوك ، ليؤلف له كتاباً في الجغرافية ، وربما كان هذا حافزاً لنا على القول بأن الإدريسي وفد على الجزيرة قبل ذلك ، وأن وفود الإدريسي على رجار للعمل معه كان أمراً متفقاً عليه من قبل ، في أيام لم تكن العداوة قد بلغت فيها هذا المبلغ بين رجار الثاني والمسلمين .

وهناك رأى ذهب إليه تادؤيتس ليفيكي^(١) يبدو معقولا ومقبولا لأول وهلة ، ولكنه لا يثبت للمناقشة طويلا . وخلاصة رأيه أن اهتمام رجار الثاني (١١١٢/٥٠٦-٥٤٣-١١٥٢/٥٤٤) باستدعاء الإدريسي لم يكن سببه علمه بالجغرافية ، وإنما بشخصه كرجل من بيت الأدارسة يمكن أن يكون مطالباً بعرش أو منافساً فيه ، أى الانتفاع به في تحقيق مآربه في غزو الأندلس والسيطرة على غرب البحر الأبيض المتوسط . ويعلل ليفيكي ذلك بأن مكانة الإدريسي كجغرافي لم تكن قد تقرر بعد ، بل إن أمره لم يكن قد اشتهر كرحالة^(٢) .

ويعلل ليفيكي رأيه هذا بما يحكيه الصفدي من أن الإدريسي عندما وفد على صقلية لم يكن ينوى الإقامة الطويلة فيها ، ولكن رجار رغبه في ذلك وقال له : « أنت من بيت الخلافة ، ومتى كنت بين المسامين تعمل ملوكهم على قتلك ، ومتى كنت عندى أمنت على نفسك^(٣) »

والأساس التاريخي الذي يقوم عليه هذا الرأي ضعيف ، فإن رجار الثاني لم يكن يفكر في غزو الأندلس أو سيادة حوض البحر الأبيض ، إنما كان هدفه الأقصى توطيد مركزه في صقلية ، لأن دولة النورمان في صقلية كانت فرعا من دولتهم التي أنشأها روبرت جيسكاردي في جنوبي إيطاليا ، ولم يكن لهذه الدولة من سند إلا أذن البابوية لأصحابها في الاستيلاء على جنوبي إيطاليا

(١) Todeusz Lewicki, *Polska i Kraje Sasiednie w Swietle «Ksiegi Rogera», geografia arabskiego 2. XII w. al-Idrisi 'ego. Czesc I, Krakow 1945, Czesc II, Warszawa, 1945.*
وقد نشر ليفيكي في هذين المجلدين نص جغرافية الادريسي لبولندا والأراضى المجاورة لها وترجمتها إلى البولوية مع تعليقات ضافية . وقد استعنت في قراءة مقدمة الكتاب وتعليقات المؤلف على الترجمة .
بزميل بولوني .

(٢) ليفيكي ، ج ١ ص ١١ . وقد أبد هذا الرأي مقبول أحمد العالم الهندي ، انظر :
S. Maqbūl Aḥmad, *India and the neighbouring territories in the Kitāb Nuzbat al-Mushāḥ fi 'Khatirāq al-Āfāq* (Leiden, Brill, 1961) p. 3.

(٣) الصفدي ، الوافي بالوفيات ، نشر التراجع الخاصة بصقلية ميكيلى أمارى فى المكتبة
الصقلية ، لايسك ١٨٥٧ ، ص ٦٥٨

(أبُولْيَا وَكَلَابَرِيَا) وانتزاعه من أيدي البيزنطيين وإقامة دولة كاثوليكية فيه ، ولم تعترف الدولة البيزنطية باغتصابهم لهذا الجزء من أراضيها وظلت تعاديتهم وتعمل على القضاء عليهم ، بل لم يعترف بهم أباطرة الهوهنشاونف الألمان ، وكانوا يدعون السيادة على إيطاليا كلها ، ولهذا ظلت دولتهم في جنوبي إيطاليا قلعة مهددة بعواصف الحروب ، حتى قضى عليها هنري السادس امبراطور الهوهنشاونف سنة ١١٩٤ (٥٩٢ هـ) وقضى تبعاً لذلك على دولتهم في صقلية وتوج ملكاً على هذه الجزيرة في بلم في نفس السنة . ولما كانت دولتهم في صقلية امتداداً لدولتهم في جنوبي إيطاليا ، إذ أن البابوية كانت قد أذنت كذلك لروبرت جيسكارد في غزوها وانتزاعها من أيدي العرب فندب روبرت أخاه روجر للقيام بذلك وبدأ الغزو في سنة ١٠٦٠ (٤٥٢) وتم له الاستيلاء على الجزيرة سنة ١٠٩١ (٤٨٣) ، وأعلن نفسه ملكاً على صقلية عقب ذلك بعد أن منح العرب ضمانات وعهوداً . وبعد أن توفي روجر الأول سنة ١١٠١ (٤٩٥ هـ) خلفه ابنه سيمون ثم ابنه الثاني روجر الثاني الذي عرفه العرب باسم رُجَار أو لُجَار تحت وصاية أمه أدِيلِيد ، ثم بلغ سن الرشد وحكم بنفسه سنة ١١١٢ (٥٠٦) ، ثم تمكن من أن يضم جنوب إيطاليا إلى ملكه ويصبح ملكاً على دولة النورمان كلها في إيطاليا وصقلية في سنة ١١٣٠ (٥٢٦ هـ) وهنا انتهت اطعائه السياسية ، واقتصرت همته كله على الحفاظ على ما بيده وتأمينه .

أما حروبه مع بني زيري أصحاب إفريقية (تونس) فقد كان هدفه منها تأمين دولته لا إضافة شيء من بلاد المسلمين إليها ، ولم يتصد له بنو زيري أصحاب إفريقية ولا قاوموه ، لأن صقلية لم تكن جزءاً من ولايتهم على إفريقية ، فإن التفكير السياسي الماكر الذي جرى عليه الفاطميون جعلهم يفصلون بين صقلية والقاعدة الإسلامية الوحيدة التي كان يمكن الدفاع عنها منها ، وهي إفريقية ، فكانت صقلية ولاية منفصلة تابعة للخليفة الفاطمي في مصر وكذلك كانت طرابلس واجداهيه وصرت وما إليها ، والفاطميون هم الذين ولوا على

صقلية حسن بن علي بن أبي الحسين الكلابي ، وكان الفاطميون عاجزين عن تأييده ، ولهذا فقد اضطرب الأمر عليه وساءت أحوال صقلية ، وعندما أخذ النورمان في غزوها لم يحرك بنو زيري ساكنًا إلا بعد فوات الفرصة ، وكان همهم بعد ذلك أن يعيشوا في سلام إلى جانب هذا الخطر الجديد ، وكل ما فعله الفاطميون للدفاع عن الجزيرة مكاتبات تعبر عن الاستنكار ، كهذه الرسالة التي جرت بين المعز الفاطمي ورجار الثاني عقب استيلاء هذا الأخير على جربة سنة ١١٣٤-١١٣٥ (٥٢٩-٥٣٠ هـ) ؛ وتأمينًا لصقلية من الفاطميين استولى رجار على مدينة طرابلس سنة ١١٤٦ (٥٤٠ هـ) والمهدية سنة ١١٤٨ (٥٤٣-٥٤٤ هـ) ، ولكنه لم يغز إفريقيا ولم يضم إقليم طرابلس إلى ملكه ، إنما احتفظ بهذه المواقع ، وأقام فيها الحاميات لمجرد تأمين صقلية^(١) ، وقد أزال الموحدون هذه المواقع كلها واستردوها لدولة الإسلام سنة ١١٦١ (٥٥٥ هـ) وفي أثناء ذلك كله كان رجار مشغولاً بصراع البيزنطيين والألمان ، ثم مع البابوية ، وقد مُنِيَ في كل من هذه الميادين بخسائر وهزائم كثيرة .

ودولة هذه ظروفها لا يمكن القول بأن صاحبها كان يرمى بنظره إلى الأندلس ويعنى نفسه بغزوه أو أنه كان يسعى إلى السيطرة على حوض البحر الأبيض المتوسط .

ولكن رأى ليفيكي يوحى بفكرة أخرى قد تكون أقرب إلى المنطق ، فإن الدولة التي أقامها النورمان في صقلية لم تكن نورمانية إلا بالاسم والرياسة ، أما العناصر التي قامت عليها فقد كانت غير نورمانية في الغالب ، وفي صقلية بالذات كانت تلك العناصر بيزنطية عربية ، وقد حلل مؤرخون مثل شالاندوت وفردينان لوت و س. ه. هاسكنجز طبيعة هذه الدولة تحليلًا دقيقًا لا بأس

(١) ابن الأثير ، المكتبة الصقلية ، ص ٢٦٧ .
وقد أوجز ابن الأثير في الصفحات التالية الظروف التي استولى النورمان خلالها على صقلية .

من إيراد خلاصته هنا لأنه يلقي ضوءاً كاشفاً على طبيعة علاقاتهم بعرب صقلية وجنوب إيطاليا ، ويوقفنا بالتالي على نوع الصلة التي قامت بين رجار الثاني والجغرافى العربى الأكبر .

وخلاصة آراء أولئك الباحثين أن روح المغامرة التي أتت بالنورمان إلى شمال غرب فرنسا هي التي فرّقتهم بعد ذلك من هذه الناحية التي سميت بعد ذلك باسم نورمانديا (نورماندى) إلى كل مكان ، وأن خير من صور خلقهم هو معاصرهم جُودْفِرُوَ مالايتِرا ، وهو يصورهم لنا كشعب ميزته الأولى هي المكر وإهمال ما ورثوه عن أجدادهم طمعاً في الحصول على ما هو أعظم منه ، ويقول : كانوا دائماً في شوق إلى الكسب والسيادة ، ودأبهم تقليد غيرهم في كل شيء ، وقد جمعوا في خلقهم صفتين متناقضتين : السخاء والجشع ، واستطاعوا أن يوفقوا بين هذين المتناقضين في مهارة كبيرة . وكانوا إلى جانب ذلك شعباً ماهراً في التملق مغرمين بدراسة البلاغة ، حتى أن صبيانهم كانوا خطباء ، وكانوا لا يضبطهم ضابط إذا تركوا على حريتهم ، أما إذا أمسكتهم يد حازمة أذعنوا بالطاعة للقانون ، وهم بسبب ولعهم بالتقاليد لم يبتكروا شيئاً ، وقد أدى بهم هذا إلى اصطناع الرجال وكسب الصداقات واستخدام المبرزين في كل علم وفن ، ومن الغريب أن شعباً جمع هذه الصفات كلها وأدى للناس خدمات كبرى بسبب الولع باصطناع ذوى الملكات ، قد زال من قيد الوجود كشعب ، ولم تبق منه بقية خالصة في مكانٍ ما ، ولقد اتخذ النورمان اللغة الفرنسية في فرنسا وبذلوا جهداً كبيراً في نشرها خارج فرنسا (يريد في إنجلترا) ، وقبسوا من نورمانديا أصول طراز خاص من العبارة واجتهدوا في الهوض به وتنميته حتى أصبح طرازاً معيارياً معروفاً بخصائصه في تاريخ ذلك الفن يعرف بفن العبارة النورمانية .

وقبما يتصل بالنورمان في صقلية يقرر أولئك المؤرخون أنهم كانوا أمراء على بلد غريب عنهم ، وأنهم كانوا غرباء عن كل عناصر السكان فيه ، فقد

وجدوا في الجزيرة شعباً مسيحياً يتكلم اليونانية وآخر مسلماً يتكلم العربية ، وكانت العلاقات بين الشعبين تختلف من مكان لمكان في الجزيرة ، ولكن السيادة كانت للمسلمين بوجه عام ، وكان أولئك المسلمون طوائف شتى ما بين عرب أصلاء ومغاربة استعربوا وصقليين أسلموا ، وإذا كان العرب الأصلاء أقلية في جماعة المسلمين في صقلية ، فكذلك كان النorman الأصلاء أقلية في الجماعة التي قادوها إلى الغزوات واستولوا بسواحلها على البلاد ، فقد كان النorman الأصلاء في ذلك الحشد قليلين جداً ، وكان معظم كبار قادتهم وأمراء بحرهم إيطاليين أو فرنسيين أو ألمان ، وعندما استقروا في صقلية لم يميزوا لهذا بين مسيحيٍّ ومسلم من رعاياهم الجدد ، فاعتمدوا على النابيين من الجانبين ، فكان الكثير من نصحاءهم وأهل بلاطهم وقادتهم وأمراء بحرهم يونان ومسلمين ، ولم يكن للدين سلطان كبير على نفوسهم ، وإذا كانوا قد حاربوا المسلمين في المغرب فإن دافعهم إلى ذلك لم يكن الدين ، بل المحافظة على الملك ، وعندما شاركوا في الصليبيات كان المكر والحرص والطمع ودافعهم الأولى ، ثم يأتي الدين بعد ذلك ، ولهذا فقد عاش معهم الناس في صقلية في مأمن من عصيات الدين ، وأصبح الملك النorman قاعدة التوازن بين المسيحية والإسلام في الجزيرة ، وقد خف عصب الدين عند النorman أكثر وأكثر بعد أن اختلف رجار الثاني مع البابوية ووقع العداء بينه وبينها . وقد خسر المسلمون سيادتهم على الجزيرة بعد الغزو النorman ، ولكنهم لم يخسروا الأرض والأموال والعقار ، ولم يصدّر عن الملك شيء يضير حريتهم الدينية ، فدخلوا في خدمة النظام الجديد دون مضاضة . وفي عالم القرن الثاني عشر المسيحي كانت صقلية شيئاً فريداً في بابها وملجأ آمنًا لمن أرادوا العيش بعيداً عن عصبيات الدين التي عمت القرن كله . وما وقع من اضطهاد للمسلمين في بعض نواحي صقلية كان سببه رجال الدين من النصارى الذين اجتهدوا في نقل الروح الصليبية إلى أرض لم تشأ أن تعرفها ،

وسببه كذلك خوف النورمان من المسلمين من أهل الشمال الإفريقي الذين لم ينسوا ضياع صقلية من أيديهم طوال القرن^(١).

هذه اللحاحات عن النورمان تعيننا على فهم طبيعة العلاقة بين الملك النورمانى والجغرافى العربى الذى دخل فى خدمته ، وتضع هذه الخدمة فى إطارها الصحيح ، وتفهمنا كيف استعجاز الإدريسي — وهو شريف علوى — أن يعمل فى بلاط صقلية ، فقد قصد باباً مفتوحاً على مصراعيه لأمثاله من النابهين ، وكان إلى جانبه مسلمون كثيرون يعملون فى البلاط النورمانى ويشاركون فى شئون القيادة والإدارة ، وكانت الجزيرة عاصمة بالمسلمين ومعالم الإسلام ، وكان شعور الإدريسي أنه عالم يهذى العلم إلى من يقدره . وربما كانت علوية الإدريسي وشرف محتده من أسباب إقبال رجار عليه ، فإن وجود ذلك الشريف العلامة إلى جانبه يُعَلِّى جاهه بين رعاياه من المسلمين ويؤيد سلطانه فى نظرهم ، ولاشك فى أن رجار استفاد سياسياً من ثناء الإدريسي عليه فى مقدمة كتابه ووصفه إياه « بالملك المعظم المعز بالله المقتدر بقدرته » وليس بغريب أن يتناقل الناس شائعة إسلام رجار سراً^(٢) ، فإن المسلم الصقلى الذى يقرأ هذا عن لسان رجل مثل الإدريسي لا يخطر بباله إلا أن الموصوف ملك مسلم ، وقد اجتهد رجار فى دفع هذا الظن عن نفسه خوفاً من تدمير رعاياه المسيحيين ، فأقبل على بناء الكنائس وشجع تنصر المسلمين واليهود فى أواخر أيامه ، بل قتل قائده على

(١) انظر عن النورمان فى صقلية :

E. A. Freeman, *History of Sicily*, London, 1891-1894.

A. F. von Schack, *Geschichte der Normannen in Sæcilien*, Stuttgart, 1889.

F. Chalendon, *La domination normande en Italie, et Sicile*, 1009-1094, Paris 1907.

C. H. Haskins, *The Normans in European History*, Boston- New York, 1915.

ويضاف إلى هذه المراجع كتاب ميكيل أمارى « تاريخ المسلمين فى صقلية » فهو العدة فى ذلك الباب ، وسنشير إليه أكثر من مرة فيما يلى من البحث . وليس لدينا فى العربية إلا كتاب الدكتور إحسان عباس : « العرب فى صقلية » ، القاهرة سنة ١٩٥٩ وهو كتاب جيد أفدنا منه كثيراً .

(٢) راجع إشارة ابن الأثير إلى ذلك ، ص ٢٨٨ فى المكتبة الصقلية .

البحر فيليب الملقب بالمهدوى ، لأنه عندما استولى على بونه ترك نفراً من عبّاد المسلمين وصالحهم يخرجون من المدينة بأهلهم دون أذى^(١) .

بقيت مسألة الطريق التي وصل بها الإدريسي إلى رجار الثاني ونوع الصلة التي قامت بينهما ، وقد استبعدنا فيما سبق أن يكون الإدريسي سعى بنفسه إلى الدخول في خدمة رجار ، أو أن يكون هذا قد سمع بعلمه بالجغرافية فاستدعاه ، ولم يبق إلا أن نبحث عن سبيل أخرى لهذا الاتصال ، وليس أمامنا ، ونحن لا نملك شيئاً ثابتاً ، إلا أن نستخرج مما لدينا ما عساه أن يحل لنا هذه المشكلة .

أدارة صقلية

ولا بد على أى حال أن رجار عرف من أمر الإدريسي شيئاً قبل أن يدعو له للعمل معه ، ووسيلة هذه المعرفة لا يمكن أن تكون كتاباً في الجغرافية كتبه الشريف ووصل إلى يد رجار ، فوقف منه على مكانه من العلم ، وقد تبادر إلى ذهنه أن يكون الإدريسي قد كتب كتابه المختصر في الجغرافية «أنس المهج وروض الفرج»^(٢) قبل أن يكتب كتابه الكبير ، ولكن تبيّن بعد دراسة نص هذا الكتاب أن ذلك الفرض مستبعد ، فالكتاب موجز لزهة الملاحق ، والاشارات إلى هذا الأخير فيه كثيرة ؛ ولكن من الممكن أن يكون كتاب الإدريسي في النبات والأعشاب^(٣) سابقاً على كتبه في الجغرافية ، ومن الممكن أن يكون هذا هو الذى وصل إلى رجار ونبهه إلى مكان الإدريسي من العلم ، ولا يمكن على أى حال القطع بهذا ، لأن أصل ذلك الكتاب قعيد ، وما لدينا منه نقول يصعب معها تحديد تاريخ تأليفه ولو على وجه التقريب .

(١) ابن الأثير ، المكتبة الصقلية ، ص ٢٩٩

(٢) سلتحدث عن هذا الكتاب فيما بعد .

لم يبق إذن إلا أن نفترض أن يكون رجار قد عرف الشريف الإدريسي معرفة شخصية قبل أن يدعوه إلى العمل معه . وهذا الرأي يبدو مستبعداً أول وهلة ، ولكننا إذا درسنا تاريخ المسلمين في صقلية خلال العصر الذي عاشه الإدريسي فيه رأينا شعاعاً من الضوء يمكن أن يبين لنا جوانب هذه المشكلة بعض الشيء ، بل يضع يدنا على حقيقة هامة جدية بعناية المهتمين بدراسات صقلية الإسلامية ، وهي وجود بيت إدريسي حمودي فيها ، كان له سلطان كبير ودور واسع في تاريخها من النصف الثاني للقرن الخامس الهجري إلى أواخر القرن السادس .

وأول ما نسمع بهذا البيت في أخبار غزو النورمان لصقلية ، فعندما وصل هذا الغزو إلى وسط الجزيرة وبدأ الصراع حول جرجنت Girgente وقَصْرِيَّانَه Castrogiovanni وما حولهما من الأراضي كان صاحب الأمر هناك الذي تولى أمر الدفاع رجلاً يسمى أبا القاسم بن حمود ، وكان ذلك سنة ١٠٨٦/٤٧٩ .

ومن أسف أن مؤرخينا لم يذكروا شيئاً عن الدور الذي قام به بنو حمود هؤلاء في الدفاع عن ناحيتهم ، ولكن ابن الأثير يذكر أن المسلمين قاوموا مقاومة عنيفة في الموضعين ، قال : « ولم يبق للفرنج ممانع ، فاستولوا على الجزيرة ، ولم يثبت بين أيديهم غير قصر يانة وجرجنت ، فحصرها الفرنج ، وضيقوا على المسلمين بهما ، فضاق الأمر على أهلها حتى أكلوا الميتة ، ولم يبق عندهم ما يأكلونه ، فأما أهل جرجنت فسلموها إلى الفرنج ، وبقيت قصر يانة بعدها ثلاث سنين ، فلما اشتد الأمر عليهم أذعنوا إلى التسليم ، فتسلمها الفرنج لعنهم الله سنة ٤٨٤ ... »^(١) ، ولم يذكر ابن الأثير شيئاً عن قائد هذه المقاومة في تلك الناحية ، ولكن جودفروا مالاندياً مؤرخ الغزو

(١) ابن الأثير ، الكامل ، الأجزاء الخاصة بصقلية ، المكتبة الصقلية ، ص ٢٧٨

النورمانى لصقلية^(١) ذكر أن اسمه Chamut ، وقد رده ميكلي أمارى إلى أصله وهو حمود^(٢) ، والمراد به أبو القاسم بن حمود من سلائل بنى حمود الأدارة ، واسم هذا البيت مذكور فى تاريخ صقلية من ذلك الحين وبعده مدة قرن من الزمان على الأقل ، وقد ورد فى النصوص اللاتينية تحت هذه الصورة وصور أخرى مقاربة : Hamus أو Hamutus

وقد ذكر أمارى أن منشئ هذا البيت الحمودى الصقلى لابد قد بارح وطنه فى المغرب أو الأندلس بعد ضياع أمر بنى حمود فى منتصف القرن الخامس الهجرى كما ذكر ابن حزم . وليس هناك ما يمنع قبول هذا الرأى ، فى ذلك الحين كان المرابطون قد ثبتوا أقدامهم فى جنوب المغرب الأقصى وتطلعوا للامتداد شمالا ، فى سنة ١٠٥٨/٤٥٠ تمت بيعة أبى بكر بن عمر الممتونى على جنوبى المغرب الأقصى حتى وادى درعة ، وفى سنة ١٠٦٩/٤٦٢ — ١٠٧٠ كانوا قد تمكنوا من الأراضى الممتدة شمالا إلى مجرى نهر تانسفت ، وضائق بهم أغمات وريكة ، فبدئ فى بناء سراكش فى رجب من تلك السنة ، وفى أواخر سنة ١٠٧٠/٤٦٢ تقدم يوسف بن تاشفين ابن عم الأمير أبى بكر بن عمر شمالا حتى وصل وادى ملوية ، وفى ربيع الأول سنة ٤٥٦/ ١٠٦٣ فبراير تنازل أبو بكر بن عمر عن الإمارة ليوسف بن تاشفين ، وانفرد هذا بالملك ، وبدأ التوسع السريع إلى الشمال ، فاستولى المرابطون على فاس سنة ١٠٧٤/٤٦٧ ، وفى السنة التالية استولوا على تلمسان ، ودخل شمال المغرب الأقصى كله فى حكم المرابطين^(٣)

G. Molaterra, *La Conquista de Sicilia*, Collezione d'Opere inedite o Rare, Bologna (١) 1865; lib. IV, cap. 5.

Amari, *Musulmani di Sicilia*, III, 175. (٢)

(٣) ابن عذارى ، البيان المغرب ، الجزء الثالث الخامس بالمرابطين والموحدين ، قطعة منه نشرها أمبروزيو أوتى ميراندا فى مجلة 1. 1961 fasc. *Hesperis Tamuda*, II, ص ٤٦ وما يليها .

وفي هذه الظروف لم يعد للباقيين من بني إدريس أمل في السلطان ، فانزوى من استطاع الانزواء منهم في ناحيته ، وفر من قر . ولاشك أن أبا القاسم بن حمود هذا انتقل إلى صقلية في هذه الفترة مع نفر من أبناء أولئك الأدارة ، وسنرى فيما بعد أن أباه كان يسمى علياً ، وقد بحثت في الشجرة الإدريسية عن يسمى علياً في هذه الفترة ، فلم أجد إلا اثنين : علي ابن إدريس المتأيد بن علي الناصر ، وعلي بن محمد حفيد إدريس المتأيد ، ومن الراجح أن أبا القاسم بن حمود الصقلي ابن لأحد هذين ، ونستطيع القول إنه وصل إلى رئاسة ناحية جرجنت وقصريانة بعد سنة ١٠٦٨/٤٦١ بقليل ، فقد ذكر ابن الأثير أنهما كانتا من سنة ١٠٣٥/٤٢٧ — ١٠٣٦ في طاعة القائد علي بن نعمة المعروف بابن الحواس ، وأن ابن الحواس هذا قُتل سنة ٤٥٣/ ١٠٦١ — ١٠٦٢ أو بعدها بقليل ، وحاول أيوب بن تميم بن المعز الزيري أن يسيطر على الناحية فلم يستطع ، فترك صقلية هو وأخوه علي سنة ١٠٦٨/٤٦١ « وصحبهم جماعة من أعيان صقلية والأسطولية ، ولم يبق للفرنج مانع ... »^(١) فلا بد أن أبا القاسم بن علي بن حمود تولى قيادة هذه الناحية ورياستها في ذلك الحين ، أي قبل أن يزحف الغزو النورمانى إليها بقراءة ١٨ سنة . ولابد أنه هو الذى قاد الدفاع عن جرجنت وقصريانة على النحو الذى رويناه عن ابن الأثير .

وتذهب المراجع اللاتينية والنورمانية التى رجع إليها أماري في تتبع أخبار استيلاء النورمان على صقلية ، إلى أن أبا القاسم بن حمود هذا بعد أن أسلم قصر يانة إلى رجار الأول اعتنق النصرانية مع أهله أجمعين وخاف على نفسه بعد ذلك من مسلمى البلد ، فطلب إلى رجار أن ينقله إلى بلد من بلاده في شبه الجزيرة الإيطالية ، فنقله إلى بلدة ميلاطو Mileto في بولية Apulia وهناك

(١) ابن الأثير المكتبة الصقلية ، ص ٢٧٩

ظل حتى مات^(١) وهذا قول ظاهر الاختلاق ، فإن بنى القاسم بن حمود ظلوا بعد ذلك أصحاب جرجنت وقصريانة تحت سلطان النورمان ، وكان لهم دور كبير في شئون الجزيرة إلى أكثر من قرن من الزمان بعد ذلك ، ثم إن ابن جبير الرحالة لقي رئيساً من رؤساء هذا البيت بعد ذلك بقرن من الزمان ، في ذى قعدة سنة ٥٨٠/مارس ١١٨٥ ووصفه بالجلالة واتساع الجاه ، ثم قال : « ومن عظم هذا الرجل الحمودى المذكور في نفوس النصارى ، أبادهم الله ، أنهم يزعمون أنه لو تنصر لما بقى في الجزيرة مسلم إلا وفعل فعله ، اتباعاً له واقتداءً به ، تكفل الله بعصمته جميعهم ، ونجاهم مما هم فيه بفضلهم وكرمهم ... »^(٢) فكيف يقال بعد هذا أن جده قد تنصر هو وأهله جميعاً من مائة سنة ؟

وقد تتبعنا تاريخ أولئك الحموديين الأدارة الصقليين في بحث آخر ، وخلاصة ما قلناه هناك أن أبا القاسم بن علي بن حمود هذا عاش في أمان مع رجار الأول ، فقد تركه هذا على ضياعه وأحواله وقيادته لجرجنت وقصريانة ، ويبدو أنه توفي أواخر حكم رجار الأول ، أو بعده بقليل ، فقد توفي رجار سنة ١١٠١/٤٩٥ وخلفه ابنه سيمون لفترة قصيرة ، ثم مات سيمون سنة ١١٠٥/٤٩٩ وتولت الأمر الملكة أديليد Adelaide وصية على أخيه الأصغر رجار ، وفي سنة ١١١٢/٥٠٦ بلغ هذا سن الرشد وتولى العرش باسم رجار الثانى ، وهو صاحب الإدريسي ، وقد حكم ٤٠ سنة إذ توفي سنة ١١٤٨/٥٤٧ - ١١٤٨/٥٤٨ . وفي هذه الفترة ظهر أمر فقيه صقلية الأكبر محمد بن أبي محمد بن ظفر (٤٩٧-٥٦٧/١١٠٤-١١٧١) ، وقد نشأ في ظل أبي القاسم بن علي بن حمود ثم ابنه أبي عبد الله محمد بن أبي القاسم بن علي بن حمود ، وإلى هذا الأخير أهدي

(١) Amari, *Musulmani di Sicilia*, III, 175-176.

(٢) رحلة ابن جبير ، بتحقيق الدكتور حسين نصار ، القاهرة ١٩٥٥ ، ص ٣٣٣

طائفة من أحسن كتبه مثل «أساليب الغاية في أحكام الآية» و«سلوان المطاع في عدوان الأتباع»، وكان تأليفه لهذا الكتاب الأخير سنة ١١٥٩/٥٥٤، ولا بد أنه ألّف له الكتب الأخرى قبل ذلك بسنوات، ومن المظنون أن كتاب «أساليب الغاية» ألّف سنة ١١٤٤/٥٣٩-١١٤٥، وكان أبو عبد الله محمد ابن أبي القاسم بن حمود إذ ذاك من كبار رجال الدولة النُزمانية ومدبّر الأُمُر فيها، فلا بد أن يكون قد خلف أباه ومكّن لنفسه الأُمُر قبل ذلك التاريخ. وكان أبو عبد الله محمد بن أبي القاسم هذا رجلاً كريماً ممدّحاً، يقد عليه الشعراء من المشرق والمغرب ويمدحونه ويصلّونهم بالصّلات السنّية، ويُقدّمهم إلى رجار الثّاني فيمدحونه، ومثال ذلك عبد الرحمن بن رمضان الشّاعر المعروف بالقاضي، وعبد الرحمن بن محمد بن عمر البُشَيْرِي الصّقلي، وأبو حفص عمر ابن حسن النّحوي الصّقلي وغيرهم ممن أورد عماد الدين أبو عبد الله محمد بن حامد الأصفهاني أطرافاً من أشعارهم في الخريدة، بل بلغ من كثرة شعرهم أن العماد سُمّ ذكر بقيّتهم وقال: «واقتصرت منها على هذه النّغبة مع الظّماً إليها، فما أوتر إثبات مديح الكفر، عجل الله بهم إلى أُلّفتح ناره المسعرة»^(١).

وهذه السنوات التي تتحدث عنها هي التي ذهب الشريف الإدريسي فيها إلى المشرق وعاد إلى المغرب والأندلس، فهل نستبعد أن يكون قد سمع بذكر هؤلاء الحموديين الذين انتشر ذكرهم في المشرق وخف الشعراء إليهم ليمدحهم ويلتمسوا ندامهم؟ لقد كانت صقلية محطاً في طريق البحر من المغرب والأندلس إلى المشرق، وكان كثير من المسامين ينزلون بها في رحلتهم ويقضون الأسابيع والشهور، ومعظم من نزّلها من ذوى الشأن منهم قصدوا أولئك الحموديين أو قصدهم هؤلاء للاجتماع بهم، كما حدث لأبي بكر الهروي والرحالة ابن جبير

(١) الخريدة للعماد، المكتبة الصقلية، ص ٥٨٨

من بعده ، فهل يمكن أن يكون ذكرهم قد غاب عن الإدريسي ، وهو حمودى مثلهم ، بل منسوب إلى البيت الذى خرجوا منه ؟ ثم إن الإدريسي كان إذ ذاك شاباً ذكياً حصل من العلم بالطب والجغرافية شيئاً كثيراً ، ولا بد قد بلغه أن رجار صاحب صقلية معنى بهذين العلمين متطلب لأصحابها ، وقد خرج من المشرق يشكو قلة التقدير فى أبيات مأثورة عنه سبق أن ذكرناها ، ولم تكن الأحوال فى المغرب والأندلس مواتية ولا آمنة كل الأمن لرجل مثله سليل بيت كان له شأن وسلطان ، فأى شيء أقرب إلى المنطق من أن يكون قد عرج على صقلية وعرف أبا عبد الله محمد بن أبى القاسم بن حمود ، ووقف هذا على ما عنده من العلم بالجغرافية والطب ، فقدمه إلى رجار الثانى أو تحدث إليه فى شأنه ، فأعجب به رجار ووجد فيه طلبته ، فسأله أن يقيم عنده ويعمل معه ؟ هنا — أُنسَبَ — مكان العبارة التى يقول الصفدى إن رجار قالها للإدريسي مُرَعَّباً له فى المقام عنده : «أنت من بيت الخلافة ، ومتى كنتَ بين المسلمين عمل ملوكهم على قتلك ، ومتى كنت عندى أمنت على نفسك^(١)» فهذه مناسبة الترغيب ، ولا معنى لها إذا كان الإدريسي قد وفد واستقر بالفعل وبدأ يعمل ، وهى فى نفس الوقت تصور حال أبى عبد الله محمد بن أبى القاسم ابن حمود ، فقد كان هو وآله بالفعل آمنين فى ذلك الركن بعيداً عن منافسات السلطان .

على أساس من هذا الفرض نستطيع أن نفرس ما يلي من أدوار حياة الإدريسي ، فقد عرف الآن أن أمامه فرصة للعمل وتحقيق أحلامه كرجل علم أمله الأقصى أن يستزيد من علمه وأن يجد وسيلة لإثبات ما عنده فى كتب واذاعته فى الناس ، ولهذا فقد مضى إلى المغرب ليستكمل علمه به وليتأهب للاستقرار النهائى فى صقلية ، ومن المغرب ذهب إلى الأندلس ليدرس

(١) صلاح الدين بن خليل الصفدى ، الوافى بالوفيات ، المكتبة الصقلية ، ص ٦٥٨

فيه بعض الوقت ويرى ما يمكنه رؤيته من نواحيه بنفسه ، ثم عاد إلى صقلية بعد ذلك ليشرع في عمله العظيم حوالى سنة ١١٣٨/٥٣٣ - ١١٣٩ ، حقيقة أن الإدريسي لا يشير إلى شيء من ذلك في مقدمة كتابه ، ولكننا سنرى أن هذه المقدمة كلها موضع نظر ، ثم إن الإدريسي كان رجلاً شديد التحفظ ، لا يتكلم إلا بمقدار ، وهذا واضح من كتابه ، وربما يكون هذا من الأسباب التي رغبت رجار فيه وحملته على إكرامه وتقديره .

وإذا نحن قرأنا فقرة « الوافى بالوفيات » التي نتحدث عن الإدريسي لاحظنا أنها يمكن أن تؤيد هذا الرأي ، وجدير بالملاحظة أن الصفدى لم يختص بها الإدريسي بل « رَجَّار ملك الفرنج صاحب صقلية » (وهكذا ضبط اسم رُجار) ، فهي تقول إنه هو الذى « استقدم الشريف الإدريسي صاحب كتاب نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق من العدو إليه ليضع له شيئاً فى شكل صورة العالم ... » وبعد أن يفصل كيف صنع الإدريسي هذه الصورة يذكر المكافأة العظيمة التى كافأه بها ، ثم تأتى العبارة التى قالها رجار للإدريسي مرغباً إياه فى المقام عنده (وقد ذكرناها قبلاً) ثم يلى ذلك ذكر خبر تأليف الكتاب^(١) ، أى أن هناك مرحلتين لعمل الإدريسي فى صقلية يفصل بينهما ترغيب رجار له على الإقامة عنده . وهذا النسق يمكن تفسيره كما قلنا على أن الإدريسي عرف رجار أولاً وأطلعته على ما يمكن عمله لعمل صورة مجسمة للأرض ، فكان هذا حافزاً له على ترغيبه فى البقاء عنده ، فوافق الإدريسي ، وبادر بأكمال رحلته إلى المغرب ، حيث قضى ما كان بسبيله أولاً واستكمل ما أراد من دراسة جغرافية المغرب ، ثم ذهب إلى الأندلس للدراسة والمشاهدة ، وعاد بعد ذلك إلى صقلية وبدأ العمل مع رجار .

(١) أورد هذه الفقرة أمارى فى المكتبة الصقلية ، ص ٦٥٧ - ٦٥٨

أما الفقرة التي أوردها العماد الأصفهانى في الخريدة فلا يمكن التعويل عليها ، فقد خلط النساخ بين مادتين من موادها ، فوردت هكذا : « محمد بن محمد يعرف بابن الثيرى القرطبى ، معظم ما يذكره ابن بشرُون في المختار من الأندلسيين رواية عنه ، ويذكر أنه لقيه في مدينة صقلية ، وقد صنف لملكها رجار الافرنجى في مسالك الأرض وممالكها كتابا كبيرا سماه نزهة المشتاق . .^(١) » وواضح أن الكلام يدور أولا على أديب راوية أخذ ابن بشرُون عنه معظم ما أورده في كتابه « المختار في النظم والنثر لأفاضل أهل العصر » من شعر الصقليين ونثرهم ، ثم يتصل الكلام عن الإدريسي ، والأول قطعاً ليس هو الادريسي ، ومن الغريب أن نفرأ كبيراً من الباحثين لم ينتبهوا إلى ذلك ، فذهبوا إلى أن الادريسي كان يلقب أيضاً بابن الثيرى وبالقرطبى ، وليس هذا بصحيح .

أما بقية الإشارات الخاصة بالادريسي ، وهى لا تخرج عن سطور أوردها ابن أبى أصيبعة في طبقات الأطباء^(٢) وابن خلدون في العبر^(٣) وحاجى خليفة في « كشف الظنون^(٤) » . فلا تكاد تضيف إلى علمنا بحياة الادريسي شيئاً ذا بال ، ويهمننا أن نلاحظ هنا أن ابن أبى أصيبعة لا يذكره باسم الادريسي بل

(١) الخريدة للعماد الأصفهانى ، قطعة نشرها أمارى في المكتبة الصقلية ، ص ٦١٠ — ٦١١ ، وكل الذين انتفعوا بهذه القطعة اعتمدوا على هذه الصورة التى نشرها بها أمارى ، ويلاحظ أن ترجمة محمد بن محمد المعروف بابن الثيرى ترد في آخر صفحة تنتهى بعبارة « مدينة صقلية » ثم يبدأ الكلام أول صفحة أخرى : « وقد صنف لملكها رجار . . . » ومعنى هذا أن هناك ورقة أو أكثر ساقطة من مخطوط الخريدة الذى اعتمد عليه أمارى . ولم ينتبه أحد إلى ذلك ، وقد راجعت هذه الفقرة في نسخة الخريدة المصورة عن مخطوطة باريس رقم ١٣٧٥ (ورقة ٢٠) فوجدت فيها نفس الخطأ .

(٢) انظر القطعة التى نشرها من « طبقات الأطباء » نور الدين عبد القادر والحكيم هنرى جاهي وهى الباب الثالث عشر في أطباء إفريقية والأندلس . الجزائر سنة ١٩٥٨ ، ص ٥٣ وترجمتها إلى الفرنسية ص ٥٢ والتعليق على ذلك ص ١٦٠ و ١٦١

(٣) في المكتبة الصقلية ، ص ٤٨٥

(٤) نفس المرجع ، ص ٧٠٦

باسم : أبي عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الحسنى ، ولا يشير إلى ما كتب في الجغرافية ، وإنما يذكر كتابه عن الأدوية المفردة .

ولا نعرف كيف انتهت حياة الإدريسي أو أين مات فإن آخر خبر ورد فيما ذكرناه من المراجع هو ما يقوله ابن بشرون من أنه لقيه في بلرم ، وقد سبق أن شككنا في أن المراد بهذا هو الإدريسي بل محمد بن محمد الثوري القرطبي . ولكن إشارة يسيرة أوردناها الحسن بن الوزان المعروف باسم ليون الإفريقي تقول إن الإدريسي توفي في صقلية سنة ٥١٦هـ / ١١٢٢-١١٢٣ ، وهو تاريخ غير معقول ، لأن الإدريسي ولد سنة ٤٩٣ ، ولهذا فقد صوبه البارون دي سلان^(١) إلى ٥٦٠/١١٦٤-١١٦٥ ، لأن الخلط بين ٥١٦ و ٥٦٠ قريب في العربية وأى لغة لاتينية . وهذا هو التاريخ المعتمد عامة المؤرخين إلى اليوم .

ولكن هناك رأيا آخر في تاريخ وفاة الجغرافي الكبير لا بأس من عرضه هنا ، فقد ذكر العماد الأصفهاني في «الخريدة» في سياق «محاسن جماعة من شعراء المغرب الأدنى والقيروان وأفريقية» نقلا عن ابن بشرون أن يحيى بن التيفاشي القفصى «انتقل إلى قابس ، وسكن بها ومدح بنى هلال ، فقتله الأفرنج بصقلية بعد سنة ٥٥٠ بعد فتحهم بالمسلمين^(٢)» وتناول أماري هذه العبارة بالتحقيق الدقيق المعهود فيه ، فقال إن استرجاع الموحدين للمهدية كان له وقع شديد على غليالم الأول الذي خلف رجاء الثانى على صقلية وأهل بلاطه فقد غضب الملك على نفر من الاشراف واتهمهم بالخداع والغش والتهاون في الحرب مما أدى إلى استيلاء المسلمين على ذلك المعقل ، وبادر وزيره ماجون بتجريد مسلمي بلرم من كل سلاح خوفاً من انتقاضهم ، ثم وقعت فتنة

(١) انظر : M. Amari, *op. cit.* III, 664 n. 1

(٢) المكتبة الصقلية ، ص ٩٩

شديدة من جانب نفر من النبلاء والفرسان ، وهجموا على القصر ونهبوا الذخائر التي كان رجار الثاني قد ادخرها (٩ مارس ١١٦١ / ربيع الأول ٥٥٦) ، ثم قام النصارى في بلرم على المسلمين ، فتحصن هؤلاء في حيهم المسمى كازارا Cazzara وكان أغنى أحياء بلرم وكان يقع في غربها ، وأغلقوا أبوابه واستعدوا للدفاع عن أنفسهم ، ولكنهم كانوا بغير سلاح ، فتمكن النصارى المهاجمون من اقتحام الحي عليهم ، وأنزلوا بهم مذبحه قاسية هلك فيها عدد عظيم منهم من بينهم الشاعر يحيى التيفاشي وكان شاعراً وسطاً أصله من قفصه ، وقد مدح عبد المؤمن بن عليّ عند وصوله إلى بلده ، ثم مضى إلى صقلية يلتبس شيئاً من رقد آل حمود كما كان الكثيرون من شعراء إفريقية يفعلون ، ووفد إلى بلرم حيث وافاه بها حتفه ، وقد أضاف أماري إلى ذلك أنه يظن أن الإدريسي كان في بلرم إذ ذاك ، فقد كان متصلاً بيلاط غليالم الأول ، وعمل له نسخة موسعة من نزهة المشتاق لم تصل إلينا ، والغالب أن المراد بهذه النسخة الموسعة كتاب « روض الأنس ونزهة النفس » الذي ذكره ابن بشرون^(١).

ولا نعرف أين ذهب الإدريسي بعد مبارحته بلرم ، والغالب أنه مات في صقلية بعد ذلك بقليل ، مما يرجح ما ذهب إليه الحسن الوزان من القول بوفاته سنة ١١٦٤/٥٦٠ ، وليس لدينا ما يدل على أنه عاد إلى المغرب أو ذهب إلى أي بلد إسلامي آخر بعد ذلك .

أما عن حياة الإدريسي في صقلية فلدينا إشارة طيبة أوردتها الصفدي في « الوافي بالوفيات » ، ولا نعلم من أين استقى المعلومات التي أوردتها فيها ، ويغلب على الظن أنها ترجع إلى كتاب ابن بشرون ، ومن أسف أن هذا الكتاب قد ضاع ، وقد لاحظنا أن ما نقله العماد الأصفهاني عن ذلك الكتاب خاصاً بالإدريسي مضطرب مختلط بترجمة أخرى ، وقد سقطت من المخطوط ورقة أو

(١) أماري ، تاريخ مسلمي صقلية ، ج ٣ ص ٤٨٦ والهوامش .

وسنرى بعد قليل أن روض الأنس ، لم يكن نسخة موسعة بل محررة من النزهة وأن الخطأ في الوصف جاء من لاماري.

أكثر لابد أنها كانت تضم أول ترجمة الإدريسي ، وربما كانت هناك التفصيلات التي يوردها الصفدى في كتابه .

واستناداً إلى ما ذكرناه عن زيارتي الإدريسي لصقلية وتعرفه برجار الثانى فى الأولى منها ، ثم استقراره فيها وشروعه فى العمل فى الثانية نقول — اعتماداً على كلام الصفدى — أن رجار « أكرم نزله وبالغ فى تعظيمه » ويسر له طريق العمل ، وبدأ الإدريسي بعمل صورة الأرض على الفضة ، فلما فرغ منها كافأه مكافأة سنوية ، وألح عليه فى الاستمرار فى العمل معه فاستجاب « ورتب له — الملك — كفاية لا تكون إلا للوك ، وكان يحى إليه راكباً بغلة ، فإذا صار عنده تنحى عن مجلسه ، فيأتى ، فيجلسان معاً^(١) » أى أن الإدريسي لم يكن مجرد عالم يخدم ملكاً بعلمه ، بل كان صديقاً له أثيراً لديه ، يجلسان معاً ويتحدثان فى طريقة العمل ويتشاوران فيما يعرض لهما من المشاكل ، وهذه الصورة معقولة ، فإن رجار الثانى كان شديد الاهتمام بهذه العلوم التى برع فيها الإدريسي وهى الجغرافية والطب والنبات والحساب والفلك ، لا يكاد يسمع بأحد من الظاهرين فيها إلا عنى به وشجعه على العمل شأنه فى ذلك شأن معظم ملوك النورمان كما رأينا ، وقد وجد عند الإدريسي فوق ما يطلب من هذه العلوم كلها ، فزاد قدره عنده وأنس إليه ، واتصلت بين الرجلين صداقة كانت ثمرتها هذه الكتب الجليلة التى خلفها الإدريسي .

ولم تتغير حال الإدريسي بعد وفاة رجار الثانى ومجيء غليالم الأول ، ولكن أحوال الدولة النورمانية نفسها تغيرت ، فقد اشتد التنافس على السلطان بين معاونى الملك وخرج الأمر عن يده ، واشتد النزاع بين اثنين من مستشاريه هما اصطفان وماتيو ، وكان بيت بنى حمود — والعرب تبعاً لذلك — من خصوم الأول وأنصار الثانى ، فاجتهد اصطفان فى التآليب على العرب متعللاً بأن

(١) الصفدى ، الرافى بالوفيات ، المكتبة الصقلية ، ص ٦٥٨

الموحدين ، وقد أصبحوا سادة المغرب كله واستعادوا ما كان بيد النورمان من موانيه مثل المهديّة وصفاقس وطرابلس ، يتأهبون لاستعادة صقلية مستعنيين بمن فيها من المسلمين ، فكان من نتائج ذلك قيام النصارى على المسلمين في بلرم كما ذكرناه ثم مبارحة الإدريسي هذا البلد، ولهذا فإننا نستطيع القول بأن السنوات الأخيرة من حياة الإدريسي لم تكن سعيدة ولا هادئة ، نعم إنه استمر يعمل وأنجز كتاب « بهجة الأنس » ولكن العمل نفسه كان عسيراً في الظروف التي ذكرناها ، خاصة وقد غضب غليالم الأول على القاسم بن أبي عبد الله محمد ابن محمد بن أبي القاسم بن حمود واستصفي أملاكه وأبعده ، وصيره في الحالة التي وجدته عليها ابن حبير .

منهج الإدريسي وطريقته في العمل

يدل الإدريسي في « نزهة المشتاق » على علم واسع بالجغرافية والفلك والحساب والتاريخ ، وتدل النقول الباقية لدينا من كتابه عن « الأدوية المفردة » على علم واسع بالأدوية والأعشاب ، فقد كان هذا الكتاب من المراجع الرئيسية في هذا الباب ، حتى لقد نقل عنه ابن البيطار مائة مرة^(١) . أى أنه كان متمكناً تماماً من العلمين اللذين أثرت عنه فيهما كتب ، وشهرته كنباتى لا تقل عن شهرته كجغرافى ، حتى أن ابن أبي أصيبعة ذكره كنباتى فقط ، دون إشارة إلى تواليفه في الجغرافية .

وقد أورد الإدريسي في فاتحة نزهة المشتاق طائفة من الكتب الجغرافية التي اعتمد عليها ، فحسب نفر من الباحثين أن هذه كل مراجعه ، وعددها عشرة

(١) انظر تعليق عبد القادر نور الدين وهنرى جاييه على لس ابن أبي أصيبعة وترجمته الفرنسية ، المصدر الذى ذكرناه ، ص ١٦٠—١٦١ . وقد ذكرنا في ذلك النص أن وفاة الإدريسي كانت سنة ١١٦٦/٥٦١ ، وهكذا أيضاً قال لكايوك .

هي : « كتاب العجائب للمسعودي ، وكتاب أبي نصر سعيد الجيحاتي وكتاب أبي القاسم عبيد الله بن خرداذبة ، وكتاب أحمد بن عمر العذري ، وكتاب أبي القاسم محمد الحوقلي البغدادي ، وكتاب جاناخ بن خاقان الكيماقي ، وكتاب موسى بن قاسم القردي ، وكتاب أحمد بن يعقوب المعروف باليعقوبي ، وكتاب اسحق بن الحسن المنجم ، وكتاب قدامة البصري ، وكتاب بطامبوس الأقلودي ، وكتاب أرسئوس الانطاكي » . وثمانية من هذه الكتب معروفة لنا ، فكتاب العجائب لأبي الحسن علي بن الحسين المسعودي (توفي ٣٤٥ أو ٣٤٦ / ٩٥٦) هو أخبار الزمان وعجائب البلدان ويسمى أيضاً « الجمان في مختصر أخبار الزمان »^(١) وهو من أهم كتب المسعودي الجغرافية التاريخية ، وكتاب أبي نصر سعيد الجيحاتي موضع تساؤل كبير ، لأن المعروف لنا هو أبو عبد الله محمد ابن أحمد الجيحاتي (ويكتب الجياني أيضاً) ، وكان وزيراً في البلاط الساماني فيما بين سنة سنتي ٢٧٩/٨٩٢ و ٢٩٥/٩٠٧ وقد صنف كتاباً احتذى فيه كتاب قدامة بن جعفر عن الخراج ، ذكره المقدسي في فاتحة أحسن التقاسيم ، وقد عثرنا على مخطوطة منه في كابل^(٢) ، ونقل منه مؤلف « حدود العالم » نقولاً كثيرة ، وقد أثبت بارتولد الذي قام بنشر هذا الكتاب الأخير أن كتاب الجيحاتي أول محاولة عربية لرسم صورة (أي خريطة) للعالم ، ثم التعريف بأعلامها الجغرافية في كتاب^(٣) ، وقال بارتولد أن مؤلف ذلك الكتاب اعتمد في رسم خرائطه على خرائط بطامبوس ، ولكنه خالفه بعض الشيء في حدود خطوط

(١) لم نعثر على أصل هذا الكتاب ، ولكن على مختصر صغير له توجد منه مخطوطة في المكتبة الأهلية في باريس ، وقد ترجمه كارا دي نو إلى الفرنسية ونشره في باريس سنة ١٨٩٨ بعنوان : *L'Abregé des Merveilles* ثم نشر النص العربي السيد عبد الله الصاوي في القاهرة سنة ١٩٣٨ .
(٢) عثر على هذه المخطوطة المستشرق فرأي ، وكتب عنها مقالا في مجلة بينايطيون :
R. Frye, *Note on the Jayhānī Manuscript in Kabul*, Apud Byzantion XVIII, 1948.
(٣) لشكر كتاب « حدود » العالم المستشرق بارتولد في ليننجراد سنة ١٩٣٠ والكتاب صغير ، ولكنه يضم ٧٨ خريطة مع مقدمة روسية مطولة .

العرض ، وذهب بروكلان إلى أن كتاب الجيحاتى وكتاب حدود العالم متشابهان تماماً^(١)

أما كتب ابن خرداذبة والعذرى وابن حوقل واليعقوبى فعروفة متداولة ، وبقى كتابا جاناخ بن خاقان الكيماقى وموسى بن قاسم القردى دون أن يتعرف عليهما أحد . وكتاب قدامة البصرى هو الخراج لقدامة ابن جعفر ، وكتاب بطليموس معروف ، وقد تحدثنا فيما سبق بما فيه الكفاية عن كتاب أرسىوس أو هروشيئس ، وكتاب اسحق بن الحسن (أو حسين) المنجم هو « كتاب آكام المرجان فى ذكر المدائن المشهورة بكل مكان » ، وهو معجم جغرافى يظن أن مؤلفه مغربى أو أندلسى كتبه خلال القرن الرابع الهجرى^(٢) .

وإذا نظرنا إلى هذه الكتب فى مجموعها لاحظنا أنها كلها ، فيما عدا كتاب العذرى ، قد كتبت فى القرن الرابع الهجرى فى حين أن الإدريسي كتب كتابه فى القرن السادس الهجرى . فهل معنى ذلك أن اطلاع الإدريسي على المؤلفات العربية فى الجغرافية وقف عند ذلك الحد ولم يمتد إلى ما أُلّف فى القرن الخامس

(١) انظر ، بروكلان ، تاريخ الأدب العربى ، ملحق ١ ص ٤١١ والمشكلة بعد هذا اسمه هى مشكلة اسم المؤلف كما كتبه الإدريسي ، وهو يختلف عن اسمه المعروف لدينا .
(٢) نفيس أحمد : جهود المسلمين فى الجغرافية ، ترجمة فتحي عثمان ، مجموعة الألف كتاب ،

الناشرة بدون تاريخ ، ص ٧٧

وذكر المؤلف أن الرجل كتب كتابه فى سراكش فيما بين سنتي ٣٤٠ و ٤٥٤/٩٥١—١٠٦٣ أى أنه من أهل القرنين الرابع والخامس الهجريين . وقد أخذ نفيس أحمد هذه المعلومات من بروكلان (ملحق ١/٥٠٤) ، وكلام بروكلان على صفحته : كتب أيضاً فى القرن الثالث الهجرى ، وربما يكون قد كتب فى ٩٥١/٣٤٠ وعلى أى الأحوال قبل سنة ١٠٦٣/٤٥٤ وهى سنة اختطاط مدينة سراكش ، ولم يذكرها هو فى كتابه ، وعنوانه : « آكام المرجان فى ذكر المدائن المشهورة بكل مكات » وقد اتفق الإدريسي بهذا الكتاب بصفة خاصة فى كتابه « المهج والفرج » (مخطوط بمكتبة حكيم أوغلو فى استامبول رقم ٦٨٨) . وقد وجدت نسخة من آكام المرجان فى المكتبة الأمبروسية فى الفاتيكان برقم 104 H. ونشرها مع ترجمة إيطالية أنجيلو كودازى فى روما ١٩٢٧ :

Il Compendio, geografico - arabo, pubblicato i tradotto di Angelo Codazzi, Roma 1927, Rend. d. Lincei, S. VII, vol. V, 372 - 463.

كله والنصف الأول من السادس ؟ بل حتى تلك المؤلفات التي كتبت قبل نهاية القرن الرابع ينقص منها الكثير مما نفترض أن الإدريسي لا بد أن يكون قد اطلع عليه مثل كتاب البلدان لأبي بكر أحمد بن إسحاق بن الفقيه (كتب حوالى ٢٨٩/٩٠٢) وكتاب محمد بن أبي مسلم الجزى الذى عاش وكتب فى أيام الواثق العباسى واعتمد الجيحاتى وأبو عبيد البكرى عليه فيما كتبنا عن شرقى أوربا ، ورحلة سليمان التاجر (كتبت حوالى ٢٣٧/٨٥١) التى نقلها وعلق عليها أبو زيد السيرافى (حوالى ٣٠٤/٩١٦) ووصلت إلينا ونشرها لانجليز باسم « سلسلة التواريخ » خطأ ، وكتاب الأعلام النفيسة لأبى على أحمد بن عمر ابن رسته (كتب فيما بين سنتى ٢٩٠ و ٣٠٠/٩٠٣-٩١٣) ، وكتاب رسم الربع المعمور المعروف بصورة الأرض لمحمد بن موسى الخوارزمى (كتب بعد ٢٣٢/٨٤٦) ، وغيرها كثير ، وقد اكتفيت بالإشارة إلى هذه لأنها أصول ما كان يمكن الاستغناء عنها بالنسبة لرجل كهذا تدل كتاباته على اطلاع واسع وتكوين علمى متين فى الفروع التى تخصص وكتب فيها . وإن الانسان ليدهش لغياب اسم الخوارزمى بالذات من هذه القائمة ، فهو كان فى ذلك الحين المرجع الأول لكل من تناول الرياضة والفلك والجغرافية على مذهب كلاوديوس بطلميوس ، إذ أنه كان أول من استخدم الترجمة العربية لجغرافية بطلميوس وصاغها على النحو الذى استعملها به العرب^(١) هذا إلى مؤلفاته الكثيرة فى الرياضيات .

J. Lelewel, *Geographie du Moyen Âge*, Epilogue, Paris 1852

(١) انظر :

Aldo Mieli, *La Science arabe*, pp. 14-32.

J. Ruska, *Neue Bausteine zur Geschichte der arabischen Geographie*, Geographische Zeitschrift, 1918 pp. 77 sqq.

C. Nallino, *Al-Hwarizmī e suo rifacimento della Geografia di Tolomeo*, RAL, serie V, vol. 2, 1^a, Roma 1894-95.

Afrika nach der Bearbeitung der Γεωγραφική ὁψήκη des Claudius Ptolemaeus von al-Hwarizmī, herausgegeben von H. von Mzik in Denkschrift der Wiener Akademie, 59, 4, 1916.

ولكن قارئ « نزهة المشتاق » يتبين بوضوح أن الإدريسي عرف النتائج الرياضية والجغرافية التي وصل إليها أولئك العلماء واستخدمها استخداماً صحيحاً ، ويكفي أن نعرف أنه خير من استخدم جغرافية بطليموس من العرب وغير العرب إلى أيامه ، بل هو صححها وأضاف إليها في كثير من المواضع ، ويكفي أن نتصور الطريقة التي عمل بها صورة الأرض على قطع صغيرة من الفضة ثم ضمَّ بعضها إلى بعض في شكل دائرة أو كرة ، ونقله بعد ذلك رسوم كل قطعة إلى « لوح الترسيم » كما يقول ليعمل الخرائط اللازمة لكتابه ، ثم قيامه بحساب المسافات والأبعاد واستعماله البركار وغيره من أدوات الرسم في القياس وتحديد المواقع ، ولا بد كذلك أنه كان حاذقاً في استخدام الاسطرلاب والصفحة وما إليها من أدوات القياس الفلكية ، هذا إلى معرفته بالزيج وقدرته على الانتفاع منها ، بل تصويب تقديراتها في أكثر من موضع ، وهذا كله لا يتأتى إلا بعد اطلاع واسع على مراجع أكثر من هذه الكتب القليلة التي أوردها في مقدمة كتابه .

وربما جاز لنا هنا أن نلقى شيئاً من الشك على أصالة هذه المقدمة جملة ، فإن الإدريسي لا يشير إلى نفسه أو إلى عمله في الكتاب أدنى إشارة ، فبعد فاتحة بليغة يقول : « فإن أفضل ما عني به الناظر ، واستعمل فيه الأفكار والخواطر ما سبق الملك العظيم رجار المعتز بالله المقتدر بقدرته ، ملك صقلية وإيطالية وأنكسبرده (لومبارديا) وقلورية (كالابريا) وإمام رومية الناصر للملة النصرانية . . . الخ » ثم يقول بعد ذلك : « إنه لما اتسعت أعمال مملكته ، وتزايدت هم أهل دولته . . . أحب أن يعرف كيفيات بلاده حقيقة ، ويُفكِّها يقيناً وخبرةً ، ويعلم حدودها ومسالكها براً وبحراً ، وفي أي إقليم هي ، وما يخصها من البحار والخلجان الكائنة بها ، مع معرفة غيرها من البلاد في الأقاليم السبعة التي اتفق عليها المتكلمون ، وأثبتها في الدفاتر الناقلون والمؤلفون ، وما لكل إقليم منها من قسم بلاد تحتوى عليه ويرجع إليه ويعد منه ، بطلب ما

في الكتب المؤلفة في هذا الفن من علم ذلك كله مثل كتاب...^(١) فلم يجد ذلك فيها مشروحا مستوعبا مفصلا ، بل وجده منها مغفلا ، فاحضر لديه العارفين بهذا الشأن ، فباحثهم عليه وأخذ معهم فيه ، فلم يجد عندهم علما أكثر مما في الكتب المذكورة ، فلما رآهم على مثل هذه الحال ، بعث إلى سائر بلادهم ، فاحضر العارفين بها ، المتجولين فيها ، فسألهم عنها بواسطة^(٢) جمعا وأفرادا ، فما اتفق فيه قولهم ، وصح في جمعه نقلهم أثبتته وأبقاه . وما اختلفوا فيه ألغاه وأرجاه ، وأقام في ذلك نحواً من خمس عشرة سنة ، لا يخلو نفسه في كل وقت من النظر في هذا الفن والكشف عنه ، والبحث عن حقيقته إلى أن تم له فيه ما يريده...^(٣) وهكذا يسترسل الكلام إلى آخر الفاتحة ، ثم يدخل في المقدمة الجغرافية رأساً ، فأين الادريسي من ذلك كله ؟ أين نصيبه من العمل إذا كان رجار قد فعل ذلك كله ؟ أم أنه يريد أنه هو الذي فعل ولكنه — من باب الاحترام — نسب ذلك إلى الملك ؟ الحق أنني كلما أمعنت النظر في هذه المقدمة أحسست أنها ليست للادريسي ، أو كأن شيئاً سقط منها فأصبحت وكأنها مبنية للمجهول . ولو أننا تصورنا أن هذا الناقص يقع بعد لفظ « بواسطة » كان شيئاً في معنى « العبد الفقير مؤلف هذا الكتاب أبي فلان الفلاني » لاستقام المعنى بعض الشيء ، ولأصبح ما بعد هذه الإضافة هو عمل الادريسي وهو الثابت الصحيح . ولعل الرجل بعد أن فرغ من الكتاب وجاء دور كتابة الفاتحة أحس بحرج ، إذ كيف — وهو الشريف العلوي الادريسي — يرفع كتابا إلى ملك نصراني ؟ أقصد الناحية الأسلوبية البحتة ، فإن فوائح الكتب وإهداءاتها إلى الملوك والأمراء في تلك

(١) هنا يرد ذكر الكتب التي ذكرناها آنفاً .

(٢) اقترح بعض الباحثين قراءة هذا اللفظ « بواسطتي » ولا محل لهذا التعديل ، فإن المراد أنه سألهم بواسطة مترجم .

(٣) نشر هذه المقدمة أماري في المكتبة الصقلية ، ص ١٤ وما بعدها .

الأيام كانت تتطلب الثناء المبالغ فيه وتمعظيم المهدي إليه وتواضع المهدي ، وهذا الأسلوب في التقديم معقول مقبول في المحيط الإسلامي العربي ، ولكن حالة الإدريسي فريدة ولا نظير لها ، هو ليس شاعراً مادحاً كأولئك الذين ذكرناهم ، إنما هو شريف علوي من العسير عليه جداً أن يكتب شيئاً يعيره به الناس بعد ذلك ، خاصة والقرن السادس الهجري كله كان عصر نهضة عربية إسلامية ، فالأيوبيون في المشرق والموحدون في المغرب يعملون في جد لرفع الهمم وإعلاء كلمة الإسلام ، ثم يحى الإدريسي ، وهو سليل أشرف بيوت العروبة والإسلام فينطامن ويتواضع في عبارات لا يمكن أن يؤولها خصوم بيته الحمودي على أنها مجرد عبارات تقليدية ؟ لهذا جاءت المقدمة مبهمة بالنسبة لنصيب الإدريسي ، وهي على هذه الصورة تعفيه من كل لوم . لهذا كله أعتقد أن هذه الفاتحة ليست من قلمه ، فإما أنه كتب الفاتحة بطريقته العلمية التي تتبين في قسمها الثاني ثم أضاف إليها أحد رجال البلاط من العرب ما أراد ، أو أن هذا الغير قد قام بإنشائها كلها ، وهنا نستطيع أن نجد عذراً عن هذا النقص الواضح في المراجع التي جاء ذكرها فيها .

نقول هذا لأن الباحثين تبينوا عند دراسة الأجزاء المختلفة من هذه الجغرافية أن الإدريسي رجع إلى أكثر منها بكثير ، وقد تبينت في إعداد الجزء الخاص بمصر أن الرجل رجع إلى ما كتبه أبو عبيد البكري عن مصر ، نعم إنه لم يطلع على ما كتب القضاعي وهو معاصره ، ولكن إهمال كتب المعاصرين لم يكن عيباً في تلك الأيام وخاصة فيما يتصل بالجغرافية ، فإن كتبها لم تكن تذيع كما تذيع كتب الأدب والفقه ، وكانت شهرة الكتاب فيها لا تطير إلا بعد زمن طويل .

ولكننا مع هذا كله لا نستطيع أن نفهم كيف أهمل الإدريسي مؤلفين لا يمكن أن يقال إنه لم يعرف مؤلفاتهم ، فأين مؤلفات أبي الريحان البيروني (٣٧٢ — بعد سنة ٤٤٢/٩٧٢ — ١٠٥٠) : وأين كتاب أحسن التقاسيم للقدسي

وقد كتب سنة ٣٧٥/٩٨٥) ؟ بل أين جغرافية الرازي للأندلس ؟ هل يمكن أن يذكر ابن خردادبة ولا يذكر البلخي ؟ أو يذكر العذري ويهمل الرازي ؟ نستطيع أن نفهم هذا فيما يتصل ببلاد زارها الإدريسي وعرفها بنفسه مثل مصر وآسية الصغرى والمغرب والأندلس وصقلية وجنوب إيطاليا ؛ ولكن ما عذره في إهمال البيروني ؟ بل كيف يمكن أن يقال إنه لم يسمع به وقد كان ذكره على كل لسان في نواحي الشرق العربى التى زارها الإدريسي ؟ إنما لا نذكر البيروني لمجرد أن اطلاع الإدريسي على مؤلفاته كان يعينه على إعطاء صورة للهند رايرانشهر^(١) أدق وأوفى مما نقرأ في «نزهة المشتاق» بل لأن أبا الريحان هو الرياضى الفلكى الجغرافى المسلم الوحيد الذى كان يستطيع أن يضيف إلى مفهوم الجغرافية عند الإدريسي شيئاً جديداً حقاً ، فإن نظرياته السليمة فى الفلك والجغرافية ، وآراءه فى هيئة الأرض ومعالها وتاريخها ، ثم نقده الرصين لنظريات بطليموس الاسكندري كانت كفيلة بأن تضيف للإدريسي شيئاً جديداً وتخطو بجغرافيته خطوات واسعة إلى الأمام . لقد كان البيروني كفيلاً بأن يضيف إلى جغرافية الإدريسي عمقاً ينقصها بشكل واضح ، لأن أبا الريحان بين جغرافيينا هو ابن خلدون بين مؤرخينا ، وكما لم ينتفع بأنظار ابن خلدون إلا تلاميذه المقربون مثل تقى الدين أحمد بن على المقرئى ، فإن الذين انتفعوا بكلام البيروني من جغرافيينا قليلون جداً^(٢) .

ولكن ، يبدو لنا أن الإدريسي بعد أن قرأ ما قرأ من كتب الجغرافية والفلك ، وبعد أن ساح فى البلاد على قدر ما استطاع ، بدأ يرسم فى ذهنه

(١) مصطلح جغرافى يراد به عند ياقوت الأراضى التى تضم العراق وفارس والجهال وخراسان ، وعند ابن رسته : خراسان وسجستان وكرمان وفارس والأهواز والجهال وأذربيجان والموصل والجزيرة

انظر : Wadie Jwaideh, *The introductory chapters of Yāqūt's Mu'djam al-Buldān* (Laiden, : Brill, 1959) p. 40, n°. 2

(٢) راجع عن آراء البيروني ونظرياته ما يقوله نفيس أحمد فى « جهود المسلمين فى الجغرافية » ترجمة فتحى عثمان ، ص ٦٤ وما بعدها ، وص ٢٤٢ وما بعدها .

تصور جديد للجغرافية الأرض ومنهج جديد لكتابتها؛ تصور يختلف تمام الاختلاف عما سبقه إلى ذلك الحين : تصور عام يشمل الأرض كلها على أنها كُـلٌّ واحد كل ما فيه جدير بالوصف والتحقيق ، فلا يقتصر التحقيق على حوض البحر الأبيض كما عند بطليموس أو على عالم الاسلام كما عند معظم جغرافيين العرب إلى ذلك الحين ، تصور جغرافي خالص لا يختلط بالتاريخ هذا الاختلاط الذي جعل الكثير من كتب الجغرافية كتب تاريخ أيضاً كما نجد عند أبي عبيد البكري ، ولا يخلط بين الحقيقة والاسطورة كما نجد عند الهمداني : تصور جغرافي علمي خالص . وبناء على هذا التصور رسم منهجه : منهج مشاهدة وقياس ومقارنة وربط بين الأجزاء بعضها بعض ومراعاة النسب بينها ، وعمل صورة كاملة للأرض ثم كتابة وصف كامل لهذه الصورة يشمل وصف هيئتها العامة وتقسيمها بعد ذلك إلى مناطق يستقصى الكلام عنها في تفصيل ويجمع عنها كل ما تيسر له من المعلومات ، فما شهدته بنفسه أثبتته كما رآه ، وما لم يشهده سأل عنه أهله ومن رحلوا إليه وساروا في طريقه أو أبحروا في أمواجه أو اشتغلوا بالتجارة فيه . ويستكمل ذلك بما عسي أن يجده في كتب الجغرافية التي تيسر له . ولا نبالغ إذا قلنا إنه رسم منهجه كما يرسمه أي جغرافي معاصر ، فإن الذي يتصدى اليوم لكتابة جغرافية المغرب مثلاً لا يبدأ بقراءة أبي عبيد البكري بل ينظر أولاً في كتب المساحة والإحصائيات والدراسات الجزئية عن الجغرافية الطبيعية ثم البشرية ، ويعتمد أولاً وقبل كل شيء على المصورات الجغرافية والأوروجرافية ورسوم القطاعات وبيانات مراكز الارصاد وما إلى ذلك .

وليس معنى هذا أن الإدريسي فكر في هذه العناصر كلها وهو يرسم منهجه الجغرافي ، فإن تصور الجغرافية على هذا النحو لم يولد إلا بعد عصره بقرون ، ولكنه على أي حال فكر في منهج جديد أو بتعبير أدق : سار في طريق جديد ، هو الطريق الذي وصل بالجغرافية إلى ما هي عليه اليوم ، وتطلب

منه السير في ذلك الطريق عناصر لم يجدها فيما بين يديه من الكتب ، لا مصورات عامة أو جزئية دقيقة ولا قياسات يمكن التعويل عليها ، ولا أوصاف للنواحي يمكن الاعتماد عليها ، ولا تفاصيل موثوق فيها كل الثقة عن أجناس البشر ومصادر ثروتهم وميادين نشاطهم وإنتاجهم . وكان عليه أن يبدأ هو بذلك ، فقرر أولاً أن يرسم صورة شاملة للأرض حتى يسير على خطة واضحة في عمله ، ثم قسم هذه الخريطة إلى أقسام صغيرة ، ومضى يبحث المعلومات الموجودة عن كل قسم ويحققها بسؤال من يعرفونها ومقارنة أقوال بعضهم ببعض واستخراج شيء يمكنه الاطمئنان إليه من ذلك كله .

وهذا كله يعطينا فكرة عن المشاكل التي واجهت الإدريسي عند ما شرع في تخطيط جغرافيته ، والطريقة التي لجأ إليها في علاج هذه المشاكل ، فهذا رجل تنبه في أوائل القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي إلى المشاكل التي واجهها الجغرافيون المحدثون في القرن الثامن عشر الميلادي ، واجتهد في حلها بالوسائل التي كانت في استطاعته ، ومن الواضح أنها مشاكل لا يستطيع حلها رجل واحد ، إذ الأمر يحتاج إلى هيئة أو دولة تؤيده وتعينه ، وقد وجد بعض هذا التأييد عند رجار الثاني ، فأمدّه بالمال وهياً له وسائل العمل ، وأضفى عليه حاية الدولة ووسائلها ، فلم يلبث مشروعه أن خرج إلى حيز الوجود ، وأياً كانت الملاحظات التي أبداه العلماء على جغرافيته ، سواء بالنسبة لتصوره الجغرافي العام أو للأوصاف الجزئية أو أبعاد البلاد وأطوال الطرق أو مواقع المدن وحدود النواحي ، فإنه يكفي الإدريسي أنه أول من تصدى لعمل جغرافية كاملة للككرة الأرضية معتمداً على أساس علمي تجريبي ، ووفق في ذلك إلى حد كبير ، فهو من ناحية القمة التي وصل إليها العلم الجغرافي في العصور القديمة والوسيلة ومن ناحية أخرى أول جغرافي حديث .

وقد بنى الإدريسي جغرافيته على مفهومات علمية صحيحة مثل كروية الأرض وخط الاستواء والأقاليم المناخية التي تتدرج من ذلك الخط إلى القطب واستطراق

بحار العالم الكبرى بعضها إلى بعض وتعادل منسوب الماء فيها والبحر وأثره في المناخ والجبال ودورها في تكييف الجو وتوجيه الرياح وسقوط الأمطار وما إلى ذلك . وأيا كان حكمنا اليوم على هذه المفهومات فقد كانت ثابتة في رأيه لا يشك فيها ، ففكرية الأرض عنده ثابتة لا شك فيها ، ومن هنا فهو لا يعرض نظريات أخرى في صورة الأرض ويترك للقارئ أن يختار ما يراه منها كما فعل ياقوت^(١) ، وخط الاستواء عنده مفهوم جغرافي ثابت يبنى عليه تقسيمه للأرض إلى أقاليم ، وهو لا يتردد بين خطوط مختلفة ليتخذ منها خطأ رئيسياً يبنى تقسيمه عليه ، وإنما يتخذ الخط المار بالجزائر الخالدات ويثبت عنده . ومعظم هذه المفهومات الأساسية التي ثبت عندها صحيح ، ومن هنا فإن معظم النتائج التي وصل إليها صحيحة سابقة لعصره بمراحل رغم ما تبين من خطأ بعضها بعد ذلك بقرون ، كاعتقاده بثبات الأرض وسط قبة الفلك ودوران الكواكب الأخرى حولها ، وقوله بأن هناك جبلا عظيماً محيطاً بالأرض كلها يسمى جبل قاف ، وهو معذور في هذه الأخطاء ، إذ كيف كان يستطيع أن يتبين أن جبل قاف خرافة إذا كان الناس لم يصلوا إلى آخر الأرض ويتبينوا ذلك إلا بعد ذلك بقرون كثيرة ؟ ونستطيع أن نتبع المنهج الذي تصوره الإدريسي لعمل جغرافيته للأرض ، ثم سار عليه بعد ذلك بدقة فيما يلي :

١ — فيما يتصل بالخريطة العامة الأساسية اعتمد الإدريسي على خريطة بطليموس^(٢) ، لأنها تشمل الأرض كلها ، ولا يبعد أن يكون قد بدأ بنقلها

(١) ياقوت ، معجم البلدان ، طبعة القاهرة سنة ١٩٠٧ ، ج ١ ص ١٣ وما بعدها ، وراجع الترجمة الانجليزية لمقدمة ياقوت بقلم وديع جويده ، ص ١٩ وما يليها .
(٢) يذهب كوراد ميلر في مقدمة مجموعة الحرائط العربية التي قام بنشرها إلى أن الإدريسي لم يعتمد على خرائط بطليموس بصورة مباشرة ، بل على نسخ منها قام بعملها مريينوس الصوري ، وربما كان هذا صحيحاً . فسرى بعد قليل أن الغالب أن الحرائط الجغرافية التي رسمها بطليموس وجعلها الجزء السابع من كتابه في الجغرافية قد ضاعت من زمن بعيد ، وربما تكون خريطة مريينوس الصوري قد اعتبرت بدلا منها . وأخذها الإدريسي على أنها لبطليموس نفسه .

مكبدة لكي يستطيع بعد ذلك إدخال ما يرى من التعديلات عليها . ولكن بطليموس كان يتصور الأرض مسطحة ، وقد رسم خريطته على هذا الأساس ، فكان على الإدريسي أن يعدل الرسم على أساس كروية الأرض ، ويبدو أن الطريقة التي لجأ إليها في ذلك هي التي تحدثت عنها مادة « إلاف بالوفيات » حديثاً مبهماً كما يلي : « وهو — أى رجاء — هو الذى استقدم الشريف الإدريسي صاحب كتاب نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » من الدولة ، ليصنع له شيئاً فى شكل صورة العالم ، فلما وصل إليه أكرم نزهة وبالغ فى تعظيمه ، فطلب منه شيئاً من المعادن ليصنع منه ما يريد ، فحمل إليه من الفضة الحَجَر (أى الخام) وزن ٤٠٠٠٠٠ درهم ، فصنع فيه دوائر كهيئة الأفلاك ، وركب بعضها على بعض ثم شكلها له على الوضع المخصوص^(١) ، وتفسير هذه العبارة فيما أرى أن الإدريسي أراد أن يحول الرسم المسطح إلى رسم ينطبق على كرة ، فأتى بصفائح فضة ورسم على كل منها ما رسمه بطليموس فى كل من الأقاليم السبعة ، ثم أتى بكرة — من الخشب مثلاً — فى الحجم المطلوب ، ثم أدار حول نصفها الأعلى ابتداء من خط الاستواء الصفيحة الأولى التى تمثل الإقليم الأول ، ثم أدار صفيحة الإقليم الثانى فالثالث وهكذا إلى السابع (دوائر على هيئة الأفلاك وركب بعضها على بعض ثم شكلها على الوجه المخصوص) ، وعبارة « شكلها على الوجه المخصوص » يراد بها أنه قَطَعَ من صفائح الفضة ما تطلبه تطبيق الصفائح على وجه الكرة ، وقد يكون الإدريسي قد فعل هذا مستعملاً شيئاً غير الفضة — الورق مثلاً — واختلط الأمر على الصفى أو من نقل عنه فلما تم الأمر على الورق نقله على صفائح الفضة .

ولا بد أن هذا التطبيق اقتضى من الإدريسي عمليات حسابية كبيرة ، لأن

(١) المكتبة الصقلية ، ص ٦٥٧ — ٦٥٨

المسألة لم تكن مجرد قطع الزائد من صفائح الفضة أو الورق ، بل حساب ذلك القطع بحسب ما تقتضيه الانحناءات ثم تعريضه .

٢ — ووجد الإدريسي بعد ذلك أن بطليموس يكتفى بتقسيم الأرض إلى أقاليم أى مناطق عرضية ، والمنطقة الواحدة تدور حول الكرة كلها دون حدود ، مما يصعب معه توقيع الأماكن والأعلام الجغرافية بالدقة ، قسم محيط الكرة طولاً إلى عشرة أجزاء متساوية بخطوط تبدأ من قطب الكرة الأعلى وتنتهى عند قطبها الأسفل ، على طريقة خطوط الطول اليوم ، وبهذا حصل على مستطيلات ، كل منها يضم مساحة معينة من الأرض وما يقع فيها من الأقطار والمعالم الجغرافية .

أما الأطوال قبل الإدريسي فكانت أطوالاً فلكية لا جغرافية ، بمعنى أن الفلكيين قسموا قبة الفلك فوق الأرض إلى ٣٦٠ درجة ثم حرروا ما يمكن أن يقع مقابل كل خط من مدن الأرض ، وقد جعلوا هذا التقسيم بالنسبة لمحيط الأرض عند خط الاستواء ، وقالوا إن الدرجة تعدل ٢٥ فرسخاً ، وتصوروا أن خطوط الطول هذه خطوط مستقيمة متوازية ، ثم أنهم اختلفوا حول خط الطول الذى يتخذ أساساً للحساب (كما نقول نحن خط جرينيتش اليوم) فذهب اليونان إلى أنه الخط المار بساحل المحيط الأطلسي ، وذهب آخرون إلى أنه الخط المار بجزائر السعادات أو فورتوناتوس ، ولا نعلم على وجه التحديد إن كان المراد بها جزائر الكنفارياس أو جزائر الأزورس ، أما الهنود والفرس فقد اتخذوا الخط المار بما يسمى قبة أرين أو قبة العرين ، ولا ندرى إن كانت في الهند أو في جزيرة في المحيط الهندي على خط الاستواء ، والنتيجة أن خطوط الطول هذه كانت خطوطاً وهمية فلكية لا تعين على شيء ، وقد أشار إلى ذلك أبو الريحان البيروني^(١) .

(١) راجع كلامه عند ياقوت ، معجم البلدان ، ٣٩/١

أما هذه الأطوال التي ابتكرها الإدريسي فخطوط تقسيم محدودة المعالم على خريطته ، وهي وسيلة عملية واضحة الفائدة بالنسبة لمن يستعمل هذه الخرائط ، وقد اتخذ الخط الرئيسي ذلك المار بالجزائر الخالدات في المحيط الأطلسي متابعاً في ذلك بطليموس .

٣ - وإلى جانب ذلك أخذ الإدريسي بخطوط العرض المعروفة ، قسم المسافة بين خط الاستواء والقطب الشمالي إلى تسعين جزءاً ، وسمى كل قسم درجة ، وقد فعل ذلك بطريق الحساب ، في حين كان القدماء يقسمون قبة الفلك نفسها إلى ٣٦٠ درجة ، لكل نصف من نصفها ١٨٠ درجة ثم يحاولون ضبط مواضع المدن بالنسبة لبروج الفلك ، فكان التقسيم والتوقيع لهذا غير دقيقين ، ومع أن تقسيم الإدريسي لم يكن دقيقاً كل الدقة ، لأنه حسب للدرجة ٧٥ ميلاً تقريباً ، إلا أنه مقارب للواقع بل أقرب إلى المعقول من التقسيم الفلكي الخالص ، ومن الممكن قياس الدرجات بالمقاييس العادية على حسابه ، وبهذا أمكنه أن يرسم على خريطته بالإضافة إلى حدود الأقاليم خطوط عرض يفصل بين كل منها والذي يليه شمالاً وجنوباً ٧٥ ميلاً تقريباً . ومن أسف أنه لم يضع خطوط العرض هذه على خرائط الأقاليم التي استخرجها من خريطة العالم التي رسمها .

٤ - وعندما ضبط الإدريسي توزيع البلاد على خطوط العرض على هذه الصورة تبين له أن بطليموس لم يستوف نواحي المعمور من ناحية ، وأخطأ في وضع نواح في غير أقاليمها من ناحية أخرى ، فقد وجدته ينتهي في الشمال إلى الجزر البريطانية ، في آخر الإقليم السادس ، ولا يضع بعد ذلك شيئاً ، فأكمل الجزر البريطانية وبلاد شمال أوروبا حتى فنلندا وشمال روسيا وبلاد اللاب Lappland ووضع ذلك كله في الإقليم السابع ، وقال في النص إن أقصى المعمور يصل إلى درجة ٦٨ شمالاً في حين أن هذه النواحي القاصية تصل في

خرائطه إلى نحو درجة ٧٢ شمالاً ، ومن هذا الخط الأخير إلى القطب لم يضع شيئاً على الخريطة ، لأنها بحسب ما انتهى إليه علمه بلاد شديدة البرودة لا تسكن . وفيما يتصل بجنوب خط الاستواء ، وجد أن بطليموس لا يتعداه قائلاً أن وراء ذلك بلاداً غير مسكونة بسبب شدة الحرارة ، فصوب الإدريسي ذلك ، ومد العمران لإقليمها وحسّن جنوب خط الاستواء ، ليضع فيه جزيرة سرنديب وما وصل إلى علمه من جزائر بحر الهند ، ثم منابع النيل و منابع نهر النيجر ، وهو عنده نيل السودان ، ولم يضع بعد ذلك إلى الغرب شيئاً ، وإنما رسم مساحة أرضية واسعة غير واضحة الحدود ، وقال إنها بلاد غير مسكونة لشدة الحرارة وانعدام الرطوبة وقال : « ولم يقع في قسم القسم الغربي وراء خط الاستواء بحرٌ يؤثر فيه هذا التأثير ، فبقى على كيفية طبعه من اليُس ، لا يمكن به نباتُ نباتٍ ولا حياةٌ حيوان » .

٥ — بعد هذا نزع الإدريسي هذه الصفائح أو الأوراق وبسطها ، وقام بالعملية التي قام بها مراكاتور في أواسط القرن السادس عشر الميلادي ، أي حوّل الخريطة الكروية إلى خريطة مسطحة ، مراعيًا في ذلك كل العمليات الحسابية والرياضية التي يقتضيها ذلك التحويل ، وهنا تظهر عبقرية الشريف الإدريسي ، لا كرياضي جغرافي فحسب ، بل كمجدد وصاحب نظر حصيف ومفكر سابق لأوانه^(١) ، فإن تحويله جاء من الدقة بحيث أنه عندما عمل بعد

Konrad Miller, *Mappae Arabicae, Arabische Welt und Landeskarten*, (6 vols. (١) Stuttgart 1926-1928) 1, 2, p. 53.

O. J. Tuulio, *Le géographe arabe Idrîsî et la topographie baltique*, Ann. Soc. Fenn. B, XXX, 2, 1934.

وقد عاد توليو إلى هذا الرأي في أبحاثه الأخرى عن الإدريسي ، أنظر له : *Du Mouveau sur Idrisi* وهو بحث أشر في نفس الصحيفة (حوليات الجمعية الشرقية الفنلندية)

مجلد ٧ قسماً ٣ و ٤ ، وانظر أيضاً :

O. J. Tallgren - Tuulio et M. Tallgren, *La Finlande et les autres pays baltiques orientaux* (Geographie VII, 4). Edition critique du texte arabe, avec facsimilés de tous les Manuscrits connus, traduction, étude de la toponomie, aperçu historiques, cartes et gravures ainsi qu'un appendice donnant le text de VII 3 et VII 5, dans *Studia Orientalia*, Helsinki 1930.

ذلك كرة أرضية من الفضة وجعل النقاشين والرسمين ينقلون على مستطيلاتهما محتويات كل مستطيل من مستطيلات الخريطة المسطحة ، جاء النقل دقيقاً كل الدقة ، فجاء كل بلد أو علم جغرافى فى موضعه وهذه الخريطة المسطحة هى التى يسميها الإدريسي لوح الرسم .

ونظن أن عمل لوح الرسم هذا وتحقيقه ووضع أسماء المواضع عليه هو الذى استنفد معظم الوقت الذى قضاه الإدريسي فى هذا العمل ، فقد قرأ أولاً ما كتبه بطليموس وحقق المواضع الواردة فى نصه على خريطته — أى خريطة بطليموس — واستكملها ، ثم أعاد قراءة ما لديه من كتب الجغرافية عن كل ناحية ووقع ما فيها من الاعلام على لوح الرسم ، ثم عمد بعد ذلك إلى تحقيق ذلك كله « فوق اختيارها — أى الإدريسي ورجار — على أناس ألباء فطناء أذكاء ، وجهزم رجار إلى أقاليم الشرق والغرب جنوباً وشمالاً ، وسفر معهم قوماً مصورين ليصوروا ما يشاهدونه عياناً ، وأسرهم بالتقصى والاستيعاب لما لا بد من معرفته ، فكان إذا حضر أحد منهم بشكل أثبتته الشريف الإدريسي حتى تكامل له ما أراد »^(١) . وينبغى أن نضيف هنا أن الإدريسي لم يعتمد فقط على أولئك الذين يصفهم الصفدى بأنهم « ألباء فطناء » بل اعتمد فى كثير من الأحيان على تجار أو سفّار من أهل تلك النواحي أو من جابوا أقطارها وبجاراتها ، وليس من الضرورى أن يكون التجار والسفّار والملاحين عارفين بالمواقع الدقيقة للبلاد واتجاهات الأنهار وفروعها والبحار وخليجاتها وأبعادها ، ومنهم من يقدر المسافات بالمراحل (جمع مرحلة وهى مسيرة يوم على ظهور الدواب ، والبغال تقطع فى اليوم ما بين ٣٥ و ٤٥ كيلومتراً) ومنهم من قدر بالميل الرومانى (وهو نحو ١٤٨١ متراً) ، ومنهم من قدر بالميل العربى (وطوله كما يتبين من قياسات الإدريسي يتراوح بين كيلومتر و كيلومترين) ومنهم من قدر بالميل

(١) الصفدى ، الوافى بالوفيات ، قطعة نشرها أمارى فى المكتبة الصقلية ، ص ٦٥٨

البحرى (وطوله نحو ٢٠٠٠ متراً) ، أو بالجرى (وهو المسافة التى تقطعها السفينة الشراعية فى البحر فى يوم ، وهذه المسافة تتراوح بين ٤٠ و ٥٠ كيلومتراً) ، ونتيجة ذلك أن وقعت فى لوح الرسم مفارقات جسيمة فى تقديرات الأبعاد والاتجاهات . فأما فيما يتصل بالأولى وهى الأبعاد فقد كان على الإدريسي أن يحوّل كل بُعد منها إلى مقياس الرسم ، ثم يوقمه على الخريطة مستعيناً « بآلات الحديد » والمراد بها البركار والمثلث والمسطرة وما إليها . وكان عليه فى كل حالة أن يحسب البعد الصحيح للموقع بالنسبة للمستطيل الذى يقع فيه أولاً ، ثم بالنسبة للخريطة كلها .

وقد وصف لنا الإدريسي نفسه ما لقيه من العناء فى ذلك العمل حين قال : « ... فأحضر لديه العارفين بهذا الشأن ، فباحثهم عليه ، وأخذ معهم فيه ، فلم يجد عندهم علماً أكثر مما فى الكتب المذكورة ، فلما رأهم على مثل هذه الحال بعث إلى سائر بلادهم ، فأحضر العارفين بها المتحولين فيها ، فسألهم عنها بواسطة^(١) جمعاً وأفراداً ، فما اتفق فيه قولهم ، وصحّ فى جمعه نقلهم أثبتته وأبقاه ، وما اختلفوا فيه ألغاه وأرجاه ، وأقام فى ذلك نحو من خمس عشرة سنة ، لا يُخَلِّي نفسه فى كل وقت من النظر فى هذا الفن ، والكشف عنه والبحث عن حقيقته إلى أن تم له فيه ما يريد . ثم أراد أن يعلم^(٢) يقيناً صحة ما اتفق عليه القوم المشار إليهم فى ذكر أطوال مسافات البلاد وعروضها ، فأحضر إليه لوح الترسيم ، وأقبل يختبرها بمقاييس من حديد شيئاً فشيئاً ، مع نظره فى الكتب المقدم ذكرها ، وترجيحه بين أقوال مؤلفيها وأمعن النظر فى جميعها^(٣) حتى وقف على الحقيقة فيها...^(٤) » .

(١) هذا هو اللفظ الذى أشرنا إليه آنفاً وقلنا ان بعده شيئاً ناقصاً ، وقد اقترح بعضهم تصويبه إلى « بواسطتي » .

(٢) فى الأصل « يستعلم » والقراءة التى أثبتناها واردة فى إحدى النسخ التى رجع إليها أمارى .

(٣) فى الأصل « جمعها » والصورة التى أثبتناها أوفق للسياق .

(٤) فاتحة نزهة المشتاق ، المكتبة الصقلية ، ص ١٨ .

وقول الإدريسي « فأحضر إليه لوح الترسيم ، وأقبل يختبرها بمقاييس من حديد شيئاً فشيئاً » تقتضى أن لوح الترسيم هذا كان قد أُعِدَّ قبلاً وأن الإدريسي مضى يحقق عليه أقوال الكتب والرحالة ويختبره بمقاييس الحديد ، أى بآلات القياس التى ذكرناها .

وجدير بالملاحظة أن إنشاء لوح الرسم هذا واستكمالها أعان الإدريسي على تصحيح كثير من المفهومات القديمة ورسمها على نحو قريب من الحقيقة ، مثال ذلك أن شبه الجزيرة الإيبيرية موصوف في النص على أنه مثلث الشكل اتباعاً للرأى القديم الذى أشرنا إليه ، فإذا نظرنا إلى خريطة الجزأين الأول والثانى من الإقليم الرابع وجزء من الإقليم السادس كما نشرها ميلر لاحظنا أن شبه الجزيرة لا يبدو مثلثاً ، بل على صورة قريبة جداً من هيئته فى الحقيقة .

ولوح الرسم أو الترسيم هذا هو الذى نقل الإدريسي رسمه على الكرة الفضية كما سنرى ، وهو الذى نقله أجزاء فى كتاب نزهة المشتاق ، والشائع أنه ضاع ولم يبق له أثر ، وهو بالفعل قد ضاع كما ضاعت الكرة الفضية ، ولكن بقيت منه صورة نقلها بعضهم سنة ١١٩٢ (٥٨٨ هـ) فى صقلية ، ومن حسن الحظ أن هذه الصورة بقيت ، ونشرها كونراد ميلر فى مجموعته المسماة « الخرائط العربية^(١) » وهى التى تصور مستوى الإدريسي فى رسم الخرائط . أما الخرائط الصغيرة الواردة فى مخطوطات « نزهة المشتاق » فقد أصابها تحريف شديد بسبب كثرة النقل وقلة مهارة النساخين فى نقل الرسوم ، وأمضى الآن خرائط مصر فى ٧ مخطوطات لا تكاد إحداها تتفق مع الأخرى تمام الاتفاق .

٦ — فإذا تم هذا التحقيق المنعقد قام الإدريسي بخطوة أخرى لا تقل عسراً ، وهى نقل لوح الترسيم هذا على كرة أرضية ، ونحن نذكر لفظ كرة

(١) Konrad Miller, *Mappee Arabicae* خريطة الجزأين الأول والثانى من الإقليم الرابع

وجزاء من كل من الاتليين الثالث والخامس .

هنا لأنه أقرب إلى تصورنا لا لأنه ثابت ، لأن الإدريسي نفسه يقول : « فأمر عند ذلك أن يفرغ له من الفضة الخالصة دائرة مفصلة عظيمة الجرم ضخمة الجسم في وزن أربعائة رطل بالرومي ، في كل رطل منها ١١٢ درهماً » ولا نفهم المراد هنا بلفظ « دائرة » ، لأن الدائرة غير الكرة ، والإدريسي رجل دقيق ، فلماذا لم يستعمل هذا اللفظ الأخير ؟ أما الصفدي فيقول : « ليصنع له شيئاً في شكل صورة العالم » وصورة العالم في رأى الإدريسي كرة . ثم إن قول الإدريسي « دائرة عظيمة الجرم ضخمة الجسم » يفهم منه أن الذي نُحْمِلَ كان شيئاً ضخماً عظيم الجرم ، لا مجرد صفيحة مبسوطة . ومع أن هناك خلافاً في تقدير الفضة التي دخلت في ذلك العمل بين ما يقوله الإدريسي وما يذكره الصفدي ، فقد أخذ سكياباريلى بقول الإدريسي ، فحسب دراهم الفضة التي ذكرها وهي ٤٤٨٠٠ درهماً وقال إنها تزن ١٥٠ كيلوجراماً^(١) ، وذهب ميلر إلى أن الذي صنع كان صفيحة لا كرة ، وقدر سمكها بثلاثة مليمترات ، وعلى هذا الأساس قدر أبعادها : ٣,٥ متراً في الطول و ١,٥ في العرض .

وأيّاً كان شكل الصورة الأخيرة لخريطة الإدريسي ، فقد وصف لنا بنفسه طريقة تنفيذها ، قال : « فأمر عند ذلك أن يفرغ له من الفضة الخالصة دائرة مفصلة عظيمة الجرم ضخمة الجسم في وزن ٤٠٠ رطل بالرومي ، في كل رطل منها ١١٢ درهماً ، فلما كملت أمر الفعلة أن ينقشوا فيها صور الأقاليم السبعة ببلادها وأقطارها وسيفها وريفها ، وخليجاتها وبحارها وبحارها ومياهها ومواقع أنهارها ، وعامرها وغامرها ، وما بين كل بلدين منها وبين غيرها من الطرقات المطروقة والأمينال المحدودة ، والمسافات المشهودة ، والمراسى المعروفة ،

Luigi Schiaparelli, *L'Italia descritta nel Libro del Re Ruggero* Compilato da (١) Edrisi - *Ralazione preceduta da un quadro degli studi geografici in Occidente dall principio dell Impero romano al secolo XIII*, Torino 1883.

على نص ما يخرج إليهم ممثلاً في لوح الترسيم ، ولا يغادروا منه شيئاً ، ويأتوا به على هيئته وشكله كما يرسم لهم فيه .

ومعنى هذا أن «لوح الترسيم» أو الخريطة التي صنعها نقلت على الفضة بغاية الدقة مُبَيَّنًا فيها : حدود الأقاليم السبعة — الأقطار الواقعة في كل منها — شواطئ هذه الأقطار وأراضيها — ما في هذه الشواطئ من الخلجان وما تطل عليه من البحار — مجارى المياه ومنابعها ، أى وديان الأنهار وأحواضها والعيون والآبار والأراضي المزروعة المسكونة والأراضي القاحلة أو الصحراوية غير المسكونة — المدن والمسافات بينها — الطرق المستعملة بين المدن والأقطار مبينة بالأميال أو غيرها من المقاييس المستعملة — الموانئ المعروفة .

٧ — وإكمالاً لهذا العمل كان لابد من تأليف كتاب مطول يشرح هذه الخريطة : «وأن يؤلفوا كتاباً مطابقاً لما في أشكالها وصورها ، غير أنه يزيد عليها بوصف أحوال البلاد والأرضين في خلقها وبقائها وأماكنها وصورها وبحارها وجبالها وأنهارها ومسافاتها^(١) ومزروعاتها وغللاتها ، وأجناس نباتها وخواصها ، والاستعمالات التي تستعمل بها ، والصناعات التي تنفق بها ، والتجارات التي تجلب إليها وتحمل منها ، والعجائب التي تذكر عنها وتنسب إليها ، وحيث هي في الأقاليم السبعة ، مع ذكر أحوال أهلها ، وهيئاتهم وخلقهم ومذاهبهم وزينتهم^(٢) وملابسهم ولغاتهم ، وأن يسمى هذا الكتاب «بنزهة المشتاق في اختراق الآفاق» ، وكان ذلك في العشر الأوائل من يناير الموافق لشهر شوال الكائن في سنة ٤٥٨ هـ ، فامُثِّلَ فيه الأمر ، وارتُسم فيه الرسم ، وأول ما ابتدئ به الكلام على صورة الأرض ...^(٣)» .

(١) في الأصل ومماواتها ، ولا معنى له . والصورة التي أُنْتُبِتْها وردت في أحد المخطوطات التي رجع إليها أماري ، وفي مخطوطة أخرى : ومواتها .

(٢) في الأصل : وزينهم ، وهو جائز في معنى ما أُنْتُبِتْناه .

(٣) المكتبة الصقلية ، ص ١٨ — ١٩ .

ومعنى هذا أن الإدريسي رسم خطة كتابه على أن يكون جغرافية طبيعية وبشرية كاملة للعالم أجمع ، وتخطيطه هنا — إذا أضفنا إليه ما ورد من التفاصيل بشأن الخريطة — مفهوم كامل علمي سليم . وقد سبق الإدريسي إلى مثل هذا المنهج المقدسي ، ولكن الفرق في التنفيذ بين الاثنين واسع جداً ، فعلى حين أن المقدسي لم يحقق مما وعد به في فاتحة كتابه إلا جانباً يسيراً جداً ، نجد الإدريسي حققه كاملاً في كتابه ، فأورد وصف كل جزء من جغرافيته بطريقة علمية موضوعية خالصة كما يكتب أى باحث جغرافي اليوم كما سنرى في الفقرة التالية .

عمل الإدريسي وعلاقته بما قبله

على رغم قلة المؤلفات الجغرافية الوارد ذكرها في فاتحة نزهة المشتاق يلاحظ بوضوح أن عمله — سواء في الخرائط أو في نص نزهة المشتاق — يمثل كل المدارس الجغرافية العربية والإسلامية التي ظهرت إلى عصره في الشرق أو الغرب الإسلاميين ، فإن أخذَه بنظرية الأفاليم السبعة واتباعه إياها يدل على أنه عرف الترجمات العربية لجغرافية بطليموس واطلع في الأغلب على أحسن ترجمة لها ، وهي التي قام بها ابن خردادبة ، ولم تصل إلينا هذه الترجمة ، ولكن ابن خردادبة يقول في فاتحة كتابه أنه اعتمد عليها في تصنيف كتابه « المسالك والممالك » ، ولو أننا استطعنا الحصول على أصل هذا الكتاب لتبينت لنا العلاقة بين الإدريسي وهذا الرائد الجغرافي بصورة أوضح ، ولكننا لا نملك إلا المختصر الذي نشره دى خوية . وتدل مناقشة الإدريسي لآراء بطليموس في بعض الفصول الأولى من « نزهة المشتاق » على أنه أطلع على كتاب « صورة الأرض » لمحمد بن موسى الخوارزمي دون أن يقتنع باتجاهه الفلكي في الجغرافية . ومن الواضح أن الخوارزمي ومدرسته كان لهما تأثير قليل في سير العلم الجغرافي عند المسلمين ، حتى إن المقدسي عند ما استعرض كتب الجغرافيين السابقين عليه

ونقدها لم يشر إلى الخوارزمي أو أحد من تلاميذه . وربما كان السبب في قلة احتفاله بآراء هذه المدرسة أنه اطلع عليها كما عرضها المسعودي في كتبه ، وقد كانت هذه الآراء قد فقدت كل أساسها الرياضى والفلكى وأصبحت مجرد جداول جافة بالأطوال والعروض ، ومن نتائج ذلك أن عَسُرَ تطبيقها على المؤلفين حتى لقد قال المسعودي إن جميع المدائن الكبرى في العالم تقع على خط عرض واحد^(١) ، ثم إن الرسوم الواردة في ذلك الكتاب لا تعد — باستثناء خريطة النيل — خرائط جغرافية ، إنما هي رسوم توضيحية للنص فحسب . ويبدو أن الإدريسي باتجاهه العملى الواقعى ، استبعد من أول الأمر تلك المؤلفات الفلكية ، لأنها لا تفيد فيما كان يطلبه من وصف البلاد وتحديد مواقعها على صورة تطابق الواقع^(٢) .

أما المدرسة التى سار الإدريسي فى طريقها ووصل بعملها إلى قمتها فهى مدرسة البلدانين والمسالكين : مدرسة أبى القاسم عبيد الله بن عبد الله ابن خرداذبة وأبى العباس جعفر بن محمد المروزى (توفى سنة ٢٧٤/٨٧٧) وأحمد بن محمد بن مطيب السرخسى (توفى ٢٨٦/٨٨٩) وأحمد بن أبى يعقوب ابن جعفر بن واضح اليعقوبى (توفى ٢٨٤/٨٩٧) ، وغيرهم ممن لم يأخذوا من الفلكيين إلا مفاهيم عامة مثل تقسيم الأرض إلى الأقاليم السبعة ووقوع بعض البلاد على أفلاك بعض النجوم وأثر ذلك فى الأخلاق والمزاج ، ثم اعتمدوا بعد ذلك فى بناء صلب كتبهم على أقوال الرحالة والنجار وأهل البلاد وقوائم الخراج

(١) نشر كتاب صورة الأرض للخوارزمي هـ. فون مزيك H. V. Mzik سنة ١٩٢٦ .

والظر مادة «جغرافية» فى ملحق دائرة المعارف الاسلامية (الطبعة الأولى) ص ٦٨ .

(٢) انظر عن هذه المدرسة الفلكية وتقدير قيمة أعمالها :

Ahmad Zaki Walidī, *Der Islam und die Geographische Wissenschaft, Geographische Zeitschrift*, 1934, p. 361 sqq.

George Sarton, *Introduction to the History of Science*, vol. II, Baltimore, 1927-1931.

ووثائق الدولة إذا أمكن ، وذلك واضح من تفصيل منهج الإدريسي كما يتبين في فاتحة كتابه التي أتينا بمعظم فقراتها .

ويتجلى ذلك بصورة أوضح إذا نحن قارنا طريقة الإدريسي في نزهة المشتاق بطريقة المسالكين والبلدانيين من أهل القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) مثل أبي بكر بن محمد بن إسحق بن الفقيه المعروف بالهمداني (ألف كتابه البلدان سنة ٢٩١/٩٠٢ على الأغلب ، وليس لدينا إلا مختصره الذي عمله جعفر ابن علي الشيرازي سنة ٤١٣/١٠٢٢) وأبي الفرج قدامة ابن جعفر المتوفى سنة ٣١٠/٩٢٢ ، وكتابه «الخراج» إن هو إلا قطعة من موسوعة كبيرة جمع فيها أشتات العلوم والمعارف في عصره ، وأبي علي أحمد بن محمد بن إسحق ابن رُسْتَه ، وهو موسوعي آخر لم يبق لنا من كتابه الجامع المعروف بالأعلاق النفيسة إلا جزؤه السابع ، وهو يضم لحسن الحظ أوصاف بعض الطرق الكبرى في مملكة الاسلام ، ووصفه هذا هو النموذج الذي احتذاه المسالكيون بعده ، وأثره واضح في وصف الطرق عند الإدريسي ، ثم مدرسة الجغرافيين الخرائطيين وأهمهم البلخي والاصطخري وابن حوقل وآخر من انتهى إليه علم المسالك والممالك والبلدان في الشرق وهو المقدسي .

هذه الجماعة الأخيرة هي التي ابتكرت طريقة رسم «الأشكال» أو «صور الأقاليم» واعتبارها الأساس الحقيقي للعلم الجغرافي ، ثم تكون النصوص المكتوبة بعد ذلك شرحاً وتوضيحاً لها ، وكان معولهم في جمع المعلومات اللازمة لهذا الشرح على أقوال أهل البلاد والرحالة أو الرحلة والمشاهدة المباشرة إذا أمكن . ولم تصل إلينا مجموعة خرائط أبي زيد أحمد بن سهل البلخي المسماة «بالأشكال» أو «صور الأقاليم» ، ولا الكتاب الذي يشرحها المسمى «بالمسالك والممالك» ، ولكن معظم نص هذا الأخير وصل إلينا برواية أبي اسحاق إبراهيم بن محمد الاصطخري في كتابه المسمى «بالمسالك والممالك» أيضاً ، فإن قراءة نص هذا الأخير تدل على أنه اعتمد اعتماداً كبيراً على كتاب البلخي ، حتى لقد ذهب بعض

الباحثين المحدثين إلى أن الإصطخري لم يصنع أكثر من أن نقل كتاب البلخي مع زيادات وتعديلات طفيفة جداً^(١).

ويستتم الكلام عن هذه الجماعة بذكر ابن حوقل، أبي القاسم محمد النصيبي، فإنه وإن كان رحالةً جواب آفاق ومعظم معلوماته مستقى من مشاهداته وتحقيقاته إلا أن كتابه «الممالك والممالك» يقوم على أساس من كتاب الإصطخري، والتشابه بين النصين في الفصول الأولى خاصة يصل إلى الحرفية^(٢)، بل يبلغ التشابه إلى درجة أن ابن حوقل ينقل عن الإصطخري عبارات لم يكن يصعب عليه أن يجد ما يؤدي معناها لولا ذلك الالتزام^(٣).

والأساس في هذه الكتب الثلاثة هي «الصور» أو «الأشكال» أي ما نسميه نحن بالخرائط، وينص كل من الإصطخري وابن حوقل على ذلك في فاتحة الكتاب، بل إن منهجهما في رسم الصور وتقسيمها واحد، يبدأ بصورة عامة للأرض، ثم تليها مجموعة خرائط تفصيلية، لكل إقليم أو ناحية خريطة وهما يقولان في تفصيل هذا المنهج: «فأخذت لجميع الأرض التي يشتمل عليها البحر المحيط الذي لا يسلك صورةً إذا نظر إليها ناظر علم مكان كل إقليم عما ذكرناه واتصال بعضه ببعض ومقدار كل إقليم من الأرض...» ثم «أفردت لكل إقليم من بلاد الإسلام صورة على حدة بينت فيها شكل الإقليم وما يقع فيه من المدن وسائر ما يحتاج إلى علمه مما آتى على ذكره في موضعه إن شاء الله تعالى».

(١) انظر: De Goeje, *Die Istachri-Balchi-Frage* Z. D. M. G., XXV, p. 42, sqq.

J. H. Kramers, *La question Balchi - Istachri - Ibn Hawqal et l'Atlas del Islam*, Acta Orientalia, X, 9 sqq.

(٢) راجع الصفحات الأولى من نص كل من الكتابين وخاصة ما يتعلق بتقسيم الأقاليم وحدود الممالك.

(٣) لاحظ قول ابن حوقل: فابتدأت بديار العرب، لأن القبلة بها ومكة فيها، وهي أم القرى وبلد العرب وأوطانهم التي لم يصركهم في سكنائها غيرهم... الخ (س ١٨ — ١٩) وهذا الكلام يرد حرفياً تقريباً عند الإصطخري، س ١٢ — ١٣.

بيد أن الخرائط التي يضمها كل من الكتابين تختلف فيما بينها اختلافاً واضحاً يدل على تقدم ظاهر في تصور الأطالس وطريقة تقسيمها ورسمها ، وما دمننا نستعرض الآن تطور هذا الفن حتى الإدريسي فلنذكر محتويات كل « أطلس » منهما حتى تتضح الزيادة التي أتى بها الإدريسي والخطوة التي خطاها في هذا الميدان .

فأما خرائط الإصطخرى فلم تصل إلينا ، ولكنه أورد بيانها في مقدمة كتابه ، وعددها — بعد صورة الأرض — عشرون هي :

- | | |
|------------------------------------|--|
| ١ — ديار العرب | ٢ — بحر فارس |
| ٣ — المغرب | ٤ — مصر |
| ٥ — الشام | ٦ — بحر الروم |
| ٧ — الجزيرة | ٨ — العراق |
| ٩ — خوزستان | ١٠ — فارس |
| ١١ — كرمان | ١٢ — المنصورة وما يتصل بها من بلاد الهند والسند والاسلام |
| ١٣ — أذربيجان وما يتصل بها | ١٤ — كور الجبال |
| ١٥ — الديلم | ١٦ — بحر الخزر |
| ١٧ — المفازة التي بين فارس وخراسان | ١٨ — سجستان وما يتصل بها |
| ١٩ — خراسان | ٢٠ — ما وراء النهر |

وأما خرائط ابن حوقل فقد وصلتنا كاملة ، وأدرجها ج. هـ. كرامرز في الطبعة الثانية من كتاب صورة الأرض (١٩٣٨) ، وعددها ، بعد صورة الأرض اثنتان وعشرون ، هي :

- | | |
|----------------|--------------|
| ١ — ديار العرب | ٢ — بحر فارس |
|----------------|--------------|

- ٣ — المغرب من مصر إلى القيروان ٤ — المغرب من القيروان إلى طنجة والأندلس
- ٥ — مصر من الجزيرة إلى البحر ٦ — مصر من الجزيرة إلى النوبة
- ٧ — الشام ٨ — بحر الروم
- ٩ — الجزيرة المشهورة بديار ربيعة ١٠ — العراق وبطائعها إلى البحر وبكر ودجلة والفرات
- ١١ — خوزستان ١٢ — فارس
- ١٣ — كرمان ١٤ — بلاد السند مع نهر ملتان وما يصاقبه من بلاد الهند والإسلام
- ١٥ — أذربيجان ١٦ — الجبال وأعمالها
- ١٧ — الديلم وطبرستان ١٨ — بحر الخزر
- ١٩ — برية فراسان وفارس ٢٠ — سجستان
- ٢١ — خراسان ٢٢ — ما وراء النهر

ونلاحظ أولاً أن هذه الخرائط كلها هي خرائط العالم الإسلامي وحده ، ومن هنا فقد سميت مجموعة خرائط البلخي والأصطخري وابن حوقل « بأطلس الإسلام » ، وتضاف إليها الخرائط التي كانت في كتاب « أحسن التقاسيم » لمحمد بن أحمد بن أبي بكر المقدسي ، فقد كان هو الآخر يضم رسوماً فقد قال : « وأوضحنا الطرق لأن الحاجة إليها أشد ، وصورنا الأقاليم لأن المعرفة بها أروح ^(١) » وواضع مصطلح أطلس الإسلام ، هو كونراد ميلر في دراسته القيمة على الخرائط الإسلامية .

ولا شك في أننا لو عثرنا على خرائط المقدسي لوجدنا الحلقة المفقودة بين خرائط ابن حوقل وخرائط الإدريسي ، فإن تصور المقدسي للأقاليم يكاد يشف

(١) أحسن التقاسيم للبشاري المقدسي ، بتحقيق دي خوية ، ص ٨ .

عن هيئة الخرائط كما صورها^(١) . ولم يذكر الإدريسى المقدسى بين من أخذ عنهم ، ولكنني تبينت نقله عنه في أكثر من موضع ، مثال ذلك :

. يقول المقدسى ، أحسن التقاسيم ، ص ٥٨

... فأما الأرض فإنها كالكرة موضوعة جوف الفلك كاللحة في جوف البيضة ، والنسيم حول الأرض ، وهو جاذب لها من جميع حوانبها إلى الفلك وبنيّة الخلق على الأرض أن النسيم جاذب لما في أبدانهم من الخفة ، والأرض جاذبة لما في أبدانهم من الثقل ، لأن الأرض بمنزلة الحجر الذى يجذب الحديد ... والأرض مقسومة بنصفين بينهما خط الاستواء ، وهو من المشرق إلى المغرب ، وهذا طول الأرض ، وهو أكبر خط في كرة الأرض ، كما أن منطقة البروج أكبر خط في الفلك .

ويقول الإدريسى في فاتحة نزهة المشتاق :

... الأرض مستقرة في جوف الفلك ، وذلك لسرعة الفلك ، وجميع المخلوقات على ظهرها ، والنسيم جاذب لما في أبدانهم من الخفة ، والأرض جاذبة لما في أبدانهم من الثقل ، بمنزلة المغنطيس الذى يجذب الحديد إليه .

فالأرض مقسومة بقسمين ، بينهما خط الاستواء ، وهو من المشرق إلى المغرب ، وهذا هو أطول [خط في] الأرض ، كما أن منطقة البروج أكبر خط في الفلك .

وإذن فقد رجع الإدريسى إلى المقدسى واعتمد عليه ، وخاصة في هذه المفهومات العامة الخاصة بهيأة الأرض ووضعها في الفلك وقسمتها بخط الاستواء

(١) انظر وصف المقدسى لمملكة الاسلام ، أحسن التقاسيم ، ص ٦٢ — ٦٣ .

إلى قسمين وما إلى ذلك مما نجده متواتراً عند جغرافيينا من الخوارزمي فصاعداً ، ولكن ألفاظ الإدريسي هنا أقرب إلى ألفاظ المقدسي ، ولهذا رجحنا أن يكون أخذه عنه لا عن غيره . وربما كان تشبيه وضع الأرض في الفلك بالمح في البيضة راجعاً آخر الأمر إلى ابن رسته ، فهو أول من قال بذلك بين جغرافي العرب ، ولكن الإدريسي اختار قول المقدسي ، وهو محق في ذلك ، لأن المقدسي دون شك أكبر مسالكي الشرق الإسلامي قبل الإدريسي ، وهو لم يدرس إلى الآن الدراسة التي هو جدير بها .

ولكن الإدريسي إذ أخذ هذه الأقوال أضاف إليها من علمه وذكاؤه وجعل تلك المفهومات العامة أقرب إلى صورتها التي هي عليها اليوم ، خذ مثلاً قوله : « ومع أن الأرض كرة ، هي غير صادقة الاستدارة ، منها منخفض ومنها مرتفع ، ولهذا قيل فيما انكشف أنه تضاريس ، والبحر محيط بنصف الأرض إحاطة متصلة ، دائرها كالمنطقة ، لا يظهر منها إلا نصفها ، وهو ما دارت عليه الشمس في قوس النهار ، مثل بيضة مفرقة في ماء ، انكشف منها ما انكشف وانغم ما انغم » والمراد بنصف العبارة الثاني هو إحاطة البحار باليابس في النصف الشمالي وبعض الجنوبي من الأرض ، بحسب تصور الإدريسي ، وهو تصور لا يبعد عن الصحيح المقرر ، ومن الغريب مع هذا الوضوح أن الباحث الهندي مقبول أحد فهم أول هذه العبارة على أن الإدريسي لم يقل بكروية الأرض وترجم عبارة الإدريسي التي روينها ترجمة تدعو إلى الدهشة حقاً ، ومن الغريب كذلك أنه يتسبب هذا الكلام إلى لويجي سكياباريلى في مقدمته للجزء الذي نشره عن إيطاليا من نزهة المشتاق ، ولم نجد مثل هذا القول في كلام سكياباريلى في الموضوع الذي أشار إليه^(١) .

(١) Maqbūl Ahmad, India ... p. 7. ونس عبارته :

Al-Idrisi held the conception that the Sphericity of the earth was not true ..

وبلاحظ أن مقبول أحمد في كتابه هذا يغمط قدر الإدريسي بصفة عامة ، وهو في هذا يتابع أستاذه مينورسكي وهو أيضاً على هذا الرأي ، كما يبدو في تقديمه للكتاب .

وربما كان هذا الاتجاه نحو ما هو واقعى ومنطقى هو الذى صرف الادريسي عن الاعتماد على « المسالك والممالك للبكرى » ، فإن هذا الكتاب يبدأ بمقدمات طويلة عن أصل الخلق وسير الأنبياء ، ولا يصل القارئ إلى الأجزاء العلمية من الكتاب إلا بعد أن يقطع نحو نصف الجزء الأول ، ولعله رأى بعد ذلك أن البكرى يعتمد على كتابى بطليموس الرئيسيين ، وهما « جغرافيا » و « الجسطى » وعلى مؤلفين آخرين أهمهم العذرى ، وكان كتاب العذرى بين يديه ، ثم إن الجزء الأهم من جغرافية البكرى وهو الخاص بالمغرب والبحر الأبيض لا يقدم له شيئاً جديداً ، فهو — أى الادريسي — خبير بالمغرب والبحر الأبيض ، كما يدل على ذلك كلامه ، وسواء أكان هذا هو الصحيح أو أن كتب البكرى لم تصل إليه ؛ فقد خسر الادريسي بعدم الاعتماد عليه ما خسره بعدم الاطلاع على أبى الريحان البيرونى ، فإن البكرى يقارب البيرونى فى الغرب الإسلامى فى علمه وذكائه وأمانته ، وإن كان البيرونى ناقداً مدققاً يبحث كل ما يقرؤه أو يصل إلى علمه ، فى حين كان البكرى ناقلاً فحسب ، وهو نفسه يقول : « وإنما ننقل فى كل موضع من هذا الكتاب ما يُستَنسَخُ لنا ، وعندنا كتب الناس ، فننقل ذلك عنهم على حسب ما نجده ، لا ما نعلم على صحته »^(١) ، وقد أسرف البكرى فى التواضع فى هذا القول ، لأنه « وإن كان لا ينقل عنهم » كان يقرأ ما يطلع عليه قراءة جيدة ويعرضه عرضاً هو غاية فى الوضوح ، مثال ذلك كلامه عن الأقاليم السبعة ، وهو كلام لا يقل فى الدقة والابحاز والوضوح عما نجده عند الادريسي وياقوت^(٢) .

وعلى أى الأحوال ، فإن الادريسي لم يغادر شيئاً هاماً مما وصل إليه الجغرافيون المسلمون — عدا البيرونى — فيما يتصل بالتصور العام للأرض

(١) مخطوط دار الكتب بالقاهرة رقم ٣٠٤٤ ، ورقة ٩٩-١٠٠ .

(٢) راجع نفس المخطوط ، الفصل الذى عنوانه « جملة جمعناها من كتب فلاسفة اليونانيين فى الأقاليم السبعة » ورقة ٩٩ ب وما بعدها .

والكون ، وكل ما فاته هو ذلك الإيجاز البليغ الذى نجده عند البكرى ، ولا شك أن هذا الأخير أوجز كل ما عند الخوارزمى وابن رسته عن كروية الأرض عند ما قال : « وقد بين أهل العلم بالهندسة بغير وجه من البراهين أن الأرض ثابتة فى وسط العالم ، قائمة فى مركزه ولا حركة لها فى ذاتها ، وأنها مستديرة الشكل ، وأن جميع الأثقال تميل ويرجعن إليها بالطبع ، وأن كل جزء من أجزائها البعيدة عن المركز يدور الارتفاع والانخفاض ، مطبوعة إلى مركزها ، وأن الفلك المستقيم يدور عليها بجميع ما يحيط به من الأفلاك والكواكب السيارة والثابتة دورة واحدة فى كل أربع وعشرين ساعة مستوية ، هى جملة النهار والليل من آخر النهار ، وركب الله عز وجل على الأرض جرم الشمس ، لعلمه بالحكمة التى ينبغى أن يكون عليها تركيب العالم فى فلك أخرج مركزه عن مركز الأرض بدرجتين ونصف من درج فلك البروج ، فلذلك ما اختلفت حركة الشمس على الأرض ، فحصى مزاج جوهر الهواء المحيط بالناحية الجنوبية ، وكان الجزء المعمور من الأرض فى الناحية الشمالية ، إذ كل حيوان بطبعه أحمل للبرد منه للحر ، ألا ترى أنه يتولد فى الماء من الحيوان ما لا يحصى كثرة ، وكذلك من النبات ، ولا يتكون فى النار منه شيء إلا الشاذ النادر ، إن صح ذلك فيه . . . » ^(١) فهذه هى خلاصة آراء جغرافيينا جميعاً فى هيئة الأرض وطبيعتها وعلاقتها بالشمس والكواكب ، ولم يزد الإدريسى على هذا إلا تفاصيل لا تمس الصلب ، وعلى هذا ظل الناس إلى أيام كوبرنيق .

وإخلاصة أن الإدريسى يمثل القمة التى وصل إليها العلم الجغرافى فى الشرق والغرب على السواء ، فقد أخذ من علم اليونان خلاصة ما فيه ، وأخذ عن مدرسة الجغرافيين الفلكيين زبدة آرائهم ، ثم أخذ عن مدرسة المسالكين فكرة عمل الخرائط والأطالس واعتبارها أساس الجغرافية ، وطوّر هذه الناحية من

« أطلس الإسلام » إلى « أطلس العالم » ، وذلك هو تجديده الأكبر ، فهو أول جغرافي في التاريخ نظر هذه النظرة العامة وسما إلى مفهوم عالمي للعلم الجغرافي ، وحق له بذلك أن يوصف بأنه أعظم جغرافي ظهر في الدنيا إلى مطالع العصر الحديث ، ثم قبس من المسالكين المشارقة هذه الدقة في وصف الطرق والبلاد وتقدير المسافات ، وأخذ عن المسالكين الأندلسيين هذا الالتفات إلى الزروع والمحاصيل والمنتجات والصناعات والمتاجر وطرقها وأصنافها ، وأضاف إلى هذا كله شيئاً لم يعرفه أحد من السابقين — حتى المقدسي — وهو تحقيق أقوال الكتب والرحالة ومقارنة بعضها ببعض واختبار الأصح ، ثم تحقيق المقاييس والأبعاد وتحويلها إلى مقياس الرسم « بمقاييس الحديد » وتوقيع ذلك على الخريطة شيئاً فشيئاً كما يقول .

مؤلفات الإدريسي

لا زال الخلاف شديداً بين الباحثين حول إحصاء أعمال الشريف الإدريسي ، ولكن الأستاذ جيو فاني أومان استطاع — بعد بحث طويل — أن يحصر هذه المؤلفات فيما يلي :

١ — نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، أو الكتاب الرجاري أو كتاب رجار ، تم تأليفه سنة ١١٥٤/٥٤٩ ، وسنعرض له بالبحث فيما بعد .

٢ — كتاب الجامع لأشتات النبات أو كتاب المفردات أو كتاب الأدوية المفردة . كان المظنون أن هذا الكتاب فقيد ، ولكن ماكس ماير هوف عثر على إحدى مخطوطاته في مكتبة فاتح في استامبول ، وتحقق من أنها تضم بالفعل كتاب الجامع لأشتات النبات للشريف الادريسي ، ونشر عنه مقالا

قصيراً في سنة ١٩٢٩^(١) وفي نفس الوقت نشر ترجمة ألمانية لأهم فصول الكتاب في مقال آخر^(٢). والخطوطة ليست مؤرخة ، ولكن مايرهوف رجّح أن الفراغ منها كان في سنة ٩٠٦ — ١٥٠٠/٧ وقد ذكر الناسخ أنه نقلها عن الأصل الذي كتبه الإدريسي بيده ، وتتألف الخطوطة من ١٤٨ ورقة (٢٩٦ صفحة) مقسمة إلى ثلاثة كتب ، وفي الفاتحة يقول الإدريسي إن الكتاب يتضمن ذكر ١٢٠٠ دواء مع وصفها ، ولكن الأدوية التي يرد ذكرها في الخطوطة تبلغ ٦١٠ فقط مرتبة على حروف المعجم ، وواضح أنه سقط من الأصل جزء كبير ، فإنها لا تضم إلا الأبواب الخاصة بأربعة عشر حرفاً فقط من حروف الأبجدية ، أي أن الضائع حوالى نصف الكتاب ، وقد ورد اسم الإدريسي فيها هكذا : محمد بن محمد بن عبد الله الأندلسي الحسني . ويلاحظ أن ابن أبي أصيبعة يرسم اسم الإدريسي على هذه الصورة .

وهذا النصف الباقي من الكتاب يدل على علم واسع بالنبات والأعشاب والأدوية ، وهو يمتاز بدقة في رسم أسماء العقارات ووصف خصائصها لا نجدها إلا عند ابن سينا وابن البيطار ، مما يجعل للإدريسي مكاناً ممتازاً بين النباتيين والعشائين والأطباء في العصور الوسطى ، وبهذا الامتياز وصفه فعلاً ابن البيطار وابن أبي أصيبعة .

وذهب أماري إلى أن هذا الكتاب قد يكون أول ما كتب الإدريسي ، وأنه كتب قبل أن يفد الإدريسي على صقلية^(٣) ، وهذا هو الذي رجّحناه فيما سبق من كلامنا ، وعلى هذا الفرض يكون كتاب النبات هو أول ما ذاع

(١) Max Mayerhof, *Eine Arzneimittellehre des arabischen Geographen Edrisi*, in *Forschungen und Fortschritte*, 5^o Jahr, 1929, Heft 28, ss. 388-390.

(٢) Idem, *Allgemeine Pharmakologie und Botanik bei Idriši* in *Archiv für Geschichte der Mathematik, Naturwissenschaft und Technik*, Berlin, XII (1929), pp. 45, ff. 225.

(٣) Amari, *op. cit.* 2^a ediz. Catania, 1939, III, parte 3^a, p. 702.

وعرف من مؤلفات العلامة الكبير ، وقد سبقته شهرته إلى صقلية فعرفه به رجار قبل أن يفد على الجزيرة المرة الأولى في طريق العودة إلى المغرب ، قدمه به إليه أبو عبد الله محمد بن القاسم بن حمود ، إذا صدق ما ذهبنا إليه ، وبهذا يكون الإدريسي قد وفد على الجزيرة أول مرة نباتياً ، ثم تبينت لرجار ملكاته في الجغرافية ، فركز جهده عليها في المرة الثانية .

٣ — كتاب روض الأنس ونزهة النفس أو كتاب المسالك والممالك . ذكره ابن بشرون ، وقال إنه ألفه لـغليالم الأول (٥٤٩/١١٥٤ — ٥٦٢ — ٥٦٣/١١٦٦) خليفة رجار الثاني ، ولم نعث عليه ، ولكن لدينا مختصراً له في مكتبة حكيم أوغلو في استامبول برقم ٦٨٨ ، ولهذا المختصر عنوانان ، أحدهما في أوله وهو : « أنس المهج وروض الفرج » والثاني في آخره ، وهو : روض الفرج ونزهة المهج . ويسمى هذا المختصر بالادريسي الصغير ، تمييزاً له عن نزهة المشتاق الذي يسمى الادريسي الكبير . وكان أول من نبه إلى هذا المختصر كريستيان زايبول في المادة التي أدارها على الادريسي في الطبعة الأولى لدائرة المعارف الإسلامية . وكان هوروفتس قد عثر على هذه النسخة قبل ذلك وأشار إليها ، ثم عثر جابريل فِرَّان Gabriel Ferrand على نسخة أخرى من نفس المخطوط ، وجدها في دمشق ، ولكن هذه النسخة الثانية تنقصها الخرائط ، ويظن أنها منسوخة عن مخطوطة استامبول . وقد نشر مجموعة الخرائط الكاملة الموجودة في مخطوطة استامبول كوزناد ميلر في أطلس الخرائط العربية الذي أشرنا إليه مراراً .

وقد عني بدراسة هذا المخطوط نفر من الباحثين مثل توليو تالجرين وكراسرز ونالينو ويوسف كمال واهتموا بمقارنته بنزهة المشتاق وتبيين وجوه المشابهة والاختلاف بينهما في التقسيم ورسم الأعلام وما إلى ذلك . ووردت في آخر المخطوط عبارة : واشتمل الفراغ عليه في العشر الأوسط من شهر صفر سنة ٥٨٨/١١٩٢ .

ومخطوطة إستانبول تقع في ١٦٢ ورقة من القطع الكبير مسطرتها ١٦ سطراً في الصفحة^(١).

٤ — أما الكتاب المسمى «نزهة المشتاق في ذكر الامصار والبلدان والجزر والمدائن والآفاق» فمختصر ناقص مشوه من كتاب الإدريسي الكبير، وقد وجدت منه نسخة في مكتبة آل مديتشي في روما ونشرت نشرًا سيئًا بدون مقدمة أو تعليق أو تاريخ على مطبعة آل مديتشي، ثم قام بعمل ترجمة لاتينية لها راهبان مارونيان كانا يشتغلان مترجمين في البلاط الفرنسي، هما جبرائيل صهيون Gabriel Sionta ويوحنا حزون Johannus Hesronita، ونشرا الترجمة في باريس سنة ١٦١٠ باسم Geographia Nubiensis أي جغرافية النوبة لأن الجزء الذي نشره يبدأ بالكلام عن النوبة، ووردت فيه عبارة «أرضها» فقرأها «أرضنا»، فظننا أن المؤلف نوبى يكتب عن بلاده. ولم يُبين أن الكتاب للإدريسي إلا فيما بعد^(٢)، ويوجد من هذه الطبعة نسخة مصورة يدار

Tuulio Tallgren, *Du Nouveau sur Idrisi*, p. 89.

(١)

Carlo Nallino, apud Amari, *Storia dei musulmani di Sicilia*, 2^a ed., III, 3, p. 681.

Youssef Kamal, *Monumenta Cartografica Africae et Aegypti*, Leiden, 1935, p. 106.

Cf. Casiri, *Bibliothecae Arabico-Hispanae Escorialensis*, tomus II (Matri-

(٢)

ti, 177.

وعنوان ترجمة الراهبين اللارويين :

Geographia Nubiensis, id est accuratissima totius orbis in septem climata divisi descriptio continens praesentim exactam Universiae Asiae et Africae, rerumque in his haecenus incognitarum explicatione. Recens ex Arabico in Latinum versa a Gabriele Sionita, Siriacarum et arabicarum literarum professore atque interprete Regio, et Joanne Hesronita, eandem Regio interprete, Maronitis. Parisiis, 1619.

انظر : Geovanni Oman, *op. cit.*, p. 50-51.

وقام بعمل ترجمة إيطالية لهذا المختصر برناردينو بالدی Bernardino Baldi وجعل عنوانها :

Geografia Universali, libro intitolato Horto Delizioso de le Regione, Paesi, Provincie, Isole, Citta et Horizonti.

ولكن هذه الترجمة الإيطالية لم تنشر، وهي باقية مخطوطة في مكتبة جامعة مونبلييه بفرنسا تحت

رقم H 299

وذكر مفسر مكتبة آل مديتشي أن نشر النسخة العربية كان في فلورنسا سنة ١٥٩٧ ولكن الأستاذ دي شنورر أنكر ذلك التاريخ وقال إنه لم يجد ما يدل على صحته.

والرأى في هذا المختصر أنه سىء ناقص وغير دقيق، بل هو تشويه لكتاب نزهة المشتاق، قال بهذا كرامرز وليلويل، وقام جيوفاني أومان بمقارنته بأصل نزهة المشتاق وأمن على أقوال من سبقوه، ثم أضاف أنه لم يستطع الاهتمام إلى المنهج الذي اتبع في عمله. Cf. Giovanni Oman, *op. cit.*, p. 51-52.

الكتب المصرية تحت عنوان : « نزهة المشتاق في ذكر الأمصار والأقطار... الخ »
(رقم ٢٦٥ جغرافيا) .

٥ - وذكر جيوفاني أومان أن كتاب «جنى الأزهار من الروض المعطار» المنسوب لتقي الدين أحمد بن علي المقرئ بنى إنما هو في الحقيقة مختصر لنزهة المشتاق عمله رجل يسمى شهاب الدين أحمد المقرئ ، وعلى هذا فلا علاقة له بمؤلفات تقي الدين المقرئ أو بكتاب الروض المعطار لابن عبد المنعم الحميري . وقد أثبت ذلك فولز في مقال له ودلل على أن الكتاب مختصر لنزهة المشتاق قام به رجل من أهل النوبة^(١) وذكر ذلك أيضاً بلوشيه في فهرس مخطوطات المكتبة الأهلية في باريس^(٢) ، ثم أثبت الأمر بصفة نهائية جاستون فييت في مقال له تعليقاً على نشرة ليفي بروفنسال للأعلام الأندلسية من الروض المعطار لابن عبد المنعم الحميري ، وقام بعد ذلك بانتقاء الأعلام المصرية من «جنى الأزهار» هذا ونشر ترجمة فرنسية لها^(٣) ويلاحظ أن في المكتبة الأهلية في باريس مخطوطاً لذلك المختصر عنوانه «جنى الأزهار من الروض المعطار في عجائب الأقطار»^(٤) .

كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق

مخطوطات نزهة المشتاق مفرقة في عدد عظيم من مكتبات الدنيا ، ومن الغريب أن مكتبة منها لا تجمع الكتاب كله ، حتى القطعتان الموجودتان في المكتبة الأهلية في باريس تحت رقمي ٢٢٢١ و ٢٢٢٢ ليستا كاملتين ، والمتفق

K. Vollers, *Note sur un manuscrit arabe attribué à Magrîzî*, dans *Bulletin de la Société Khédiviale de Géographie*, III^e Série, Le Caire, 1893, pp. 131-139.

E. Blochet, *Bibliothèque Nationale - Catalogue des Manuscrits Arabes des nouvelles acquisitions* (1884-1924), Paris, 1925, p. 140. (2)

Gaston Wiet, *Un résumé d'Idrîsi*, dans *Bulletin de la Société Royale de Géographie d'Egypte*, tome XX, 2^a fasc., 1939, pp. 161-210. (3)

عليه بين العلماء أن هاتين هما أحسن مخطوطات النزهة وأدقها وأولاها بالثقة ، وقد تأكدت من ذلك عند مباشرتي تحقيق الجزء الخاص بمصر من ذلك الكتاب العظيم ، وتليها القطعة التي كانت في مكتبة المستشرق إدوارد بوكوك . وفي مكتبات استامبول قطع أخرى وفي دار الكتب بالقاهرة مجلد مخطوط يسميه فهرس الدار بالجزء الأول وهو يشمل الفصول الأولى من الكتاب ثم الإقليمين الأول والثاني عدا الجزئين التاسع والعاشر من هذا الأخير ، وبه عشرون خريطة لبعض أجزاء الإقليمين الأول والثاني (رقم ١٥٠ جغرافيا) . ولكن الكتاب رغم هذا التفرق الشديد كامل ، ولدينا من معظم أقسامه مكررات وافرة ، وقد جمع المعهد الإيطالي للشرق الأدنى والأقصى صوراً من هذه القطع كلها وبدأ العمل في نشر نزهة المشتاق كاملاً على أيدي نفر من المتخصصين .

وهذه هي المرة الأولى فيما نعتقد تجمع فيها أشقات كتاب نزهة المشتاق في مكان واحد وتدرس على أنها كُتِّب واحد ، ولقد نُشرت قطع كثيرة منه ، وتُرجمت كل قطعة منها إلى لغة من اللغات الأوروبية ودرست هذه الأجزاء المنشورة دراسة طيبة ، وكان أول ما نشر من هذه القطع مجلداً أول في روما سنة ١٨٧٨ يضم المقدمات والجزئين الثاني والثالث من الاقلم الرابع بعناية ميكيلي أماري وتشلستينو سكيا باريلي ، ونشرت بعد ذلك قطع أخرى خاصة بالمغرب والاندلس والمانيا ووسط أوروبا وبلاد شمال أوروبا وإنجلترا وروسيا وفلسطين وآسية الصغرى^(١) والهند ، وأصدر كل باحث رأيته فيما نشر وبحث ، وهذه الآراء

(١) أحصى كل ما نشر من الادريسي وعنه الأستاذ جيوفاني أومان في دراسة قصيرة جامعة هي أحسن دراسة بيلوغرافية عن الادريسي إلى الآن :

Giovanni Oman, *Notizie bibliografiche sul geografo arabo al-Idrisi (XII secolo) e sulle sue opere* (Estratto dagli *Annali dell'Istituto Universitario Orientale di Napoli*. Nuova serie, volume XI. Roma, 1961.

والأستاذ أومان هو الذي يشرف مع الأستاذة Laura Vecchia Vaglieri على الطبعة الكاملة للنزهة المشتاق التي تعد حالياً في روما .

تجمع بين الإعجاب الكبير بالإدريسي من ناحية ، والنقد اليسير أو الشديد لما كتب عن هذا البلد أو ذاك ؛ واعتمادنا فيما نقول هنا على هذه القطع وترجماتها وما قاله محققوها بالإضافة إلى ما تبيناه في اعداد القسم الخاص بمصر ولكن الحكم على عمل الإدريسي كله لن يصبح سليماً إلا إذا نشر الكتاب كله ودرس ككل واحد .

واعتماداً على ما وصل إلينا من هذه الأجزاء المنشورة ومقدماتها والدراسات الخاصة بها نستطيع أن نقول ان القسم الأول من «نزعة المشتاق» الذى يشمل المقدمات العامة عن صورة الأرض وهيئتها ومقدار المسكون منها وتقسيمه إلى الأقاليم السبعة وذكر البحار ومبادئها وما تنهى إليه وما يلى سواحلها من البلاد والأمم وما إلى ذلك ، يدل على فهم كامل لطبيعة العلم الجغرافى وموضوعه ، وقد تناولنا الفصول التمهيدية فيما سبق وأعطينا فكرة عنها ، وأتيننا بقطع منها ، وربما لم يكن فيما أتى به الإدريسي فيها شئ جديد لا نجده فيما تقدمه من الكتب ، ولكن الجديد حقاً هنا هو النظرة السليمة إلى الجغرافية كعلم قائم بذاته لا يختلط بالتاريخ ولا يمزج مادته بالأساطير ولا تتعلق حقائقه بمسائل الفلك ، والإدريسي هنا جغرافى موضوعى يذكر الحقائق كما تصورها واضحة مجردة ويصوغها فى أسلوب بسيط منطقي لا يكلف فيه ولا تظاهر بالعلم ولا دعوى برحلات طويلة أو قراءات مستبحرة .

وبعد هذه المقدمات يتحدث الإدريسي عن قسمة الأرض إلى الأقاليم السبعة ، ويحدد كلا منها بصفة عامة ، وتقسيمه هذا هو الذى اعتمد عليه من تناول الموضوع من الجغرافيين بعده ، وخاصة ابن سعيد وأبى الفدا وإياقوت .

ثم يختص الإدريسي لكل من الأقاليم باباً ثم يقسمه إلى عشرة فصول لكل جزء من أجزاء الأقاليم فصل ، وهو يسير من الغرب إلى الشرق ،

فيندأ في كل إقليم من المحيط الأعظم أى الأطلسى عند الجزائر الخالدات ، ثم ينتقل إلى الجزء الذى يليه وهكذا حتى يصل إلى الجزء العاشر عند بحر الصين ، وهو عنده آخر الدنيا شرقاً ، وبحر الصين فى رأيه جزء من المحيط الأعظم الذى يحيط باليابس كله وتتصل مياهه ببحراً واحداً محيطاً باليابس من كل جهاته وتتفرع منه البحار الكبرى التى توغل فى اليابس كأنها خلجان كبيرة . ولا يخالف الاديسى هذا النظام إلا فى كلامه عن الإقليم الأول جنوب خط الاستواء ، فهو عنده يبدأ من الغرب بصحار ورمال غير مسكونة لشدة الحرارة ، وهذا الطرف الغربى للإقليم الأول جنوب خط الاستواء « لا يظهر فيه البحر المحيط من المغرب الأقصى ولا فى الجنوب ، إذ أنه فسيح مترام لم يصل إلى آخره أحد » ولا يبدأ الاديسى فى الوصف الصحيح فى ذلك الإقليم إلا فى جزئه الثالث ، وهو الذى تقع فيه منابع النيل ، وكلامه فى هذا الجزء قريب من كلام بطليموس عن منابع النيل ، ولكن تصوره أقرب إلى تصور الخوارزمي . وفكرة جغرافيتنا القدامى على العموم عن منابع النيل قريبة جداً من الحقيقة ، وإذا نحن استبعدنا الأساطير التى تقال عن جبل القمر (أو القمر كما ضبطه ياقوت) قلنا أن هذا الجبل يقابل ما يعرف اليوم بجبل كليمانجارو ، وكان رأى أن النيل ينبع من هذه الجبال وأنه « ينصب عشرة أنهار ... كل خمسة أنهار من شعبة » ، ثم تتبحر تلك العشرة أنهار فى بحيرتين ، كل خمسة أنهار تبهر بحيرة بذاتها ، ثم يخرج من البحيرة الشرقية منها بحر لطيف يأخذ شرقاً على جبل فاقولى ، ويمتد إلى مدن هناك ، ثم يصب فى البحر الهندى (المراد نهر النيجر ، وكان يعرف بنيل غانة) ثم يخرج من تينك البحيرتين ستة أنهار ، من كل بحيرة ثلاثة أنهار ، ثم تجتمع تلك الستة أنهار فى بحيرة متشعبة « ومن هذه الأخيرة يخرج النيل ويسير شمالاً ، ويسمى الجغرافيون مجراه إلى البحر الأبيض بعمود النيل .

ويمد الإدريسي ساحل افريقية الشرق بعد باب المندب في اتجاه أفنى تقريباً من الغرب إلى الشرق حتى يصبح موازياً لسواحل جنوب آسيا ، والامتداد يجرى من ناحية ما يعرف الآن بالصومال وإريتريا ، وتقع على هذا الامتداد بلاد بَرَبَرَة والزنج وسَفَّالَة ثم واق الواق وهي آخر المعمور شرقاً جنوبى خط الاستواء ، ويفصل بين آسيا وهذا الساحل الافريقى بحر الهند .

وهذا التصور الإدريسي للساحل الافريقى مشكلة من مشاكل جغرافيته وبخرائطه ، لأن بطليموس — بحسب خريطته المتداولة بين الناس — رسم هذا الساحل على نحو قريب جداً مما هو عليه في الواقع ، ثم إن المواضع التى يذكرها الإدريسي هى نفس المواضع التى يذكرها بطليموس ، بل يزيد عليه مواقع كثيرة مثل سفالة ومُجَبَّسَة ، وجبل عجرد ، ويضيف فى وصفه معلومات كثيرة أخذها عن المسعودى ، وكان من أعلم الناس بهذه النواحى . فكيف يكون تصور بطليموس أقرب إلى الحقيقة من تصور الإدريسي ، مع أن المفروض أنه نقل عنه أو عن نسخة خريطته التى عملها مريئوس الصورى ؟ الحقيقة فيما أعتقد أن خريطة بطليموس الموجودة بين أيدينا ليست هى التى رسمها بنفسه ، وإنما هى رسم جديد صنع فى القرن الخامس عشر الميلادى بعد أن ترجم يعقوب أنجيلوس دى سكارباريا Jacobus Angelus de Scarparia كتاب الجغرافية من أصل غير معروف إلى اللاتينية سنة ١٤٠٦ ، وقد نشرت هذه الترجمة بعد ذلك بخمسين وستين سنة (سنة ١٤٧٥) فى فينشينزا فى إيطاليا ، أما النص اليونانى فلم يعثر عليه إلا سنة ١٥٣٣ ، وقد اكتشف فى بازل بسويسرا ، وقام على نشره إرازموس ، وهنا فقط عرف الناس اسمه الأصلى : « جيوجرافيكى هوفيجيسيس » أى المرشد إلى وصف الأرض ، ولا يضم الأصل الذى ترجم عنه يعقوب انجيلوس دى سكارباريا أى خرائط ، لأن هذه الأخيرة كانت تكوّن الجزء الثامن من الكتاب ، وقد ضاع هذا الجزء من زمن بعيد ، فلا بد أن الخرائط قد وضعت فيما بين تمام

الترجمة والنشر ، رسمها الناشرون اعتماداً على الخرائط المعروفة بالبورطولية Portolani أى أدلة الموانئ وقد بدأ ظهورها وتداولها بين الناس في النصف الثاني من القرن الثالث عشر الميلادي^(١) . وهي خرائط تدهشنا بدقتها ومقاربتها للواقع ،

(١) هذا هو أصبح الآراء فيما يتصل بهذه الترجمة ، أما ما يخالف ذلك من التفاصيل فوضع شك . كبير لدى المحققين . ولكي يتبين القارئ مقدار الضعف في هذه الأقوال نورد موجزاً لها : المظنون أن أقدم نص لمغربي جغرافية بطليموس وصل إلينا يرجع إلى أواخر القرن الثاني عشر أو أوائل الثالث عشر الميلاديين . ومن هذا النص وجدت نسختان أو روايتان ، الأولى تعرف بالمجموعة ٢ تصاحبها ٢٧ خريطة والثانية تعرف بالمجموعة ب تصاحبها ٦٣ خريطة . وقد حصل على نسخة من المجموعة « ٢ » بالا ستروزي Palla Strozzi وعهد في ترجمتها إلى Manuel Chrysolorus مؤسس الدراسات اليونانية في إيطاليا ، فقام هذا بتكليف تلميذه يعقوب النجولس دى سكارباريا بترجمتها إلى اللاتينية ، فقام بها وأتمها سنة ١٤٠٦ وقد ادخلت على هذه الترجمة إصلاحات كثيرة بعد ذلك وأصبحت لمدة قرن من الزمن أساس الدراسات الخاصة بجغرافية بطليموس في الغرب . وقد نشرت ترجمة المجموعة « ١ » بدون خرائط في فينشينزا سنة ١٤٧٥ ، وكان عالمان إيطاليان قد نأما بعمل نسخة من خرائطها أوائل القرن الخامس عشر وترجما أسماء الأعلام فيها إلى اللاتينية . أما خرائط المجموعة ب فلم تدرس أو تحقق ثم اختفى أصلها ، ووصلت لنا رسوم يقال إنها نسخ منها . وقد ضاعت النسخة الأصلية لترجمة دى سكارباريا وكذلك الخرائط التي نسخها العالمان الإيطاليان ، ولكن بقيت نسخ منها عملها علماء آخرون مثل نسخة الكردنثال جيوم فليستر Guillaume Fillesstre سنة ١٤٢٧ وهذه النسخة تعرف اليوم بمخطوطة تانسي ، وهي تضم — إلى جانب الخرائط المنسوبة إلى بطليموس — خرائط أخرى رسمت لبلاد أخرى لم يعرفها بطليموس . وقد تعاقب على العمل في جغرافية بطليموس هذه وخرائطها نفر من المعنيين بالجغرافية والخرائط في أوروبا ، ولكنهم جميعاً رسموا خرائط بطليموس كما تصوروها معتمدين على النص حيناً وعلى خرائط معاصرة لهم حيناً آخر ، وكانهم نال ذلك صراحة ، ومثال ذلك أن Pietro del Massajo الفلورنسي قال إنه « أعاد تكوين » جغرافية بطليموس ورسم خرائطها بنفسه أكثر من مرة ، ففي النسخة التي عملها سنة ١٤٥٨ نجد ٢٧ خريطة بطلمية « مع خرائط أقاليم أخرى جديدة وغير ذلك » Cum additione provinciarum noviter repertarum et alia nonnulla وأضافها الراهب باولينو معتمداً على أخرى رسمها بييترو فاسكونتي Pietro Vasconti ومثل ذلك يقال عن أحسن مخطوطات جغرافية بطليموس وخرائطها وهي التي عملها Dominicus Nicholaus Germanus في النصف الثاني من القرن الخامس عشر ، فقد كتب بيده ١٢ نسخة من « جغرافية بطليموس » ورسم خرائطها ، وقال إنه ادخل تعديلات و « تحسينات » على النص ، وأعاد رسم الخرائط في حجم أصغر ايسر تداولاً ، بل رسم الخرائط على أساس مسقط ابتكره و « صحح » خطوط الرسم وأضاف خرائط جديدة . وعلى أساس أحد مخطوطات دومينيكيوس نيكولاوس جرمانوس طبعت تلك الجغرافية البطلمية المحرفة لأول مرة في بولونيا بإيطاليا سنة ١١٧٧ ، وأعيد طبعها في روما سنة ١١٧٨ . وهاتان الطبعتان =

وينسب فضلها عادة إلى الملاحين الإيطاليين والقطلوينين ، وأعتقد أن الذين رسموها كانوا يعتمدون أيضاً على خرائط ملاحية عربية ، وأبسط دليل على أن هذه الخريطة المنسوبة إلى بطلميوس ليست أصيلة هو أن صورة النيل فيها تطابق صورته كما رسمها ووصفها الإدريسي ، في حين أن وصف بطلميوس للنيل ومنابعه يختلف كل الاختلاف عن ذلك ، وبينما نجد جغرافية بطلميوس لا تذكر شيئاً جنوب خط الاستواء ، نجد الخريطة المنسوبة إليه تضع منابع النيل جنوب ذلك الخط وعلى صورة قريبة جداً من وضعها الحالي . لقد كان اليعقوبي ثم المقدسي هما أول من وضع هذه المنابع جنوب خط الاستواء ، ولكن تلك الخرائط البطلمية الزائفة تنسب ذلك إليه ، واعتماداً على هذا يقول مؤرخو فن الخرائط إن خريطة بطلميوس أدق وأحسن من خريطة الإدريسي ، وإن ما وصل إليه الجغرافي الإسكندراني في القرن الثاني للميلاد لم يصل إليه الإدريسي بعد قرابة عشرة قرون ، وهي عبارة يأسف الانسان إذ يقرأها لعلماء لهم قدر ومكانة .

وابتداءً من الجزء الأول من الاقليم الأول شمال خط الاستواء نبدأ مع الإدريسي طريقاً أكثر وضوحاً ، فهو يتحدث عن مناطق عرفها وسكنها المسلمون وكتب بعضهم عنها ، فيما عدا الجزائر الخلدات في المحيط الأطلسي ، وليس للإدريسي مراجع محددة فيما يتصل بالأجزاء الغربية الأولى من الاقليم الأول ، فلا بد أنه جمع كل ما وجدته من المعلومات في شتى الكتب العربية

= هما الأصل الذي ينقل عنه معظم الناس إلى اليوم الخرائط المنسوبة إلى بطلميوس . وهذا التحريف الشديد للنص والخرائط الزائفة المنسوبة إلى بطلميوس هي التي دفعت أرازموس إلى نشر النص الإغريقي الذي عثر عليه في نازل كما قلنا . وقد نشره دون خرائط . ومن هنا فقد ظلت الخرائط التي تكلمنا عنها هي المتداولة في الكتب على أنها خرائط بطلميوس .

Almagia, R., *Monumenta Italiae Cartographica*, Firenze, 1929.

Gallios, L., *Les géographes allemands de la Renaissance*, Paris, 1903.

Lynam, E., *The first engraved atlas of the world; the Cosmographia of Claudius Ptolemaeus*, Bolonia, 1477. Jenkintown, 1941.

Stevens, H. N., *Ptolemy's «Geography»: a brief account of the printed editions to 1730*. 2^a edition, 1908.

Crone, G. R., *Maps and their makers*, London, 1953.

ونسقها وقسمها على أجزاء ذلك الاقليم على نحو مقبول ، ومع أن ابن سعيد كتب بعده بقرنين واعتمد على كتاب ابن فاطمه الذى يبدو أنه أحسن ما كتب المسلمون عن المناطق الواقعة جنوب الصحراء الكبرى ، إلا أننا لا نجد مادة ابن سعيد هنا أغنى بكثير مما عند الإدريسي ، بل إن كلام الإدريسي عن غانة وملكيها صالح بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب فريد في بابيه ، ولا نجده عند البكري أو أحد ممن نقل هذا الأخير عنهم .

وتتوالى فصول « نزهة المشتاق » بعد ذلك ، لكل جزء من الأجزاء السبعين فصل ، ولكل إقليم باب يتكلم فيه عن خصائصه العامة قبل أن يدخل في وصف الأجزاء .

والطريقة التي يجرى عليها في وصف الأجزاء هي الاعتماد على المدن كنقط ارتكاز للوصف ، فيذكرها واحدة واحدة كأنه يسير في رحلة في نواحي الجزء الذى يصفه ، فيصف ما يلقاه من المدن مدينة مدينة ، ويحدد موضعها ويذكر شهرتها وما يزرع حولها وما يصنع فيها وما يتجر به منها وإليها ، وقد يذكر شيئاً عن ناسها ، ثم ينتقل إلى ما يليها حسب اتجاهه ، وفي الطريق يصف ما يلقى من المعالم الجغرافية من نهر أو جبل أو بحيرة ، ويشير إلى المناخ ، ثم يذكر المسافات بين كل مدينة وأخرى .

وهو في ذلك كله يجرى على طريقة ثابتة لا يغيرها إلا إذا أعوزته المادة عن شيء من هذه الأشياء التي يهتم بها ، بل يستعمل مصطلحاً واحداً يتميز به عن غيره ، وقد نجد أصول ذلك المصطلح عند ابن حوقل ، ولكن الإدريسي أكمله وثبت معانيه إلا في نقط قليلة ، فهو مثلاً لا يفرق كثيراً بين المدينة والقرية ، ويستعمل اللفظين دون تمييز كبير ، ثم يضيف بعد ذلك ما يرى من الأوصاف التي تحدد أهمية الموضع كقوله مثلاً : « ومدينة شرشال صغيرة القدر لكنها متحضرة » والمدينة أو القرية المتحضرة عنده هي العامرة ذات الأسواق

والأسوار والمتاجر . واتساع معارفه بالنبات يتجلى في كل مناسبة ، فإلى جانب اهتمامه بالزروع المعروفة كالقمح والشعير وقصب السكر وحرصه على ذكر أنواعها في كل ناحية لا يفوته ذكر الشجر وثمره ونوعه وصفته ، كقوله إن بمدينة شرشال هذه « سفرجل كبير الجرم ذو أعناق كأعناق القرع الصغار ، وهو من الطرائف غريب في ذاته » ولا يفوته كذلك نبات طبي إلا ذكره ، فيقول مثلاً عند كلامه على جبل مجاور لمدينة بجاية المغرب : « وفي أكنافه جُمل من النبات المنتفع به في صناعة الطب مثل شجر الحنظل والستولوقندريون والبرباريس والقنطاريون الكبير والزراوند والقسطون والأقستين وغير ذلك من الحشائش » ، وهو يحرص كذلك على ذكر الماشية وأنواعها ولحومها ، والأسماك وأسمائها وخصائصها ، حتى لقد ذكر من أسماء أسماك النيل وحده ١٤ اسماً بصفاتها وخصائصها ، وهو يذكر إلى جانب ذلك « المعادن » أى المناجم وما يستخرج منها ونوعه وكميته وما إلى ذلك مما يجعل كتابه معرضاً دقيقاً للحالة الاقتصادية في كل ناحية يتحدث عنها .

وربما كان تقسيم الكتاب إلى أقاليم وأجزاء هو أكبر صعوبات قراءة هذا الكتاب ، فإن البلد الواحد يقع وصفه في أجزاء من أقاليم شتى ، فإن الذى يريد أن يقرأ وصف النيل عنده يجد منابعه في الجزأين الثالث والرابع من الاقليم الأول جنوب خط الاستواء ، ثم يستتم الكلام عن هذه المنابع ويصل إلى النوبة في الجزء الثالث من الاقليم الأول شمال خط الاستواء ومن حدود النوبة إلى قوص في الجزء الرابع من الاقليم الثانى ، ومن قوص إلى منتصف الدلتا في الجزء الرابع من الاقليم الثالث ، وبقية الدلتا في الجزء الرابع من الاقليم الرابع ، ولا يتأتى الاطلاع بهذا الوصف وضبطه إلا إذا رسم القارئ خريطة بحدود الاقاليم والأجزاء كما تصورها الادريسي ، ثم يتابع الكلام عليها جزءاً جزءاً . وربما كان وادى النيل أسهل من غيره هنا ، لانه يسير في خط واحد من الجنوب إلى الشمال ، ولكن الامر يزداد عسراً عندما يتعلق ببلاد

تتسع شرقاً وغرباً وتقع في أجزاء مختلفة من أقاليم كثيرة مثل إيران أو وسط أوروبا. ، وقد وقع الادريسي في أخطاء كثيرة بسبب هذا التقسيم ، ويبدو ذلك واضحاً في كلامه عن منطقة ايرانشهر ، وقد عاب عليه بعض البحاثة المحدثين ذلك ، ولكن الخطأ أتى من محاولة الادريسي ترتيب معلومات وصلت إليه مضطربة مختلطة لا يمكن ضبطها على وجه الدقة ، ومن الجدير بالملاحظة أن هذه الناحية التي يسميها الجغرافيون العرب ايرانشهر ناحية غير محدودة ولا واضحة المعالم ، وما نجده عنها في كتابات ابن رسته وابن خرداذبة والمقدسي وابن حوقل يبدو فيه محاولتهم جمع أوصاف وتحديدات وجدوها في كتب الفرس القديمة ووضعها في نطاق عربي إسلامي بعد أن انحلت حدودها القديمة ولم يعد من الميسور تتبعها وتحقيقها^(١) .

وطبعي ألا تتساوى أوصاف الأجزاء في الدقة ، لأن الادريسي هنا — كأي عالم غيره — يكتب بالقدر الذي تسمح به مراجعته ومصادر معلوماته ، فهو لا يستطيع مثلاً أن يقدم نفس النوع من المعلومات عن الصين ومصر وجزيرة العرب وصقلية والأندلس والمغرب ، فهو عن الصين لا يملك إلا نزراً يسيراً من المعلومات ، وهذا النزير اليسير خليط من إشارات غير محققة وجدوها فيما بين يديه من الكتب وأقوال رحالة وملاحين لا يمكن التأكد من صحتها ، ومن هنا فإمكان الخطأ كبير وعملية الضبط والتنسيق عسيرة ، أما عن جزيرة العرب مثلاً فالمادة بين يديه وافرة تمكنه من الموازنة والتحقيق ، ثم إن الذين يعرفون الجزيرة من حوله كانوا كثيرين ، أما عن مصر فقد اعتمد اعتماداً رئيسياً على ابن حوقل ، وهو دليل لا بأس به في وصفها ، في حين أن الادريسي عرف

(١) مثال ذلك النقد الذي يوجهه ماركارت في بحثه عن ايرانشهر :

J. Marquart, *Eränjahr in Abhandlungen der Gesellschaft der Wissenschaften zur Göttingen*, 1901.

ولنفس المؤلف عن شرق أوروبا وشرق آسيا :

Osteuropäische und Ostasiatische Streifzüge. Leipzig, 1903.

بنفسه صقلية والأندلس والمغرب ، ومن هنا فإن كلامه عن هذه الأقاليم الثلاثة في غاية من الضبط والاحاطة . ومهما وجه من النقد للادريسي فإن المسؤولية تقع آخر الأمر على مراجعه ، وما ذنب الادريسي إذا لم يملك عن كل من الصحراء الكبرى أو الهند إلا مرجعاً واحداً ؟ كيف يمكن أن يتحقق من صحة ما وجدته في ذلك المرجع الواحد ؟ وكيف يمكن أن نأخذ عليه عدم اطلاعه على رسالة ابن فضلان عن بلاد البلغار وشواطئ البحر الأسود والجزء الأدنى من وادي الفلجا ونحن أنفسنا لم نكن نعرف عن رسالة ابن فضلان إلى حين قريب إلا تلك النقول التي أخذها عنها ياقوت وأوردتها في معجم البلدان ؟ ثم ، على فرض أنه اجتهد حتى حصل على رحلة ابن فضلان ، كيف يتحقق من صدق ما فيها وعدم صدقه ؟ كيف يزن بالموازين التي كانت في متناول يده حكاية السمكة التي يقول ابن فضلان أنها كانت تخرج إلى البر كل يوم ليقطع الناس من لحمها ما يحتاجون إليه ثم تعود إلى الماء ؟ كيف يشك في صحة كلام سفير خليفة المفروض أنه رجل متزن مصدق فيما يروي ؟ إننا اليوم نستطيع أن نرفض مثل هذا الخبر ، ولكن ينبغي أن نذكر أن الادريسي عاش في زمن كان الناس فيه لا يستبعدون ما يحكيه عالم موثوق في رأيه كابن الحسن المسعودي يقول إن في أقصى الجنوب الشرقى للعمور بلاداً ينبت فيها شجر يخرج منه نبات كالآرنج ويولد منه جوار يتعلقن بشعورهن وتصيح الواحدة منهن « واق واق ! » ومن هنا جاء اسم هذه الناحية الأسطورية المعروفة ببلاد واق الواق ؟ لقد استبعد الادريسي مئات من هذه الأساطير وسخر منها واتجه إلى المعلومات التي يقبلها العقل ، ولو أحصينا أحاديث الخرافة في كتبه لما بلغت قدر ما نجد في بضع صفحات من مؤلفات أي مؤلف آخر في ميدان الجغرافية ، وفي ذلك من الفضل ما فيه .

وقد درست معظم أجزاء جغرافية الادريسي على يد نفر كبير من المستشرقين قام كل منهم بدراسة الجزء الخاص ببلاده ، فيما عدا الجزء الخاص

بالمغرب والأندلس فقد قام بتحقيقه هولنديان هما دي خوية ودوزي ، وفي معظم هذه الحالات ترجم النص إلى إحدى اللغات الأوروبية ، وحقت أسماء المواضع وابعاد الطرق ومقاييس الأنهار وما إلى ذلك ، وقد اختلفت آراء هؤلاء الباحثين باختلاف حظ الادريسي من الاصابة في الكلام عن هذا البلد أو ذاك ، واختلفت الأحكام كذلك باختلاف مزاج الباحث وموازينه في النقد والكلام ، ولكن حتى الذين اشتدوا في الحكم على عمل الادريسي مثل رينو Reynaud ، الذي ترجم جغرافية أبي القدا إلى الفرنسية وقدم لها بمقدمة طويلة عن الجغرافية عند العرب ، لم يسهه آخر الأمر إلى أن يقول : « إن عمل الادريسي إذا نظرنا إليه في مجموعة تبيينا أنه — مثل عمل استرابون — أثر رفيع من آثار العلم الجغرافي »^(١) وقال ماك جوكين دي سلان : « إن الادريسي قام بالعمل الضخم الذي انتصب له بكفاية واضحة كل الوضوح ، ولسنا نجد فيما تقدمه من المؤلفات قبله في نفس الموضوع عملاً نستطيع أن نقارنه بعمله ، وحتى الآن ، وعلى الرغم من اتساع مجال العلم الجغرافي لا زالت هناك نواح كثيرة من الأرض يجد الجغرافي أو المؤرخ نفسه دون مرشد لو أن الملك رجار لم يقدم للإدريسي ما قدم من المعاونة ليقوم بعمله »^(٢) ويقول إتين كاترمير : « إن هذا الكتاب يضم قدراً عظيماً من المعلومات لا يظفر بها الانسان — على نفس الصورة — في أي كتاب آخر ألفه العرب »^(٣) وبعد دراسة مسهبة — هي خير ما لدينا عن عمل الادريسي إلى الآن يقول ميكيلي أماري : « إن عمل الادريسي يحتل مركز الصدارة بين كل ما ألف الناس في الجغرافية في العصور الوسطى »^(٤) وقد اقتصرنا على

M. Re naud, *Géographie d'Aboulféda*; tome I, Introduction générale à la Géographie des Orientaux, Paris, 1848, pp. CXX- CXXII; CCCX- CCCXVI. (١)

Mac Guckin de Slane, *Géographie d'Idrisi, traduite en français par Mr. Faubert* dans *Journal Asiatique*, 1841, III, Série, vol. XI, pp. 372-387. (٢)

Etienne Quatremère dans *Journal des Savants*, 1848, p. 749. (٣)

Michele Amari, *Storia dei Musulmani di Sicilia*, 1^a edizione, III, 605 sqq. (٤)

آراء هؤلاء وهم من أهل القرن الماضي ، لأن المستشرقين خلال تلك الحقبة كانوا يقرأون المطولات ويصبرون على متاعبها ، في حين أن ما يقرأ اليوم وتصدر الأحكام عليه هي الاجزاء والفصول القصار ، ولهذا فالاحكام عليها جزئية تصدق على جزء دون جزء ، ولا تعطى فكرة عامة عن عمل الادريسي ككل واحد لا يتجزأ .

ولا يتسع المجال هنا لعرض هذه الأجزاء وما قيل فيها ، ولهذا فسكتني بعرض أهم ما قاله ميكيل أماري مؤرخ صقلية الاسلامية ، ثم تتبع ذلك بالكلام على قسم واحد من نزعة المشتاق ، وهو الخالص بالأندلس .

يذهب أماري إلى أننا إذا قرأنا نص نزعة المشتاق في إمعان تبينا أن الادريسي استخدم في كتابته مراجع أخرى كثيرة غير التي ذكرها في فاتحة الكتاب ، ثم إننا نلاحظ أن المقياس الذي ذكره في كلامه عن جنوب خط الاستواء هو الميل الروماني لا الميل العربي ، وهذا الميل الروماني هو نفسه الذي ذكرت به الأبعاد في صقلية ؛ وبعض الأعلام الجغرافية الواردة في صقلية مرسومة على صورة قديمة ترجع إلى أيام الاغريق ، بدلا من ذكر أسمائها العربية أو أسماءه التي كانت معروفة بها خلال القرن الثاني عشر الميلادي ، وقد سبق ان لاحظ ليول أن الميل الروماني يعدل ١٤٨١ متراً ، وأن الميل الصقلي الذي كان مستعملا إلى سنة ١٨٠٩ يعدل قريبا من ذلك : ١٤٧٧ متراً ، في حين أن الميل الذي اعتمد عليه الادريسي في صقلية يختلف عن كليهما ، فن أين أخذه ؟ ^(١) ومن أين أتى بهذه الصور القديمة للأعلام الصقلية واليونانية وبعض الفرنسية ، مع أننا نعرف أنه كان يأخذ رسم أسماء الأعلام الأوروبية من أفواه الرحالين والتجار ويثبتها بالصورة التي كانت

Joachim Lelewel, *Géographie du Moyen - Age*, Bruxelles, 1852, chap. 60. (١)
tome I, p. 100.

آراء ميكيلي أمارى

مستعملة بها على أيامه فعلا ؟ وأتى أمارى ببعض الامثلة من نص الإدريسي وأصلها اليونانى أو اللاتينى والاسم الذى كانت معروفة به إن وجد ، مثلا :

الاسم كما رسمه الإدريسي	الأصل اللاتينى إن وجد	الصورة الشائعة للاسم إن وجدت
نكبته	Naupactus	ليبانتو
شكله	Scylaum	
لا كدمونه	Lacedomona	
اغربش	Euripos	Negroponte
ابلهخونية	Aflakhonia	Paphlakhonia
مدْيِلان	Mediolanum	
أرغَمِينِسْ	Arinminum	
بادى	Padum	
البرنية	Alvernia	Auvergne
انقازمه	Aequolesima	Angoulême
بُلْنِيَّة	Bologna	
برى	Berry	
الكرومنت	Clermont	
ازبرج	Augsburg	
انكرتره	Inghiterra	
استرك	Utrecht	
هستنيجس	Hastings	

ويحاول أمارى بعد ذلك أن يتعرف الطريقة التى رسم بها الإدريسي خريطته ، وانتهى إلى شيء قريب مما ذكرناه آنفاً ، غير أنه يرى أن الذى عُمل أول الأمر لم يكن كرة أرضية وإنما خريطة مسطحة تبين وجهى الأرض

planispherio مساحتها متر أو أقل قليلا ، وأن خرائط الأجزاء التى أدرجت فى الكتاب عملت بمقياس الشدس أو الخمس بالنسبة للخريطة الكبيرة ، وأن التصغير عمل دون رسم خطوط طول أو عرض ، واعتمد أولا وآخرأ على كفاية الناسخ أو عدم كفايته .

ثم يضيف أمارى أن مواقع البلاد الرئيسية حُدِّدَتْ بالاستعانة بنجوم معروفة ، ثم حددت مواقع ما يقاربها بالمقياس إليها مع الاستعانة بخرائط قديمة مثل تلك المنسوبة إلى الفريد الكبير أو خريطة الدنيا المحفوظة فى مكتبة الجامعة فى تورين . هكذا نستطيع تحليل أحاديث الخرافة التى ينقلها الادريسي عن بلاد يأجوج ومأجوج وتحديد موقعها ، وقد نقل الادريسي ذلك عن الجغرافى الاسكندرى (أى بطليموس) لأنه لم يحصل على أوصاف رحلات أحدث منها فى هذه النواحى ، ولو حصل عليها لاستطاع تحقيق كلام بطليموس كما فعل فى غير ذلك من النواحى . ويمكن القول بأن رجار عندما شرع فى هذا العمل لم يكن لديه خرائط ملاحية دقيقة ، لأن هذه لم تظهر إلا فى القرن الرابع عشر ، بعد شيوع استعمال البوصلة .

ويلاحظ بصورة عامة أن الأجزاء التى حصل الادريسي على معلومات عنها رُسمت أكبر من تلك التى لم يجد عنها إلا شيئا قليلا ، وذلك واضح حتى بالنسبة لخرائط إقليم واحد مثل إيطاليا ، فإن حوض التيبر وأراضيه مثلا رسمت كبيرة مفصلة ، لأن هذه النواحى كانت تحت حكم رجار ، أما وسط إيطاليا فَرُسم مصغراً لأن المعلومات عنه كانت قليلة ، إذ كان خارجاً عن حكم رجار ، ومثل ذلك يقال عن خريطة صقلية ، فهى كبيرة مفصلة ، بل أكبر بكثير مما كان ينبغى بالنسبة لحوض البحر المتوسط ، وذلك لوفرة المعلومات التى استطاع الادريسي جمعها عنها .

وأحسن أجزاء الكتاب فى رأى أمارى هو وصف البحر الأبيض والبلاد الاسلامية ثم صقلية وجنوبى إيطاليا ، وبلى ذلك — من حيث الدقة والجودة —

آسيا الصغرى واليونان ووسط أوروبا وانجلترا وبلاد الشمال ، أما فيما عدا ذلك فالأخطاء والمتناقضات كثيرة ، ويعمل هذا بما ذكرناه ، ثم إن هذه الأجزاء كانت آخر ما كتب ، وكان الادريسي معجلاً يريد أن يفرغ من الكتاب قبل وفاة رجار ، فأسرع بإنجاز هذه الأجزاء بما كان تحت يده من المعلومات ، وبالفعل مات رجار بعد أن نجز الكتاب بأسابيع .

ويقول أمارى أن هذا الكتاب العظيم الذى يعتبر دون شك من « مفاخر التراث العلمى الإيطالى » خرج عن نطاق التراث الثقافى الأوروبى ، لأنه لم يترجم فى حينه إلى اللاتينية ، وهو لا يستبعد أن يكون بلاط رجار قد شرع فى عمل هذه الترجمة ، ولكن الفوضى التى ضربت بحجراتها على صقلية بعد وفاة رجار الثانى ثم قيام النصارى على المسلمين ، كل ذلك أوقف هذا العمل ، وقد استطاع الادريسي فى أثناء تلك الاضطرابات أن يبعث بنسخة من كتابه إلى بلد إسلامى ، وهناك لقيت الإقبال الذى ضمن للكتاب الخلود ، فقد عملت منه نسخ كثيرة . وأصبح من عمد العلم الجغرافى عند المسلمين بعد ذلك ، وانتفع به كل من جاء بعد الإدريسي من الجغرافيين المسلمين مثل ابن سعيد وأبى القدا وياقوت . أما فى أوروبا فقد نُسِيَ الكتاب تماماً حتى عُثِرَ على القطعة التى أشرنا إليها وترجمت إلى اللغة اللاتينية ونشرت باسم جغرافية النوبة دون اسم المؤلف ، وظل هذا هو كل ما تعلمه أوروبا عن عمل الادريسي ، حتى استطاع المسيو أسلين Aselin قنصل فرنسا فى مصر أن يحصل على قطعة كبيرة من نزهة المشتاق ضمن مخطوطات كثيرة اشتراها فى القاهرة ، وهذه القطعة هى اليوم المخطوط رقم ٢٢٢٢ فى المكتبة الأهلية فى باريس ، وهى من أحسن مخطوطات الادريسي وأدقها ، وأمارى يأسف لخروج هذا العمل من التراث الأوروبى واندراجه فى التراث العربى مع أنه تم على أيدي رجال ربما كان معظمهم إيطاليين وتحت إشراف ملك نرمانى إيطالى .

وصف الإدريسي لشبه جزيرة إيبيريا

يعتبر هذا القسم من أقسام نزهة المشتاق من أحسن أجزائها وأدناها على ملكة الإدريسي الجغرافية وقدرته على الابتكار وجمع المعلومات ثم تنسيقها في كل واحد مترابط ، ويرجع ذلك إلى أن الإدريسي عرف أجزاء كثيرة من إسبانيا ، ثم كانت لديه وفرة من المعلومات والأصول ، وهو بنفسه يشير إلى أنه رجع إلى العذرى ، ومع أنه لا يشير إلى الرازي أو البكري ، إلا أننا نعتقد أنه لا بد أن يكون قد اطلع على جغرافية الأول ، عن طريق العذرى على الأقل .

وقد كان هذا الجزء أحسن أجزاء « النزهة »^(١) خطأ ، فقد نشر دوزي ودي خوية القسم الواقع في الجزأين الثاني والثالث من الاقليم الرابع وترجمه إلى الفرنسية وأضافا إليه تعليقات وشروحا وافية ، ونشر قطعة منه قبل ذلك

(١) José Antonio Conde, *Descripción de España de Xerif Aledris, conocido por el Nubiense, con traducción y notas*, Madrid 1799.

وعنوان الجزء الذى نشره بالعربية : ذكر الأندلس تأليف الشريف الإدريسي .
و R. Dozy et J. de Goeje, *Description de l'Afrique et de l'Espagne par Edrisi*, Leiden 1866.
وعنوان النص العربى : المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ، مأخوذة من كتاب نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق للشريف الإدريسي ، وهذا القسم يشمل :

الأجزاء ١ و ٢ و ٣ و ٤ و ٥ من الاقليم الأول

والأجزاء ١ و ٢ و ٣ و ٤ من الاقليم الثانى

والأجزاء ١ و ٢ و ٣ و ٤ من الاقليم الثالث

والجزء الأول من الاقليم الرابع

Eduardo Saavedra, *La Geografía de España del Edrisi*, en *Boletín de la Real Sociedad Geográfica de Madrid*, XVIII, 1885, pp. 224-242.

وهذا المقال يتكون من مقدمة قصيرة ثم نص الجزء الأول من الاقليم الخامس الحاص بشبه الجزيرة الأيبيرية معتمداً على المخطوطات أرقام ٨٩٢ و ٨٩٣ و ٨٩٤ بالمكتبة الأهلية فى باريس (الملحق) ومخطوط أوكسفورد رقم ٨٨٧ ومخطوط رقم ١٥١ كيبيردج .

César E. Dubler, *Los Caminos a Compostela en la obra de Idrisi*, en *al-Andalus*, XIV, 1949, pp. 59-122.

Ibidem, *Las Laderas del Pirineo según Idrisi*, en *al-Andalus*, XVIII, pp. 337-373.

يوسف أنطونيو كوندى وحققها تحقيقاً ضعيفاً على قدر معرفته باللغة العربية وهذا القسم يشمل شمال شبه الجزيرة إلى جبال الشارات وهي المعروفة بجواداراما أو وادي الرمل ، وتقع إلى شمال مدريد بقليل ، ثم نشر إدواردو سافدرا بقية وصف الإدريسي لشبه الجزيرة أى ما يقع منها في الجزأين الأول والثاني من الإقليم الخامس ، وقام بدراسة ذلك الوصف كله أليمانى بولوفر دراسة طيبة في بحثه القيم عن «شبه الجزيرة الإيبيرية عند الجغرافيين العرب» وفي السنوات الأخيرة عكف على دراسة بعض أجزائه المستشرق السويسرى سيزار دوبلر ونشر عنه بحثين من خير ما قرأنا عن الأبحاث الإدريسية .

وقد سبق أن ذكرنا أن الإدريسي زار الأندلس وقضى فيه ردهاً من الوقت بعد عودته من المشرق ، وأنه أقام في قرطبة خلال هذه الزيارة وتردد على بعض نواحي الأندلس الإسلامى ، وقد عمد سيزار دوبلر إلى استعراض حوادث التاريخ الأندلسى خلال الفترة التى قضاها الإدريسي فيه ليتعرف النواحي التى يحتمل أن يكون قد زارها ، لأن هذه الفترة كانت حقبة مد وجزر بين الإسلام والنصرانية فى الأندلس ، ولا يستطيع الإدريسي أن يزور بلاداً فى أيدي النصارى أو مناطق كانت إذ ذاك ميادين قتال ، فخلال السنوات التى قضاها الإدريسي فى رحلته المشرقية سقطت سرقسطة وإقليم الثغر الأعلى سنة ١١١٨/٥١٢ ، وكان المرابطون قد استعادوا الكثير من القواعد الأندلسية الكبرى قبل ذلك : استعادوا بالنسية وإقليمها سنة ١١٠٢/٤٩٧ بعد وفاة السيد القمبيطور ، وشنترين سنة ١١١١/٥٠٥ ، ولم يستطيعوا إستعادة طليطلة رغم ما بذلوا من جهود ، وإن كانوا قد استولوا على بعض الحصون الواقعة جنوبها وشرقها ، أى أن حدود الأندلس الإسلامى عندما كان الإدريسي هناك كانت خطأ يبدأ فى الغرب شمالى شنترين ويسير شرقاً شمالى بطليوس ثم ماردة حتى يصل إلى البحر الأبيض شمالى مريبطر (سجوتو الحالية) . فما وقع شمالى هذا الخط نستطيع أن نقول إن الإدريسي لم يزره بنفسه ، فأخذ معلوماته

عنه من الكتب أو من أفواه التجار وأهل الرحلة ، وما وقع جنوبه نستطيع القول بأنه قد زار بعضه وعرفه بنفسه^(١) .

وفي أثناء مقام الإدريسي في صقلية منصرفاً إلى العمل في كتابه تغيرت الأحوال في الأندلس تغيراً كبيراً بعد أغسطس سنة ١١٣٧/ ذى القعدة ٥٣١ أى بعد زواج بترونيلا إبنة رذمير الراهب Ramiro el Monje وإبنة أخى الفونسو المحارب Alfonso el Batallador بالكند رامون بيرنجير الرابع صاحب قطلونية ، أى بعد اتحاد كندية قطلونية مع مملكة أرغون ، إذ أن ذلك كان تذكيراً بتضعضع الجناح الشرقى من جهة الإسلام الأندلسى ، ثم اتصل التضعضع حتى شمل الجبهة كلها بسبب انشغال المرابطين بالحرب المؤسفة التى شنها الموحدون عليهم فى وقت كان المسلمون فى أشد الحاجة فيه إلى التماسك ، فقد كان المرابطون آنذاك فى عنفوان جهادهم على طول الجبهة الأندلسية ، وقد تمكنوا بفضل ثباتهم الجيد أن يحتفظوا للإسلام بجزء يقل قليلاً عن نصف شبه الجزيرة ، ولكن عندما قام عليهم الموحدون تداعت تلك الجبهة وتوالى التراجع ، ولم يستطع الموحدون أن يستعيدوا شيئاً بعد ذلك إلا فى النادر ؛ وأظن أن شيئاً من هذا كان فى نفس الشريف الإدريسي وهو يكتب ، فهو معجب بالمرابطين غير راض عن الموحدين : سقطت شنترين سنة ٥٤٢/ ١١٤٧ والاشبونة فى أكتوبر من نفس السنة (ربيع الثانى ٥٤٢ هـ) ، وفى نفس الشهر سقطت المرية فى يد الفونسو السابع ملك قشتالة ثم استعادها الموحدون بعد ذلك بعشر سنوات ٥٥٢/ ١١٥٧ ، وسقطت طرطوشة فى رجب ٥٤٣/ ديسمبر ١١٤٨ ، وفى العام التالى سقطت لاردة وإفراغة Fraga ومكناسة Mequinenza .

ولم يشر الإدريسي فى النص إلى زيارته للمواضع إلا فى حالات قليلة جداً ، وفيما يتصل بالأندلس لا ينص صراحة إلا عن زيارته لموقعين : أبال (Ovejo)

على مسيرة يوم شمال قرطبة ثم الاشبونة ، ولكن وصفه الدقيق لبعض مواضع أخرى مثل المرية يدل على أنه زارها ، فهو يصفها وصفاً دقيقاً ويتحدث عن أسوارها وأهميتها التجارية بتطويل ، بل يضيف في سياق حديثه عنها ملاحظة تدل على أنه كانت لهذا البلد مكانة في نفسه ، قال : « المرية في هذا الوقت الذي ألفنا كثنانا هذا فيه صارت ملكاً بأيدي الروم ، وقد غيروا محاسنها وسبوا أهلها وخربوا ديارها وهدموا مشيد بنيانها ، ولم يبقوا على شيء منها »^(١) ، وجدير بالذكر هنا أن وصف الادريسي للمرية أوفى من وصف العذرى وأحفل بالمادة النافعة ، فإذا كان العذرى هو الجغرافي الأندلسي الوحيد الذي ذكره الادريسي بين مراجعه ، استطعنا أن نستنتج أنه أخذ جزءاً كبيراً مما كتبه عنها من مرجع آخر أو كتبه بناء على مشاهدة شخصية .

وقد استبعد دوبار أن يكون الإدريسي قد زار نواحي مما كان في يد النصارى من الأندلس في الوقت الذي كان هو فيه هناك ، فوصفه لطليطة لا يصورها كما كانت في النصف الأول من القرن السادس الهجري بل في العصور الإسلامية التي سبقت سقوطها سنة ٤٧٦/١٠٨٦^(٢) . ويلاحظ كذلك أن أوصافه لبلاد هامة مثل غرناطة وإشبيلية مقتضبة وغير دقيقة ، مما نستنتج منه أنه لم يزرها بنفسه ، أو مر بها مروراً سريعاً لم يسمح له بالتحقيق والتقصي كما فعل في المرية .

أما فيما يتصل بمراجعته عن اسبانيا ، فقد رأينا أنه يذكر العذرى ، وقد لاحظت هنا وهناك لمحات قصيرة تؤيد انتفاعه بهذا النص ، ولكننا لا نستطيع القول بأنه اعتمد عليه اعتماداً رئيسياً ، بل سنرى أنه استخدم تقسيم العذرى للكور إلى أقاليمها وأجزائها الإدارية استخداماً خاصاً ليقسم الأندلس تقسيماً جغرافياً لا نجده عند غيره ، ولكنه اعتمد على الرازي اعتماداً رئيسياً كما سنرى

(١) الإدريسي : وصف المغرب وأرض السوادن ومصر والأندلس ، ص ١٩٨ .

(٢) نفس المصدر ١٨٧ — ١٨٨ .

وربما أخذ أشياء عن البكري ، ولا نستطيع القطع بهذا لأن نص البكري عن الأندلس لم تبق لنا منه إلا بضع أوراق كما ذكرنا ، أما اعتماده على بطليموس وهرويش فظاهر من تصوره لهيئة شبه الجزيرة .

والحقيقة أن الإدريسي عندما تعرض لوصف شبه الجزيرة الايبيرية وجد نفسه أمام مشاكل كثيرة كان عليه أن يحلها ، وقد اجتهد في ذلك ، ولكن الحلول التي وصل إليها لم تكن موفقة دائماً ، فقد عاش وكتب في عصر كانت الأحوال والأوضاع في شبه الجزيرة تتغير تغيراً سريعاً ، وفرق بين شبه الجزيرة كما وجده موصوفاً في كتابات الرازي والعذري والبكري ، وشبه الجزيرة الذي عاش فيه وألم ببعض مواضعه قبل ذهابه إلى صقلية ، والفرق بعيد كذلك بين هذا كله وصورة شبه الجزيرة كما وصلته وهو يكتب كتابه في صقلية ، وينبغي أيضاً أن نذكر أنه كان يكتب لعالمين : عالم المسلمين الذين هو منهم ويكتب بلغته ولغتهم وعالم النصارى الذين يتعاون معهم ، ولكل من هؤلاء نواح تهمه وأشياء يحرص على أن يقرأها في ذلك الكتاب ، فبينما كان العذري أو البكري يعينان ببلاد الاسلام فحسب ويكتفيان بإشارات صغيرة إلى ما وراء ذلك شمالاً دون أن يضر ذلك بمجموع ما يكتبان ، فإن على الإدريسي أن يوفى بلاد الشمال حقها من الوصف ، وأن يذكر المزارات المسيحية والطرق إليها ويوفيهما حقها من الكلام ، ثم إن المادة الطيبة عن ذلك كله كانت وافرة عنده ، فمن حوله ملاحون وسفار كثيرون من قطلونية ونبرة وأرغون واشتريس وليون وجليقية ، وهو يريد أن يدخل هذه المعلومات كلها في كتابه وينسق بينها وبين ما لديه في كتب الجغرافية الإسلامية وهو كثير أيضاً .

أضف إلى ذلك أن الوضع السياسي كان له أثر بعيد في تصوره لشبه الجزيرة ، فقد وجد حد فاصل عريض يفصل بلاد الاسلام عن بلاد النصارية في شبه الجزيرة في العصر الذي كتب فيه ، وهو لا يستطيع أن يهمل هذا الحد الفاصل ، ثم إن قرطبة لم تعد مركز شبه الجزيرة ، ولم يعد في الامكان

حساب الطرق وإبعادها منها وحدها كما كان السابقون عليه يفعلون ، وهو لا يستطيع أن يتخذ طليطلة مركزاً لأنها لم تكن قد وصلت بعد إلى هذه الدرجة من الأهمية ، ولهذا كله كان عليه أن يبتكر أسلوباً جديداً للكلام على شبه الجزيرة ، أسلوباً لا يتعارض مع تقسيمه المعروف إلى أقاليم وأجزاء . وقد ابتكر في الحق كثيراً وجاء بصورة لشبه الجزيرة لم يسبقه إليها أحد ، وإن كان ذلك قد أوقعه في أخطاء لا تنقص من قدر ابتكاره ، وقد كنا نتمنى لو استطاع تداركها ، خاصة وأن ذلك لم يكن عليه عسيراً .

ولكي يحل الإدريسي طائفة من المشاكل التي اعترضته اتخذ أساساً لتصوره لشبه الجزيرة خطأ يسير مع سلسلة جبال وادي الرملة Guadarrama وهذا الخط يستمر من قلرية Coimbra إلى قرب الجرى الأوسط لنهر إيره ، وهو يسمى هذه الجبال الشارات أو الشارات ، ويقول إن الأندلس مقسومة بها من وسطها في الطول^(١) والطول هنا يراد به من الشرق إلى الغرب ، لأنه قبل ذلك يقول إن الأندلس مثلثة الشكل ، وعند كلامه عن طليطلة يقول « وعلى بعد منها في جهة الشمال الجبل العظيم المتصل المعروف بالشارات ، وهو يأخذ من ظهر مدينة سالم (Medinaceli) إلى أن يأتي قرب مدينة قلرية »^(٢) فهذه الجبال توازي الخط الذي رسمه فاصلاً بين الإقليمين الرابع والخامس ، وإلى جنوبه يسير موازياً له الخط الفاصل بين إسبانيا الإسلامية وإسبانيا النصرانية وهو يقول بهذا الصدد : « وما خلف الجبل المسمى بالشارات في جهة الجنوب يسمى إشبانيا ، وما خلف الجبل في جهة الشمال يسمى قشتالة ، ومدينة طليطلة في وقتنا هذا يسكنها سلطان الروم القشتاليين »^(٣) ، وهذه هي المرة الأولى التي نلتقي فيها هذا التقسيم وتلك التسميات : فشبه الجزيرة كله يسمى عنده الأندلس ، ونصفه النصراني

(١) الإدريسي : المغرب وأرض السودان ... ، ص ١٧٣

(٢) نفس المصدر ، ص ١٧٨

(٣) نفس المصدر ، ص ١٧٤

يسمى أندلس قشتالة. ونصفه الجنوبي أندلس اشبانيا ، وهذا التقسيم في ذاته يدل على فهم صحيح لحال شبه الجزيرة على أيامه ، ففي النصف الثاني للقرن الثاني عشر الميلادي كانت قشتالة Castilla رأس الممالك النصرانية وأكبرها ، ولا بأس لهذا في أن يسمى الجزء النصراني كله اندلس قشتالة . واعتماداً على هذا الخط المتوسط الذي اتخذته فاصلاً بين قسيمي شبه الجزيرة يقول : « وفي جنوب هذا الجبل تأتي مدينة طليطلة ، ومدينة طليطلة مركز لجميع بلاد الأندلس ، وذلك أن منها إلى مدينة قرطبة بين غرب وجنوب (أى إلى الجنوب الغربى) ٩ مراحل ، ومنها إلى لشبونة غرباً ٩ مراحل ، ومن طليطلة إلى شنت ياقب على بحر الأتقليشيين ٩ مراحل ، ومنها إلى جاقا شرقاً ٩ مراحل ، ومنها إلى مدينة بلنسية بين شرق وجنوب ٩ مراحل ، ومنها أيضاً إلى مدينة المرية على البحر الشامى ٩ مراحل »^(١) ، ولا يمكن الحكم بدقة هذه التقديرات أو عدم دقتها ، لأن الأمر هنا يتعلق بالطرق التي كانت تسلك في الانتقال من طليطلة إلى كل من هذه المدن ، ولكنها تعطي على أى حال فكرة عن توسط طليطلة في شبه الجزيرة ، وهذا هو ما قصد إليه الإدريسي . ويبدو غريباً أن يدقق الإدريسي التدقيق في تعيين مكان قرطبة بالنسبة لطليطلة : جنوباً بغرب ، ثم يقول بعد ذلك إن جاقا Jaca شرق طليطلة وإن لشبونة إلى شرقها مع أن الأولى إلى الشمال الغربى والثانية إلى الجنوب الغربى ، ولكن تعليل ذلك واضح ، وهو أنه كان يعتقد أن شبه الجزيرة مثلث الشكل وأن جبال البرت (يسمىها جبال الأبواب أو البرنيو) تسير من الشمال إلى الجنوب : وفي هذه الحالة يتغير محور شبه الجزيرة ، ويصير الخط الممتد من لشبونة إلى طليطلة ومنها إلى جاقا متجهاً من الغرب إلى الشرق بدلاً من اتجاهه الطبيعي من الجنوب الغربى إلى الشمال الشرقى .

(١) صفة الغرب والأندلس للإدريسي ، ص ١٧٣

وقد تبع الإدريسي بطاليوس وهروشيوس وبقية جغرافي العرب في القول بأن شبه الجزيرة مثلث الشكل ، ولم يكن يستطيع تصحيح هذا الخطأ ، لأن هذا كان يقتضى منه معاينة نواحي الجزيرة وسواحلها ، وهو لم ير إلا جزءاً من هذه وتلك ، ثم إن تعرف الاتجاهات على وجه الدقة لم يتم إلا بعد تجويد صناعة البوصلة وإحكام استعمالها ، وقد كانت البوصلة معروفة ولكن فن استعمالها لم يتم إلا في القرن الرابع عشر ، وعلى أى حال فقد استطاع الإدريسي في خريطته الكبيرة أن يعدل هيئة شبه الجزيرة ، فلم تظهر مثلثة الشكل فيها ، وإنما قريبة من هيئتها الحالية ، وكأنما لم يستطع وهو يرسم ويحقق المواضع والمسافات إلا أن يدخل هذا التعديل ، أما في الكتابة فإن غرابة الشكل المثلث لشبه الجزيرة لا تكاد تلاحظ ، وعلى أى الأحوال فإن نقط الخلاف بين خريطة الإدريسي ونص جغرافيته كثيرة جداً ، وأبسط ما لاحظته الباحثون من هذه النقط هو وجود أعلام كثيرة على الخريطة لا وجود لها في النص والعكس بالعكس ، وتعليل ذلك أنه ، وهو يعمل كانت تتصل بعلمه مواضع فيثبتها على الخريطة وينسي إدخالها في النص ، أو يصادف في قراءته مواضع فيثبتها في النص دون أن يوقعها في الخريطة ، وعمله كله على أى حال كان في حاجة إلى مراجعة دقيقة ، ولكنه كان معجلاً يرجو الفراغ من النص وتقديمه لرجار ، فلم يتسع الوقت لذلك ، وكان على الحق في إسراره ، فقد توفي رجار بعد أن نبجز الكتاب بأسابيع قليلة ، ثم لم تسمح له الظروف بالعمل الهادئ الذي تستلزمه المراجعة كما رأينا .

ويتكون كلام الإدريسي عن شبه الجزيرة من ثلاثة أقسام ، الأول قصير جداً عن الهيئة العامة لشبه الجزيرة وانقسامها إلى قسمين ، إسلامي ونصراني ، وقد تحدثنا عنه ، والثاني أطول قليلاً ، وفيه يقسم شبه الجزيرة إلى أقاليم ، والثالث وهو الأكبر والأهم يتناول الوصف والكلام عن المدن والطرق والأبعاد والحاصلات والسكان والصناعات والزراعات وما إلى ذلك .

والقسم الثانى ، الخاص بالتقسيم إلى أقاليم يعتبر فى ذاته مشكلة من مشاكل الجغرافية الادريسية .

ذلك أن هذه الأقاليم — وعددها عنده ستة وعشرون — لا تتمشى مع أى تقسيم جغرافى أو إدارى سابق ، فلا هى إدارية سياسية مثل تقسيم الرازى إلى كور ومدن ، ولا هى جغرافية تحدد مناطق معينة ذات خصائص طبيعية واضحة ، وإنما هو فيما يبدو تقسيم خاص لجأ إليه الادريسي لتيسير الوصف الجغرافى ، وحتى هذا الفرض لا يحل المشكل ، فلو كان الأمر كذلك فلماذا اتبع هذا التقسيم فيما يتصل بالقسم الإسلامى من شبه الجزيرة دون القسم النصرانى ؟ ولماذا لم يتبع نظاماً واحداً فى التسمية ، أى يجعلها على أساس المدن فيقول مثلاً إقليم إشبيلية وإقليم قرطبة وإقليم المرية ، أو على أساس الظواهر الجغرافية فيقول مثلاً إقليم البحيرة وإقليم السهل وإقليم الجبل ، أو على أساس المحصولات الزراعية فيقول إقليم الزيتون وإقليم البصل وما إلى ذلك ؟ لماذا اتخذ أسماء المدن حيناً والأعلام الجغرافية الطبيعية حيناً ثانياً والمزروعات حيناً ثالثاً ثم الأقوام رابعاً ثم إذا كان هذا تقسيماً خاصاً لجأ إليه هو ، فلماذا لم يجعله تقسيماً هندسياً كالتقسيم إلى أقاليم وأجزاء ، وهو هندسى صرف هدفه تقسيم سطح المعمور إلى مستطيلات يمكن تصوير كل منها فى خريطة خاصة ؟

تلك كلها أسئلة لا نستطيع لها جواباً . لقد حاول إدواردو سافندرا فى بحث قيم أن يقرب بين هذا التقسيم وتقسيم اسبانيا الحالى إلى مديريات ولكنه لم يستطع ، لأن حدود أقاليم الادريسي لا تطابق حدود أى تقسيم آخر سياسى أو إدارى سابق أو لاحق ، وحاول قبله أوريليانو فرنانديث جرا Aureliano Fernández Guerra أن يطابق بين هذا التقسيم والتقسيم الكنسى لاسبانيا على أيام القوط ، ولكنه لم يوفق رغم ما بذل من جهد ، وهذا طبيعى ، لأن الذى يطابق هذا التقسيم الكنسى هو التقسيم الإدارى العربى كما أثبتته الرازى وبيناه فى موضعه من هذا البحث ، وأخيراً تعرض للموضوع — دون

بحث أصوله — خوسيه اليماني بولوفر José Alemany Bolufer في مقال معروف عن وصف اسبانيا عند الجغرافيين العرب ، وكان هذا في سنة ١٩١٩ ، وبعد هذا لم يعد أحد إلى الموضوع^(١)

وقد يبدو لنا أن جغرافية العذرى تعيننا على حل هذه المشكلة ، لأن معظم « الأقاليم » التي قسم الإدريسي الأندلس إليها هي أقاليم من كور بحسب تقسيم العذرى ، ولكننا لا نفهم السبب الذي حدا بالإدريسي إلى اختيار أسماء أقاليم صغيرة من كور وإطلاقها على مساحات واسعة تعدل الكور في المساحات ، خاصة إذا لاحظنا أن أقاليمه تلك تضم مدناً أهم وأكبر من أسماء تلك التي أطلقها عليها ، فإقليم شذونة مثلاً يضم إشبيلية ، وإقليم البيرة يضم غرناطة ، وإشبيلية أكبر وأهم من شذونة سرات ، والبيرة لم تكن شيئاً إلى جانب غرناطة .

ولا نستطيع القول لذلك إن هذه الأقاليم تعين التقسيم الإداري على عهد المرابطين أو أوائل أيام الموحدين ، لأننا لم نسمع بأن أيًا من الدولتين أعادت تقسيم الأندلس إدارياً وأطلقت أسماء جديدة على الوحدات الجديدة ، ثم إنه من الثابت أن كورتى لإشبيلية وغرناطة ظلنا بهذا الاسم على أيامها ، ومن ثم قسميتهما بإقليمى شذونة والبيرة لا علاقة لها بتقسيم إداري .

بقي فرض واحد نعرضه وننتظر به ما عسى أن يجد من النصوص التي يمكن أن تكشف لنا وجه الحق في هذا الموضوع ، وهو أن هذه الأقاليم وأسماءها كانت مصطلحات شعبية جرى الناس عليها فيما بينهم ، كما نقول في مصر مثلاً الوجه القبلي والوجه البحري ، فهذان مصطلحان لا نجدهما في أى كتاب من كتب الجغرافية حتى العصر التركي على الأقل ، ولم يدخلوا في

Eduardo Saavedra, *La España del Edrisi*, (Madrid 1881).

(١)

وقد ضمن سافدرا في كتابه هذا آراء أوريليانو فرنانديث جيرا

José Alemany Bolufer, *La Geografía de la Península Ibérica en los escritores Arabes* (Revista del Centro de Estudios Históricos de Granada y su Reino) tomo IX, mans. 3-4, 1919.

الاستعمال الرسمي إلا في العصر الحديث ، ومع هذا فقد كانا هما اللذان يطلقهما الناس فيما بينهم على قسمي مصر الكبيرين ، بينما كانت لهما في المصطلح الإداري والجغرافي لمصر أسماء أخرى ، وقد أخذها الإدريسي من أفواه الناس : التجار وأهل الرحلة والفلاحين ومن إليهم ، فالأغلب أن الناس لم يكونوا يقولون « كورة الجزيرة الخضراء » وإنما إقليم البحيرة ، ولم يكونوا يقولون كورة إشبيلية وإنما إقليم شذونة وكذلك كانت كورة قرطبة عندهم الكنبانية ، ولم يكونوا يقولون كورة المرية وإنما إقليم بجانة ، وكذلك إقليم البيرة بدلا من كورة غرناطة ، وكذلك إقليم القواطم بدلا من كونكة ، وهكذا ، وهذه كلها مصطلحات شعبية تعارف الناس عليها فيما بينهم ، وحدود هذه الأقاليم لا تتمشى مع أى تقسيم إداري أو جغرافي ، إنما هي نواح أو جهات ، والكثير من هذه التسميات قديم كان معروفاً قبل أيام العرب وربما قبل أيام القوط ، وربما كان الكثير منها إيبيريا قديماً أو بربريا مثل براميرة والوجة ومرمرية . وإلى هذا الأصل الشعبي ترجع الصور العربية الغربية لبعض الألفاظ مثل البلالطة جمع بلوط ، ثم الصيغ الهجينة التي تورد ألفاظاً غير عربية مجموعة جمعاً عربياً مثل الشارات والبشارات ، والعكس : ألفاظ عربية معاملة على نحو غير عربي وأمثله كثيرة كما سنرى .

ومن أدلة المصدر الشعبي لهذه الأسماء أنها لا تستوفى الأندلس الإسلامي كله ، فليس فيها ذكر لمرسية أو بلنسية أو المرية ، بل تدخل فيه نواح خارجة عنه مثل برشلونة ، ثم إن الإدريسي في كلامه المفصل بعد ذلك يذكر ما أهمله في ذلك التقسيم من المدن الأندلسية ، ثم يقول في نهاية كلامه عن هذه الأقاليم : « فهذه كلها أقاليم اشبانيا المسمى جعلتها الأندلس » وهذا يناقض ما نص عليه قبلا من أن شبه الجزيرة كله يسمى الأندلس ، وأن ما شمال جبال الشارات يسمى قشتالة ، وما جنوبه يسمى اشبانيا . وربما جاز لنا هنا أن نقول إن هذا التقسيم أخذه الإدريسي من رجل غير أندلسي : من واحد من تجار القطلونيين أو

الأرغونيين مثلاً ممن تصادف سرورهم بصقلية ، سألهم الإدريسي عن تقسيم الأندلس كما رآه فذكر له ذلك ، فاثبتته كما هو قبل أن يأتي بالوصف المفصل لشبه الجزيرة ، وكان ينبغي أن يعيد الإدريسي النظر فيه ويصوبه على أساس فهمه الأساسى لتقسيم شبه الجزيرة كما ذكره أولاً ثم على أساس المعلومات الواقية التى أتت بها بعد ذلك . ولكن الإدريسي لم يراجع ولم يصوب ، إذ أعجلته الأيام عن ذلك ، فبقيت أجزاء هذا الوصف وكأنها مسودة تنتظر المراجعة والتصويب والتنسيق . ودليلنا على ذلك قول الإدريسي بعد إيراد هذه الأقاليم : «والأندلس المسماة اشبانيا أقاليم عدة ورساتيق جملة ، وفي كل إقليم منها عدة مدن ، نريد أن نأتى بذكرها مدينة مدينة بحول الله تعالى» وليس فى هذه العبارة إشارة إلى الأقاليم التى ذكرها قبل ذلك ، والإشارة إليها قليلة فى الوصف المفصل ، مما يدل على أن الفقرة الخاصة بالأقاليم وضعت بين التقديم العام عن هيئة شبه الجزيرة وأقسامها والوصف المفصل ، وقد وضعها الإدريسي هنا لتكون أشبه بخط السير الذى سيعتبعه فى وصفه المطول للأندلس . والواقع أنه يتخذ هذا التقسيم طريقاً للوصف بعد ذلك دون أن يشير ولو مرة واحدة إلى أصله أو طبيعته ، إنما هو عنده مجرد طريقة لتيسير الوصف ؛ وعدد هذه الأقاليم ستة وعشرون ، منها اثنان يسميان كورتين وهما تدمير وكونكة ، وأسماءها وحدودها والأعلام الواردة فيها حافلة بالتفصيلات ، وقد تناولها الباحثون السابق ذكرهم بالبحث والتعليق ، وكذلك فعل دوزى و دى خوية فى الترجمة الفرنسية لهذا الجزء من جغرافية الإدريسي ، وليس هنا مجال عرض هذه الأقاليم ومناقشة أسمائها وأصولها وحل معضلاتها ، فهذا مكانه دراسة خاصة عن جغرافية شبه الجزيرة عند العرب .

وبعد ذكر هذه الأقاليم يبدأ الجزء الأهم — والأكبر أيضاً — من صفة الإدريسي للأندلس ، وهو وصف عام يعتمد على المدن دون الأقاليم أو الكور ، فيذكر المدينة ويصف هيأتها العامة وموقعها على بحر أو نهر أو سفح جبل ،

فإذا كانت ميناء نهرياً أو بحرياً وصف مرفأها وبيّن أهميته وأنواع السفن التي تلم به ومن أى البلاد تجيئ وإلى أيها تذهب ، وعدّد أصناف المتاجر التي تحمل إليه ومنه ، ثم يذكر إذا كان للمدينة سور أو كانت غير مسورة ، وحالة ذلك السور ، ومن أى المواد بنى وهل لها قصبة أو ليس لها «سور ولا حظيرة» ثم سقيها ومن أين تكون : من نهر أو عيون ، وما نوع هذا الماء ، ثم الاقليم من حولها وما يزرع فيه ، وإذا كان فيه معدن ذكره وبيّن قدره ودرجته من الجودة وما يصنع منه ، ويذكر ما في ناحية المدينة من أعلام جغرافية ذات أهمية كالجبال والأنهار والسهول أو الملاحات أو الأراضي المنتجة أو المقفرة ، ويذكر أسماء هذه كلها إذا استطاع ، ثم يذكر بعد ذلك الطرق من هذه المدينة إلى ما يجاورها ويليه من المدن والقرى ، ويقدر الطريق بالأميال أو المراحل ، أو بهما معاً ، وربما أراد التدقيق فيذكر أن طول المسافة كذا «مرحلة خفيفة» ، ولا يفوته أن يذكر القناطر والآبار الهامة والمشاهد الفريدة مع وصف قصير ، وقد يفسر أسماء بعض الأعلام كشرف إشبيلية وقصر أبي دانس وجزيرة أم حكيم وما إلى ذلك ، وهو يذكر في الغالب شيئاً عن أهل المدينة وناحيتها ويصف حالهم من الفقر والغنى والنشاط والخمول ، ونادراً ما يستطرد مع التاريخ أو مع ذكر العجائب والغرائب .

ومعنى ذلك أن الإدريسي حشد في أصغر حيز أكبر قدر من المعلومات الجغرافية ، بحيث يدهش الإنسان لكثرة المادة التي يقدمها في سطور قليلة . وإذا تأملنا هذه المادة وجدنا بعضها من الرازي وبعضها الآخر من العذري أو هرويش ، وهناك معلومات كثيرة لا بد أنه استقاها بنفسه من المشاهدة المباشرة . أو من العارفين بهذه النواحي ؛ أى أن الذى لدينا هو خلاصة طيبة لمعظم المادة الجغرافية السابقة وكثير من المعلومات الجديدة مجموعة جمعاً سليماً قائماً على علم وفهم بما ينبغى للوصف الجغرافى وما يدخل فيه وما لا يدخل .

ووصف الادريسي للأندلس في معظم نواحيه يدل على أنه يعرف ما يتكلم عنه ، فبينما نراه في وصف مصر مثلاً يعتمد في الغالب على ابن خرداذبة وابن حوقل دون أن يراجع ما ينقله أو يحققه ، نجد في الأندلس ينقل عن هذين وغيرهما ممن ذكرنا ولكنه يراجع ويدقق ويقيس بحيث لا نكاد نستدرك عليه خطأ يستحق الذكر في أوضاع المدن والأعلام الجغرافية أو خصائصها . وعرضه لهذه الجغرافية أشبه برحلة ينتقل الانسان فيها من موضع إلى موضع ومن ناحية لناعية ، وخط سير الرحلة هو هذا التقسيم إلى أقاليم الذي أشرنا إليه ، فهي تبدأ من الجنوب عند جزيرة طريف Tarifa ثم تتجه إلى الغرب فتصف إشبيلية وإقليمها وشرقيها ، ثم تستطرد مع الشرف إلى المحيط الأطلسي فتصف ما يعرف اليوم بجنوبي البرتغال وما فيه من مدن ومواقع ، ثم تعود إلى قرطبة وإقليمها الذي يسميه الكتبانية ، ويمتد هذا الاقليم جنوباً حتى استجة وقبره ، ثم يمر بما فاتته من النواحي جنوبي نهر الوادي الكبير ، فيصف أشونة Osuna ولورة Lora ، ويستمر إلى شاطئ البحر الأبيض عند مالقة ، ويهبط مع هذا الساحل إلى مرسية Marbella ، ويلم بذلك ما يقابل ذلك في الداخل مثل أرشدونه Archidona وبيشتر Bobastro ، ويصف إقليم جيان Jaén الذي يسميه إقليم البشارت Las Alpujarras ، ثم يعود إلى ساحل البحر الأبيض فيلم بالمرية وإقليمها وهو يسميه إقليم بجانة Pechina ، ويستطرد إلى الغرب فيصف غرناطة وما حولها ، ومن غرناطة يصعد إلى الشمال فيذكر إقليم فريرة Ferreira وهو الذي يعرف في جغرافية الرازي بمدينة فريش Firrix ، ومن هناك يعوج إلى الشرق مرة أخرى ليتحدث عن تدمير أي مرسية وإقليمها ، ويتجه شمالاً بغرب ليصف إقليم كونكة Cuenca ، ويصعد بعد ذلك شمالاً بغرب ليصف إقليم شاطبة ودانية ، وهو يسميه إقليم أرغيرة Enguiera ، ويستطرد منه إلى بلنسية وإقليمها مسمياً إياه إقليم مرباطر Murviedro ، ثم يذكر إلى جنوبه الغربي إقليماً يسميه إقليم القواطم ، وهي تسمية غريبة حيرت الباحثين

ويرى دوزى أن القراءة الصحيحة للاسم هي القواسم، وهم بيت بنى القاسم أحفاد عبد الملك بن قطن الفهري عامل الأندلس على عهد الولاة، وهو يؤيد رأيه بأن الإدريسي يذكر في هذا الاقليم مدينة الفُنت Alpuente وكان بنو القاسم قد انتزوا بها أيام الطوائف، ولا زلنا نجد إلى الآن قرب الفُنت بلداً صغيراً يسمى بنى قاسم Beni Cásin^(١).

ويتبع الإدريسي ذلك بالكلام على إقليم يسمى الوَلْجَة وهو لفظ حار العلماء في أسره حتى أزال اللبس إلياس تيريس سادابا في دراسة له قال فيها إن الولجة مشتق من فعل وَلَجَ يلجج وهي تستعمل بمعنى الأرض الواقعة في منعطفات الأنهار، فتكون مثل شبه الجزيرة فتعتمد بها الجيوش لحصانها، وأتى إلياس تيريس بأمثلة عند ياقوت تؤيد ذلك، ثم رجع إلى لسان العرب في مادة وَلَجَ فوجد ابن الأعرابي يقول: «وَلَاج الوادى معاطفه، واحدها ولجة». وقال اننا نجد في المغرب موضعين على الأقل يحملان اسم الولجة، وقد استعمل اللفظ — ومصرفه الوَلَيْجَة — في الأندلس بمعنى الأرض الواقعة في منعطف الوادى أو الأرض الخصبة الواسعة على شاطئ النهر، وقال إن إقليم الولجة الوارد عند الإدريسي يقابل على وجه التقريب ناحية قلعة رباح المسماة Campo de Calatrava في محافظة ثيوداد ريال الحالية^(٢). والإدريسي يذكر في ذلك الاقليم ثلاث مدن هي سُرته Almonacid de Zurita وفتة Hita وقلعة رباح.

وبلى ذلك إقليم البلالطة، وهي كما قلنا تسمية محيرة، لأن الاسم المعروف لهذه الناحية عند جغرافيين العرب هو فُحص البلوط Valle de los Pedroches، وجمع بلوط على بلالطة جمع دارج. وكان اسم فُحص البلوط يطلق على مساحة من الأرض شمال قرطبة تقع اليوم في الجزء الجنوبي من مديرتي ثيوداد ريال Ciudad Real

(١) الترجمة الفرنسية لوصف الأندلس للإدريسي، ص ٢٩٠ هامش ٣

(٢) ألقى الأستاذ إلياس تيريس هذه المحاضرة في الدورة الخامسة للجلسات العلمية الأندلسية

في مالقة في ديسمبر ١٩٦٦

والبسيط Albacete بين مدينتي إينوخوسا دل دوك Hinojosa del Duque وجبل المعدن Sierra de Almadén ، وكان الجزء الجنوبي من فخص البلوط يسمى الدور Almodóvar نسبة إلى حصن الدور ، ولم يذكر الإدريسي هنا حصن الدور ، بل ذكر بطروش Pedroche وغافق وحصن ابن هارون el Castillo de Aznarón^(١) .

ثم يستطرد بعد ذلك غرباً إلى إقليم يسميه القفر^(٢) ، والمراد به إقليم الجوف الممتد في غرب اسبانيا ووسط البرتغال ، وهو الذي سماه البكري بالمفازة ، ويجعل الإدريسي فيه من البلاد شت مارية Santa María de Algarve ومارتله Mertola وشلب Silves (وثلاثتها في البرتغال حالياً) وحصونا أخرى .

وإلى الشمال الشرق من هذا الاقليم يذكر إقليم القصر ، وقد سمى هذه المساحة باسم المدينة التي كانت تحمل اسم قصر أبي دانس Alcocer do Sal وذكر كذلك يابوره Evora (كلاهما في البرتغال أيضاً) وبطليوس Badajoz وشريشة Jerez de los Caballeros وماردة Mérida وقنطرة السيف Alcántara (في مديرية قصرش أو قصر إش أو قصرش Cáceres) وقورية Coria .

ثم يذكر إقليماً إلى الشمال والغرب من هذا يسميه إقليم البلاط نسبة إلى مدينة صغيرة تسمى البلاط لا زالت موجودة إلى الآن بنفس الاسم Albalate ، ويظهر أن الإقليم كان يسمى بإقليم البلاط ، لأن مادوث يذكر هنا ناحية تسمى Campana de Albalat ، ويذكر الإدريسي فيه أيضاً مدينة مدلين Medellín الحالية ، وكل هذه مواضع في غربي مديرية قصرش الحالية .

(١) انظر : Eduardo Saavedra, *La Geografía de España del Edrisi*, Madrid, 1881.

وفي هذا الكتاب يجد القارئ تحقيقاً دقيقاً جداً لكثير من أسماء الأعلام الواردة في صورة مهمة عند الإدريسي ، وغافق قرية كانت إلى شمال قرطبة ، انظر عنها الترجمة الفرنسية للروض المعطار ، ص ١٨٧ .
(٢) في النص المطبوع تحقيق دوزي ودي خوية (ص ١٧٥) : إقليم القفر ، وفي نسخة أخرى الصقر ، ويلاحظ أن نقط الحروف في الأصل غير واضحة ، ولعتقد أن قراءتنا له أقرب إلى المعقول .

وفيا بين هذا الإقليم والحيط يذكر الادريسي إقليماً يسميه بلاطه يضع فيه ما يقابل وسط البرتغال الحالية فيما بين قلمرية Coimbra ولشبونة ويذكر فيه شنترين Santarem ولشبونة وشنتره Cintra .

وشمالى هذه الأقاليم الخمسة الأخيرة (البلاطة ، والقفر والقصر والبلاط وبلاطة) يذكر الإدريسي إقليم الشارات ، وهو عنده إقليم يمتد من جنوبى نهر تاجه إلى شمالى سلسلة الجبال المعروفة بوادى الرملة Guadarrama فى تصويره شرقاً (والحقيقة شمالاً بشرق) حتى أقصى مديرية وادى الحجارة Guadalajara وربما جزء من مديرية سوريا Soria الحاليتين ، ويذكر فيه طلبيرة Talavera de la Reina وطليطالة Toledo ومجريط Madrid والنهين Alfamín ووادى الحجارة وأقلش Uclés ووبذة Huete .

ويستمر بعد ذلك شرقاً (فى تصويره ، والحقيقة شمالاً بشرق) فيتحدث عما كان يعرف بكورة سرقسطة مسمياً إياه إقليم أرنيط Arnedo وهى بلدة صغيرة فى مديرية لجرونيو Logroño الحالية فى منتصف المسافة بين قاعدتها (بنفس الاسم) وتطيلة Tudela ، ويذكر فيه من البلاد قلعة أيوب Calatayud وقلعة دروكة Daroca ومدينة سرقسطة Zaragoza ووشقة Huesca وتطيلة .

ويضع بعد ذلك — فى طريقه إلى جبال البرت — إقليماً صغيراً يسميه إقليم الزيتون ، واسمه فى الغالب مشتق من نهر الزيتون المعروف الآن باسم el Cinca وهو نهير صغير يصب فى السيجر el Segre أحد فروع نهر إبره ويذكر فيه من المدن جاقة Jaca ولاردة Lérida ومكناسة Mequinenza وإفراغة Fraga .

ويتحدث بعد ذلك عن إقليم قطلونية مسمياً إياه إقليم البرتات والمراد بها جبال البرينيوس (التي تعرب خطأ باسم البرانس) ويذكر فيه طرطوشة Tortosa وطركونة Tarragona وبرشلونة Barcelona .

ويختم الوصف بإقليم يسميه مرمرية أو مرمريرة ، ولا نستطيع تحقيقه لأنه يكتب بالقول بأن فيه حصونا خالية . ويقول بعد ذلك : وما يلي البحر حصن طشكر Tiscar وكشطالى ، وهى ليست Castellón de la Plana وإنما Castello de Chiver كما رجح دوزى ،^(١) وكندة Cutanda^(٢) .

وواضح أن خط السير هذا ليس بالأمثل ولا الأقرب إلى التقسيم الجغرافى ، فهو يسير شمالا ثم غربا ثم شرقا ثم غربا مرة أخرى وهكذا ، ولو أنه تابع الرازى أو العذرى لكان أقرب إلى المنهج الصحيح ، نعم إن الإدريسى استوفى في الوصف المفصل ذكر المدن الرئيسية والأعلام الجغرافية الهامة على أحسن صورة ممكنة حتى عصره ، ولكن تتبع خط السير عسير بحيث لا يتيسر العثور على الفقرات الخاصة بالمدن والأعلام الجغرافية إلا بالاستعانة بكشاف مفصل ، ثم إننا لا نجد أى إشارة إلى تقسيم إدارى أو مالى ، ولكنها رحلة طويلة حافلة بالتفاصيل ، وفي غضون التفاصيل يضع التصور العام ، ولو أنه عنى بالاستفادة من جغرافية العذرى لاستكمل هذه الناحية أيضا .

والإدريسى حريص في هذه الجغرافية على ذكر المسافات بين المدن أو الأبعاد الخاصة بالجبال والشواطىء والأنهار ومسافات ما بينها ، ومرجعه فيما يذكر منها كتب الجغرافية أولا ثم أقوال الرحالة وأهل البلاد ، وفيما يتصل بإسبانيا يمكن القول إنه كان يعتمد على نفر من المستعربين أى من الأندلسيين النصارى ، وفي العصر الذى كان الإدريسى يكتب فيه ، كانت المستعربية كتسمية لطائفة معينة من أهل إسبانيا تعيش تحت السيادة الإسلامية ، قد أخذت تفقد طابعها المميز نتيجة لزوال هذه السيادة الإسلامية نفسها عن كثير من النواحي وتخلخلها فيمابقى للإسلام من نواحي الأندلس ، فقد أثبت سيزار

(١) انظر النسخة الفرنسية لنص الإدريسى ، ص ٢١٢ هامش ١

(٢) الإدريسي ، المغرب وأرض السودان . . . الخ ، ص ١٧٧ — ١٧٩

دوبلر اعتماداً على ما ذكره الإدريسي من الاحداث التاريخية أنه كتب ذلك الجزء الخاص بالأندلس ابتداء من منتصف ٥٤٢/الشهور الأخيرة من ١١٤٧ إلى آخر ٥٤٣/أوائل ١١٤٩ أى بعد أن وصل إلى صقلية خبر سقوط المرية في يد القونسو السابع في جمادى الأولى ٥٤٢/أكتوبر ١١٤٧ وربما بعد وصول خبر سقوط الاشبونة في نفس الشهر والسنة وقبل وصول خبر سقوط طرطوشة في يد رامون بيرنجير الرابع أواخر سنة ٥٤٣/أواخر ١١٤٨ وأوائل ١١٤٩^(١) ، ونتيجة لهذا التطور الذي كان يجرى على قدم وساق انفتحت السبل أمام المستعربين للتنقل في معظم أنحاء شبه الجزيرة ، ولابد أن أولئك الذين اعتمد عليهم الإدريسي كانوا عارفين بالنواحي الشمالية من شبه الجزيرة وكذلك بمنطقة جبال البرت وما يليها من جنوب فرنسا الذي كان يعرف بأفرنجة العظمى .

وصف اسبانيا النصرانية عند الإدريسي

يضع الإدريسي هذا الجزء الشمالى من شبه الجزيرة الإيبيرية في الجزء الأول من الاقليم الخامس ، وهو يتحدث فيه عن نواح لم يتناولها بالتفصيل جغرافى مسلم أو غير مسلم قبله ، فيما عدا هذه الإشارة المقتضبة التى أتينا بها من كلام هرشيش في ترجمتها العربية ، ومن ثم فإن الإدريسي لم يعتمد فيما أورد من صفتها على أصل سابق ، ولم يزرها هو بنفسه ، وإنما جمع المعلومات من أفواه من وجد من أهلها في صقلية تجاراً أو ملاحين أو سفاراً ، وربما كان بعضهم من نصارى صقلية أو إيطاليا ممن ذهبوا للحج إلى شنت ياقب في جليقية ، ولا غرابة والحالة هذه في أن نجده يتخذ شنت ياقب هذه مركزاً لوصف شمال اسبانيا كله : إليها تتجه الطرق وبالنسبة لهذه الطرق تذكر المدن والنواحي .

ويذكر الإدريسي نواحي شمال شبه الجزيرة الواقعة في ذلك الجزء الأول من الإقليم الخامس ، ولكنه بعد ذلك لا يحدد أقساماً أو أقاليم ، وإنما هو وصف عام بحسب المدن والطرق ، يصف الأولى ويبين مراحل الثانية ، ويقف وقفة قصيرة عندما يصادفه من القرى والمواقع والمعالج الجغرافية ملتزماً ما التزمه في جغرافيته كلها من حشد أكبر قدر من المعلومات في أصغر حيز وتجرى الدقة قدر ما استطاع . وقد وفق الإدريسي فيما طلب في أصغر حيز يمكن تصويره ، فأتى بصورة وافية بالفرض لاسبانيا الشمالية والشمالية الغربية ومنطقة جبال البرت وجنوبي ووسط فرنسا ، وقد وقعت أخطاء في بعض الحقائق الهامة والتفاصيل ، ولكن مسئولية هذه الأخطاء كما قلنا لا تقع عليه بل على مصادر معلوماته ، فقد وضع إقليم قطلونية شمالي جبال البرت ، ونقل بذلك جرنده Gerona وبرشلونة إلى ما يلي هذه الجبال إلى الشمال ، وهذا أمر يستغرب من مثله ، ولكن ما حيلته ، وقد قال له أهل هذه النواحي أنفسهم ذلك ؟ وكيف كان يمكنه أن يصحح هذا الخطأ ، وهو لم يذهب إلى منطقة قطلونية ، ولا كانت له أي وسيلة للذهاب إليها ؟ وكذلك يمكن أن يقال عما أخذ عليه من أخطاء في تقدير المسافات ، وقد عني سيزار دوبلر في بحثه عن طرق شنت ياقب وناحيتي جبال البرت يتتبع ما سماه بأخطاء الإدريسي في هذه التقديرات ، وكذلك فعل معظم من نشروا وبحثوا أجزاء من جغرافيته . ولنعتمد أن ذلك الوجه من النقد لا محل له ، لأنهم يحكمون على تقارير الإدريسي بحسب الطرق الحالية ومسافاتها ، وليس من الضروري أن تكون تلك الطرق هي التي كان يسلكها الناس في العصور الوسطى ، وليس من الصواب لهذا أن يقال مثلاً إن الإدريسي أخطأ في تقدير المسافات بين مراحل الطريق من شنت ياقب إلى جنوب فرنسا عن طريق ممر شيزروا وهو المعروف برنشالة ، والمراحل التي سنذكرها تبدأ بعد شنت ياقب مباشرة :

البلد برسم الادريسي	أصل هذا الرسم	الاسم الحالى	تقدير الادريسي	التقدير الحالى
مونت فبراير	Mons Februarii	Monte Febrero	١٢٠ ك.م. (١)	١٢٠ ك.م.
مونت راد	Portus Montis Yracis	Ponferrada	١٨ » (٢)	»
استرقة	Astolica	Astorga	٣٦ »	٤٧ »
ليوت	Legio	León	٤٠ »	٥٢ »
سنتفون	Sanctun Facundum	Sahagún	٤٠ »	٣٦ »
قريون	Carrionus	Carrión	٨٠ »	٨٠ »
برغش	Burgus	Burgos	١٢٠ »	١٢٠ »
ناجرة	Nagera-Nagara	Nájera	٤٠ »	٧٩ »
قسطيلية	Stella	Estella	٤٠ »	٨٤ »

وقد ذكر الادريسي في موضع آخر بلدين بين ناجرة وقسطيلية هما :

لكروى	Gronium	Logroño		
سولى	San Zoil	Sansol		
بنت لرينه	Pontem Regine	Puente la Reina	٤٠ »	٢٠ »
ببلاونة	Pampilonia	Pamplona	٤٠ »	٤٣ »
برت شيزروا	Portus Cisereus	Roncesvalles	١٠٥ » (طول الممر)	
من ييونة إلى شفت جوان		Sain-Jean-Pied- de-Port	٨٠ »	٥٤ »
قنجه		St. Bertrand de Ceming	٩٠ »	١٦٠ »
مرالس		Morlaas	٩٧,٥ ك.م.	١٢٠ »
أوش أو آتش		Ouch	١٠٥ »	٢٠٠ »

وبعد ذلك تلى بقية الطريق في فرنسا .

ويلاحظ أن تقديرات الادريسي لا تختلف عن الواقع الحالى إلا قليلا في معظم الأحيان ، لأنه وجد في هذا الجزء من يذكر له تقديراً صحيحاً للمسافات ولهذا فقد كانت تقديراته سليمة على العموم ، أما في بعض نواحي وسط

(١) قدر الادريسي ثلاثة أيام ، وكان ما يقطع في اليوم في العصور الوسطى على الخيل أو البغال بين ٣٥ و ٤٥ ك.م. فأخذنا المتوسط ٤٠ ك.م. وسنسبر على ذلك الأساس .
(٢) في النص ١٢ ميلا ، وميل الادريسي يتراوح بين كيلومتراً واثنتين فأخذنا المتوسط : الميل = ١,٥ ك.م.

إفريقية ووسط آسيا والهند وشرق آسيا فلم تكن أمامه إلا تقديرات خاطئة فأخذ عنها ، والعهد في ذلك كله على مصادر معلوماته كما ذكرنا^(١) .

ولكن الإدريسي استطاع أن يقدم وصفاً دقيقاً للناحية الطبيعية من جغرافية هذه النواحي . وربما كان أول جغرافي استطاع الكلام عن سلسلة جبال كنتبرية وتحديد اتجاهها ومبتدأها ونهايتها على صورة تطابق حقيقتها ، فيقول : « ومن حصن ألفارو (Faro في جليقية) المتقدم ذكره قبل هذا بيندي جبل شبيه ، فيمر مع مجرى البحر إلى أن يصل بيونة Bayonne ، فمرة يبعد عن البحر ، حتى يكون بينهما يوم ومرة يقرب حتى يكون بينه وبين البحر ١٥ ميلا ، ويتأدى متصلاً غير منفصل إلى مدينة بيونة ، ويتصل هناك بجبل هيكال الزهرة ، ويكون طوله مسير ٩ مراحل ، والرحلة ٣٠ ميلا^(٢) » . وهنا أيضاً نلاحظ أن الأسماء التي يذكرها هي التسميات الدارجة للأعلام الجغرافية ، لا أسماءها كما ستكتب بعد ذلك في الكتب ، فاسم شيبه لجبال كنتبرية معرب لـ Mons . Auseva وأوسبة مغارة في ذلك الجبل يقال في الأساطير أن بلای Pelayo هزم جيشاً إسلامياً عندها^(٣) ، فاطلقت العوام اسمها على سلسلة الجبال ، كلها في حين أن اسمها في المصطلح الجغرافي سلسلة الجبال الكنتبرية La Cordillera Cantábrica ، وكذلك استعمال جبل هيكال الزهرة أو جبل هيكال اسما لجبال البرت أصله اسم معبد كان يسمى هيكال الزهرة عند بلد فرنسي صغير يسمى اليوم Port-Vendres (واسمه القديم Portus Veneris) على شاطئ البحر الأبيض الجنوبي بيثونة ، وهذه تسمية دارجة تقابل الاسم المعروف وهو البرينيو ، والإدريسي يذكره أيضاً .

(١) اعتمدت في تحقيق الأسماء على : C. Dubler, *Compostela*, 114-117 .

(٢) الإدريسي ، الجزء الأول من الاقليم الخامس ، نشره سافدرا في دراسته التي أشرنا إليها قبل ، ص ٦٥ .

وانظر : C. Dubler, *Compostela*, 86-87 .

(٣) Lévi-Provençal, *La Péninsule Ibérique*, p. 5, n. 1 .

وهذه الدقة في الوصف الجغرافي الطبيعي واضحة في ذلك الجزء كله ، فهو يصف ساحل البحر ابتداء من الاشبونة إلى الشمال ثم منحرفاً شمالاً بشرق ثم شرقاً حتى يصل إلى جنوب فرنسا وصفاً هو الغاية في الدقة ، وفي أثناء ذلك الوصف يلم بذكر الأنهار التي تصب في هذا الجزء من ساحل الأطلسي وخليج بسكاية ويصف مجاريها ويقدر أهميتها واحداً واحداً .

ومثل هذا الوصف الدقيق ما كان يتأتى للإدريسي بدون اعتمادهِ على خرائط أدق بكثير من الخرائط التي تضمنتها كتب الجغرافية إلى ذلك الحين ، وقد ذهب سيزار دوبلر إلا أن الإدريسي لابد أن يكون قد اعتمد على خرائط تشبه أدلة الموانئ Portulani التي شاع انتشارها واستعمالها ابتداء من القرن الرابع عشر الميلادي ، وهي خرائط غاية في الدقة والضبط ، يذهب مؤرخو هذا الفن إلى أنها من ابتكار الجنويين والقطلونيين ، ولكن أرجح الآراء أن أصلها عربي .

وينبغي أن نلاحظ هنا أن هناك نوعين من الخرائط كانا معروفين حتى فن الخرائط الحديث في القرن السادس عشر الميلادي ، فأما الأول فالخرائط النظرية التي نجد نماذج منها عند الجغرافيين النظريين من بطليموس إلى الخوارزمي وبعض الرحالة الجغرافيين من أمثال ابن حوقل ، وهي خرائط توضيحية لا أكثر ، ليست وظيفتها تحديد المواقع على وجه الدقة وإنما مجرد بيان الهيئة العامة للأرض وبحارها وتوقيع البلاد بالنسبة بعضها لبعض ، وأما الثاني فالخرائط العملية التي كان أهل البحر يستعملونها ويسهرون بمقتضاها ، وهي رسوم عملية دقيقة كان أولئك الناس يعملون عليها في رحلاتهم ، وقد عرف ربابنة البحر والملاحين من العرب هذه الخرائط فيما يتصل ببحار آسيا والبحر الأبيض ، وذلك واضح من كلام المقدسي عن المحيط الهندي : « وأما أنا فسرت فيه نحو أَلْفَيْ فرسخ ، ودرت على الجزيرة (العربية) من القازم إلى عبادان ، سوى ما تَوَهَّت بنا المراكب إلى جزائره ولججه ، وصاحبت مشايخ فيه ولِدُوا ونشأوا

من ربانيين ووكلاء وتجار ، ورأيتهم من أبصر الناس به وبمراسيه ورياحه وجزائره ، فسألتهم عنه وعن أسبابه وحدوده ، ورأيت معهم دفاتر في ذلك يتدارسونها ويعولون عليها ويعملون بما فيها^(١) » ويقول في ذلك خوان بيرنيت « وتدلنا الاشارات السالفة على أن ملاحى المحيط الهندي في أواسط القرن العاشر كانوا يسافرون اعتماداً على كتب المسالك والخرائط البحرية ، التي كانت وقتئذ بدائية ناقصة ثم تحسنت بعد ذلك في عام ٤٠٠/١٠٠٩ بواسطة العلم أو مستعلم المركب جوازير بن يوسف الأريكي ، الذي وضع أسس المسالك البحرية العربية ، بعد أن قام برحلة في مركب الهندي دَبَوَكَرَه Dabawkarah وستسمى خرائط المسالك البحرية في مصطلح الملاحين فيما بعد رَحْمَنَاشَ Rahmanach وأدخلت عليها تحسينات عدة ، وتردد صداها في مخطوط مجهول المؤلف في القرن الرابع عشر ، حتى وصلت آخر الأمر إلى حوزة ابن ماجد ربان الرحالة فاسكو داجاما . ويبدو تاريخ تطور الرحناش واضحاً في مقدمة كتاب ابن ماجد المسمى « علم البحر » ، ثم أدخل المعلومون ، خلفاء ربانة القرن العاشر تحسينات متعددة تدريجياً على الدفاتر التي أشار إليها المقدسى . ونذكر على وجه الخصوص من بينهم ملاحاً من أصل أندلسي أو مغربي هو عبد العزيز بن أحمد المغربي ، حتى إذا كانت سنة ١١٨٤ استطاع إسماعيل بن حسن بن سهل بن أبان أن يقوم بدراسات في هذا الصدد ، فكتب ورسم الرحناش التي استخدمها ابن ماجد في كتابه^(٢) .

(١) المقدسى ، أحسن التقاسيم ، ص ٩٠ والنظر أيضاً ص ٥٥

(٢) خوان بيرنيت خيليس : هل هناك أصل إسباني عربي لفن الخرائط البحرية ، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ، المجلد ١ ص ٨٠—٨١ . وهذا المقال من أحسن ما كتب في الموضوع وقد رجع في كتابته إلى كل ما كتب قبله فيه ، والتناطح التي وصل إليها غاية في الأهمية ، وقد وردت في مقاله بعد ذلك عبارة تؤيد ما ذهبنا إليه من وجود نوعين من الخرائط : نظرية وعملية ، قال : من هذا يرى كيف أن ملاحى المحيط الهندي قد قاموا برحلاتهم ومعهم كتب المسالك البحرية قبل أن يعرفها إخوانهم الأوروبيون بعدة قرون ، كما يلاحظ أيضاً أن المقدسى عندما أشار إلى الخرائط البحرية فرق بينها وبين الخرائط الفنية (وهي التي سميناهما نحن بالخرائط النظرية) التي كان بعدها علماء اليابسة لتقديمها للملوك والأمراء والزعماء ، (ص ٨١) وكان ينبغي أن يضيف بعد ذلك « ولتضمنها في الكتب على سبيل المرح والتوضيح » .

ومعنى هذا أن معرفة الخرائط البحرية واستعمالها لم تقتصر على ملاحى المشرق من المسلمين ، بل عرفها ملاحوهم فى البحر الأبيض ، ولدينا خبر عن ملاح أندلسى يعرف بالشيخ القادسى ، كان ماهراً فى هذه الشئون وله بها معرفة واسعة^(١) . والمهم لدينا هنا أن الإدريسي عرف هذه الخرائط البحرية وانتفع بها فى تقدير المسافات بالبحر بين ميناء وميناء فى ذلك الجزء من كتابه ، وهذا واضح من قوله مثلاً : « والطريق من قُلمرية Coimbra إلى شنت ياقوب Santiago de Compostela وذلك — إذا شئته فى البحر — سِرتَ من حصن منت ميور (Mons Major حالياً Montemorovelho) إلى موقع نهر بوغو (Fluvius Voga) وحالياً (Rio Vouga) ، وهو أول أرض يرتقال بحرى الاشيا ؟ ، ويرتقال أرض معمورة بالقرى والحصون والعمارات المتصلة ، وبها خيل ورجال حراة يغيرون على من بجوارهم ، ولا يُستضاء بنارهم ، ونهر بوغو نهر كبير ، تدخله المراكب والشوانى ، وماؤه يدخله المد والجزر أميالا كثيرة ، ومنه إلى موقع نهر ذويره ١٥ ميلا ، وهذا النهر نهر كبير خَرَّار ، كثير الماء شديد الجرية عميق القعر ، وعلى ضفته مدينة سمورة (Zamora) ، وبين سمورة والبحر ٦٠ ميلا ، ومن هذا النهر إلى موقع نهر مينو (Mineus واليوم El Minio) ٦٠ ميلا ، وهو نهر كبير عظيم واسم كثير العمق ، والمد والجزر يدخله كثيراً ، والمراكب تدخله إرساء وسفراً ، لما على ضفتيه من القرى والحصون ، وفى وسط هذا الوادى ، وعلى ٦ أميال من البحر حصن فى جزيرة متوسطة فى النهر ، وهو فى نهاية من الحصانة والمنع ، لأنه على قمة جبل وعمر ليس بكثير العلو ، ويسمى هذا الحصن ابواقه (Isla Boega) بحسب رأى سافدرا ، ولكن سيزار دوبلر يعتقد أن الإدريسي خلط بين هذا الموقع وجزيرة أخرى تسمى Insúa فى نفس مصب (المينيو) . ومن نهر مينو إلى موقع نهر طرون (هذا النهر يسمى Oitavén

(١) انظر : Ferrand, *L'Elément Persan dans les Textes Nautiques Arabes des XV et XVI Siècles*, dans *Journal Asiatique*, 1934, fasc. 1, p. 193-257.

ولكن على ضفته قرية تسمى Tourón وبها سماه الإدريسي (٦٠ ميلا ، وهو أيضاً نهر كبير يدخله المد والجزر ، وعلى مقربة من البحر في وسطه جزيرة ، وفيها حصن كبير ، والنهر يضرب سُورِيَه من كلتي الناحيتين ، وهو عامر كثير العمارات . وله أقاليم وعمارات متصلة ، ومنه إلى موقع نهر الأذر (Lercium, Lerceusi ، حالياً Río Lerez) ٦ أميال ، وهو نهر صغير ، ولكنه يحمل المراكب الكبيرة إرساء . ومن هذا النهر إلى مصب نهر وادي قَزَار (Río Ferreira وحالياً Umia) ٦ أميال ، وهو أيضاً نهر كبير ، والمد والجزر يدخله ، وترسى (كذا) به كبار المراكب ، وهو نهر جريه من قريب . وعلى موقع هذا النهر في البحر جزيرة صغيرة غير معمورة ، وفيها مرسى وماء وحطب . ومن موقع هذا النهر إلى موقع نهر شنت ياقوب (Río de Santiago) ٦ أميال ، ويسمى هذا النهر نهر أُنَاشْت (أُنَاشْت إسم قلعة تطل على نهر شنت ياقوب كانت تسمى Castellum Honesti وتسمى اليوم Torres del Oeste) وهو نهر كبير كثير الماء رحب الفناء ، يدخله المد والجزر ، وتطلع فيه المراكب الكبار ، نحو ٢٠ ميلا ، وهناك قنطرة عظيمة ، عدد قسيها ٥ قسي كبار جداً ، وارتفاعها بمقدار ما يدخله المركب الكبير بقلاعه ، وعلى طرف القنطرة حصن عظيم يسمى أُنَاشْت ، ومنه إلى كنيسة شنت ياقب نحو من ٦ أميال^(١) .

ومثل هذا الوصف لا يمكن أن يكتب إلا بناء على خريطة مفصلة لهذا الجزء بالذات ، لأن الخرائط النظرية المعروفة لا تثبت الأماكن ومجاري الأنهار ومصباتها واتساع هذه المصببات وصلاحياتها للملاحة بهذه الدقة ، وبالفعل إذا نظرنا إلى هذا الجزء من خريطة الإدريسي الكبيرة كما نشرها كونراد ميلر وجدناها مفصلة تفصيلاً كبيراً ، يدل على أنها نقلت عن خريطة مسالك بحرية

(١) الإدريسي ، الجزء الأول من الأقاليم الأول ، اشره إدواردو سافندرا ، ص ٦١ — ٦٢ .

وراجعت في تحقيق الأعلام مقال دوبلر Compostela, 104-105

بل هي أدق من الوصف ، فهي تثبت على مصب نهر الأذر بلدة تسمى عون (Aonios وتسمى اليوم Isla de Ons) ، وهي مما أثبتته الإدريسي على خريطته أثناء الكتابة ، وفاته أن يدخلها في الوصف . ولابد أن الإدريسي رجع إلى أمثال هذه الخرائط البحرية فيما يتصل بحوض البحر الأبيض ، على ذلك تدل مقارنة خرائطه بأدلة الموانى المعروفة بالبرتغالية ، وفي ذلك يقول سيزار دوبلر : « ... وليؤذن لنا هنا بأن نشير إلى استخدام الإدريسي للخرائط الملاحية ، وهو استخدام يتجلى في خريطته بصورة لا تقبل الشك ، وذلك عند ما يتتبع شواطئ إفريقيا الشمالية أو ساحل المحيط الأطلسي في أوروبا ، وقد كانت النماذج التي اعتمد عليها الإدريسي هي نفس النماذج التي استخدمها رسامو أدلة الموانى الإيطاليون والقطلونيون المايورقيون منذ أوائل القرن الرابع عشر ، وقد استخدمها الإدريسي في القرن الثاني عشر انتفع بها هؤلاء بعد ذلك في القرن الرابع عشر . ولناحظ أيضاً أن البوصلة استعملت للملاحة في البحر الأبيض بعد سنة ١١٠٠ مما هيأ الوسائل للقياس البحري^(١) » .

وهذه الملاحظة الأخيرة عظيمة الأهمية ، لأن الإدريسي ما دام قد استخدم خرائط الملاحة التي قامت على أساس من استعمال البوصلة فلا بد أنه عرف البوصلة واستخدمها لتحقيق ما وجده في رسوم هذه الخرائط .

ومن المحقق أن ملاحى العرب عرفوا البوصلة واستخدموها قبل أن يستخدمها الأوروبيون ، قال خوان بيرنيت في مقاله الآنف الذكر : « ويخبرنا تشو-يو Chu-Yo حوالى ١١٠٠ ميلادية أن أول استعمال للبوصلة كان في بحر الصين على مركب متجه من سومطرة إلى كانتون ، ونستنتج من ذلك الخبر أن العرب عرفوا البوصلة في القرن الحادى عشر ، ولكنهم احتفظوا بسر تركيبها الذى كان يسمح لهم بمزاولة التجارة البحرية دون منافسهم . ويتوسع

فران Ferrand في الكلام عن الأشياء التي استعملها ملاحو العرب لتعيين الاتجاهات الرئيسية في القرن الحادى عشر ، وانتهى إلى أن المسلمين — في أواسط ذلك القرن — استعملوا بوصلة على هيئة الصنارة ، وقد يكون مصيباً في كلامه ، إلا أنه من الثابت أن النصوص لم تشر إلى البوصلة حتى الثلث الأول من القرن الثالث عشر ، وذلك عندما أشار « محمد الوافى » ، في كتابه « جوامع الحكايات » إلى أن ربانا ضل طريقه في الخليج الفارسى أثناء عاصفة هوجاء ، ولم يهده إلى الطريق إلا إبرة على شكل سمكة ؛ وهناك ييلق القبشاقى (توفى حوالى ١٢٨٢) الذى يروى في كتابه « كنز التجار » (كتب سنة ٦٤٠ / ١٢٤٢) أنه في أثناء الرحلة التى قام بها في شرق البحر الأبيض ، لاحظ أن الملاحين يستعملون البوصلة أداة للتوجيه ، كما كانوا يجعلون مكة في الجنوب المغناطيسى ، بمعنى أنه إذا اتجهت الابرة نحو الجنوب فإنها تسمى القبلة « الجنوب^(١) » .

واستعمال الإدريسي للخرائط البحرية واستخدامه للبوصلة في تحديد الاتجاه يعين لنا ناحية جديدة من نواحي امتيازه وسبقه على عصره ، فإنه من المعروف أن ميلاد الجغرافية الحديثة وعلم الخرائط المصاحب لها لم يتيسر إلا عندما صرف الناس النظر عن آراء الإغريق وتصورات النظريين في هيئة الأرض وأوصافها وعولوا على معلومات الملاحين وأهل الرحلات المستمدة من الخبرة والممارسة الواقعية بفضل اعتمادهم على البوصلة وغيرها من أدوات القياس بدلا من التعويل على النجوم وأفلاكها وسموتها ، أى عندما تنبه الناس إلى أن الجغرافية ليست علماً نظرياً ثانوياً يقوم على مذاهب وتصورات وإنما هي علم على أساسى لابد أن يقوم على الحقائق الثابتة بالملاحظة

(١) خوان بيرنيت ، هل هناك أصل عربى لفن الخرائط البحرية . . . ، ص ٨٦ - ٨٧ والمراجع الوافية المذكورة هناك .
أما مقال فران المشار إليه فهو :

Ferrand, *Notes d'Histoire Orientale, Contribution à l'Histoire de la Boussole*, dans Mélanges René Basset, Paris, 1923.

والخبرة والقياس والدراسة ، ونظن أن هذا كان مذهب الإدريسي ، ورأيه في المؤلفات الجغرافية النظرية السابقة عليه واضح في مقدمة كتابه ، ومن هنا كان اتجاهه إلى سؤال الملاحين والرحالين والتجار وأهل الأسفار وحرصه على القياس والتحقيق واستخدام الآلات ، وقد أثبتنا فيما مر تنبهه إلى أهمية الخرائط الملاحية واستخدامها لها ، ثم انتفاه بالبوصله ، وهذا كله نلّبت من طريقته في الوصف الجغرافي كما يتجلى في الفقرات التي أتينا بها ، وهي جزء صغير مما يضمه كتابه . حقيقة أن الإدريسي لجأ إلى الكتب النظرية وأخذ عنها ، ولكنه لم يفعل ذلك إلا لاستكمال المعلومات عن هذا الموضوع أو ذاك ، وفي حالات قليلة لم يجد غيرها فنقل عنها ، كما نقل عن بطليموس كلامه عن الهند ، ولا غرابة والحالة هذه أن يكون هذا الجزء بالذات أضعف أجزاء « نزهة المشتاق »

وليس بغريب في هذا المجال أن تكون أقدم خريطة صحيحة للبحر الأبيض خريطة عربية ، ففي المكتبة الأمبروزية في ميلان خريطة لذلك البحر تسمى بالخريطة المغربية Carta Mogrebina ، يرجع تاريخها إلى القرن الثالث عشر الميلادي ، وهي على هذا أقدم من الخريطة المعروفة بالبيزية Carta Pisana التي كان يظن أنها أول خريطة حديثة لذلك البحر ، فإن تسمية هذه الخريطة بالمغربية يدل على أن صانعها عربي مغربي ، وقد اقترح باحث إسباني تسميتها بالأندلسية Carta Arábigo Española^(١) ، وأياً كانت تسميتها فهي عربية الأصل ، وقد صنعت على نفس الأساس الذي صنع به الإدريسي خريطته ، وهي بالفعل تشبهها إلى حد كبير ، مما يأذن لنا في أن نضع الادريسي على رأس القافلة التي أنشأت علم الجغرافية الحديث وخرائطه . ويتجلى هذا التجديد الادريسي الشامل كلما أمعنا النظر في ذلك الجزء

(١) انظر : José Alemany Bolufer, *La Geografía de la Península Ibérica en los escritores cristianos, desde San Isidoro hasta el siglo XVI*, Revista del Centro de Estudios Históricos de Granada y su Reino, tomo XII, 1922, núms. 1, 2, p. 5-6.

الذى كتبه عن اسبانيا الشمالية وبقية نواحي أوروبا ، ولقد تعرض الرجل في هذه الأقاليم كلها لعالم لم يسبقه إلى وصفه وصفاً جاداً جغرافياً عربى قبله ، وكان عليه أن يصور هيئات هذه النواحي وطرقها والمسافات بين مواضعها تصويراً دقيقاً ، وقد توقف توفيقه على نوع المعلومات التى يسرتها له مصادر معلوماته ، فأجاد الاجادة كلها حيث وجد معلومات سليمة ، وقل نصيبه من الاجادة عند ضعف هذه الأصول ، ولقد أبدى سيزار دوبلر دهشته من توفيق الادريسي في الكلام على الطرق المؤدية إلى شنت ياقب ، حتى لقد فاق في وصفه لهذه الطرق أدلة الرحلات التى كانت مُعْتَمَدَ حجاج المسيحية إلى ذلك المزار الكبير ، فقد كان أكبر هذه الأدلة واحد يسمى الكاليكستيني Calixtino وقد حدد الطرق المؤدية من جنوب فرنسا إلى شنت ياقب بأربعة ، يسلك كل منها ممراً من ممرات جبال البرت ، ولكنه ذكر بعد ذلك ممرين فقط ، أما الادريسي فقال إنها أربعة ثم ذكر الأربعة بغاية الدقة : « وفيه أربعة أبواب فيها مضائق يدخلها الفارس بعد الفارس ، وهذه الأبواب (أى الممرات) عراض لها مسافات ، وهى مخوفة الطرق . وأحد هذه الأبواب الباب الذى فى ناحية برشلونة ، ويسمى برت جاقة (Puerta de Jaca) ، والباب الثانى الذى يليه يسمى برت أشبره (Portus Asperi وهو اليوم ممر Somport) والباب الثالث منها يسمى برت شيزرو (Portus Cisereus ويسمى عادة رنسفالة Roncesvalles بالاسبانية و Roncevaux بالفرنسية) وطوله فى عرض الجبل ٣٥ ميلا ، والباب الرابع منها يسمى برت بيونه (ربما كان المر المعروف اليوم بإسم Puerta de Maya وهو وادى بزتان Baztán) . ويتصل بكل برت منها مدن فى الجهتين فما إلى برت شيزرو مدينة بنبلونة (Pamplona) ، والباب المسمى باب جاقة عليه مدينة جاقة ، وسنذكر ما خلف هذا الجبل وما اتصل به من بلاد الروم بعد هذا بحول الله^(١) .

(١) الادريسي ، الجزء الأول من الانليم الأول بتحقيق سافندرا ، ص ٦٥

C. Dubler, *Compostela...*, 94-96.

خبر الفتية المغرورين أو المغررين

وختاماً لهذا الكلام عن الإدريسي نشير إلى الخبر المشهور الذي رواه عن هذا النفر من أهل الاشبونة الذين اقتحموا المحيط الاطلسي « ليعرفوا ما فيه وإلى أين انتهأؤه ، ولهم بأشبونة موضع بقربه الحمة منسوب إليهم ، يعرف بدرب المغرورين » والخبر طويل مشهور نقله عن الإدريسي أبو حامد الفرناطي وابن عبد المنعم الحميري والقزويني^(١) ، وخلاصته أن ثمانية رجال « كلهم أبناء عم » أعدوا مركباً « وادخلوا فيه من الماء والزاد ما يكفيهم لأشهر ، ثم دخلوا إلى البحر في أول طاروس الرياح الشرقية » فجروا بها نحواً من أحد عشر يوماً ، فوصلوا إلى بحر غليظ الموج ، كدير الروائح ، كثير القروش ، قليل الضوء ، فأيقنوا بالتلف ، فردوا قلعهم في اليد الأخرى ، وجروا في البحر في ناحية الجنوب اثني عشر يوماً ، فخرجوا إلى جزيرة الغنم ، وفيها من الغنم ما لا يأخذه عد ولا تحصيل ، وهي سارحة لا ناظر لها ولا راع ، فقصدوا الجزيرة ونزلوها ، فوجدوا عين ماء جارية ، عليها شجرة تين برى ، فأخذوا من تلك الغنم وذبحوها ، فوجدوا لحومها مرة لا يقدر أحد من أسكلها ، فأخذوا من جلودها ، وساروا مع الريح إلى الجنوب « حتى وصلوا إلى جزيرة فيها عمارة وحرث ، فلما نزلوا بها أحيط بهم وأخذوا وحبسوا ، وقد وصفوا أهل الجزيرة بأنهم « شقر زعر شعورهم سبطة ، وهم طوال القدود ، ولنسائهم جمال عجيب » ثم حملوا إلى تلك الجزيرة ، فلما علم أمرهم أمر بهم فوضعوا في زورق جرى بهم ثلاثة أيام وصلوا بعدها إلى شاطئ إفريقية عند مدينة أسفى ، ومن هناك عادوا إلى الاشبونة . ويغلب على الظن أن الجزيرة

(١) الادريسي : المغرب والأندلس وإفريقية ... ص ١٨٤ — ١٨٥ ، أبو حامد الفرناطي ، تحفة الألباب ، بتحقيق فران ، ص ٢٣٣ — ٢٣٤ ، ابن عبد المنعم الحميري ، الروض المعطار ، ص ١٧ — ١٨ ، القزويني ، عجائب المخلوقات ، ج ١ ص ١٢٤ — ١٢٥

التي وصلوا إليها أول الأمر هي إحدى جزر آزورس (أى الجزائر الزرقاء) ،
والجزيرة الثانية إحدى جزر الكنارياس ، أى جزر السعادات ، ويستبعد أن
يكونوا قد وصلوا إلى ساحل أمريكا ، لأن أبعد نقطة وصلوا إليها فى الغرب
كانت على بعد ١١ يومًا ، وحتى لو تصورنا أنهم ساروا بعد ذلك جنوبًا
بغرب حتى وصلوا « جزيرة الغم » ، فإن ساحل أمريكا لا يدرك بعد ٢٣ يومًا
بالمركب الشراعى ، ولا يعقل أن تكون الجزيرة الثانية التى وصلوا إليها وقبض
عليهم فيها إحدى جزر البحر الكاريبي أو شيئًا من سواحل أمريكا الشمالية
لأنهم أركبوا بعد ذلك فى مركب وصل بهم إلى شاطئ إفريقيا عند بلدة
أسفى فى المغرب بعد ثلاثة أيام ، وهناك قيل لهم أن بينهم وبين الاسبونة شهر ،
ولهذا قلنا إن هذه الجزيرة الثانية هي إحدى جزر الكنارياس .

والذين يجتهدون فى إرغام هذا النص لاتخاذ دليلًا على أن العرب وصلوا
إلى العالم الجديد قبل الأوروبيين ، ينسون أن الوصول إلى شواطئ ذلك العالم
ليس فى نفسه بذى بال ولا يدل على تقدم ولا يوصف بأنه كشف ، فالهنود
الجر الذين وجدوا فى ذلك العالم كانوا قطعًا أول من وصل إليه ، ومع ذلك
فلم يوصفوا لهذا بالتقدم ولم يعدوا مكتشفين ، إنما العبرة فى عمل كولومبوس أنه
قام على نظرية علمية وأثبت صحتها ، وهو أن المتجه من شواطئ أوروبا غربًا
يصل إلى آسيا لأن الأرض ككرة ، وهذه النظرية عربية أتينا بنص واضح
صريح للبكرى فيها ، وهذا فى رأينا هو الكشف الصحيح وموضع الفخر ، أما
أن يكون الذى قام بتطبيق هذه النظرية العربية كولومبوس أو غيره فمسألة
تلى ذلك فى الأهمية ، وقد تحققت لعوامل علمية وصناعية أخرى مثل إتقان
فن الخرائط البحرية وتقدم صناعة السفن وإحكام استخدام البوصلة ثم لعوامل
سياسية أهمها المنافسة الشديدة بين البرتغاليين والإسبان ، فأما البرتغاليون فقد
قادم العرب علميًا وعمليًا إلى آسيا ، وأما الإسبان فقد قادم العرب علميًا ،
وهذا هو المهم .

ولكن القصة تهمننا من نواح أخرى ، فهي الحكاية الطويلة الوحيدة التي اهتم الإدريسي بروايتها في ذلك الجزء من جغرافيته ، وهو لم يقصصها على أنها غريبة أو عجيبة ، بل هي في الواقع جزء من جغرافيته ، فهي أول وصف لدينا لمياه المحيط الأطلسي على بعد شاسع من شواطئه ، وواضح أن الذين قاموا بالرحلة كانوا قد أعدوا من الزاد ما يكفيهم لأشهر ، ولا بد أنهم كانوا من مهرة الملاحين ، إذ لا يطلب مثل هذه المغامرة إلا الواثق من نفسه في شئون البحر ، ومع ذلك فلم يستطيعوا الاستمرار في الاتجاه الغربي إلا ١١ يوماً ، واضطروا إلى الاتجاه جنوباً ، وإذا كان متوسط ما كانت تقطعه السفن الشراعية في اليوم في تلك العصور ١٠٠ كيلومتراً ، فعنى ذلك أنهم قطعوا في الاتجاه الغربي نحو ١١٠٠ كيلومتراً ، وهناك اضطروا إلى الاتجاه نحو الجنوب ، فساروا ١٢ يوماً أى حوالى ١٢٠٠ كيلومتراً حتى وصلوا إلى جزيرة الغنم ، فإذا علمنا أن جزر أزورس تقع تقريباً في مقابلة ساحل إيبيريا غرباً ، فلا بد أن الرياح سارت بهم بعد إبحارهم بقليل إلى الشمال الغربي ١١٠٠ كيلومتراً ، ثم انصرفوا إلى الجنوب أو جنوباً بغرب حتى وصلوا جزر أزورس ، وقد استبعدنا أن يكون وصولهم إلى جزر ماديرا لأن هذه أقرب إلى ساحل إيبيريا من ذلك ، ثم اتجهوا بعد ذلك جنوباً بشرق حتى وصلوا الجزيرة الثانية التي ذكروها ، وقد غلب على ظننا أنها إحدى جزر الكنارياس ، لأن الناس الشقر الزعر ذوو الشعور السبطة « وهم طوال القدود ولنسائهم جمال عجيب » تنطبق أوصافهم على الجوّالشي الذين كانوا يسكنون هذه الجزر قبل الغزو الإسباني ، فيما عدا وصف النساء بالجمال العجيب ، لأن هذه مسألة تقديرية . والغريب في كلامهم هي الغنم التي وجدوها في الجزيرة الأولى ، وهي غنم غريبة لحومها مرة « لا يقدر أحد على أكلها » ، فهي إذن ليست غنماً ، ثم إن الغنم لم توجد لا في الأزورس ولا في ماديرا قبل كشف البرتغاليين لها ، إنما كانت هناك أرانب برية وحيوانات أخرى لا تؤكل لحومها .

فإذا حسبنا مقدار ما قطعه أولئك الرجال في المحيط الأطلسي وجدنا أنهم قضوا ٣٨ يوماً (١١ + ١٢ + ١٢ + ٣) قطعوا فيها قرابة ٣٨٠٠ كيلومتراً في مياه هذا المحيط ، وهذه أطول مسافة قطعت فيه إلى ذلك الحين ، وذلك في ذاته عمل عظيم سبق به العرب غيرهم ، وهو أمر محقق لا خيالي ، ولم يكن أولئك الأشبونيون هم العرب الوحيدين الذين أقدموا على ركوب هذا المحيط وأتونا عنه نبأ ، فإن لدينا نصوصاً كثيرة تدل على أن خروج المسلمين من اسبانيا في اتجاه الغرب أو الجنوب بمحاذاة إفريقيا كان أمراً كثير الحديث ، قال خوان بيرنيت في مقاله عن الأصل العربي للخرائط الملاحية : « هذه النصوص المتقدمة تحملنا على الظن بأن معلومات ملاحي المحيط الهندي عن السواحل الإفريقية الأطلسية لا ترجع فقط إلى المعلومات التي أمدهم بها البرتغاليون بعد رحلة فاسكو داجاما ، وإنما من الممكن أن يكون ملاحو الأندلس والمغرب في الزمن القديم » كما يقول ابن ماجد قد وصلوا المحيط الهندي بعد أن طافوا بإفريقية ووصلوا رأس الرجاء الصالح ، وزارت سفنهم بعد ذلك سفالة في بلاد الزنج ، وهي تقع على خط عرض ٢٠ جنوباً أي أنها قريبة نسبياً من الطرف الجنوبي لإفريقية . وكانت سفن المسلمين المشاركة تغد على هذا الميناء ابتداء من القرن التاسع على الأقل ، وهناك كانوا يلتقون بإخوانهم المقيمين من الأندلس والمغرب . وكان خروج المسلمين في المحيط الأطلسي أمراً كثير الحدوث ، إما لأغراض علمية أو تجارية ، ولا ينبغي أن ننسى بهذا الصدد أن العرب تابعوا بطليموس في اعتبار خط الطول المار بإحدى جزر المحيط الأطلسي خطاً رئيسياً ، وأقاموا على أساس من ذلك جداول خطوط الطول . . . هذا بالإضافة إلى رحلة الشيخ القادسي التي وصلتنا أطراف منها ، ثم رحلة المسمى خسناس إلى جزر الكنارياس قبل سنة ٩٥٦ ميلادية ، ثم مغامرة « المغربيين » إلى جزر ماديرا والكنارياس وشاطئ إفريقيا حوالي سنة ١٠١٣ ورحلة سليم الاسواني (حوالي ٣٦٤ / ٩٧٥) الذي وصل إلى قلب إفريقيا عن طريق المحيط

الأطلسي « وهناك أيضاً رحلة ابن فاطمة (توفي ٧٣١ / ١٣٣١) التي وصل فيها إلى ما بعد الرأس الأبيض على الشاطئ الغربي لإفريقية . ولدنا في مكتبة الاسكوريال خريطة للمحيط الأطلسي نسبها ميخائيل الغزيري لابن الزياد ، وتاريخها يرجع إلى ما قبل سنة ٥٩٤ / ١١٩٨ وهي تعطينا فكرة عما كان المسلمون يعرفون عن المحيط الأطلسي ، ويرى فيها خليج غانه بوضوح^(١) .

* * *

إلى هنا نقف بالحديث عن الشريف الإدريسي ومكانه في تاريخ العلم الجغرافي في الغرب الإسلامي ، وفي تاريخ الجغرافية عند المسلمين بصفة عامة ، نقف هنا لأن الحديث عن الإدريسي ، يحتاج إلى أضعاف ما قلنا ، ولكن ما عانا هنا هو تحديد دوره في تطور هذا العلم ، فهو من ناحية القمة التي وصل إليها علم الجغرافية العربية من ميلادها إلى أوائل القرن الثالث عشر ، ومن ناحية أخرى نقطة البداية للعلم الجغرافي الحديث . ولو وجد من يواصل عمله في ذلك الاتجاه لتقدم ميلاد الجغرافية الحديثة ثلاثة قرون على الأقل ، ولكن الإدريسي كان نادرة من نوادر الزمان ، وهؤلاء النوادر لا ينتظمون في سلسلة تطور ، ولا يسهل ربطهم بمن قبلهم ويعسر وجود من يواصل عملهم ، وربما كان شيء من هذا ممكناً لو أن الإدريسي عاش في وطن عربي ونشأ حوله تلاميذ يأخذون عنه ويواصلون عمله ، ولكن الرجل عاش بعيداً على هامش عالمه العربي أو بتعبير أدق في منطقة فاصلة بين الشرق والغرب ، ولقد

(١) خوان بيرنيت خيليس ، نفس المرجع ، ٨٣ — ٨٥

George Sarton, *Introduction to the History of Science*, III, p. 1150 sqq.

Ch. de la Roncière, *La découverte de l'Afrique au Moyen Age, Cartographes et explorateurs*, Le Caire, 1924-5.

Ahmad Zaki Pasha, *Une seconde tentative des Musulmans pour decouvrir l'Amérique* dans Bulletin de l'Institut d'Egypt, 1920, pp. 57-59.

أسف ميكيلي أماري لأن عمل الادريسي لم يترجم في حينه إلى اللاتينية بل ظل عربياً وورثه العرب ، وأسفنا نحن لأنه لم يعمل بين ظهرانينا حتى تكون فائدتنا منه أوسع وأشمل ، وربما كانت مشيئة المقادير في تسيير حياته وعمله على هذا النحو أبلغ من أي أسف ، فهذا عبقرى من عباقرة الفكر الانسانى ، واحد من أولئك الذين يعيش البشر آجمعين على تراثهم ، ووطنهم هو العالم كله ، ذلك العالم الذى كان الادريسي أول من تصوره ككل واحد وصوره على كرة وجمع وصفه من أقصاه لأقصاه في كتاب .

معاصرو الإدريسي

بينما كان الإدريسي يعمل في صقلية ، كان جغرافيون آخرون يعملون في نواح شتى من مملكة الإسلام ، ولكنهم كانوا يسيرون في الجغرافية على النهج القديم ، ولم يقرأ أحد منهم شيئاً مما كتب ، لأن الإدريسي عمل في ظروف خاصة جعلت وصول كتبه إلى معاصريه من المسلمين عسيرة ، بل منهم من لم يسمع به ، وظلوا يعملون سائرين على درب الماضين غير عالمين أن أخاهم قد فتح في الفن الذي أولعوا به فتحاً حاسماً خطا به قرونًا كثيرة إلى الأمام .

وليس معنى ذلك أن أعمال أولئك المعاصرين قليلة القيمة أو لا تستحق عناية دراستها ، لأن المنهج الجغرافي التقليدي ، وإن بدا قليل الجدوى إلى جانب منهج الإدريسي ، إلا أن له فضائله وقيمه ، والمجيدون من السائرين عليه لم قدرهم ودورهم في تاريخ هذا العلم في عالم الإسلام ، فإذا أضفنا إلى ذلك أن بعضهم جمع صفات الدقة والأمانة ورزق موهبة طيبة في جمع المعلومات الجغرافية وكتابتها على طريقة البلدانين أو الفلكيين والعجائبيين تبيننا أن تاريخاً للعلم الجغرافي في الأندلس لا يكمل إلا بالكلام على رجال مثل أبي القاسم خلف بن بشكوال واليسع بن عيسى الفافقي وأبي حامد الغرناطي وأبي بكر الزهري وأمثالهم ، خاصة وقد امتاز بعضهم بخصائص الدقة والفهم لمطالب الوصف الجغرافي ، وتفرد بعضهم الآخر بالإبداع في الرحلة والسياحة في بلاد كانت في ذلك الحين في حكم المجهولة والعودة إلى بلاد الإسلام بكل عجيب

طريف ، وأتيح لواحد منهم (وهو محمد بن أبو بكر الزهرى) أن يحتفظ لنا بنص أحد كتب الجغرافية التى كان يتداولها الملاحون والتجار وأهل الموانئ ، وهى كتب عملية كانت تكتب شرحاً للخرائط التى كانوا يستعملونها ويعولون عليها ، وهى كتب تبدو لنا قليلة القيمة العادية إلى جانب ما مررنا ونمر به ، ولكنها تصور مفهوم الجغرافية عند هذه الطوائف من الناس التى كان أهل العلم يدرجونها فيما يسمونه بالعوام .

الجانب الجغرافي من ابن بشكوال

وقد يبدو غريباً أن نذكر أبا القاسم خلف بن بشكوال فى بحث خاص بالجغرافية والجغرافيين لأن ابن بشكوال مشهور بأنه فقيه محدث ، ولكنه كان إلى جانب ذلك مؤرخاً مجيداً ، وابن الأبار الذى أناأنا بأوسع ترجمة لابن بشكوال يقول إنه كان « حافلاً أخبارياً ممتعاً تاريخياً مُقَيِّداً ذاكراً لأخبار الأندلس القديمة والحديثة ، وخصوصاً لما كان بقرطبة ، حاشداً مكثراً » . وعن طريق التاريخ اسهم ابن بشكوال فى الجغرافية ، وكانت الجغرافية لا تفتقر عن التاريخ فى مفهوم الأندلسيين على ما قلناه .

وحياة أبي القاسم خلف بن عبد الملك بن مسعود بن موسى بن بشكوال (٣ ذى الحجة ٤٩٤ — ٨ رمضان ٥٧٨ / ٢٩ سبتمبر ١١٠١ — ٥ يناير ١١٨٣) حياة عالم حق . عاش أربعاً وثمانين سنة هجرية إلا أشهراً أنفقها كلها منذ شب عن الطوق فى الدرس والبحث والقراءة والتأليف والتعليم . شيوخه عشرات من عليّة أهل العلم وجلة الفقهاء ، وأصحابه وأنظاره فى الشرق والغرب لا يقلون عن شيوخه عدداً أو مقاماً ، وتلاميذه أعظم أهل العلم فى الأندلس من العقد الثالث من القرن السادس الهجرى إلى نهايته ، أما خلقه فكان مضرب المثل

عفة ونزاهة وتصاونا وقناعة وصبراً على التعلم والتعليم ، ولابن الأبار في ترجمته له عبارة تصور خلقه أصدق تصوير ، قال : « وحدثنا عنه جماعة من شيوخنا الجللة ووصفوه بصلاح الدخلة وسلامة الباطن وصحة التواضع وصدق الصبر للراجلين إليه ولين الجانب وطول الاحتمال في الكبرة للاسماع رجاء المثوبة ، ولم يعرض في تاريخه لما اراده أبو عبد الله النيرى وسواه منه ، ونعوا تركه عليه وأحبوا خوضه فيه من اجتلاب ما رآه أحق بالاجتناب » أى أنه تصاون عن أن يذكر في كتابه (الصلة) مساوىء الناس وعيوبهم وسقطاتهم مما أحب أولئك الفقهاء أن يضمه تراجمه ، لأن خلقه لا يرضى ذكر هذه النواحي التي لا يكاد يسلم منها أحد . ولم يتول ابن بشكوال من الوظائف إلا قضاء بعض نواحي إشبيلية نائباً عن أبي بكر بن العربى ، تولاه لفترة صغيرة ، وعقد الشروط فترة أخرى طلباً للرزق ، ثم ترك ذلك كله وانقطع للعلم وحده ببقية عمره الطويل .

وقد كتب ابن بشكوال نحو خمسين كتاباً أورد أسماء بعضها ابن الأبار في مادته الضافية عنه ، واستكملها بونس بويجس في الفصل الوافى الذى أداره عليه معتمداً على ابن الأبار وابن خلكان وحاجى خليفة ، وهذه الكتب هى :

١ — كتاب « الصلة فى تاريخ أئمة الأندلس وعلماهم ومحدثيهم وفقهائهم وأدبايهم » وهو أهم كتبه وأكثرها ذكراً فى المراجع ، وهو كتاب تراجم أكل به كتاب « تاريخ علماء الأندلس » الذى ذكرناه لابن الفرضى ، وقد نشره فرثيسكو كوديرا فى جزأين فى مدريد سنة ١٨٨٣

٢ — التاريخ الصغير فى أحوال الأندلس (ذكره حاجى خليفة برقم ٢١٦٥ من طبعة فستفلد) .

٣ — أخبار قضاة قرطبة ، حاجى خليفة ، رقم ٢٢١

٤ — معجم مشيخته ، ذكره ابن الأبار فى مقدمة التكملة .

٥ — كتاب الفوائد المنتخبة والحكايات المستغربة ، ذكره ابن الأبار في ترجمته لابن بشكوال وقال إنه في عشرين جزءاً .

٦ — كتاب التنبيه والتعيين لمن دخل الأندلس من التابعين ، ذكره ابن الأبار .

٧ — كتاب الغوامض والمبهات ، ذكره ابن الأبار ، وقال عنه : « في اثني عشر جزءاً ، وقد اختصره شيخنا أبو الخطاب بن واجب ورتبه ترتيباً عجيباً ، واستحقه بذلك ، فحملناه عنه وسمعناه منه مختصراً » .

٨ — كتاب المحاسن والفضائل في معرفة العلماء الأفاضل ، ذكره ابن الأبار .

٩ — ذيل الصلة . ورد ذكر هذا الكتاب في بعض تراجم ابن الأبار في التكملة ، ويبدو أن ابن بشكوال شرع في كتابته بعد أن فرغ من الصلة ليستدرك فيه ذكر من فاتته من الشيوخ ، ولم ينتشر ذكر هذا الكتاب ، بل لم يشر إليه أبو جعفر أحمد ابن الزبير في كتابه الذي ألفه لنفس الغرض وأعطاه نفس الاسم .

ولكن المقرئ أتى في نفح الطيب بفقرات لابن بشكوال لا نعرف إلى أي كتبه تنسب ، فهي فقرات طويلة ذات قيمة جغرافية كبرى ، مثال ذلك قوله :

« وذكر ابن بشكوال — رحمه الله — أن أبواب قرطبة سبعة أبواب :

باب القنطرة إلى جهة القبلة ويعرف بباب الوادي ، وبياب الجزيرة

الخضراء ، وهو على النهر .

وباب الحديد ، ويعرف بباب سرقنطة .

وباب ابن عبد الجبار ، وهو باب طليطلة ، وباب رومية ، وفيه تجتمع

الثلاثة الرُصَف التي تشق دائرة الأرض من جزيرة قادس إلى قرمونة إلى قرطبة

إلى سرقنطة إلى طرّكونه إلى أربونه مارة في الأرض الكبيرة .

- ثم باب طَلَبِيرة ، وهو أيضاً باب ليون .
 ثم باب عامر القرشى ، وقُدَّامه المقبرة المنسوبة إليه .
 ثم باب الجوز ، ويعرف بباب بطليوس .
 ثم باب العطارين ، وهو باب إشبيلة .

وهذا التفصيل فى ذكر أبواب قرطبة وحدها لا يكون إلا فى كتاب كبير عن الأندلس كله أو عن قرطبة على الأقل . وسنرى من الفقرة التالية أن ذلك الكلام جزء من كلام غاية فى التفصيل عن قرطبة ، أى أننا أمام قطع من كتاب كبير إما فى صفة الأندلس أو فى صفة قرطبة وحدها ، وعلى الحالين فهو كتاب وصف جغرافى أو طبوغرافى داخل فى موضوعنا ، ويؤيد ذلك ما يقوله ابن الأبار فى سياق كلامه عنه أنه كان : « حافظاً حافلاً أخباراً ممتعة تاريخياً مقبداً ذاكراً لأخبار الأندلس القديمة والحديثة ، وخصوصاً لما كان بقرطبة حاشداً كثيراً » وقوله إنه كان مقيداً وحاشداً ومكثراً يدل على أن كتب الرجل الأخرى كانت أكبر من كتاب الصلة الذى بين أيدينا ، وهو على غزارة مادته من صغار الكتب ، فأين يكون موضع هذه الفقرات الطويلة من كتبه التى ذكرناها ؟ أى مقدمة التاريخ الصغير للأندلس أو فى أخبار قضاة قرطبة أو فى كتاب الفوائد المنتخبة والحكايات المستغربة ؟ لا نستطيع القطع بشئ ، لأن طرائق مؤلفينا القدامى فى انشاء كتبهم لم تكن تسير على نحو يمكننا من تصور ما تحتويه فى كثير من الأحيان . ولكن يغلب على ظننا أن هذه قطع من وصف مطول لقرطبة لم يصل إلينا اسمه ، وسقوط اسم كتاب كهذا لا يستغرب ، فقد كان الكثيرون من الشيوخ يرون أن كتب الجغرافية وما إليها مؤلفات لا تستحق الذكر ، وقد رأينا كيف أغفل الكثيرون ذكر المسالك والممالك بين كتب البكرى ، وسيتكرر هذا مع كتاب « الروض المعطار » لمحمد بن عبد المنعم الحيمرى وغيره .

فإذا نظرنا في نص القطعة التي أوردناها تبيننا أنها من أنفس ما لدينا عن قرطبة ، وإذا نحن قارناها بما بين أيدينا من أوصاف هذا البلد في عصوره الإسلامية زادت قيمتها وضوحاً ، فإن أحسن ما لدينا في هذا الباب هو ما ذكره الإدريسي ثم ابن عبد المنعم الحميري ، والثاني نقل عن الأول معظم المادة الطبوغرافية التي أوردتها . فأما ما ذكره الإدريسي فهو مشكلة في ذاته إذ أنه يقول إن قرطبة « في ذاتها خمس مدن يتلو بعضها بعضاً ، وبين المدينة والمدينة سور حاجز ، وفي كل مدينة ما يكفيها من الأسواق والفنادق والحمامات وسائر الصناعات ، وطولها من غربها إلى شرقها ثلاثة أميال ، وعرضها من باب القنطرة إلى باب اليهود ميل واحد ، وهي في سفح جبل مُطِل عليها ، يسمى جبل العروس ، مدينتها الوسطى هي التي فيها باب القنطرة^(١) » ولا ندرى ما ذاعناه الإدريسي بهذه المدن الخمس التي يتلو بعضها بعضاً : هل يريد قرطبة وأرباضها ؟ إذن لماذا يقول إن عرضها من باب القنطرة إلى باب اليهود ميل واحد ؟ وهذا ليس عرض قرطبة بأرباضها . . ثم ما هي هذه الأسوار الحاجزة التي تقوم بين كل مدينة ومدينة ؟ اننا لا نعرف إلا سوراً واحداً لقرطبة الإسلامية هو هذا الذي تقع فيه الأبواب التي ذكرها كلها ابن بشكوال وذكر بعضها الإدريسي .

ان ابن بشكوال هو الوحيد من مؤلفينا الذي ذكر أبواب قرطبة السبعة وحدد لنا أسماءها ومواقعها وما يؤدي إليه كل باب منها ، لأن قوله أن باب القنطرة كان يعرف أيضاً بباب الجزيرة الخضراء معناه أنه يشرع إليها ، وأن باب الحديد يعرف بباب سرقسطة معناه أنه يقع في شمال شرق قرطبة ويؤدي إلى سرقسطة ، وباب ليون في اتجاه طليعة ، أي أنه يقع في شمال غربي البلد وهكذا .

(١) الإدريسي ، المغرب والأندلس ، ص ٢٠٦ — ٢٠٧ ، الروض المعطار ، ص ١٥٧

ويستوقفنا بصفة خاصة كلامه عن باب ابن عبد الجبار وقوله : « وهو باب طليطلة وباب رومية ، وفيه تجتمع الثلاثة الرُصُف التي تشق دائرة الأرض من جزيرة قادس إلى قرمونة إلى قرطبة إلى سرقسطة إلى أربونة مارة بالأرض الكبيرة » فهذه العبارة تكشف عن حقيقة كبرى ، وهى أن الطرق الرومانية القديمة كانت قائمة مستعملة على أيام العرب ، وابن بشكوال يكمل هنا المعلومات التي وصل إليها الباحثون الذين درسوا شبكة الطرق الرومانية في اسبانيا .

ذلك أن ابن بشكوال عندما يقول عن باب ابن عبد الجبار أنه « باب طليطلة وباب رومية » إنما يريد أن هذا الباب يشرع عنده طريق طليطلة وطريق روما ، وعنده تجتمع « الثلاثة الرُصُف » وهى الطرق الرومانية القديمة *Viae Romanae* المعبدة المرصوفة ، ولهذا يسميها بالرُصُف جمع رصيف ، ومن هنا نعلم أن الرصيف في المصطلح الأندلسي يطلق على الطريق الرومانى القديم وعلى كل طريق معبد مرصوف أنشئ على هذا الفرار ، فرصيف قرطبة هو الشارع المرصوف الذى أنشأه الأمراء والخلفاء بين الجامع ونهر الوادى الكبير ومدوه ناحية الشرق إلى آخر ما كانت تنهى إليه أرياض قرطبة الشرقية التى سيتحدث عنها ابن بشكوال فى فقرة نفيسة سنعرض لها بعد قليل .

وقد كانت قرطبة على أيام الرومان ملتقى شبكة مواصلات إقليم باطقة *Bética* أى حوض الوادى الكبير وما يليه جنوباً ، والمعلومات التى لدينا تذكر ستة رُصُف كانت تتفرع منها أو تمر بها ، أولها رصيف هرقل *Via Herculea* الذى سمي بعد ذلك رصيف أغسطس *Via Augusta* نسبة إلى ذلك الامبراطور ، ثم رصيفان رئيسيان يشرع أحدهما إلى طليطلة ، ومن طليطلة إلى سرقسطة وهناك يلتقى برصيف أغسطس ، والثانى يشرع إلى انطكيرة فالقة ومنها إلى طركونة ثم برشلونة إلى أمبرياش *Ampurias* وهناك يلتقى برصيف أغسطس .

والرصف الثلاثة الأخرى التي كانت تشرع من قرطبة يذهب أحدها إلى مدلين Medellén فالاشبونة والثاني يشرع إلى قرمونة واشبيلية فقادس أى أنه استمرار للرصيف الأغسطى ، والثالث يشرع إلى « صحراء » Zafra وبلاد صغيرة أخرى إلى غربها^(١) .

ولإذن فثلاثة من هذه الرصف التي تلتقى عند قرطبة كانت تشرع إلى روما سالكة مسالك مختلفة ، ولكنها تلتقى كلها عند أمبرياش ، ومنها تستمر في غالة فشمال إيطاليا فروما ، وتلك هي التي عنها ابن بشكوال هنا .

وابن بشكوال دقيق جداً عندما يصف هذه الطرق بأنها تشق دائرة الأرض ، لأنها بعد أن تلتقى في امبرياش تستمر إلى روما ومنها شرقاً حتى انطاكية . ولكنه عندما يقول إنها كلها تشرع من قادس إلى قرمونة إلى قرطبة إلى أربونة مارة بالأرض الكبيرة إنما يعنى الرصيف الأغسطى وحده ، فهذا كان الطريق الرئيسى الذى يسير بهذا الاتجاه ويستمر إلى روما ومنها إلى انطاكية . وقد حدد لنا ابن حوقل طرق التجارة الرئيسية التي كانت تلتقى عند قرطبة وعددها ستة وهي تقابل على وجه التقريب الطرق الرومانية الستة التي ذكرناها ، وهذه الطرق هي :

الأول من قرطبة إلى إشبيلية فقادس فالجزيرة الخضراء ، وعند إشبيلية يتفرع طريق آخر يذهب إلى شلب .

الثاني من قرطبة إلى طليطلة فسرقسطة فلاردة .

الثالث من قرطبة إلى غرناطة إلى مرسية فبلنسية فطرطوشة فلاردة .

الرابع من قرطبة إلى مالقة ماراً باستجه ثم إلى مرسية ثم يلتقى بالسابق .

(١) انظر عن ذلك الفصل الذى كتبه خوسيه رامون ميليدا :

José Ramón Mélida, *El Arte en España durante la Época Romana*.

في كتاب :

Ramón Menéndez Pidal, *Historia de España*, tomo II, *España Romana*, Madrid, 1935, pp. 567-574.

الخامس من قرطبة إلى المعدن إلى قورية فسلنقة فسمورة .
والسادس من قرطبة إلى الجزيرة الخضراء ماراً باستجه ومورور وشذونة^(١) ،
فأما الطريقان الأول والثاني فهما على الحقيقة طريق واحد يبدأ عند لاردة
وينتهى عند قادس ، وهو الرصيف الأوغسطيني .

والطريقان الثالث والرابع من هذه هما الرصيفان الرئيسيان اللذان ذكرناهما في
تعداد الرصف الرومانية الشارعة من قرطبة مع ملاحظة أن الطريقين العربيين كانا
ينتهيان عند لاردة ولا يستمران إلى امبرياش ، لأن هذه الأخيرة كانت خارجة
عن الأندلس الإسلامي وداخلة في كونتية برشلونة ، كذلك لم تكن الطرق
العربية الذاهبة إلى الشرق تستمر إلى برشلونة لنفس السبب ، وإنما كان
منتهاهما في هذه الناحية عند طرطوشة ، وكانت هذه تقوم على الحدود بين بلاد
الإسلام وبلاد النصرانية من هذه الناحية ، وإلى هذا ترجع أهميتها في العصور
الإسلامية ، وقد فقدت طرطوشة هذه الأهمية بعد سقوطها في يد النصارى ،
إذ انتقلت الأهمية إلى طركونة وبرشلونة .

وعبارة ابن بشكوال هذه هي الوحيدة في كتب مؤلفينا خاصة بالرصف
الرومانية واستعمال الناس لها في العصور الإسلامية ، وهو يذكر بصراحة أنها
تؤدي إلى روما وأنها تشق دائرة الأرض ، وربما يكون ابن بشكوال قد
عرف أن ذلك الرصيف الأوغسطيني يستمر بعد روما حتى يصل إلى انطاكية ،
وربما يكون ذلك قد غاب عن علمه ، ولكن قوله إنه « يشق دائرة الأرض »
يدل على أنه يعرف أنه طريق طويل يقطع الأرض من طرف إلى طرف :
من الغرب إلى الشرق^(٢) .

(١) ابن حوقل ، كتاب صورة الأرض ، ج ١ ص ٤٦

(٢) كتب مانويل أوكانيا خيمينيث دراسة مطولة عن فقرة ابن بشكوال هذه الخاصة

بأبواب قرطبة :

Manuel Ocaña Jiménez, *Las puertas de la Medina de Córdoba*, Al-Andalus, III, 1935, pp. 143-151.

وقد أورد المقرئ في « نفع الطيب » بعد هذه الفقرة فقرة أخرى تزيد عليها في الأهمية بالنسبة لطبوغرافية قرطبة العربية ، ونصها : « وذكر أيضاً — أى ابن بشكوال — أن عدد أرباض قرطبة عند انتهائها في التوسع والعمارة أحد وعشرون ربضاً ، منها :

القبليّة بعدوة النهر (أى الجنوبية على الضفة اليسرى للوادي الكبير)

ربض شقنّدة .

وربض مُنَيّة عَجَب .

وأما الغربية فتسعة :

ربض حوانيت الریحاني .

وربض الدّقّاقين .

وربض مسجد الكهف .

وربض بلاط مغيث .

وربض مسجد الشفاء .

وربض حمام الإلبيري .

وربض مسجد مسرور .

وربض مسجد الروضة ^(١) .

وربض السجن القديم .

وأما الشماليّة فتلاثة : ^(٢)

ربض باب اليهود .

(١) أورد ابن الخطيب في أعلام الأعلام بياناً بأرباض قرطبة مطابقاً لبيان ابن بشكوال (انظر

ص ١٠٣) وهو يسمي هذا الربض : ربض الروض المحدث .

(٢) ابن الخطيب يقول إن الأرباض الثلاثة التالية تقع « بالجهة الجنوبية » ويريد بها ما يريد

ابن بشكوال بالجهة الشماليّة .

- وربض مسجد أم سلمة .
- وربض الرصافة^(١) .
- وأما الشرقية فسبعة :
- ربض شَبَلَاَر .
- وربض فُرْه رِيْل .
- وربض البَرْج .
- وربض منية عبد الله .
- وربض منية المغيرة .
- وربض الزاهرة .
- وربض المدينة العتيقة .

قال : ووسط هذه الأرباض كلها قصبة قرطبة التي تختص بالسور دونها ، وكانت هذه الأرباض دون السور (أى خارج السور) فلما كانت أيام الفتنة صُنِعَ لها خندق يدور بجميعها وحائط مانع^(٢) .

وقد درس هذه الفقرة بما هي حقيقة به من عناية علماء أجلاء من طراز رافائيل كاستيخون وفرديناند زيبولد وليفي بروفنسال ومانويل أوكانيا خيمينيث وانتفعوا بها في دراساتهم عن قرطبة العربية^(٣) ، ونضيف إلى ما استخرجوه من هذا النص حقيقتين تهمان من يدرسون تاريخ قرطبة والمدن الأندلسية بصفة عامة :

(١) ابن الخطيب (أعلام ، ص ١٠٣) : ربض قوت راشه المنسوب إلى أم سلمة .

(٢) المقرئ ، نفع الطيب ، ١٣/٢ — ١٤

(٣) انظر :

Rafael Castejón y Martínez de Arizala,

Córdoba Califa, Córdoba, 1930.

Ibidem, Guía de Córdoba, Madrid, 1930.

C. F. Seybold, Hispano-Arábica, I, en la Revista del Centro de Estudios Históricos de Granada y su Reino, tomo III.

Lévi-Provençal, L'Espagne Musulmane, au X^e Siècle, Paris 1932, pp. 195-236.

Ibidem, Hist. de l'Espagne Musulmane, III, pp. 356 sgg.

ومقال أوكانيا خيمينيث الذي أشرنا إليه في الهامش قبل السابق .

الأولى أن الربض هنا ليس معناه الضاحية ، بل معناه الحى من أحياء المدينة ، وواضح أن هذه الأرباض كانت أول الأمر ضوايح لقرطبة العربية الأولى خارج أسوارها ، ثم امتدت المدينة شيئاً فشيئاً فدخلت الأرباض فى المدينة نفسها وأصبحت أحياء ، ومن هنا أصبح الربض مرادفاً للحى .

والثانية أن قرطبة كانت تتكون فى الواقع من أربعة أقسام رئيسية : القسم الأول هو المدينة أو القصبة ، وهى المدينة القديمة وامتدادها إلى الشمال فشملت على الترتيب من الجنوب إلى الشمال ربض باب اليهود وربض مسجد أم سلمة وربض الرصافة ؛ والقسم الثانى هو « الجانب الشرقى » أو « المدينة الشرقية » إلى الشرق ويضم سبعة أحياء أو أرباض ؛ والقسم الثالث هو « الجانب الغربى » أو المدينة الغربية ويضم تسعة أرباض أو أحياء ، والقسم الرابع هو المدينة القبلية على الضفة اليسرى للوادى الكبير ويضم حيناً أو ربضين هما شقندة ومنية عجب .

وقد أورد ابن الخطيب مثل هذا البيان فى « أعلام الأعلام » ، وواضح أنه أخذ من ابن بشكوال دون أن يذكر ، والنص عنده أدق مما هو عند المقرئ فى مواضع وأقل دقة فى مواضع أخرى ، ولا ندرى إن كان ذلك راجعاً إلى ابن الخطيب والمقرئ أو إلى الناسخين ، وعلى أى حال فقد تابعنا نص المقرئ لأنه ينص صراحة على أن هذا كلام ابن بشكوال .

ولكن رواية ابن الخطيب تنفرد بفقرة تلقى ضوءاً على ما عناء الإدريسي بقوله إن قرطبة « فى ذاتها خمس مدن يتلو بعضها بعضاً ، وبين المدينة والمدينة سور حاجز... الخ » قال ابن الخطيب — نقلاً عن ابن بشكوال فى الأغلب — فى كلامه عن القسم الأوسط من قرطبة : « ربض المدينة — القصبة العتيقة ، واسطة البلدة — وكان ينقسم على ربضين : الجامع وما حوله ربضٌ واحد يتولاه عريقه ، ومحارسه على حدة ، وربضٌ آخر بذاته ينفرد به أيضاً عريقه » أى

أن القسم الأوسط انقسم إلى حينين : القسم الجنوبي الملاصق للنهر ويضم الجامع وما حوله ، أى قلب قرطبة العتيقة ، ثم بقية المدينة العتيقة إلى الشمال وتضم أحياء أو أرباض مسجد أم سلمة (قوته راشه) وباب اليهود والرصافة ؛ وكان كل من هذين القسمين كأنه مدينة قائمة بذاتها له عريقه ومحارسه . واعتماداً على هذا يمكن القول بأن أقسام قرطبة الثلاثة الأخرى كانت كأنها مدن قائمة بذاتها لكل منها عريقه ومحارسه ، أى أن أقسام قرطبة الخمسة كانت في وقت ابن بشكوال والإدريسي كأنها خمس مدن ، لكل منها عريقه ومحارس ، وربما كان لها أسوار أيضاً ، وهذا ربما كان تفسيراً معقولاً لكلام الإدريسي .

هناك بعد ذلك ملاحظتان جانبيتان تهمان أولئك الذين يدرسون تاريخ قرطبة العربية : أولاً أن ابن بشكوال يذكر الجامع وما حوله في هذه الفقرة دون إشارة إلى قصور الخلافة وكانت مواجهة له على الجانب الغربي للمحبة العظى ، ولو كانت موجودة لأشار ابن بشكوال إليها هنا ، فقد كانت بالنسبة لتخطيط قرطبة في نفس أهمية المسجد الجامع ، وعدم الإشارة إليها هنا يدل على أنها كانت قد تهدمت وعدا الناس على أرضها والباقي من مبانيها ، ويؤيد ذلك الفرض أن الإدريسي أيضاً لا يشير إلى هذه القصور ؛ وثانيتهما أن البلد فقد وُحِدته فلم يعد مدينة واحدة يشرف على الأمن فيها صاحب المدينة ، وإنما خمس مدائن متجاورة يشرف على الأمن في كل منها عريق مستعيناً بعدد من الحراس ، والعريق في الماضي كان نائب صاحب المدينة في كل حي من الأحياء ، فأصبح الآن رأساً في ناحيته ، فكان التقسيم الذى شمل الأندلس كله شمل قرطبة كذلك .

وقد أورد المقرئ في نفع الطيب نقولاً أخرى كثيرة عن ابن بشكوال من كتابه الذى قبس منه هاتين الفقرتين ، وهذه النقول تدل في مجموعها على أنها أخذت من كتاب في الجغرافية والتاريخ ، أى كتاب يتكون من مقدمة

جغرافية طويلة ثم موجز تاريخي ، ومعظم هذه الفقرات يدور حول مسجد قرطبة الجامع وتاريخه وأطوره ووصفه^(١) .

ويستوقفنا من هذه النقول واحد يقول : « وسئل ابن بشكوال عن قصر قرطبة فقال... »^(٢) « لأن هذه العبارة تدل على أن ابن بشكوال كان يقرأ كتابه هذا في درسه ، وفي أثناء الدرس سأله أحدهم عن قصر قرطبة فأدلى بالبيانات التي سنشير إليها بعدُ . حقيقة أن إحدى مخطوطات « النفح » تجعل هذه العبارة « ولما وصف ابن بشكوال قصر قرطبة قال... » ولكن العبارة الأولى أقرب إلى المعقول ، لأن قصر قرطبة لم يكن على أيام ابن بشكوال إلا أطلالا ، فهو هنا لا يصف شيئا قائما وإنما يسأل عن شيء تهدم وزالت معالمه . ولما كان ابن بشكوال قد عرف هذا القصر في أواخر أيام رونقه — فقد كان ابن بشكوال في مداخل شبابه أيام بلغت دولة المرابطين أوجها — وكانت هذه الدولة قد أوقفت الفتنة وحركة النهب والتخريب التي سادت عصر الطوائف ، وأبقت بذلك على ما بقي من رواء القصور في قرطبة وغيرها لفترة من الزمن . وربما كان عمال المرابطين هم الذين نظموا قرطبة على أساس خمس مدن لكل منها عريفها ومحارسها ، وعلى هذه الحالة رآها الإدريسي عندما زارها ووصفها في « نزهة المشتاق » : ولما قام الموحدون على المرابطين قامت الفتنة من جديد في الأندلس وعاد التخريب ، فأثى على البقية الباقية من القصور ، وكان ذلك كله في حياة ابن بشكوال الطويلة ، ومن هنا كان قادراً على أن يحدث الناس عن القصر الذاهب وتاريخه وأقسامه على النحو الذي رواه المقرئ في نفح الطيب^(٣)

(١) هذه الفقرات تدور حول : الأحاديث النبوية في فضل الأندلس (١٩٠/١) وجباية الأندلس أيام الناصر (١٩٦/١) وقصر قرطبة (١١/٢) وزيادة المنصور ابن أبي عامر في جامع قرطبة (٨٤/٢) ونص للخليفة الحكم المستنصر عن هذه الزيادة (٩٨/٢) وأصل موضع الجامع (٩٩/٣) ومصنف عثمان الذي كان في المسجد (١٣٥/٢) .

(٢) نفح الطيب : ١١/٢

(٣) انظر نفح الطيب ، ١١/٢ — ١٣

اليسع بن عيسى بن حزم الغافقي

وننتقل من ابن بشكوال إلى فقيه آخر معاصر له هو اليسع بن عيسى ابن حزم بن عبد الله بن اليسع الغافقي الجياني المتوفى في القاهرة في رجب ٥٧٥/ ديسمبر ١١٧٩^(١)، ألف كتابا يسمى «المغرب (أو المغرب) في محاسن المغرب» يكثر النقل عنه فيما تلاه من الكتب، وعنه أورد المقرئ في النفج عدداً من النقول ذات الطابع الجغرافي.

ولا يقارن اليسع الغافقي بابن بشكوال في علمه أو مكانه أو موضعه من الثقة، فقد كان ابن بشكوال شيخ عصره في الأندلس وعماداً من عمد تاريخ الفكر الأندلسي عامة، أما اليسع فقد كان فقيهاً عادياً أصل بيته من جيّات وسكن أبوه المرية، والأغلب أن اليسع ولد فيها أوائل القرن السادس الهجري، فقد ذكر أبو عبد الله التجيبي «واكثر خبره عنه» كما يقول ابن الأبار في «التكملة» إنه «توفى بعد انصرافه عنه في رجب سنة ٥٧٥ وكان مُسْتَنّاً» ودرس القرآن والحديث على أبيه ونفر من شيوخ بلده وغيرهم. ويذكر ابن الأبار أنه سمع البخاري من ابن هذيل سنة ٥٤٤/١١٤٩—١١٥٠، وابن هذيل هذا هو أبو المجد هذيل بن محمد بن هذيل الأنصاري الاشبيلي، من تلاميذ ابن بشكوال (التكملة رقم ٢٠٢١ ص ٧١٦). ويقول ابن الأبار في التكملة أن اليسع لقي بيلنسية أبا حفص بن واجب وأبا إسحق بن خفاجة الشاعر، وابن خفاجة توفي على أصح الأقوال في ٢٦ شوال ٥٣٣/٢٦ يونيو ١١٢٩^(٢)، مما يفهم منه أن اليسع لقي ابن خفاجة وسمع منه في أواخر أيام

(١) ورد هذا التاريخ في ترجمة اليسع في التكملة، وفي ترجمته في «المعجم في أصحاب أبي على الصدي» (وكلا الكتاين لابن الأبار) رجب ٥٩٥.
(٢) راجع ترجمة ابن خفاجة في المعجم في أخبار أصحاب أبي على الصدي لابن الأبار، رقم ٤٤ ص ٥٩—٦٢ وخاصة الحاشية رقم ١ ص ٦٠ ففيها نص تعليق على إحدى نسخ ديوان ابن خفاجة يحدد تاريخ وفاته كما ذكرناه.

هذا الأخير ، وقبل ٢٦ شوال ٥٣٣ على أى حال . ونفترض أن اليسع كان إذ ذاك في مطالع شبابه وأوائل دراسته ، لأنه سمع البخارى من ابن هذيل بعد ذلك بأحدى عشرة سنة (سنة ٥٤٤) ، وليس هناك تجوُّز كثير في افتراض أن اليسع ولد حوالى سنة ٥١٠/١١١٦ ، ويؤيد هذا الفرض قول أبى عبد الله التجيبى أنه رآه (في مصر) في رجب سنة ٥٧٥ (ديسمبر ١١٧٩) « وكان مسنًا » ، فقد كانت سن اليسع إذ ذاك على افتراضنا فوق الخامسة والستين بقليل . وقد هاجر اليسع من الأندلس إلى المشرق في تاريخ لا نستطيع تحديده ، ولكنه بعد سنة ٥٤٤ ، ففي تلك السنة سمع من هذيل بن محمد بن هذيل الإشبلى ، ونزل اليسع الأسكندرية ، ولابد أنه أقام فيها زمناً ، لأن ابن الأبار يقول إنه « استوطنها » ثم رحل إلى القاهرة ودخل في خدمة صلاح الدين . ويرتبط دخول اليسع في خدمة صلاح الدين بقيامه بدور هام في حادث كبير من حوادث تاريخ مصر ، وهو قطع الخطبة للفاطميين والدعوة للعباسيين ، وما قام به اليسع هنا جدير منا بوقفة قصيرة .

ذلك أن ابن الأبار ينص في الترجمتين اللتين اختص اليسع بهما في « المعجم » و « التكملة » على أنه هو الخطيب الذى أقام أول خطبة للخليفة العباسى بمصر عندما قرر صلاح الدين — بأمر نور الدين محمود — أن يقطع الخطبة لبني عبيد . وكان من نتائج ذلك أن حظى اليسع عند صلاح الدين ولقى منه كرامة كبيرة بعد ذلك ، قال ابن الأبار : « ورحل إلى المشرق واتصل بالملك صلاح الدين أبى المظفر يوسف بن أيوب ، فاشتمل عليه وأجزل إحسانه اليه ، وأجرى له في كل شهر ما يقوم به ، وكان يكرمه ويشفعه في حوائج الناس ، فابتنى بمصر داراً على شاطئ النيل ، وجعل لها اسطوانا يزار فيه ، حكى ذلك أبو عبد الله التجيبى شيخنا ، وكان قد لقيه بالأسكندرية في سنة ٥٧٠ ، ثم لقيه بمصر ثانية بعد صدره من الحج » . قال : وذكر لى أنه أول من خطب للعباسية على منابر العبيدية : صعد المنبر والأغزَارُ حوَّنه زيوفهم مصلته خوفاً

من الشيعة أن ينكروا فيقوموا ، فلم يجسر أحد أن يخطب سواه ، فحفظي بذلك . قال : وألحدت في النيل عائداً إلى الاسكندرية ، فتوفى بعد انصرافي عنه في رجب سنة ٥٩٥ هـ ، على ما بلغني ، وكان مُسنّاً^(١) ؛ وفي الترجمة الثانية في « التكملة » يردد ابن الأبار نفس الكلام عن استيظانه الاسكندرية ثم يقول : « ثم رحل إلى مصر واشتمل عليه الملك صلاح الدين ورسم له جارياً يقوم به ، وكان يكرمه ويشفعه في مطالب الناس لأنه كان أول من خطب على منابر السبيدية عند نقل الدعوة العباسية^(٢) ؛ تجاسر على ذلك حين تهيبه سواه ، وكان فقياً مشاوراً مقرئاً محدثاً حافظاً نساباً من أبدع الناس خطأ ، وله تاريخ سماه « المغرب في محاسن المغرب » ، وهو منهم في هذا التأليف ، حدثنا عنه أبو عبد الله التجيبي وأكثر خبره عنه ، قال وتوفى بعد انصرافي عنه في رجب سنة ٥٧٥ هـ وكان مسنّاً . قلت : وروى عنه ابن المفضل المقدسي وأبو القاسم الصفراوي وجماعة ؛ رأيت تاريخه^(٣) . »

وإذن فقد كان هذا الشيخ الأندلسي الجياني اليسع بن عيسى بن حمز الغافقي هو الذي تصدى لاقامة الخطبة للعباسيين على منبر العبيدين في القاهرة عندما رهب غيره القيام بذلك ، ومن طريف ما يذكر هنا أن أبا الحسن يوسف بن تفرى بردى يقول : « واختلفوا في الخطيب ، فقليل إنه رجل من الأعاجم يقال له الأمير العالم ، وقيل : هو رجل من أهل بعلبك يقال له محمد ابن الحسن بن أبي المضاء البعلبكي المقدم ذكره الذي توجه في الرسلية من قبل

(١) ابن الأبار ، المعجم ، رقم ٣١٥ من ٣٢٢-٣٢٣ ويلاحظ أن تاريخ ٥٩٥ واضح الخطأ ، فإن أبا عبد الله التجيبي رأى اليسع بن عيسى سنة ٥٧٠ ورآه مرة ثانية بعد صدوره من الحج ، ثم توفى اليسع بعد ذلك بقليل ، ويستبعد أن يحج التجيبي من سنة ٥٧٠ إلى سنة ٥٩٥ والأصح سنة ٥٧٥ كما ورد في ترجمة اليسع في التكملة .

(٢) كذا في الأصل ، والأصح : إلى العباسية .

(٣) التكملة ، رقم ٢١١٢ من ٧٤٤-٧٤٥

صلاح الدين. إلى بغداد ، وقيل انه كان رجلاً شريفاً مجيماً ، ورد من العراق أيام الوزير الملك الصالح طلائع بن رزيك^(١) ، فاما أن الخطيب كان ابن أبي المضاء البعلبكي فبعيد الاحتمال لأن ابن أبي المضاء كان رجلاً معروفاً لا يخفى أسر قيامه بالخطبة على أحد لو أنه فعل ذلك حقاً ، ثم انه كان رسول صلاح الدين إلى الخليفة العباسي بعد أن تم الأمر ، ولو كان هو الذي خطب لما خفي الأمر على مؤرخ ثبت كأبي المحاسن ، ثم ان الأمر لم يكن يتطلب رجلاً معروفاً ، بل رجلاً جريئاً متفانياً في سنته ليقتم هذه العقبة غير مُبالٍ بالخطر أو غير عارف بمداه ، وقد ولد اليسع وترى في بلاد اجتاحتها الأخطار وتهدها الغزو النصراني ، فنشأ ثابت الجأش معتاداً الثبات في لحظة الخطر شديد العصية لعقيدته السنية ، وقد وفد على مصر دون أن يتنبه أحد إلى مكانه أول الأمر ، ومن الطبيعي أن يكون أكثر من غيره ضيقاً بهذه الشيعة التي وجدها سائدة في مصر ، فما كاد يحس أن صلاح الدين يطلب من يتصدى لالقاء أول خطبة باسم العباسيين حتى عرض أن يقوم بالعمل ، وقام به فعلاً ، والغالب أن لهجته الأندلسية بدت للسامعين أعجمية شبيهة بنطق الإيرانيين والخراسانيين ، فحسبوه رجلاً من هذه النواحي ، وربما يكون رجال صلاح الدين قد كتموا اسمه خلال الأيام الأولى حرصاً على حياته ، فتضاربت الأقوال في شأنه كما رأينا في نص أبي المحاسن ، وما هو في الحقيقة إلا اليسع ابن عيسى بن حزم الغافقي الجياني .

والسؤال بعد ذلك : كيف وصل هذا الرجل إلى صلاح الدين ، أو كيف وقع اختيار هذا عليه ؟ وأمثال هذه الأسئلة تعسر الاجابة عليها من مادة التراجم الضئيلة التي تقدمها لنا معاجنا ، ولكن لدينا البرهان على أن اليسع قام لصلاح الدين بخدمة جليلة وهي هذه الكرامة التي أولاه إياها بعد ذلك

(١) النجوم الزاهرة ، ٣٥٥/٥ - ٣٥٦

حتى كان يشفع في حوائج الناس لديه ، وهذا المال الذى أغدقه عليه حتى
ابتنى داراً على النيل فيها اسطوان أى قاعة واسعة يقابل فيها الوافدين
عليه . وهذا يمكن تعليله بما افترضناه في الفقرة السابقة من أنه ربما يكون قد
سمع أن صلاح الدين يطلب من يستطيع إلقاء أول خطبة باسم الخليفة العباسي ،
فترض أن يكون هو القائم بذلك ، ووافق صلاح الدين على ذلك ، وقام
اليسع بالمهمة وفتح لنفسه بذلك طريقاً واسعاً في الحياة .

وقد نقل المقرئ وابن القطاط عن اليسع بن عيسى الغافقي نقولاً كثيرة
بعضها في الجغرافية وبعضها الآخر في التاريخ ، وكلها في الغالب من كتابه
الآنف الذكر « العرب في محاسن المغرب » الذى قال عنه ابن الأبار أنه
« متهم فيه » والشبهة هنا تنصب إما على مبالغة اليسع فيما ذكر من المعلومات
عن الأندلس أو على أخطاء ظاهرة وقع فيها عند الكلام عن الموحدين وانكراها
عليه مؤرخوهم ، ومنهم ابن القطان . فمن أمثلة المبالغة أو عدم التدقيق قوله
ان طول جزيرة الأندلس « من أبنة إلى أشبونة » وهو قطع ستين يوماً
للفارس الجدد ، وانتقد بأسرين : أحدهما أنه يقتضى أن أربونة داخلية في
جزيرة الأندلس ، والصحيح أنها خارجة عنها ، والثانى قوله : « ستين
يوماً للفارس الجدد » أعياء وافراط ، وقد قال جماعة « إنها شهر ونصف »
انتهى كلام المقرئ^(١) .

ويورد المقرئ بعد ذلك تعليلاً لابن سعيد يقول فيه : « وهذا يقرب إذا
لم يكن للفارس الجدد ، والصحيح ما نص عليه الشريف من أنها مسيرة شهر ،
وكذا قال الحجازي ، وقد سألت المسافرين المحققين عن ذلك ، فعملوا حساباً
بالمراحل الجيدة ، أفضى إلى نحو شهر بنيف قليل^(٢) » وبصرف النظر عن هذه

(١) نفع الطيب ، ١/١٢٥

(٢) نفس المصدر والصفحة .

الاعتراضات ، فكلها غير دقيقة ، فإن هذا التعليق يدل على أن كتاب اليسع كان متداولاً في المشرق وموضع مناقشات واستدراكات ممن كتبوا عن الأندلس بعد ذلك .

ومن أمثلة المبالغة كذلك قول اليسع عند ذكره مدينة شِنْتَرَه (Cintra) في البرتغال حالياً) « من خواصها أن القمح والشعير يزرعان فيها ويحصدان عند مضي أربعين يوماً من زراعته ، وأن التفاح فيها دَوْرُ كل واحدة ثلاثة أشبار وأكثر . قال لي أبو عبد الله الباكوري ، وكان ثقة ، أبصرت عند المعتمد ابن عباد رجلاً من أهل شنترة أهدى إليه أربعة من التفاح ما يُقِلُّ الحاملُ على رأسه غيرها ، دور كل واحدة خمسة أشبار ، وذكر الرجل بحضرة ابن عباد أن المعتاد عندهم أقل من هذا ، فاذا أرادوا أن يحجى بهذا العظم وهذا القدر قطعوا أصلها وأبقوا منه عشرًا أو أقل ، وجعلوا تحته دعامات من الخشب ^(١) » .

والمبالغة في هذه الأقوال ظاهرة ، فإن القمح والشعير مهما كانت جودة الأرض وملاءمة الجو لا يمكن أن يحصدا قبل ثلاثة شهور في شنترة أو غيرها ، ثم أين هي التفاحة التي دروها خمسة أشبار أى نحو ١٠٠ سنتيمتراً ؟ حتى في أيامنا هذه ، وقد بلغ التفاح فيها أقصى ما وصل إليه في التاريخ حجماً ووزناً لا يمكن أن يصل دور أكبر تفاحة أكثر من شهرين أى حوالى ٤٠ سنتيمتراً . ودليل المبالغة محاولة اليسع تأييد كلامه برواية عن يسميه أبا عبد الله الباكوري من أنه رأى هذا التفاح العجيب عند المعتمد بن عباد ، والمعتمد انتهى أمره سنة ١٠٩١/٤٨٤ أى قبل مولد اليسع بخمس وعشرين سنة على الأقل ، والأغلب أن سن صاحبه الباكوري كانت تقارب سنه .

(١) نفح الطيب : ١٥٤/١ - ١٥٥

ومن أمثلة المبالغة أيضاً قوله إن الأندلس «لا يتزود فيها أحداً ما حيث سلك لكثرة أنهارها وعيونها ، وربما لقي المسافر فيها في اليوم الواحد أربع مدائن ، ومن المعقل والقرى ما لا يحصى»^(١) وهي بطاح خضر وقصور بيض^(٢) ، فهذا كلام لا يصح ، إذ أنه مهما هطل المطر ونما الزرع لا يمكن أن يقال إن الأندلس بطاح خضر وقصور بيض ، ومن المعروف أن شبه جزيرة إيبيريا حافلة بالمناطق الجرداء .

ومن أمثلة أخطائه في التاريخ قوله أن من بين الهبئات الأساسية في تنظيم الموحدين جماعة تسمى السبعين أو أهل سبعين ، ولم يرد لهذه الهبة ذكر عند العارفين بنظام الدعوة الموحدية ، وقد علق على ذلك ابن القطان بقوله : «أما ما ذكره اليسع من أمر السبعين فلا أعرفه ولا أراه صحيحاً»^(٣) .

والخلاصة أن اليسع بن عيسى بن حزم العافقي لم يكن جغرافياً أصيلاً محققاً ، ولكنه نتب في جغرافية الأندلس على سبيل الدعوة لوطنه الذي خلفه وراءه في حال من الاضطراب وترادف الأخطار جعلت الأمل في انتقاده ضئيلاً ، ولهذا بالغ في وصف محاسنه ليحفز المهم على السعي لاستنقاذه ، ولم ينفرد اليسع بهذا الطراز من الكتابة عن الأندلس ، فسنرى علياً ابن سعيد المغربي يفعل هذا أيضاً ، نعم إن ابن سعيد لم يسترسل مع المبالغة إلى الحد الذي ذهب إليه اليسع ، ولكنه كان أيضاً داعية للأندلس انتدب نفسه للحديث عن وطنه بين إخوانه من أوطان المسلمين مذكراً إليهم بما كان للأندلس من عز ومجد وما له من حقوق على المسلمين ، ولم يكن اليسع على علم واسع بجغرافية بلاده أو بتاريخ الغرب الإسلامي ، فاعتمد في ذلك على ما وصل إلى يده من كتب وأضاف من خياله أشياء أخرى من طراز ما ذكرناه ، ومن أسف أن كتابه

(١) نفع الطيب : ١٩٤/١

(٢) نظم الجمان لابن القطان ، الجزء السادس بتحقيق الدكتور محمود على مكي ، تطوان ،

١٩٦٤ ، ص ٢٩

قد ضاع ، ولولا أن المقرئ — ذلك الجماع الحاشد — احتفظ لنا بفقرات من الكتاب لما كانت لدينا أى فكرة عن طبيعته وقيمه أو مكانه بين كتب الجغرافية والتاريخ .

لقد كان أمثال اليسع في المشرق كثيرين جداً أحصينا منهم في « الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة » نحو مائتي رجل ، كلهم غادروا وطنهم الذي أشبه — ابتداء من القرن السادس — بسفين دهمته العواصف وسط البحر ، فأخذ يفرق شيئاً فشيئاً ، ونجا من استطاع من ركابه وحط على أقرب شاطئ ، ومضى يتحدث عما كان للسفين من جمال وما كان فيه من أعاجيب ، ولكن القليلين منهم اجتهدوا في الدعوة الخالصة لانتقاذ الأندلس ، وربما كان اليسع أقدر الجميع على القيام بمجهود في هذه الناحية بما كان له من المكانة والخطوة عند صلاح الدين ، وربما يكون قد فعل شيئاً من ذلك فقد كان رجلاً مقداماً ، فيه ذلك الاندفاع إلى القول والعمل الذي تميز به الكثيرون من الأندلسيين ، ومن يدرى ؟ ربما كان لليسع أثر فيما لوحظ من اهتمام صلاح الدين بالجنح الغربي لمملكة الإسلام وتطلعه إلى التعاون مع الموحدين ؟

ومثل كتاب « المغرب عن أحوال أهل المغرب » هذا لدينا أسماء كتب أخرى كتبت على غرارها ، حررها في المشرق نفر من مهاجرة الأندلسيين أو المغاربة الذين هاجروا إلى المشرق أو استقروا فيه ، وغنها نقل كتاب المشرق ومثال ذلك تلك المعلومات الكثيرة عن المغرب والأندلس التي يوردها أبو البركات محمد بن أحمد بن إياس المصري (ت ٩٣٠ / ١٥٢٤) عن المغرب والأندلس في كتابه « نشق الأزهار في عجائب الأقطار »^(١) ناسباً إياها « لبعض أهلها » ، فإن معظم ما يورده ابن إياس في هذا الباب مبالغات من طراز ما رأيناه في كتاب اليسع ، وكذلك كتاب « مناهج الفكر ومباهج العبر » (أو مباهج الفكر ومناهج

(١) لم ينشر هذا الكتاب بعد ، وعطوفاته كثيرة (انظر بروكليات ، ملحق ٢ من — ٤٠٥ — ٤٠٦ ، وينقل المقرئ في نفح الطيب عنه كثيراً مكتفياً بقوله : قال صاحب نشق الأزهار .

العبر) لجلال الدين محمد بن ابراهيم بن يحيى بن علي الانصاري المعروف بالوطواط الكتبي الوراق (٦٣٢-٧١٨/١٢٣٣-١٣١٨)، فهو أيضاً كتاب مبالغات وتهويلات، وما يخص المغرب والأندلس فيه كثير، ولم ينشر ذلك الكتاب بعد^(١)، ولكن المقرئ أورد في نفح الطيب مقتطفات كثيرة منه شبيهة بما أورد من كتاب اليسع بن عيسى الغافقي. وقول ابن إلياس أنه أخذ هذه المعلومات عن «بعض أهلها» أي بعض أهل الأندلس يدل على أنه نقل عن كتب كثيرة في هذا الشأن ألفها أندلسيون مهاجرون.

أبو حامد الغرناطي

ويختلف عن هؤلاء جميعاً رجل من مشاهير معاصري الإدريسي من الأندلسيين، وهو محمد بن عبد الرحيم بن سليمان بن ربيع القيسي الغرناطي^(٢).

(١) انظر بروكلمان، تاريخ ٥٤/٢ وملحق ٥٣/٢
(٢) أوردت اسمه هنا كما ذكره هو بنفسه في فاتحة كتابه «المغرب عن بعض عجائب الغرب» مخطوط أكاديمية التاريخ في مدريد (رقم ٣٢ مجموعة جاينجوس) ورقة ٤٤١، وعلى هذه النسخة معولنا فيما سنذكر عن هذا الكتاب.
وقد وردت كنية مؤلفنا «أبو بكر» و«أبو محمد» و«أبو عبد الله» في المراجع المختلفة، ويقلب على الظن أن أبا حامد هي أصح الكنى، فقد كان له بالفعل ولد يسمى حامد. وورد اسم أبيه عند حاجي خليفة عبد الرحمن، ويبدو أن هذا تصحيف.
ومعولنا في الكثير مما سنورد عن أبي حامد على المقدمة الإضافية التي كتبها جابريل فيران لتحقيقه لكتاب تحفة الألباب.

Cf. *Le Tuhfat al-Albab de Abū Hāmid al-Andalusī al-Gharnāṭī*; édité d'après les mss. 2167, 2138, 2170 de la Bibliothèque Nationale (de Paris) et le ms. d'Alger, par Gabriel Ferrand. Journal Asiatique, Juillet-Septembre 1925.

وسنشير إلى هذا المرجع باسم «التحفة».
واعتمدنا كذلك على الدراسة المتفيزة التي ضمها سيزار دوبر الكتاب الذي نشر فيه قطعة من «المغرب عن بعض عجائب المغرب» وهو:

César E. Dubler, *Abū Hāmid el-Granadino y su Relación de viaje por Tierras Euroasiáticas* (texto árabe, traducción e interpretación). Madrid 1953.

وسنشير إلى هذا المرجع باسم: المغرب — دوبر، وسنشير إلى ما نورد من المخطوط بعبارة: المغرب — مخطوط.

كان رحالة يدفعه إلى جوب الآفاق شوق لا يقارن إلا بهذا الذي دفع ابن بطوطة إلى رحلاته ، بل أرى على هذا الأخير في ذلك ، إذ كانت له جرأة غير معهودة على اقتحام المخاطر والدخول في بلاد بعيدة مجهولة الأحوال والألسن ولا يدخلها الغريب إلا على غرر ، وأوغل في تلك النواحي المرة بعد المرة وأطال التغرب ، وعاد إلى دار الإسلام في كل مرة يحكى من الغرائب والعجائب ما لا يكاد يصدق ، واستمر في ذلك الجهد المضني حتى نيف على التسعين وهو في رحلة ما يزال ، وخلف لنا طائفة من كتب فريدة في بابها ، فهي ليست كتب رحلات شبيهة بما كتب ابن فضلان مثلاً ، وليست كتب غرائب وعجائب كالتي سنجدتها في كتاب أبي بكر الزهري الذي سنعرض له بعد قليل وليست كتب جغرافية خالصة كتلك التي مررنا بها إلى الآن ، وإنما هي مزاج من ذلك كله : نلقى فيها الرحالة الطلعة القوي القلب ، والجغرافي الدقيق البعيد الملاحظة ، والعجائبي المغرب المسرف فيما يروي من أخبار المستبعدات وأوصافها ، وهو يؤكد أنه رأى الكثير من ذلك بنفسه أو اختبره بيده ، ولولا أننا نعرف أن المولعين بهذا الشأن في تلك العصور كانت فيهم سذاجة في التصور وإسراع إلى التصديق يجعلانهم يخادعون أبصارهم حتى ليتوهمون رؤية ما لا يرون أو يبالغون في تصوير ما يرون حتى يجاوزوا به المعقول ، لولا هذا لقلنا أنه غير صادق فيما روى . وحال أبي حامد الغرناطي في هذا هو حال أبي الحسن المسعودي وشمس الدين محمد بن أحمد بن أبي بكر البناء المقدسي في الكثير مما ذكرا في كتبهما ، وهما رغم ذلك من أهل الصدق والثقة في حسابنا ، ونحن عندما نقرأ لأمثال هؤلاء أحاديث الخرافة والمستحيلات ونجدهم يؤكدون أنهم رأوا ذلك بعين رأسهم ندرك أنهم لشدة ولهم بالعجيب الخارق وفرط إيمانهم بقدرة الله تعالى على كل شيء حسبوا أنهم رأوه أو أحسوا به كما وصفوه أو خيّلوه لأنفسهم كما تصوروه ، وربما أحسنا ونحن نقرأ لهم أن الرغبة في تشويق السامعين والولع باستلفات الانتباه بحديث

الغرائب حملا الكثيرين منهم على زعم الرؤية وتوكيد المشاهدة ، فانساقوا في قول ما قالوه عن حسن نية ورغبة ساذجة في الامتناع والتسلية .

نقول هذا لأننا سنجد أحاديث أبي حامد الغرناطي حافلة بالغريب وما يخرج عن حد التصديق ، ثم نجد الرجل نفسه يؤكد أنه رأى ذلك بنفسه أو اختبره بيده ، وأبو حامد بعد ذلك رجل فاضل عاقل يستبعد منه الكذب والشبهة والاسفاف إلى ما لا تقبله العقول أو الاستخفاف بسامعه وقارئه ، ولا تفسير لأعاجيبه وتهويلاته إلا ما ذكرناه ؛ ثم إن أبا حامد كان ابنَ عصره ، والعصر كان يقبل هذه الأحاديث ولا يستبعداها ، وفي هذه الحدود ينبغي أن نقرأ أبا حامد الغرناطي ونفهمه .

حياة أبي حامد الغرناطي ورحلاته

وحياة أبي حامد نفسها ربما كانت أغرب من كثير من الأعاجيب التي أوردتها في كتبه ، فهي حافلة بالحوادث والحركة والنشاط على نحو يندر أن نجد له مثالا ، وقد استخلص جابريل فران سراحل هذه الحياة من أقوال المؤرخين ومن كتابات أبي حامد نفسه ، وأوردتها في المقدمة الضافية التي ساقها بين يدي تحقيقه « لتحفة الألباب » ، وعاد فحكاها في صورة أدق وأوفى سيزار دوبلر في مقدمة ما نشر من « المغرب من عجائب المغرب » معتمداً على ما ذكره أبو حامد في ثنايا كتبه وما ذكره المقرئ في ترجمته الضافية له في « نفح الطيب » ، وفيما يلي سراحل هذه الحياة الحافلة :

ولد أبو حامد في غرناطة سنة ٤٧٣/١٠٨٠-١٠٨١ ، وقد نص هو على ذلك في « المغرب » فقال : « ومولدى بالمغرب الأقصى بجزيرة تعرف بأندلس فيها أربعون مدينة ، ومولدى في مدينة تسمى غرناطة » . وأعاد ذلك في « التحفة » : « فإن بلدى بأندلس ، واسم بلدى غرناطة ، وهو بلد عظيم

كبير يقال إنه مدينة دقيانوس . أما نسبه « القيسي » فليست كما قال في المغرب (١٣) نسبة إلى قيس عيلان بن الياس بن مضر بن نزار ، بل إلى قرية قريبة من غرناطة تسمى قيس ، أما نسبه الأخرى « الأقليشي » فإلى بلدة أقليش أو أقليم Uclés في مديرية كونكة Cuenca حالياً ، وربما يكون قد قضى فيها سنوات من صباه وشبابه الباكر ، فنسب إليها .

ولا ندرى شيئاً عن حياة أبي حامد حتى مغادرته الأندلس إلى غير رجعة حوالى سنة ١١٠٦/٥٠٠-١١٠٧ في الغالب ، أى في سن السابعة والعشرين ، ولا شك أنه درس على الشيوخ على نفس النظام الذى جرى عليه غيره من أبناء عصره ووطنه ، ولكننا لا نحسب أنه تعمق في دراسة الفقه أو الأدب وما إليهما من فروع العلم الإسلامى ، لأننا لا نلمح في كتبه ما يدل على تعمق أو استبحار ، بل نلاحظ قصوراً واضحاً في الزاد الفكرى والعلمى ، ولكن الذى يستنتج من كتاباته أنه كان حاد الذكاء شديد التطلع دقيق الملاحظة حسن الحديث خفيف الروح ، ومن كانت هذه خلاله تتفتح له الأبواب وتسهل أمامه الحياة ولا يحتاج إلى كد النفس وإرهاقها في طلب العلم ، وحسبه من كل شيء طرف يسمر به في المجالس ويتحدث به بين الناس .

وليس في كتابات أبي حامد ما يشير إلى عودته إلى وطنه ، ويعلم سيزار دوبلر هذه الهجرة النهائية بسقوط بلده أقليم في أيدي النصارى^(١) . وقد

(١) يعلق دوبلر على هذا بقوله ان المقرئ يقول ان أبا حامد كان في الاسكندرية سنة ٥٠٨ هـ واعتاداً على ذلك افترض نيران (مقدمة النخبة ص ٢١) ان أبا حامد عاد إلى الأندلس ، وتابعه في ذلك بروكان وجورج سارتون (وبذلك قال كراتشكوفسكى ، الأدب الجغرافى ، ص ٢٩٥) وذهب إلى مثل ذلك مينورسكى اعتقاداً على ترجمة لحياة أبي حامد شبيهة بما يذكره المقرئ عنه وجدها في مخطوطة طشقند التى ترجع إلى القرن الرابع عشر الميلادى ، وربما كانت هاك علاقة ما بين الترجمتين . ويقول دوبلر انه لا يستبعد إمكان وجود أبي حامد في الاسكندرية سنة ٥٠٨/١١١٤-١٥ ، ومن الممكن أن يكون قد عبر البحر من هناك وزار بعض جزائره ثم عاد إلى الاسكندرية سنة ٥١٢ ، وربما يكون قد حدث خلط بين التاريخين (٥٠٨ و ٥١٢) ، ومن هنا جاء القول بان أبا حامد عاد إلى الأندلس والمغرب بين هذين التاريخين .

طاف أبو حامد بعد مغادرته الأندلس بنواحي المغرب الأقصى ، ووصل إلى سجلماسة ، وكانت مركزاً تجارياً عظيماً على الحدود الشمالية للصحراء الكبرى . ولا شك أن أبا حامد وصل إلى هذا البلد ، فقد أعطانا معلومات دقيقة عن أصناف المتاجر التي تحمل من وسط إفريقية إلى هناك ، ووصف طريقة صنع السهام التي تستعملها قبيلة الكوكرو ، وكانت من أقوى القبائل في تلك الناحية .

ومن هناك انتقل أبو حامد إلى إفريقية (تونس الحالية) . وما يستوقف النظر أنه يخلط بين مدينتي تونس والقيروان ، وهو خلط يرجع — في الغالب — إلى أن ما ذكره عنهما في التحفة كتبه بعد ذلك بسنوات طويلة . وقد ذكر في التحفة أيضاً (ص ١٣٨—١٣٩) ، أنه زار هناك قبر رجل صالح يقال له محمد المعلم ، والمراد به محرز بن خلف بن رزين المتوفى سنة ٤٢٣/١٠٣٢ ، وأخطأ الناسخ فكتب محمداً مكان محرز . وأخذ أبو حامد شيئاً من تراب قبره ، وكان الناس يتبركون به ويحملونه معهم إذا ركبوا البحر لتبعد عنهم الأنواء ، ويقص أبو حامد حكاية طريفة عن هذا الموضوع .

ويطلب أن أبا حامد غادر تونس إلى الاسكندرية بطريق البحر سنة ٥١١/١١١٧—١١١٨ ، ويحتمل أن يكون قد نزل أثناء هذه الرحلة بجزيرة سرديانية ، فهو يقول في التحفة (ص ١٠٤) : « وفي بحر الروم من الجزائر كثير جداً ، منها جزيرة تسمى بسرديانية ، وهي عظيمة جداً ، فيها من الكفار خلق كثير شجعان ، والبحر الذي هم فيه يقال له بحر اللاذقية خلف قسطنطينية ، متصل بالبحر الرومي الذي قبلي بلد قسطنطينية » . وشاهد بنفسه جبل النار (بركان إتنا) ، ووصف خروج حِمم الالاف منه ، قال : « ويقال إنها جمر كبار كأعدال القطن ، يتقطع فيقع بعضها في البر فيصير حجراً أبيض خفيفاً يطفو على الماء نلغته ، والذي يقع في البحر يصير حجراً أسود مثقباً ، تحك به الأرجل في الحمام ... »

وفي نفس هذه السنة كان أبو حامد في الاسكندرية وسمع العلم على أبي عبد الله الرازي وأبي بكر الطرطوشي . وفي الاسكندرية زار المنارة ووصفها وصفاً دقيقاً ، وقد كان أبو حامد من آخر من رآها بحالتها الكاملة من رحالة العرب وجغرافيتهم ، ووصفه لما دقق يدل على مشاهدة مباشرة وإن كان شديد الشبه بوصف البكري إياها ، وأبو حامد يذهب إلى أنها من بناء ذى القرنين ، وهو يذكر تاريخها القديم ثم يصفها كما رآها ، ولا يكتفى بالوصف بل يرسمها بيده : « والنصف الأسفل الذى من عمل ذى القرنين : يدخل الإنسان من الباب الذى للمنارة ، وهو مرتفع عن الأرض مقدار عشرين ذراعاً ، يصعد عليه على قناطر مبنية بالصخر المنحوت على هذه الصورة التى أصورها . . . » (تحفة ، ص ٧١) وقد أورد الرسم بالفعل (ورقة ١٧ من المخطوط) وهو رسم لا بأس به ، وعييه الكبير هو أن الرسم مسطح لا منظور ، وهذا عيب شائع فى التصاوير العربية والفارسية إلى ذلك الحين . وأبو حامد يؤكد أنه صعد المنارة ودخل غرفها مرات كثيرة أثناء وجوده فى الاسكندرية سنة ٥١١ هـ . وفي الاسكندرية زار أيضاً معبداً يغلب أنه سيرايوم الاسكندرية المشهور ووصفه وصفاً دقيقاً (تحفة ٧٢-٧٣) ، وعلى مثل هذه الصورة وصف ذلك المعبد جغرافيون ورحالة مسلمون آخرون^(١) . وكرر أبو حامد نفس الكلام عن الاسكندرية فى المغرب (مخطوط ورقة ٤٥-٤٦) وأضاف هنا أنه : « يأتى إلى اسكندرية خليج من ماء النيل ، ومن ذلك الخليج يشربون ويملاؤن منه صهاريج فى بيوتهم ، ويشربون أيضاً من ماء المطر ، يجمعون ماء المطر وماء العين (سبق أن وصف هذه العين وعجائبها) فى صهاريج فى بيوتهم . وليس فى الاسكندرية ماء إلا من النيل أو من المطر ، وماء العين الصدفية ماء يسير ليس بطيب » .

(١) أورد ذكر بعضهم فيران فى تعليق رقم ١ من نفس الصفحة من التحفة ، وكذلك جاستون فينت فى تعليقاته على ما نشر من خطط المقرئى ، ج ٣ ص ١٣١ هامش ٦

ومن الاسكندرية انتقل أبو حامد إلى القاهرة في السنة التالية (٥١٢ /
 ١١١٨-١٩) وهو يسميها مصر (تحفة ٧٣ ، معرب ورقة ١٤٦ - ب)
 ويقول في الأخير : « ودخلت مصر سنة اثني عشر وخمسة وهي التي تعرف
 بالفسطاط التي بناها عمرو بن العاص » ، ويؤكد ذلك في التحفة بقوله :
 « وفي مقابلة مصر الفسطاط ثلاثة [أهرامات] ، أكبر هذه الثلاثة . . . »
 وهو بطيل وصف جامع عمرو ويبالغ على عادته ، ولكنه لا يذكر اسم القاهرة
 ولا الجامع الأزهر كأنه لم يره ، وله في أثناء ذلك ملاحظة تدل على استنكاره
 لدعوى الفاطميين في نسبهم ، وربما يكون قد كتبها لإرضاء الوزير عون الدين
 الذي ألف له الكتاب ، قال (ورقة ٤٦ ب) : « وذكر لي المصريون أن
 الأفضل ابن أمير الجيوش كان من أهل السنة ، وكان هو في السنة التي
 دخلت مصر ، سنة اثنتي عشرة وخمسة ، بالحياة قاهراً للدعي الذي بمصر
 الذي يقول إنه من ولد اسماعيل بن جعفر ، ويكذب ، لأن اسماعيل بن جعفر
 مات صغيراً لم يبلغ الحلم . . . » والعبارة ذات أهمية خاصة ، لأن المعروف أن الخلاف
 بين الخليفة الفاطمي أبي علي منصور المعروف بالآمر بأحكام الله ووزيره الأفضل
 شاهنشاه ابن بدر الجمالي كان شديداً ، وأن العلاقات بينهما لم تزل تسوء حتى
 انتهت بقتل الأفضل في ٣٠ رمضان ٥١٥ ولكن سبب النفور بين الرجلين لم
 يكن الاختلاف في المذهب (انظر النجوم الزاهرة ، ١٧٠ / ٥ وما بعدها) ،
 وإنما كان التنافس على السلطان وخوف كل منهما من الآخر ، ولا يمكن لهذا
 القول بأن الأفضل كان في سنة ٥١٢ سنياً متحمساً لمذهبه قاهراً للآمر لهذا
 السبب ، إلا إذا كانت هذه أحاديث سمعها أبو حامد في مجالس الناس في
 مصر ، وعلى هذا الاعتبار تكون لها أهمية تاريخية .

وبالإضافة إلى جامع عمرو بن العاص وصف أبو حامد الفرائط الكثير
 من آثار مصر وعجائبها كقياس الروضة (١٤٧) وهو يقول إنه مسجد بناه
 أمير المؤمنين المأمون وسط النيل ، ولكنه يصف المقياس وصفاً دقيقاً ، ثم

يصف الفيضان ، ويستوقف انتباهه من مظاهر الفيضان أن الفيران والحيات والثعابين تخرج « من تلك الأرض وتدخل على الناس في القرى ، والناس يقتلونهم ليلاً ونهاراً أياماً كثيرة ، لأن أرض مصر من أكثر البلاد حيات وثعابين » ويقف هنا وقفة طويلة ليتحدث عن ثعابين مصر حديثاً مغرماً في المبالغة حتى ليصف الطريق الذي سار فيه ثعبان في الرمال بأنه كان « مثل النهر عريضاً عميقاً » وأن عرضه كان ٢٠ ذراعاً . ثم يتحدث عن قصر فرعون على الضفة الغربية للنيل . ثم يتكلم عن خصوبة أرض مصر ، ويقول إنه رأى فيها البطيخ الهندي « في كل واحدة منها مائة مَنّ ، يحمل اثنان منها على حمل قوى ، وهي حلوة طيبة عذبة جداً ، لم أشاهد في الدنيا مثل ذلك » ، والمن المصري كان وزنه إلى سنة ١٤١٤ ميلادية ٨١٢,٥ جراماً أما المن العراقي فوزنه على التقريب ٨١٦,٥ جراماً^(١) ، ومعنى ذلك أن هذه البطيخة التي رآها بمصر وزنها أزيد من ٨١ كيلوجراماً بقليل ، وهي مبالغة تذكرنا بتفاحة اليسع ابن عيسى بن حزم الغافقي ومحيطها خمسة أشبار أى نحو ١١٠ سنتيمتراً .

ثم ينتقل إلى وصف التماسح (١٤٩) ثم يتحدث عن الأهرام (١٥٠) وهنا خرم في الخطوط ينتقل الكلام فيه إلى الين ، ولكننا نجد بقية مشاهداته في مصر في التحفة (ص ٧٤ وما يليها) : فهو يتحدث هناك عن مسألة عين شمس ، وهو يقول إنها « منارة مربعة علوها مقدار ١٠٠ ذراع من الرخام الجرج الصافي ، قطعة واحدة محددة الرأس » ويصف بقايا المعابد التي كانت لا تزال قائمة إلى أيامه في موضع المسلة .

وظل أبو حامد في مصر حتى سنة ١١٢١/٥١٥ - ١١٢٢ (بقرى ، نفح ٥٥١/١) ونزل دمشق ودرس الحديث بها ، وربما يكون قد زار في أثناء ذلك بعلبك وتدمر إذ هو يصفهما في كتابه ، ووصل بغداد سنة ١١٢٣/٥١٦ -

Cf. Walther Hinz, *Islamische Masse und Gewichte* (Leiden 1955) p. 16-17. (١)

١١٢٤ (حاجي خليفة ٤/١٩٠ والمغرب ورقة ٢ ب) وأقام في بغداد أربع سنوات على وجه التقريب .

ولأول نزوله بغداد عرف الوزير عون الدين الذي سيكون راعيه وملاذه من ذلك الحين ، وله ألف كتاب المغرب وقال في فاتحته (١٢) « ... ورأيت أن أسمى هذا المجموع بالمغرب عن بعض عجائب المغرب ، وأن أجعله برسم خزانة مولانا الوزير العادل الزاهد المجاهد عون الدين ملك الجيوش صفى الامام ، معين الدولة ، مصطفى الخلافة ، سيد الوزراء ، صدر الشرق والغرب ، أبي المظفر يحيى بن محمد بن هبيرة بن سعد بن حسن بن أحمد بن الحسين بن جهم بن عمرو بن هبيرة الشيباني ظهير أمير المؤمنين ... » ولم يكن يحيى بن هبيرة الشيباني هذا وزيراً عندما دخل أبو حامد بغداد ، إنما كان من عليّة الناس ، ولابد أنه كان شاباً إذ ذاك ، لأنه سيتولى الوزارة للمقتنى في ربيع الأولى ٥٤٤/أغسطس ١١٤٩ وسيظل في الوزارة أيام المستنجد إلى جمادى الثانية ٥٦٠/مارس ١١٦٥ وسيعظم أمره حتى يلقب بسلطان العراق . وعبارة أبي حامد هذه تدل على أنه كتب «المغرب» بعد سنة ٥٤٤ ، وقد لقي أبو حامد من يحيى ابن هبيرة هذا كل اكرام حتى أنزله في داره وفتح له أبواب مكتبته الزاخرة ، وظل إلى وفاته راعياً للحالة الجغرافية مشجعاً له على الرحلة والتأليف مستمعاً إلى أحاديثه في شوق ، مما كان له أبعد الأثر في حياة أبي حامد وعمله فيما بعد . وبفضل هذه الرعاية أتيح لأبي حامد أن يشبع نهمة العظم للرحلة ومشاهدة البلاد الغريبة البعيدة ، ويصعب تتبع خطواته بعد ذلك ، لأن الرجل في كتبه لا يصف رحلة متصلة الحلقات بل ينتقل من عجيبة في ناحية إلى عجيبة مشابهة لها في ناحية أخرى ، فبينما يتحدث عن منارة الاسكندرية ينتقل إلى الأندلس ليصف صنم قادس ، ولكنه لحسن الحظ أثبت تواريخ زيارته لبعض المواضع ورؤيته لبعض العجائب ، وهذه التواريخ تعيننا على تتبع بعض خطواته .

وبصفة عامة يمكن القول إنه اتخذ بغداد قاعدة لرحلاته ومعظمها في هضبة إيران التي وصل إلى أقصاها شرقاً وفي بلاد التركستان ثم في جنوبي روسيا وحوض الفلجا وشرقي أوروبا ، وقد بلغ في رحلاته إلى الحجر ووصفها ، وفقرات «المغرب» التي يصف فيها ما شاهد في تلك النواحي الأخيرة هي التي حددت مكاتبه كجغرافي أصيل زار بلاداً لم يزرها إلا القليلون قبله وأثنا عنها بتفاصيل غاية في المتعة والفائدة والدقة ، نعم إن حديثه لا يخلو أبداً من حديث الخرافة والعجائب ، ولكن هذا كان وسيلة للتشويق والترغيب في القراءة ، وإذا كان هو يرحل ليشاهد ويتأمل فقد كان قرائه يقرأون للتسلية والتسرية عن النفس ، ولم يكن لأبي حامد بد من أن يرضى هذه الرغبة ، ثم أنه كان يعتقد في صحة ما يحكيه .

وسنتبع فيما يلي ما يمكن من خطواته بعد وصوله بغداد اعتماداً على التواريخ القليلة التي أوردها في كتابيه المغرب والنخبة .

ففي سنة ٥٢٤/١١٣٠ أي بعد ثمانى سنوات من نزوله بغداد كان في أبهر في إيران^(١) ، ويذكر أبو حامد هنا حقيقة هامة وذلك حيث يقول «فالناس يحملون من بلاد الإسلام سيوفاً تتخذ في زنجان واهر وتبريز وأصفهان نصولاً ، ولا يتخذون لها آلة ولا حلية ، إلا حديداً كما يخرج من النار ، ويسقون تلك السيوف سقياً عظيماً ، حتى إذا علق السيف بحيط ونُقِر بالظفر أو بشيء من حديد أو خشب يسمع له طنين دائم ، فذلك السيف هو الذي يحمل إلى يورا» وهم شعب من الشعوب التي كانت خاضعة لبلغار الفولجا^(٢) .

(١) حدد هذا التاريخ فيران في مقدمة النخبة (ص ٢٢) وعلق على كلام أبي حامد شرحاً طويلاً صحح فيه خطأ وقع فيه سلفستر دى ساسي في ترجمته وتعليقاته على رحلة عبد اللطيف البغدادي .

Silvestre de Sacy, *Rélation de 'Abd Allatif*, p. 218

(٢) علق سيزار دوبلر على هذا القبيل من الناس بقوله إن الأرجح أن المراد هنا هم اليوراكيون السمويون Yuracos Samoyeas لأن السمويين القدامى (بالألمانية Altsamoyeden كانوا قبلاً أمرق في القدم ، ولم يبق منهم إلا بقايا في شرق سيبيريا . Cf. *Abū Hāmid* ١٩٠٧ n. 2.

ومن هناك انتقل إلى أَرْدَبِيل ، وهو يتحدث بهذه المناسبة عن حجر كبير أسود موضوع في ميدان البلد «أسود له طنين كالفلواز ، له محك كمحك القلعي الرصاص ، وهو على صورة كلية البقرة فيه أكثر من مائتي مَن» ويقول ان هذا الحجر يستدر المطر ، وقد ذكر ذلك الحجر ووصفه بنفس الوصف جغرافيون عرب آخرون مثل الإدريسي وأبي الفدا وياقوت^(١) وزاد أبو حامد فرسم هذا الحجر بيده رسماً طريفاً .

وحديث أبي حامد عن هذه النواحي النائية في شرق هضبة إيران وشمالها الشرق حديث طويل حافل بالفائدة ، فهو يتحدث عن الأمم التي كانت تسكن عند دَرَبَنْدَا أو الدربند أو باب الأبواب وهو أقصى ما وصل إليه الفتح الإسلامي شرقاً أيام الأمويين ، ويذكر نظامها السياسي ، ويقف وقفة طويلة عند وصول مسامة بن عبد الملك إلى هناك ، ويفصّل لنا أمر « سيف مسامة » الذي تركه للناس هناك لتقوى قلوبهم على محاربة من يجاورهم من الأمم « فعملوا له محراباً من الصخر وأقاموه في داخله على تل حيث كان نازلاً (مسامة) ، وهو الآن باق في تلك الأرض يروره الناس » (تحفة ٨٤) ، ويقول إنه « بالقرب من دربندا جبل عظيم في أسفله قرستان فيها أمة يقال لها زريه كاران (بالفارسية ومعناه صناع الجلود) « يعنى صناع الدروع ، يتخذون الآلات جميعها للحروب من الدروع والجواشن والخوذ والسيوف والرماح والقسي والنشاب والخناجر وجميع أنواع آلات النحاس ، جميع نسائهم وأولادهم وبناتهم يتخذون هذه الصنائع كلها ، وليس لهم حرث ولا بساتين ، وهم أكثر الناس خيراً ومالاً ، يقصدهم الناس بجميع النعم من جميع الآفاق ، وليس لهم دين ولا يعطون جزية » .

وقد أقام أبو حامد في هذه النواحي المتطرفة فترات طويلة وتردد عليها المرة بعد المرة حتى ليذكر أنه دخل خوارزم ثلاث مرات (التحفة ، ص ٨٢) ، ومن

(١) التحفة ، ص ٨٢ وتعليق ١

الطريف أنه دخل خوارزم عن طريق بلاد البلغار وجنوب روسيا أي أنه عبر البحر الأسود من آسيا الصغرى إلى القرم ثم عبر بحر آزوف واتجه شرقاً حتى وصل إلى مصب الفولجا ثم انحدر إلى شرق إيران وخوارزم ماراً ببحر الخزر (قزوين) ، وكأنا راقته هذه النواحي فأكثر الكلام عنها وعن عجائبها في كتابي التحفة والمغرب .

ولدينا بعض التواريخ عن إقامته في هذه النواحي أو سروره ببعض بلادها ، ففي سنة ٥٢٥/١١٣١ كان في سجسين أو سقسين أو سخسين^(١) عند مصب نهر إاتل وهو الفولجا ، وهو يقص هنا (التحفة ١١٦-١١٧) حكاية طويلة طريفة تتلخص في أن شيخاً فقيراً عثر على سوار من الذهب « وزنه أربعون مثقالاً » ولم يعرف ماذا يصنع به ، فطاف به في كل ناحية يبحث عن صاحبه فلم يجده ، فخار في أمره ، وسأل أبا حامد ، فقال له أن يتصرف فيه فهو مال حلال ، فرفض الرجل ، وأخيراً قال أبو حامد : « افد به الأسرى من أيدي الترك ، ففرح وقال : بارك الله عليك ، فرجّت عني كُرْبَه ، فقلت : أوليس هنا من أهل العلم من يأمرك بمثل هذا ؟ فقال : ها هنا من أهل العلم من يقول : أعطنا إياه ، ونحن نعرف ما نصنع به ، وإنما يريدون أكله ا » .

وأبو حامد يصف ناحية سجسين هذه وصفاً يعتبر اليوم من المراجع التي يُعتمد عليها في تاريخ روسيا القديم بسبب ما يتضمن من المعلومات وما فيه من الدقة التي لا تصدر إلا عن معاينه ، قال (المغرب ص ٣ من طبعة دوبلر) : « ودخلت البحر إلى بلاد الخزر ، فوصلت إلى نهر عظيم أكبر من الدجلة

(١) بلدة كانت قرب مصب الفولجا ، يصفها جغرافيو المسلمين بأنها كانت لصين ، واحد على كل من سطى النهر . ويسمى بعضهم مدينة إاتل وقد ورد ذكرها في بعض المدونات الروسية باسم سكسيني . وقد زالت هذه المدينة أما بسبب مد نهر الفولجا وتغييره لجراه أو بسبب تخريب المغول . وفي القرن الثالث عشر الميلادي نجد مكانها مدينة تسمى حاجي طرخان وهو تحريف لاسمها الأصلي طرخان خاتان ، ومن تلك الصورة المحرفة جاء اسمها الحالي استرخان التي ينسب إليها القرو المعروف . ومعنى سجسين باللغة الخزرية الموضع الجاف

Cf: Dubler, *Abū Ḥamid*, pp. 225-230

مسات أضعافاً مضاعفة ، كأنه بحر تخرج منه أنهار عظيمة (يريد نهر إتل وهو الفولجا) وعليه مدينة يقال لها سجنين ، فيها من الفُرَّ أربعون قبيلة ، لكل قبيلة أمير على حده ، ولهم دور كبيرة ، وفي كل دار خركاه^(١) عظيمة كالقبة الكبيرة ، تسع الواحدة مائة رجل وأكثر ، مفضاةً باللبود . وفي المدينة من أمم التجار والغرباء وأولاد العرب من المغرب آلاف لا يحصى عددهم ، وفيها جوامع يصلى فيها الجمعة في الخزر ، وهم أمم أيضاً ، وفي وسط البلدة أمير من أهل بلغار ، لهم جامع كبير يصلى فيه الجمعة ، وحوله أمم من البلغاريين ، وجامع أيضاً آخر فيه أمة يقال لها أهل صُواز^(٢) ، وهم أيضاً كثيرون ، ويوم العيد يخرجون بمنابر كثيرة ، يصلى كل أمير بأمره كثيرة ، ولكل أمة قضاة وفقهاء وخطباء ، والجميع على مذهب أبي حنيفة ، إلا أولاد المغاربة ، فانهم على مذهب مالك ، والغرباء على مذهب الشافعي ، ودارى الآن فيهم ، وأمهاث الأولاد وأولادى وبناتى .

ومعنى هذا أن أبا حامد استقر في هذه النواحي زماناً حتى اتخذ أمهاث أولاد وأنجب بنين وبنات ، وقد رأت له الإقامة هناك رغم ما لا يزال يشكو منه من شدة البرد : « الشتاء عندهم شديد البرد ، وبيوتهم في الشتاء من خشب الصنوبر ، جذوع كبار بعضها فوق بعض ، وسقوفها وسطوحها من ألواح الخشب ، ويوقدون النار ، ولها أبواب صفار مفضاة بجلود الأغنام بصوفها ، وداخلها حارة مثل الحمام ، والخطب عندهم كثير . ويحمد النهر حتى

(١) الخركاة خيمة كبيرة مستديرة أو خيمة ملكية على هيئة قبة

انظر J. A. Vullers, *Lexicon Persico-Latinum*, Bonn 1864, I, 678-9.

ويلذهب بعضهم إلى أنه من الفارسية القديمة خورنة ويستعمل ابن بطوطة اللفظ في صورة معربة : خرقة . انظر : دوزي ملحق القواميس ، ٣٦٦/١ ودوبلر : أبو حامد ص ٣٤٩
(٢) قبيل من الناس مجهول الأصل كان يسكن الضفة الشرقية لدلتا الفولجا ، ينطق اسمهم أيضاً سواش وشواز ، وقد قرأ زكي وليدى اللفظ عند ابن فضلات سواز مقرباً لمياه من هاتين القراءتين ، وكانوا مجاورين ومعاصرين لقبيل البرطاش الذى يذكره عند جغرافيينا .

Cf: Dubler, *Abū Ḥāmid*, p. 261

يصير كالارض ، تمشى عليه الخيل والعجل من البهائم جميعاً ، ويتقاتلون على ذلك الجدد ، ومشيت عرض ذلك النهر لما جدد فكان عرضه ألفي خطوة وثمانمائة ونيفاً وأربعين خطوة بخطوي ، سوى الأنهار التي تخرج من ذلك النهر» (مُعرب ، دوبر ، ص ٥-٦) .

وقد بقي أبو حامد هناك ثلاث سنوات ، فهو يذكر في (التحفة ص ١٢٣) أنه لقي هناك سنة ١١٣٣/٥٢٨-١١٣٤ رجلاً «من أهل جيلان ساحل طبرستان اسمه عبد الواحد بن علي» ويقص من أمره حكاية عجبية . وبعد سنتين أي في سنة ١١٣٥/٥٣٠-١١٣٦ نجده في مدينة بلغار^(١) (التحفة ١٣٢) ولقي هناك «من نسل العاديين رجلاً طويلاً ، كان طوله أكثر من سبعة أذرع ، كان يسمى دنقي (أو دفعي أو ونقي) كان يأخذ الفرس تحت إبطه كما يأخذ الإنسان الحمل الصغير ، وكان من قوته يكسر ساق الفرس بيده ، ويقطع جسده وأعضائه كما يقطع باقة البقل ، وكان صاحب بلغار قد اتخذ له درعاً يُحْمَل على عجلة وبيضة لرأسه كأنها مرجل ، وكان إذا وقع القتال يقاتل بخشبة من شجر البلوط يمسكها كالعصا في يده لو ضرب بها الفيل قتلته ، وكان خبيراً متواضعاً ، كان إذا التقى بيسلم على ويرحب بي ويكرمني ، وكان رأسي لا يصل إلى حقوه رحمه الله . ولم يكن ببلغار حَمَام يمكن أن يدخل فيها إلا حمام واحدة واسعة الأبواب ، فكان يدخل فيه . وكان من أعجب بني آدم ، لم أشاهد قط مثله . وكان له أخت على طوله ، ورأيتها مراراً عدة في بلغار ، وقال لي في بلغار القاضي يعقوب بن النعمان أن هذه المرأة الطويلة العادية قتلت زوجها ، وكان اسمه آدم [وكان] من أقوى أهل بلغار ، ضمته إلى

(١) بلغار مدينة يذكر ابن فضلان أنها كانت حديثة البناء أيام زارها ، ثم ذكر ابن حوقل أنها قد صارت مدينة كبيرة أواخر القرن العاشر الميلادي ، وفي «حدود العالم» نقرأ أن بلغار مدينة سكانها من المسلمين فقط ويصفها أبو حامد بأنها مدينة عامرة ، ثم خربت بعد ذلك ، ويفهم من كتابات الجغرافيين بعد ذلك أنها كانت قريبة من قازان . وفي القرن الثامن عشر عثر على آثار بلغار قرب مدينة سيميرسك Simirsk الحالية . Cf: Dubler, *Abū Ḥāmid*, 230-231

صدرها فكسرت أضلاعها ، فمات [في ساعته] » (التحفة ، ١٣٢ - ١٣٣) .
ولا بد أن أبا حامد كان يعيش من التجارة في أثناء مقامه في هذه النواحي ،
فإن اهتمامه باصناف المتاجر وأسعارها شديد ، نعم إنه لا يصرح بذلك ، ولكننا
لا نتصور أن يقيم وينشئ أسرة وتكون له أمهات أولاد معتمداً على ما كان
يمده به الوزير عون الدين . وهو يخلط ما يقدم من المعلومات التجارية بحديث
العجائب ، لأن هذا الحديث هو العنصر الهام الذي يعجب سامعيه وقراءه . ومثال
ذلك قوله عن بلاد البلغار^(١) (المعرب ، دوبر ، ص ٦ - ٧) : « وهذه الولاية
شديدة البرد ، وفي هذا النهر من أنواع السمك ما لم أشاهد قط في الدنيا
مثله ، السمكة^(٢) الواحدة تحمل رجل قوى ، ومنها نوع السمكة حمل رجل
قوى ، ومنها صفار أيضاً ، ليس في السمكة شوك ولا عظم في رأسها ،
وليس لها أسنان ، كأنها آلية الحل محشوة بلحوم الدجاج ، بل أطيب من لحم
الحل السمين وأغنى . تشوى هذه السمكة وتجعل فيها الأرز فتكون أطيب
من لحم الحل السمين ومن لحم الدجاج . تشتري هذه السمكة التي يكون فيها
مائة من^(٣) بنصف داق ، ويخرج من بطنها دهن يكفي السراج شهراً ،
ويخرج من معدتها من غري^(٤) السمك نصف من ، ويُقدد فيكون أحسن
من كل قديد في الدنيا ، في لون الكهراء أحمر صافياً يؤكل مع الخبز كما هو ،
لا يحتاج أن يطبخ ولا يغلى . والذي ينفق بينهم الرصاص الأبيض : كل
ثمانية أمتان بالبغدادى بدينار ، يقطعونها قطعاً ويشترون بها ما يشاءون من

(١) المراد هنا بلغار الفولجا وكانت بلادهم تمتد حتى قرب كييف ، وتمتد جماعة منهم إلى حوض
الدينير ، ويمتدون شرقاً إلى القوقاز .

(٢) حدد دوبر هذا السمكة بأنها من النوع المعروف بالاستوريون *Esturion* واسمها العلمي

Acipenser Sturio L. ومى تعيش في مياه بحر قزوين . Cf: Dubler, *Abū Ḥanīd*, p. 212

(٣) وزن المن البغدادى في المتوسط ٨١٦,٥ جراماً حتى القرن السادس عشر الميلادى .

Cf: Walther Hinz, *op. Cit*, 17

(٤) غرى السمك ، يراد به ما يعرف بالبطارخ .

الفواكه والخبز واللحم ، واللحم عندهم رخيص ، بحيث يكون الغنم — إذا جاءت القوافل من الكفار — يكون الغنم الواحدة بنصف دائق ، واحمل بَطسوج ، وعندهم أنواع من الفواكه لا يوجد أكثر منها ، وفيها بطيخ حلو في الغاية ، ومن البطيخ جنس يمسك في الشتاء .

ومن ملاحظات ذات القيمة العظيمة بالنسبة للتاريخ الطبيعى قوله في المغرب (دوبلر ، ص ١٠-١١) : « ويوجد في أرضهم (أى أرض البلغار) من عظام قوم عاد : السن الواحد عرضه شبران ، وطوله أربعة أشبار ، ومن طوله إلى منكبه خمسة أذراع ، ورأسه مثل القبة العظيمة ، وهو هناك كثير » وهذه العظام التى لا تزال توجد إلى الآن ليست عظاماً آدمية وإنما هى عظام حيوانات منقرضة . ويقول أبو حامد بعد ذلك : « ويوجد تحت الأرض أنياب الفيلة ، بيض كالثلج ، ثقيل كالرصاص ، الواحد مائتا من وأكثر واقل ، لا يُدري من أى حيوان هو ، يقطع ويحمل إلى خوارزم وخراسان ، ويتخذ منه الأمشاط والحفاق وغير ذلك ، كما يتخذ من العاج . وهو أقوى من العاج لا ينكسر^(١) . وفى هذه الناحية مات ابن لأبى حامد ، وهو يتحدث عنه عرضاً في كلامه

عن مشاهداته بمدينة بلغار (تخفة ١١٧-١١٨) : « وسمعت ببلغار ، وهى مدينة في آخر بلاد الإسلام في الشمال ، هى فوق سقسين باربعين يوماً ، يكون النهار في الصيف عشرين ساعة والليل أربع ساعات [ويكون الليل في الشتاء عشرين ساعة والنهار أربع ساعات] ويَشُدُّ البرد فيها حتى إذا مات لأحد ميت لا يقدر أن يدفنه ستة شهور ، لأن الأرض تكون كالحديد ، ولا يمكن أن يحفر فيها قبر ، ولقد مات لى بها ولد ، وكان في آخر الشتاء ، فلم أقدر على دفنه ، فبقى في البيت ثلاثة أشهر حتى أمكن دفنه ، وبقى الميت كالحجر » .

(١) المراد هنا عظام الماموث أو ما يسمى باسم *Elephas antiquero* ولا زال الناس يستخرجونها إلى الآن في نواحي القوقاز وحول بحر قزوين ، وهى تعتبر من موارد الثروة هناك .

ويذهب فيران (مقدمة التحفة ، ص ٢١) إلى أن أبا حامد زار في ذلك الوقت ناحية بلخ (باكترية Bactria) ولكن دوبلر (أبو حامد ، ص ١٢٩) لا يرى ذلك . وعلى أى حال فأننا نجد أبا حامد في سنة ٥٤٥ / ١١٥٠ - ١١٥١ في باشغرد أو باشغورد وهو الاسم الذى يطلقه على المجر (تحفة ، ١٩٥ - ١٩٦) وهو يصف المجر هنا بقوله : « وهذا باشغورد أمم عظيمة ، وهى ثمانية وسبعون مدينة ، كل مدينة كأصفهان وبغداد ، وفيها من النعمة والرخاء ما لا يعد ولا يحصى ، وابنى الأكبر حامد فيها ، تزوج بأسراتين من بنات كبار المسلمين » وهو يطيل الكلام عن المجر في (المعرب دوبلر ، ص ٢٨ وما يليها) وكلامه كله حافل بالفوائد التاريخية والجغرافية ، وقد أقام هناك ثلاث سنين ، وترك ابنه حامدا هناك . والتفاصيل التى يقدمها تلقى ضوءا على طبيعة عمله وحياته في تلك البلاد ، وإليك بعض فقرات منه « فلما وصلت إلى بلاد أنقورية (يريد أونيغريا وهى المجر ويكتبها الإدريسي أنكرية وياقوت الهنكر) وفيهم أمة يقال لهم باشغرد^(١) ، من أول ما جاء عن بلاد الأتراك ودخل بلاد الأفرنج^(٢) ، وهم شجعان ، لا عدد لهم ، وبلادهم التى تعرف بأنقورية هى ثمانية وسبعون مدينة ، كل مدينة لها حصون ورساتيق وقرى وجبال وعناصر وبساتين كثيرة ،

(١) تكتب كما ذكرنا باشغرد أو باشغورد ، والأولى تجعل الاسم من فصيلة الأسماء الفارسية المنتهية بـ «جرد» بمعنى مدينة ، والثانية تجعله من الألفاظ الفنيه التى منها بـ «جور» و «أجور» بمعنى قبيلة وكان اللفظ مستعملا فى صورتيه للدلالة على أقوى القبائل الهنغارية أيام قيام هنغاريا الكبرى Hungria Magna وهو الوقت الذى زارها فيه أبو حامد . وقد ذهب بعضهم إلى أن باشغرد هو الأصل البعيد لاسم مدينة بوخارست ، وهو مستبعد Cf. Dubler, *Abū Ḥāmid*, 233 n. 3 وقد ذكر أبو حامد أن أهورية (ربما كانت صحة قراءة الاسم أنقارية) أكبر مساحة من بلاد الروم ، أى الدولة البيزنطية ، وقال أنها تقطع فى ٢٠ يوما ، ولا مبالغة فى ذلك ، فقد كانت مملكة المجر قد وصلت إذ ذاك إلى أقصى اتساعها وامتدت من جبال الكربات إلى البحر الأدرياتي ومن تاترا Tatra فى روسيا حتى اتصلت حدودها بحدود الدولة البيزنطية عند نهر مورافا ، أى أنها امتدت ما بين ٨٠٠ و ١٠٠٠ كيلومترا طولا ومثلها عرضاً Cf. Dubler, *op. cit.*, p. 221

(٢) أى من أول القبائل الآسيوية هجرة إلى الغرب واستقراراً فى أراضى الدولة الرومانية .

وفيها من أولاد المغاربة^(١) آلاف ، لا عدد لهم أيضاً ، وفيها من أولاده الخوارزميين آلاف لا عدد لهم أيضاً . وأولاد الخوارزميين يخدمون الملوك ، ويتظاهرون بالنصرانية ويكتمون الإسلام ، وأولاد المغاربة لا يخدمون النصراني إلا في الحروب ، وهم يعلنون بالإسلام . ولما دخلت بين أولاد المغاربة أكرموني ، وعلمتهم شيئاً من العلم ، وأطلقت ألسنة بعضهم بالعربية . وكنت أجتهد معهم في الاعداء والتكرار في فرائض الصلاة وسائر العبادات ، واختصرت لهم الحج وعلم الموارث حتى صاروا يقسمون الموارث وهو في أثناء ذلك يروي لنفسه شعراً هو مجرد نظم مثل :

العلم في القلب ليس العلم في الكتب ولا تكن مغرمًا باللهو واللعب

ثم يقول إنه علمهم صلاة الجمعة وبضيف « فعندهم الآن اليوم أكثر من عشرة ألف مكان يخطب فيه يوم الجمعة ظاهراً وباطناً ، لأن ولايتهم عظيمة » ولا ندرى إن كانت هذه الآلاف العشرة من المواضع التي تخطب فيها الجمعة نتيجة لنشاطه هو ، وعلى أي حال فالرقم ظاهر المبالغة .

ثم يقول : « أقت بينهم ثلاث سنين ، لم أقدر أدخل إلى أربعة من المدائن ، وتلك الولاية (أي بلاد المغرب) من رومية العظمى ، وفيها جبال يخرج منها الذهب والفضة ، وتلك البلاد من أكثر البلاد رخاء ونعمة ، يكون الغنم عشرين بدينار ، والحملان والجداء ثلاثين بدينار ، والعسل خمس مائة رطل

(١) ذكر أولئك المغاربة كثير في النصوص العربية الخاصة ببلاد وسط أوروبا وشرقها حتى بلاد الدولة البيزنطية ، بل وجدت جماعاتهم في القوقاز وشمال شرقي إيران ، ولم يدرس أحد إلى الآن هذه الظاهرة . والغالب أنهم بقايا الجماعات المغربية التي كانت تقوم بالفتوحات على شواطئ أوروبا الجنوبية وتنتشر في مراكز توالي غزواتها منها : ومن هناك كانت تنقل كوحدة متماسكة أو أفراداً متفرقين إلى داخل أوروبا وتعمل لحسابها الخاص أو تدخل في خدمة الدول القائمة ، ويلاحظ من كلام أبي حامد أن الكثيرين من أفرادها كانوا قد لسوا اللغة العربية .

بدينار ، والجارية الحسناء بعشرة دنانير . وفي وقت الغزو تشتري الجارية الجيدة بثلاثة دنانير ، والغلام الرومي [...] ^(١) ، واشترت جارية مولدة ، أبوها وأمها وأخوتها بالحياة ، اشتريتها من سيدها بعشرة دنانير ، بنت خمس عشرة سنة ، أحسن من القمر ، سوداء الشعر والعين ، بيضاء كالكاפור ، تعرف الطبخ والخياطة والرّم ، واشترت جارية أخرى رومية ، بنت ثمان سنين بخمسة دنانير . . » ثم يروي أبو حامد كيف استطاعت هذه الصبية أن تستخرج « خمسة أقراص من الشمع الصافي كالذهب » من « حُبْنِ مملوئين بالعسل شهداً بِشَمْعِهِ » اشتراها بنصف دينار . ثم يضيف « وجاء منها ولد ومات ، فاعتقها وسميتها مريم ، ورغبت أن تجي معي إلى سجسين ، فخشيت عليها من أمهات الأولاد الترك الذين في سجسين » أي أن حياة أبي حامد هناك كانت رخيّة سعيدة يستمتع فيها بأطياب العيش عن سعه ، فيتزوج وينجب وقد تخطت سنة السبعين سنة ، ويتأهل في بلاد الجمر مع أن له نساء أخريات في سجسين على مقربة من بحر قزوين . ولم يكن هذا حاله وحده بل شاركه في ذلك ابنه حامد ، فهو يقول (المعرب ، دوبر ، ٣٤) « وتركت ابني الأكبر حامدا فيهم ، وهو من أول يوم تركته عمره نيف وثلاثون سنة ، وتزوج باسراطين من بنات المسلمين المحتشمين ، ورزق أولاداً ، وهو شجاع فاضل ، كنت أعطيه على كل مسألة يحفظها في حال صغرة نصف دنانق » .

وكانت لأبي حامد هناك مكانة رفيعة ، فكان أشبه بالرئيس الروحي للمسلمين هناك ، يتصدى للدفاع عنهم والوساطة بينهم وبين ملك باشغرد ، ويبدى ذكاء عظيماً ، ومن أمثلة ذلك أنه كان قد حرم على المسلمين شرب الخمر وأباح لهم « الجوارى وأربعة من الحرائر » فانكر الملك ذلك وقال : « ليس هذا من العقل ، لأن الخمر يقوى الجسد ، وكثرة النساء تضعف الجسد والبصر ؛ ودينٌ

(١) يباين بالأصل .

الإسلام لا يكون على وقف العقل» (أى على ما يناقضه) فقلت للترجمان : « قل للملك : شريعة المسلمين ليست مثل شريعة النصارى ؛ والنصارى يشرب الخمر على الطعام بمنزلة الماء ، ولا يسكر ، وذلك يزيد في القوة ؛ والمسلم الذى يشرب الخمر إنما يطلب منه غاية السكر ، فيذهب عقله ، ويصير كالجنون ، يزنى ويقتل ويكفر ، ولا خير عنده ، ويعطى سلاحه وفرسه ، ويضيع ماله في طلب لذته ؛ وهم هاهنا جندك ، وإذا أمرته بالغزو لا يكون له فرس ولا سلاح ولا مال ، قد أهلكه في الشراب ، فإذا علمت إما تقتله ، أو تضربه ، أو تطرده ، أو تعطيه خيلاً وسلاحاً يفسده أيضاً . وأما الجوارى والنساء ، فإن المسلمين يوافقهم النكاح لحرارة طباعهم ؛ وأيضاً فإنهم جندك ، فإذا كثر أولادهم كثرت جندك » . فقال : « اسمعوا من هذا الشيخ ، فإنه عاقل ، فتزوجوا ما شئتم ، ولا تخالفوه » . ذلك الملك خالف القسيسين ، واستباح الجوارى ، وذلك الملك يحب المسلمين » .

ومن أدلة المركز الكبير الذى وصل إليه عند ملك باشغرد أنه لما استأذنه في الذهاب إلى سجنين اشترط عليه أن يترك ابنه حامدا عنده ، وأصبحه رجلا يسمى إسماعيل بن حسن « ممن كان يقرأ على » ، وهو من أولاد أمراء المسامين الشجعان الذين يظهرون دينهم « وأعطاه الملك خطاباً توصية إلى ملك الصقالبة » وختمه بالذهب الأحمر الذى فيه صورة الملك « وكان الملك قد طالب إليه أن يرسل له عدداً من «ضعفاء قراء المسامين والأتراك الذين يحسنون رمى النشاب» ، وقد فعل ذلك أبو حامد ، ويقول : « فجمعت لذلك الرسول جماعة من المسلمين الذين يرمون النشاب ، وأرسلت معهم تلميذاً من أصحابي ممن يحفظ شيئاً من الشريعة ، وقلت له : أذهب إلى الحج وأرجع إليكم إن شاء الله على طريق قونية فلما ذهبوا إلى باشغرد ركبت البحر شهراً ، وقصدت أرض خوارزم ، وقد كنت دخلتها قبل ذلك » (المعرب ، دوبر ، ٣٨ - ٣٩) .

ويبدو أن مقامه في بلاد الصقالبة ، أى الروس لم يطل لأنه يتحدث عن مروره بها حديثاً سريعاً ؛ ولكن يبدو من كلامه أنه كان في قاعدة ملكهم نفر من المسلمين فقد صحبه واحد منهم يسمى عبد الكريم بن فيروز الجوهري ، كان هو الآخر قد اتخذ سجنين مركزاً لأعماله وترك فيها أهله ، وقد ترك عبد الكريم هذا زوجته في سجنين ثم عاد إلى بلاد الصقالبة ، وعبر أبو حامد البحر الأسود في شهر ، ودخل أرض خوارزم .

وصل أبو حامد خوارزم في أواخر ٥٤٥/١١٥٣ ، ولم يطل مقامه هناك هذه المرة ، إذ خرج في ٥٤٦/١١٥٥ إلى الحج ماراً ببخارى وسرو ونيسابور والرى وأصفهان والبصرة في الغالب ، فأدى القرىضة ثم ذهب إلى بغداد حيث استقبله صاحبه الوزير عون الدين بن هبيرة وانزله في داره . ولم يستقر أبو حامد في بغداد طويلاً ، لأنه كان يريد اللحاق بأسرته وابنه حامد في باشغرد ، فسأل عون الدين أن يتوسط له لدى مسعود الأول سلطان سلاجقة الروم في آسيا الصغرى ليأذن له في اجتياز بلاده إلى قونية ، ويفهم من نص التحفة (١٣٣ — ١٣٤) أنه سأل بعض الناس عن طريق قونية ، ولكنه لم يقم بهذه الرحلة ، ربما لأن سنة العالية قعدت به ، إذ أنه كان إذ ذاك في الخامسة والسبعين من عمره . وقد ظل في بغداد حتى سنة ٥٥٦/١١٦١

ويرجح دوبر أن أبا حامد كتب «المعرب» مدوناً فيه رحلاته ومشاهداته في سنة ٥٤٦/١١٥٥ وأهداه للوزير عون الدين . وفي سنة ٥٥٦/١١٦١ ذهب إلى الموصل حيث بقى عاماً ، وهناك كتب «التحفة» استجابة لرجاء الشيخ معين الدين أبي حفص عمر بن محمد بن خضر الأردبيلي ، وهو مؤلف معروف ذكره برلمان ونسب إليه كتاب «وسيلة المتعبدين» وقد فرغ أبو حامد من كتابه «التحفة» كما تدل عبارة الختام في ٣ ربيع الثاني ٥٥٧/٢٢ مارس ١١٦٢ — وفي ٢٠ رمضان من نفس السنة — نسخت منها نسخ كثيرة دفعة واحدة ، وبعد الفراغ من ذلك خرج إلى حلب فأقام فيها سنة ٥٦٠/

١١٦٥ ، ثم انتقل إلى دمشق حيث ادركته المنية في سنة ٥٦٥/١١٦٩ —
١١٧٠ في الثانية والتسعين من عمره .

تلك هي حياة هذا الرحالة الطلعة الذي قضى عمره يحجب الأفاق ويرمي
بنفسه في الخطار يدفعه إلى ذلك شوق عظيم إلى المجهول ورغبة لا تخبو في
الوقوف على غرائب هذا الكون الواسع وبدائع صنع الله فيه . وانه لما يستثير
الاصحاب أن نرى ذلك الفرناطي الذي غادر بلاده على رأس المائة الخامسة وهو
في السابعة والعشرين من عمره يقطع القفار والبحار من سجماسة في أقصى
مملكة الإسلام غرباً إلى بخارى في أقصى شرقها ، ثم يفاخر بنفسه في بلاد
خارج دار الإسلام باحثاً عن الجماعات الإسلامية المشرقة في مساحات شاسعة
تمتد من بحر آزوف إلى وسط سهل الحجر عابراً بحر قزوين ثم يتخذ لنفسه داراً
وأهلاً في سجنين إلى شماله ثم يصعد مع نهر الفولجا حتى يصل إلى مدينة
بلغار عاصمة أمة البلغار ثم يوغل في بلاد الصقالبة فيزور عاصمتهم وهي كيف
فيكون بذلك أول رحالة علامة يصل إلى هذا البلد ويتحدث عنه بل
يترسل إلى شمالها فيزور جوركان على نهر الدينير ثم يخرق الأرض إلى سهل
الحجر عابراً جبال الكربات ، وهناك يتخذ بيتاً وأهلاً وينشر العربية بين جماعات
المسلمين هناك ويعلمهم شرائع الإسلام ، ثم يعود خلال هذا الطريق الطويل
حتى يصل بغداد ماراً ببخارى ومرو والري . ولا يقعه الشيخ بعد ذلك عن
الحج إلى بيت الله الحرام ، ويفكر بعد ذلك في العودة إلى الحجر ، ويتخذ
الأهبة لذلك ، ولكن السن — ولها حكمها — تقعد به فيستقر في الموصل ، ثم
يمضي إلى دمشق حيث تلاقيه المنية .

هذا الشوق إلى استجلاء المجهول الذي نراه عند المسعودي والمقدسي ، والذي
سيظهر في صورة أوسع في حياة ابن بطوطة إنما هو جزء من ذلك النزوع
العلمي الذي ملأ قلوب أمة العرب في عصور النشاط والازدهار ، وهو مظهر من
مظاهر الحيوية العربية الدافقة التي ملأت العصور الوسطى نشاطاً وعلماً ، فلم

يكن أبو حامد يرجو من وراء هذا العناء كله رزقاً ولا كسباً ، فقد كان له في بغداد مكان مرموق ، وكان حرياً بأن يقر مكانه قائماً برعاية الوزير عون الدين بن هبيرة ، إذ كان أبو حامد على علم وفهم كفيلين بأن يمهدا له أسباب الرزق في أى مكان يحل به في بلاد الإسلام ، ولكن الشوق إلى العلم والمعرفة دفعه إلى هذا الجهد كله ، وجعل حياته أقرب إلى الاسطورة ، ويمكن له من أن يضيف إلى تراث العرب الجغرافى شيئاً جديداً فريداً في بابهِ ، رأينا نماذج منه فيما سبق ، وسنرى نماذج أخرى فيما يلي من ذلك البحث .

مؤلفات أبي حامد

لم يصل إلينا من كتب أبي حامد إلا كتابان هما « تحفة الألباب ونخبة الاحجاب » و « المغرب عن بعض عجائب المغرب » أما ما ورد ذكره من كتب له مثل « عجائب المخلوقات ^(١) » الموجود في المكتبة البودلية ، والذي ينسبه إليه بونس بويجس فليس من تأليفه ، وإنما هو مجموع من أحاديث العجائب مستخرج من مؤلفات يوسف الوراق وابن البيطار والهروى وغيرهم . أمّا ما يرد فيه من أن الذى صنّفه هو أبو حامد فقير ممكن لأن ابن البيطار توفى بعده بثلاثين سنة .

ومثل ذلك « كتاب تحفة الكبار في أسفار البحار » الموجود في مكتبة أكاديمية التاريخ في مدريد ، فهو مجموع من حكايات الغرائب صنف في زمن متأخر ونُسب إلى أبي حامد الغرناطي ، وقد نسبته إليه بونس بويجس أيضاً .

(١) انظر: بروكلمان : ٦٢٩/١ والملحق : ٨٧٨/١ ، وبونس بويجس ، ص ٢٣٠ وتعليقات جايانجوس على ما ترجم من نصح الطيب للمقرى إلى الإنجليزية (لندن ١٨٤٠) ج ١ ص ٢٥ وما يليها . انظر : سيزار دوبلر ، أبو حامد ، ص ١٣٢ ومقدمة جابريل فيران لتحقيقه وترجمته الفرنسية لنص التحفة ، وقد سبق أن ذكرنا ذلك كله .

كتاب العرب في بعض عجائب المغرب

ذكرنا فيما سبق أن أبا حامد كتب هذا الكتاب بعد وصوله بغداد ٥٥٦/ ١١٦١ وأنه أهداه إلى الوزير عون الدين بن هبيرة . ويبدو من نص هذا الكتاب أنه أول ما كتب ، فليس فيه إشارة إلى كتاب سابق له .

وقد ورد ذكر هذا الكتاب بعناوين مختلفة في المؤلفات التي أخذت عنه بعد ذلك ، وكذلك في بعض نسخه ، ومن هذه الأسماء « نخبه الأذهان » في عجائب البلدان ، والمغرب عن بعض عجائب البلدان » وقد أخذنا هنا بعنوانه الوارد في مخطوطة أكاديمية التاريخ بمدريد . وتوجد من هذا الكتاب إلى جانب تلك المخطوطة نسخة أخرى في مكتبة جوتا برقم ١٥٣٥ (وقد درسها هارتويج ديربنور وكتب عنها مقالا في La Revue Critique, 1882, I, 210, n. 3 وتناولها بالبحث كذلك مقالٌ نُشر في : Bolletino italiano degli Studi Orientali, N S 315 ، وتوجد منه نسخة أخرى في مكتبة جامعة كيمبردج) انظر ملحق الكتالوج تحت رقم ٨٥٣ (ولكن مخطوطة أكاديمية التاريخ في مدريد (مجموعة جايناجوس رقم ٣٢) هي أحسن نُسخه وأكملها .

والكتاب صغير الحجم ، عدد أوراقه بحسب مخطوطتنا ١١٤ ورقة من القطع الصغير ، ولكنه حافل بالمادة الطيبة التي تلقى ضوءاً على معارف أبي حامد وتدل على توفره على دراسة الفلك والتقويم المختلفة . وهو يبدأ بفاتحة قصيرة يذكر فيها الوزير عون الدين ويفيض في مديحه ويقول إنه أهدى هذا الكتاب إليه ، ثم يبدأ بذكر اسمه ولقبه ومكان ولادته . وبعد ذلك مباشرة يدخل في ذكر العجائب فيذكر كهفاً تحت الأرض إلى جوار مدينة لوشه (Loja) فيه سبعة نيام منذ الزمن القديم يشبهون أهل الكهف ، ثم ينتقل إلى جبل الثلج المطل على غرناطة ويتحدث عن كنيسة قرب هذا الجبل عندها

شجرة زيتون عجبية تزهر وتثمر الزيتون ويتم نضجه في يوم واحد من أيام الربيع ، ثم يقول غن الأندلس : « بَنَتَ الجن لسليمان عليه السلام مدينة النحاس ، دَوَّرُهَا أربعون فرسخاً وعلو سورها خمسمائة ذراع فيما يقال والله أعلم » ثم يذكر وصول موسى بن نصير إليها ، وكيف استحال عليه أن يقتحم أسوارها ، لأنه كلما صعد رجل من رجاله السور ضحك وألقى نفسه بداخلها ، ثم تبين له أخيراً أن « في المدينة جنًا يجرّون من اطلع على المدينة والله أعلم » ثم يقول « وليس إلى ذكر ما جعله الله تعالى في العالم من عجائب الأشياء سبيل ، والذي عاينا منها يسير من كثير » .

ولا يذكر أبو حامد عن وطنه الأندلس إلا أمثال هذه العجائب ، فهو يطيل الحديث عن مدينة النحاس والألواح العشرة التي إلى جانبها والبحيرة المجاورة لها ، وما وجد فيها موسى بن نصير من « حِباب من النحاس لها أغطية من الرصاص مخنومة ، فأمر الأمير موسى ففتح منها حِب واحد ، فخرج من ذلك الحب فارس كأنه من الذهب ، وفرسه ورمحه أيضاً من الذهب في رؤية العين ، وطار في الهواء وهو يقول : يا بني الله لا أعود ! وفتح حِبا آخر فخرج منه فارس على فرس بيده رمح كأنه لهب النار ، وطار في الهواء وهو يقول : يا بني الله لا أعود .. ! » .

وهو عندما يقف بطليطلة يذكر قنطرته ويقول إن الجن بنتها لسليمان عليه السلام ، ويذكر سرقسطة باسم « المدينة البيضاء » ، ويقول أيضاً إن الجن بنتها لسليمان « فيما يقال لا يدخلها حية ولا عقرب ولا شيء من الحشرات ، وفي رُستاقها نوع من العنب وزن الحبة الواحدة عشرة مثاقيل » فإذا عرفنا أن متوسط وزن المثقال ٤,٥ جراماً ، كان وزن حبة العنب هذه ٤٥ جراماً ، ثم يقول : « وأخبار هذه البلاد وما فيها كثير ، وإنما أذكر منها الشيء الذي لا يوجد مثله في الدنيا فيما رأيت » ثم يذكر تفاح شنتره الذي ذكره اليعاقبة ،

ويقول إن محيط التفاحة ثلاثة أشبار (حوالى ٦٠ سنتمترا) ويضيف هنا عبارة لها مغزاها : «والعاقل يعرف الجائز والمستحيل ، وقدرة الله ومقدوراته لا نهاية لها ، ولا سبيل إلى الاحاطة بها» ثم يعود إلى مدينة النحاس ، فيورد شعراً يقول إنه أرسل به إلى خوارزم شاه من بلاد الترك ، ويختتم هذا الشعر بقوله :

في الأرض آيات فلا تكُ مُنْكرا فعجائب الأشياء من آياته

ويتحدث بعد ذلك عن «البحر الأسود الذى يعرف ببحر الظلمات ، يحيط بأكثر بلاد الأندلس من ناحية مغرب الصيف والشتاء (كذا) وناحية الشمال . وفى آخر أندلس يكون مجموع (يريد جمع) البحرين الذى ذكره الله تعالى فى القرآن» وهو يريد به مضيق جبل طارق ، وكلامه عن المحيط الأطلسى طويل ملخصه أنه يقسمه إلى بحرين : الأخضر وهو ما جاور الساحل ويصب فيه بحر الروم ، والبحر الأسود وهو ما بُعد عن الساحل ، ويقول إنه رأى فى ذلك البحر عجائب كثيرة منها حيوان بحرى يشبه أن يكون الأخطبوط ، وحيوان ملتصق بقاع البحر يبدو للرأى وكأنه عرجون عنب ، وسمكة أخرى كانت له معها حكاية طويلة لها ذنب مثل ذنب الحية ورأس مثل رأس الأرنب .

ثم يترك الأندلس ليتحدث عن عجائب جبل اللكام ، ثم عجائب جبل السراة فى بلاد العرب ، وجبل الراهون «الذى هبط عليه آدم عليه السلام من السماء بسرنديب ، جزيرة فى بحر الهند» ويذكر من عجائبه وآثار آدم فيه شيئا كثيرا ، ثم يعرض فى ذكر جبال أخرى ويروى من عجائبها أحاديث أشبه بالخرافات .

ومن نهاية ورقة ١١٤ تتغير لهجة الكتاب تغيراً يستوقف النظر ، فأبو حامد يبدأ باباً عن «أوقات الصلاة ومعرفة النعم والزوال» ويريد بالنعم الظلّ وبالزوال تعامد الشمس ، وهو يبدو على طريقة المحدثين . نحنا محمد بن عبد الله

الحضرمي قال : حدثنا هُذَبة بن عبد الوهاب الروزي بمكة والحسين بن حرث قال... الخ » ثم يروى حديث نزول جبريل على محمد صلى الله عليه وسلم وتلقيه إياه الصلوات في مواقيتها .

ثم يُتبع ذلك بفصل عن « ذكر ساعات الليل والنهار في الزيادة والنقصان » وهو يروى فيه عن يسميه أبا العباس ويقول : « فالليل والنهار في كل زمان عندنا ٢٤ ساعة والساعة ١٥ درجة ، وهي ٣٠ شعيرة ، وكل درجة ٦٠ دقيقة ، والدقيقة ٤٢ طَرْفَةً ، فالليل والنهار ١,٨١٤,٤٠٠ طرفه على ما زعم أهل العناية بهذا الشأن » وهذا الحساب لا يصح إلا إذا قرأنا العبارة : « .. وكل شعيرة ٦٠ دقيقة » . ثم يصف بعد ذلك اختلاف الليل والنهار في الطول والقصر بحسب شهور السنة ، وهو يحسب ذلك بالشهور الرومية والفارسية دون ذكر للشهور العربية ، والشهور الرومية عنده هي ما يسمى بالسريانية ، وهو لا يشير في أثناء ذلك إلى شيء من تجاربه الشخصية ، فهو يقول مثلاً قال : « أبو العباس : فأطول ما يكون النهار خمسة عشر (كذا) ساعة ، ويكون الليل حينئذ تسع ساعات » مع أنه سيقدر في هذا الحساب نفسه أن الليل في بلاد الصقالة ٢٠ ساعة في الشتاء ، وهذا يدل على أنه أخذ هذه الفقرة كلها عن أبي العباس هذا ووضعها في كتابه ، ودليل ذلك أنه يقول في سياق الكلام : « فأنا مفسر ذلك على قدر أزمعتها إن شاء الله تعالى من يوم تأليفنا هذا الكتاب وذلك أول يوم من المحرم سنة ثمان عشرة وثلثمائة من هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

وعن أبي العباس هذا ينقل بعد ذلك أبواباً عن « الزوال ومقادير الظل في البلدان » و « معرفة استخراج الزوال » و « معرفة ما مضى من ساعات النهار وما بقي » و « معرفة طلوع الفجر » و « معرفة دخول شهور الفرس » و « معرفة سنة الكليس الرومي » و « معرفة سنة الكليس العربي » و « شهور العرب » و « إذا أردت معرفة أيام الشهور » .

وفي أثناء باب عنوانه « معرفة أيات الستين » ينقطع الكلام فجأة في آخر ورقة ٤٠ ، ١ ، ويعود الحديث إلى مجمع البحرين ، ومعنى ذلك أن هذه الفصول الفلكية والتقويمية أقيمت في الكتاب اقحاماً ، والغالب أن أبا حامد الغرناطى هو الذى أدرجها في كتابه استجابة لرغبة الوزير عون الدين بن هبيرة ، ثم جاء الناسخ فبتر النص في فصل منها وعاد إلى أحاديث العجائب .

وقد بحثت عن أبى العباس الذى أخذ منه أبو حامد الغرناطى هذه الفصول فلم أصل إلى بيان شافٍ ، ولكنى وجدت في تحفة الألباب (ص ١٠٦) ذكراً لعجائبي يسمى أبا العباس الحجازى وكان ممن أقام بأرض الهند والصين أربعين سنة ، وكان الناس يتحدثون عنه بالعجائب ، فقلت له : يا أبا العباس ، إني سمعت عنك أشياء كثيرة من العجائب ، والآن أريد أن أسمع منك شيئاً عن عجائب خلق الله تعالى ، وكان الشيخ الإمام محمد بن أبى بكر [محمد بن الوليد] الفهرى (يريد الطرطوشى) حاضراً ، فقال أبو العباس : قد رأيت أشياء كثيرة ، ولا يمكن أن أحدث بها ، لأن أكثر الناس يحسبون أنها كذب ، فقال الشيخ الإمام أبو بكر : « يكون ذلك من العوام الجهال ، وأما العقلاء وأهل العلم فانهم يعرفون الجائز والمستحيل ، وذكر عجائب خلق الله تعالى يستحبُّ التحدث بها إظهاراً لقدرة الله تعالى في عجائب مخلوقاته » ، فقال أبو العباس : « دخلت جزيرة سرنديب ، وهى جزيرة عظيمة في وسطها جبل الراهوت الذى نزل عليه آدم عليه السلام . . . » فإذا ذكرنا أن كلام أبى حامد في العجائب وقف عند ذكر عجائب الجبال ، وجبل الراهوت هذا على وجه التحديد ، تبين أن أبا حامد كان يتابع كلام أبى العباس الحجازى فيما ذكر من العجائب ، ثم استرسل في النقل من كتاب له لم يذكر اسمه ، فجاء بهذه الفصول الفلكية والتقويمية ، ثم عاد إلى العجائب مرة أخرى . وربما كان كتاب أبى العباس هذا هو المشار إليه في كتاب الأنساب للسمعاني منسوباً إلى من يسميه أبا العباس الصينى .

وفي سياق هذه العجائب يحدثنا أبو حامد عن «صفة البركان» في جزيرة صقلية ، ويقول إنه مشرف على البحر الأخضر ، وكان أولى به أن يقول على بحر الروم ، ويطيل في وصف البركان وما يخرج منه من حم ، ويقول انه أقام في البحر مقابل هذه الجزيرة خمسة أيام إذ «لم يكن لهم ريح» وفي اليوم السادس تحركت بهم السفينة إلى الاسكندرية ، ثم يذكر جزيرة مالطة ويقول إن فيها غنماً كثيراً مثل الجراد المنتشر ، ثم يذكر أنواعاً شتى من حيوانات البحر الأبيض مثل السرطانات الكبيرة وسماك يعرف بخنزير البحر وآخر يسمى الكوسج وثالث يسمى بالحبر بسبب ما يخرج من ممراته من مادة سوداء ، وأسماك أخرى ذات صفات وخصائص عجيبة منها واحدة تعرف بالمنارة ، «في طول المنارة الطويلة ، تخرج من البحر وتلقى نفسها على السفينة فتكسرهما وتهلك من فيها...»

ومعظم هذه الأسماك التي يذكرها ليست مخلوقات خرافية ، بل من بينها أسماك معروفة يصفها أبو حامد بغاية الدقة . ومن سمكة المنارة ينتقل أبو حامد إلى ذكر الاسكندرية وبعض عجائباتها ، وحديثه هنا حديث رجل عرف الاسكندرية وشاهد عجائباتها مثل المغارات والانفاق المعروفة بالكاتاكومب ، وقد دخل أبو حامد في واحد منها ووصفه وصفاً طويلاً ، ثم يتحدث عن منارة الاسكندرية ، ويرسم صورة لها كما شاهدها ، وأبو حامد من آخر الرحالة الذين شهدوا المنارة في تمام هيئتها وقبل تدميرها ، وقد وصفها معاصره الإدريسي بمثل وصفه ، وكلامه هنا يعتبر وثيقة تاريخية لها أهميتها ، لأن المنارة تهدمت بعد ذلك وزالت معالمها .

ثم ينتقل بعد ذلك إلى ذكر عجائب مصر ، وقد أشرنا إليها ، ثم يستطرد إلى ذكر النجم سهيل ويورد أشعاراً ورد ذكره فيها . ومن هنا يدخل في فصول فلكية عن «نجوم القبة السيارة من المشرق إلى المغرب منازل للشمس والقمر» وهو يطيل وصف كل صورة أو جريدة نجمية ويرسم هيئاتها على وجه

التقريب . ويتحدث بعد ذلك عن « الحجرة وكيف الاستدلال بها على القبلة » وعن « الرياح الدالة على القبلة » و « ذكر جهة البلاد إلى بيت الله الحرام » وكلامه في هذه الفصول الأخيرة دقيق يمكن وصفه بأنه علمي ، خاصة وهو يستند فيه إلى علماء كثيرين .

وبعد ذلك يتحدث عن « صفات الأرضين وطولها وعرضها ، وكلامه هنا اسطوري صرف ، لأنه يتحدث عن الأرضين الست الواقعة تحت هذه الأرض التي ذكرناها » ويذكر عرضها وما يسكنها من أمم وأسماء هذه الأمم وكذلك السماوات السبع .

ومن هنا ينتقل أبو حامد إلى « ذكر طول الأرض وعرضها » فيعود مرة أخرى إلى الكلام الدقيق بحسب مفهوم تلك العصور عن الأطوال والعروض ، ويلى ذلك « ذكر طول بيت الله والمسجد الحرام » ناقلا عن جغرافيين وكتاب عديدين ، ثم يتحدث عن البحار ، طولها وعرضها « ناقلا عن أبي العباس الذي ذكرناه » ، وكلامه هنا يشبه كلام معظم جغرافيي العرب من مشاركة ومغاربة .

ويختم أبو حامد هذا القسم الجغرافي من كتابه بالكلام عن الأقاليم السبعة ناقلا عن أبي العباس أيضاً ، وأبو العباس هذا يأخذ بقول الفرس القدماء في تقسيم الأرض إلى سبعة أقاليم أو كشورات ، وهي أقاليم إيران شهر ، والصين والروم وإفريقية والعرب والهند والترك ، أى أنها ليست الأقاليم الجغرافية النظرية التي أخذها العرب عن اليونان وأثبتها الإدريسي على خريطته ، بل هي أقاليم بمعنى النواحي ، وهو يتابع الفرس في قولهم إن إقليم إيران شهر يتوسط الأقاليم الستة الأخرى « وهي محدقة به وهذه صورتها . . » ومن أسف أن الناسخ أسقط الصورة ، ثم يقول بعد ذلك : « قال — أى أبو العباس الحجازى — : وقسموا هذه الأقاليم السبعة أربعة أقسام ، فجعلوا منها إقليم إيران شهر ، وسموه قلب الأرض ، والقسم الثانى إقليم العرب والهند ، والقسم الثالث إقليم الصين والترك ، والقسم الرابع إقليم الروم وإفريقية » ثم يطيل الكلام عن

ايرانشهر ويقول إنه خير أقاليم الأرض جميعاً ، ويروى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لو كان العلم معلقاً بالثرى لكانت رجال فارس » . ثم يتحدث عن الأقاليم السبعة واحداً واحداً .

وبعد ذلك يتحدث عن الجبال ، ولكن حديثه هنا ليس مجابياً بل واقعياً صرفاً فيه لمحات على طريقة المسالكين في ذكر المسافات والمراحل .

وصف أبى حامد لخوارزم وتركستان والقوقاز وجنوب روسيا وبلاد البحر

وبعد هذا الفصل يأخذ الكلام صورة وطريقة آخرين ، فإن أباً حامد يخص بقية الكتاب (٩٧ — ١١٤) لوصف البلاد التى عاش فيها سنوات طويلة من عمره ، وهى البلاد التى سماها سيزار دوبلر ناشر ذلك القسم من الكتاب بالبلاد الأورو-آسيوية وتمتد المنطقة التى زارها أبو حامد ووصفها فى هذا الجزء من كتابه من خوارزم إلى سهل البحر ، وقد ذكر أطرافاً من كلام أبى حامد عنها ، وهو كلام دقيق يعتبر من الأسانيد العلمية التى يمكن الاعتماد عليها فى التأريخ لهذه النواحى ووصف خصائصها الجغرافية سواء أكانت طبيعية أم بشرية .

وأبو حامد فى هذا الجزء من كتابه أصيل فى كلامه ، فهو يتحدث عما رأى وعان ، ويصف الناس والأشياء كما رآهم ورآها ، وهو يقول ما يقول فى أسلوب بسيط يقرب أن يكون عامياً وساذجاً ينم عن صدق رغم ما فيه من مبالغات هنا وهناك ، كهذا الرجل الضخم الذى لم يصل أبو حامد إلى حَقْوِهِ ، والحقو أعلى الفخذ ، ولم يكن أبو حامد بالقصير أو الدحاح ، وإنما هو وسط فى طوله ، ومعنى هذا أن ذلك الرجل الضخم لابد أن طوله كان ثلاثة أمتار ونصف ! وما أراد أبو حامد قوله هو أن الرجل كان مسرفاً فى طوله ، ومثل ذلك قوله فى سياق مشاهداته فى بلدة غوركومان ، من كبار بلاد الصقالبة

(الروس) إذ ذاك ، وتقع إلى الشمال قليلا من كييف : « ورأيت يوما في أصل شجرة حيوانا يشبه العظاية بيدين ورجلين ، كأن الله تعالى أخرجها من الجنة ، كأنها عُمِلت من الياقوت الأحمر الصافي ، الذي ينفذ به البصر في صفائه ، ومن الذهب المجلى الصافي الذي ما شاهدت في الدنيا مثله ، كأنها منظومة بصنعة وتأليف ، وتحيرت في حسنها ، فأحاط أصحابي بها على الخيول ، وهي تنظر بعينين كأن السحر في عينها ، وتدير رأسها إلينا يمينا وشمالا ولا تتحرك ، ولا تبالي بنا البتة » ، والمراد هنا نوع من السلّمندر Salamander ، ولم يصب دوبلر عندما قال (ص ٣٥٦) بأن المقصود هنا حيوان خيالي ، لأن أبا حامد لم يزد على أن وصف عظاية شمالية شديدة الحرارة وصفًا شاعريًا . ومثال ذلك أيضًا قوله في وصف الثيتل : « وفي باشغرد (الجر) بقر وحشية كبار أمثال الفيلة ، جلد الواحد منها يحمل بفلين قوين ، ورأسه حمل بحمّة ، يصطادونها وتسمى الثيتل ، وهي من أعجب الحيوان طيب اللحم ، سمين ؛ وقرونها كبار طوال مثل أنياب الفيلة » (معرب ، دوبلر ، ص ٣٤) ، والمراد هنا الثيتل الجرجى المعروف علميًا باسم Bos taurus وقد انقرض الآن ، وقد رآه في القرن السادس عشر الرحالة هيربنشتاين Herbenstien وصوره تصويراً دقيقاً لا يخرج عن كلام أبي حامد^(١) .

وليس أدل على دقة أبي حامد في هذا الجزء من كتابه من ذلك الوصف المتقن لما يسمى بالاشكي Ski وهي ألواح الانزلاق على الثلج . (معرب ، دوبلر ، ص ١٦ - ١٧) ، قال : « والطريق إليهم (أى إلى بلاد اليورا^(٢)) في

(١) Cf. Dubler, *Abū Ḥamid*, 207.

(٢) ذكر هؤلاء اليورا البيروز ونفر من جغرافاني المسلمين ، وهم مذكورون في حولية كييف الروسية باسم يوجرا Jugra وتحديث عنهم ا. فيشر في تاريخ سيبيريا .

J. E. Fischer, *Siberische Geschichte*, 2 vols., St. Petersburg, 1768, I, 177 ff.

وذهب دوبلر (ص ٢٦٩) إلى أنهم من شعوب سيبيريا القديمة — وربما كانوا الأوجور Ogor أو الاستياكوس أو الوجول Woguls أو اليوراك Yorak من فروع السامويين — وأنهم هربوا قبل زمن أبي حامد بقرون كثيرة أمام البدو الطورانيين وأقاموا في النواحي الباردة الممتدة شمال شرق القوقاز .

أرض لا يفارقها الثلج أبداً ، ويتخذ الناس لأرجلهم ألواحاً ينحتونها ، طول كل لوح باعٌ وعرضه شبرٌ ، مقدّم ذلك اللوح ومؤخره مرتفعان من الأرض ، وفي وسط اللوح موضع يضع فيه الماشى رجله ، وفيه ثقب قد شدوا فيه سيورا من جلود قوية يشدونها على أرجلهم ؛ ويقرن بين اللوحين التي تكون في رجله يشندال طويل مثل عنان الفرس ، يمسكه في يده الشمال ، وفي يده اليمنى عصى بطول الرجل ، وفي أسفل العصى مثل كرة من الثياب ، محشوة بصوف كثير ، مثل رأس الإنسان ، خفيفة ؛ يعتمد على تلك العصى على الثلج ويدفع العصى خلف ظهره ، كما يصنع الملاح في السفينة ، فيذهب على ذلك الثلج بسرعة ، ولولا تلك الحيلة لم يمكن أحد أن يمشى هناك البتة ، لأن الثلج على الأرض مثل الرمل لا يتلبد البتة ، وأى حيوان مشى عليه بغوص في ذلك الثلج فيموت فيه ، إلا الكلاب والحيوان الخفيف كالثعلب والأرنب ، فإنه يمشى عليه بخفة وسرعة . والثعالب والأرناب في تلك البلاد تبيضُ جلودها حتى تكون مثل القطن ، وكذلك الذئاب أيضاً ، تكون في ناحية بلغار تبيض جلودها في زمان الشتاء . وليس في الدقة على هذا من مزيد ، بل أن أبا حامد رسم هذه الألواح بيده زيادة في الايضاح .

ولا يطيل أبو حامد الكلام في جهة من الجهات مثل إطالته في الكلام عن خوارزم ؛ وقد وصف هذا الاقليم الكثيرون من جغرافيينا ، ولكن كلام أبي حامد أحفل ما لدينا بالفائدة لأنه لا ينفق الوقت في تعداد المدن والمسافات بينها ، بل يهتم بالناس وهيئتهم وأعمالهم والأرض وحاصلاتها ومتاجرها ، ويقص ما اتفق له من العجائب وغريب الحكايات هناك ، وهي ليست عجائب خرافية ، بل أشياء تشبه ما نقرؤه في كتب «صدق أو لا تصدق» المعاصرة ، فهي طرائف لا عجائب . ويوصف خوارزم يحتم كتابه هذا وعبارته هنا جديرة بالذكر قال : « وإنما ذكرت بعض ما شاهدته على طريق الاختصار ، ولو شرحت لأطال الكتاب ، والاختصار فيه كفاية . ولولا هؤلاء الأئمة الفضلاء

الذين سألتني ورجعوا في جمع هذه الجملة لما تصديت لهذا المجموع ، إذ لست أرى نفسى أهلاً للتأليف .

وخرجتُ من باشغرد سنة ثلاث وخمسين ؛ وخرجت من سجنين إلى خوارزم سنة أربع وخمسين ؛ وخرجت من خوارزم طالباً للحج في ربيع الأول سنة خمس وخمسين في شوال^(١) . . . ؛ وحججت وعدت إلى بغداد . وقد أعانني المولى الوزير عون الدين ، جلال الإسلام ، صفى الإمام ، شرف الأنام ، معز الدولة ، بحير الأمة ، تاج الملوك والسلطين ، سيد الوزراء ، صدر الشرق والغرب ، مصطفى الخلافة ، ظهير أمير المؤمنين - أدام الله بنعمته كُتبت أعادى دولته - وأوصل إلى من خلعه الشريفة وماله وإفضاله ما أعجز عن عده وحصره ؛ وأخذ لى كتاباً من حضرة الخلافة - أدام الله على العالمين فى مشارق الأرض ومغاربها ظلها ، وكُتبت بالذل والصغار أعداءها - وكُتبت إلى صاحب قونية ابن الملك مسعود - رحمه الله - ليكون طريقى عليه إلى باشغرد ، لعل الله تعالى يسهل بالوصول والاجتماع بالأهل والأولاد ؛ وما ذلك على الله بعزيز ، وهو عليه يسير ، وهو على كل شىء قدير .

وإذن فأبو حامد فى هذا الكتاب ليس جغرافياً صرفاً أو مجانبياً خالصاً ولا رحالة فحسب ، إنما هو ذلك كله ، وقد أخطأه التوفيق فى نظم الكتاب ، فانتقل انتقالاً سريعاً من مبحث لمبحث ومن أسلوب لأسلوب ، وحشد فى الكتاب فصولاً كثيرة نقلها عن أبى العباس الحجازى دون أن يحسن الربط بينها وبين سياق الكتاب ، ولا يُعَمَّلُ إقحام هذه الفصول إلا بأحد أمرين : أما أن الوزير عون الدين طلب إليه ذلك أو أن أباً حامد أراد ألا يكون كتابه كله حكايات ونوادر وعجائب ، فضمنه بعض المباحث العلمية التى يحتاج

(١) هنا شىء سقط من النسخ واختل السياق بسقوطه ، وتستقيم إذا أضفنا شيئاً مثل : [فوصلت الحجاز] فى شوال .

إليها الناس ، وهو في هذا يجمع بين المفيد واللطيف كما يُقال ، ولو أنه قصر كتابه على مشاهداته في البلاد الأورو-آسيوية وأطال في ذلك كيف شاء لكان هذا الكتاب كله وثيقة جغرافية إجتماعية تاريخية ذات قيمة لا تقدر ، ولكن الأدب الجغرافي العربي على أيامه كان قد أخذ يتحول إلى أدب عجائب وغرائب ، ولم يعد الناس يطلبون كتباً جغرافية صرفة كتبك التي ألفها أعلامُ المسالكين والبلدانيين ، وإنما أصبح الناس على أيام أبي حامد يطلبون كتب تسلية وترويح عن النفس وإزجاء للفراغ ، ولم يكن لأبي حامد مفر من أن يصب كتبه على هذا القالب .

وأبو حامد من أوائل من اتجهوا بالعلم الجغرافي العربي هذه الوجهة العجائبية ، وقد أسرف الناس بعد ذلك في هذا الباب حتى غدت كتبهم وكأنها صفحات من ألف ليلة ، ولم يشذ عن ذلك إلا أمثال أبي الفدا وياقوت ، فأما الأول فقد كان أميراً يؤلف لنفسه وهو في سعة من العيش ، فلم يكن بحاجة إلى أن يطلب تسلية قارئ أو يلتبس إطراف وزير أو أمير ، وأما ياقوت فن طلائع الموسوعيين المهجيين ، وهو عالم متبحر جمع فأوعى ، فاقتدر على النجاة من التيار العام واستطاع الابتداع . أما أبو حامد فكان رجل رحلة وحركة وشوق إلى المشاهدة والتنقل لا يكاد يتسع وقته لجمع علم غزير أو الانكباب على تأليف كبير ، ومن ثم فقد كتب ما تيسر له استجابة لطلب راعيه وتمسكاً مع ما كان الناس يستحبونه من أحاديث المستحيلات ، وهو نفسه يعتذر عن سوء تأليفه ويقول «لست أرى نفسى أهلاً للتأليف» ولو وفق إلى ما وفق إليه ابن بطوطة من رجل مثل ابن جُزَي يأخذ عنه حديثه ويدونه ويصوغه في قالب جميل لكانت مؤلفاته أحسن وأشمل ، أما وهو مشغوف بالرحلة مشغول بأهله الذين فرقهم في نواحي الأرض ، فلم يكن يستطيع أن يفعل أكثر مما فعل ، وهو مشكور عليه ، وله مكانه الذي لا ينكر بين جغرافيينا .

كتاب تحفة الألباب ونجبة الاحباب

كتب أبو حامد هذا الكتاب بعد «المعرب» بسنتين ، فقد فرغ منه في ٣ ربيع الثاني ٥٥٧/٢٢ مارس ١١٦٢ بعد خروجه من بغداد واستقراره في الموصل في كنف صديقه الشيخ معين الدين أبي حفص عمر بن محمد ابن الخضر الأزدبيلي مؤلف كتاب «وسيلة المتعبدين»^(١) الذي يثنى عليه أبو حامد ثناء طويلا في فاتحة الكتاب ويقول : « ولم يزل أيده الله وأبقاه ، ومن المكاره وقاه ، يحثني كلما كنت ألقاه أن أجمع ما رأيته في الأسفار من عجائب البلدان والبحار ، وما صح عندي من نقلة الأخبار والثقة الأخيار ، فأجبت به إلى ذلك ، وإن لم أكن هنالك »^(٢) ، لِعُرُوبِ الْفِطَنِ ، وضيق العطن ، وبعد الأهل والوطن ، وتشتت الأحوال ، وركوب الأهوال ، وطول الاغتراب والبعد عن الأحباب ، ومساورة العذاب . أسأل الكريم الحبيب ، أن يمن عليّ بالفرج القريب ، « ويرحم الله عبدا قال آمينا » ، ورأيت أن أسمى هذا المجموع « تحفة الألباب » وأرتبه على مقدمة وأربعة أبواب . فالمقدمة للبيان والتمهيد ، والأبواب لتتمة المقصود :

الباب الأول : في صفة الدنيا وسكانها ، من إنسها وجانها .

الباب الثاني : في صفة عجائب البلدان وغرائب البنين .

الباب الثالث : في صفة البحار وعجائب حيواناتها ، وما يخرج منها من العنبر والقار ، وما في جزائرها من أنواع النفط والنار .

الباب الرابع : في صفة الحفائر والقبور ، وما تضمنت من القفار إلى يوم التشور .

(١) انظر بروكلمان ، ملحق : ١/٧٨٣ — ٧٨٤

(٢) أي : وإن لم أكن أهلا لذلك .

ليكون ذلك سبباً للاعتبار وداعياً إلى الفرار من دار البوار إلى دار القرار ، جعلنا الله وإياكم من الفائزين ، وأدخلنا برحمته في عباده من الصالحين .
 وإذن فقد كتب أبو حامد كتابه هذا وهو يتطلع إلى العودة إلى الحجر ليلقى أهله وأحبابه ، وقد تشتت ذهنه واستبد به حنين الشيخ إلى أهله وولده ليقضى معهم آخر أيامه . وقد كانت سن أبي حامد إذ ذاك ٨٤ سنة هجرية ، وهى سن تؤيد ما ذكره فى خطبة الكتاب ، وكلامه يُشعر بأنه كان يحس أن أمينته لن تتحقق ، ولهذا فهو يرجو القارىء أن يقول « آمين » لكى تتيسر الأسباب لأبى حامد للعودة إلى باشغرد التى كانت قد أصبحت له وطناً ، وخلف فيها ابنه حامداً .

وإذا كان أبو حامد صادقاً فى تصوير حاله النفسية واعتذاره عن قلة تماسك الكتاب « بعزوب الفطن وضيق العطن » إلا أنه فاته أن تجربته الأولى فى التأليف نفعتَه عند ما أمسك القلم ليكتب كتابه الثانى ، فقد كتب كتابه الأول (المغرب) دون خطة أو ترتيب ، وقال انه « فى بعض عجائب المغرب » ثم لم يلبث أن خرج الأمر عن يديه فضى يجمع الغرائب من كل مكان فى الدنيا ، وأعوزته مادة طيبة فاستعار فصولاً من كتاب سابق ، ثم ارتد إلى عجائب المغرب ، ولم يدخل فى موضوع أصيل ذى قيمة مبتكرة إلا فى الأوراق العشرين الأخيرة من الكتاب كما ذكرنا .

أما فى كتابه الثانى فقد وضع للكتاب خطة قبل أن يكتبه ، وجعله - بناء على هذه الخطة - تمهيداً وأربعة أبواب ، والتزم هذا التقسيم فى كتابه التزام مؤلف يكتب فى موضوع محدود واضح أمامه ، ولا عجب والحالة هذه أن يلتقى هذا الكتاب قبولا أكثر مما لقيه كتابه الأول ، وأن يكون سبب ذبوع اسم أبى حامد وتواتر ذكره فى المؤلفات التى كتبت بعده .

ومخطوطات هذا الكتاب كثيرة توجد فى مكتبات باريس ولينجراد والمتحف البريطانى وجوتا والجزائر ، وفى مكتبة باريس الأهلية وحدها خمس

مخطوطات منه ، ولقد لقي من عناية المحدثين مثل ما لقي من تقدير القدماء ، فعكف على دراسته نفر كبير منهم ، ونشروا منه قطعاً ، وترجموا قطعاً أخرى إلى لغات أوروبية شتى ، ونشره كاملاً جابريل فيران في سنة ١٩٢٥ وعلق عليه شروحاً ضافية ذات قيمة علمية كبرى^(١) .

وقد اهتم أولئك العلماء بأبي حامد لأنه من أوائل من اتجه بالعلم الجغرافي العربي نحو ما يسمى بعلم الكون أو الكوزمولوجية Cosmology في الإنجليزية وعلم وصف الكون أو الكوزموغرافية Kosmographie - Cosmography في

Gabriel Ferrand, *Le Tuhfat al-Albāb de Abū Ḥāmid al-Andalusī al-Garnatī*, (١) *Journal Asiatique*, Juillet - Septembre 1925.

وقد أورد فيران في مقدمة تحقيقه للتحفة بياناً وافياً بكل الأبحاث التي تمت عن أبي حامد إلى سنة ١٩٢٥ . وأهم من درس أبا حامد وكتابه إلى ذلك التاريخ ثلاثة : دورن الروسي وجيورج ياكوب وفيرين الألمانية .

وقد نشر دورن Dorn معظم ما كتب عن أبي حامد في :

Mélanges Asiatiques tirés du Bulletin de l'Académie Impériale des Sciences de Saint Pétersbourg. المجلدات ٦ — ٨ فيها بين سنتي ١٨٦٩ و ١٨٧٣ ومقالاته في هذا المجموع تدور كلها حول ما كتبه علماء المسلمين عن البلاد الشمالية وروسيا بصفة خاصة . ويهتأ منها ما نشره في المجلد السادس (س ٦٨٥ — ٧١٨) والمجلد السابع كله فهو يتضمن مختارات من تحفة الألباب وترجمتها إلى الألمانية بعنوان :

Über zwei für das Asiatische Museum Erworbene arabische Werke.

ولمشر في نفس المجلد لس كتاب يسمى « مختار من مختصر تحفة الألباب لمجالسة الأحباب » وهو مختصر للتحفة عمله محمد بن عاصم بن عبيد الله بن محمد بن إدريس الأندلسي الرندي . وفي مقال آخر في نفس المجموعة عنوانه .

Auszüge aus vierzehn morgenländischen Schriftstellern, betreffend das Kaspische Meer und angrenzende Länder Mélanges, VI, 685-716.

ويلى ذلك في نفس المجلد :

Die jetzigen Kubdtschi, Eine Erläuterung aus Abū Ḥamid el-Andalusis Nachrichten über diesen Volkstamm (p. 717-740).

أما جيورج ياكوب Georg Jacob فدراساته التي يدور البحث في أثنائها عن أبي حامد فهي :

—Der Nordisch - Baltische Handel der Araber im Mittelalter, Leipzig, 1887.

—Studien in arabischen Geographen, Heft I, Berlin 1890; Häfte II, III, IV, Berlin 1892

والظر أيضاً : A. Seippel, *Rerum Normannicarum Fontes Arabici*, Oslo, 1896-1928.

وبحث سيزار دوهر المستفيض عن أبي حامد الفرناطي ، وقد سبق أن ذكرنا عنوانه كاملاً .

الألمانية مع شيء من علم حركات الوحدات الكونية والبحث عن أسبابها وتعليل مظاهرها ، وهو ما يسمى بالكوزموجونية Cosmogony . وقد اتجه المسلمون من زمن مبكر بهذا العلم نحو عجائب الكون ، ووصلت إليهم كتابات اليونان في هذا الصدد من طاليس الملطي Thales of Miletus (حوالي القرن السادس قبل الميلاد) إلى بطليموس الأسكندري أو القلوذى كما يسمى في الكثير من كتبنا ، وهو تعريب لاسمه الكامل Claudius Ptolemaeus ، ووصلت إليهم كذلك آراء الفرس والهنود في هذا الباب ، وتناولها مفكر واسع العلم والذكاء كأبي الحسن السعوى من وجهة النظر الكوزموجرافية و الكوزموجونية معاً ، واجتهد في وصف المظاهر الكونية وتعليلها بما عرف عنه من النفاذ واصالة التفكير ، وتناول الموضوع من زاويته العلمية الفلكية الرياضية أبو الريحان البيروني .

وفي العصر الذهبي لعلم الجغرافية عند المسلمين خلال القرنين الرابع والخامس الهجريين انصرف الناس عن الكوزموجرافية إلى وصف الأرض نفسها وتحديد علاقتها بالكون في كلام مقتضب لا يتطرق إلى حديث العجائب ، ولكن العلم الجغرافي كله اتجه خلال القرن السادس وما يليه وجهة عجائبية صرفة ، أي أن هم الناس اتجه إلى البحث عن عجائب الكون والأرض والخلوقات ووصفها والمبالغة في ذلك الوصف على اعتبار أن ذلك إظهار لقدرة الخالق سبحانه وتعالى على خلق المعجزات والعجائب وما لا يحيط به عقل البشر . وقد كتب المسلمون في ذلك كثيراً جداً ، ومعظم ما كتبوه خرافي بعيد عن التصديق مما كان يلائم عقلية هذه العصور ، ولم يشذ عن هذا الانحدار بعض الشيء إلا قليلون مثل القزويني في كتابه «عجائب المخلوقات» والدميري في «حياة الحيوان الكبرى» ومن في طبقتهم .

وعلى الرغم من أن أبا حامد الغرناطي كان رحالة جواب آفاق ، شهد من الأرض المعمورة إذ ذاك قدراً يبلغ النصف أو يشف قليلاً ، وكان قديراً

بهذا على أن يكتب وصف رحلته على النحو المفيد المتع الذى وصف به ما زار من البلاد الأورو-أسيوية ، وعلى الرغم من اطلاعه الواسع فى الجغرافية والفلك ، وكان قديراً لهذا على أن يكتب كتاباً جيداً فى الجغرافية ، إلا أن ظروفه الخاصة واتجاهه ذهنى نحو أحاديث العجائب غلبت على ما ألف ، ثم إنه بطبعه لم يكن بصاحب بحث أو صبر على الكتابة والتدوين ، إنما كان محدثاً بارعاً يُطَرِّف سامعيه بعجائب ما رأى وشاهد ، وإذا كان قد كتب فقد فعل ذلك مستجيباً إلى طلب أصحابه ومن اتصل بهم ، فدون — على رغبة — ما أحبوا أن يدونه ، ومن ثم فقد قصر كلامه تقريباً على الناحية العجائية من وصف الكون ، فكان بهذا من أوائل من اتجهوا بالعلم الجغرافى نحو الكوزموجرافية العجائية ، فبينما كان معاصره الإدريسى يتجه بالجغرافية وجهة علمية سليمة ويضع أسس الجغرافية كما ينبغى أن تدرس ، اتجه هو بالعلم تلك الوجهة الأسطورية التى لم تبق فيه من الجغرافية إلا اسمها ، والحسنة الوحيدة لهذا الاتجاه أنه قدم للقصاص الشعبيين مادة واسعة من أحاديث الخرافة صبّت بعد ذلك فى تيار الأدب الشعبى وظهرت فى حكايات ألف ليلة وما مائلها . واتجاه أبى حامد هذا الاتجاه أمر مؤسف حقاً ، لأنه مما يؤلم أن تجد رجلاً قادراً على عمل شيء ثم يعمل ما هو دونه ، وقد كان الرجل قادراً على أن يضيف إلى ثروة العلم الجغرافى العربى شيئاً كما رأينا فى تلك الصفحات القليلة التى عرضنا مادتها ، وقد رأى أبو حامد أضعاف ما كتب وعمر نحو ثلاثين سنة زيادة على الإدريسى . ولكننا نتعزى فنقول إنه كان ابن عصره ، والناس فى كل زمان ومكان أبناء عصورهم إلا أن يكونوا أفذاذاً كالإدريسى وابن بطوطة وابن خلدون والمقرئزى وياقوت الحموى ومن إليهم ممن خرجوا على حكم زمانهم وساروا بشعلة العلم العربى خلال ظلام عصورهم . والتيار الذى جعل الجغرافية فى يد أبى حامد علم عجائب ، هو نفس التيار الذى جعل الكثير من كتب التاريخ مدائح ملوك ودواوين الشعر مجموعات محسنات وتراويق لفظية ،

وهو الذى مسح أسلوب النثر سجعاً عقيماً وجعل كتب الأدب مجموعات مختارات معظم ما فيها هزيل ، وكتب الفقه مختصرات وشروحاً على مختصرات . من هذه الزاوية نستطيع أن نقدر أبا حامد ونضعه فى مكانه الذى يرضاه له الإنصاف . يبدأ أبو حامد مقدمته بترتيب العقول درجات « فعقول الملائكة والأنبياء أكبر [من عقول جميع العلماء ، وعقول العلماء أكبر] من عقول [جميع] العوام فى الدنيا ، وعقول العوام أكبر من عقول النساء ، وعقول النساء أكبر من عقول الصبيان ، وبقدر هذا التفاوت يقع الانكار لأكثر الحقائق من أكثر الناس لنقصان العقل ، لأن الذى يعرف الجائز والمستحيل يعلم أن كل مقدور بالاضافة إلى قدرة الله تعالى قليل ، فالعاقل إذا سمع [عجباً] جائزاً استحسسه ولم يكذب قائله ولا هَجَّته ، والجاهل إذا سمع ما لم يشاهد قطع بتكذيب وتزييف قائله ، وذلك لقلة بضاعة عقله وضيق باع فضله . . » (التحفة ، ص ٣٧) وهذا الكلام أشبه بالاعتذار عن غرابية ما سيروى بعد فى الكتاب من غرائب ، ثم يضرب مثلاً للعجائب التى لا يصدقها إلا من عرف شأنها فيقول : ومن شهد حجر المغناطيس وجذبه للحديد ، وكذلك حجر [عرة] الماس^(١) الذى يعجز عن كسره الحديد ويكسره الرصاص ، ويثقب اليواقيت والفولاذ ولا يقدر على ثقب الرصاص يعلم أن الذى أودعه هذا السر قادر على كل شيء . . . » . وأبو حامد هنا ينقل ما سمع من غيره دون أن يتكلف عناء اخبار ما يقول ، ولم يكن هذا الاختبار عليه عسيراً ، وإذا التمسنا له عذراً فى مبالغاته عند الكلام عن حجر المغناطيس فأى عذر له فى القول بأن الرصاص يكسر الماس ، وكان فى استطاعته أن يجرب ذلك بنفسه ؟

ثم يبدأ الباب الأول « فى صفة الدنيا وسكانها من إنسها وجانها » فيقول : اعلم وفقك الله أن الدنيا عبارة عما فى ذلك القمر من الهواء والبحار

(١) هكذا ورد أيضاً عند القزوينى (عجائب المخلوقات ، ١/ ٢٣٦) .

والأرض وما عليها وما تحتها وما يحيط بها ، والمعمورة منها فيما يقال مسيرة مائة عام من ناحية الشمال مع ما يقارب ذلك من المشرق والمغرب ، وما سواه من الأرض ليس فيه آدمي لقرب الشمس وميلها على ما سوى الشمال ، وشدة سلطانها على ما سوى الشمال ، فإن الشمال بارد يابس ومغربه بارد رطب ومشرقه حار يابس . . . » وهذا كلام يستغرب من رحالة ساح في معظم الأرض وقطع المسافة من سجداسة إلى غرمكان شمالي كييف ، ولكنه هنا ناقل لا منشيء أو ناقد ، وتلك من خصائص عصر الانحدار : النقل دون مناقشة ودون استخدام العقول التي أفاض أبو حامد الكلام عنها في المقدمة .

ثم يتحدث عن يأجوج ومأجوج ، وينتقل إلى أمم السودان فيتحدث عنهم حديثاً هو خليط بين المعقول وغير المعقول ، ونضرب صفحاً عن غير المعقول ، فهو كثير ولا محل له في هذا البحث ، ونقتصر على أمثلة من المقبول الذي يمكن أن نخرج منه شيء : « . . . وأهل غانة أحسن السودان مسيرة وأجلهم صوراً ، سُبُطُ الشعور لهم عقول وفهم ، ويحجون إلى مكة ، وأما فاوة وقوقو وملي وتكرور وغدامس فقوم لهم بأس وليس في أرضهم بركة ولا خير ، ولا دين لهم ولا عقول ، وأشرهم قوقو : قصار الاعناق فُطس الأنوف تُحمر العيون كأن شعورهم حب الفلفل ، وروائحهم كريهة كالقرون المحرقة ، يرمون بنبل مسمومة بدماء حيات صفراء لا تلبث ساعة واحدة حتى يسقط لحم من أصابه ذلك السهم من عظمه ، ولو كان فيلا أو غيره من الأفاعى . . . » وقد كان أبو حامد حرياً بأن يقول كلاماً أحسن وأدق من هذا ، فقد كانت هذه الأمم كلها معروفة المسلمين ، وقد كتبوا عنها كلاماً أحسن من ذلك بكثير .

ويتحدث بعد ذلك عن جلد جيد من جلود الماعز يؤتى به من بلد السودان ويصف خصائصه وصفاً طيباً ، ثم يتحدث عن حيوان اللط وجلده الذي تصنع منه الدروع اللطية ، واللط نوع من الوعول شبيه بالبقر وإن كان

أقل منه حجماً ، أبيض الشعر أسود الظفر سريع العدو وشهرته ترجع إلى جلده الذي كانت تصنع منه الدروع اللطية التي اشتهر بها المرابطون . ومن مؤلفينا من يذهب إلى أن لمطة قبيلة من صنهاجة^(١) .

ثم يتكلم عن بعض أمم السودان ، فيثني على أهل زبلع ، وينتقل إلى جزيرة العرب فيقول كلاماً غريباً لا ندرى كيف استجاز قوله عن جزء من الأرض معروف للمسلمين مثل جزيرة العرب : « عند صنعاء أمة من العرب قد مسخوا كل إنسان منهم نصف إنسان ، له نصف رأس ونصف بدن ويد واحدة ورجل واحدة يقال لهم وبار ، هم من ولد إرم بن سام أخى عاد وثمود وليس لهم عقول ، يعيشون في الآجام [و] في بلاد الشجر على شاطئ بحر الهند والعرب تسميهم النسناس ويصطادونهم ويأكلونهم ، وهم يتكلمون العربية [ويتناسلون] ويسمون بأساى العرب ، ويقولون الأشعار . . . » ثم يروى لهم شعراً ١ .

ويمتدح أبو حامد بلاد الهند والصين امتداحاً طويلاً ويقول عن أهلها إنهم أهل « الملك العظيم والعدل الكثير والنعمة الجزيلة والسياسة الحسنة . . . » ويذكر أنهم من أعلم الناس ، ويختتم كلامه عن الصين بقوله : « ويحترمون التجار من المسلمين غاية الاحترام ، ولا يؤخذ منهم أعشار [في بيع أو شراء] ولا مكس ، فياليت ملوك المسلمين اقتدوا بمثل هذه السياسة الحسنة ، فهم كانوا أحق بها ، ولكن ذلك للحكمة الالهية ، وذلك لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال : الدنيا سجن للمؤمن ، والسجن موضع الضيق والخوف ، ولا يكون ذلك إلا مع عدم العدل وكثرة الظلم والجور وقلة المال والخصب حتى يتحقق في حق المؤمن السجن في الدنيا . . . » (ص ٥٠) .

(١) انظر تعليق فيران الطويل على هذا اللفظ ، ص ٢٤٨ تعليق ١

ويختتم الباب — بعد حديث قصير عن الجان — بكلام عن الأرض والجبال والبحار « التي أحاط بها جبل قاف » وهو هنا لا يشير ولو من بعيد إلى كروية الأرض أو نظام الأفلاك ، كأنه رأى أن يهمل كل ما وصل إليه علماء المسلمين قبله مفضلاً عليه كلاماً خرافياً أخذه من مبالغات القصاص وشطحات الصوفيين ، ولا عجب فهذا الكتاب مُهدى إلى رجل صوفى .

أما الباب الثانى « فى صفة عجائب البلدان وغرائب البنيان » (ص ٥٥ وما يليها) فمعظمه أحاديث خرافة لا يستوقفنا منها إلا حديثه عن صنم قادس وجمع البحرين (وهو عنده مضيق جبل طارق) ومنارة اسكندرية ، وهو هنا ينقل ما قاله فى « المغرب » حرفاً بحرف ، ويترسل فى النقل فيذكر عجائب البنيان فى مصر بما فى ذلك من منارة عين شمس والأهرامات و«مدينة فرعون» وبريا أخميم ، وكل ذلك وارد أيضاً فى « المغرب » ؛ ثم يتحدث عن بعض عجائب البنيان فى الشام : حصن بعلبك ومدينة حمص ومدينة تسمى اللجة فى حوران ، وينتقل إلى العراق فيذكر « تل عَقْرُقُوف » ويصف إيوان كسرى أو طاب كسرى وصفاً دقيقاً يدل على مشاهدة ، ولا عجب فى ذلك فهو يذكر أنه دخل إلى هذه الناحية من مدينة أهر سنة ٥٢٤ ونزل عند القاضى أبى السرى بن عطاء بن اسحاق الشيرازى ، وهو يذكر هذا الشيخ بعد قليل باسم أبى اليسر عطاء بن نهبان ، ويقول إنه كان من أصحاب الشيخ الامام أبى اسحاق الشيرازى ، وقد روى له هذا الشيخ ابن عطاء من عجائب البنيان فى فارس شيئاً كثيراً .

ثم يتكلم عن أردبيل وبلاد دربندا ، وقد أشرنا إلى كلامه عن هذه النواحي ، ويختتم الكلام عن خوارزم وسخسين وما حولها معيداً ما ذكره فى المغرب .

والباب الثالث « فى صفة البحار وعجائب حيواناتها وما يخرج منها من العنبر والقار وما فى جزائرها من النفط والنار » (ص ٩١ وما يليها) يبدأ بكلام معقول

عن البحار بحسب نظرية أهل العصور الوسطى : « اعلم أن البحر المحيط — الذى أحاط بالدينيا والأرض فى وسط البحر كالكرة فى غدير ماء ، وهو البحر الأسود الذى يعرف ببحر الطلمات — لا تدخله السفن ، وبحر الهند خليج منه ، وبحر الصين خليج منه ، وبحر الفلزم (البحر الأحمر) خليج منه ، وبحر الروم خليج منه ، وبحر اللاذقية (الحوض الشرقى من البحر الأبيض) خليج منه ، وبحر فارس خليج منه ، يمتد بعضه إلى البصرة وعبادان وسيراف وكرمان والبحرين [وجزيرة قيس] (هى جزيرة كيس فى الخليج الفارسى) والدَّيْل (ميناء صغير كان إلى جنوب بومباى على ساحل الهند) إلى [بلاد الحبشة إلى الزنج وإلى] سرنديب والصُّولِيَّان (ساحل كروماندل) ، وكل هذه البحار التى ذكرتها وما لم أذكرها إنما أصلها من البحر الأسود الذى يقال له البحر المحيط ، وأما بحر الخزر (بحر قزوين) وبحر خوارزم (بحيرة آرال) وبحر اخلاط (بحيرة وان) وبحر أرميه (البحر الميت) والبحر الذى عنده مدينة النحاس (غير محقق وقد ذهب جودفروا ديموبين إلى أن المراد به بحيرة تشاد) وغير ذلك من البحار الصغار فهى منقطعة عن البحر الأسود ، ولذلك ليس فيها جزر ولا مد ، وإنما هى [ماء له] مادة من الأنهار الكبار ، وأكبرها بحر الخزر» ثم يتكلم بعد ذلك عن المحيط الأطلسى (الذى يسميه البحر الأسود) وعلاقته ببحر الروم و «تجمع البحرين الذى بينهما» كلاماً سبق أن ذكره فى العرب ويسترسى فى ذكر أسماك عجيبة كثيرة سبق أن ذكر بعضها فى «العرب» أيضاً .

ويتحدث عن جزائر بحر الروم فيذكر سردانية وصقلية ومالطة . وينتقل إلى جزائر بحر الهند والصين ، وهنا يذكر لقاءه مع الشيخ أبى العباس الحجازى الذى ذكرناه ، ويروى عنه خبر جبل الراهون فى جزيرة سرنديب . ويسترسى فى الرواية عنه ، ولكنه لا يروى فى هذه المرة فصلاً عن الفلك والمواقيت بل أحاديث خرافة نراها كلها بعد ذلك فى «ألف ليلة» ، مثل الدهن الذى إذا أدّهن به أحد لم تؤثر فيه السيوف حتى يقتل «ومن شرب من ذلك

الدهن عشرة دراهم ولا يأكل لبنًا ولا ما يتخذ من اللبن لم يضره الحديد البتة» ودهن آخر أعطاه إياه ملك الصين إذا دهن به جرح زال ألمه والتحم في وقته قبل أن يخاط فتق مثله ، ويروى أبو العباس هذا أن ملك الصين أهدى الأفضل بن أمير الجيوش شيئًا كثيرًا من تحف بلاده . ثم يقول أبو حامد أن أبا العباس هذا اتخذ حمامات وخانات ودكاكين وأن له سبعة أولاد من سبعة أنواع من الجوارى : صينية وهندية وحشية وسرندية وصوليانية من جزيرة الصوليان . . . وكان أولاده يتكلمون بالسنّة جماعة ، وكان بعضهم يأنس بى وأعطاني من العود الفائق ومن ورق الصين أنواعًا زرقًا وحمراء^(١) [كلها] عليها تصاوير [الصين] بذهب أحسن من الديباج الرومى » (ص ١٠٧—١٠٨) . وبعد ذلك ينتقل أبو حامد إلى الحديث عن طائر الرخ « الذى يكون في جزائر بحر الصين » (ص ١٠٩—١١٠) ، وقد نقل كلامه الديميرى في حياة الحيوان الكبرى وقرر أنه ينقل عن الجاحظ وأبى حامد ، وكلام هذا الأخير قريب جداً مما نجده في قصة السندباد في ألف ليلة .

ويتحدث عن الكركدن ، وهو الصورة الأسطورية التى يرسمها العجائبيون لوحيد القرن أو الخريت ، وهى مأخوذة عن كتابات أهل الصين والهند ، واللفظة نفسها أصلها سنسكرىتى : خَضَجَدَنْثَا ثم خُرِفَتْ إلى كَرْكَدَنْتْ أو كَرْكَدَنْدْ ، ومعناها « الحيوان ذو السن على هيئة الحربة » وتصاوير الكركدن في الرسوم الصينية القديمة شديدة الشبه بالتفاصيل الغريبة التى يحكيها عنه أبو حامد وغيره من كتّابنا ، مما يدل على أنهم لم يكونوا يخترعون وإنما ينقلون ما يروى لهم دون محاولة تحقيقه أو التفكير فى امكانه على الأقل ، فإن القول بأن جناح الرخ ١٠٠٠ باع يحتاج إلى تفكير ، لأن الباع متران ، أى أن جناح هذا الطائر طوله كيلومتران ، وهذا أمر أظن أن أحداً لا يتصوره مهما

(١) انظر الترجمة الفرنسية للتحفة ، ص ٢٦٧ ، تعليق ١

اتسع خياله ، وكذلك القول بأن طول الكركدن ١٠٠ ذراع ، والذراع ٥٦ سنتيمتراً على وجه التقريب ، فطول هذا الحيوان ٥٦ متراً . والطريف أن أبا حامد يذكر بعد ذلك حمار الوحش ويصفه وصفاً دقيقاً كما هو في الحقيقة وقد يكون حمار الوحش عجبية في نظر أبي حامد ، ولكنه لا يوضع في نفس المستوى مع الرخ والكركدن أو الطاووس البحري الذي يصفه (ص ١١١) وصفاً شاعرياً : « وقال لى رجل شريف يعرف بالهارونى من ولد هارون الرشيد أنه كان فى بحر الهند فرأى طاووساً قد خرج من البحر أحسن من طاووس البر وأجمل ألواناً ، فكبرنا لحسنه ، وجعل يسبح فى البحر وينظر إلى نفسه وينشر أجنحته وينظر إلى ذنبه ساعة ، ثم غاص فى البحر » وقد نقل هذا الخبر الأبشيهى فى المستطرف عن أبي حامد ، وقال إن هذا رواه عن أبي العباس الحجازى ، ولا ذكر لأبى العباس هنا عند هذا الأخير .

ثم يذكر طيراً مصرياً فى هيئة العقاب يعيش على سمك النيل ، ويقول إنه يصيح فى الجو « الله فوق الفوق ! بكلام فصيح يسمعه الناس من بُعد وهو نوع كثير على نيل مصر » (ص ١١٢) والغالب إنه يريد الكروان ، والناس فى مصر يقولون أنه ينشد فى السماء « الملك لك لك يا صاحب الملك » وما نسمعه على الألسنة فى مصر إنما هو بداية الاسطورة التى استقرت فى كتب العجائبيين على هذه الصورة .

وينتقل إلى بحر الخزر ، وهو بحر عَرَفَهُ وركب مياهه ، فيذكر بعض عجائبه ويقف طويلاً عند منطقة البترول قرب باكو . وقد تحدث عن هذا البترول المسعودى (سروج الذهب ، ٢/٢١) : « والروس انتهوا إلى ساحل النفاطة من مملكة شروان المعروفة ببّاگه » ، ولكن أبا حامد يفصل الأمر تفصيلاً طيباً : « وفى مقابلة هذه الجزيرة على جانب البحر أرض سوداء كالقير ينبت فيها الحشيش ، وفيها أنواع من الوحوش ، ويخرج من تلك الأرض السوداء القير والنفت الأبيض والأسود ، وهى قرية من باكوه من عمل

شروان ، ويظهر في الليل في تلك الأرض والجزيرة نار مثل نار الكبريت زرقاء ، تشتعل ولا تحرق الحشيش ولا حرارة لها ، وإذا نزل عليها المطر زادت واشتعلت وعلت ، يراها الناس من بعيد ، وليس لها في النهار أثر . . . » وهو كلام واضح عن البترول والغاز الطبيعي ، لولا ما فيه من القول بأن نار الغاز الطبيعي لا حرارة فيها وأنها تنطفئ في النهار ، والحقيقة أنها دائمة الاشتعال ، ولكن لها الأزرق لا يرى في ضوء الشمس .

ثم يصف نهر إتل (الفولجا) ويكرر الكثير مما قاله في المعرب ويضيف عجائب أخرى مثل السمكة الآدمية ، ووصفها عنده شبيه بوصف جنينة البحر في ألف ليلة .

وينتقل إلى الباب الرابع « في صفات الحفائر والقبور وما تضمنت من العظام إلى يوم البعث والنشور » (ص ١٢٠ وما بعدها) ، وهنا يعيد ذكر كهف لوشه Loza قرب غرناطة الذي وصفه في المعرب ، ثم يشير إلى عذاب الظالمين في قبورهم ، ويذكر على سبيل المثال حكاية واحد من الظالمين في بلدة غرناطة بنى لنفسه «قبراً من الرخام ذا قبة جميلة ، فتقطع ذلك الرخام واسودّ واحترق واسودت القبة من الدخان الذي يخرج من قبره حتى صارت كالأتون ، ولم يدفن أحدٌ بقربه ميتاً ، وكنت أذهب مع الناس إلى قبره للاعتبار ، ونأخذ من سواد دخان قبره كما يؤخذ من الأتون السواد ، وهذا عذاب ظاهر ، وأمثاله [في الدنيا] كثيرة » وهو يسمى هذا الظالم قراح ، وإذا كان ولا بد أن نصدق أبا حامد فلا بد أن نأسفاً أحرقوا قبر هذا الرجل بعد موته فصار القبر إلى هذه الصورة ، لأن قبور الظالمين لو كان يصيبها هذا حقاً لرأينا من هذا القبر ألواناً .

ويورد بعد ذلك أمثلة كثيرة من عجائب عذاب الظالمين في قبورهم منها واحد يدور على عذاب أبي جهل منسوب إلى عبد الله بن عمر ، وينتقل إلى عجائب القبور في مصر ، وهو باب أكثر مؤلفونا الكلام فيه ، ثم ينتقل إلى

« المغرب الأعلى قريب من القيروان » وهو يريد هنا ما يعرف بأفريقية ، وهي تونس فيذكر « قبر محرز المعلم » ، ثم يعود إلى مصر ، ومصر أم العجائب كما يقولون ، فيروى حكاية رجل يسمى عفان وقعت له قصة طريفة مع عبد زنجي له ، والحكاية طويلة ، وقد انتقلت برمتها إلى ألف ليلة . ثم يختم الكتاب « بحكايات عجبية في أمر أمير المؤمنين على بن أبي طالب وظهور قبره بعد الثلاثين وخمسة في ناحية بلخ » .

وقد أورد فيرّان بعد ذلك قطعة من « التحفة » وجدها في مخطوط الجزائر وليس لها وجود في مخطوطات باريس ، وهي تدور حول وصف القسطنطينية ، ومن الغريب أن أبا حامد يسميها رومية العظمى . وفي نهاية القطعة يتكلم عن باشغرد (يكتبها باشغورد) ويعيد كثيراً من الكلام الذي سبق أن ذكره في المغرب حرفاً بحرف تعريباً .

وفي هذه القطعة يمر بذكر الأندلس قائلاً : وما في جزيرة الأندلس أن ابن حازم ذكر في رسالته التي وضعها في وصفها وذكر خصائصها وطبائع أهلها أن أرضها شامية في طبيعتها ، تهامية في اعتدالها واستوائها ، أهوازية في عظم جبايتها ، عدنية في متافع سواحلها ، صينية في معادنها ، هندية في عطرها وزكائها ، وأهلها عرب في العزة والانفة وفصاحة الألسن وطيب النفوس وإباء الضيم وقلة احتمال الذل والنزاهة عن الخضوع ، هنديون في فرط عنايتهم بالعلوم وحبهم لها ، بغداديون في ظرافتهم ونطاقتهم ورقة أخلاقهم ونباهتهم ولطافة أذهانهم ودرّة أفكارهم ، نبطيون في استنباطهم المياه ومعاناتهم للخراسة وتركيب الشجر والفلاحة ، صينيون في اتقان الصناعة العملية وأحكام المهن الصورية ، تركيون في معاناة الحروب ومعالجة آلاتها والنظر في مهاتها^(١) .

وظاهر أن ابن حازم المذكور هنا هو ابن حزم ، لأنه هو الذى كتب الرسالة المعروفة فى فضل الأندلس ، ولكن نص الرسالة كما احتفظ به المقرئ لا يضم هذه العبارة ، وهذا طبيعى ، لأن هذه العبارة على الحقيقة لأبى عبيد البكرى ، ولكن نصها كما أورده المقرئ فى النسخ وابن عبد المنعم الحميرى فى الروض المعمار ، وكما قارنه لىفى بروفنسال بأصله فى القطع الباقية عن الأندلس من المسالك والممالك للبكرى^(١) لا يصل إلى كماله كما أورده أبو حامد النرناطى ، ولا يمكن القول بأنه أضاف إليه من عنده ، فأسلوب هذه القطعة أعلى بكثير من أسلوب أبى حامد ، ولا يبقى بعد ذلك إلا أحد فرضين : إما أن مخطوط المسالك والممالك مختصر للكتاب الأصيل بدلالة هذه القطعة الباقية ، وإما أن واحداً من الناس تناول نصه بالتحسين والتزيق ، وعلى هذه الصورة رآه أبو حامد ونقله ناسباً إياه إلى ابن حزم ، ولم يكن الرجل كما رأينا ذا ميل إلى الكتب ومطالعتها أو ذا معرفة بكلام ابن حزم ونص رسالته ، فأورد الكلام كما هو دون تدقيق كبير ، وهذا مثال واضح من طريقتة فى النقل عن الأصول وإيراد النصوص .

وينتقل بعد ذلك إلى عجائب بلد اسمه حمص فى ناحية كerman ثم إلى بلاد التبت فيقول إن من أقام فيها ، « اعتراه سرور لا يدرى ما سببه ، ولا يزال مبتسماً ضاحكاً حتى يخرج منها » .

وبعد أن يمر بعجائب كثيرة فى بلدان شتى يأتى بفصول قصار (ص ٢٠٧ وما يليها) تتضمن أحكاماً موجزة عن البلاد ، وهذه الأحكام أشبه بالحكم فالهند « بحرها دُرٌّ وجبلها ياقوت وشجرها عود وورقها عطر » وكرمان « ماؤها وشل وثمرها دقل »^(٢) وعودها بهل . . . وطريف منه قوله « والشام عروس بين نساء جلوس ، ومصر هواؤها راكد وحرها متزايد ، تطول الاعمار وتسود الأبشار » .

(١) فتح الطيب ، ١/ ١٢٥ ، الروض المعمار ، ص ٣

(٢) الدقل أردأ أنواع التمر (لسان العرب) .

ثم يقول : « فصل : ونذكر خصائص البلاد العملية ، فيقال حكماء يونان وأطباء جنديسابور وصاغة حران وحاكّة اليمن وكُتّاب السواد » ، ثم : « فصل : ونذكر خصائص البلاد في الأحجار ، فيقال فيروج (فيروز ؟) نيسابور وياقوت سرنديب ولؤلؤ عمان وزبرجد مصر وعقيق اليمن وجِزَع ظَفار ونجاد^(١) بلخ ومرهجان افريقية » ثم : « فصل : نذكر خصائص البلاد في الحيوانات ذوات السموم ، فيقال : أفاعى سجستان وثعابين مصر وعقارب شهرزور وحرارات الأهواز وبراغيث ارمينية وفار أرزن ونمل ميفارقين وذباب ندافان (يصححها فيران في الهامش تل فافان) و » فصل : ونذكر خصائص البلاد في الملابس ، فيقال برود اليمن وقُصْب مصر وديباج الروم وخز السوس وحرير الصين وأكسية فارس وحُلل اصبهان وسقلاطون بغداد وعمائم الأبله ومُسَيَّر الرّى ومُلَحَّم مِرو » وهذه الضروب من النسيج كلها واردة مشروحة في معجم الملابس العربية لدوزى . ويستطرد أبو حامد في هذه الفصول القصار التي تعتبر من أحسن ما في كتابه ، وكلها يُقول عن ناس يصرح باسمائهم حيناً ويعفلها حيناً آخر ، ويعطيل النقل عن الجاحظ دون أن يذكر من أى كتبه يأخذ .

هذا هو كتاب تحفة الألباب ، وهو كما يرى خليط عجيب من المفيد وغير المفيد ، من الواقعي والاسطوري ، مما يدخل في نطاق العلم وما يدخل في نطاق علم العوام والقصص الشعبي ، ولكنه في مجموعه كتاب كوزموجرافية ، أى تصوير لعجائب الكون والأرض بصفة خاصة . وهذه هى الصورة التي أعطاها أبو حامد لعلم الجغرافية ، وهو نفسه لم يدرك أنه يكتب في هذا العلم ولا ذكر اسمه مرة واحدة ، ولكنه صاغ مادة كان يمكن أن تكون جغرافية في هذا الأسلوب ، ووضع بذلك نموذجاً سيحتذيه الكثيرون بعده مثل « تلخيص الآثار وعجائب

(١) صحته البجاذى أو البيجاذى وهو حجر كريم كان معروفاً في المصور الوسطى . انظر تعليق

الواحد القهار» للباقوى ، و «نُجْبة الدهر في عجائب البر والبحر» لمؤلف مجهول و «كتاب جامع الفنون وسلوة الحزون» لمجهول أيضاً ، و «خريدة العجائب وفريدة الغرائب» لابن الوردى ، و «نزهة القلوب» لمحمد الله المستوفى و «المستطرف من كل فن مستظرف» للابشيهى ، وأحسن هذه الكتب جميعاً هما «عجائب المخلوقات» و «آثار البلاد» لـ زكريا بن محمد بن محمود القزوينى ثم «حياة الحيوان الكبرى» للدميرى .

وهذه كلها (فيما عدا الثلاثة الأخيرة) كتبت للتسلية لا للعلم ، فكل ما فيها من أدب وتاريخ وجغرافية لم ينظر فيه إلا لجانب الطرافة والعجب ، والقطع الجغرافية فيها عجائبية الطابع ، وهى تعطينا فكرة عن تصور الناس للجغرافية في عصور الاضمحلال ، وإذا كان الجغرافيون الأول قد كتبوا في «صورة الأرض» فإن الغالب ابتداءً من أيام أبى حامد ومن سار على طريقته هو «تصور الأرض» ، تصوُّرها في هيئة أعاجيب وغرائب ، وهذا التصور ناتج من غلبة الجهل وهبوط الهم وقلة التطلع ، وهو قائم على الخوف من الشرور الكثيرة التى امتلأت بها الأرض فى تصور أهل عصور أخذ الركود يخيم عليها شيئاً فشيئاً ، ويستثنى من ذلك أولئك الأفذاذ الذين أشرنا إلى بعضهم ، أولئك الذين خرجوا على نطاق عصورهم وحافظوا على شعلة العلم والنور والحضارة والدنيا من حولهم ظلام .

ونضيف إلى هذا الكلام عن أبى حامد حُكماً عاماً أصدره عليه آخر من درسوه قبلنا وهو سيزار دوبلر ، فقد قال فى آخر مقدمته الضافية للقطعة التى نشرها «من العرب فى عجائب المغرب» : «وسنختم هذا الكلام بمقارنة ، ونسأل : ما هى الغاية من كتاب أبى حامد ؟ إن المؤلف ليس علامة ولا يقول إنه علامة ، ومن هنا فانه لا يرمى إلى هدف تعليمى ، والأمر الوحيد الذى طلبه هو تسلية جمهوره ، ومن هنا جاء اهتمامه الدائم بتقديم استطراد

بعد آخر ليزمى بحشد مجموعته المتنوع اللطيف من الحكايات والأقاصيص . ولكن ألم يكن هذا الهدف الرئيسى نفسه هو الذى رعى إليه هيرودوت بأساليب مشابهة قبل أبى حامد بخمسة عشر قرناً ؟ ^(١) .

« فإن مؤلف هاليكارناسوس ^(٢) لا يَنْفَكُ يُدْخِلُ فى صلب كتابه حكايات معترضة لا تزال تستثير اهتمام مطالعه إلى الآن بسبب ما تضمه من الفائدة الواقعية . لقد اشتهر الرجل أكثر بأوصافه الأثنولوجية ، ولكن هناك نقطة من كتابه تنهى عندها هذه الحكايات المعترضة ، وذلك عند ما يستبد به الحماس الوطنى وهو يقص أخبار حروب اليونان والفرس . وهذه الفقرات التى تدور حول تلك الحروب وما تضمنه كتابه من اشارات اثنوجرافية تفيض بالحقائق ، هذان العنصران هما الذان جعلتا الناس يلقبونه بعد موته بأبى التاريخ . ولكن هيرودوت رغم كل الحقائق الكبيرة التى يعرضها لم يكن هدفه التعليم أو إنارة الحماس ، إنما كان هدفه الأخير هو امتناع جمهوره فترة من الزمن . وهيرودوت لم يكن إلا القصص الشرقى فى ملابس اغريقية ، إذ أنه فى عصره كما كان الحال فى أيام أبى حامد بلغ هذا التصوير الساذج لروحية الشعب درجة أدبية رفيعة المستوى » .

« ودون أن نحاول — بصورة عامة — أن نقارن هيرودوت بصاحبه المسلم الذى عاش فى القرن الثانى عشر ، نقول إنه ليس من العسير أن نلاحظ بين الاثنين وجوهاً ظاهرة من الشبه : كلاهما ضمّن كتاباته فقرات ذات قيمة تقريرية كبيرة لا تنكر ، وكلاهما لجأ إلى الاستطرادات كوسيلة أسلوبية ، وكلاهما يستحوذ على اهتمام جمهوره بمهارة القصص الشرقى المعروفة فى كل العصور . وهناك أكثر من ذلك ، فإن كلام هيرودوت عن صور الحكم (٨٠/٣ وما يليها)

Dubler, *Abū Hāmid*, p. 140. (١)

(٢) المراد هنا هيرودوت .

— الذى ينتهى بمناقشة حامية حقيقية — مشهور بما ينطوى عليه من روح هيلينى خالص ، ولكنه مشهور أيضاً بما فيه من تشويق بسبب تلك الصورة الأدبية الجديدة ذات الطعم الشرقى الذى يتضمنها . وكان هيرودوت أول من استعمل هذا الأسلوب فى العالم القديم ، ثم أعقبه فى ذلك مقلدون كثيرون من أمثال توكيديد وبوليبيوس وتاكيثوس وغيرهم من المؤرخين اللاتين ، وهذه الطريقة نفسها يستخدمها أبو حامد عندما يروى محادثته مع ملك الجر ، ولن نناقش الآن ما إذا كانت هذه المحادثة حقيقية أم لم تكن ، ولكننا سننظر إليها كما هى : مناقشات مع ملوك فى موضوع الدين ، وهذه المناقشات كثيرة فى الأدب الشرقى فى العصور الوسطى ، وخاصة فى مجال التحدث بفضائل عقيدة المؤلف . وإذا كانت مسألة صورة الحكومة أو نظام الحكم مهمة بالنسبة لهيرودوت فقد كان لمسائل الدين نفس الأهمية فى العصور الوسطى ، وأبو حامد — وهو رجل عارف باهتمامات عصره — يلجأ إلى نفس الطريقة الأسلوبية ، وهى طريقة الحديث مع ملك فى الموضوع الذى يهم قراءه .

« ولكن هيرودوت لم يستطع أن يتخطى عصره ونطاق ثقافته ، وكتابه الرئيسى لا يستطيع ولا يصل إلى تحقيق ما أراد منه . ولقد تمسك اليونان القدماء بحقهم فى كتابه ، وأصبح هذا الكتاب الملى بالاستطرادات — والذى لم يكن يرمى من ورائه إلا لتسليية سامعيه — جزءاً من التراث القومى الهيلينى . أما أبو حامد ، وهو رجل دقيق الملاحظة ، فقد فهم عقلية جمهوره على صورة أحسن مما وفق إليه هيرودوت ، وأصبحت كتاباته فى نطاق الأدب العربى طليعة لغيرها ، وقدمت للناس شيئاً من تفاصيل حكايات ألف ليلة ، وهذه الحكايات كانت خلال العصور الوسطى المساهمة الأساسية التى قدمها الفكر الإسلامى للأدب العالمى^(١) » .

وقد أفرد اغناطيوس يوليانوفتش كراتشكوفسكى لأبى حامد فقرات طويلة من كتابه الجامع « تاريخ الأدب الجغرافى العربى » استقصى فيها كل ما كتب عنه منذ أيام دِرْبلو d'Herbelot ، ولكنه لم يقرأ دراسة دوبلر ، لأنها ظهرت بعد وفاته بسنتين ، ولهذا نجده يقول أن مادة أبى حامد عما زار من البلاد الأورو-أسيوية تنتظر بحثاً خاصاً .

وختم كراتشكوفسكى كلامه عن أبى حامد بعبارة غاية فى الأهمية نسوقها فيما يلى كما وردت فى الترجمة العربية البديعة التى قام بها الأستاذ صلاح الدين عثمان هاشم^(١) :

« ومن المستحيل تجاهل الغرناطى فى تاريخ الأدب الجغرافى ، فهو قد اكتسب شهرة عريضة لدى جمهرة القراء ، لأن المهج الذى ابتدعه فى الجمع بين معطيات واقعية دقيقة وضروب من العجائب مختلفة فى وحدة كوزموغرافية قد راق كثيراً للأجيال التالية . وقد اتسعت قراءة مصنفه واستنساخه بصورة ملحوظة ، كما حفظ لنا شذرات كبيرة منه كوزموغرافى القرن الثالث عشر القزوينى واستعمله كل من ابن الوردى وابن إياس فى بداية القرن السادس عشر ، ولم يقف عدد من نقلوا عنه عند حد الجغرافيين وحدهم بل تعداه إلى غيرهم ، فرجع إليه عالم الحيوان الأديب الدميرى (القرن الخامس عشر) وصاحب المجموعة الأدمية الذائعة الصيت الأبيشيهى فى القرن الخامس عشر . وقد نحن أبو حامد تخميناً صحيحاً حاجة الأجيال القادمة إلى هذا الضرب من المؤلفات ، فنذ ذلك الحين أصبح نمط الكوزموغرافيا بما يلزمه من عنصر الغرائب محبباً إلى الطبقات الشعبية بشكل خاص ، وليس فى مقدورنا بطبيعة الحال أن نعتبر هذا النمط خطوة تقدمية فى ميدان العلم ، اللهم إلا إذا استثنينا نقاطاً معينة فيه » .

(١) اغناطيوس يوليانوفتش كراتشكوفسكى « تاريخ الأدب الجغرافى العربى » ترجمه من اللغة الروسية إلى العربية الأستاذ صلاح الدين عثمان هاشم ، القسم الأول ، القاهرة ١٩٦٣ ، ص ٢٩٤ — ٢٩٧ ، ومن أسف أن هذا الكتاب القيم فى ترجمته العربية الرفيعة لم يصل إلى لآ أثناء الكتابة عن أبى حامد الغرناطى .

كتاب « الجغرافية » المنسوب إلى محمد بن أبي بكر الزهرى

وكتابات أبي حامد تؤدي بنا إلى الكلام على كتاب في « الجغرافية »
شبيه بها فيما تورد من حديث العجائب ، بل هو يفرق فيها إلى درجة تصل
بنا إلى القصص الأسطورية الموغل في الغرابة الذى نجده في ألف ليلة ، وينفرد
هذا الكتاب عن غيره من كتب الجغرافية بميزات تجعل له مكاناً فريداً في
ذلك البحث الذى نتولاه ، وهو كتاب « الجغرافية » المنسوب إلى محمد بن
أبي بكر الزهرى .

ولا نملك أى معلومات ذات قيمة عن الزهرى هذا . بل إن اسمه غير
وارد فى أى من مخطوطاته الكثيرة ، ولهذا ظل الكتاب معروفاً إلى حين
قريب باسم « مخطوط المزيه المجهول المؤلف El Anónimo de Almería » ثم
استطعنا بعد ذلك نسبته إلى الزهرى عن طريق بعض النقول التى أوردها
المقرئ عنه فى نفح الطيب ، ولم نجد لهذا المؤلف ذكراً فى كتب التراجم
والتاريخ التى بين أيدينا ، وكل ما نعلم هو أنه كان حياً قبيل سنة ٥٤٥ /
١١٥٠ - ١١٥١ وهى السنة التى هُدمت فيها منبارة قانس المعروفة فى كتبنا
باسم صنم قانس ، فإن محمد بن أبي بكر الزهرى يقول إنه رآها قبل هدمها ،
ثم حدثه بعض معارفه بخبر هذا الهدم ووصفه له ، ومعنى هذا أنه من أهل
النصف الأول من القرن الخامس الهجرى ، وأنه كان معاصراً للادريسي وأبي
حامد الغرناطى وابن بشكوال ، ولا نعرف عنه غير ذلك . وقد تناول النُساخ
مخطوطاته بالزيادة فى مواضع كثيرة ، فأضافوا عبارة « أعادها الله للإسلام »
عند ذكر بلاد سقطت فى القرن السابع الهجرى ، وأضافوا كذلك ملاحظات
ترجع إلى عصور متأخرة ، وهذا هو الذى جعل ميكيلى أمارى يظن أن
الكتاب ألف فى القرن الثامن أو التاسع الهجريين .

والمشاكل المتعلقة بهذا الكتاب ومؤلفه كثيرة ، ولم نستطع رغم البحث الطويل الوصول إلى حلول مقبولة للكثير منها . وأولى هذه المشاكل هي الاختلاف الكبير بين نصوص ما لدينا من مخطوطاته ، ففي بعضها فقرات لا توجد في البعض الآخر ، وقد يختلف السياق بينها كذلك ، أما الاختلاف في رسم الاعلام الجغرافية وغير الجغرافية فلا يكاد يسلم منه إلا عدد قليل جداً منها .

وثانية هذه المشاكل هي طبيعة الكتاب نفسه كما يشرحها مؤلفه في فاتحته ، فهو يقول : « قال مؤلف هذه الصفوة : أما بعد حمد الله تعالى ، فقد نسخت هذه الجغرافية^(١) من جغرافية نسخت عن جغرافية القرازي (في نسخ أخرى القمارى والفزارى) التى نسخت من جغرافية أمير المؤمنين عبد الله المأمون بن هارون الرشيد ، التى اجتمع على عملها سبعون رجلاً من فلاسفة العراق ، وضعوا هذه الجغرافية في صفة الأرض (نسخ أخرى : في صفة صورة الأرض) ... » ، ومعنى هذا :

- ١ — أن المؤلف الذى بين أيدينا « صفوة » أى مختصر .
- ٢ — أن المؤلف نسخ هذا المختصر الجغرافى من كتاب جغرافى نسخ بدوره عن مؤلف آخر لرجل اسمه القرازي أو الفزارى أو القمارى .
- ٣ — وأن هذا الأخير نسخ جغرافيته عن جغرافية وضعها للمأمون سبعون عالماً من فلاسفة العراق .

وإذن فأصل هذه الجغرافية يرجع آخر الأمر — على قول المؤلف — إلى جغرافية عملها للمأمون نفر من العلماء كما يزعم ، ولسنا نجد في أى مرجع من مراجعنا إشارة إلى أن شيئاً مثل هذا صنع للمأمون ، لأن الذى صنع هو الزيج المتحن ، والزيج ليس جغرافية وإنما هو جدول رياضى يبنى عليه الحساب

(١) هكذا ورد رسم هذا اللفظ بالعين المهملة في كل مخطوطاته ، وسنعلق على ذلك فيما بعد .

الفلكي والرياضي لأطوال المواقع وعروضها^(١)، وحساب ما يقابل كل درجة من درجات دائرة الفلك بالأميال، والزيج المتحن هو الجدول المختبر أو المحقق الذي أمر الخليفة المأمون (١٩٨ — ٢١٨/٨١٣ — ٨٣٣) بعمله ليتحقق من صحة وقوع كل بلد من البلاد على العرض والطول الوارد في الكتب، ولكي يضبط مقدار ما يقابل كل درجة من المساحة الأرضية بالأميال، وقد وصف لنا علي بن يونس المصري الطريقة التي اتبعها الفلكيون في هذا العمل بتدقيق كبير، في حين أن ابن خلكان عندما تعرض للزيج المتحن في ترجمة محمد بن موسى ابن شاعر الرياضي وقع في أخطاء جسيمة بينها كارلو نالينو بتفصيل كبير في كتابه عن علم الفلك عند العرب^(٢). وإذا نحن تأملنا طريقة عمل هذا الزيج كما وصفها علي بن يونس والنتيجة التي أدى إليها تبين أن الزيج المتحن كان في الحقيقة جدولاً بالأطوال والعروض وما يقابل كلا منها من بروج الفلك وما يقع على كل منها من البلاد وتقدير المسافات بين هذه البلاد بعضها ببعض اعتماداً على الأرصاد الفلكية وما يقابل قياساتها من مسافات على الأرض.

فإذا نحن تأملنا كتاباً مثل «صورة الأرض من المدن والجبال والبحار والجزائر والأنهار الذي استخرجه أبو جعفر محمد بن موسى الخوارزمي من كتاب

(١) جاء في كتاب «علم الفلك» تاريخه عند العرب في القرون الوسطى تأليف كارلو نالينو (طبع بالعربية في روما سنة ١٩١٩ وأعدت نشره مكتبة المثنى في بغداد سنة ١٩٦٣، ص ٤٢): «ولفظ زيج أصله من اللغة البهلوية التي كان الفرس يستخدمونها في زمن الملوك الساسانيين، وفي هذه اللغة «زكة» معناه السدى الذي ينسج فيه لحة النسيج، ثم أطلقت الفرس هذا الاسم على الجداول العددية لمحاكاة خطوطها الرأسية بخيوط السدئ — فهذه الكتب تشتمل على جميع الجداول الرياضية التي يبني عليها كل حساب فلكي، مع إضافة قوانين عملها واستعمالها مجردة في الأغلب عن الرايين الهندسية — ومنها الزيج الصابي لحميد بن جابر بن سنان البتاني المطبوع برومة في ثلاثة أجزاء وكتب أخرى عديدة.

(٢) أورد كارلو نالينو في كتابه المذكور في التعليق السابق أوف نصين باقين لدينا عن الطريقة التي اتبعها الفلكيون الذين عهد إليهم المأمون في عمل ذلك القياس الدقيق، وأولها وارد في كتاب الزيج الحاكمي الكبير لابن يونس المصري المتوفى سنة ٣٩٩/١٠٠٩ (نسخة خطية في مكتبة لايدن رقم ١٠٥٧ من فهرست مخطوطات هذه المكتبة، ج ٣ ص ٨٨) والثاني وارد في وفيات الأعيان لابن خلكان (ترجمة رقم ٧١٨ من طبعة جوتنجن).

جغرافيا الذي ألفه بطليموس القلوزي^(١) « تبيننا أنه جدول من هذا الطراز يبدو للناظر غير الخبير بمؤلفات العرب في علوم الأرائل أو ترجماتهم لها أنه زيج لا جغرافية ؛ وفي مراجعنا خلط كثير بين مفهومى الزيج والجغرافية ، ومثال ذلك ما نجده في القطعة الباقية لنا من زيج الفزارى كما أوردها المسعودى في سروج الذهب ، قال : « .. فرأينا أن نختم هذا الباب بجوامع من مساحة مسافات الممالك وما بينها من القرب والبعد على حسب ما رواه الفزارى صاحب كتاب الزيج والقصيدة في هيات^(٢) النجوم والفلك وبالله القوة : زعم الفزارى أن عمل أمير المؤمنين من فرغانة وأقصى خراسان إلى طنجة بالمغرب ٣٧٠٠ فرسخ ومن باب الأبواب إلى جدة ٦٠٠ فرسخ ، ومن الباب إلى بغداد ٣٠٠ فرسخ ، ومن مكة إلى جدة ٣٢ ميلا . عمل الصين في المشرق ٣١٠٠٠ فرسخ في ١١٠٠٠ فرسخ . عمل الهند في المشرق ١١٠٠٠ فرسخ في ٧٠٠٠ فرسخ . عمل تبت ٥٠٠ فرسخ في ٢٣٠ فرسخا^(٣) ... الخ » فهذه تحديدات جغرافية لا جداول فلكية ، وإذا كانت بقية زيج الفزارى^(٤) على هذه الصورة ، فهو

(١) لشر هذا الكتاب هانز فون مزيك في لايبسك سنة ١٩٢٦ وأعيد طبعه سنة ١٩٦٢ بطريقة الأوفسيت في مطبعة الرابطة في بغداد سنة ١٩٦٢ ، ومن حسن الحظ أن الذين أعادوا الطبع نصحوا المقدمة الألمانية كما هي ، فنس الكتاب لا يفهم بدونها ، ويتضح من قراءة هذه المقدمة أسباب الأخطاء التي وقعت في هذا الكتاب أثناء عمليات النسخ المتوالية ، فإن درجات الطول والعرض واردة فيه بالحروف لا بالأرقام ، ولكل حرف قيمته العددية ، فيكفى أن يصحف الناسخ حرف الحاء إلى حرف الجيم أو حرف اللام إلى حرف الكاف حتى تختلف القيمة العددية .

(٢) كذا في الأصل كما نشره باربييه دى مينار في باريس سنة ١٩١٤ ج ٤ ص ٣٧ وما يليها وربما كانت صحته حياة أو هيات النجوم .

(٣) سروج الذهب للمسعودى ، بتحقيق باربييه دى مينار ، ج ٤ ص ٣٧ وما يليها .

(٤) هناك خلاف في حقيقة اسمه : إبراهيم بن حبيب أو إبراهيم بن محمد ، وذهب القفطى في أخبار الحكماء إلى أنها رجلان ، وأثبت كارلو نالينو أنها رجل واحد وقع التصحيف في اسمه (علم الفلك ، ص ١٥٦ وما يليها) والغالب أن الفزارى عاش أيام المنصور ، ولكن الفقرة التي نقلها المسعودى عنه تشير إلى أشياء وقعت في أيام هاروت الرشيد وما بعده بقليل ، كماشارته إلى « عمل لأدريس الفاطمى » وقد بدأ حكم الأدارسة في المغرب الأقصى سنة ١٧٢/٧٨٩ ، فيجتمل أن يكون المسعودى قد أكل النس من مراجع أخرى .

في الحقيقة جغرافية لا زيج ، والحق أن الخط الفاصل بين الزيجات (وهي التقاويم الفلكية) وكتب الجغرافية الأولى التي اتبعت منهاج الفرس واليونان (وهي تقاويم البلدان) لم يتضح إلا للقليل من أهل العلم في عصورنا الماضية ، وفي هذا يقول ج. ه. كرامرز في مادة « جغرافية » في ملحق الطبعة الأولى من دائرة المعارف الإسلامية (ص ٦٨) : « وأخيراً ، فإن مصطلح الزيج الذي كان يطلق على الجداول الفلكية والجداول الجغرافية التي تتضمن الأطوال والعروض ، يمكن أن يعتبر أثراً من آثار ذلك العلم الفارسي الإيراني (في تاريخ العلم عند العرب^(١)) . ومن رأى كرامرز أن كتاب صورة الأرض للخوارزمي زيج على الحقيقة ، ومعظم أجزائه يبدو في صورة جدول أو زيج ، لأن الخوارزمي كان فلكياً ، وكتابه ليس ترجمة حرفية لكتاب بطليموس المسمى Γεωγραφικὴ ὑφήγησις (المرشد إلى صورة الأرض) وإنما تضمنين للمادة البطلمية في صورة جداول تتخللها معلومات جغرافية عن البلاد الإسلامية

وهذا الخلط بين مفهوم الزيج والجغرافية ناشئ عن ارتباط موضوعي الفلك والجغرافية عند المسلمين في أوائل اشتغالهم بالعلم الجغرافي ، وهو ناتج أيضاً عن أخذ الكثيرين منهم بآراء الهنود والفرس في علم الفلك^(٢) وعن الخلط بين موضوعي كتابي بطليموس في الفلك (المجسطي)^(٣) وفي الجغرافية (أشرنا إليه مراراً) .

(١) يشير كرامرز هنا إلى القطعة الباقية لنا من زيج الفزارى التي ذكرناها آفا .

(٢) انظر عن ذلك كتاب نفيس أحمد ، جهود المسلمين في الجغرافية (ترجمة فتحى عثمان) الفصل الرابع ، ص ١٤٤ وما بعدها .

(٣) المجسطي اسم ابتكره علماء العرب لكتاب بطليموس الرئيسي في الفلك ، وقد شكله حاجي خليفة في كشف الظنون المجسطي ، وقال انه لفظ يوناني معناه الترتيب « أصله ماجستوس ، لفظ يوناني مذكر ومؤنثه ماجستي » ثم قال : « وأما المجسطي فنسبناه « الأعظم » في لغتهم . هكذا قرأته في كتاب أمبروز كالينو (يريد Ambrsioius Calpinus) أما البيروني فيشير إليه باسم سينطاسيس ، ويفسر هذا بأنه « الفكر في ترتيب المقدمات » ، والبيروني هنا أدق ، لأن اسم الكتاب الأصلي μετὰ τὰς μαθηματικῶν σύνταξις (الجامع الرياضي الكبير) ولم يرد =

من هنا يغلب على ظننا أن جغرافية المأمون التى يشير إليها الزهرى فى فاتحة كتابه يقصد بها «الزيج الممتحن» الذى عُمل للمأمون ، إذ ظنه صاحب هذه «الصفوة» (الموجز) كتابَ جغرافية . أما قوله أنه نسخ هذه الجغرافية من جغرافية نسخت من جغرافية القزارى (أو القرازى أو القمارى) التى نسخت من جغرافية أمير المؤمنين المأمون ، ففيه خلط كثير ، إذ أننا لا نسمع عن جغرافى أو فلكى يسمى القزارى أو القمارى بعد المأمون أو فى أيامه ، فلم يبق إلا القزارى الذى ذكرناه ، وقد عاش قبل عصر المأمون فلا يتأتى أن ينقل عن شىء صنع له .

ولكننا سنرى أن النص الذى بين أيدينا لا يمكن أن يكون منقولاً عن زيج أو كتاب من كتب الجغرافية الأولى التى كان العرب يؤلفونها فى عصر المأمون أو قبله ، بل هو لا يمكن أن يكون منقولاً عن كتاب واحد وضع فى زمان معين ، وإنما هو أشتات متفرقة بعضها متقدم وبعضها متأخر ، بعضها علم وبعضها حديث خرافة ، بعضها طريف وبعضها لا قيمة له ، وربما يكون السبب فى هذا التصنيف الهجين أن هذا النص سرح لخريطة جغرافية كما هو الحال فى سلسلة كتب أطلس الاسلام ، أو أن هذا النص قام أساساً على المعلومات الجغرافية والفلكية الموجزة التى توجد فى المؤلفات الجغرافية العربية المترجمة الأولى ، ثم أضيفت إليه معلومات وتفصيلات أخرى من أصول وطبائع شتى .

== الكتاب فى أى نسخة من نسخته اليونانية باسم *μειστη* وذهب كارلو نالينو إلى أن العرب نحتوا اسم المجسطى من الاسم الأصلى للكتاب (علم الفلك عند العرب ، ص ٢٢٢-٢٢٣) والمهم لدينا أن ذلك الاسم الذى ابتكره العرب لازم الكتاب عندما ترجم إلى اللاتينية ثم إلى اللغات الأوروبية فعرف باسم *Almagest* . وهذا الكتاب يتألف من ثلاث عشرة مقالة معظم موضوعاتها داخل فى نطاق المفهوم الإغريقى للجغرافية مثل : البرهان على كروية السماء والأرض ؛ وثبوت الأرض فى مركز العالم ؛ وميل فلك البروج ، واختلاف عروض البلدان ، وما إلى ذلك (راجع التفصيل فى كتاب الفلك عند العرب ، ص ٢٢١ وما يليها) ومن هنا جاء الارتباط الوثيق بين الفلك والجغرافية عند معظم الجغرافيين فى العصور الوسطى .

أما لفظ «نَسَخَ» الذى يستعمله صاحب المخطوط فلا يمكن أن ينصب إلا على هذه الخريطة ، لأن قِطْعاً منه من كلام الزهرى نفسه ، وقطعاً أخرى ترجع إلى فترات قريبة من عصره ، فلا يمكن لهذا أن يكون منسوخاً بالتواتر سرات كثيرة حتى يرجع إلى عصر المأمون أو قبله . وسنرى من دراستنا لطبيعة الكتاب والفرض الذى رعى إليه مؤلفه أن الخريطة كانت الجزء الأساسي فيه ، ولهذا فقد كان لابد لهذا المؤلف من أن يجمع مادة عن كل ناحية وردت فيها ، ويضيف إلى ذلك ما كان لابد منه من مادة عجائبية تشوق القراء وتكون من أسباب رواج كتابه وتداوله بين الناس .

وربما استطعنا أن نقول إن هذه الإضافات من عمل ناس آخرين غير المؤلف الأول : أضاف كل منهم إلى مادة الكتاب ما أراد حتى وصل إلى الصورة الهجينة التى نجده عليها ، وقد ترمى إلى نفسى الشك فى وقت من الاوقات فى أن يكون اسم المؤلف مُكَلَّفًا ، لأن له طابع الأسماء المصطنعة التى توضع على بعض الكتب لجرد نسبتها إلى شخص خالص العروبة ، يوحى جرس اسمه بأنه من العلماء الأجلاء ، وهذا مجرد ظن على أى حال .

والعبارة التى تأتى بعد ذلك فى خطبة الكتاب عظيمة الأهمية ، قال بعد ذكر الجغرافية التى وضعها «سبعون من فلاسفة العراق» للمأمون : «وضعوا هذه الجغرافية على صفة الأرض (فى نسخ أخرى : على صفة صورة الأرض) ، فإن قال قائل : هى على غير الحقيقة ، فالجواب على ذلك أن الأرض كُرِّيَّة والجغرافية بسيطة ، ولكن وضعوها كما وضعوا الاسطرلاب وهيئات الكسوف ، وكذلك بسطوا الجغرافية ليعلم الناظر بذلك أجزاءها وحدودها وأقاليمها وجميع بحارها وأنهارها وجميع بلادها ومعمورها وقفارها وحيث تقع كل مدينة من مدائنها فى مشرقها ومغربها ، وفى جميع أجزائها وأصقاعها ، وينتظر الناظر مكان أعاجيبها ، وما فى كل جزء منها من الأعاجيب المشهورة فيها والمباني الموصوفة بالقلام (كذا فى الأصل ، وربما كانت صحتها بالكلام أو بالقدم) فى أقطارها ،

إذ اشتملت هذه الجغرافية على جميع أقطار الأرض وما فيها من الخلائق على صفاتها وصورتها وألوانها وأخلاقها وما يأكلون وما يشربون في جميع بلادهم من الحبوب والفواكه ، واختلاف أرزاقها ، وما في كل صقع منها مما ليس في غيره من جميع الأرزاق ، وما يجلب لكل صقع منها من التحف والطرف والطيب والعطر والأمتاع والسلع مما في البر والبحر ، وما في جميع أقطار الأرض من الحيوان المذكور المشهور بالخواص والأعاجيب والسموم القاتلات والممانع لذلك ، وما في برها وبحرها على ما وصفه الحكماء المتقدمون والفلاسفة الماضون ، مع ما ذكرت في هذه الجغرافية من مساحة الأرض وطولها وعرضها ، وما قالت الفلاسفة في تكسيرها وعدّ فراسخها وأميالها ، وما في كل جزء من ذلك ، والله أعلم بحقيقة ذلك ، وهو المعين والموفق للصواب ، لا رب غيره ولا معبود سواه .

وقبل أن نناقش هذه العبارة التي تتضمن منهج الكتاب وغايته نلاحظ ما يلي : ان المؤلف يستعمل لفظ جغرافية في معنى صورة الأرض أى خريطة الدنيا كما تقول اليوم ، ويذهب الباحث الايطالى جريفيى — فى دراسة سنعرض لها بعد قليل — إلى أن هذا الاستعمال خاص بأهل الغرب الإسلامى دون المشاركة ، فان هؤلاء يقولون « جغرافيا » دون اداة التعريف ، وهم يعنون بذلك كتاب بطليموس ، ومثال ذلك ما يقوله الخوارزمى من أنه استخراج كتاب صورة الأرض من « كتاب جغرافيا الذى ألفه بطليموس القلوذى » ، فلفظ جغرافيا هنا هو عنوان كتاب بطليموس ، كما يقال كتاب الجسطى ، ومن أمثلة استعمال اللفظ على هذه الصورة فى المشرق قول المسعودى : « وقد ذكر الفيلسوف فى الكتاب المعروف بجغرافيا صفة الدنيا ومدنها وجبالها . . . » و « وذكر فى جغرافيا أن ابتداء بحر مصر والروم من بحر الأصنام ، أصنام النحاس . . . » و « وهذه البحار كلها مصورة فى كتاب جغرافيا بأنواع من الأصباغ مختلفة المقادير والصور . . . »^(١) ،

(١) هذه الأمثلة واردة فى مروج الذهب ، طبعة أوروبا ، ج ١ ص ١٨٣ - ١٨٥ ، ويجد أمثلة مشابهة فى كتاب التنبيه والإشراف للمسعودى أيضاً ، ص ١٣ و ١٢٧ و ١٢٩

ثم تطور استعمال اللفظ بعد ذلك ، فنقرأ في رسائل اخوان الصفاء : « الرسالة الرابعة في جغرافيا ، يعنى صورة الأرض والأقاليم ، من رسائل اخوان الصفاء صان الله اقدارهم^(١) » أى أنه أصبح يدل على وصف صورة الأرض ، ولكنه ظل يُستعمل دون أداة التعريف . وعند الإدريسي — وهو معاصر للزهرى — نجد اللفظ مستعملا مع أداة التعريف ، فهو يقول : « الكلام على صورة الأرض المسماة بالجغرافيا كما سماها بطليموس ووصفها به » ، أى أن لفظ « جغرافيا » عنده يدل على صورة الأرض ، أى خريطة الدنيا ، ووصفها . أما ياقوت فيقول : « ... فأما مَنْ قصد ذكر العمران فجماعة وافرة منهم من القدماء والفلاسفة والحكماء أفلاطون وفيثاغورس وبطليموس وغيرهم كثير من هذه الطبقة ، وسموا كتبهم في ذلك جغرافيا ، سمعت من يقوله بالغين المعجمة والمهملة ، ومعناه صورة الأرض ، وقد وقت لهم منها على تصانيف عدة جهلت أكثر الأماكن التى ذكرت فيها وأبهم علينا أمرها لتطاول الزمان فلا تُعرف^(٢) » ، وغريب أن نجد ياقوت بعد ذلك لا يذكر كتاب جغرافيا لبطليموس ، بل يذكر الجسطى فحسب ، وكلامه عن الرجل نفسه مضطرب ، وهو ينسب إليه أعمالا تنسب إلى اراتستينز^(٣) . ولا ذكر للفظ جغرافيا في كتاب مفاتيح العلوم للخوارزمي^(٤) . أما ابن خلدون فيستعمل اللفظ مرة كاسم لكتاب بطليموس ومرة أخرى بمعنى خريطة الدنيا .

(١) رسائل اخوان الصفاء (القااهرة ١٨٨١) ، ص ٩٢

(٢) ياقوت ، معجم البلدان (طبعة الخانجي) : ٧/١

(٣) نفس المصدر : ١٦/١ — ١٧ ، وانظر الترجمة الانجليزية للفصول التمهيدية من معجم البلدان التى قام بها وديم جويده ، وقد أشرنا إليها في تعليقاتنا ، ص ٢١ — ٢٦ والحواشي .

(٤) محمد بن أحمد بن يوسف الخوارزمي الكاتب : مفاتيح العلوم ، القااهرة ١٣٤٢ ، راجع الفصل الثانى من الباب السادس (س ١٢٥ — ١٣٠) : « في ذكر الافلاك وتركيبها وأحوال الكواكب فيها وهيئة الأرض وأقاليمها » .

ومعظم مؤلفينا يكتبون جغرافيا بفتح الجيم أو كسرهما وأقلهم بضمها ، وهذه الصور كلها مقبولة لأن لفظ γεωγραφία اليونانى يمكن أن ينطق بضم الجيم وفتحها وكسرهما أيضاً ، وقال كارلو نالينو في كتاب =

واستعمال لفظ جغرافيا للدلالة على خريطة الدنيا (صورة الأرض) أو الخريطة مع وصفها يعيننا على تفسير السطور الأولى من خطبة كتاب الزمى وتعرف طبيعته ، فهو يقول إنه نسخ جغرافيته عن جغرافية نسخت عن جغرافية الفزارى التى نسخت بدورها من جغرافية (كذا) المأمون . فالكلام هنا يدور حول صورة الأرض — أى خريطةها — التى رسمها ، وقد حرص على إبراز إسنادها لكى يعلم القارئ أنها منقولة بالتواتر عن أصول موثوق فيها ، وقد خافه التوفيق فى ذلك رغم حسن نيته ، فإن علماء المأمون لم يرسموا له خريطة ، والفزارى عاش قبل المأمون ، أى أن الخريطة التى وصلت مع إسنادها إلى الزمى كانت خريطة وضعها أحدهم ونسبها إلى علماء المأمون ، ثم نقلت عنها خريطة نسبت إلى الفزارى ، وعن هذه نسخت أخرى ، وهذه الأخيرة هى التى نسخها الزمى . ومن أسف أن خريطة الزمى ضاعت ، ولكن العبارة تدل على أنه كانت هناك خرائط للعالم كثيرة متداولة لا تعرف نسبتها ، وهذه حقيقة لها أهميتها فى تاريخ علم الخرائط عند المسلمين .

ثم يقول الزمى بعد ذلك : « فإن قال قائل : هى — أى صورة الأرض — على غير الحقيقة ، فالجواب على ذلك أن الأرض كرية والجغرافية بسيطة ،

== الفلك عند العرب (ص ٢٧٨ تعليق ١) : « زعمت علماء العرب فى العراق والشام ومصر أثناء القرون الوسطى أن جغرافيا اسم من الأعلام الأجمية ، فما عرفوه أبداً بأداة التعريف ولا قيده فى كتب اللغة . راجع الشواهد على ذلك التى أوردتها فى المجموعة المطبوعة لتخليد ذكر المستشرق الإيطالى الشهير ميخائيل أمارى Centenario della nascita di Michele Amari, Palermo, 1910, p. 422. ومثال آخر فى ص ١٦٣ (سطر ٧) من كتاب الدر المنتخب فى تاريخ حلب لمحمد بن الشحنة المطبوع فى بيروت سنة ١٩٠٩ ، والشواهد التى يشير إليها نالينو هنا واردة ضمن مقال E. Griffini المنشور فى كتاب الذكرى المئوية ليلاد ميخائيل أمارى المذكور هنا ، وعنوان المقال : Nuovi Testi Arabo-Siculi, I, 365. وهو مقال طويل عظيم القيمة ، يتضمن تصوراً عربياً عن صقلية لم يوردها أمارى فى المكتبة الصقلية أو أوردتها برواية تختلف عن رواية جريفي . وفى هذا المقال قطع من كتاب الزمى واردة تحت رقم ٤ من النصوص الجديدة ، وعنوان هذه القطع :

Estratti dalla Geografia di Az-Zubri o Anonimo di Almeria, p. 416 sqq.

ثم أضاف ملحفاً عن لفظ جغرافية اتفنا به كثيراً هنا ، وسنرجع إليه فيما يلى من البحث مشيرين إليه باسم : Griffini, Nuovi Testi

ولكن وضعوها كما وضعوا الاسطرلاب ووضعوا هيئات الكسوف ، وكذلك بسطوا الجغرافية ليعلم الناظر بذلك أجزائها وحدودها وأقاليمها... الخ » وهذه العبارة لا تفهم على حقيقتها إلا إذا فسرنا لفظ « وضعوا » بأنه « رسموا » فهو يريد أن يقول : فإذا قال قائل إن هذه الجغرافية — أى خريطة الأرض أو رسمها أو صورتها — لا تتفق مع الحقيقة ، لأن الأرض كرية في حين أن الجغرافية مبسطة مسطحة على الورق ، قلنا : هذا صحيح ، ولكن العلماء رسموا صورة الأرض بسيطة — أى مبسطة — مسطحة على الورق ليعلم الناظر بذلك أجزائها وحدودها وأقاليمها... الخ ومعنى هذا أن الجغرافيا عنده هى الخريطة المسطحة للأرض ، أى ما يعرف بالبلانيسفير .

ويبدو من الفقرة الأخيرة من خطبة الكتاب أن معنى لفظ جغرافية عنده يشمل الخريطة ووصفها أو شرحها كذلك ، وربما تصور أن الخريطة لا تتم إلا إذا كان معها شرح مفصل لما فيها ، فهذه الفقرة تقول : « ... مع ما ذكرتُ في هذه الجغرافية من مساحة الأرض وطولها وعرضها ، وما قالت الفلاسفة في تكسيورها وعَدَّ فراسخها وأمايلها ، وما في كل جزء منها ، والله أعلم بحقيقة ذلك ... » . وهذان المفهومان للفظ جغرافية (خريطة أو خريطة مع شرحها) كانا موجودين في الغرب الإسلامى ، فقد ورد في المعجم العربى اللاتينى المعروف بالفوكابوليسستا لفظ جغرافية (بالعين المهملة) مرتين ، الأولى في صفحة ٨٠ : جَعْرَافِيَّةٌ وأمامه لفظ mapa أى خريطة ، والأخرى في صفحة ٤٦٩ : جَعْرَافِيَّةٌ وأمامه mapamundi^(١) أى خريطة الدنيا ، وابن خلدون يستعمل لفظ جغرافيا في

(١) Vocabulista in arabico وهو قاموس عربى لاتينى ، لاتينى عربى وضع في القرن الثالث عشر ليستعين به رجال الدين الاسبات في التبشير بالمسيحية بين من وقع تحت سلطان ملوك إسبانيا النصرانية من المسلمين ، وألفاظ القاموس تدل على أنه وضع في بلنسية ، ويظن أن مؤلفه هو الراهب المبشر راييموندو مارتين الذى تحدثنا عنه في « تاريخ الفكر الأندلسى » . وقد نشره سكياباريلى في فلورنسا سنة ١٨٧١ ، أقرأ عنه مقدمة ناشره وخاصة ص ١٩ و ٢٠ وملحق القواميس العربية لدوزى ، ج ١ ص ١٠ من المقدمة ، وتاريخ المستعربين للأب سمبوزات ، ص ١٧٠ وما بعدها .

في كتابه من المعلومات ، وسيختفي هذا الاضطراب عندما يفرغ الزهرى من معنى خريطة ، وأضاف : وقد ذكر ذلك كله بطليموس في كتابه والشريف في كتاب رُجار ؛ ويقول ابن خلدون في « المقدمة » : « وصوروا في الجغرافيا جميع ما في المصور من الجبال والبحار والأودية ، واستوفوا من ذلك ما لا حاجة لنا به لطوله ، ولأن عنايتنا في الأكثر إنما هي بالمغرب الذي هو وطن البربر ، وبالأوطان التي للعرب من المشرق ، والله الموفق ^(١) » .

ويلاحظ أن الزهرى يكتب دائماً جغرافية بالعين المهملة ، وكذلك نجد اللفظ في الفوكابوليسا وفي المخطوطات الجيدة من مقدمة ابن خلدون ، وهذا ليس مجرد تصحيف ^(٢) ، وإنما كان رسماً معروفاً لهذا اللفظ في كثير من الكتب الأندلسية خاصة ، وقد رأينا ياقوت يقول إنه سمع من يقوله — أى لفظ جغرافيا — بالعين المعجمة والمهملة ، وأكد ذلك دوزي وأتى بأمثلة كثيرة على ذلك في معجمه ^(٣) .

وبقية خطبة كتاب الزهرى تعرفنا بفهوم العلم الجغرافي عنده ، وهو مفهوم واسع يتناول كل المعلومات الخاصة بالأرض وما عليها ومن عليها وعلاقة الأرض بالكون وموقعها من الفلك وما إلى ذلك ، أى كل ما يدخل في نطاق الجغرافية الفلكية والطبيعية والبشرية ، وواضح أن سياق الكلام في الخطبة غير قويم ، فهو ركيك كثير التكرار مضطرب النسق ، مما يدل على أن المؤلف كتب هذه الخطبة لكي يضمّنها — في صورة عامة — كل ما سيورده

(١) ابن خلدون ، المقدمة (بولاق) ، ص ٤٠

(٢) أورد جريفي في مقاله الآف الذكر (ص ٤٢٥) صوراً كثيرة لتصحيف لفظ جغرافيا على يد الناسخين ، وبعض هذه الصور يدل على أن الكثيرين من ناسخي الكتب في المصور التأخرة لم تكن لديهم أى فكرة عن رسم هذا اللفظ ومعناه ، فقد كتب واحد منهم « كتاب جفر الأنباء » (يريد جغرافيا) لبطليموس ، وكتب آخر : قال صاحب كتاب معارفنا (يريد جغرافيا) . وفي بعض الأحيان كان بعض مؤلفي هذه المصور يعرفون اللفظ ، ولكنهم لم يعرفوا كيف يرسمونه ، فقد عمل رجل أرمي من تونس يسمى مقرديج الكسيح مختصراً لكتاب نزهة المشتاق ، ورسم اللفظ هكذا : « كتاب الجكرافية الكلية » ، أى صورة الأرض وما فيها ، قد التقطها من كتاب نزهة المشتاق الفقير مقرديج الكسيح الأرمي ، فرضه منها تبجيل الصانع الخلاق وإنادة الأخوان .

(٣) انظر ملحق القوامس ، ١٩٨/١ — ١٩٩

المقدمات ويدخل فى صلب كتابه ، مما يحمل على الظن بأنه كتب الخطبة بعد أن فرغ من الكتاب ، وكتبها معجلاً دون تدقيق كثير ، وهى لهذا أضعف ما فى الكتاب وأقل ما فيه دلالة على قيمته . وهذا كله بالإضافة إلى التصحيقات الكثيرة فى النص ، فعلى كثرة مخطوطاته لا نجد واحداً منها سليماً من التصحيقات الكثيرة التى لا يخلو منها سطر ، واسم القلم الواحد يرد فى كل نسخة بصورة ، وقد اعتمد كل من دوزى وأمارى وهنرى باسيه وجريفى على ما تيسر له من المخطوطات فى نشر ما حازه من نصوص الكتاب ، ورجعنا هنا إلى مخطوط بسكوال جايانجوس المحفوظ فى مكتبة أكاديمية التاريخ فى مدريد ، وراجعنا عليه القطع المنشورة مع مفارقاتها ، فتبين أن النسخ جميعاً فى مستوى واحد من الدقة — أو قلتها بتعبير أدق — بحيث لا تفضل واحدة منها الأخريات فى شيء^(١). وهذه التصحيقات من النوع الكثير الوقوع فى المخطوطات

(١) احصى ربنيه باسيه فى مقدمة القطعة التى نشرها من جغرافية الزهرى المخطوطات الموجودة إلى أيامه (سنة ١٩٠٣) وعددها ستة ، واحد فى مكتبة جامعة الجزائر برقم ٢٠١٦ ، وهذا المخطوط منسوخ عن آخر بجامعة الزيتونة ؛ ومخطوط كان يملكه الشيخ عظم التولى واستنسخ منه ربنيه باسيه نسخة لنفسه ؛ ومخطوط بالمكتبة الوطنية فى الجزائر تحت رقم ١٢٥٥ ؛ ومخطوط بالمكتبة الأهلية فى باريس برقم ٢٢٢٠ (مخطوطات عربية) ، والمخطوط رقم ٣٥ من مجموعة جايانجوس (وهى موجودة حالياً فى مكتبة أكاديمية التاريخ فى مدريد) ، والمخطوط رقم ٢٥٧٤٣ (إضافات) بمكتبة المتحف البريطانى . ويضاف إلى هذه ترجمة اسبانية ترجع إلى منتصف القرن الخامس عشر ، محفوظة فى مكتبة القصر الملكى فى مدريد . وقد نشر الجزء الخامس بجغرافية اسبانيا من هذه الترجمة فى مجلة جمعية مدريد الجغرافية سنة ١٨٧٩ ، ص ٧٠٣ وما يليها . ونشرت من جغرافية الزهرى قطع صغيرة فيما يلى :

Amari, *Biblioteca arabo-sicula*, 1855, p. 158 sqq.

الجزء الخامس بصفحة اعتياداً على مخطوط المكتبة الأهلية فى باريس .
Dozy, *Recherches*, 3.^e ed. 1881, II, appendice XXXV p. LXXXIX.

القطعة الخاصة بأعمدة هرقل اعتياداً على مخطوط المتحف البريطانى .
Lerchundi y Simonet, *Chrestomatie Arabigo-Española*, Granada, 1881, pp. 44-45.

قطعتان قصيرتان خاصتان بجبل شابر وشجرة زيتون مجيبة قرب حصن إشكر فى
Houdas et René Basset, *Mission Scientifique en Tunisie*, II.^e partie, Alger
1883, p. 154 sqq.

== قطعة خاصة بالسوس الأقصى اعتياداً على مخطوطات باريس وتونس والجزائر والقيروان

التي نسخت في المصور المتأخرة ، وربما يكون هذا أيضاً هو الذى حدا بأمارى إلى القول بأن الزهرى نفسه عاش في القرن الرابع عشر الميلادى^(١) .

ومثل هذا الكتاب لا ننتظر أن نجد فيه مادة جديدة أو تصوراً للأقاليم يمتاز بالدقة وحسن الفهم وسعة المعلومات كما وجدنا عند من سبقوا الزهرى وكما سنجد عند بعض من أتى بعده ، إنما هو رجل استهواه العلم الجغرافى ، فقرأ فيه بعض ما تيسر له من الكتب من تأليف المسعودى وابن الجزار ورجل يسميه « صاحب التاريخ » (وأظن أن المراد به أحمد بن محمد الرازى ، لأننى وجدت إشارة إليه على هذه الصورة فى مختصر مجهول المؤلف لجغرافية الرازى وتاريخه) ثم وصلت إلى يده خريطة مجهولة النسبة ، فنسخها ثم وضع كتاباً فى شرحها معتمداً على ما أشرنا إليه من قراءاته ، وسمّاها معاً كتاب الجغرافية ، وهو هذا الذى وصل إلينا .

وجدير بالملاحظة أن هذا الرجل كتب كتابه فى المرية ، وقد رأينا أنها كانت موطن العذرى ، وإليها ذهب البكرى ولقى العذرى وأخذ عنه ، وكان لهذا أثره فى توجيهه نحو الجغرافية والتأليف فيها ، فكأن هذا البلد كان مركزاً للدراسات الجغرافية فى الأندلس ، أو كانت فيه على الأقل جماعة تعنى بهذا العلم وتجد بين يديها سادة صالحة لدراسته ، وليس هذا بغريب فإن المرية كانت قد أصبحت خلال القرن الخامس الهجرى من أعمر بلاد الأندلس وأوفرها نشاطاً

R. Basset, *Documents géographiques sur l'Afrique Septentrionale*, Paris 1898, = chap. II, pp. 14-30.

ومى ترجمة فرنسية للقطعة المنشورة عن السوس الأقصى . انظر :

René Basset, *Extrait de la Description de l'Espagne, tiré de l'ouvrage du Géographe Anonyme d'Almeria, Homenaje a Codera*, Madrid 1904, p. 619 sgg.

وراجع عن كتاب الجغرافية للزهرى ، بروكلمان ، تاريخ ٤٧٦/١ وملحق ٨٧٦/١
(١) ذكر أمارى ذلك فى الفقرة رقم ٥٤ من الفقرات الخاصة بمراجع المكتبة الصقلية ، وقد وردت هذه الفقرة فى ص ٦١ من المقدمة .

وحوية ، ثم إن العلم الجغرافى الجديد ظهر فى موانى البحر الأبيض كما ذكرنا ، إذ كانت حاجة الملاحين إلى المعلومات الجغرافية كبيرة وعنايتهم بها كبيرة ، ويضاف إلى ذلك أن أولئك الملاحين كانوا من مصادر هذه المعلومات بما يأتون به من الأخبار والبيانات عن البلاد التى يبحرون إليها ويمرون بها ، وكانت المرية إذ ذاك قد أصبحت ميناء الأندلس الاسلامى الأكبر ومركز الاتصال البحرى مع المغرب والمشرق الاسلاميين ، بل منها كانت تصدر المتاجر الذهبية إلى غانة وغيرها من بلاد افريقية الغربية كما يقول العذرى ، ومن ثم فمن الطبيعى أن تكون مركزاً تتجمع فيه المعلومات عن شتى البلاد ، ولا بد أن « الجغرافية » أى الخريطة التى وصلت إلى يد الزهرى — وانسخها واتخذها أساساً لكتابه — كانت واحدة من الخرائط الكثيرة المتداولة بين أيدي ملاحى المرية ومن يفد عليها من التجار من كل حذب وصوب .

نقول إننا لا ننتظر أن نجد فى هذا الكتاب شيئاً من الخصائص الأصيلة التى وجدناها عند من سررنا بهم من جغرافيين الأندلس مثل إحاطة الرازى بصفة شبه الجزيرة وصدق تصويره لنواحيها وأقسامها ، ودقة العذرى وعلمه ، وسعة علم البكرى ومنهجه العلمى ، وعبقريته الشريف الإدريسى ، وما إلى هذه من الخصائص التى اجتهدنا فى إبرازها ، لا ننتظر هنا من ذلك شيئاً لأن خطبة الكتاب نفسها تدل على فهم محدود لمعنى الجغرافية وعلم قليل بما عداها ، فإن الأسلوب مفكك غير مترابط ، والكلام ركيك لا تكاد تستقيم فيه عبارة ، والمعلومات مرسلة دون تدقيق أو محاولة تحليل ، ويبدو لى أن المؤلف — إن وُجد ، ونحن لا نعلم عنه إلا اسمه — كان رجلاً بسيطاً من العاملين فى البحر أو التجارة ، فإن طريقته فى الكلام لا تحمل أى خاصية من خصائص التأليف العربى التقليدى ، ويتضح هذا بصورة ملموسة إذا نحن أخذنا وصفه لبلد من البلاد كالأندلس مثلاً ، فنجد أنفسنا أمام سياق يصعب تتبعه ، وليس مرد

ذلك إلى رداءة المخطوط الذى نتابعه ، بل إلى أصل الكتاب نفسه ، فقد جمع رينيه باسيه ستة من أحسن مخطوطاته الموجودة ليستطيع أن ينشر مقتطفات من وصفه للأندلس ، واجتهد فى الوصول إلى أحسن قراءة مقبولة لكل كلمة وأضاف أسفل كل صفحة المفارقات الواردة فى النسخ الأخرى حتى بلغت أرقام التعليقات بين الأربع والعشرين والثلاثين فى كل صفحة ، والنتيجة بعد هذا كله نص متعب يجهد يحار الانسان فى فهمه ، وإليك مثلاً من ذلك الفقرة الأولى من ذلك الوصف :

« ذكر الصقع الثالث من هذا الجزء الخامس من معمور الأرض ، وهى بلاد الأندلس ، وفيها من العجائب ما نذكره إن شاء الله .
اعلم أرشدنا الله وإياك أن بلاد الأندلس هى من بلاد الشام وهى آخر صقع من أصقاع الشام .

« وطول هذا الصقع من المشرق إلى المغرب على ساحل البحر من الجبال المسماة بجبال أطريجوش إلى الطرف المسمى بطرف الأغر إلى أشبونة إلى البحر الأعظم إلى أول جبال الشارات — وهى تسعون فرسخاً — إلى أول الجبال على قريب من جزيرة طريف التى من الجبال المعروفة بجبال الصوف ، وهى كورة تاكورنة وهى ثلاثمائة . وعرضها فى المغرب من طرف الأغر إلى أشبونة على البحر الأعظم إلى جبال الشارات تسعون فرسخاً ، وذلك من الأيام تسعة أيام . وعرضها فى المشرق من جبال أطريجوش إلى الموضع المعروف ببرتقال ، وهو المدخل إلى بلاد نبارة ثمانون فرسخاً ، وهى من الأيام ثمانية أيام » .

« وهذا الجبل المعروف بأطريجوش هو الفاصل بين بلاد الأندلس وبلاد الأفرنج ، وهذا الجبل يأخذ من الشمال إلى الجنوب حتى يدخل فى البحر ، وهو المعروف بطرف اليهودى ، فى هذا الجبل ثمار كبار عظيمة من الصنوبر والطخش والبقس ، وفيه أشجار يستظل تحتها ألف فارس فلا يظهرون . ومن هذا الجبل ينحلب عود البقس إلى بلاد الأندلس وبلاد المغرب . وفى هذا

الجبل معدن الأئمد القرطاجنى ، ومنه يجلب إلى بلاد المشرق . وفى هذا الجبل نحل كثير يجمع منه عسل كثير ، حتى لا يمكن أن يكون فى بلاد الأرض أكثر منه عسلا . وفى هذا الجبل الحصن الذى لا يوجد فى الأرض معقل مثله ولا أكثر منه منعاً .

فهذه الفقرة على قصرها تحوى من المشاكل والعبارات التى لا تفهم ما يحتاج حله وتفسيره وفهمه إلى صفحات بعد صفحات من المناقشات والفروض ثم لا ينتهى الأمر بعد ذلك إلى شيء حاسم ، وهى بعد ذلك غير وافية ولا متناسقة ، فان ثلثها يدور حول الجبل الذى يسميه أطريجوش ، والترجمة الاسبانية القديمة التى أشرنا إليها فى تعليق سابق ترسمه جبل Targios وليس هناك جبل بهذا الاسم فى شبه الجزيرة ، أما رينيه باسيه فيترجمه بجبال اشتريس les Monts d'Asturies ، وقد رجع فى ذلك إلى الرسم اللاتينى لهذا الاسم Asturicus أى أن الاسم كان ينبغى أن يرسم فى العربية اسطُرِيحُوس لا اطريجوش أو أطوجيوش أو أطرجيش كما ورد فى النسخ المختلفة لهذا المخطوط ؛ والمؤلف يطلق هذا الاسم على جبال البرت أو جبل الأبواب أو جبال هيكل المعرفة عادة باسم جبال البرانس ، ولم نقرأ فى أى كتاب آخر أنها تسمى جبال اشتريس ، لأن ما يطلق عليه هذا الاسم يسمى فى الحقيقة جبال كنتبرية ، والإدريسي يسميها جبال شيبه Auseba ، وفى حين أن الإدريسي يفرق بين جبال شيبه هذه وجبال البرت نجد مؤلفنا يجعلها جبلا واحدة ويمدّها دفعة واحدة من جليقية إلى ساحل البحر الأبيض ويقول إنها كلها تتجه من الشمال إلى الجنوب ، وهو قول يدل على أن مراجعه والخريطة التى كان يعتمد عليها لم تكن من مستوى علمى جدير بالثقة ، وربما كانت من هذه الخرائط والدفاتر التى كان الملاحون والتجار والسفّار يحملونها ويتبادلونها ، فإذا صح هذا كانت لهذا الكتاب أهمية خاصة إذ أنه يطلعنا على نوع الخرائط والمعلومات التى

كان أولئك الناس يعتمدون عليها والأسماء التي يطلقونها على الأعلام الجغرافية ،
وتصورهم للاتجاهات ومواقع البلاد .

وبما يؤيد هذا الرأي اهتمام المؤلف بالحصائل من زراعة وغير زراعة
ومصادرها وإلى أى جهات كانت تصدر ، وقد رأينا مثلاً من ذلك فى القطعة
التي أوردناها فى صفة الأندلس ، فإن ثلث المادة — على قصرها — يدور حول
ثمار ما يسميه بجبل أطريجوش وما فيه من الخيرات ، ومن دلائله أنه يسمى
جبال رنده (la Serranía de Ronda) « بالجبال المعروفة بجبال الصوف وهى
كورة تاكورنة » ، وتاكورنة هى تاكُرْنَا وهو الاسم الذى كان يطلق على
كورة جبيلية صغيرة جنوبى الوادى الكبير قاعدتها رنده^(١) ، وقوله أن هذه
الجبال معروفة بجبال الصوف يراد به أنها منطقة يحلب منها الصوف ، وهى إشارة
ذات أهمية تجارية تذكرنا بما رأيناه عند الإدريسي من قوله إقليم البصل
واقليم البلوط واقليم الزيتون ، وهى أيضاً تسميات تجارية لا جغرافية ، وقد
أخذها الإدريسي من أفواه التجار ، وكان اعتماده فى الحصول على المعلومات
عليهم عظيماً .

وبما يؤكد ذلك أن المؤلف يعقب هذه الفقرة السابقة بفقرة عن عمران الأندلس
ووفرة الخيرات وكثرة المدن فيه ، وهذه الفقرة كسابقتها منقوصة فى أكثر من
موضع من مواضعها ، تختلئ السياق فى الكثير من عباراتها حتى ليبدو من غير
المقبول نشرها على الصورة التى نشرها بها رينيه باسيه ، ومن حسن الحظ
أننى عثرت على أصلها ، أو الأصل الذى اقتبست منه ، فى متحف النقول
الأندلسية وهو نفخ الطيب للمقرئ ، ومن أسف أنه صدرها بقوله : « وقال بعض
المؤرخين » فضيع علينا بذلك فرصة كانت معينة على كشف النقاب عن أصل
كتابنا هذا ، وتلك حالنا مع تراثنا الأندلسى الذى نجعل شوارده وأوابده بكل

(١) الغالب أن تاكورنا اسم آخر لكورة رنده . انظر عنها الروض المعمار لابن عبد النعم
الحجرى ، ص ٦٢ رقم ٦٣ وص ٧٨ من الترجمة الفرنسية وهامش رقم ٣

ميسور من الجهد والصبر ، وما دمننا لا نعرف إن كان « بعض المؤرخين » هذا هو مؤلفنا أو الأصل الذى نقل عنه ، فسأورد فقرات المخطوط وأكملها بما عند المقرئ بين حواصر ، حتى يستبين القارئ مقدار ما فعل المؤلف بالأصل الذى أخذ عنه ، أو ما أصاب نصه على أيدي النقلة والنساخت :

« وبلاد الأندلس بلاد حسنة الهواء طيبة الماء طولها ثلاثون^(١) يوماً [وعرضها تسعة أيام و] يشقها أربعون نهراً [كباراً] ولا يوجد هذا في معمر الأرض إلا فيها ، [وبها من العيون والحمامات والمعادن مالا يحصى] وهى أبرك بقاع الأرض وأكثرها نسلاً ، وذلك لأنها صقع صغير فيه ثمانون مدينة من القواعد الكبار ، وأزيد [من ثلثائة] من^(٢) المدن الصغار [وفيها من الحصون والقرى والبروج ما لا يحصى كثرة حتى قيل : إن عدد القرى التى على نهر إشبيلية اثنا عشر ألف قرية] ، وليس في معمر الأرض صقع أصغر^(٣) منه [يحد المسافر فيه ثلاث مدن وأربعاً من يومه إلا في الأندلس ، ومن بركتها أن المسافر لا يمشى فيها فرسخين دون ماء [أصلاً] ولا يمشى ثلاثة فراسخ إلا وجد فيها [الحوانيت في الفلوات والصحارى والأودية ورموس الجبال تببع] الخبز الكثير [والفواكه والحب واللحم والحبوت] والزيت والزبيب والتين وغير ذلك من الأطعمة [في الحوانيت^(٤)] .

وإذن فنحن أمام نص مختصر عن أصل ، وواضح أن المؤلف أساء الاختصار ، إذ لا يعقل أن يكون جميع كتّاب النسخ الكثيرة التى بين أيدينا قد وقعوا في نفس الأخطاء أو في أخطاء من نفس النوع ، فاستخرج نصاً سقيماً

(١) في نسخة الأصل التى اعتمد عليها باسيه : أربعون ، وفي نسخة المكتبة الأهلية في باريس : ثلاثون ، وكذلك في نفح الطيب وفي الترجمة الأسبانية القديمة : tryenta .
 (٢) في نفح الطيب (٢١٠/١) : من المتوسط
 (٣) في الأصل : أصغر ، ولا يستقيم به المعنى ، وصوابه ما أثبتناه .
 (٤) وردت العبارة في الأصل مضطربة السياق فقومتها على قدر الاستطاعة .

مضطرباً ، ولكنه وافٍ بحاجات جماعات معينة من الناس ، جماعات لا تهتم بسلامة الأسلوب واستقامة السياق ، وإنما تهتم بمعلومات خاصة تهمها في شئون عيشها ، وهذه المعلومات تدور في الغالب حول الحاصلات والمنتجات وما تشتهر به الناحية أو البلد من المتاجر والصناعات وما لها من الفضائل وما فيها من العجائب . وهذه الجماعات — فيما نظن — هي جماعات التجار والملاحين والسُفّار . وقد يكون الأصل الذى استُخرج منه هذا المختصر هو كتاب الزهرى نفسه ، وفى هذه الحالة لا تكون النسخ التى بين أيدينا إلا نسخاً للمختصر ، وقد تؤيد هذا الفرض كثرة النسخ التى وجدناها منه ، فلدينا ستة مخطوطات على الأقل ، ولم نجد من أى كتاب جغرافى آخر ما يقارب هذا العدد إلا نزهة المشتاق للدريسي ، وهذه النسخ الكثيرة تدل على أن الكتاب كان — على ركاكته واضطراب سياقه — كثير التداول عظيم النفع لطوائف من الناس حرصت على اقتناء نسخ منه ، وهذه الطوائف لا يمكن أن تكون من أهل العلم أو طلاب المعرفة أو المعنيين بالجغرافية ، فهؤلاء لا يعجبهم مثل هذا النص ولا يحرصون على اقتنائه ، ولو حرص هؤلاء على اقتنائه والانتفاع به لوجدنا نقولا منه فيما تلا ذلك من الكتب ، ولحرص أصحاب التراجم على إثبات شيء عن صاحبه ، ولكننا لا نجد منه إلا هذه النقول اليسيرة التى أوردها المقرئ ولم نعث لصاحبه على أثر فى أى من مراجعنا .

وعلى أى حال فنحن أمام طراز من الكتابة الجغرافية يختلف في طبيعته وغايته عما مررنا به من طُرُز التأليف في ذلك العلم : طراز شعبي ، إذا جاز أن نستعمل هذا الوصف في مقابل ما يسمى في اللغات الأوروبية vulgarisation ، طراز مبسط يجمع المادة الجغرافية التى تهتم أهل الأسواق ، ومن ثم فليس فيه تدقيق علمي ولا تقسيم منطقي ولا عناية بأسلوب الكتابة ، لأن ما يهم أهل الأسواق من الملة الجغرافية هي الزروع والحاصلات والمواد ذات القيمة التجارية ثم أحاديث العجائب ، وتضاف إلى هذه بعض المعلومات العامة عن هيئة الأرض

ومكانها فى الكون وبحارها وجبالها وأنهارها الرئيسية مع تعريف بسيط لكل منها ، ثم تقسيم الأرض إلى أقسام كبيرة ، تسمى فى مخطوطنا أجزاء وهذه إلى أصقاع ثم إدراج عدد من البلاد والنواحي فى كل صقع ، ويعقب ذلك الكلام على الأصقاع واحداً واحداً دون تفيد شديد بهذا المنهج ، فقد يسمى الجزء إقليماً وقد يسمى الصقع بلداً ، وقد لا يقسم جزء إلى أصقاع ، بل قد تهمل بلاد بأسرها ، لأن المهم ألا يسقط من الحساب بلد مشهور يقصده المسافرون والرحالة والتجار ، ولا يُفعل أمر عجيب لها شهرة بين الناس ، ولا يُنسى ما يهم التجار من شئون الحاصلات والصناعات وما يجلب من كل بلد وما يصدر إليه . هذا المزاج من المفيد والطريف ، من النافع والعجيب هو الذى يعطى ذلك الكتاب طابعه الفريد بين ما لدينا من كتب الجغرافية الأندلسية ، وهو الذى حبه إلى الناس فأقبلوا على نسخه وتداوله ، ومن الطريف أن الناسخين لم يتكلفوا جهداً فى التدقيق فى رسم الأعلام وضبط المسافات ، فقد كانوا يعرفون أنهم ينسخون لناس لن يجهدوا أنفسهم فى تحقيق النسخة أو مقابلتها على غيرها ، إنما هم تجار وملاحون لا يعينهم فى كثير أن تكتب «يا بل» بالياء أو «الأهوار» بالراء ، لأن بابل هذه مضت لشأنها وأصبح حديثها حديث أساطير ، والأهواز بعيدة فى بلاد فارس لا يكاد يقصدها من حوض البحر الأبيض قاصد من التجار ، إنما التدقيق يكون فيما يتصل بهذا البحر وموانيه وجزائره وسواحه ، وما يتصل به من بحار أهمها بحر القلزم وموانيه ، هنا نجد النص دقيقاً فى رسم الأعلام وفى إيراد التفاصيل ، لأن البحر الأبيض كان مجمع التجارة والتجار ، والمرية — بلد المؤلف — كانت على عصره من أكبر موانيه ، وحديثه عنها لذلك حافل بالفائدة ، وهو يضيف إلى معلوماتنا عنها فوق ما أضافه العذرى كما سنرى .

ومن هنا فإن أضعف أجزاء الكتاب هى فصوله الأولى الخاصة بالمقدمات العامة عن هيئة الأرض وموضعها فى الفلك وما إلى ذلك ، لأن هذه مباحث

علمية لا يهم قراء مثل هذا الكتاب إلا خلاصتها . وكلام المؤلف هنا عام غير دقيق ، وهو لا يحرص على تعليل شيء جرح ابن رسته مثلاً على تعليل ما يذكر من ظواهر ، لأن ابن رسته كتب لنوع آخر من القراء : كتب لأهل العلم ، فهو يحرص لهذا على أن يخاطبهم بمنطقهم ، أما كتابنا فيقول مثلاً تحت عنوان : في ذكر الأرض وصفها ودورها واسقاعها (بالسين) وفراسخها وأميالها :

« قالت الحكماء : اختلف تخالف الناس ممن سلف وحدّث أن الأرض كورة ومنهم من قال إنها سطح فلا يقوم لها برهان ، غير أنه تعلق بقوله عن وجل « والأرض بعد ذلك دحّاها » ، وتأويل هذه الآية لا يفهمها إلا أهل العلم ، ولولا أن الله يمتنّه دحى (كذا) الأرض ما استقر عليها أحد ، وهو قوله عن وجل « لتسلّكوا منها سبلاً فحاجاً » ؛ وأما من قال إن الأرض كورة فله في ذلك البراهين الواضحة والدلائل البينة ، منها جرى الماء الذي على الأرض واختلاف الناظر في الفلك ، وقصر الليل وطول النهار ، وإيلاج بعضه في بعض ، واختلاف درج المطالع . ولو كانت الأرض سطيحة لم يكن في الفلك من هذا كله شيء ، ولكان الليل والنهار على حد واحد طول الدهر . واختصرنا الكلام في هذا ، إذ ليس هذا موضعه » [ورقة ١ ظهر] . ووضح أننا لسنا أمام كلام اختصره صاحبه لضيق المجال كما قال ، بل نحن أمام كلام مبتور سيء الصياغة ، وربما فهم مؤلفه براهين كروية الأرض كما ذكرها ، أما القراء ، فلا نظن أن أحداً منهم فهم برهاناً واحداً منها كما أتى بها المؤلف .

ومن هذا الطراز قوله بعد ذلك : « اتفق جميع الفلاسفة وكل من عيّن مساحة الأرض أن الأرض ٢٤٠٠٠ فرسخاً ، وهي من الأميال ٧٢٠٠٠^(١) ، وإنما أخذ ذلك من تسمية كورة الأرض من كورة الفلك ، وذلك أن كورة

(١) الفرسخ ٣ أميال ، والميل العربي كيلومتران تقريباً ، أي أن الفرسخ ستة كيلومترات تقريباً .

Cf: Walter Hinz, Islamische Masse und Gewichte, pp. 62-63

الأرض تدور بها كورة الفلك ، وفي الفلك ٣٦٠ درجة ، تقطع الدرجة ٧٥ ميلا ، وذلك ما يمشى الماشى ما بين اليوم واللييلة ، كما تقطع الشمس درجة في اليوم واللييلة ، فيكون دَوْرُ الأرض على هذا الحساب ٢٧٠٠٠ ميل^(١) ، وذلك ثلاثة اثمان التكسير على اقرب التقريب » (ورقة ١ ب و ١٢) .

ثم يزيد الموضوع خلطاً بعد ذلك فيقول : « وإذا كان تكسيرها ٢٤٠٠٠ فرسخاً كان ٢٧٠٠٠ ميلا (١) وَجَبَ أن يكون قطرها ٩٠٠٠ ميل ، وذلك ثلث الدَّوْر على أقرب التقريب ، والله أعلم بذلك كله »
وإليك تقسيم الأرض بحسب ما جاء في ذلك الكتاب :
« فصل ، فلنذكر الآن أجزاء الأرض .

اعلم أرشدنا الله وإياك أن الأرض تنقسم على سبعة أجزاء :
الأول منها : بلاد الصين وبلاد السند وبلاد الهند .
والجزء الثاني : بلاد اليمن وبحر القازم ومصر إلى أول بلاد الشام .
والجزء الثالث : بلاد العراق .
والجزء الرابع : أرض فلسطين وذواتها .
والجزء الخامس : بلاد الشام وذواتها .
والجزء السادس : بلاد العرب وذواتها .
والجزء السابع : بلاد السودان وذواتها (ورقة ١٢) » .

وإين بقية الأرض ؟ بل أين الأندلس ، وهو وطن المؤلف ؟
انه يضعه بعد ذلك في الجزء الخامس ، لأنه فيما يلي من الكلام يقسم كل جزء إلى أصقاع (يريد أصقاع) إلا الجزء الأول ، فهو غير مقسم عنده ، وهذه الأصقاع عنده تقسيمات غير دقيقة ، فالجزء الثاني مثلا ثلاثة أصقاع :

(١) سبق أن قال ان دور الأرض ٧٢٠٠٠ ميل ، لأنه افترض أن مساحتها (١) ٢٤٠٠٠ فرسخ ، ثم ضرب هذا في ثلاثة . وطول الميل العربي كيلومتران في المتوسط ، والفرسخ ثلاثة أميال أى ٦ ك . م . ، والبريد ٤ فراسخ أى ٢٤ كيلومترا تقريبا .

« الصقع الأول حده من ساحل مدينة عدن ومدينة صنعاء إلى أرض الصحارة^(١) وأرض تهامة إلى جزيرة العرب ، وبها البيت الذي فرضه الله تعالى قبله ، وفرض الحج إليه .

الصقع الثاني من الجزء الثاني حده من مكة إلى القازم إلى حيز مدينة بابل (أَيْلَه ؟) إلى أرض مدين إلى بلاد الشام في الشمال . وحده في الغرب مدينة تيمة (تِماء ؟) .

« الصقع الثالث : اعلم أرشدنا الله وإياك أنه صقع كبير فيه من المدائن مدينة مصر ، ولم يذكر الله ، عز وجل ، من مدائن الأرض [مدينة] باسمها إلا مصر ، فقال تعالى : « اهبطوا مصر فإن لكم ما سألتم » وقال تعالى « ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين » وهذه المدينة قديمة البناء ، وقد سكنها كثير من الجبابرة والفراعنة والعائلة من القبط والروم وغيرهم ، وهذه المدينة لها خمسُ صُور : إما بيضاء فضية ، وذلك عند انتهاء النيل^(٢) عليها ، وإما حمراء منسكية ، وذلك وقت الزيادة ، وإما سوداء عنبرية ، وذلك عند هبوط النيل عنها ، وإما خضراء زمردية ، وذلك عند كمال نباتها ، وإما صفراء ذهبية ، وذلك عند حصاد غرسها » (ورقة ٢٤ ب) .

ثم يلي ذلك كلام طويل عن عجائب مصر يصل إلى ورقة ٣٢ ب .
« الجزء الثالث ثلاثة أصقاع ، الأول حده أرض فارس ، وهناك من المدائن مدينة غرانة . . . حتى يصل إلى اصبهان والأهواز .

الصقع الثاني ، من هذه المدينة (الأهواز) إلى مدينة سمرين وفيه بغداد .
الصقع الثالث ، حده في المغرب إلى بلاد غانة^(٣) إلى بلاد خراسان إلى بلاد

(١) واضح أن المراد هنا : الصحراء ، وهذا الرسم يصور النطن الدارج للفظ على ألسنة الناس في الأندلس .

(٢) يريد : عندما يبلغ فيضان النيل منتهاه .

(٣) فرغانة ؟

التبت ، إلى حد أرض بابل ، إلى سحرى (كذا وصحتها سحرى) القيطوم . . . «
وعلى هذه الوثيرة يستمر المؤلف فى الكلام حتى نهاية التقسيم ، وقد يذكر
أن الجزء الرابع مثلاً ينقسم إلى ثلاثة أصقاع ، ثم يذكر اثنين وينسى الثالث .
وهذه النقول تعطى القارى فكرة عن المستوى العلمى لهذا الكتاب ، إذا
صحح أن تتطلب فى مثله مستوى علمياً ، لأن هذه الناحية من بناء الكتاب
شديدة الاضطراب يصعب ضبطها ، وأسلوب المؤلف كما رأينا قلق غير متصل ،
يصل إلى البلاغة أحياناً كما رأينا فى الكلام على مدينة مصر ، ويسف إلى
العامية أحياناً أخرى كما رأينا فيما أوردناه من النماذج ، ومصنّفه يعتمد دائماً على
حسن ظن قارئه وتسامحه فى الضبط والحساب .

أما إذا تعلق الأمر بميناء من موانى البحر الأبيض التى يهتم التجار
والملاحين شأنها ، فإنه يتكلم عنها كلاماً غاية فى الفائدة ، وأحسن مثل لذلك
كلامه عن مدينة المرية . قال (ورقة ١٦٨) « وهى مدينة عظيمة على ساحل
البحر الرومى ، وهى من بنيان معاوية بن محمد الأمير^(١) ، وهى مرسى
الأندلس ، وإليها تقلع مراكب المشرق والاسكندرية ، وهى قيسارية الأندلس
ودار صناعتها ، وفيها كان يُعمل الديباج المحكم الصنعة من المذُبَّجات المعروفة
بالبغداديات ، وثياب السندس الأبيض ، وهو ديباج أبيض كله لا يخفى على
أحد من صناعته شيء ، وفيها استنبط ثياب الشنة المعروف بالخلدى ، وليس فى
ثياب الجزيرة (كذا وربما كانت صحته الحرير) انصع منه ولا اتم جالاً ، ولذلك
سميت بهذا الاسم الذى هو مشتق من الخلد ، وفيها كان يصنع كل شيء
حسن من الأثاث من جميع الأشياء » .

وهذا كلام دقيق واضح الفائدة ، يضيف إلى معلوماتنا عن صناعة
النسيج فى الأندلس مادة جديدة ، وربما كان السبب فى ذلك أن المؤلف نفسه

(١) كذا فى الأصل ، والصحيح عبد الرحمن بن الأمير محمد ، وهو عبد الرحمن الناصر ، وقد
اُختط المرية فى سنة ٩٥٥/٣٤٤

من المزية ، فمعلوماته عنها دقيقة محددة . ونقول ذلك لأن المعلومات التي يقدمها الزهرى عن غير المزية من موانى البحر الأبيض أقل من ذلك تحديداً وتفصيلاً ، والسبب في ذلك — فيما نحسب — أن الرجل كان مشغولاً أبداً بحديث العجائب ، فلا تكاد تخطر بباله عجيبة في مدينة أو إلى جوارها حتى يقطع الكلام ويسترسل في الكلام عنها ، ثم ينسى أن يكمل ما استطرد عنه ، ومثال ذلك أنه يقول عن مدينة اشبونة « وهى على آخر النهر المعروف بتاجه عند وقوعه في البحر ، وفي هذه المدينة الموضع الثانى الذى يوجد فيه الذهب ، وسيأتى ذكر الموضع الثالث ، إن شاء الله تعالى . وهذه المدينة كثيرة الأرزاق من الزرع والحبوب وغير ذلك ، وفي هذه المدينة تفاح كالنفاح الأرمينى دور التفاحة ثلاثة أشبار وأكثر وأقل ، وبين هذه المدينة ومدينه طلبيرة تكون القنطرة العظيمة المعروفة بقنطرة السيف ، وهى من عجائب الأرض... »^(١) وهنا يستطرد في وصف هذه القنطرة إلى آخر المادة .

ولولا هذه الاستطرادات لكان الجزء الذى كتبه عن الأندلس من أكثر ما لدينا فائدة ، لأن له في أثنائه ملاحظات 'تخلو من طرافة ، مثال ذلك انه يقول عند ذكر نهر الوادى الكبير (ورقة ٥٨ ا) « وليس في الأندلس نهر باسم عربى إلا هذا النهر ، وكذلك جبل الأندلس الذى [يطل] عليها (أى على قرطبة) يسمى

(١) انظر القطعة التى نشرها رينيه باسيه ، في كتاب تكريم فرثيسكو كوديرا وقد سبق أن ذكرناه ، ص ٦٣٨ — ٦٣٩ ويلاحظ أنه يشير هنا إلى تفاح شنتره الذى تحدث عنه اليسع الفائق وأبو حامد الرناطى ، وإنه لما يدعو إلى الدهشة استمرار أولئك الرجال في ترديد غرائب مثل هذه دون أن يكلف واحد منهم نفسه عناء التفكير أو الاختبار البسيط ، فإن التحقق مما إذا كان من الممكن أن يكون دور تفاحة ثلاثة أشبار (حوالى ٦٠ سنتيمترا) أو خمسة أشبار (١٠٠ سم) أمراً ليس بالسير ، ولكن عبودية النقل والولع بالرائب جعلت مثل هذه العبارة يتردد في كتاب بعد كتاب . ويذكر المؤلف هنا طلبيرة وهذا وهم وصحة الاسم طلبيرة Tavira ، ميناء على الشاطئ الجنوبى للبرتغال . وعلى الطريق من الأشبونة إليها تقع قنطرة السيف Alcacer do Sal على ٨٩ كم . جنوب غربى الأشبونة ، ولا زالت هذه القنطرة قائمة إلى الآن على نهر سادو Rio Sado الذى يمر بالبلدة المنسوب إليها .

بجبل العروس ، وليس في الأندلس جبل يسمى باسم عربى إلا هذا « والملاحظة غير دقيقة ، لأننا نجد بين أنهار الأندلس وجباله كثيراً مما يحمل أسماء عربية ولا يزال يحملها إلى الآن مثل الوادى الأبيض (Guadalaviar) والوادى الأحمر (Gualamar) ووادى الارز (Guadalhorce) ووادى المدينة (Guademedina) وجبل الثلج (Sierra Nevada) وجبال المعدن (Sierra de Almaden) وقة أبو الحسن (Mulhacén) وغير ذلك كثير . ورغم هذا فإن ملاحظته جديرة بالتقدير ، فقد تكلم على قدر علمه ، والمهم أنه أبدى ملاحظته طريفة .

ومن ملاحظاته التى تستوقف النظر قوله فى الكلام عن قرطبة (١٥٩) : « وكذلك فى اسفل قرطبة — أعادها الله دار إسلام ^(١) — على الوادى الكبير [توجد إشبيلية وتسمى] ^(٢) عروسة مدائن الأندلس ، لأن عليها تاج الشرف ^(٣) ، وفى عنقها سبيكة ^(٤) النهر ، وهذا النهر ليس فى معمور الأرض أتم حسناً منه ، لأنه يضاهى المدجلة والفرات ونيل مصر ووادى الأردن الذى بالشام فى الحسن والجمال » .

ثم يقول : « وعلى مقربة من هذه المدينة بخمسة عشر فرسخاً ^(٥) أو نحوها عين الزاج ، ولا يوجد هذا الزاج فى معمور الأرض ، وإذا ما اسود يخرج من عين ، ويتعقد منه على ضفتي هذه العين الزاج وغيره ، وهذه العين فى

(١) لا تدهشنا هذه العبارة هنا فهى إضافة من النسخاء فيما بعد ، ومثل هذا كثير فى مخطوطات أخرى من ذلك الكتاب .

(٢) سقطت هذه العبارة من الأصل .

(٣) الشرف ، ويسمى إلى الآن Ajarafe أو Aljarafe هو الأراضى المرتفعة غربى الوادى الكبير وإلى الشمال الشرقى من إشبيلية ، وإقليم الشرف مشهور بزيتونه .

انظر ، الروض المطار لابن عبد المنعم الحيمرى ، ص ١٠١ — ١٠٢ والترجمة الفرنسية ،

ص ١٢٤ وتعليق ٤

(٤) فى الأصل سمك ، ولا معنى له هنا .

(٥) الفرسخ ، كما ذكرنا ، ٦ ك.م. تقريباً .

آخر شَرَف لإشبيلية ... ومن هذه الشرف يجلب الزيت إلى بلاد الروم وبعض بلاد الأندلس وإلى جميع بلاد المغرب وأفريقية ، وإلى أرض مصر والاسكندرية ، وربما بلغ منه إلى اليمن قليل ، وهذا الزيت أطيب زيت المعصور كله وأودَكُه^(١) ، وذلك أن كل زيتون بجميع الأرض لا يبقى أكثر من سنة واحدة ، ويعفُّن ، ولا يخرج منه زيت ، وزيتون هذا السَّع (يريد الصقع) يظل تحت الأرض عشرين سنة وثلاثين سنة وأكثر من ذلك ، فيكثر زيتُه ويخرج ...»^(٢) ويقول بعد ذلك (١٦٠) : « وبالمغرب من لإشبيلية على نحو الفرسخ معدن التراب^(٣) الذي يعمل منه النُّبَل ، ولا يوجد هذا التراب في الأندلس إلا في هذا الموضع ، ومنه يجلب إلى جميع بلاد الأندلس للطباعين ، ومن عجب هذا التراب أنه ينبت كما ينبت الطُّفَل » .

وهذه الملاحظات ذات القيمة الاقتصادية كثيرة جداً في الكتاب ، وهي تؤيد ما ذهبنا إليه من أنه مجموع صنف للتجار والملاحين ، وواضح أنه لا يهم بشيء قدر اهتمامه بالحصولات وعيون الثروة ، وهذه هي التي تهتم أولئك الناس في المكان الأول .

ومن أحسن فقرات « جغرافية » الزهرى عن الأندلس تلك التي يتكلم فيها عن غرناطة ، فهي لا تدل فقط على أنه عاش في هذا البلد زمنًا وعرف ما فيه معرفة تامة بل تكشف عن حقيقة هامة ، وهي أن الكثير من منشآت

(١) في الأصل : سكلها وأودكها ، وصوبته للسياق . وأودكه أى أكثره مادة دهنية ، لأن الودك هو الدهن .

(٢) قارن بذلك ، الروس المعطار ، ص ٢١ و ١٠١

(٣) يريد تراب الحديد ، والمقصود الأحجار التي تحوى معدن الحديد وهي كثيرة في الجبال الواقعة شمال لإشبيلية وتعتمد بعد ذلك شمالاً بغرب وكانت تعرف عند جغرافينا باسم جبال المعدن ، واسمها الحالى سيرا مورينا Sierra Morena أى الجبال السوداء ، وفيها إلى اليوم مناجم حديد ، ولا تزال توجد هناك إلى اليوم بلدة كبيرة تسمى المعدن Almaden تقع على بعد ١١٨ كم. شمالي قرطبة في مديرية ثيوداد ريال ، والمراد بالطباعين هنا الحدادين الذين يطبعون النبال والسيوف أى يصنعونها .

غرناطة المنسوبة إلى بنى الأحمر كانت قائمة فيها قبل أن يتخذها محمد بن يوسف ابن الأحمر عاصمة ويشرع في تحصينها وتعميرها في سنة ١٢٣٢/٦٣٠ - ١٢٣٣ ؛ فان الزهرى كان فيها حوالى سنة ٥٤٥/١١٥٠ - ١١٥١ لأنه شهد منارة قانس قبل هدمها في هذه السنة ، ثم حُدَّتْهُ بأمر هدمها واحد من الذين حضروا ذلك ، أى بعد سنة ٥٤٥ . وحتى إذا فرضنا أن ذلك كان في شبابه ، فانه يستبعد أن يكون قد عاش إلى ما بعد سنة ٦٣٠ ورأى منشآت محمد بن يوسف بن الأحمر فيها ، فلم يبق إذن الا القول بأن غرناطة التي عرفها ووصفها هي غرناطة قبل بنى الأحمر . وإليك وصفه لها ، نثبته لما له من الأهمية (ورقة ٦٤ ب) : « ومدينة غرناطة على النهر الكبير المسمى بوادى شذيل ، يشق وسطها ، ومنه يؤخذ الذهب الأحمر الذى ليس فى الأرض أطيب منه ، وهو الموضع الثالث من الأندلس الذى تقدم ذكره ، والذهب الذى يؤخذ فى هذا النهر إنما هو ورقه ، وأكثر ما يوجد هذا الذهب فى وسط المدينة فى الموضع المعروف بالبردوية^(١) [عند باب القنطرة المعروفة بقنطرة الحرائين والقنطرة المعروفة بقنطرة القاضي فى مصب الخندق المنصب من جبل السبيكة ما بين الحمرة^(٢) ومُرُور^(٣) . وقد يوجد فى ياب الوادى وأسفله يسير من الذهب . وهذا الذهب إذا جُمع فانه يَنْباع

(١) كذا فى الأصل ، ولعل صحته البنيده أو باب البنيده وهو أحد أبواب غرناطة القديمة التى لا زالت آثارها باقية إلى اليوم إلى جوار باب البيرة وباب زايدة Bib Ceida فى شمال غربى غرناطة إلى الشمال من حى البياسين .

(٢) الحمرة أو باب الحمرة هو الرسم العامى للاسم الأصلى للباب الرئيسى من أبواب الحمراء ، وهو على الباب المعروف بباب الشريعة ، ويسمى هذا الباب الآن باسم بويرتا دل بينو أى باب الحجر ، ولا علاقة لهذا الباب بالحجر ، وإنما هو باب الحمرة حُرِفَتْ إلى الحمرة وترجمت إلى البينو . وكان المظنون أن هذا الباب من إنشاء بنى الأحمر ، ولكن يرى من هذا النص أنه كان موجوداً قبلهم .

(٣) كذا فى الأصل ، والأصح مورور والمراد ربض مورور إلى شمال غرناطة ، وكان عنده باب مورور ، نسبة إلى مدينة مورور وهى اليوم Morón . وباب مورور كان يسمى إلى عهد قريب باب الشرق Bib Axarc ثم سُمى باب الشمس Puerta del Sol .

مثقاله بزايد على جميع الذهب بالربع والخمس في القيمة . وهذا النهر يدخل غرناطة من ناحية الجوف ، ويخرج قبلها ما بين القصبتين^(١) على باب محكم الصنعة على البناء ، قد علق عليه رُقُقٌ مصفحة . وفي جوف هذا الباب بابان صغيران لاستقاء الماء وقت الحرب ، ولا يوجد مثل هذا الموضع في الأندلس إلا في غرناطة . وهذا النهر يشق غرناطة بشطرين ، قد بنى عليه أربع قناطر عالية البناء ، يجوز الناس عليها من النصف الواحد إلى النصف الثاني ، وهذه المدينة كثيرة البرودة والتلج ، ليس في بلاد الأندلس أكثر منها برداً . ومن هذه المدينة يجلب الكتان والحرير إلى جميع بلاد الأندلس وبلاد المغرب ، ومن أحد عجائب هذه المدينة أن فيها طلسمًا من اللاطون . . . »

وقد بينا في تعليقاتنا أهمية بعض ما تكشف عنه هذه الفقرة عن غرناطة قبل بنى نصر ، وهى من هذه الناحية وثيقة غاية في الأهمية بالنسبة لمن يدرسون تاريخ غرناطة ، ولا يتسع المقام هنا للكلام بتفصيل عن كل الحقائق التي تكشف عنها هذه الفقرة .

والمؤلف في أثناء كلامه عن الأندلس ملاحظات عظيمة الفائدة ، وهذه الملاحظات تقع في حديثه عن النواحي التي زارها وعرفها ، وقد رأينا حديثه عن المرية وغرناطة ، ومثل ذلك أيضاً حديثه عن صنم قادس ، وهى المنارة الكبيرة التي يقال أنها كانت قائمة على ساحل البحر قرب قادس ، وتعرف في الروايات اللاتينية باسم *Columnae Herculis* أى أعمدة هرقل ، وذكرها كثير في سراجنا الأندلسية ، ولكن الزهرى رأى تلك المنارة قبل هدمها سنة ٥٤٥ / ١١٤٩-١١٥٠ ووصفها بغاية الدقة كما رآها ، ثم حدثه بعض أصحابه بأمر هدمها ، والفقرة عظيمة الأهمية ، لأنها تدل على أن الزهرى كان حيّاً في ذلك الحين ،

(١) أى القصة القديمة على التل الذى يقوم عليه حالياً حى البياسين ، وكانت هذه القصة تسمى قديماً حصن الرمان ومنه جاء اسم غرناطة للبلد كله ، ولم يسم بالبياسين إلا بعد هجرة نفر من أهل بياضة Baeza إليه وسكنهم فيه . وهذه العبارة تدل على أن القصة الجديدة وهى تصور الحمراء اليوم كانت قائمة قبل بنى نصر .

وأنه كتب كتابه بعد سنة ٥٤٥ بقليل ، وقد نشر دوزى هذه القطعة بأكملها وعلق عليها (الأبحاث ، ج ٢ ملحق ٣٥ ص ٨٩ من الملاحق العربية) مما يعطينا من إيرادها هنا ، ولكننا نجتزئ منها بفقرة تدل على دقته في وصف ما شاهد ، ونشرها بحسب ما ورد في مخطوطة أكاديمية التاريخ في مدريد ، رقم ٣٥ ورقة ٦٠ وما يليها مراجعة على ما نشره دوزى بناء على مخطوط المتحف البريطاني ورقة ٦٩ ب وما يليها) : « وكانت في هذه المدينة (قادس) المنارة العجيبة ، وكان ارتفاعها مائة ذراع ، وكانت مربعة مبنية بالكردان الأحرش المحكم النجارة معقدة في أعمدة النحاس الأحمر ، وكان في رأس هذه المنارة مربع ثانٍ قدر ثلث الأول ، وكان في رأس هذا المربع الصغير شكل مثلث محدود له أربعة أوجه ، على كل وجه من المربع الصغير وجه من المثلث ، ففي رأس تحديد المثلث رخامة بيضاء مربعة من شبرين في شبرين ، وعلى تلك الرخامة مثال صورة ابن آدم من أبداع ما يكون من الاتقان وأحسن ما يكون من الانشاء ووجهه ل ناحية المغرب مما يلي البحر ملتفتاً على ناحية الشمال ، قد مدّ ذراعه الشمال وقبض أنامله وأشار بسبابته على فم الخليج الخارج من البحر الأعظم المسمى بالزقاق المعترض بين طنجة وبين جزيرة طريف ، كأنه يُرى السالك ، وقد أخرج يده اليمنى للبر تحت لحافه وقبضها ، وفي يده عصى كأنه يشبر برميها إلى البحر . وزعم كثير من الناس أنه مفتاح ، وهم في ذلك على باطل من القول ؛ قال المؤلف لقد رأيته سراً ولم أر في يديه مفتاحاً ، وإنما يظهر في يديه شبه عود صغير لبعده من الأرض . ولقد أخبرني من حضر هدم الصنم — وكان من العرفاء الذين حضروا تلك المنارة — أن الذي كان بيده عصى طولها اثنا عشر شبراً وفي رأسها شكاشف كالفرجلة وسيأتي ذكر هدم هذه المنارة في موضعه ، ومنذ هدمت هذه المنارة انتقطع دليلها ، وكان هدمها سنة أربعين وخمسة^(١) في أول الفتنه

(١) كذا في الأصل ، والصحيح ٥٤٥ ، وسيذكر المؤلف هذا التاريخ فيما بعد .

الثائرة ببلاد الأندلس ، هدمها على بن عيسى بن ميمون ، حين شاع في جزيرة قادس أن ذلك التمثال من الذهب ، فلما قلعه وجده من اللاطون ، وقد غسل بالذهب الطيب ، فجرد عنه ١٢٠٠٠ دينار من الذهب ، فبطلت حركته من البحر ... »

ومن الأخبار الشبيهة بهذه في الكتاب خبر « البيتين » اللتين صنعهما أبو القاسم بن عبد الرحمن بن رز ليسجل بهما أيام الشهر القمري يوما يوما عن طريق ما يدخلهما من ماء نهر تاجة بتأثير المد الذي يتابع تطور القمر . والبيلة هي الحوض ذو البالوعة (بالإسبانية *pila*) ، وقد بنى ذلك المهندس العربي هذين الحوضين داخل غرفة ابتناها في الماء ، وجعل ثقبى الحوضين على سطح الماء بحيث إذا مدّ النهر وعلا الماء دخل منه في الحوضين بقدر ما علا ، وإذا جزر نقص من ماء الحوضين بقدر جزر ماء النهر ، وقد نقلها عنه المقرئ مع بعض التعديل ^(١) وشوّه اسم المهندس ، فرأينا أن نأتي بها هنا على تواليها ، لأنها نموذج من أحسن صفحات هذا الكتاب وأقربها إلى روح العلم . وقد أورد الزهرى خبر هاتين البيتين في الفصل الذى اختص به طليطلة ، وهو يتضمن معلومات طيبة لها قيمتها ، ولهذا فسنورده كله ونعلق عليه بما يسمح به المقام ، وسنأخذ بأحسن ما يتراءى لنا من قراءات المخطوطات ، تاركين مفارقاتها لمن يريد أن يتتبع ذلك في فقرات نص الزهرى كما نشره رينيه باسيه في مجلد تكريم كوديرا .

« فصل : وكذلك من أعظم بلاد الأندلس مدينة طليطلة وهي مدينة عظيمة قد أحرق بها النهر المسمى بنهر تاجة وهي من بنیان الخزر وقيل أنها من

(١) لشر هذه الفقرة ضمن ما نشر من وصف الأندلس من جغرافية العذرى رينيه باسيه في مجلد التكريم المهدى إلى فرانيسكو كوديرا (سبق أن أروونا عنوانه) ، ص ٦٣٢ — ٦٣٤ وأورده المقرئ في النفج ، ١/١٩١ — ١٩٢ وعن لفظ بيلة أنظر رحلة ابن جبير ، بتحقيق وليام رايت ، (جامع المفردات) ص ١٨ و Simonet, Glosario de Voces Ibéricas y Latinas, p. 438

بنيان القوطيين ، وهى كانت دار ملكهم ودار ملك الروم من بعدهم ، وأصبح الروايات أنها كانت من بنيان الخزر الذين كانوا فى مدة ابراهيم عليه السلام وقال ابن الجزار فى كتاب عجائب البلدان : أنه سكن فى هذه المدينة ابن النمرود وهو فرعون ابراهيم عليه السلام حين ولاه أبوه بلاد المغرب ، ومنها خرج إلى ساحل قرطجنة بكورة تدمير فى الأندلس ، وسيأتى ذكرها فى موضعها إن شاء الله تعالى . ومن عجائب طليطة أن القمح يبقى فيها سبعين سنة وثمانين سنة لا يتسوس وهى كثيرة الزرع والضرع .

« وفيها العجب العجيب الذى ما صُنِعَ فى الدنيا مثله وهما البيلتان اللتان صنعهما أبو القاسم بن عبد الرحمن المعروف بابن رز ، قال : وذلك أنه عفا الله عنه لما سمع بذكر الطلسم الذى بمدينة أرين من أرض [الهند] الذى ذكر المسعودى أنه يدور بأصبعه مع الشمس من طلوعها إلى غروبها كما تقدم ذكره فى عجائب الهند ، صنع هو هاتين البيلتين ، وهما فى خارج طليطة فى بيت فى جوف النهر الأعظم فى الموضع المعروف بباب الدباغين ، فمن عجائب هاتين البيلتين أنها تمثلتان وتنحسران مع زيادة القمر ونقصانه ، وذلك أنه إذا كان الوقت الذى يُرى فيه الهلال يخرج فيها شيء من ماء ، فإذا أصبح كان فيها رُبْع سُبْعِها من ماء ، فإذا كان آخر النهار اكمل فيها نصف سبع ، فلا يزال كذلك يزيد بين اليوم والليلة نصف سبع حتى تنكمل سبعة أيام وسبع ليال فيكون فيها نصفها ، ثم يزيد كذلك نصف سبع فى كل يوم وليلة حتى ينكمل امتلاؤها بكمال القمر ، فإذا كان فى ليلة خمس عشرة وبدأ القمر فى النقصان نقصتا بنقصان القمر فى كل يوم وليلة نصف سبع ، حتى يكون من الشهر أحد وعشرون يوماً واحدى وعشرون ليلة فينقص منها نصفها . ولا يزال كذلك ينقص كل يوم وليلة نصف سبع ، فإذا كان من الشهر تسعة وعشرون يوماً لا يبقى فيها شيء من الماء . وإذا تكلف أحد حين يكون فيها الماء دون امتلاء وجلب لها الماء وملاؤها اتلعتا ذلك مرة حينها حتى لا يبقى فيها

شيء من الماء الا ما كان فيها في تلك الساعة ، فهذا ماء داخل وماء خارج^(١) ، وكذلك لو تكلف أحد عند امتلائها أن يفرغها حتى لا يبقى فيها شيء ثم ازاح يده عنها خرج فيها من الماء ما يملأها في ساعة واحدة ، فهذا أعجب وأشنع ، وإن كان الصم الذي بمدينة أرين الذي تقدم ذكره عجيباً فهذا أعجب منه ، لأن ذلك في نقطة الاعتدال من الفلك والأرض بالموضع الذي لا ينقص فيه ليل ولا نهار ، وأما هاتان البيلتان إنما هما بالموضع الذي ينقص ليله ويزيد نهاره خارجاً عن الاعتدال ، فهذا أغرب من ذلك الصم والله أعلم .

« وكانت هاتان البيلتان في بيت واحد ، فاما اتصل خبرهما بملك طليطة الادفونش أراد أن يبحث عن حركاتهما فأمر أن تطلع الواحدة منها لينظر من حيث يأتي إليها الماء ، وكيف حركاتها ، فانطلقت حركة الواحدة وكان قلعها وفسادها في عام ثمانية وعشرين وخمسة ، وكان سبب فسادها حين بن ربوة اليهودي المنجم لعنه الله ، الذي جلب حمام الأندلس كلها إلى طليطة في يوم واحد ، وكان ذلك في عام سبعة وعشرين وخمسة ، وأخبره أن ولده سيدخل قرطبة ويملكها ، فاراد اليهودي أن يكشف حركة البيلتين فقال أنا أقلعهما وأردهما كما كانتا وأحسن ، وأردهما تمتلئان بالنهار وتحسran في الليل ، فلما قلعهما لم يقدر على ردهما ، وإنما أراد أن يسرق من صنعتها ، فبقيت الواحدة معطلة والثانية باقية على حالها » .

وواضح أن الزهري نقل هذه الفقرة برمتها من كتاب ابن الجزار الذي أشرنا إليه ، فإن الكلام فيها علمي متسق صادر عن فهم صحيح لتركيب هاتين البيلتين وقائم على علم وثيق بالفلك ، ولا نسبة مطلقاً بين هذه الفقرة وأمثالها وتلك الفقرات الخرافية المهلهلة معنى وأسلوباً التي أتينا بنأذج منها ، وإنه لمن الغريب حقاً أن يجتمع الرديء جداً والجيد جداً بين دفتي كتاب واحد ، فهذا

(١) يريد : وذاك ماء خارج .

ليس نأليفاً أو تصنيفاً وإنما هو حشد احتطاب بَلَيِّل يؤيد ما افترضناه في أمر هذا الكتاب ، وهو أنه مجموع من المعلومات احتطبها صاحبها من أى مصدر تيسر له : من أفواه الرحالة وأخبار التجار وأقاصيص الشُّفَّار وحكايات السُّمَّار مع صفحات من كتب قيمة وأخرى غير قيمة . جُمعت كلها دون تكلف ترتيب أو تنسيق وسيقت شرحاً لخريطة مما كان الملاحون وأهل الرحلات يستمعون به ، وانصرف الاهتمام فيها إلى التجارات والمحصولات وما إليها مما يهتم التجار وأهل الأسواق والملاحين .

ونخرج من هذا بأن كلام الزهرى عن الأندلس مقبول لا يخلو من الفوائد على الجلة ، وقد حفظ لنا قطعاً كثيرة من كلام ابن الجزار عن شبه الجزيرة ، ولا شك أن كتاب ابن الجزار هذا كان من أحسن ما كتب عنها . ونص كتاب الزهرى يزيد في بعض فقراته فائدة على نص ابن عبد المنعم الحميرى في الروض المعطار ، ولا شك أن نشره كاملاً يضيف إلى معلوماتنا الجغرافية عن ذلك البلد . أما كلامه عن غير الأندلس فيتفاوت من حيث القيمة ، فهو يحميد الكتابة — على طريقته — عن مصر والشام وجزيرة العرب ، وهذه الجودة تقل شيئاً فشيئاً كلما اتجه نحو الشرق ، حتى إذا وصل إلى الصين لم نجد إلا حديث خرافة ، ولكن الزهرى يحرص دائماً على إيراد المعلومات التي تهتم التجار ما أمكنه ذلك ، فهو يقول عن خراسان (١٣٨) « ومن هذه المدينة تجلب الثياب المعروفة بدبيقان ، وهى ثياب رفاق من القطن مرقومة بالذهب وألوان السندس الملون بأحسن الصَّبَاغ ، وهذه الثياب لا توجد في غير هذه المدينة ، ومنها تجلب إلى أقطار الأرض » وأمثال هذه المعلومات القيِّمة تقل في حديثه عن بعض البلاد كالهند مثلاً ، فان كلامه عنها سلسلة من أحاديث الخرافة والعجائب ، كأنما صرفته هذه الأعاجيب عن منهجه فمضى يتحدث عن الأفاعي والطيور المعجبية والفيلان المفترسة والأحجار السحرية والأشجار الغريبة فلم يعد يذكر منهجه إلا لماماً . ومن أمثلة عجائبه هنا قوله س شجرة السيرج : « وهو

شجر طيار كبير ، تثمر فى كل عام فى شهر نيسان بجوز كبير ، وإذا كان شهر يونيه جمعت تلك الجوز ، وأخرج منها أطيار فى شكل الزراير ، يطبخونها ويأكلون لحمها » (٩ ب) . ويلاحظ استعماله الأشهر السريانية والرومانية هنا ، مما يدل على أنه يُثبت ما سمع كما هو ، ولكنه لا ينسى الحاصلات والمعادن أبدأ ، فهو مثلاً يتحدث عن جزائر السند ، ويذكر إحدى جزرها ويقول (ورقة ١١٩) : « وفيها معدن الحديد ، ومنها يجلب إلى بلاد الهند والصين . كذلك يجمع فيها كثير من الذهب ، ويوجد فيها كثير من اللبان وكثير من الشيطرح (٩) » ، ثم يقول بعد ذلك « واختصرنا بلاد السند ، إذ ليس فيها أعجوبة تذكر ، فلنذكر الآن ما يأكلون من الحبوب والفواكه ، وأخلاق أهلها وصفاتهم وأديانهم وشرائعهم » ثم يذكر بعد ذلك كلاماً هو أوغل ما يكون فى الغربة والبعد عن التصديق ، ويختتمه بقوله : « وأكثر طعامهم القطاى وقليل من القمح ، وربما بلغ إليهم أحياناً زيت الزيتون ، وإنما زيتهم زيت الشمس وزيت الشحم ، وعندهم من الفواكه الكثيرى وعين البقر وقليل من التفاح ، ولكن يجلب إليهم كثير من التمر من بلاد العراق والزييب من بلاد اليمن ، ويجلب إليهم من بلاد الحبشة كثير من طعامهم الذى يزرعونه عندهم على النيل ^(١) مثل الفول وغير ذلك » . وهكذا يجمع الرجل بين ما يشوق التاجر والملاح وما ينفعهما : حديث العجائب وحديث المتاجر .

والخلاصة أن حديث العجائب فى هذا الكتاب جزء من صلبه وتكوينه ؛ وعجائبه تتراوح بين عجائب المنشآت والصنعة — ما هو ممكن منها وما هو غير ممكن — وعجائب الأرض والخلوقات من الطراز الذى رأيناه عند أبى حامد الغرناطى ومن طرز أخرى شبيهة بما نقرأ فى ألف ليلة ، وهذه العجائب تكثر فى النواحي البعيدة التى لا يعرف الناس عنها كثيراً مثل نواحي خط الاستواء

(١) كذا فى الأصل ، والغالب أن المراد : على طريقة الرى كما هو الحال فى وادى النيل .

والهند والصين ، فهو يذكر في خط الاستواء حيواناً شبيهاً بالقرد يسمى الزمردة « ذات سم زعاف يقتل من ساعته » (ص ٢ ب — ١٣) ، ثم يذكر طير الرخ ، ويضيف إلى ما نعرف من عجيب خلقه أنه يأكل بفمين ، ومن الطريف أنه يقول بعد ذلك : « وذكرت الحكماء في هذه الأرض ما لا تقبله العقول ، واختصرنا ذكرها لبعدها عن الوجود ، والله أعلم » ١

ثم ينسى أنه قال ذلك ، ويمضي في الحديث عن جنوب خط الاستواء ويقول : « فن نشأ وخلق تحت الأبراج الشمالية فلا يستطيع دخول النصف الجنوبي ، لأنه يتغيب عليه الهواء ، ويرجع رأسه إلى ناحية الأبراج الجنوبية وقدماه إلى الناحية الشمالية ، وذلك بضد ما خلق فيه من الهواء ، وإنما يدخل النوبة والحبشة^(١) في هذا الموضع على خط الاستواء على ما تقدم ذكره لأنهم نشأوا ما بين الجنوب والشمال ، فهاؤهم تمتزج بعضه ببعض ، فلذلك يدخلون في هذه الأرض عشرين فرسخاً ونحوها ، ثم يغلب عليهم الهواء ويقتبلون (يريد ينقلبون) في الأرض ، فلا يمشون في الأرض لذلك كله » .

وتكفي هذه العجبة ، فإن الكتاب مليء من أمثالها ، والزهري حريص على إيرادها في كل فقرة من كتابه تشويقاً لقارئه وامتناعه بهذه الأحاديث التي أصبحت بعد أبي حامد الفراء جزء من الجغرافية ، بل أصبحت هي الجغرافية كلها في كثير من الأحيان .

أبو بكر بن العربي وميلاد أدب الرحلات في الأندلس

ونختم هذا الفصل عن معاصري الإدريسي بالكلام عن ناحية من نواحي نشاط الفقيه الأندلسي محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن العربي المعافري (٤٦٨ — ٥٤٢ / ١٠٧٦ — ١١٤٨) نَبَّهَ إليها أغناطيوس كراتشكوفسكي في

(١) يريد أهل النوبة والأحباش .

كتابه الجامع عن تاريخ الأدب الجغرافى العربى ، وهذه الناحية هى مؤلفات ابن العربى فى وصف رحلته إلى المشرق ، وحديثه عما زار من البلاد ومن لقي من العلماء .

وقد أصاب العلامة الروسى عندما قال إن ابن العربى « أول من وضع الأساس لهذا الفن حسب علمنا »^(١) لأن ما وصل إلينا من أوصاف رحلات ابن العربى هو بالفعل أقدم ما وصل إلينا من ثمرات هذا الفن فى الأندلس ، وقد يكون غيره قد سبق إلى ذلك ، ولكن شيئاً من ذلك لم يصلنا على أى حال . وقد كتب ابن العربى وصفاً مفصلاً لرحلاته سماه « ترتيب الرحلة للترغيب فى الملة » لم تصل إلينا منه إلا فقرات فى كتب شتى سنشير إليها ، وذكر أطرافاً من أخبار رحلته ومن لقي من العلماء فى خطبة كتابه المسمى « قانون التأويل فى تفسير القرآن » ، وقد ضاع هذا الكتاب أيضاً ، وليس لدينا منه إلا نقول ؛ ثم استخلص من « ترتيب الرحلة » بضع رسائل شبه رسمية كتبها إلى الخليفة المستظهر يتحدث إليه فيها عن أفضل المربطين وخدماتهم للإسلام ، ورسائل أخرى كتبها له محمد بن محمد بن محمد بن جبير وزير المستظهر ، وخطابات أخرى يرد تفصيلها فيما بعد ، وجمعها كلها فى رسالة نستطيع أن نسميها « شواهد الجلة والأعيان فى مشاهد الإسلام والبلدان »^(٢) وهذه الرسالة هى التى وصلت إلينا كاملة تقريباً .

ولسنا فى حاجة إلى أن نقف طويلاً عند حياة أبى بكر بن العربى ، فقد أجهلنا خطوطها الرئيسية فى « تاريخ الفكر الأندلسى » ، وعرضنا عرضاً سريعاً كراتشكوفسكى فى كتابه ، وتحدث عنه بونس بويجس فى كتابه مع تفصيل مشكور ، وجمع كل المادة الموجودة عن حياته محب الدين بن الخطيب

(١) اغناطيوس يوليافوفتش كراتشكوفسكى ، تاريخ الأدب الجغرافى العربى ، نقله عن الروسية

صلاح الدين هاشم ، القاهرة ، ١٩٦٣ ، ١/٢٩٨

(٢) استخلصت هذا الاسم من عبارة وردت فى السياق وسيجيء ذكرها .

في مقدمته الحافلة لكتاب «العواصم من القواصم» لابن العربي (القاهرة ١٣٢٧) وأحصى كذلك كل مؤلفاته وأعماله .

وسنورد هنا ما لا بد لهذا البحث من معرفته من حياة ابن العربي الحافلة بالحركة والأحداث . ولد في اشبيلية في ٢٢ شعبان ٤٦٨ / أبريل ١٠٧٦ وكان أبوه عبد الله بن محمد بن أحمد بن العربي (٤٣٥ - ٤٩٣ / ١٠٤٣ - ١٠٦٩) ^(١) من علماء اشبيلية المعروفين وإليه يرجع الفضل في توجيه ابنه نحو العلم والدراسة . أما أمه فقد كانت من بيت من بيوت العلم والرياسة في اشبيلية ، فكان أخوها الحسن بن عمر بن الحسن الهوزني (٤٣٥ - ٥١٢) « فقيهاً مشاوراً عالياً في روايته ، ذا كراً للأخبار والحكايات ، حسن الايراد لها » ^(٢) ، أما أبوها عمر بن الحسن بن عمر بن عبد الرحمن بن عمر الهوزني (٣٩٢ - ٤٦٠) فكان عالماً ، ولكنه تطلع إلى السياسة ونافس المعتضد بن عباد في الاستئثار بالسلطان ، ولم يستطع الثبات أمامه ، فقتله المعتضد « بيده ، ودفنه بثيابه وقلنسونه ، وهيل عليه التراب داخل القصر » ^(٣) . ويبدو أن تلك النهاية الحزينة كان لها أثر على البيت كله ، فاستكاث أفراده لبني عباد على نفور وكرهه . ومن الثابت على أي حال أن خال أبي بكر بن العربي وهو أبو القاسم الحسن بن عمر الهوزني كان من الساعين في القضاء على بيت بني عباد ، ومن المحرضين ليوسف بن تاشفين على ذلك ، حتى خلع المعتضد بن عباد ونفى إلى أعماق .

وفي هذه السنة بالذات ، وبعد أن صارت اشبيلية في ملك المرابطين كانت سن أبي بكر بن العربي ١٦ سنة ، فخرج به أبوه في رحلة حج ودراسة وسماع إلى المشرق ، وخلال هذه الرحلة إلى المشرق نلاحظ أن أبا بكر بن العربي

(١) ابن بشكوال ، الصلة ، ص ٦٢٠

(٢) نفس المصدر ، ص ٣١٥

(٣) نفس المصدر ، ص ٨٦٠

كان متفتح الذهن. واعياً لما يمر عليه من بلاد وناس ، وسيدون بعض ملاحظاته عن رحلته هذه في « ترتيب الرحلة » وفي بعض فقرات « قانون التأويل » ، ثم في « شواهد الجلة والأعيان » ، ونلاحظ عليه في هذه السن الباكرة حماساً للمرابطين وتقديراً عظيماً لهم .

لم تكن رحلة الأب والابن بالبحر يسيرة ، فقد أوجأتهما الأنواء إلى الرسو في ميناء بجاية ، وكان في ذلك الحين مرسى صغيراً لم تمض على إنشائه سنوات ، فقد اختطه سنة ٤٥٧/١٠٦٥ محمد بن البتّيج أمير البحر لتمسيم بن المعز ابن باديس الزيري ، ورغم ذلك فقد كان فيه نفر من العلماء سمع منهم أبو بكر وأبوه ، وهو يذكر بصفة خاصة أبا الحسن علي بن محمد بن ثابت الحداد الخولاني المقرئ ويقول عنه « فكنت أحضر عليه كتابه المسمى بالإشارة وشرحها من تأليفه » . ثم انتقلا إلى المهديّة في أواخر ٤٨٥/١٠٩٢ وهناك لقي ابن العربي الامام أبا عبد الله محمد بن علي المازري (٤٥٣ - ٥٣٦/١٠٦١ - ١١٤١) وسمع عليه .

ومن المهديّة رحل أبو بكر مع أبيه بالبحر إلى الاسكندرية ، ولكن البحر كان أقسى عليهم هذه المرة مما كان في المرة السابقة ، فثارت عاصفة حطمت السفينة ، وكاد ابن العربي وأبوه يغرقان ، ولكنهما استطاعا الوصول إلى الشاطئ في أسوأ حال ، وسيصف ابن العربي ذلك في « قانون التأويل » وكان خروجهما من البحر في موضع من ساحل طرابلس تسكنه بيوت من بني كعب بن سليم ، فأكرمهم رئيس أولئك الشكّيين ، ثم واصلا السير إلى الاسكندرية .

لم يطل مقام أبي بكر وأبيه في الاسكندرية ، بل اتجها إلى القاهرة فوصلها قبل نهاية سنة ٤٨٥/١٠٩٢ وكان الخليفة إذ ذاك هو المستنصر والدعوة الفاطمية على أشدها وعلماء السنة يسترون مجالسهم لاسماع تلاميذهم ، فكان ابن العربي يذهب إلى القرافة الصغرى قريباً من قبر الامام محمد بن إدريس الشافعي ليسمع دروس القاضي أبي الحسن علي بن الحسين بن محمد الخلعي

(٤٠٥ - ٤٩٢) وكان كبير مشايخ الشافعية في وقته حتى كان يلقب بمسند^(١) مصر . وسمع في مصر أيضاً من أبي الحسن علي بن شرف ومهدى الوراق ، وأبي الحسن بن داود الفارسي^(٢) .

ثم انتقل أبو بكر بن العربي إلى بيت المقدس ، وهناك لقي أبا بكر محمد بن الوليد الطرطوشي الفهري المعروف بابن أبي رندقه (٤٥١ - ٥٢٠ / ١٠٥٩ - ١١٢٦) وهو أندلسي مثل ابن العربي ، ولم يكن قد استقر بعد في الاسكندرية ، وقد أفاد ابن العربي كثيراً من دروس الطرطوشي وسمع ما كان يدور أثناءها من المناقشات وشارك فيها ، واستلفت انتباهه بصفة خاصة موضوع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهو موضوع ظل يشغل بال ابن العربي من ذلك الحين ، لأن علماء الأندلس كانوا يشعرون بعد ضياع الخلافة وتفرق بلادهم أن من واجبهم رعاية قومهم عن طريق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كما يبناه في دراستنا عن « شيوخ العصر في الأندلس » وسيكتب ابن العربي عن ذلك الموضوع كثيراً في كتبه . ومن الموضوعات التي أثّرت في مجالس الطرطوشي موضوع فضل الصحابة على^(٣) غيرهم ، وربما كان هذا هو الذي أوحى إلى ابن العربي فيما بعد كتابه المسمى « العواصم من القواصم » .

وأقام ابن العربي في بيت المقدس ثلاث سنوات سمع فيها إلى جانب الطرطوشي دروس ابن الكازروني ، وقال فيه « كان يأوى إلى المسجد الأقصى ، ثم تمتعنا به ثلاث سنوات ، ولقد كان يقرأ في مهد عيسى (أى في بيت لحم) فيسمع من الطور ، فلا يقدر أحد أن يصنع شيئاً دون قراءته إلى الاصغاء إليه^(٤) » . وتجول ابن العربي بعد ذلك في نواحي فلسطين وزار وادي موسى ووصفه فيما بعد .

(١) السبكي ، طبقات الشافعية ، ٢٩٦/٣

(٢) محب الدين الخطيب ، مقدمة العواصم من القواصم ، ص ١٤

(٣) محب الدين الخطيب ، ص ١٥

(٤) نفس المصدر والصفحة . وقد رواها محب الدين على هذه الصورة ، ومن الواضح أن

العبارة في حاجة إلى تقويم .

ثم انتقل إلى دمشق وسمع على نفر من شيوخها ، ودخل بغداد حوالى سنة ١٠٩٧/٤٩٠ في أوائل خلافة أبي العباس أحمد المستظهر بالله بن المقتدى^(١) (٤٨٧-٥١٢/١٠٩٤-١١١٨) .

وقد طالت إقامة ابن العربي في بغداد ، وسمع من شيوخها إذ ذاك ما بين شافعية وحنبلية ومعتزلة ، ودارت بينه وبينهم محاورات كانت بعيدة الأثر في تكوينه الذهني والفقهى . ويذهب بحب الدين الخطيب إلى أن ابن العربي لقي في بغداد محمد بن تومرت ، وهذا غير معقول قطعاً ، لأن ابن تومرت بدأ رحلته إلى المشرق سنة ٥٠٠ أو ٥٠١/١١٠٦-١١٠٧ ، ولا يمكن أن يكون قد وصل إلى المشرق قبل سنة ٥٠١ ، وفي هذا الوقت كان الغزالي قد ذهب إلى طوس حيث توفي سنة ٥٠٥/١١١٢^(٢) . وفي سنة ٥٠١ كان ابن العربي قد عاد إلى اشبيلية منذ ثمان سنوات ، ومع هذا قَسَيْسُئَالَ ابن العربي في محضر عبد المؤمن بن علي إن كان قد لقي ابن تومرت في بغداد ، وسيضطّر الشيخ إلى أن يجيب إجابة مبهمة ، ولكنه لن ينجو من عقابيلها ، لأن عبد المؤمن كان يريد أن يقرر أمام الناس أنه رأى ابن تومرت بين طلاب الغزالي ، فإخلف ابن العربي ظنه .

في بغداد ندب ابن العربي نفسه لمهمة سياسية خدمة للمرابطين ، فكتب خطاباً إلى الخليفة المستظهر بعدد فيه فضائل يوسف بن تاشفين ويرجوه تأييده ،

(١) يذهب بحب الدين الخطيب (مقدمة القواصم من العواصم ، ص ١٦) إلى أن ابن العربي دخل بغداد في خلافة المقتدى ، وقبل خلافة المستظهر بسنتين ، وهذا غير ممكن ، لأن المقتدى توفي سنة ١٠٩٣/٤٨٧ ومعنى ذلك أن ابن العربي دخل بغداد سنة ٤٨٥ ، وهي السنة التي خرج في ربيع الأول منها من اشبيلية ، وقد وصل إلى مصر قرب نهاية هذا العام ، ثم رحل إلى ببت المقدس وقضى فيه ثلاث سنوات ، ثم انتقل إلى دمشق وقضى فيها وقتاً ، ثم دخل بغداد بعد ذلك ، ولهذا قلنا أنه دخلها حوالى سنة ٤٩٠ ؛ هذا إلى أن أول رسالة كتبها ابن العربي إلى الخليفة المستظهر مؤرخة في رجب ٤٩٠

(٢) راجع مناقشة التواريخ في : Ambrosio Huici Miranda, *Historia política del Imperio Almohade*, Tetuán 1956, p. 27-32.

ونص هذه الرسالة بين أيدينا ، وهو لا يشير إلى أن أحداً كلفه بذلك ، والخطاب مؤرخ في رجب ٤٩٠ / يونيو ١٠٩٧ ثم أخذ كتاباً من محمد بن محمد ابن جبير وزير المستظهر إلى يوسف بن تاشفين يمتدحه ويؤيده ويقول فيه : « ولقد بالغ هذا الفقيه وولده (ابن العربي وأبوه) في الثناء على الأمير ، وأطنب في وصف ما يعتمد من لزوم قوانين العدل والانصاف ومجانبة طرق العسف والاعتساف » وهذه العبارة تدل على أن هدف ابن العربي وأبيه من انتداب نفسيهما لهذه المهمة كان التقرب من المرابطين ، والوصول إلى مكانة طيبة في دولتهم .

وقد أورد ابن العربي بعد ذلك في « شواهد الجلة » خطاباً قال إن الغزالي كَمَلَهُ إياه في تأييد المرابطين ، والخطاب كما يدل عليه أسلوبه وطريقته لا يشبه الغزالي في شيء ، فهو يدعو للخليفة المستظهر بالله دعوة صريحة وهو يستعمل مصطلحاً ديوانياً ، وهو مسرف في رضاه عن المرابطين ، وأبو حامد كان رجلاً معتدلاً متزنًا بعيداً عن ذلك كله . وعندما لقي ابنُ العربي الطرطوشي في الاسكندرية وهو في طريق العودة إلى الأندلس ، حمل منه خطاباً طويلاً في تأييد المرابطين أتى بنصه أيضاً في نفس الكتاب .

وقد دفع ابن العربي إلى ذلك طموحه إلى الوظائف وتطلعه إلى المكانة في دولة المرابطين ، وقد كان غنياً عن ذلك بعلمه ومكان بيته ، ثم إن السلطان في أندلس ذلك الحين كان قد هان وخلا من كل رونق ، ولكن ابن العربي كان بطبعه رجلاً طموحاً إلى الوجاهة والمكانة بين الناس ، وسيصل بالفعل إلى ما كان يطمح فيه أيام المرابطين ، ولكن مركزه سيتخرج عندما ينتقل الأمر إلى الموحيدين .

ولا يمكن أن يكون ابن العربي قد أطلال السماع من أبي حامد الغزالي ، فإن ابن العربي عندما وصل إلى بغداد كان الغزالي قد بارحها واعتزل في دمشق ليؤلف كتاب احياء علوم الدين ، ثم حج وعاد إلى بغداد ، وهنا لقيه ابن

العربي وأخذ عليه ، ثم غادر الفزالي بغداد إلى دمشق ، ثم خرج سائحاً إلى بيت المقدس وسنها إلى الاسكندرية ، ولهذا ، فإننا نستبعد أن يكون ابن العربي قد لقيه مرة أخرى في صحراء الشام كما ذكر في رحلته .

وبعد أن عاد ابن العربي إلى الأندلس انصرف إلى التدريس والتأليف حتى سنة ٥٢٨/١١٣٤ عندما دعاه تاشفين بن علي بن يوسف بن تاشفين وإلى اشبيلية لأبيه علي بن يوسف بن تاشفين إلى تولي القضاء ، فتولاه عن جدارة وقدرة شهد له بها كل الناس ، ولكنهم أخذوا عليه اهتمامه الزائد بالوإلى وحرصه على لقائه حتى أن أحد السامعين عليه — وهو أبو عبد الله الإشبيلي — انقطع عن حضور دروسه ، وسئل في ذلك فقال : « كان يدرّس وبغلته عند الباب ينتظر الركوب إلى السلطان » .

وكان ابن العربي حازماً في قضائه لا يجامل أحداً ، فنفّر منه بعض الناس وحلّوا عليه ، ثم إنه نذب نفسه للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وقد ابتلى المرابطون وولاتهم بطائفة من صغار الفقهاء كان لهم أسوأ الأثر في سير الأمور في الدولة ، فسعى نفر من هؤلاء بابن العربي عند تاشفين بن علي بن يوسف ورجاله ، ويبدو أن ابن العربي كان مبغضاً لهؤلاء الفقهاء شديداً عليهم ، ونحن نستنتج ذلك من موقفهم مما تعرض له من إصلاح سور اشبيلية ، فقد خرج عن شيء من ماله ودعا الناس إلى التبرع بجلود الأضاحي لاستخدام ثمنها في ذلك العمل الجليل ، وتمكّن بهذا من إصلاح السور . ولكن تصديه لهذا الأمر فتح الباب لنقده والتأليب عليه ، فوثب به نفر من العامة وأرادوا اقتحام داره ، وكان ذلك قبل سنة ٥٣٦/١١٤١ — ١١٤٢ لأنه تكلم عن الحادثة في « العواصم من القواصم الذي ألفه في ذلك التاريخ ، قال بعد أن ذكر مأساة استشهاد الخليفة عثمان (ص ١٣٧ — ١٣٨) » ولقد حكمت بين الناس فالزمتهم الصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى لم يكن يُرى في الأرض منكر ، واشتد الخطب على أهل النصب ، وعظم على الفسقة الكرب ، فتألبوا وألبوا ،

وناروا إلى . فاستسلمت لأمر الله ، وأمرت كل من حولي الا يدفعوا عن داري ، وخرجت على السطوح بنفسى ، فعاثوا على وأمسيت سليب الدار ، ولولا ما سبق من حسن المقدار لكنت قتيل الدار » . وقد نهبت كتب ابن العربي في ذلك الحادث ، ثم صُرف عن القضاء وانتقل إلى قرطبة ، وفرغ للتدريس والتأليف .

وعاد ابن العربي بعد ذلك إلى اشبيلية بعد موت علي بن يوسف بن تاشفين سنة ٥٣٧/١١٤٢-١١٤٣ في الغالب ، ولكنه لم يعد إلى القضاء ولم يتول عملا ما ، وفي هذه الأثناء كان الصراع بين المرابطين والموحدين في المغرب قد وصل إلى ذروته ، وانتهى بمقتل تاشفين بن علي بن يوسف قرب وهران في سنة ٥٣٩/١١٤٤ ثم الاستيلاء على سراکش وقتل أبي إسحاق ابراهيم بن تاشفين آخر أمراء المرابطين في شوال ٥٤١/مارس ١١٤٧ .

ولم يكد الأمر يستقر للموحدين حتى فكر ابن العربي وطائفة من علماء اشبيلية وشيوخها في الوفود على عبد المؤمن بن علي في سراکش لتقديم ولائهم ، وكانت اشبيلية قد أصبحت في الحقيقة عاصمة الأندلس بعد تضعضع أمر قرطبة نتيجة لقتن الفترة الأولى من عصر الطوائف ، وقد أورد صاحب « الحلل الموشيه » بياناً باسماء رؤساء الوفد ، وبمقارنة تواريخ ميلادهم نستنتج أن أبا بكر ابن العربي كان أكبرهم سناً ، فقد كان إذ ذاك في الرابعة والسبعين من عمره ، وربما كان أكثرهم اهتماماً باظهار الولاء للموحدين ، فإن علاقته بالمرابطين كانت معروفة للناس أجمعين ، وهذه رسائله في « شواهد الجلاء » أكبر دليل على ذلك ، وكذلك كانت علاقته بتاشفين بن علي بن يوسف حديث الناس . وربما كان أفضل لهذا الشيخ الجليل لو قعد مكانه وليجر القضاء بما يريد ، ولكن ابن العربي كان كما ذكرنا قلقاً لا يهدأ ، والأغلب أن الذي دفعه إلى تجشم عناء هذه الرحلة هو الخوف من أن تظن الدولة الجديدة به سوء ، فنهض يحمل

عبً سنواته ومضى يلتبس الأمان غير عالم أنه كان يمضى بقدميه نحو ما خاف منه ، وسبحان من جعل مصائر الخلق وراء أستار الغيوب .

وصل الوفد الإشبيلي إلى مراكش واستقبله عبد المؤمن بن علي ، وكان أول المتكلمين أبا بكر بن العربي ، ثم أعقبه أبو بكر بن الجدد ، وكان بعد شأبا ، ثم التفت عبد المؤمن إلى أبي بكر بن العربي وسأله إن كانت قد لقي محمد بن تومرت في مجلس الفزالي ، فأخرج الشيخ إذ كان لا بد — إذا أراد السلامة — أن يقول إنه لقيه ، ولو أنه قرر الحقيقة وقال أنه لم يره في مجلس الفزالي لكانت العاقبة وخيمة ، وربما أدى الأمر — بعد عقابه — إلى أن يقال إن ابن العربي هو الذي لم يلق الفزالي ولا رآه ، والقول قول السلطان ! فتحيل الشيخ للخلاص وقال : « لم ألقه هناك ولكني سمعت الناس يتحدثون عنه ، وكان الشيخ — أي الفزالي — يقول : لا ريب في قرب ظهوره ^(١) » ، ولم تأت الإجابة على وفق ما أراد عبد المؤمن ، فصرف الوفد ولكنه لم يأذن له في مغادرة مراكش ، فظلوا هناك تسعة شهور ، ثم أذن لهم في العودة إلى بلدهم ، وخرجوا عائدين ، فإذا هم على مسيرة يوم من فاس أدركت المنية الشيخ أبا بكر بن العربي ، ويذهب النبأ إلى أنه مات مسموماً ^(٢) ، فحمل إلى فاس ، وووري التراب في ٧ ربيع الأول ٥٤٣ / ٢٧ يوليو ١١٤٨ ودفن خارج باب المحروق بتربة القائد مظفر .

كتابات ابن العربي في الرحلات

تلك كانت حياة أبي بكر بن العربي . قرابة ٧٥ سنة هجرية حافلة بالدرس والتأليف والرحلات والحوادث والمتاعب ، وقد جرّ هو على نفسه الكثير

(١) الحلال الموشيه ، س ١٢٣ - ١٢٤

(٢) النبأ ، تاريخ قضاة الأندلس ، س ٩٥

منها ، لأنه كان إلى جانب صفاته التي ذكرناها متكهما جدلا عتيف القول لا يكاد لسانه يسكت ، وكان منافسا لغيره طامحا إلى الجاه في زمان مائل وقتن لا تكاد تنقطع ، فكثرت متاعبه وكثر القائلون فيه .

ولكن مثل هذه الحياة تشحذ الذهن وترهف الفهم ، وبالفعل كان أبو بكر بن العربي آية في الذكاء وسرعة الخاطر وحضور البال وسرعة الحفظ ، وقد استوعب في حياته علما كثيرا وألف كثيرا وكتب في أسلوب شائق يترواح بين التصنع إذا سجع والسلاسة إذا أرسل نفسه على سجيها ، وقد أحصى محب الدين الخطيب مؤلفات ابن العربي ، وأثبت خمسة وثلاثين كتابا لم يصل إلينا منها إلا القليل ، ومعظم هذه المؤلفات رسائل صغيرة مثل « شرح حديث جابر في الشفاعة » و « حديث الأفك » و « شرح حديث أم زرع » وبعضها مطول في أجزاء مثل « عارضة الأحوذى في شرح الترمذى » وقد وصل إلينا وطبع في القاهرة ، واعتمادا على ما وصلنا من كتبه نستطيع القول أن الرجل كان غزير المادة في تأليفه ، بدليل ما نجده من فيض المعارف والمعلومات في كتاب صغير مثل « العواصم من القواصم » وهو كتاب في فضائل الصحابة والدفاع عنهم واستبعاد وقوع الخطأ منهم ، (نشره محب الدين الخطيب مع تعليقات ضافية في القاهرة سنة ١٣٧١) . ومن حسن الحظ أن ابن العربي كان من أوائل الذين يميلون إلى الحديث عن أنفسهم ، فلا تكاد تسنح فرصة أثناء الكلام في أى موضوع إلا استطرد إلى الحديث عن نفسه أو عن شيء وقع له ، ويبدو أن الرجل كان مبتلى بالأعداء والخصوم ، فهو في دفاع عن نفسه أبدا ، وكانت كتبه هي وسيلته في هذا الدفاع ، ومن المعروف أن نصوص الكثير جداً من كتب شيوخنا القدامى إنما هي روايات تلاميذهم ، كتبوها والشيخ يتلو ويشرح ، فكان التلاميذ يثبتون كل شيء — ما في الموضوع وما هو خارج عنه — والكثير مما لدينا من كلام ابن العربي عن نفسه إنما هي استطرادات أثناء الدروس دفعت إليها الرغبة في الدفاع عن النفس ، واندرجت

بعد ذلك في النصوص وأصبحت جزء منها ، فظفرنا بهذا بمعلومات عظيمة القيمة عن الرجل وأحواله .

وسنرى مثلاً واضحاً من ذاك في خطبة رسالة « شواهد الجلة » التي سنوردها بعد قليل ، بل هذا واضح في خطبه عارضة الأحوذى ، قال : « وفي علم علام الغيوب انى أحرص الناس على أن تكون أوقاتي كلها مستغرقة في باب العلم ، إلا أنى مُنيتُ بِحَسَدَةٍ لا يتقون^(١) ومبتدعة لا يفهمون ، قد قعدوا منى مزجَر الكلب يبصبصون ، والله أعلم بما يتربصون « قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين ، ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا ، فتربصوا إنا معكم متربصون » بيد أن الامتناع عن التصريح بفوائد المسلة والتبرع بفوائد الرحلة لعدم المنصف أو مخافة التعسف ليس من شأن العالمين . . . »^(٢) .

كتاب ترتيب الرحلة للترغيب في المسلة

لم نعتز إلى الآن على هذا الكتاب ، وما لدينا منه نقول في كتب سنشير إليها ، ولكننا وجدنا إشارة طيبة إليه في خطبة « شواهد الجلة » تعطينا فكرة عن ذلك الكتاب وما فيه . قال ابن العربي بعد ديباجة قصيرة : « أما بعد فإن الداخل في طلب العلم كثير ، والسعيد قليل ، وعدم الإنصاف خطب جليل ، وكم من حاضر بِعَرَفَةٍ من غير معرفة ، ونازل بمنى وما نال منى^(٣) ، وكم من قارىء في بغداد ، خرج وما قُرئ بزاد ، فالشجر يوجد والثمر يعدم ،

(١) في الأصل المطبوع : لا يفتنون ، ولا معنى له هنا ، وأرجح أن الصحيح ما أثبتته .

(٢) عارضة الأحوذى بشرح صحيح الترمذى لابن العربي ، القاهرة ١٩٣١ ، ٣/١ .

(٣) إذا لاحظنا أن ابن العربي لم يؤد فريضة الحج — كما يستنتج من المعلومات التي لدينا إلى

الآن — فهمنا هذه العبارة على أنها تعريض بمن حجوا ولم يستفيدوا من حجهم .

والأجسام تفنى والأرواح تتقدم ، والقشر عام واللّب خاص . وقد شاهدت من طلبة العلم بأفريقية ومصر والشام والساحل والعراق والحجاز ما لا يأتى عليه الاحصاء ، ولا يُنال بالاستقصاء ، جميعهم يأمل الغاية وما حصل عليها ، ويقصد النهاية وما انتهى إليها ، وخلع ثياب الوطن ، واستظهر على الغربة واستوطن ، يجتهد بزعمه وهو لا يعلم كيف ولا أين ، ويرجع بعد طول الغيب بخفى حنين ، ومنهم من يأخذ العلم بديب ، ويقنع منه بأدنى نصيب ، فيعود بباعٍ قصير وناظر غير بصير إن رمى عنه ففائته الأعمش ، أو بوحث فليله ليلٌ أعمى وأعطش ، ومنهم من يعتمد من العلوم فناً ، ويرى غيره دوناً^(١) ، فلا عليه حصل ، ولا به حفل ، ومنهم من يدخلها عائراً لا ينتعش ، وأملس لا ينتقش^(٢) ، ومنهم من يدخلها لمح بارق ، وقبس طارق ، وعجالة راكب أولى خطى برقه وخمد نفسه وقبره عجالة^(٣) . ولما سبق خير القضاء برحلتى إلى تلك المشاهد الكريمة ، وحلولى فى تلك المقامات العظيمة ، دخلتها والعمر فى عنفوانه ، والعصن مائس بأفنانه ، والكتاب مختوم بعنوانه ، ومعى صارم لا أخاف نبوته ، وحصان لا أتوقع كبوته ، أب فى الرتبة وأخ فى الصحبة ، يسند ويعين ، ويسقى من النصيحة بماء معين ، وزوى الله بفضلته عن قلبى كل بطاله ، وكشع عن فؤادى كل إهالة ، فجنيت من كل شجرة زهرة ، ووعيت من كل صنف درره ، وكشفت عن كل خفاء غوره ، وافتقرت من كل فن فقره ، حسبها فسرته وأوضحته ، وشرحته وبينته ، وقررت ونزلته ، فى كتاب « ترتيب الرحلة للترغيب فى الملة » ، وذكرت فيه لقاء الأعيان لنا ، وسير الفضلاء معنا ، ولحظهم لجانبنا بناظر التعظيم ، ومقابلتهم

(١) الأصل دهرنا ، وقد صوبناه . (٢) كذا فى الأصل ، والعبارة قلقة .

(٣) ورد نص رسالة « شواهد الجلة » ضمن مخطوط صورة الدكتور محمود على مكي من مكتبة القرويين فى فاس ، واستخرج معهد الدراسات الاسلامية فى مدريد منه نسخة لمكتبته ، وهذا المخطوط هو الذى أخذ منه الأستاذ لى بروفيسال نص كتاب مفاخر البربر ، ويبدأ نص « شواهد الجلة » فيه من ص ١١٣ ب وينتهى فى ص ١٤٩ ب ، والقطع التى أوردناها فى ص ١١٣ ا ب . ويقوم الدكتوران مكي والعبادى بإعداد هذا المخطوط للنشر الآن .

ورودنا بالتجليل والتكريم ، ووعدنا لهم على غاية الرضى والتسليم ، وانقلابنا عنهم بصفة المرتضى ، واتبعناهم جلا من طرائفهم ونتفقا من فوائدهم ، مما تتأرجح به اصائل الأيام ، ويجلو نوره ديجور الظلام ، وكان ذلك أسراً يطول النظر فيه ، ويذهل الشادى بخواتمه عن مباديه ، فاستخرت الله تعالى على تجريد هذه الأوراق ، بشواهد الجلة والأعيان ، فى مشاهد الإسلام والبلدان^(١) لنا بمزية التعظيم والتوقير ، وتسجيلهم لنا بتحصيل العلوم على غاية التوفير ، حتى يظهر البون ، ويتبين أن الله تعالى يختص من يشاء بالعون ، ويتحقق الحسود الناقص المتقصى لما حولى ، ليفض بزعمه منى ، أنه فاسد الفطرة خاسر الصفقة مقبح الوجه مستحق النجس ، وجعلته مراتب على حسب الوقت الذى حصل فيه كل نوع منه .

وإذن « فكتاب ترتيب الرحلة للترغيب فى الملة » رسالة كتبها ابن العربى لغرض معين ، وهو الحديث عن رحلته المشرقية وما درس فيها وما أفاده من هذا الدرس ومن لقي من العلماء والأعيان .

وواضح أن دافعه الأول إلى كتابة كتابه هذا هو الدفاع عن نفسه ضد خصومه الكثيرين وإظهار امتيازهم على غيره ممن درس فى المشرق وبيان ما حصله من العلوم فى المدة القصيرة ، ثم تفصيل ما قام به من مجهودات إيجابية للربط بين الخلافة العباسية ودولة المرابطين ، وذلك هو ما أشار إليه ابن خلدون عندما قال إن يوسف بن تاشفين بعث « عبد الله بن محمد بن العربى المعافى الإشبلى وولده القاضى أبا بكر ، فتلفظا فى القول وأحسننا فى الابلاغ ، وطلبا من الخليفة أن يعقد له على المغرب والأندلس ، فعقد له ، وتضمن ذلك مكتوب الخليفة بذلك منقولاً بأيدي الناس ، وانقلبا إليه بتقليد الخليفة وعهده على ما إلى نظره من

(١). هذه هى العبارة التى اقتبسناها عنواناً لهذه الرسالة ، وهى ليست عنوانها على الحقيقة ، وإنما فعلنا ذلك تيسيراً للإشارة إليها .

الأقطار والأقاليم ، وخاطبه الامام الغزالي والقاضي أبو بكر الطرطوشي يحضانه على العدل والتمسك بالجد ، ويفتيانه في شأن ملوك الطوائف بحكم الله ^(١) . ولم يقرأ ابن خلدون كتاب « ترتيب الرحلة » ، قراءة إمعان ، لأنه لو كان فعل ذلك لرأى بوضوح أن يوسف بن تاشفين لم يبعث عبد الله بن العربي (الأب) وابنه أبا بكر ليخاطبا الخليفة العباسي في أمر توليته على المغرب والأندلس ، وهذا هو المعقول ، لأن عبد الله العربي (الأب) لم يكن كبير فقهاء الأندلس أو اشبيلية في ذلك الحين ، بل لم يكن من كبارهم ، إذ كان هناك كثيرون يفوقونه مكانة وعلماً ، فكانوا لهذا أولى منه بأن يُتَدَبَّرَوا لهذه المهمة إذا كان ولا بد أن يندب لها فقيه ، وأما ابنه فكان في السابعة عشرة من عمره ، وهي سن لا تؤهل صاحبها لمثل هذه السفارة ، ثم إن يوسف بن تاشفين لم يكتب إلى الخليفة العباسي طالباً التولية على المغرب والأندلس ، وإنما الذي كتب هو ابنه علي بن يوسف كما هو واضح من رسالة من الخليفة المستظهر العباسي ، سبق أن نشرناها ^(٢) ويصدق ذلك أيضاً على ما ذهب إليه ابن خلدون من أن الغزالي والطرطوشي افتيا يوسف بن تاشفين في أمر ملوك الطوائف ، فهما في الحقيقة لم يفتيا بشئ في هذا الشأن ، وهذان خطابهما — إذا صحا — في « شواهد الجلة » يؤيدان ما نقول تأييداً ضريحاً .

الحقيقة إذن أن عبد الله العربي وابنه ندبا نفسيهما لهذا العمل تبرعاً ورغبة في اكتساب المكانة لدى المرابطين وسنرى مصاديق أخرى لذلك في سياق ما يلي من الكلام .

والقطع التي لدينا من « ترتيب الرحلة » قليلة ، ولكن هذا القليل يدل على تيقظ والتفات وملاحظة ، ومن أسف أن الكثير من النقول التي لدينا لا تعين

(١) ابن خلدون ، المعبر ، ١٨٨/٦

(٢) انظر مقالنا « سبع وثائق جديدة عن دولة المرابطين وأيامهم في الأندلس » صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد ، مجلد ٢ عدد ١ — ٢ ص ٥٥ وما يليها ، ووثيقة المستظهر واردة في ص ٦٦ — ٦٨

مصدر النقل ، ولكن الفقرة التالية التي رواها المقرئ في نفع الطيب (٢/٢٤٣) — (٢٤٣) منقولة عن « ترتيب الرحلة » (نقلها بشيء من الاختصار ابن العربي نفسه ، كما يرى في آخرها) وربما يكون المقرئ أخذها من « قانون التأويل » : « وشاهدت المائدة بطور زيتا مراراً ، وأكلت عليها ليلاً ونهاراً ، وذكرت الله فيها سرّاً وجهاراً ، وكان ارتفاعها أشْف من القامة بنحو الشبر ، وكان لها درجان قبلي وجنوبي ، وكانت صخرة صلوذاً لا تؤثر فيها المعاول ، وكان الناس يقولون : مُسخت صخرة إذ مُسَخ أربابها قردة وخنازير ، والذي عندي أنها صخرة في الأصل ، قطعت من الأرض مَحلاً للمائدة النازلة من السماء ، وكل ما حولها حجارة مثلها ، وكان ما حولها محفوقاً بقصور ، وقد نُحِتَتْ في ذلك الحجر الصلد بيوتٌ أبوابها منها ومجالسها منها ، مقطوعة فيها ، وخناياها من جوانبها ، وبيوتٌ خَدَمَتها قد صُوِّرَتْ من الحجر كما تُصور من الطين والخشب ، فإذا دخلت في قصر من قصورها ورَدَدْتُ الباب ، وجعلت من ورائه صخرة مقدار ثمن درهم لم يفتحه أهل الأرض للصوقه بالأرض ، وإذا هبَّت الريح وحسَّت تحته التراب لم يُفتح إلا بعد صب الماء تحته والأكثر منه حتى يسيل بالتراب وينفرج منفرج الباب ، وقد بار بها قومٌ بهذه العلة ، وقد كنت أخلو فيها كثيراً للدرس ، ولكنني كنت في كل حين أكنس حول الباب ، مخافةً مما جرى لفيري فيها ، وقد شرحتُ أمرها في كتاب ترتيب الرحلة بأكثر من هذا » .

وطور زَيْتَا هذا (ياقوت ٦/٦٨) « جبل مشرف على المسجد (مسجد القدس) وفيما بينهما وادي جهنم » وهو إذن ليس وادي موسى كما ظن محب الدين الخطيب . ويسمى أيضاً بجبل الزيتون وهي الترجمة العربية لطور زيتا ، وعلى رأسه مسجد بُني ذكرى لمقام عمر بن الخطاب في هذه البقعة عدة أيام ، وبين الجبل ومسجد القدس يمتد واد فيه حدائق وكروم وغيран للرهبان وكنيسة

بُنيت على قبر السيدة مريم ، وفيه كذلك بناء قديم يسمى قبر أْبَسْلُومَ يسميه العامة طَنْطُور أو بيت فرعون ، وقد وصفه ناصري خسرو بتفصيل^(١) . وأغلب الظن أن ابن العربي خلط بينه وبين وادي موسى ، فإن الوصف الذي يذكره ينطبق أكثر على هذا الأخير .

والقطعة التالية أيضاً من « ترتيب الرحلة » : رواها المقرئ في النفح (٢ / ٢٣٩) قال : « منها ، أنه حكى دخوله بدمشق بعض بيوت الأكابر وأنه رأى فيه النهر جارياً إلى موضع جلوسهم ، ثم يعود إلى ناحية أخرى ، فلم أفهم معنى ذلك حتى جاءت موائد الطعام في النهر المقبل إلينا ، فأخذها الخدم ووضعوها بين أيدينا ، فلما فرغنا ألقى الخدم الأواني وما معها في النهر الراجع ، فذهب بها الماء إلى ناحية الحريم من غير أن يقرب الخدم هذه الناحية ، فعلمت السر ، وإن هذا لعجيب ، انتهى بمعناه » وهو عجيب حقاً ، أن يبلغ الحرص على ستر الحريم والتفنن في الحيلولة بين الرجال ورؤيتهن إلى هذا المبلغ .

ولكن معظم مادة ابن العربي في « ترتيب الرحلة » تدور على الشيوخ وما دار بينه وبينهم وطرائف مما سمع منهم ، وهو هنا بعيدٌ عن التواضع كما رأينا في خطبة « شواهد الجلة » ، وقد ذكر المقرئ أنه نُقِلَ عنه أنه قال : كل من رحل لم يأت بمثل ما أتيت به أنا والقاضي أبو الوليد الباجي ، أو كلاماً هذا معناه ، أو قال : لم يرحل غيري وغير الباجي ، وأما غيرنا فقد تعب ، أو نحو هذا مما لم تحضرنى عبارته الآن^(٢) ، ولا ندرى لماذا أختص أبا الوليد الباجي وحده بهذا التكريم ، مع أن الذين رحلوا إلى المشرق قبله وقبل ابن العربي وأتوا بأكثر مما أتيا به كثيرون جداً ، ولكنه كان بطبعه رجلاً حديد اللسان

(١) Guy Le Strange, *Palstine under the Moslems*, (1890) 218-220

(٢) أزهار الرياض المقرئ ، ٦٣/٣

قاسياً على غيره بقدر ما كان رفيقاً بنفسه ، مغالياً في تقدير نفسه بقدر ما كان مسرفاً في غمط اقدار الآخرين ، فكانت المساءة إلى الغير تصدر عنه فيضاً الخاطر وعقوَ اللسان والقلم دون أن يقدر موقعها وما تسببه للغير من ألم ، وهذا يفسر لنا سبب كثرة خصومه وحرصهم على أذاه ، وفي هذه العبارة الماضية مثل واضح لذلك ، فقد أهان المثات من الشيوخ وأهل الفضل اسوأ اهانة بحجرة قلم ، وهل هناك ألم من قوله « لم يرحل غيري وغير الباجي ، وأما غيرنا فقد تعب » ؟ .

وملاحظاته في رحلته لا تقتصر على ذكر الشيوخ وما سمع منهم ، بل فيها طرائف لغوية وفقهية وأشياء أشبه بالنوادر ، فن الطراز الأول قوله : « سمعت الشيخ فخر الإسلام أبا بكر الشاشي ، وهو ينتصر لمذهب أبي حنيفة في مجلس النظر ، يقول : يقال في اللغة العربية لا تقرب كذا — بفتح الراء — أى لا تتلبس بالفعل ، وإذا كان بضم الراء كان معناه لا تدن من الموضع »^(١) ومن النوع الثاني قوله : « سمعت إمام الحنابلة بمدينة السلام أبا الوفاء بن عقيل يقول : إنما تبع الولد الأم في المالية وصار بحكمها في الرق والحرية ، لأنه انفصل عن الأب نظفة لا قيمة له ولا مالية فيه ، ولا منفعة مبهتة عليه ، وإنما اكتسب ما اكتسب بها ومنها ، فلذلك تبعها ، كما لو أكل رجل تمرأ في أرض رجل ، وسقطت منه نواة في الأكل ، فصارت نخلة ، فإنها ملك صاحب الأرض دون الآكل باجماع من الأمة ، لأنها انفصلت عن الآكل ولا قيمة لها ، وهذه من البدائع »^(٢) ، ومن النوع الثالث قوله : « وكان يقرأ معنا برباط أبي سعيد على الامام دانشمند (يريد الغزالي) من بلاد المغرب خنثى ليس له لحية وله ثديان وعنده جارية ، فربك أعلم به ، ومع طول

(١) نفح الطيب ، للمقرئ ، ٢٤٣/٢

(٢) نفح الطيب ، للمقرئ ، ٢٤٨/٢

الصعبة عقلنى الحياء عن سؤاله ، وبودى لو كاشفتُهُ عن حاله »^(١) . ومن هذا النوع أيضاً قوله : أخبرنى المهرة من السحرة بأرض بابل أنه من كتب آخر آية من كل سورة ويلقها لم يبلغ إليه سحرنا ، قال : هكذا قالوا ، والله تعالى أعلم بما نقلوه »^(٢) .

وواضح أن مثل هذا الكتاب لا يمكن أن ينال رضى شيوخ عصر ابن العربى ، بسبب ما فيه من زهو وتفاخر أولا ، وبسبب ما قرره فيه من نشاطه السياسى وتداخله مع رجال الدولة فى بغداد وسعيه إليهم ، ثم بسبب هذه الحكايات والنوادر التى ترد فيه ، قال معاصره القاضى أبو الفضل عياض بن موسى اليحصبى : « ولكثرة حديثه وأخباره وغريب حكاياته ورواياته أكثر الناس فيه الكلام ، وطعنوا فى حديثه »^(٣) . ولكن كل ذلك لا يقلل من أهمية كتاب « ترتيب الرحلة » فهو أول وصف رحلة يكتبه أندلسى ، ومعنى هذا أن أبا بكر بن العربى هو مبتكر هذا الفن فى الأندلس ، نعم إن أبا حامد الغرناطى كتب شيئا قريبا من هذا ، ولكنه لم يصف رحلته ، ولم يُعَيِّن مراحلها أو « مراتبها » بحسب مصطلح ابن العربى فى كتابه . لقد تعود الناس قبل ابن العربى أن يكتبوا « برامج » شيوخهم ، أى يذكرون أسماء من لقوا من الشيوخ وأخذوا عنهم وما أخذوه عن كل منهم ، ولكن هذه البرامج خالية من الوصف والملاحظة أو النظر إلى أى شئ خلا الشيوخ والكتب والروايات ، أما أبو بكر بن العربى فقد كتب رحلة حقا ، ووصف مراحلها ومن لقي فى كل مرحلة ، نعم إنه لم يصل فى ذلك إلى شأو ابن جبير ، ولكنه دون شك السابقة التى سيحتذيها أمثال ابن رشيد والعبدرى .

(١) نفس المصدر والجزء ، ص ٢٤٩

(٢) نفس المصدر والجزء ، ص ٢٥٠

(٣) نفس المصدر والجزء ، ص ٢٣٦

كتاب قانون التأويل

المشهور أن هذا الكتاب في التفسير ، وربما كان ذلك صحيحاً ، لأن ابن العربي كتب في الحديث وشرحه كثيراً ، وكان لابد أن يكتب شيئاً مطولاً في التفسير . وربما كان هذا الكتاب مكملًا لكتابه « أحكام القرآن » .

والذي يهمنا من هذا الكتاب تلك الملاحظات ذات الطابع الوصفي أو الجغرافي التي نقلها عنه من أتوا بعده ، وهذه الملاحظات كثيرة ، وبعضها فقرات طويلة تصف شيئاً مما حدث له في الرحلة . ويلاحظ أن كل الفقرات التي لدينا مقتبسة من هذا الكتاب مصوغة في قالب السجع من الطراز الذي رأيناه في خطبة « شواهد الجلة » ولهذا غلب على ظننا أن هذه الفقرات مقتبسة من خطبة « قانون التأويل » لأن خطب الكتب — وإن كانت تفسيراً — تجري في قالب السجع ، أما التفسير نفسه فلا يمكن أن يكون سجعاً ، ومن المستبعد أن يكون ابن العربي مسترسلاً في شرح آية في نثر مرسل ، ثم يقطع الكلام ليقص شيئاً في سجعات .

والغالب أن أبا بكر بن العربي جعل مقدمة « قانون التأويل » وسيلة ليقص أطرافاً من رحلته وليذكر بعض من لقي من الشيوخ وما سمع منهم تدليلاً على سعة علمه وإصالة مصادره . وأهم فقرة بقيت لدينا من ذلك الكتاب هي تلك التي يذكر فيها غرق سفينته بعد أن ركب البحر من المهديّة في طريقه إلى الاسكندرية ونجاته (مع أبيه) ونزوله في مكان من شاطئ طرابلس تنزل به بطون من كعب بن سليم ، والقطعة طويلة رواها المقرئ في أزهار الرياض (٣/ ٨٩ — ٩١) ونفع الطيب (٢/ ٢٣٧ — ٢٣٩) وابن غازي في « التكميل » والرهوني في « حاشيته على رسالة خليل » والشيخ مخلوف في « شجرة النور الزكية » (١/ ١٣٧) ومحب الدين الخطيب في مقدمة « العواصم من القواصم »

(١١-١٢) ، ولهذا فسنجزي* منها بقطع يسيرة . قال : « وقد سبق في علم الله تعالى أن يعظم علينا البحر بزوله ، ويغرقنا في هوله ، فخرجنا من البحر خروج الميت من القبر ، وانتهينا بعد خطب طويل إلى بيوت بنى كعب بن سليم ، ونحن من السغب على عطب ، ومن العرى في أقبح زى ، قد قذف البحر زقاق زيت مرقت الحجارة هيأتها^(١) ، ودست الأدهان وبرها وجلدتها ، فاحترمناها أزرًا ، واشتملناها إلفًا ، تمجنا الأبصار ، وتحذلنا الأنصار ، فعطف أميرهم علينا ، فأوينا إليه فأوانا ، وأطعنا الله على يديه وسقانا ... » ثم يصف بعد ذلك كيف أنه اقترب في هذا الزى من أمير بنى سليم هؤلاء ، فوجده يلعب بأعواد الشاه (الشطرنج) مع صاحب له ، فبدر منه ما أفهم القوم أنه يفهم هذه اللعبة ، ثم ما زال يشير على الأمير بما يفعل حتى فاز على صاحبه « فقالوا : ما أنت بصغير ! » ، ومن الطريف أنه يصف نفسه في أثناء ذلك بقوله : « إذ كنت من الصغر في حد لا يُسمح فيه للأغمار ... » ولا ندرى كيف يكون هذا وقد كان إذ ذاك في الثامنة عشرة من عمره .

ثم يصف بعد ذلك كيف شرح للأمر معنى كلمة « رب » في بيت للمتنبي ، فأعجب به إعجابًا عظيمًا : « وأقبلوا يتعجبون مني ، ويسألونني كم سنى ، ويستكشفونني عن سِرِّي ، فبقرت لهم حديثي ، وذكرت لهم نجيتي ... » وختم الحكاية بقوله : « فانظر إلى هذا العلم الذي هو إلى الجهل أقرب ، مع تلك الصُباة اليسيرة من الأدب ، كيف انقذا من العطب ! وهذا الذكر يرشدكم إن عقلتم إلى المطلب ... » .

والقصة كلها مبالغ فيها ، إذ كيف استطاع هو وأبوه أن يواصلوا الرحلة إذا كان كل ما معهم قد غرق وضاع حتى خرجوا من البحر في حال « من العرى في

(١) كذا في طبعة ليدن ، وقد قرأها محي الدين عبد الحيد « منبتها » وقال في الهامش أن المنيبة الجلد أول عهده بالدباغ .

أقبح زى ؟ ثم كيف يكون لشيخ بنى سليم « بياذقة » وحراس ؟ وكيف يكون من الترف بحيث يرسل إليهم « كل خوان بأفنان وألوان » ؟

ومن ملاحظاته فى هذا الكتاب وصفه للقائه للغزالي ، قال : « ورد علينا دانشمند (يريد الغزالي) فنزل برباط ابن سعد بأزاء المدرسة النظامية ، معرضاً عن الدنيا ، مقبلاً على الله تعالى ، فشيننا إليه ، وعرضنا أمنيئتنا عليه ، وقلنا له : أنت ضالتنا التى ننشد ، وإمامنا الذى به نسترشد ، فلقينا لقاء المعرفة ، وشاهدنا منه ما كان فوق الصفة...^(١) » ، وقد وصف فى فقرة أخرى لقاء ثانياً للغزالي ، قال : « رأيت الغزالي فى البرية ، ويده عكاز ، وعليه مرقعة وعلى عاتقه ركوه ، وقد كنتُ رأيته فى بغداد يحضر درسه أربعائة عمامة من أكابر الناس وأفاضلهم ، يأخذون عنه العلم ، فدنوت منه وسلمت عليه ، وقلنا له : يا إمام ، أليس تدريس العلم ببغداد أحسن من هذا ؟ فنظر إلى شراً وقال : لما طلع بدر السعادة فى فلك الارادة (أو قال : فى سماء الارادة) وجَنَحَتْ شمس الوصول فى مغارب الاصول :

تركتُ هوى كَيْلى وسُعْدَى وعُدتُ إلى تصحيح أول منزل
ونادتُ بى الأشواق مَهْلاً فهذه منازلُ من تهوى ، رويدك فانزل
غزَلْتُ لهم غزلاً رقيقاً ، فلم أجد لغزلى نسجاً ، فكسَّرتُ مغزلى^(٢)

وهذا الخبر بآدى الصنعة ، فهذه صورة للغزالي لا يعرفها أحد ممن يعرفونه حق المعرفة ، ولكن ابن العربى كان صاحب أخبار وحكايات وروايات غريبة كما قال أبو الفضل عياض اليعصبى ، ولم يكن هو الآخر بخير منه فى هذا المجال ، وفى « ترتيب المدارك » ما هو أغرب مما ابتكره ابن العربى فى فاتحة « قانون التأويل » .

(١) المقرئ ، أزهار الرياض ، ٩١/٣

(٢) ابن الهمام ، شذرات الذهب : ١٣/٤

ومها يكن الأمر فإننا لا نستطيع إصدار حكم نهائي على كتابات ابن العربي في الرحلات معنمين على هذه القطع القليلة منها ، والمهم لدينا — وهو ما يعني هنا — أن الرجل في حماسه للدفاع عن نفسه وإعلاء شأنه بدأ في تاريخ الفكر الأندلسي شيئاً جديداً ، وهو أدب الرحلات ، وسيعقبه في هذا الطريق من بعده كثيرون سيصل واحد منهم وهو ابن جبير إلى أن يكتب أجمل وأصدق وصف رحلة في تراث الفكر الأندلسي كله .

* * *

هؤلاء هم أهم معاصري الإدريسي من أهل الأندلس ممن كتب في الجغرافية أو خلف شيئاً يدخل في بابها . سار بعضهم على الدرب القديم قبله ، وانحدر بعضهم بالعالم الجغرافي إلى مستوى القصص وأحاديث الخرافة ، وادخل بعضهم الآخر في الفكر الأندلسي شيئاً مبتكراً ، واشتركوا جميعاً في شيء واحد : هو أنهم واصلوا تقليد الاهتمام بالجغرافية والكتابة فيها ، وهذا في ذاته شيء جدير بالذكر والتقدير . ولم يكن من المنتظر أن يتأثر نفر منهم بالإدريسي ، فقد كان معاصراً لهم يكتب في بلد خارج عن دار الإسلام ، وإن تذيع كتبه بين المسلمين إلا بعد أجيال ، لأن الكتب التي كانت تروج لوقتها في تلك العصور كانت كتب علوم الدين والفقه والأدب ، أما الجغرافية وما إليها ، فكانت هوايات لا يعنى بنقل كتبها إلا أصحابها ، وما كان أقلهم ا هذا إلى أن دنيا الأندلس كانت قد مالت وتوالت عليه الحن ، وإنه لمن الغريب بعد ذلك كله أن يظل فيه من يعنى بالعلم ، فضلاً عن الجغرافية وما إليها .

بعد الادريسي

الجغرافية وتطور التاريخ العالمى

من الظواهر التى تستوقف النظر فى تاريخ العلم الجغرافى فى العالم العربى كله أنه يضم — إلى جانب الثروة العلمية الحافلة — حشداً عظيماً من الشخصيات الطريفة التى تستثير بمصائصها الذاتية إعجاب الدارس — وعجبه — حتى على فرض أن أصحابها لم يضيفوا ما قُدر لهم أن يضيفوه من صفحات زاهرة إلى سجل العلم الانسانى . ففما يتصل بتاريخ الجغرافية فى المشرق لدينا سلسلة ممتعة من الرجال سيرهم أقرب إلى أحاديث المغامرات ، والقارئ ولا شك يذكر — على سبيل المثال — مغامرات أبى الحسن على المسعودى ومجازقات أبى القاسم ابن حوقل النصيبى وأقاصيص أبى عبد الله محمد بن أحمد بن أبى بكر البناء المقدسى البشارى وما تضمه تواريخ حياتهم من قصص طريف ممتع جدير بأن يقرأ لذاته ، وليس لدينا ما يدعو للتشكك فى صحة ما رواه أولئك الناس عن أنفسهم كما فعل معهم ابن حوقل والمقدسى فى خطبتي كتابيهما ، وكما يحاول بعض المحدثين التشكيك فى بعض رحلات الإدريسي أو بعض فقرات رحلة ابن بطوطة ؛ ونعتقد أنه من المستبعد أن يدعى رجل القيام برحلات لم يقم بها ، لأن الرحلة فى ذاتها لم تكن من مواضع الفخر فى تلك العصور اللهم إلا إذا كانت رحلة حج أو رحلة لقاء شيوخ وسماع منهم ، أما ادعاء دخول البلدان وركوب المخاطر والمجازقة بالنفس فى سبيل رؤية غريب أو عجيب ، فلم يكن يُعلى قدر الرجل أو يضيف إلى احترامه ، ومن هنا فلم يكن هناك ما يدعو إلى تجشم الكذب فيه . وأما ما يوجهه بعض أولئك القدامى إلى بعضهم الآخر

من نقد مجارح في بعض الأحيان فرجعه إلى أنهم عاشوا وعملوا في أيام ظلمة وظروف غير رحيمة جعلت العنف وطول الأظافر أدوات لازمة للنجاة من الهلاك أو الفقر والخلول في معركة البقاء ، وقد انقضت تلك العصور ، وذهب هؤلاء وأولئك مع أمس الدابر ، ونحن حريون بأن نأخذ الرجل منهم بكلامه ما لم يقيم على عدم تحريره الصدق دليل مقبول .

وفي العصر الذي نؤرخ فيه للجغرافية الأندلسية في هذه السطور ، وهو عصر ما بعد الشريف الإدريسي ، من منتصف القرن السادس إلى منتصف السابع الهجريين (منتصف الثاني عشر إلى منتصف الثالث عشر الميلاديين) نرى مثالا حياً من أمثلة حياة الرحلة المتصلة وتواتر الأسفار والتعرض للمهالك في سيرة أمير جغرافيٍّ المشرق الإسلامي على الإطلاق وهو ياقوت الحموي الذي عاصر ، ضمن ما عاصر ، زحف التتار الخرب على عالم الإسلام واقتراهم رويداً رويداً من سرو التي كان يعمل فيها عندما تواترت الأنباء بزحف التيار التتري الخرب نحو الغرب ، فضى يقطع الأرض أمامهم ناجياً بنفسه من الخطر حتى دخل الموصل خالي الوفاض ، لا كتب ولا مال ولا أوراق ، ثم ساعفته المقادير فعاد إليه الأمن في ظل الوزير ابن القفطي في حلب ، وهناك استقر وكتب معجمه الجغرافي الخالد ، وهو ديوان الجغرافية العربية الأكبر وكنزها الذي يمثل صرحاً من صروح العبقرية العالمية البشرية في كل العصور .

ولم نفتقد ظاهرة الطرافة في الشخصية أو سيرة الحياة عند أحد ممن مررنا بهم من أعلام الجغرافية الأندلسيين إلى الآن ، فقد رأينا — مثلاً — قاسماً بن أصبغ البياضي الفقيه المحدث يترك الفقه ردهاً من الزمن ليعمل في شيء كان في ذلك الحين أبعد ما يكون عن ولاية الفقهاء ، وهو الاشتراك مع مواطنه المسيحي حفص بن ألب في ترجمة كتاب هروشيئس من اللاتينية إلى العربية ، ورأينا أبا عبيد البكري يخرج من موطنه جزيرة شلطيش هارباً مع أبيه إلى اشبيلية ، ثم ينتقل في الأندلس من غرب إلى شرق حيث يلتقي بالعذري في المرية

ويأخذ عنه ، ويستقر أخيراً في اشبيلية ويفرغ للتأليف في الجغرافية ؛ ورأينا الشريف الإدريسي وما في حياته من عجب خارج عن المؤلف ، وأبا حامد الغرناطي الذي أشبه - بما طوّف ورأى وتعرض له - أن يكون سندباد بحر وبر معاً ، ثم أبا بكر بن العربي وما ملأ نفسه من قلق وطموح ؛ وهذه مجرد أمثلة نحدونا إلى القول بأن الجغرافيّ في تلك العصور كان لابد أن يكون مغامراً جرى القلب خفيف الحركة طُلعةً يحفزّه إلى طلب المعرفة شوق إلى المجهول لا يأذن له في ركون أو استقرار ، وإذا كانت الرحلة في قافلة محروسة وعلى درب مطروق مفاصرةً في تلك الأعصر ، فما بالك برحلة الرجل وحيداً أو مع دليل لا تؤمن غدراته ؟ ثم كيف يكون الانسان جغرافياً في تلك العصور إلا إذا أقدم على ذلك المرة بعد المرة ؟ إذ لم تكن هناك كتب وافية بالغرض في هذا الباب ، وكان لابد للراغب في الاتيان فيه بمجديد من أن يترك أمان بيته إلى مخاوف الدروب والطرقات ومعاطب ركوب البحار على سفن يصدق عليها قولهم : الداخل إليها مفقود والخارج منها مولود . وإذا كان الدافع إلى طلب العلم هو ذلك القلق المبارك الذي يدفع الانسان إلى أن يعلم ويعرف ويستكشف ، فأنتنا مع جغرافيينا أمام ناس هم نماذج لهذا القلق الخبير الكشاف ومع طلائع في ركب الانسانية في سيرها الأبد في مخاطر المجهول . ولم نورد هذا المثل هنا لجرد اتصال السياق ، بل لأنه يعبر أصدق تعبير عن شعور أبي الحسين محمد بن أحمد بن جبير الكنتاني صاحب الرحلة المشهورة التي ننقل إلى دراستها الآن ، فهو القائل :

البحرُ مُرٌّ المذاقِ صعب لا جُعِلَتْ حاجتي إليه
أليس ماءً ونحن طين ؟ فما عسى صبرنا عليه ؟ (١)

(١) رحلة ابن جبير بتحقيق الدكتور حسين نصار (القاهرة ١٩٥٥) ص ٦-٣ ، وهي طبعة جيدة اعتمد فيها على طبعة وليام رايت (لندن ١٨٥٢) التي اعاد طبعتها مصححة منقحة دى خوية سنة ١٩٠٧ وقد حقق حسين نصار بعض قطع الرحلة على نقول منها في عدد كبير من الكتب أورد بيانها في صفحة ز من مقدمته .

وقد قال ابن جبير هذين البيتين — وهما من أطف ما وصل إلينا من شعره — فى سياق وصفه الممتع لرحلته بالبحر الحافلة بالمتاعب والمخاطر والآلام من عكا إلى صقلية فى طريقه إلى الأندلس ، وهو وصف يصور لنا دون مبالغة ما كان الناس يكابدونه إذ ذاك من الأهوال فى ركوب البحار حتى على الطرق البحرية المألوفة إذ ذاك كطرق البحر الأبيض .

وكلام ابن جبير عن أهوال ركوب البحار وتربص الموت للسفن فى كل لحظة يكشف لنا عن حقيقة لا بد لنا من تناولها قبل الفراغ لهذا الرحالة المبدع ومن عاصره أو أتى بعده ممن اشتغل بالجغرافية والرحلات من الأندلسيين .

ذلك أن ما وصل إليه الإدريسي والبيرونى وأبو حامد الغرناطى ومن سبقهم من العلم بالأرض وما عليها ومن عليها هو أقصى ما كان يستطيع الوصول إليه بوسائل الرحلات وآلات قياس الأبعاد والارتفاعات وتحديد الأوقات ومعرفة الاتجاهات التى عرفها الناس إلى ذلك الحين ، ولكى يصل الناس إلى معلومات جغرافية أكثر أو أحسن أو أدق كان لا بد من وسائل وأدوات أحسن وأدق مما كان لديهم ، فإن مراكب تلك العصور لم تكن تستطيع عبور البحار إلا على الاخطار التى وصفها ابن جبير فى رحلته الصغيرة نسبياً والتى سبقه إلى وصفها على نطاق أوسع أبو الحسن على السعوى ، فقد كانت سفناً صغيراً غير متقنة الصنع يتسرب داخلها الماء باستمرار ، ولا تستطيع أن تقطع فى أمان إلا رحلة الأسبوع أو نحوه فى بحر ساكن كصفحة المرآة ، وأقل زيادة فى المدة وأيسر نوء فى البحر أو أقل خطأ فى الاتجاه كان معناه الهلاك . وهذه السفن كانت أقصى ما يستطيع بُناتها صنعها فى هذه الأعصر وظروفها السياسية العامة ، فإن سفن التجارة كان يبنها فى العالم العربى أفراد من الناس لا تصل رؤوس أموالهم إلى أن تعمّر من السفن أكثر مما عمرت ، وكانت هذه السفن معرضة للمعاطب من العواصف والأنواء وشعب البحر ومتلصصته فى كل مرحلة من مراحل رحلاتها ، وحتى فى مرافئ بلادها لم تكن فى أمان من حكامها

أنفسهم ، إذ كانت يدهم على التجار والمتاجر ثقيلة ، ولم يكن هناك أهون عليهم من مصادرة تاجر أو الالحاح عليه بالمغارم والمطالب ومطالبته بالهدايا الغالية والألطف النفيسة فى كل حين ، ولم يُعَنَّ واحد من حكام القرن الهجرى الرابع وما بعده بأصلاح سرفاً أو بناء دار صناعة أو حراسة ميناء أو تأمين تجار فيما عدا أشياء قليلة قام بها الأمويون وأهل البحر والتجارة فى الأندلس ، ولهذا لم يكن أى تاجر أو ملاح ليغامر بجزء كبير من ماله فى عمارة سفينة ضخمة ينتظرها القدر المحتوم على أيدي الانواء أو الرياح أو المتلصصة أو الحكام ، ونتيجة لهذا ظلت السفن صغيرة غير متقنة الصنع قصارى ما تستطيعه بضع رحلات فى امد قصير ثم تتلاشى ، بل سئى أن سفن البحر الأحمر كانت تبني لرحلة واحدة ، وكان صاحبها يحسب حسابه على أن يسترد تكاليف بنائها فى هذه الرحلة الواحدة . ونتج عن ذلك أن التجارة البحرية فى ذاتها ظلت محدودة حجماً ومدى ، بل هى أخذت تتضاءل عما كانت عليه مع استمرار ضعف الحكومات وعجزها عن القيام بمسئولياتها حيال شعوبها وطمعها المتزايد فى أموال الرعية .

ومثل هذا يقال عن تجارة البر ، فقد ظلت تقوم على قوافل سيئة الحراسة لا تقطع مرحلة من الأرض إلا بعد دفع إتاوة باهضة لأصحابها ، ولا تدخل بلداً إلا انقض عليها المكاسون والعشارون كالصقور يمدون أيديهم حتى فى ملابس الناس ويعرسون الأبر الطويلة فى أمتعتهم بحثاً عن ذهب أو فضة أو أى شئ تجبى عليه ضريبة ، وهذه كلها حقائق يصفها لنا ابن جبير بأحسن بيان ومن هنا فلم يكن هناك طريق إلى تجارة ذات شأن إلا إذا كانت فى خدمة الحكام مباشرة أو بمشاركتهم للتجار فى المكاسب دون المغارم ، وهذه هى بعض الأسباب الأساسية فى هبوط أمر التجارة والتجار فى مملكة الإسلام كلها من أول العصر العباسى الثانى ، وهو هبوط يسير متوازياً مع الهبوط السياسى وفساد نظم الحكم وغلبة الأتراك على أدوات الحكم وما استتبعه ذلك من ضياع

لشئون الرعية وميل لميزان العدالة وتخلخل للأمن وانحدار المستوى الاجتماعى كله تبعاً لذلك .

وأهم ما يعنينا هنا من عقابيل هذا الانحدار السياسى الاقتصادى أن تجارة البحر الأبيض خرجت من أيدي المسلمين جملة ، وأن الطرق الكبرى التى كانت عامرة بالرحالة والسفار والقوافل فى العصور الأولى فقدت الأمان والحراسة وخلت من السابلة إلا من قوافل الحج ، وقد تعودنا أن نربط بين ضياع تجارة البحر الأبيض من أيدي المسلمين واضمحلال أساطيل الدول الإسلامية فيه ، ولكن الحقيقة أن العلاقة بين هذا الاضمحلال وضياع التجارة علاقة غير حقيقية ، لأن الذين انتزعوا سيادة طرق البحر من أيدي المسلمين لم يكونوا أقوى منهم سياسياً أو عسكرياً ، ودولة النورمان التى قامت فى صقلية منتصف القرن الخامس الهجرى « الحادى عشر الميلادى » لم تكن أقوى من دول الفاطميين والأيوبيين والمرابطين والموحدين ؛ وكذلك الجمهوريات الإيطالية التى ورثت من المسلمين أمواه ذلك البحر لم تكن — بداهة — تضاهى تلك الدول الإسلامية قوة وثروة ، ولكنها كانت كلها دولاً جديدة ، للحكم فى نظرها مفهوم آخر نستطيع أن نصفه بأنه كان جديداً فى تلك العصور .

فأما دولة النورمان فقد بينّا فى كلامنا على الإدريسى وفى بحثنا عن « أدارسة صقلية^(١) » أنهم كانوا قوماً أذكاء أفاموا دولتهم فى صقلية على رضى الناس عنهم وتأيدهم إياهم وتقديمهم إلى النورمان أحسن ما لديهم من القوى والملكات والخبرات ، فخدمهم فى الجزيرة العرب والبيزنطيون والصقليون ، ولم يتدخل ملوك النورمان — وخاصة رُجار الثانى منهم — فى عقائد الناس أو ثقافتهم أو شئونهم الخاصة إلا بالقدر الذى اضطرت إليه روح العصر ، فسعد الناس فى ظلهم وانتفعوا هم بهم ونشطت التجارة وانتظمت الملاحاة بين موانئ

(١) نشر فى مجلة المجمع العلمى العراقى ، مجلد ١١ (١٩٦٤) .

دولتهم وغيرها سواء أكانت في بلاد النصارى أو المسلمين . وأما الجمهوريات الإيطالية فكانت — كما بينه سيسموندى في كتابه الذائع الصيت عنها — طلائع أولى لفلسفة الحكم في العصور الحديثة ، فسواء أكنّا في البندقية أو جنوة أو بيزا أو أمّالفي فنحن أمام جماعات من التجار والملاحين تشتري من أمراء نواحيها حرية العمل في مدينتها ومساحة ضيقة من الأرض حولها في مقابل ضريبة سنوية تؤديها لأولئك الحكام . وما يكاد الاتفاق يتم حتى تتحول موانئ أولئك التجار إلى مراكز كبرى للتجارة والنشاط البحري فتقوم فيها دور الصناعة والخازن والأسواق والمصارف ، وتبنى السفن وتمضى في كل سبيل ، وينشئ التجار وأهل الصناعة والمال مجلساً للحكم مهمته الرئيسية حماية الأموال والمتاجر والسفن وحفظ حقوق التجار والملاحين ، وبفضل هذه الحماية تربو الثروات ويثرى البلد وينشئ أهله القصور الجليلة والمخازن الضخمة والأرصعة الواسعة والحصون والأسوار ووسائل الدفاع والأساطيل الحاربة لتعقب متلصصة البحر الذين نسميهم عادة بالقراصين . ويطمع الأمراء المجاورون في هذه الثروات الكبرى ولكن الجمهوريات التجارية ترد مطامعهم بجيوشها وتحصيناتها وينتهى الأمر بتلك الجمهوريات التجارية إلى أن تصبح دولا مستقلة أو تدين بطاعة اسمية لهذه الدولة أو تلك ، ومنها ما كان يدخل في طاعة الدولة البابوية جملة للاستغلال بحمايتها الروحية .

والمهم بالنسبة لموضوعنا هنا أن طبيعة تكوين هذه الجمهوريات أدت إلى تقدم الفنون البحرية جميعاً تقدماً كان له فيما بعد أكبر الأثر في تطور التاريخ العام ، فقد ارتقى فن بناء السفن بفضل وجود رؤوس الأموال القادرة على إنشائها ، ووجد الموهوبون من بنائها من يؤجرهم على عملهم فأجادوا وأبدعوا ، ولم يبخل التجار عليهم بالمال لأنهم آمنون على السفن أولاً ثم واثقون ثانياً من أنهم سيجنون من ورائها الأرباح الكبرى ، فنشأت سفن كبيرة متينة قادرة على القيام بالرحلات البعيدة والصمود للأمواج والأنواء ، وعلى سكاكات هذه السفن قام

ربابنة مهرة قادرون على الملاحة في البحار الواسعة يعاونهم ملاحون ذوو دربة وجرأة وجلد ، وهؤلاء وأولئك جمعوا عن البحار والأرضين معلومات دقيقة وافية وأدلوها بها إلى رجال مهروا في رسم الخرائط في تلك الموانئ الإيطالية وموانئ الجزائر الشرقية (البليار) فنشأت الخرائط البورتولانية أو المرفئية التي تحدثنا عنها فيما سبق ، وبعبارة موجزة : وقفت تلك الموانئ الإيطالية بفنون البحر على أبواب التحول العظيم الذي قاد إلى حركة الكشف الجغرافية الكبرى ، ونتج عن هذا التحول العظيم في فنون البحر تطوراً واسع المدى في المعلومات الجغرافية . أى أننا نشهد في الواقع ميلاد علم الجغرافية كما نعرفه اليوم في اثناء هذا التطور البعيد المدى الذي اجهلناه في سطور ، وهذه حقيقة شرحها بأجلى بيان الجغرافى الفرنسى فيدال دى لابلاش في مقدمته المبدعة لكتاب « الجغرافية العالمية » . وحركة الكشف الجغرافية في حقيقتها إن هي إلا نتيجة مباشرة لتقدم فنون الملاحة وأدواتها واتساع المعلومات الجغرافية ، وثمرته لتطور فلسفة الحكم في بعض البلاد الأوروبية على الاساس الذى أشرنا إليه في كلامنا عن قيام الجمهوريات الإيطالية^(١) . ونحن عندما نقول إن كريستوفر كولومبوس كشف العالم الجديد ننسى أنه ما كان يستطيع الوصول إلى شيء من هذا لولا العلم الذى تجمع بين يديه عن الأرض وما فيها — وأساس الجزء الرئيسى في هذا العلم عربى كما بينا في كلامنا عن أبى عبيد البكرى — ولولا بناء السفن

(١) انظر عن تفاصيل هذا التطور الحاسم في تاريخ أوروبا :

K. Bücher: *Die Entstehung des Volkswirtschaft*, 7^o. Auflage, Tübingen, 1910.

A. Dopsch, *Wirtschaftliche und Soziale Grundlagen der Europäischen Kulturentwicklung aus der Zeit von Kaiser bis auf Karl den Grossen*. Wien, 2^o. Auflage, 1923-1924, 2. Bände.

A. Schaub, *Handels Geschichte der romanischen Völker des Mittelmeergebiets bis Zum Ende der Kreuzzüge* München - Berlin, 1906.

II. Pirenne, *Un Contraste économique: Mérovingiens et Carolingiens*, dans *Revue Belge de philologie et d'histoire*, tome I (1922) et II (1923).

Ibidem, *Les Villes des Moyen Age. Essai d'histoire économique et sociale* (Bruxelles, 1927).

C. W. Previté Outen, *The Shorter Cambridge Medieval History* Cambridge, 1953), II, 1076 sqq.

الذى استطاع أن ينشئ له « السانتا ماريا » و « لا نيفيا » و « لا بينتا » وهى كل أسطوله الذى غيّر به وجه الأرض والتاريخ ، وكذلك لولا الحاكم الذى فهم كلامه ولمح احتمالات الثروة والقوة التى كان يتحدث عنها ، فأفرغ عليه الأموال وحشد له الملاحين المهرة ومكن له من أن يصمد فى البحر ثلاثة أشهر سويًا حتى يصل إلى الشاطئ الموعود ، ولا يشوب ذلك أنه كان يحسب أنه وصل إلى شاطئ الهند أو الصين كما قرأ عند أبي عبيد البكرى ، فقد كان هذا أسعد خطأ فى التاريخ ، وهو كذلك خطأ قام على صواب كثير . وفى سياق هذه المعانى نقول إنه لم يكن مجرد مصادفة أن الشريف الإدريسي لم يجد مكانًا يعمل فيه ويبدع إلا فى بلاط النورمان وأن أبا الحسين بن جبير الذى سنتحدث عنه بعد قليل قام برحلته الأولى — وهى أهم رحلاته — من المغرب إلى المشرق — ذهابًا وعودة — على سفن جنوية .

وجدير بنا أن نطيل الوقوف عند هذا التطور البعيد المدى لأسباب كثيرة تتصل بموضوع دراستنا هنا ، وتكفى منها هنا بائنين : الأول أننا سنرى أن ابن جبير سيلاحظ بعض مظاهره فى سروره ببعض بلاد النصرانية ، والثانى أن معرفة تفاصيله توضح لنا السبب فى أننا لم نستطع — رغم توفر العلم والرياسة القادرين فى بلادنا — أن نقوم بحركة الكشف الجغرافى أو نسهم فيها ونغادر غياهب عصورنا الوسطى فى الوقت الذى غادروا عصورهم الوسطى فيه . فإلى جانب هذا التطور الذى شهدناه فى الجمهوريات البحرية الإيطالية كانت أوروبا كلها تمر بحركة تطور عميق واسع المدى بدأ من أوائل القرن العاشر الميلادى ، فقد كان المجتمع الأوروبى قد تحول شيئًا فشيئًا عقب الغزوات الجرمانية — وحتى نهاية القرن التاسع الميلادى — إلى مجتمع زراعى مقفل شبيه بالمجتمع المصرى والشامى تحت حكم المماليك والأتراك العثمانيين ، فسيطر أمراء الاقطاع — وعلى رأسهم الملوك — على مصائر الأمم وشئون الناس ، وسيّروا شئون الحكم على نحو يجعلهم — مع من عاونهم من كبار رجال الدين —

المتنوعين وحدهم بخيرات البلاد كلها ، فاضمحت المدن فى أوروبا كلها (عدا الأندلس) وتلاشى الكثير منها ، وتوقفت التجارة الكبيرة فى داخل القارة الأوروبية وفى موانئها القائمة على البحر الأبيض على الخصوص . ثم بدأت دول جديدة تقوم على انقاض الاقطاع من القرن الثامن الميلادى فصاعدا ، وبعد تجارب عديدة فيما يعرف الآن بفرنسا على وجه خاص ، تبين للملوك أثناءها أن إقامة الدول على سواعد أمراء الاقطاع ومقاتليهم لا يسمح لها إلا بعمر قصير ومدى من اتساع الرقعة وقوة البنية محدود ، وأن دولة من الدول لن تقوى ويشدد ساعدها ويدوم لها السلطان إلا إذا تخلصت من الاعتماد على أمراء الاقطاع والأشراف ورجال الدين . فاتجه الأذكىاء الواعون من الملوك إلى التجار والصناع من أهل البلاد يستعينون بهم فى صراهم مع الاقطاعيين ، فتحولوا جماعات التجار والصناع فى المدن حقوقاً وضمانات ، وأذنوا لهم — لقاء اتاوات مالية — فى تحصين هذه المدن وتسيير شئون الحكم فيها كما يشاءون ، فبدأت المدن تنففس من جديد ، وأدار أصحابها من التجار حولها الأسوار وأنشأوا القوات العسكرية ، ووضعوا — على أساس الوثائق التى أصدرها الملوك لهم — تشريعات جديدة مدنية أهم ما تحرص عليه هو تحصين المال والتاجر والمصنع وتأمين أهلها ، وقامت النقابات واجتهد رجالها فى المحافظة على أصول صناعات أعضائها وتثبيت قواعد أخلاق عملية جديدة ، فاستقوى أمر هذه المدن سريعاً كما حدث فى الموانئ الإيطالية ، وزادت أسوارها حصانة وجيوشها قوة ، وخلف أسوار المدن هذه ولدت أوروبا الحديثة بعقليتها العملية الواضحة وبصناعاتها الجيدة المتقنة وبثروتها الكبيرة القادرة على تدعيم بنى الممالك التى ترضى عنها ، وبفضل قوانينها المدنية التى جعلت مفهومات الرومان والبيزنطيين فى هذا الباب أثراً من آثار الماضى ؛ وبدأت الشعوب الأوروبية المختلفة تظهر بسماتها وخصائصها ، وبعبارة مختصرة : فى هذه المدن ولدت أوروبا الجديدة وكانت النهضة الكبرى التى غيرت وجه التاريخ ، وأما القول بأن هذه النهضة بدأت فى إيطاليا بسبب

انتقال علماء الدولة البيزنطية إليها فكلام لا يثبت لأقل تفكير ، وأبسط ما يهدمه هو أن نسأل : إذا كان عدد قليل من أولئك العلماء البيزنطيين هم الذين اشعلوا قبس النهضة فى إيطاليا ، فكيف لم يشعلوها فى بلادهم نفسها ، وكانوا هناك أكثر واقدر ، وبلادهم أولى بهذا الخير الذى أفاضوه على بلاد الآخرين ؟ الحق أن النهضة الأوروبية كلها ولدت فى هذه المدن والموانى ، ولم يتنبه أهل النهضة إلى علوم اليونان والرومان إلا بعد زمان طويل . هذا كله كان يحدث أثناء عصور الحروب الصليبية ، وبعدها سارت النهضة بخطوات أسرع وأكبر ، فى حين لم تلبث الشعلة التى توهجت عندنا على أيام الاتابكة ثم نور الدين وصلاح الدين وقضت على الخطر الصليبي أن أخذت تخبو تحت وطأة الأيوبيين المتأخرين ومن تلامهم من المماليك ، ثم سكنت الرياح فى مملكة الإسلام وانتشرت ظلال عصور طويلة من الركود فى كل ميدان ، وأغلقت الأبواب والنوافذ ورسخت قواعد مجتمع زراعى مقفل فقير زادته نظم الحكم القائمة إذ ذاك فقراً وركوداً .

وفى مثل هذه الظروف السياسية والاجتماعية لم يكن من الممكن أن يتقدم العلم الجغرافى ، لأن المعلومات الجغرافية لا تنحصل إلا من الرحلة والمشاهدة ودراسة المظاهر الطبيعية والاجتماعية فى شتى البلاد ، إذ الجغرافية — ربما دون سائر العلوم — علم لا يزهر ويثمر إلا فى جو طلق رحيب يأذن فى الحركة المتصلة دون قيد ، ولا غرابة والحالة هذه فى أننا سنمر فيمابقى من هذا البحث برجال موهوبين فى هذا الفن حقاً مثل ابن جبير وعلى ابن سعيد وأبى محمد العبدرى وابن عبد المنعم الحميرى وابن الخطيب ولكنهم لن يأتوا بجديد من المعلومات وإن جودوا فى فنون الرحلات والرسائل المختصرة أو المعاجم الجغرافية ، والذنب فى هذا ليس ذنبهم ، إنما هو ذنب الظروف التى عاشوا فيها وحكمت عملهم وحددت مداه ، فلا شك فى أن رجلاً مثل على بن سعيد كان حقيقاً

بأن يضيف إلى العلم الجغرافى شيئاً عظيماً لو لم تحكمه وتحدد اتجاهات ذهنه ونشاطه ظروف لا تعين عالماً في هذا الفن على التجديد أو الابتكار .

بيد أن هناك ظاهرة فتحت باباً واسعاً للأمل في التجويد والابتكار أمام المشغوفين بالرحلة القادرين على الملاحظة والاستنتاج ، وهى إقبال الناس على أدب الرحلات بعد هذه البداية الطيبة التى قام بها أبو بكر بن العربى ، فن منتصف القرن السادس الهجرى / الثانى عشر الميلادى — نجد أنفسنا أمام سلسلة طيبة من كتب رحلات ذات قيمة كبرى قام بتأليفها أندلسيون ومغاربة ، وقد كانت الرحلة إلى المشرق أسراً تقليدياً عند الأندلسيين والمغاربة من فجر تاريخهم الإسلامى ، ولكن — لأسر ما — لم يدوّن أحد منهم وصف رحلته وما شاهده فيها قبل ابن العربى ، ولعل بعضهم دوّن وصف رحلته وضاع هذا الوصف ضمن ما ضاع من كنوز العلم الأندلسى ، وعلى أى حال فنحن لا نجد إشارة إلى وصف رحلة لأندلسى قبل أبى بكر بن العربى ، والطريف أن وصف الرحلة التالى له — رحلة ابن جبير — طفر بفن وصف الرحلات في تاريخ الفكر الأندلسى طفرة وصلت به إلى قريب من القمة التى وصل إليها هذا الفن في الأدب العربى كله ، فبعد رحلة ابن جبير نصل إلى القمة عند ابن بطوطة ، ولكل من هذين الرجلين مكانه في تاريخ الأدب الجغرافى العالمى ، وبعدهما مباشرة يبحى الإيطالى ماركو بولو ، وهو من البندقية ، إحدى الجمهوريات الإيطالية التى أشرنا إليها ، ولانتقال زعامة فن الرحلات في الأدب العالمى من أيدينا إلى أيديهم — كما هو واضح — مغزاه ومعناه فيما يتصل بانتقال زعامة العلم الجغرافى وفنونه إلى الغرب نتيجة لما شرحناه^(١) .

(١) رجعت في هذا الموجز إلى :

Kimble, G. H., *Geography in the Middle Ages*, 1938.

Bagrow, L., *Geschichte der Kartographie*, Berlin, 1951.

Beazley, C. R., *The Dawn of Modern Geography*, III, 1906.

أبو الحسين محمد بن جبير الكنانى

وابن جبير ، صاحب هذه الرحلة الجليلة الشأن هو أبو الحسين محمد بن جبير الكنانى ، ولد فى بلنسية أو شاطبة فى ١٠ ربيع الأول سنة ٥٤٠/٣١ أغسطس ١١٤٥ فى بيت عربى أندلسى عريق يرجع نسبه إلى رجل من رجال طالعة بلج بن بشر بن عياض القشبرى ، ودرس أول الأُسُر فى بلده ثم فى غرناطة ، ويبدو أن أباه هاجر بأسرته إليها للعمل فى دواوين الموحدين ، ومن الثابت على أى حال أنه — الأب — كان فى خدمة عمال الموحدين على غرناطة ، وقد سار ابنه محمد بن أحمد بن جبير الكنانى فى هذا الطريق ووصل إلى أن يكون كاتباً لأبى سعيد بن عبد المؤمن بن على عامل الموحدين على غرناطة ، ومن الهدية أن تكون له مكانة ممتازة عند هذا الأمير بفضل علمه الواسع باللغة والآداب والفقه وقدرته على نظم الشعر .

وكل هذا لم يكن — كما قال كرتشكوفسكى بحق — ليصل بابن جبير إلى الشهرة أو يجعل له مكاناً ممتازاً فى تاريخ الفكر العربى ، لأن هذا الضرب من الفقهاء كان كثيراً فى الأندلس وبقية العالم الإسلامى ، ولكن مصادفة لم تكن فى الحسبان — إذا صدقنا القصة التى تحكى حولها — بعثته على الخروج إلى المشرق لأداء الفريضة ، فإذا برغبته لطلب العلم تتجدد فيمضى يسمع على الشيوخ فيما يمر به من بلدان ، وإذا هو يتكشف عن رجل دقيق الملاحظة صائب النظر طَلَمَة إلى المعرفة مشغوف بتسجيل ما يرى فى أسلوب سهل صادق يبعث على الثقة ، وإذا به نتيجة لذلك كله يخلف لنا وثيقة من أجل وأصدق ما خلف الرحالة العرب يصل بها دفعة واحدة إلى قرابة القمة التى وصل إليها فن تدوين الرحلات فى تاريخنا الفكرى .

أما القصة التى يحكون عن سبب رحلته فمرجعها ذلك الجماعاة الحاشد أحمد ابن محمد المقرئ ، وملخصها أن هذا الأمير أبا سعيد بن عبد المؤمن استدعى

الشيخ محمد بن أحمد بن جبير ليكتب عنه كتاباً وهو على شراب ، فأراد أن يمزج مع الشيخ فد له يده بكأس من النبيذ ، فاعتذر عن قبولها وأبى واسترجع ، وعز على هذا الأمير أن تُردّ دعوته فاقسم على ابن جبير — تحت تأثير الخمر طبعاً — أن يشرب منها سبعاً ، فخاف الرجل وشربها انتقاء لما هو أسوأ ، فسلأ الأمير له الكأس سبع مرات دنائير — بتأثير الخمر أيضاً — فازمع ابن جبير الحج بهذه الدنانير تكفيراً عما شرب من الانهم ، وأياً ما كان موضع هذه الأقصوصة من الصحة فهي لا تخلو من دلالة على خلق الأمير والشيخ معاً ، فأما هذا الأمير فكان رجلاً سهلاً محدود الملكات ذا ميل إلى الدعة والاستمتاع كهامة أولاد عبد المؤمن بن علي فيما عدا ابنه أبو يعقوب يوسف الذي ورث الملك من بعده ، وأما الشيخ ابن جبير فقد كان رجلاً متديناً سليم الطوية حسن التصرف في الأمور ، فان الحج بالدنانير كان كفيلاً بمحو السيئة ، ثم هو يريجه من هذا الأمير برهة من الزمان ويفتح أمامه باباً للفرجة والعلم والحركة هرباً من ركود الحياة في غرناطة إذ ذاك .

وواضح لمن يطلع على وصف رحلته أنه قرر قبل السفر أن يكتب وصفها واستعد لذلك ، فكان أثناءها يرقب حساب الأيام والشهور في دقة بالغة ويدون ملاحظاته عما شهد ورأى يوماً بعد يوم ، بل نعتقد أنه حتى في الأوقات التي كان فيها على السفينة حرص على أن يُدوّن — وهو يقاسى هول الأنواء والعواصف — أحاسيسه وما يرى لكي يسجلها بتفصيل لأول ما تسنح له فرصة ، وبدون هذا لا يمكن تصور الدقة البالغة التي يصف بها كل شيء ويسجله دون خطأ في تاريخ أو خلط بين حوادث يوم وآخر . وقد ورد في أول المخطوط الوحيد للرحلة أن اسمها « تذكرة بالأخبار عن انفاقات الأسفار » وورد في ختامها أن اسمها « اعتبار الناسك في ذكر الآثار الكريمة والمناسك » ولا ندرى أيهما كان عنوان الكتاب ، وقد تكون الحقيقة ما قاله كراتشكوفسكي من أن العنوان لم يكن هذا ولا ذاك ، بل رحلة ابن جبير أو رحلة الكنانى فحسب .

حياة ابن جبير ورحلاته

غادر ابن جبير غرناطة في رحلته الأولى إلى المشرق يوم الخميس ٨ شوال سنة ٥٧٨ / ٣ فبراير ١١٨٣^(١) في صحبة صديق له من المشتغلين بالطب يسمى أحمد بن حسان كان يعمل معه في الكتابة في الديوان الموحدى في غرناطة^(٢) ، ولم يكونا — بداهة — يقصدان شهود الموسم في نفس السنة ، فقد كان بينهما وموعده أقل من شهرين ، وهي مدة لم تكن تكفى لهذه الرحلة الطويلة في تلك العصور ، إنما كان الناس يخرجون من الأندلس في مثل هذا الموعد احتياطاً للطوارئ ولكي يسبروا على هيئة فيكونوا في البقاع المقدسة في رجب من العام التالي ، فيؤدون العمرة الرجبية ثم يقضون في مهد الإسلام رجباً وشعبان ورمضان وشوال وذا القعدة ما بين درس وسماع وزيارات وأعمالٍ تقي ثم يؤدون الحج بعد ذلك في ذى الحجة ، ثم يعودون إلى أوطانهم سعداء بهذه المجاورة التي كانوا يعدونها أسعد أوقات حياتهم وخير زادهم للآخرة .

وهذا على وجه التقريب ما فعله ابن جبير ، إذ وصل إلى جدة في يوم الثلاثاء ٤ ربيع الآخر ٥٧٨ / ٢٦ يوليو ١١٨٣ أى أنه استغرق في الرحلة من بلده غرناطة إلى جدة خمسة أشهر هجرية وستة وعشرين يوماً ، وهي ١٦٢

(١) هذا هو ما ذكره ابن جبير في كتابه ، وقد كان حريصاً على أن يدون مراحل سيره بالأيام والتاريخين الهجرى والميلادى . ولكننا نلاحظ أولاً أن يوم ٨ شوال ٥٧٨ يقع يوم جمعة لا خيس ، ثم إنه يقابل ٢ (لا ٣) فبراير ١١٨٣ ، وتكفي هذه الملاحظة هنا ، وإن لم تقضى لصحح كل أخطاء التواريخ في الرحلة بل سنثبتها كما أثبتنا هو ، فهي على هذه الصورة جزء من الرحلة نفسها .

(٢) أبو جعفر أحمد بن حسان بن أحمد بن الحسن القضاعي ، أصله من أندلس — عمل بالنسبة — كان متحقيقاً يعلم الطب وله فيه تقييد مفيد ، مع المشاركة الكاملة في فنون العلم ، وكتب للسيد أبى سعيد ابن عبد المؤمن ، وجدده لأمه القاضي أبى محمد عبد الحى بن عطية ، وتوفى بمراكش سنة ٩٨٠ هـ أو ٩٩٠ هـ (١٢٠٢ أو ١٢٠٣) ولم يبلغ الحسين من عمره ، ولم يذكره ابن جبير في رحلته إلا ثلاث مرات . انظر مقدمة رحلة ابن جبير للدكتور حسين نصار ، ص : ٥ .

يوماً على وجه التقريب . وهذا هو متوسط المدة التي كان يحتاجها الراحل من الأندلس إلى الحجاز ، ونلاحظ أن ابن جبير اكتفى بأن يشهد في طريقه أهم المزارات وأشدّها قداسة عنده ، فلم يكده يسمع من أحد من الشيوخ ، وكانت العادة أن يبدأ الناس السماعَ الحقيقي في الحجاز إذا وصلوا إليه تاركين مَنْ يمرون به من الشيوخ في الطريق إلى العودة ، فبعد أداء الفريضة يتسع الوقت للدراسة والطلب . حقيقة أن ابن جبير اضطر إلى الوصول إلى مكة عن طريق الصعيد الأعلى وقوص ثم عبور البحر من عيذاب إلى جدة بدلاً من الطريق التقليدي عبر شبه جزيرة سيناء إلى أيلة ثم الانحدار جنوباً حتى المدينة فكة ، ولكن هذا لا يغير من الوضع كثيراً ، فقد كانت الرحلتان متقاربتين من حيث الزمن اللازم لقطع كل منهما ، لأن فرق المسافة كان يعوضه عبور البحر الأحمر من عيذاب إلى جدة ، وهي رحلة بحرية كان لا ينبغي أن تستغرق أكثر من ثلاثة أيام ، ولكنها كانت تستغرق في العادة ما بين ثمانية أيام إلى عشرة كلها معاطب ومهالك مرجعها إلى سوء السفن واجتهاد أصحابها في تحصيل تكاليف انشائها في عبور واحد ، ثم انعدام رقابة الدولة على شئون هذا المرفأ البحري الهام ، وهذه كلها حقائق أشرنا إليها فيما سبق ، ويرجع الفضل إلى ابن جبير في تصويرها تصويراً واقعياً لا يخامرنا الشك في صحته ، وسنعود إليه بتفصيل أوفى فيما يلي من الصفحات .

ونُتابع بقية رحلة ابن جبير الأولى وأحداث حياته إلى نهايتها لكي نفرغ بعد ذلك لدراسة الرحلة نفسها : بارح ابن جبير المدينة المنورة في ٨ محرم ٥٨٠ مع ركب الحاج الكبير الجامع لحجاج العراق وخراسان والشام فوصل إلى الكوفة في ٢٨ محرم ، أي أن القافلة استغرقت ٢٠ يوماً لقطع مسافة تزيد على ٨٠٠ كيلومتر ، بمعدل نحو ٤٠ كيلومتراً في اليوم ، وهو متوسط السرعة لأسفار القوافل في تلك العصور ، ووصل إلى بغداد مساء الأربعاء ٣ صفر ٥٨٠ ، ولم يقيم فيها إلا ١٣ يوماً ، ولكنه رأى في هذه الأيام القليلة ما لم ير

غيره في شهور ، لأن ابن جبير كان شديد الشبه بمؤرخنا المصري عبد الرحمن الجبرتي ، لا يكاد يسمع عن شيء غريب إلا أسرع لرؤيته ، ولا يتصل به طرف من خبر حتى يبادر إلى استقصاء تفصيله ، ولا يترك أثراً أو مشهداً أو اجتماعاً إلا خف إليه ، ثم هو حريص بعد ذلك على أن يدون كل ما يرى ويسمع على أدق صورة وأوفاهها ، وإلى هذا الحرص ترجع أهمية رحلته هذه الفريدة في بابها . ومن بغداد رحل إلى دمشق ماراً بتكريت والموصل ونصيبين ورأس العين وحران ومنبج وحلب وحماه وحمص ، فوصلها يوم الخميس ٢٤ ربيع أول ٥٨٠/٥ يوليو ١١٨٤ ، وقد اقتصرنا هنا على ذكر المراحل الرئيسية من خط سيره .

أقام ابن جبير في دمشق حتى ٥ جمادى الآخرة ٥٨٠/١٣ سبتمبر ١١٨٤ فكأنه قضى فيها قرابة السبعين يوماً ، أى قريباً من المدة التي قضاها في الحجاز وستّ مبرات ونصفاً قدر المدة التي قضاها في بغداد ، وليس مرد هذه الإقامة الطويلة إلى مجرد البحث عن وسيلة للسفر من دمشق إلى عكا على طريق كانت إذ ذاك تحت سلطان الصليبيين ، بل مرده في الحقيقة إلى هذا الأنس الذي كان الأندلسيون يجدونه في عاصمة الشام للمشابهة في البيئة الطبيعية وأخلاق الناس ورابطة الأموية ، وهذا الأنس مصداق ما يقوله الجغرافيون الأندلسيون عن بلادهم من أنها شامية ، ولهذا لا نكاد نجد رحالة أو حاجاً أندلسياً إلا يطيل المقام والكلام في دمشق أو غيرها من مدائن الشام ، وسنرى عند كلامنا عن عليّ بن سعيد كيف استهوته حلب فجري لسانه بمدحها وفكر في الإقامة فيها ، وسيعبر المقرئ عن هذا الشوق الشامى للأندلسيين في صفحات بعد صفحات من كتابه النفيس « نفح الطيب » .

واستطاع ابن جبير الوصول إلى عكا حيث اكترى مكاناً في سفينة جنوية كان قصدها مدينة مسينة بجزيرة صقلية ، وأبحر في يوم الخميس ١٠ رجب ٥٨٠/ ١٨ أكتوبر ١١٨٤ على هذه السفينة التي يصفها ابن جبير بالضخامة والعظم .

ومقارنة بين وصفه للسفينة التي عبر عليها من عيذاب إلى جدة ووصفه لتلك السفينة الجنوية توضح لنا بما لا مزيد عليه من البيان البون الشاسع بين صناعة السفن وفنون البحر عند المسامين والنصارى في أواخر ذلك القرن الهجرى السادس/أواخر الثانى عشر الميلادى .

قال فى وصف السفينة التى نقلته من عيذاب إلى جدة :

« والجلاب التى يُصَرَّفونها فى هذا البحر الفرعونى ، ملفقة الإنشاء ، لا يُستعمل فيها مسمار البتّة ، إنما هى مَحِيطة بأمراس من القِنَبَار ، وهو قشر جوز النَّارَجِيل يدرسونه إلى أن يتخيط ، ويفتلون منه أمراساً يخيطنون بها المراكب ، ويخلّلونها بِدُسُر من عيدان النخل ، فإذا فرغوا من إنشاء الجلبة على هذه الصفة ، سَقَوْها بالسمن ، أو بدهن الخِرْوَع ، أو بدهن القِرْش ، وهو أحسنها ، وهذا القرش حوت عظيم فى البحر يبتلع الفَرْق فىه ، ومَقْصِدُهم فى دهان الجلبة ليلين عودها ويرطب ، لكثرة الشَّعَابِ المعترضة فى هذا البحر . ولذلك لا يصَرَّفون فيه المركب المسمارى . وعود هذه الجلاب مجلوب من الهند واليمن ، وكذلك القنبار المذكور . ومن أعجب أمر هذه الجلاب أن شُرْعها منسوجة من خوص شجر المَقْل ، فمجموعها متناسب فى اختلال البنية ووهنها ، فسبحان مسخرها على تلك الحال ، والمسلم^(١) فيها لا إله سواه . ولأهل «عيذاب» فى الحجاج أحكام الطواغيت . وذلك أنهم يشحنون بهم الجلاب ، حتى يجلس بعضهم على بعض ، وتعود بهم كأنها أقفاص الدجاج الملوّنة ، يحمل أهلها على ذلك الحرص والرغبة فى الكراء حتى يستوفى صاحب الجلبة منهم ثمنها فى طريق واحدة ، ولا يبالى بما يصنع البحر بها بعد ذلك ، ويقولون : « علينا بالألواح ، وعلى الحجاج بالأرواح » . وهذا مثل متعارف بينهم^(٢) .

(١) أى الذى يكتب السلامة من العطب فيها .

(٢) الرحلة ، ص ٤٤ — ٤٥

وقال في وصف السفينة التي استقلها من عكا إلى مسينة : « وصعدنا إلى المركب ، وهو سفينة من السفن الكبار — بمئة الله على المسلمين — بالماء والزاد ، وحاز المسلمون مواضعهم بانفراد عن الأفرنج ، وصعدوا من النصارى المعروفين . بالبليغريين — وهم حجاج بيت المقدس — عالم لا يحصى ، ينتهى إلى أزيد من ألفى إنسان... وقل الزاد بأيدي الناس ، ولكن هم في هذا المركب — بمئة الله — في مدينة جامعة المرافق ، فكل ما يحتاج شراؤه يوجد : من خبز وماء ، ومن جميع الفواكه والأدُم كالرمان والسررجل والبطيخ السندى والكثير والشاه بلوط والجوز والحصى والباقلاء — نيسا ومطبوخا — والبصل والثوم والتين والجبين والحوت وغير ذلك مما يطول ذكره ؛ عاينا جميع ذلك يباع^(١) » .

ووصل ابن جبير إلى مسينة يوم السبت ٢ رمضان ٥٨٠ / ١٨ ديسمبر ١١٨٤ بعد أهوال اشرف معها على الموت ، آخرها أن تحطمت السفينة في مدخل مسينة وانتقل ابن جبير ومن معه إلى البر في زوارق أقبل بها نواتية من الشواطىء . وأقام في ذلك البلد عشرة أيام ، ثم عبر ممر مسينة في مركب صغير إلى ميناء شفلودى ووصف لنا في أثناء ذلك بركان اتنا أصدق وصف قرأناه عند أحد من جغرافيينا أو رحالتنا ، ومن شفلودى انتقل إلى ثمة ثم إلى بلم (يكتبها بلارمة) فدخلها يوم السبت ١٦ رمضان ٥٨٠ / ٢٢ ديسمبر ١١٨٤ فأقام بها إلى السبت ٢٣ رمضان ٥٨٠ / ٢٩ ديسمبر ١١٨٤ ، ثم انتقل إلى إطرابنش Trapani ، فأقام بها على رغبه إلى ٢١ ذى حجة ٥٨٠ / ٢٥ مارس ١١٨٥ حيث رحل إلى الأندلس في مركب جنوى أيضا ، فوصل إلى الأندلس مساء الخميس ١٥ محرم ٥٨١ / ١٨ أبريل ١١٨٥ ونزل بميناء قرطاجنة ومنها سار إلى غرناطة فوصلها بعد سبعة أيام ، ودخل منزله بعد غياب عامين هجريين وثلاثة أشهر ونصف بحسابه .

(١) رحلة ابن جبير ، ٣٠٣ — ٣٠٤

وقد قاسى ابن جبير فى رحلته هذه كثيراً من الأهوال وصفها بتفصيل كبير مرة بعد مرة فى أسلوبه الساذج الجميل الذى ينبى عن صدقه وسلامة طويته وعميق اعتقاده فى الله سبحانه . ونعتقد أنه عاد إلى عمله فى خدمة الموحدين فى غرناطة ، ولكنه لم يعد إلى خدمة أبى سعيد بن عبد المؤمن ، فقد كان هذا قد ترك ولاية غرناطة من زمن ، والثابت على أى حال أن ابن جبير كان رضى الحال ذا مكانة مرموقة فى المجتمع الغرناطى فى ذلك الحين ، وتدل قائمة الذين سمعوا عليه -- وقد أوردوها المقرئ -- على أنه اشتغل بالتدريس زمناً دون أن يكون من كبار الشيوخ ، فلم يذكره أحد بين هؤلاء ، وكلامه فى رحلته يدل على علم متوسط ، فاقتباساته الشعرية من النوع القريب المتناول ، وإشاراته الفقهية لا تنم عن علم عميق واسع بالفقه ، ولكنه كان -- وهذا هو المهم -- رجلاً صادقاً بسيطاً شهماً كريماً ، فقد حكى المقرئ حكاية تدل على شهامته وكرمه خلاصتها أنه توسط لأحد أبناء أصحابه فى الزواج من ابنة صديق ، ولم يوفق الزواج وانتهى بالطلاق ، فأسرع ابن جبير إلى الشاب بمائة دينار قَدَّر أنها تعدل ما خسرهُ الشاب فى ذلك الزواج غير الموفق ما بين مهر وشوار ونفقات عرس ، فلم يقبلها الشاب وتعلل فى الاعتذار عن قبولها بعلّة وجبهة قبلها ابن جبير ، والطريف الذى يدل على أن الناس أبناء زمانهم أياً كانوا أن ابن جبير لم يفكر فى مواساة الشابة المطلقة وتعويض شئ من خسارتها ، وهى -- كما هو بديهي -- أفدح بكثير من خسارة الشاب . وكان ابن جبير متزوجاً من سيدة كريمة ، أبوها شيخ كبير يسمى الوقشي ، ولا نعرف من هو بين الشيوخ الوقشين ، وهم كثيرون جداً ، وكان شديد التعلق بها ، حتى أنه لم يطق المقام فى الأندلس بعد وفاتها كما سنرى .

ورغم تلك الأهوال التى قاساها ابن جبير فى رحلته الأولى فأننا نراه ينهض لرحلة الحج مرة أخرى فيما بين سنتى ٥٨٥ و ٥٨٧ / ١١٨٩ و ١١٩١ ويقال إن الذى دفعه إلى ذلك قَرَحُهُ باستيلاء صلاح الدين على بيت المقدس سنة ٥٨٣ /

١١٨٥ ، فقرر العودة إلى المشرق ليرى بنفسه ثلاثة مدائن الإسلام المقدسة وقد اظلمها الإسلام من جديد ، ومن أسف أنه لم يسجل هذه المرة يومياته كما فعل في رحلته الأولى ، وكل ما لدينا من آثار هذه الرحلة الثانية قصيدة طويلة رفعها إلى صلاح الدين الأيوبي يهنئه فيها بالفتح العظيم ، ويشكو إليه عسف رجاله وأمنائه بالحجاج وسوء معاملتهم إليهم .

ولم يستقر ابن جبير في غرناطة بعد عودته من رحلته تلك ، بل انتقل إلى مالقة ، ثم غادر الأندلس نهائياً إلى سبتة ثم إلى فاس وهناك انقطع للأقراء واسماع الحديث ، وتزهد في عيشة وإن لم ينقطع عن رواية الشعر ونظمه فقد كان مشغولاً بذلك طول حياته .

ولم ينعم ابن جبير بحياة الهدوء طويلاً ، فقد توفيت زوجته عاتكة في سنة ٦١٤ / ١٢١٧ وهو في الرابعة والسبعين من عمره ، ولم يحتمل الشيخ الواهن وطأة النكبة فقرر الخروج إلى المشرق والحج مرة ثالثة ، فذهب وجاور بمكة ثم انتقل إلى بيت المقدس وتحول بعد ذلك إلى الاسكندرية ، وهي مدينة طالما احبها وأطال في وصفها ، وهناك أقام يحدث ويدرس حتى توفي في شعبان سنة ٦١٦ أو ٦١٧ / ١٢١٩ أو ١٢٢٠ وقد قارب الثمانين من عمره .

الخصائص الجغرافية لرحلة ابن جبير

تلك هي حياة محمد بن أحمد ابن جبير الكنانى ، حياة بسيطة عادية في جوهرها ، فإن ألوفاً من الأندلسيين قاموا بمثل هذه الرحلة قبله سرات وعاشوا كذلك مثل هذه الحياة السهلة الهينة . حتى وفاة زوجته يبدو لنا عادياً ، فقد وقعت وهو في السبعينات من عمره ، ولا بد أنها لم تكن أصغر منه بكثير ، ولكننا نرى — لأمر ما — أن الحوادث التي تستحق الذكر في حياة ابن جبير تتحول إلى دوافع وحوافز تجعل لها طعم القصص ، فهو يقوم برحلته الأولى لأنه

أرغم على شرب الخمر وأراد التكفير بالحج ، وهو يقوم برحلته الثانية للاحتفال باستيلاء صلاح الدين على القدس ، وهو في ذاته حادث فاصل جدير بأن يحتفل به ، وقيام ابن جبير بالرحلة لهذا السبب يدل على أنه كان ذا إحساس عميق بوحدة الوطن الإسلامى ، وهو يقوم برحلته الثالثة ليتعزى عن مصابه في زوجه عائكة ، وهو أمر يدل على أن الرجل كان ذا قلب إنسانى كبير ، فان هجرة الرجل من وطنه في هذه السن للتأسى والنسيان وزيارة البيت الحرام أمر لا يقدم عليه الكثيرون .

وهذا الفيض العاطفى الذى امتاز به ابن جبير هو — فيما نرى — دافعه إلى تقييد رحلته ، فان تقييد الرجل لخطوات رحلته وتسجيله أحداثها يدل على أنه كان يشعر أنها أمر هام جدير بان يسجل ويوصف ، وانها ليست نزهة يقوم بها أو فرض يؤديه لأنه واجب فحسب ، ولهذا فهو يسجل كل شيء في أوراقه معه ، وكلما وجد فراغاً من الوقت استعاد ما رأى وكتبه بغاية الدقة دون سفسطة أو اسراف في ألفاظ ، وهذا شأن رحالة حق ، يتجشم أخطار الأسفار ومتاعبها ليرى ويتعلم وليحس وينفعل بما يرى ، وهذا أيضاً هو الذى جعل لهذه الرحلة تلك القيمة العالمية والأدبية الكبرى ، فان ابن جبير الذى سار بأدب الرحلات خطوة تالية للمحاولة الساذجة التى قام بها ابن العربى وصل بهذه الخطوة إلى أرقى ما يكون عليه أدب الرحلات إلى نهاية العصور الوسطى ، بل قل أن تجد في كتب الرحلات في شتى الآداب ما يضاهى هذه الرحلة أو يساويها في المتعة والصدق والقيمة العلمية من كل وجه .

وإذا كانت الرحلات للمشاهدة والملاحظة والدراسة تعتبر من عمود العلم الجغرافى ، فان ابن جبير يحتل عن جدارة مكاناً صديقاً في تاريخ الجغرافية فى الأندلس على هذا الأساس ، وإن لم تكن مادة كتابه جغرافية صرفة ، بل إن التاريخ والآثار هما الغالبان عليها . ولكن الذى يستوقف الانتباه أن ابن جبير كان دقيق الملاحظة في كل ما يتصل بالمظاهر الجغرافية من أرضين وبحار

وخلجان ورووس وأنهار ورياح وأمطار وشروق وغروب وفصول السنة وأجناس الناس وأشغالهم وصناعاتهم وزراعاتهم ومتاجرهم وما إلى ذلك . ولو أن رجلاً متخصصاً في الجغرافية قام بهذه الرحلة وسجل مشاهداته اثناءها ما زاد على ما قال ابن جبير شيئاً ، فهو من أول الرحلة يصف خط السير ويعين المراحل والزمن الذي استغرقته كل منها ، وهو حريص على أن يدون في كل حالة التاريخين الهجري والميلادي ، وهو في هذه الثانية يكتب الشهور الميلادية على نحو قريب جداً مما نستعمله اليوم ، ولكنه لم يحدد السنة الميلادية أبداً ، ربما لأنه لم ير ما يدعو إلى ذلك اكتفاء بذكر السنة الهجرية ، وإذا قلنا إن ابن جبير كان لا يجد صعوبة في تحديد التواريخ وهو بالأندلس إذ كان يكفي أن يسأل من حوله ليجد الجواب ، فقد جاء عليه وقت في بلاد المشرق كان عليه أن يعتمد على نفسه في حساب الشهور الميلادية ، وعلى ظهر المركب كان عليه أن يحسب التقويمين معاً ، فكان يرقب الهلال بنفسه ويحسب على أساس ما يرى ، وغريب بعد ذلك أن أخطاه في هذا قليلة ، وهي دلالة على ذهن صاح حاضر ، وهي صفة تدهشنا عند ابن جبير في كل حالة ، لا فيما يتصل بحساب الأيام والتواريخ فحسب .

فن أظهر أمثلة يقطته وحرصه على أن يعلم — ويسجل — دائماً أين هو وفي أي اتجاه يسير قوله : « وأقلعنا ظهر يوم الخميس التاسع والعشرين منه (يريد شوال ٥٧٨) وبموافقة الرابع والعشرين من فبراير المذكور (سنة ١١٨٣) ، بحول الله تعالى وعونه لا رب غيره ، وكان طريقنا في البحر محاذياً لبرّ الأندلس . وفارقناه يوم الخميس السادس لذي القعدة بعده ، عندما حاذينا « دانية » . وفي صبيحة يوم الجمعة السابع من الشهر المذكور آنفاً قابلنا برّ جزيرة « يابسة » ، ثم يوم السبت بعده قابلنا برّ جزيرة « ميورقة » ، ثم يوم الأحد بعده قابلنا جزيرة « ميورقة » ، ومن « سبتة » إليها نحو ثمانية كجّار ، والجرى مائة ميل . وفارقنا بر هذه الجزيرة المذكورة ، وقام معنا بر جزيرة

« سَرْدَانِيَّة » أول ليلة الثلاثاء الحادى عشر من الشهر المذكور ، وهو الثامن من مارس ، دفعة واحدة على نحو ميل أو أقل . وبين الجزيرتين « سردانية ومنورقة » نحو الأربع ، فكانت قطعاً مستغرباً فى السرعة » وهذه عبارة غاية فى الأهمية بالنسبة لطرق الملاحة فى تلك العصور ، فإن ابن جبير يرسم لنا الطريق بالضبط ويذكر الشاطئ الذى سارت السفينة فى محاذاته فى كل تاريخ ويعين المراحل البحرية وأطوالها بالجارى (جمع مجرى) ويذكر أن الجرى ١٠٠ ميل . ولا ندرى إن كان المراد ميلاً عربياً أو ميلاً بحرياً مما كان يستعمله الملاحون الجنويون . ومما يدل على أن ابن جبير كان يسأل عن كل شىء أو يدون كل ما يصل إليه علمه قوله : « ثم يوم الأحد بعده قابلنا جزيرة منورقة ، ومن سبتة إليها نحو ثمانية بحار » فهذه ملاحظة طيبة أراد ابن جبير أن يعين بها ما قطع فى البحر منذ إقلاعه يوم الخميس السابق على ذلك الأحد . وقد كسب ابن جبير من طول ملاحظته لجرى السفن وتسيير الربابنة لها فهماً يستوقف النظر لشتون السفن والرياح والأنواء ، وحديثه حافل بما يدل على ذلك الفهم ، وهو يستعمل فيه المصطلح الدارج كما سمعه دون محاوله للترجمة أو التعريب ، مما يعطى كلامه فى ذلك الموضوع قيمة خاصة ، ومن أمثلة كلامه عن مهاب الريح قوله قبيل إقلاعه من ميناء عكا فى طريق العودة : « وفى مهب الريح بهذه الجهات سر عجيب ، وذلك أن الريح الشرقية لا تهب فيها إلا فى فصل الربيع والخريف ، والسفر لا يكون إلا فبهما ، والتجار لا ينزلون إلى عكة بالبضائع إلا فى هذين الفصلين . والسفر فى الفصل الربيعى من نصف أبريل ، وفيه تتحرك الريح الشرقية ، وتطول مدتها إلى آخر شهر مايه ، وأكثر وأقل ، بحسب ما يقضى الله تعالى به . والسفر فى الفصل الخريفى من نصف أكتوبر ، وفيه تتحرك الريح الشرقية ، ومدتها أقصر من المدة الربيعية ، وإنما هى عندهم خُلُصة من الزمان ، قد تكون خمسة عشر يوماً وأكثر وأقل . وما سوى ذلك من الزمان فأرياح فيه تختلف ، والريح

الغربية أكثرها دواماً ، فالمسافرون إلى المغرب ، وإلى صقلية ، وإلى بلاد الروم ينتظرون هذه الرياح الشرقية في هذين الفصلين انتظاراً وعد صادق ، فسبحان المبدع في حكمته ، المعجز في قدرته ، لا إله سواه . ومن أمثلة استعماله للمصطلح البحري قوله يصف بعض مراحل رحلة العودة هذه : « فلما كان نصف الليل ، أو قريب منه ، ليلة السبت التاسع عشر لرجب المذكور ، والسابع والعشرين لاكتوبر ، ترددت علينا الرياح الغربية فقصفت قرية الصارى المعروف بالأردمون^(١) ، وألقت نصفها في البحر مع ما اتصل بها من الشراع ، وعصم الله من وقوعها في المركب ، لأنها كانت تشبه الصواري عظماً وضخامة . فتبادر البحريون إليها ، وحُطَّ شراع الصارى الكبير ، وعُطِّل المركب من جزية ، وصيبح بالبحريين الملازمين للعشارى المرتبط بالمركب . فقصدوا إلى الخشبة الواقعة في البحر ، وأخرجوها مع الشراع المرتبط بها . وحصلنا في أمر لا يعلمه إلا الله تعالى . وشرعوا في رفع الشراع الكبير ، وأقاموا في الأردمون شراعاً يعرف بالدلون ، وبتنا بليلة شهباء ، إلى أن وضع الصباح ، وقد منَّ الله عز وجل بالسلامة . وشرع البحريون في إصلاح قرية أخرى ، من خشبة كانت معدة عندهم » .

ومن أمثلة ذلك أيضاً قوله : « وقام معنا بر جزيرة سردانية أول ليلة الثلاثاء الحادى عشر من الشهر المذكور (شوال ٥٧٨) وهو الثامن من مارس (١١٨٣) دفعة واحدة على نحو ميل أو أقل » وقوله « فخرج علينا طرف من بر سردانية المذكور ، فأخذنا في الرجوع عوداً على بدء ، إلى أن وصلنا طرفاً من البحر المذكور يعرف بقوسمركة » (Capo Sammarco) وقوله — وهى ملاحظة غاية في الدقة والأهمية — يصف حلقة من حلقات عوده بالبحر من عكا إلى

(١) القرية الصارى الأفقى الحامل للشراع ، ويربع عادة أعلا الصواري . والأردمون هو الصارى الخلقى ، معرب عن Artémone الإيطالى .

قرطاجنة الأندلسية « فأصبحنا ولم نكد . فكان من الاتفاقات الموحشة أن أبصرنا بر إقريطش عن يسارنا ، وجباله قد قامت أمامنا . وكنا قد خلفناه عن يميننا ، فأسقطتنا الريح عن مجرانا ، ونحن نظن أننا قد جزناه . فسقط في أيدينا ، وخالفنا المجرى المعهود الميمون ، وهو أن يكون البر المذكور منا يميناً ، في استقبال صقلية ، فاستسلمنا للقدر ، وتجرعنا غصص هذا الكدر ، وقلنا :
 سيكون الذى قضى سخط العبدُ أو رضى »

ولو درسنا كلام ابن جبير عن البحر والسفن وأوصافه لما رأى وعين فيه وعليها لكانت من ذلك رسالة غاية في الأهمية عن الملاحة في البحرين الأبيض والأحمر في القرن السادس الهجرى / الثانى عشر الميلادى ، ولم يلتفت لهذه الناحية من مؤرخى التاريخ البحرى في البحر الأبيض إلا هُوتيد في كتابه الذائع الصيت عن تاريخ التجارة في البحر الأبيض والبارون ماس لاثرى في مقدمة مجموعة وثائقه عن العلاقات بين المسلمين والنصارى أواخر العصور الوسطى ، أما سواها من شأويه إلى أرشيبالد لويس ، فلم يتمطن واحد منهم إلى شيء من ذلك رغم أن رحلة ابن جبير مترجمة إلى الكثير من اللغات الأوروبية متداولة فيها كلها بالقدر الذى هى متداولة به عندنا^(١) .

أما أوصافه الجغرافية فهى الغاية في الدقة والصدق والفائدة ، فهو لا يصل إلى بلد إلا أعطى عنه صورة دقيقة في كلمات مختصرة تضم لباب الموضوع ، فمن أمثلة ذلك قوله يصف الاسكندرية : « فأول ذلك حُسن وضع البلد واتساع مبانيه ، حتى أنا ما شهدنا بلداً أوسع مسالك منه ولا أعلى مبنى ولا أعتق . ولا أحفل منه ، وأسواقه في نهاية من الاحتفال أيضاً . ومن العجب في وصفه أن بناءه تحت الأرض كبنائه فوقها وأعتق وأمتن ، لأن الماء من النيل يخرق جميع ديارها وأزقتها تحت الأرض ، فتتصل الآبار بعضها ببعض ، ويمد بعضها بعضاً » .

(١) انظر : P. Vidal de la Blache, *Géographie Universelle*, Vol. VII, 1^{ère} partie (1934).

«وعاينا فيها أيضاً من سوارى الرخام وألواحه كثرة وعُلوا واتساعا وحسناً ما لا يُتخيل بالوهم ، حتى إنك تلقى في بعض المرات بها سوارٍ يغص الجو بها صعوداً ، لا يدري ما معناها ، ولا لم كان أصلُ وضعها . وذكّر لنا أنه كان عليها في القديم مبان للفلاسفة خاصة ولأهل الرئاسة في ذلك الزمان ، والله أعلم ، ويشبه أن يكون ذلك للرصد » ، وجدير بالملاحظة إشارته إلى السرايب والمجارى التى كان الناس يحفرونها فى الاسكندرية لإيصال الماء إلى البيوت على ما نفعل اليوم ، وهو يصف هذه المجارى بأنها أبنية تحت الأرض ، وهو تعبير فى غاية الدقة ، وواضح أن الاسكندرانيين انتفعوا بالسرايب المسيحية القديمة (الكاتاكومب) فى هذا الغرض . وبلى ذلك كلامه عن منارة الاسكندرية وهو أدق من وصف البكرى وقريب فى القيمة والصحة من وصف الإدريسي ، والسبب واضح ، وهو أن البكرى لم ير المنار ولا هو دخله ، وإنما نقل وصفه . أما الإدريسي فلا شك — بقرينة الدقة والمشابهة تلك — فى أنه عاينه ودخل إليه وصعد فيه ، وإن لم يذكر المسجد المذكور . كان فى أعلاه . وكلام ابن جبير عن هذا المسجد بالذات يكشف لنا عن اهتمامه بالتحقيق والضبط ، فبينما اكتفى غيره بالصعود فى المنار بعض درجاته أو طبقاته صعد ابن جبير إلى القمة ، قال : « وفى أعلاه مسجد موصوف بالبركة ، يتبرك الناس بالصلاة فيه ، طلعنا إليه يوم الخميس الخامس لذى الحجة (٥٧٨) ، وصلينا فى المسجد المبارك المذكور ، وشاهدنا من شأن مبناه عجيباً لا يستوفيه وصف واصل » .

ووصف ابن جبير للرحلة النيلية من القاهرة إلى قوص فريد فى بابه ، فان عامة الجغرافيين قبل ذلك — كابن حوقل والإدريسي — يذكرون المدن الواقعة من القاهرة إلى أسوان سماعاً لا مشاهدة ، وهم لهذا ينقل بعضهم عن بعض ، حتى الإدريسي يمكن القول بأنه لم يغادر القاهرة جنوباً فى سروره بمصر ، أما ابن جبير فقد قام بالرحلة فعلاً ووصف المدن والظواهر الجغرافية التى مر بها ،

وهو يذكر تاريخ وصوله إلى كل بلد نزل به أو مر به مما يعطينا فكرة واضحة عن الملاحة النيلية في ذلك العصر من محطاتها ومراحلها وتوقيتها ومحصولات كل بلد وصناعة أهله وما يُحمل إليه من المتاجر وما إلى ذلك ، ويستوقف النظر وصفه لأخميم والبربا التي بها ، والمراد بها المعبد ، والبربا باللغة المصرية القديمة هي المقبة ، ولكن اللفظ كان يستعمل في العصور الوسطى في معنى المعابد المصرية القديمة ومواقع الآثار عموماً ، ولم يكن يستوقف انتباه الجغرافيين والرحالة من العرب شيء من ذلك مثل بربا أخميم هذه ، فلم يبق فيها كلام مسرف في الطول .

وفي هذه الرحلة إلى الحجاز عن طريق قوس وعيذاب يتحدث عن قوس حديثاً عظيم الأهمية بالنسبة للتاريخ الاقتصادي لمصر وأفريقية عامة ، لأنها كانت إذ ذاك من أعظم مراكز التجارة والنشاط الاقتصادي في القارة . ثم يعقب ذلك بكلام هو غاية في الأهمية العالمية عن الطريق من قوس إلى عيذاب على البحر الأحمر ، فهو يصف مراحلها واحدة واحدة ، ويتحدث عن كل منزل وما فيه من عيون الماء ، بل هو يذكر دواب الحمل التي تستعمل والشقادي (أى المحامل أو الهودج) التي يحملها جملان ويستعملها الأغنياء والميسير . وجدير بالملاحظة قوله عن عمران هذا الطريق : « ورُمنا في هذه الطريق إحصاء القوافل الواردة والصادرة ، فما تمكن لنا ، ولا سيما القوافل العيذابية المتحملة لسلع « الهند » ، والواصلة إلى « اليمن » ، ثم من « اليمن » إلى « عيذاب » . وأكثر ما شاهدنا من ذلك أحمال الفلفل ، فلقد خيل إلينا لكثرتة أنه يوازي التراب قيمة . ومن عجيب ما شهدناه بهذه الصحراء ، أنك تلتقي بقارعة الطريق أحمال الفلفل والقرفة وسائرهما من السلع مطروحة لا نحارس لها ، تترك بهذه السبيل ، إما لإعياء الإبل الحاملة لها ، أو غير ذلك من الأعذار ، وتبقى بموضعها إلى أن ينقلها صاحبها مصونة من الآفات ، على كثرة المار عليها من أطوار الناس » . وهذا كله صحيح ، فقد كانت هذه التجارة من احتكارات الدولة ، ولهذا كانت

عنايتها بها وبالطريق الذى تمر عليه عظيمة ، وإلى هذا يرجع الأمان الذى يتحدث عنه ابن جبير هنا . ومما هو جدير بالملاحظة — إذ هو يدل على مدى فهم الحكومات لمهامها فى تلك العصور — أن ذلك الأمان كان قاصراً على البضائع والقوافل حتى تصل إلى عيذاب ، أما الناس والحجاج منهم بصورة خاصة ، فإذا وصلوا إلى عيذاب تركوا تحت رحمة من يريد الاستبداد بهم من أهل ذلك الميناء أو أصحاب السفن أو البجّة أو البجاة ، وابن جبير يصفهم أسوأ وصف يتصوره العقل ويشكو من سوء أفعالهم بالناس ، حتى لقد عاهد الله وهو فى هذا الموضع الذى ثقل على نفسه بأن تكون عودته من الحجاز عن طريق بغداد وعكا وكانت إذ ذاك فى أيدي الصليبيين ، وحالٌ تجعل رجلاً بالغ التقى مثل أبى الحسين ابن جبير يفضل الرحلة عن طريق يسود بعضه المسيحيون على الرحلة فى طريق بعيدة عنهم لا بد قد بلغت من السوء أسوأ درجة .

ولا يتخلى ابن جبير عن تلك الدقة فى وصف المدن إلا عند كلامه على مكة والمدينة ، فإنه يدع الواقع إلى العاطفة ويفيض فى الاطراء والاعجاب ، وهو يجرى فى هذا على سنن المسلمين جميعاً ، فهم لا يرون مكة والمدينة بعينهم وإنما بعين الخيال والعاطفة والإيمان ، فإذا اقتربوا من مكة لم يروا طريقاً ولا جبلاً أو ودياناً ، وإنما هى أنوار تهل عليهم وجنان تحيط بهم وعطور تملأ الجو حولهم ، وما تحس به القلوب فى تلك الأحوال يطغى على كل ما ترى العيون ، ولا غرابة فى ذلك ، فإن الرجل الذى يحمله الإيمان على ركوب المخاطر والتعرض للمهالك من ساحل الأطلسى أو من حدود الصين إلى الحجاز ينتقل بشعوره — إذا هو اقترب من مهد الإسلام وبلد البيت العتيق أو إذا هو أهل على مدينة سيد المرسلين وعترته بنى آدم — من عالم الواقع إلى عالم الاشراف الروحى ، وتستغرق إحساسه نشوة غامرة نحمد الله على أن كنا ممن عرفها واستشعر جمالها .

ومن أمثلة الدقة والتحديد الجغرافي وصفُ ابن جبير للطريق من مكة إلى المدينة ومنها إلى الكوفة . والجزء الأول من هذا الطريق (إلى المدينة) موصوف بضبط لا نجد عند رحالة آخر ، فهو يتحدث عن كل منزل من المنازل ويصفه وصفاً موجزاً مع ذكر ما فيه من موارد الماء ، وقد خُيِّلَ إلىَّ وأنا أتتبع سير قافلته من مكة إلى بطن سر إلى عُسفان إلى خُلَيْص إلى بدر إلى الصَّفراء إلى الرِّوحاء إلى البیداء إلى مسجد ذى الخليفة إلى وادى العقيق إلى المدينة المنورة انه ربما رجع إلى البكرى فيما أتى به من أوصاف هذه المواضع في « معجم ما استعجم » ، ثم تبينت أن الرجل يكتب من عند نفسه دون اعتماد على أحد ، لأن هناك أخطاء في الابعاد وترتيب الأماكن وقع فيها البكرى — إذ أنه كان يصف هذه النواحي وهو في حجته معتمداً على كتبه — أما ابن جبير فقد قطع هذا الطريق بنفسه ، قَطَعَهُ واعياً متيقظاً لكل شيء ، ومن هنا فن العسير أن يدخل عليه الوهم في ذلك ، ولا بد إذن لمن يريد أن يؤلف في جغرافية شبه الجزيرة العربية أو جغرافيتها التاريخية من أن يرجع إلى ابن جبير .

وفي أثناء كلامه عن هذا الطريق تجيُّ فقرة مشهورة يصف فيها ابن جبير في بيان لا زيادة لمستزيد عليه محلة الحاج العراقي أو ركب الحج العراقي وهو يسميها « المحلة العراقية ومن انضاف إليها من الخراسانية والمواصلة وسائر جهات الآفاق من الواصلين صحبة أمير الحاج المذكور »^(١) وهي فقرة ترويع النفس في تصويرها ودقة وصفها لقافلة من قوافل الحج والتجارة الكبرى ، وهي الشرايين التي ظلت تبعث الحياة في كيان الأمة الإسلامية الكبرى قروناً بعد قرون . ويكمل هذه العبارة كلامه بعد أن وصل إلى المحلة وأخذ على الطريق إلى بغداد وتفرقت القافلة الضخمة بعد وصولها إلى غايتها ودخلت بالناس إلى عمار العراق ، قال ابن جبير في أسلوبه الواضح الجليل : « ومن مدينة الحلة يتسلسل

(١) رحلة ابن جبير ، ص ١٦٩

الحاج أرسالا ، وأفواجاً أفواجاً : فمنهم المتقدم ، والمتوسط ، والمتأخر ، لا يعرج المستعجل على المتعذر ، ولا المتقدم على المتأخر ، فخيماً شاءوا من طريقهم نزلوا وأراحوا واستراحوا ، وسكنت نفوسهم من روعة نقر الكوس ، الذي كانت الأفئدة ترجف له بداراً للرحيل ، واستعجالاً للقيام ، فربما كان النائم منهم يهذى بنقر الكوس ، فيقوم عجلاً وجِلاً ، ثم يتحقق أنها من أضغاث أحلامه ، فيعود إلى منامه .

وتلى ذلك فقرة ربما كانت من أحسن النماذج لكلام ابن جبير وما يضمنه من الفوائد الجغرافية وغير الجغرافية ، فهي تحدثنا أولاً عن عمران العراق في ذلك الحين وما كان فيه من مجارى الماء الكثيرة وما عليها من القناطر ، بل هو يصف واحدة منها وصفاً موجزاً لا يحتاج إلى مزيد بيان ، ويتحدث عن الأمن الذى كان سائداً إذ ذاك والعناية بحراسة الطرق ، ثم يتكلم عن أمير الركب وعنايته بمن معه من الحجاج ، وهو أسر يهم الذين يدرسون تاريخنا الاقتصادي وما يدخل فيه من نظم المواصلات ، ثم ينتقل بعد ذلك إلى وصف قرية « القنطرة » وصفاً جغرافياً دقيقاً . قال : « ومن جملة الدواعى لافتراقهم ، كثرة القناطر المعترضة في طريقهم إلى بغداد ، فلا تكاد تمشى ميلاً إلا وتجعد قنطرة على نهر متفرع من الفرات ، فتلك الطريق أكثر الطرق سواقى وقناطر ، وعلى أكثرها خيام ، فيها رجال محترسون للطريق ، اعتناءً من الخليفة بسبيل الحج ، دون اعتراض منهم لاستنفاع بكدية أو سواها . فلو زاحم ذلك البشر تلك القناطر دفعة ، لما فرغوا من عبورها ، ولتراكموا وقوعاً بعض على بعض . والأمير طشتكين المتقدم الذكر يقيم بالحلة ثلاثة أيام ، إلى أن يتقدم جميع الحاج ، ثم يتوجه إلى حضرة خليفته . وهذه الحلة المذكورة طاعة بيده للخليفة . وسيرة هذا الأمير في الرفق بالحاج والاحتياط عليهم والاحتراس لمقدمتهم وساقتهم ، وضئٍ نشر ميمنتهم وميسرتهم ، سيرة محمودة ، وطريقته في الحزم وحسن النظر

طريقة سديدة ، وهو من التواضع وابن الجانب وقرب المكاف على وثيرة سعيدة ، نفعه الله ، ونفع المسلمين به .

« وفي عصر يوم الاثنين المذكور ، نزلنا بقرية تعرف « بالقنطرة » كثيرة الخصب ، كبيرة الساحة ، متدفقة جداول الماء ، وارقة الظلال بشجرات الفواكه ، من أحسن القرى وأجملها ، وبها قنطرة على فرع من فروع الفرات ، كبيرة محدودة ، يصعد إليها وينحدر عنها ، فتعرف القرية بها ، وتعرف أيضاً « بحصن بشير » . وألفينا حصاد الشعير بهذه الجهات ، في هذا الوقت الذي هو نصف مايله . »

يقظته ودقة ملاحظته

ويطول بنا المقام لو مضينا نتبع الأوصاف الجغرافية في هذه « الرحلة » المبدعة ، فالواقع أنها كنز حافل بالمعلومات من كل صنف ، ويكفي أن نقرأ كلامه عن رحلته من بغداد إلى دمشق ، فهذا دون شك أحسن ما كتب رحالة عربى وأصدق وأدق عن سفرة قام بها ، بالإضافة إلى ما أوتيه ابن جبير من دقة الملاحظة والرغبة في رؤية كل شيء بنفسه ، ومثال ذلك وصفه الدقيق لمحلة الأمير العراقي أى مضرب خيام أمير ركب الحاج العراقي ، وهو وصف طويل دقيق يدل على أن ابن جبير اجتهد حتى دخله وتمشى في أرجائه ورأى كل ما فيه بنفسه ، ولا بد أن ابن جبير قد بذل جهداً كبيراً حتى وصل إلى ذلك ، فإن هذه المحلة كانت أشبه بالمدينة الصغيرة المسورة المحروسة بحيث لا يفضى إلى داخلها غريب ، ولا يتسع المقام هنا لإيراد ذلك الوصف فهو وارد بطوله في « الرحلة » المطبوعة وهي بأيدي الناس (ص ١٥٨ — ١٦٠ من تحقيق الدكتور حسين نصار) . ومن أمثلة هذه الدقة أيضاً وصفه للخليفة العباسى أبى العباس أحمد الناصر لدين الله ، أطول خلفاء بنى العباس حكماً على الإطلاق (حكم من

٥٧٥ إلى ٦٢٢ / ١١٨٠ — ١٢٢٥) وأطرف خلفاء العصر العباسي الأخير شخصية وأقربهم إلى مفهوم الخلفاء العظام ، وقد حرص ابن جبير على ألا تفوته رؤيته واعطانا عنه صورة ناطقة كأنها لوحة ملونة ، قال : « أبصرنا هذا الخليفة المذكور — وهو أبو العباس أحمد الناصر لدين الله بن المستضيء بنور الله أبي محمد الحسن بن المستنجد بالله أبي المظفر يوسف ، ويتصل نسبه إلى أبي الفضل جعفر المقتدر بالله ، إلى السلف فوقه من أجداده الخلفاء ، رضوان الله عليهم — بالجانب الغربي ، أمام منظرة به ، وقد انحدر عنها ، صاعدا في الزورق إلى قصره بأعلى الجانب الشرق على الشط ، وهو في فتاء من سنه ، أشقر اللحية صغيرها ، كما اجتمع بها وجهه ، حسن الشكل ، جميل المنظر ، أبيض اللون ، معتدل القامة ، رائق الرواء ، سنه نحو الخس وعشرين سنة ، لباساً ثوباً أبيض شبه القباء برسوم ذهب فيه ، وعلى رأسه قلنسوة مذهبة ، مطوقة بوبر أسود من الأوبار الغالية القيمة المتخذة للباس مما هو كالفلنك وأشرف ، معتمداً بذلك زياً الأتراك ، تعمية لشأنه ، لكن الشمس لا تخفى وإن سُتِرت . وذلك عشية يوم السبت السادس لصفر سنة ثمانين . وأبصرناه أيضاً عشى يوم الأحد بعده ، متطلعا من منظرة المذكورة بالشط الغربي ، وكنا نسكن بمقربة منها » .

وربما انساق ابن جبير مع تيار هذا التطلع الغالب عليه فأنى بأشياء تقرب في تفاصيلها مما تقرأ في صفحات الأدب الشعبي وهي مع ذلك من صميم الواقع ، رآها هذا النظار اللامح الذي لا تفوت بصره الحاد شاردة ، ووصفها بأسلوبه السهل الواضح ، ومن ذلك وصفه لموكب الخاتونين (مُتَنَّى خاتون ومعناه الأميرة أو السيدة الكريمة ، وهو أصل اللقب النسائي المعروف عندنا : هانم) سلجوقية بنت السلطان مسعود وأم الأتابك عز الدين صاحب الموصل ، وهو وصف نجس ونحن نقرأه أن الشيخ طرب وهو يرى المشهد ، وطرب أكثر وهو يستعيده ويثبته على الورق ، قال : « وهاتان الخاتونان هما أميرتا هذا العسكر الذي توجهنا فيه وقائداته ، والله لا يجعلنا تحت قول القائل :

ضاع الرِّعِيلُ ومن يَقُودُهُ

ولها أجناد برسمها ، وزادها الخليفة جندا يشيعونها ، مخافة العرب
 الخفاجيين المضرين بمدينة بغداد ، وفي تلك العشية التي رحلنا فيها فجأتنا
 خاتون السعودية المترفة شابا وملكا ، وهي قد استقلت في هودج موضوع على
 خشبتين معترضتين بين مطيتين ، الواحدة أمام الأخرى ، وعليها الجلال المذهبة ،
 وهما تسيران بها سير النسيم سرعةً ولينا ، وقد فتح لها أمام الهودج وخلفه بابان ،
 وهي ظاهرة في وسطه متنقبة ، وعصابة ذهب على رأسها ، وأمامها رعييل من
 فتيانها وجندها ، وعن يمينها جنائب المطايا والهاليج العتاق ، ووراءها ركب من
 جواربها قد ركبن المطايا والهاليج على السروج المذهبة ، وعصبن رؤوسهن
 بالعصائب الذهبيات ، والنسيم يتلاعب بعذباتهن ، وهن يسرن خلف سيدتهن
 سير السحاب . ولها الرايات والطبول والبوقات تضرب عند ركوبها ، وعند
 نزولها . وأبصرنا من نحوه الملك النسائي واحتفاله رتبة تهن الأرض هزاً ،
 وتسحب أذيال الدنيا عزراً ، ويحق أن يخدمها العز ، ويكون لها هذا الهز ؛
 فإن مسافة مملكة أبيها نحو الأربعة أشهر ، وصاحب القسطنطينية يؤدي إليه
 الجزية ، وهو من العدل في رعيته على سيرة عجبية ، ومن موالاة الجهاد على
 سنة مرضية . وفي مناسبة أخرى — أيام كان في مدينة صور — شاهد زفافاً
 نصرانياً واسترعت انتباهه العروس ، فضى يصفها في تودة وتدقيق حتى لقد راقته
 مشيتها فقال إنها كانت « تمشى فتراً على فتر مشى الحمامة أو سير الحمامة » ثم
 انتبه إلى نفسه واستدرك وقال : « نعوذ بالله من فتنة المناظر ! » ، ثم انساق
 في الوصف مرة أخرى ، وختم كلامه عن ذلك المشهد قائلاً : « فأدانا الاتفاق
 إلى رؤية هذا المنظر الزخرفي المستعاذ بالله من الفتنة فيه ^(١) » .

أما ملاحظاته التي تدخل في نطاق التاريخ فربما كانت خير ما أتى به

(١) رحلة ابن جبير ، ص ٢٩٥ — ٢٩٦

شاهد عيان ممن كتبوا عن الحروب الصليبية على إطلاق ، ومن سعيد الانفاقات أن رحلته الأولى — وهي التي وصفها — وقعت في فترة حاسمة مُشرقة من تاريخنا ، فقد كان السلطان إذ ذاك صلاح الدين الأيوبي ، وكان يستجمع قواه ويتأهب لاستعادة بيت المقدس وكسّر ظهر القوة الصليبية في الشام ، وقد أعطانا ابن جبير صورة صحيحة محايدة لذلك البطل الإسلامي الأكبر تعتبر من وثائق التاريخ . وجدير بالتقدير أن ابن جبير لم يغادر شخصية ذات أهمية مَرَّ بها في طريقه إلا وفأها حقها من الوصف والكلام ، ولم تفته في مجتمعات الناس من حوله ظاهرة ذات قيمة إلا أثبتها سواء أكان ذلك في مصر أو الحجاز أو العراق أو الشام أو صقلية ؛ وبالنسبة لصقلية بالذات تعتبر فقرات ابن جبير عنها من أتمن ما يعتز به المؤرخ ، وقد نبه على ذلك اسكياباريلي وأماري وجابرييل في أكثر من موضع ، ومن حسن الحظ أن ابن جبير كان رجلاً واعياً عائشاً في دنيا الناس لا طالب علم ذاهلاً ينزل بالبلد فلا يرى فيه إلا الشيخ فلان والشيخ علان وينفق الصفحات فيما قرأ على هذا وما سمع عند ذاك ، وأنت إذ تقرأ رحلة رجل مثل ابن رُشيد الفهرى تخيل إليك أن هذا الرجل كان يسير في فراغ لا يرى فيه إلا مجالس الشيوخ ، وحاله كحال رجل سائر في الليل ونظره مثبت في السماء يعد النجوم . وقد نتج عن تيقظ ابن جبير لما حوله أن ملاحظاته وأنظاره تسلكه في عداد أصحاب النظر التاريخي الثاقب ، وهو صاحب الملاحظة المشهورة عن اتصال علاقات التجارة والتبادل بين المسلمين والنصارى أثناء الحروب الصليبية ، وهي ملاحظة طويلة ختمها بقوله : « وأهل الحرب مشغولون بحربهم ، والناس في عافية ، والدنيا لمن غلب » وهي عبارة لم يبق مؤرخ شرق أو غربي للحروب الصليبية إلا نقلها عن ذلك الرحالة البلنسي الأصيل^(١) .

وصل ابن جبير إذن بأدب الرحلات إلى قريب من ذروته في تاريخنا الفكرى وأضاف إلى سجل الجغرافية والرحلات صفحات من أجل ما فيه وأغزرها مادة وأقربها إلى روح العلم وأصدقها ، ومن أسف أنه لم يصف رحلتيه الثانية والثالثة ، ولكن هذا لا يقلل من قدره أو أهمية الخدمة التي أداها للعلم . ولقد قال كرتشكوفسكى إن رحلة ابن جبير تعتبر « من الناحية الفنية ذروة ما بلغه نمط الرحلة في الأدب العربى ^(١) » وهو حكم له وجاهته من خير بالجغرافية العربية مثل هذا العلامة الروسى الليتوانى الجدير منا بكل شكر وتقدير .

محمد بن أيوب بن غالب الغرناطى وكتابه « فرحة الأنفس »

وقبل أن نترك ابن جبير نقف لحظة عند رجل ينسب إلى غرناطة — ويغلب على الظن أنه من أهلها — خلف لنا كتابا عظيم القيمة عن جغرافية الأندلس وإن كان جهده كله انصب إلى التلخيص والنقل دون انصراف إلى طلب شىء جديد يضيفه إلى ثروة المعلومات عن بلاده أو إلى تاريخ العلم الجغرافى فيه . ذلك الرجل هو محمد بن أيوب بن غالب الغرناطى الذى يرجع الفضل فى تعريفنا به إلى المقرئ ، فقد كانت نقوله عنه منبهة للأذهان إلى قدره وفضل كتابه المسمى فرحة الأنفس . وإلى حين قريب لم تكن معلوماتنا عن كليهما لتزيد على إشارات المقرئ إليه وإشارة غير دقيقة فى « ذيل كشف الظنون » لاسماعيل باشا ومادة مضطربة فى كتاب بونس بويجس الجامع عن مؤرخى الأندلس وجغرافيه ، ولكن الحظ الحسن أراد أن يظفر الدكتور لطفى عبد البديع بقطعة من كتاب « فرحة الأنفس » انتقاها رجل من أهل القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادى وسماها « تعليق منتقى من نزهة الأنفس ل محمد

(١) الأدب الجغرافى العربى ، ١ / ٣٠١

ابن أيوب بن غالب « فعكف على دراستها وتحقيقها ، وشر النص مقدّمًا له بدراسة وافية ومعلقًا حواشيه بقدر عظيم القيمة من المعلومات أضافت إلى قيمة النص ، وهذه الدراسة هي مرجعنا الآن فيما سنذكر عن ذلك الجغرافي المغمور وكتابه النفيس الذي انتفع به كل من أتوا بعده وأولهم علي بن سعيد .

ولم يتيسر للطفي عبد البديع — رغم ما بذل من جهد — الحصول على معلومات عن حياة ابن غالب ، ويبدو أنه كان من جنود العلم المجهولين الذين ينعم الناس بشمرات جهودهم دون أن يحفزهم ذلك إلى الاشادة بذكرهم ولو بسطور قليلة من هذه التي تكتفي بالمولد والوفاة والبلد والشيوخ وبعض اسامي الكتب ؛ بل أثبت لطفي عبد البديع أن نسبة « البنسي » المضافة إلى اسم الرجل غير صحيحة ، وأنه كان في الواقع غرناطياً ، ويبدو أن نسبة « البنسي » راقت الناس وجرت على ألسنتهم فأضافوها إلى من لم يتحققوا من نسبه أو شكوا في أنه أندلسي ، وسنلاحظ هذا في نسبة أبي عبد الله محمد العبدري إلى بنسية ، والغالب أن هذه أيضاً غير صحيحة . وخلاصة ما انتهى لطفي عبد البديع إليه في شأن العصر الذي عاش فيه هو أنه عاش في القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي ، وربما كان معاصراً لأبي سعيد عثمان بن عبد المؤمن وإلى غرناطة الذي خدمه ابن جبير وكانت له معه الحكاية التي دفعت هذا الأخير إلى الحج . وقد رجح لطفي عبد البديع ذلك بقريضة تكرار ذكر ابن غالب له وتمجيد إياه ، فإذا صح هذا كان محمد بن أيوب بن غالب من معاصري ابن جبير^(١) .

(١) نشر لطفي عبد البديع بحثه الذي نشر إليه هنا في مجلة معهد المخطوطات العربية ، ج ١ جزء ٢ (نوفمبر ١٩٥٥ ، ص ٢٧٢ — ٣١٠ والمواضع الأخرى التي أشرنا إليها هي ذيل كشف الطنون ، ٢ / ١٨٦ وبنس بويجس ، رقم ٩٨ ص ١٢٣ — ١٢٤ والسخاوي الاعلان بالتوبيخ ، نشر لسه مع تعليقات الدكتور أحمد الصالح العلي ضمن ترجمته لكتاب فرانس روزنتال عن تاريخ التاريخ عند المسلمين ، ص ٦١٨ وتعليق ٤٨ . وقد ذكر روزنتال أن عنوان كتاب ابن غالب هو فرحة الأنفس في أخبار أهل الأندلس ، وذلك اعتماداً على نصح الطيب .

وقد ورد عنوان الكتاب في صور شتى لا يثبت منها غير شطره الأول :
 فرحة الأنفس ، ثم يختلف الشطر الثاني فهو تارة « الآثار الأولية التي في
 الأندلس » (المقرى ، نفح الطيب ١/ ٧٧ طبعة أوروبا) وتارة في فضلاء العصر
 من أهل الأندلس (حاجى خليفة ، ٢/ ٤١٧) وتارة ثالثة : في أخبار الأندلس «
 (ياقوت ، ١/ ٢٧١) ، حتى ترمى إلى ظن بعض المؤلفين (مثل بونس بويجس)
 أن لابن غالب أكثر من كتاب ، وقد رد لطفى عبد البديع الأسر إلى نصابه
 في مقاله الآنف الذكر فقال إن « ابن غالب لم يكتب في الحقيقة إلا كتاباً
 واحداً قسمه جزئين : أولهما في جغرافية الأندلس وخططها عنوانه : فرحة
 الأنفس الآثار الأولية التي في الأندلس ، والجزء الثانى في أخبار الأندلسيين
 واسمه فرحة الأنفس في فضلاء العصر من أهل الأندلس ، وكل جزء منهما يطلق
 عليه كتاب من قبيل تسمية القسم من أقسام المؤلف الواحد فصلاً أو باباً ، أما
 الكتاب كله فعنوانه : « فرحة الأنفس » كما ذكر ياقوت ، أو « تاريخ الأندلس »
 كما ورد في المخطوطة . ونضيف إلى هذا أنه ليس من الضروري أن يكون
 الكتاب مقسماً إلى قسمين ، فإن الأغلب أنه كان كتاباً واحداً يضم
 فصولاً : واحد في صفة الأندلس أو جغرافيته ، وهو هذا الذى نقله صاحب
 التعليق المنتقى وعثر عليه لطفى عبد البديع وحققه ونشره ، وواحد عن الآثار
 الأولية التي في الأندلس ، وثالث يضم المعلومات العامة التي يحرص الكثير من
 المؤلفين الأندلسيين على إيرادها ، إما في باب مستقل أو متفرقة في اطواء كتبهم ،
 ورابع للتراجم سماه « في فضلاء العصر من أهل الأندلس » وهكذا ، ودلينا على
 ذلك أن المقرى يقول ، (١/ ١٨٨) وقد أفرد ابن غالب في « فرحة الأنفس »
 للآثار الأولية التي بالأندلس من كتابه مكاناً « أى أنه خصص لهذه الآثار فصلاً
 من الكتاب .

وقد وصلت إلينا نقول من ذلك كله ، وراجعنا كل ما نقله ابن سعيد في
 المغرب من تراجم « فرحة الأنفس » فتبيننا أنها لا تقتصر على أهل عصر ابن

غالب ، بل تتناول أعلاما من عصور شتى ، ففيها شيء عن عبد الرحمن الناصر وآخر عن جعفر مولى الحكم المستنصر وخبر عن أبي بكر محمد الاعمى المخزومي الشاعر، وآخر عن الظاهر اسماعيل بن ذى النون أو أبي العلا عبد الحق خلف ابن مفرج الكاتب الناصر ، ومن هنا فإنه يغلب على ظني أن عنوان ذلك الفصل : « في فضلاء مصر من أهل الأندلس » .

التعليق المنتقى من فرحة الأنفس

وتعنيها من تلك النقول الكثيرة عن ابن غالب القطعة العظيمة القيمة المسماة « تعليق منتقى من فرحة الأنفس » التي حققها ونشرها لطفي عبد البديع وقرر أنها قطعة من جغرافية الأندلس لأحمد بن محمد الرازي ، وهذا صحيح فإن نص هذه القطعة يطابق إلى حد كبير الترجمتين البرتغالية والإسبانية القديمتين لهذا الوصف ، وقد سبق أن ذكرناها ، ويطابق الترجمة الفرنسية الحديثة التي عملها ليفي بروفنسال للنص البرتغالي القديم ونشرها في مجلة الأندلس ، وقد أشرنا إليها فيما تقدم أيضاً عند كلامنا على وصف الرازي للأندلس .

وقد بينا في دراستنا لجغرافية الرازي مدى التطابق بين مادة جغرافية الرازي كما تبدو في الترجمتين الإسبانية والبرتغالية بين وفقرات «التعليق المنتقى من فرحة الأنفس» وتبيننا أنها مطابقة حرفية إلى حد كبير وضرينا لذلك بضعة أمثلة مما يسمح لنا بالقول هنا أن ما فعله ابن غالب هو أنه أخذ المقدمة الجغرافية للرازي واختار منها القطع التي تناسب كتابه ، فاختصر المدخل واستغنى عن بعض الكور وحذف فقرات من الكلام على بعض الكور الأخرى ، وأضاف هنا وهناك اشارات يسيرة غير ذات أهمية ، فعمله في هذا الوصف قليل ، ولو أننا عثرنا على نص كامل لمقدمة الرازي الجغرافية لما أصبحت له قيمة على

الاطلاق ، إنما نحن نقدره الآن لأنه يحتفظ لنا بجزء كبير من كلام أبي الجغرافية والتاريخ في الأندلس .

ولم أستطع تعرف الأساس الذي بنى عليه ابن غالب اختياره أو انتقائه فإن عنوان الفقرات المنتقاة الخاصة بالكور يقول : «ذكر مدائن الاندلس الكائنة بأيدي المسلمين بعد الاربعمئة سنة من الهجرة ، وذكر ما فيها من ذلك كورة قبرة» فإذا كان هو من أهل القرن السادس ، فلماذا اختار المدائن (يريد الكور) الكائنة بعد الأربعمئة ، أى بعد انتشار عقد الخلافة وقيام دول الطوائف ؟ فإن كان يريد كور الأندلس عند قيام الفتنة فلم يكن هناك محل للاختيار أو الانتقاء من كلام الرازى ، لأن هذه الكور ظلت كما كانت عليه أيام الخلافة حتى سقوط طليطلة في ١٥ محرم ٤٧٨ / ١١ مايو ١٠٨٥ ، وإذا كان يريد الكور التي كانت باقية إلى أيامه فلماذا أثبت طليطلة وسرقسطة ولاردة ووشتة ووادي الحجارة وبربطانية وكلها كانت قد استغلبها النصارى قبل أيامه ؟ ثم لماذا ينقل كلام الرازى كما هو دون تغيير سوى الحذف بدعى الاختصار ؟ .

الحق أن رجالا كابن غالب يضعون قارئهم في حيرة كبرى وهو يقرأ ما كتبوا ويتأمل طرائقهم في التأليف ، لأن رجالا يتحدث في فصل التراجم من كتابه عن رجال عاشوا في القرن السادس مثل أبي العلا عبد الحق بن خلف ابن مفرج بن الجنان^(١) المتوفى سنة ٥٣٩ / ١١٤٤ — ٤٥ ثم لا يشير في كلامه عن طليطلة إلى أنها خرجت عن أيدي المسلمين سنة ٤٧٨ أو في حديثه عن سرقسطة أنها انتقلت إلى حوزة النصارى في رمضان سنة ٥١٢ / ديسمبر ١١١٨ لرجل غريب حقاً ، ولا نقول هذا منتقصين من قدر الرجل ، فالحق أنه أسدى لنا خدمة كبرى بالاحتفاظ بهذه القطع من جغرافية الرازى ، ولكننا نضع الأمر بين يدي القارئ على أنه مشكلة في ذاته أو ظاهرة تستحق التأمل .

(١) انظر المغرب في حلى المغرب لابن سعيد ، بتحقيق شوقي ضيف ، ٣٨٢/٢

كلام ابن غالب عن قبائل العرب التي نزلت الأندلس ومنازلها فيه

ولكن ابن غالب أودع كتابه أشياء أخرى ذات قيمة جغرافية تعرض بعض ما لاحظناه عليه من نقل مطلق دون تفكير ، وإذا كانت قيمة مقتطفاته من وصف الأندلس للرازي قد تضاعفت بسبب عثورنا على نسخة طيبة من ترجمته إلى البرتغالية ، فإن ما احتفظ لنا به المقرئ وغيره من المقتبسات من فصول كتاب « فرحة الأنفس » الأخرى سيظل محتفظاً بقيمته ، لأنها إشارات — قصيرة أو طويلة — أثبت ابن غالب فيها بعض محفوظه أو خلاصة بعض مطالعته ، ومثال ذلك تلك الفقرة التي يتحدث فيها ابن غالب عن منازل العرب في الأندلس ، وهي فقرة كانت من أحسن ما نعتمد عليه في دراسة هجرة القبائل العربية إلى الأندلس ومنازلها فيه ، وهو موضوع أساسي بالنسبة للتكوين البشري (الأنثولوجي) للأندلس ، وهو جانب هام من جغرافيته وتاريخه . ومن الواضح أن ابن غالب لخص في هذه الفقرة أهم ما ورد في جمهرة ابن حزم عن قبائل العرب التي استقرت في الأندلس ، ولكنه لا شك أضاف إليها من عنده قدرًا صالحًا ، ومن أسف أننا لا نستطيع إيراد هذه الفقرة هنا بسبب طولها ، ثم إن المقرئ عدّل فيها وأضاف إليها من عنده ومن كلام مؤلفين آخرين بحيث لا يؤمن إيرادها على أنها كلها من كلام ابن غالب ، والمهم أن لدينا — بفضل — فقرة طويلة تقع في حوالى ثمان صفحات من نص نفح الطيب (طبعة محي الدين ٢٧١/١ — ٢٧٩) تعطى فكرة واضحة عن استقرار القبائل العربية وتوزيعها في الأندلس ومن انحدر من كل قبيلة من بيوت كان لها دور في تاريخه^(١)

(١) بالإضافة إلى ما ذكرناه في « بحر الأندلس » عن هجرة العرب إلى شبه الجزيرة الأيبيرية انظر البحث المطول الذي أداره خوليان ريبيرا على العرب في إقليم بلنسية :

Julian Ribera y Tarragó, *Disertaciones y Opúsculos*, II, (Madrid, 1928) p. 77 sqq.
Elías Teres, *Líneas árabes en al-Andalus*, al-Andalus, vol. XXI, fasc. 2, 1956; vol. و XXII, fasc. 1, 1957.

كلام ابن غالب عن الآثار الأولية في الأندلس

وتلى ذلك في الأهمية فقرة طريفة قبسها المقرئ من الفصل الخاص « بالآثار الأولية » من « فرحة الأنفس » ، وسنورد هذه الفقرة نظراً لأهميتها بالنسبة للجغرافية التاريخية لاسبانيا ، ثم لأنها تدلنا بالبرهان القاطع على تقدير العرب لما وجدوه في شبه الجزيرة من معالم العمران عند دخولهم ، ومعرفتهم بدقائقها الفنية وحسن انتفاعهم بها .

قال المقرئ : « وقد أفرد ابن غالب في فرحة الأنفس ، للآثار الأولية التي بالأندلس من كتابه مكاناً ، فقال : منها ما كان من جلبهم الماء من البحر الملح إلى الأرحى التي بطركونة على وزن لطيف وتدبير محكم حتى طمحت به ، وذلك من أعجب ما صنع ؛ ومن ذلك ما صنعه الأول أيضاً من جلب الماء من البحر المحيط إلى جزيرة قادس^(١) من العين التي في إقليم الأسنام ، جلبوه في جوف البحر في الصخر الجوف ذكراً في أنثى وشقوا به الجبال ، فإذا وصلوا به إلى المواضع المنخفضة بنّوا له قناطر على حنايا ، فإذا جاوزها واتصل بالأرض المعتدلة رجعوا إلى البنيان المذكور ، فإذا صادف سبخة بُني له رصيف وأجرى عليه ، هكذا إلى أن انتهى به إلى البحر ، ثم دُخِلَ به في البحر ، وأُخرج في جزيرة قادس ، والبنيان الذي [يجري] عليه الماء ، في البحر ظاهر بين » ، قال ابن سعيد : إلى وقتنا هذا .

« ومنها الرصيف^(٢) المشهور بالأندلس ، قال في بعض أخبار رومية : إنه

(١) هذه العبارة غير واضحة ، والمعنى المراد كما يتضح من النص . جلب الماء من [الأرض إلى] البحر المحيط إلى جزيرة قادس ، لأن المراد هنا هو إيصال الماء من البر إلى طرف اللسان الذي تقوم عليه مدينة قادس بواسطة أنابيب مدت من الساحل خلال ماء المحيط . ولم أجد ذكراً في مرجع آخر لإقليم الأسنام الوارد هنا .

(٢) الرصيف يراد به هنا الطريق الروماني المرسوف ، وقد سبق أن بينا ذلك .

لما ولي يوليس المعروف بجاشر^(١) ، وابتدأ بتذريع الأرض وتكسيها ، كان ابتداءه بذلك من مدينة رومية إلى المشرق منها وإلى المغرب وإلى الشمال وإلى الجنوب ، ثم بدأ بفرش البلطة^(٢) ، وأقبل بها على وسط دائرة الأرض إلى أن بلغ بها أرض الأندلس وركزها شرق قرطبة ببابها المتطامن المعروف بباب عبد^(٣) الجبار ، ثم ابتدأها من باب القنطرة قبلي قرطبة إلى شقندة إلى إستجة إلى قرمونة إلى البحر ، وأقام على كل ميل سارية قد نقش عليها اسمه من مدينة^(٤) رومية ، وذكر أنه أراد تسقيها في بعض الأماكن راحة للخاطرين من وهج الصيف وهول الشتاء ، ثم توقع أن يكون ذلك فساداً في الأرض وتغييراً^(٥) للطرق عند انتشار اللصوص وأهل الشر فيها في المواضع المنقطعة النائية عن العمران ، فتركها على ما هي عليه ، وذكر^(٦) في هذه الآثار صنم قادس الذي ليس له نظير إلا الصنم الذي بطرف جليقية ، وذكر قنطرة طليطلة ، وقنطرة السيف وقنطرة ماردة ، وملعب سريبطر .

فهذه فقرة بيّنة الدقة والأهمية ، فقد وصف ابن غالب فيها كيف جلب الرومان الماء إلى قادس ، ووصف الطريقة الهندسية التي اتبعوها في ذلك ، وتكلم عليها كلام من شاهد الأنابيب والسقايات التي مدها الرومان لهذا الغرض ، أو شاهد بعضها على الأقل . أما كلامه عن الطرق الرومانية فيكمل كلام أبي

(١) المراد يوليوس قيصر .

(٢) كذا في طبعة أوروبا من نصح الطبيب (١٢٤/١) .

(٣) الكلام هنا يدور على الطرق الرومانية المعروفة والمؤلف ينسب شقها كلها إلى يوليوس قيصر ، وهو يرى هنا أن قيصر شق الطريق العربي منها من روما إلى قرطبة ، وليس هذا بخطأ خالص ، فقد سبق أن بينا أن لذلك الرأي من الحق وجهاً في كلامنا على ابن بشكوال الجغرافي .

(٤) هنا شيء ناقص ، ونظام العبارة فيها نعتقد : . . . قد نقش عليها اسمه [والمسافة] من مدينة رومية .

(٥) كذا في الأصل المطبوع ، والمعنى غير واضح .

(٦) المتكلم هنا هو المقرئ ، يتحدث عن ابن غالب .

القاسم خلف بن بشكوال في نفس الموضوع ، وربما يكون ابن غالب قد اعتمد عليه ونقل منه ، ومن السير على القاري أن يتبين أهمية هذه الفقرة . بقيت بعد ذلك اشارات قصيرة نقلها المقرئ عن « فرحة الأنفس » الأولى (١٢٤/١) منقولة عن البكري في نسب أندلس بن يافث الذي تقول الاسطورة أن شبه الجزيرة سُمي باسمه ، والثانية (١٨٥/١) منقولة عن المسعودي في أن العنبر يوجد في الأندلس ، والثالثة (٧/٢) منقولة عن العذري في إرجاع اسم قرطبة إلى أصل يوناني « وتأويله القلوب المشككة » (عند العذري ، ص ١٢١) قال : قال : « وذلك أن تفسير [اسم قرطبة] بلسان القوط طاسُوت ، وهي عندهم القلوب المختلفة » ولفظ طاسعوت صحته فيما أعتقد طاسُوت ، رسم عربي للفظ اللاتيني *descordis* بمعنى الخلاف ، ومنه جاء الإسباني الحالي *desacuerdo* . وبقرة (٢/١٤) منقولة في الغالب عن ابن بشكوال عن سور قرطبة وهي تقول ان شقندة (*Secunda*) وهي الربض الجنوبي لقرطبة على الضفة اليسرى للوادي الكبير) كانت معدودة جزء من المدينة ، أى من مدينة قرطبة . وهذه كلها إشارات ذات قيمة بالنسبة للجغرافية التاريخية للأندلس .

كان ابن غالب إذن ناقلًا يندر أن يأتي بمجديد أو يضيف شيئًا من عنده ، ولكنه كان ناقلًا جيّدًا ، أى يحسن الاختيار مما بين يديه من الأصول ، ثم يعرف كيف يربط بعضه إلى بعض ويجعل منه كلامًا متصلًا على طريقة أهل تلك العصور ، ولا شك أن كتابه لو عثرنا عليه كاملاً يضيف إلى محصولنا من جغرافية الأندلس عند العرب شيئًا كثيرًا نافعًا . وأمثال ابن غالب في تاريخ العلوم في العصور الماضية تتلخص مهمتهم في إيصال المعلومات التي يقرأونها في الكتب إلى غيرهم وتثبيتها بالتكرار ، واستنقاذ الكثير من علم السابقين عليهم ؛ لأن الكتب في الماضي كانت عرضة للضياع لقلة ما ينسخ منها وتلاشي النسخ مع الزمن بكثرة الاستعمال أو فعل الأرضة وما إلى ذلك من عوامل القضاء على الكتب ، وقد كانت الكتب الجديدة تُحمل القديمة التي ألفت في موضوعها ، وهي في

الغالب نقلٌ لمادتها أو اختيارٌ منها أو اختصارٌ لها مع إضافة الجديد . ولولا هذا لما وجدنا أثرًا لما ضاع وفقد من الكتب في الأندلس منذ قيام الفتنة الكبرى أوائل القرن الخامس الهجري ، وفي المغرب منتصف القرن الخامس إثر غارة بني هلال ، وفي الشرق الإسلامي في القرن السابع إثر استيلاء المغول على بغداد ودمشق وتوالى مصائبهم على الجناح الشرق لدولة الإسلام . ومن حسن الحظ أن أولئك الناقلين حرصوا على أن ينقذوا ما استطاعوا ، وبهذا وحده وصلت إلينا كتب كثيرة قيمة أو قطع منها ، وتاريخ الرازي ومقدمته الجغرافية خير مثال لذلك ، فها نحن نجتمع أشأتها كما يجمع حطام السفين الفارق ، والفضل في ذلك لرجال طيبين ذوي إحساس — واج أو غير واج — بقيمة تراث الماضين وأهمية الحفاظ عليه كعنصر لازم لبقاء العروبة أولاً ثم لسير ركب الحضارة كلها إلى الامام ثانياً .

أبو الحسن على بن سعيد ، جغرافياً

ومن ابن غالب ننتقل إلى رحالة من مواطنيه كان له في تاريخ الفكر الأندلسي مكان أوسع وأشمل ، فقد شارك في الأدب وتاريخه إلى جانب الجغرافية بنصيب كبير ، ورحل فأبعد في الرحلة ، وجاب نواحي عالم العرب من طرف لطرف ، وعاش وأطال الإقامة في الأندلس والمغرب ومصر والشام والعراق ، وعرف عن هذه البلاد كثيراً ، وداخل أهل العلم والأدب والرياسة فيها ؛ وكان إلى جانب ذلك كاتباً شاعراً بارع الحديث مقبلاً على التأليف والتصنيف ، فحفلت كتبه بملاحظات وأنظاره وكلامه عما أعجبه وما لم يعجبه ؛ وبينما كان أبو الحسين بن جبير رجلاً مطمئن النفس قنوعاً مستسماً للأقدار كان أبو الحسن على بن سعيد رجلاً قلقاً طامحاً متداخلاً مريب النفس دائم الحسرة على ضياع أندلسه العزيز على نفسه ، وقد كان غادره في أسوأ حال سنة ٦٣٨ /

١٢٤٠ - ١٢٤١ إلى غير رجعة ، ومضى يقطع بلاد المشرق من طرف إلى طرف باكياً مُذَكِّراً ، كما فعل الكثيرون جداً من أصحاب الرأي والعلم والرياسة من مواطنيه الأندلسيين ، وقد عاونوا بتركهم بلادهم تنعى من بناها على ضياع هذه البلاد وأسرعوا بزوالها ، لأن أشد ما أصاب الأندلس في عصور مجتته هو إسراع أصحاب الرأي والفكر والثروة والرياسة والقيادة بالهجرة منه وتركهم جمهور الناس هناك ضياعاً لا حامي لهم ولا قائد ، فلما استغلب العدو البلاد لم يجد فيها من يتحدث باسم أهلها أو من يقودهم ويحمي مصالحهم ، فضاع أمرهم بدءاً ، وقد فصلنا الكلام في ذلك في مقدمتنا لرسالة « أسنى المتاجر » للشيخ الونشريشي التي نشرناها من سنوات .

ولا تمنعنا هذه الملاحظة العابرة من القول بأن أبا الحسن علي بن سعيد يعد من أفذاذ الرجال في تاريخنا الفكري ، وشهرته عند القدامى والمحدثين يحدثننا عنها لسان الدين ابن الخطيب والمقرئ وابن شاكر الكنتي وابن رشيد الفهرى وابن العماد الأصفهاني في خريدة القصر وأبو الحسن بن تغرى بردى في « المنهل الصافي » وغيرهم كثيرون ، وفي أيامنا هذه عرّف به بونس بويجس وبروكلمان وغرسية غومس وشوقي ضيف وملشور النطونيا وجورج سارتون وب . موريتز وك . فولرز وتالكفيست واغناطيوس كراتشكوفسكي و زكي محمد حسن وإبراهيم الأبياري وج . بوتيرون^(١) وغيرهم .

(١) عن أبي الحسن علي بن سعيد انظر : لفح الطيب للمقرئ (طبعة القاهرة سنة ١٩٤٩) ج ٣ ص ٢٩ وما بعدها (وفيه أوفى تفصيل لدينا عن حياته) ورحلة ابن رشيد الفهرى ، مخطوطة الاسكوريال رقم ١٧٣٧ ورقة ١٠١ وابن تغرى بردى ، المنهل الصافي ، مخطوطة المكتبة الأهلية بباريس ، (رقم ٢٠٧١ من فهرس دي سلان ، ورقة ١٦٦ ب) ، وتحفة العروس للتيجاني ، مخطوط مكتبة الجزائر الأهلية ، رقم ١٧٨٤ من فهرس فانيان ، وفوات الوفيات لابن شاكر الكنتي ، ج ٢ ص ١١٢ ، والاحالة في أخبار غرناطة لابن الخطيب ٢٢٠/١ وما بعدها ؛ ومن المحدثين : بونس بويجس ، رقم ٢٦٠ ، وبروكلمان ٣١٣/١ و ٣٣٦ و ٦٩٩/٢ والملحق ٥٤٦/١ و ٥٧٦ — ٥٧٧ ، ودائرة المعارف الإسلامية ، الطبعة الأولى ٤٣٩/٢ وجورج سارتون ، مقدمة تاريخ ==

فاما مؤلفونا القدامى (من هؤلاء) فلم يقدِّروا من ابن سعيد إلا ناحيته الأدبية ، وهى فى رأينا أضعف نواحيه ، وقل من اهتم منهم بابن سعيد المؤرخ وأهم هؤلاء المقرئ وابن الخطيب ، وأما ابن سعيد الجغرافى فقد اهتم به الغربيون بصورة خاصة ، وهنا تبينَت القيمة الحقيقية لهذا الرجل النابه المتعدد الجوانب ، وقد كان بعض من نقلوا عن ابن سعيد من قدامى الجغرافيين مثل أبى الفدا قد خطَّأوه وحملوا عليه وقسوا فى نقده ، فجاء بعض علماء الغرب من أمثال سارتون وبارتولد وكراشكوفسكى فأثبتوا أن الرجل كان على علم صحيح حقاً ، وأن أبا الفدا ومن نحا نحوه لم يكونوا موفقين فى نقده .

والحق أننا إذا تأملنا الجوانب الرئيسية الثلاثة من انتاج ابن سعيد وجدنا أن أضعفها هو الأدبى رغم أنه هو الذى شُهر به عند القدامى والكثير من المحدثين . أما جانب القوة الحقيقية فيه فهو الجانب الجغرافى الذى لم يلق فى الماضى أى عناية ، وأما جانبه التاريخى فَيَبِينُ بين ، والرجل فى ذلك الميدان الأخير ناقل لا مبتكر ، حقاً إن عدداً كبيراً من مؤرخينا كانوا نقلة أو أصحاب مختصرات أو جماعين لفقرات شاردات من هنا وهناك ، ولكن ابن سعيد

== العلم ، ١٠٦٥/٢ من الأصل :

K. Vollers, *Fragmente aus dem Mugrib des Ibn Sa'id*, I, Berlin, 1894.

Ibidem, *Bericht über die Handschrift und das Leben des Ahmad ibn Tālūn*, Berlin, Felber, 1894.

وهو يتضمن قطعاً من تاريخ أحمد بن طولون ودولته من الجزء الخامس بمصر من كتاب المغرب و

K. L. Tallquist (Buch IV, *Gesch. der Ikhschiden*, Leiden, 1899.

وهو جزء من « المغرب فى حلى الغرب » يتضمن تاريخ الاخشيديين المسمى « العيون الدعج فى

تاريخ بن طغج » ، المقدمة الالمانية . وقد أعاد نشر هذا الجزء زكى محمد حسن وحسن محمود وسيدة

الكاشف فى القاهرة (سنة ١٩٥١) . ونشر جزء خاصاً بصقلية ب. موريتر فى :

B. Moritz, *Ibn Sa'id's Beschreibung von Sicilien*, *Centenario della nascita di Michele Amari*, I, Palermo, 1910, pp. 292-305.

ونشر Emilio García Gómez كتاب رايات المزيين وعايات الميرين لابن سعيد مع ترجمة

إسبالية ومقدمة صائبة وتعليقات وافية فى مدريد سنة ١٩٤٢

وأخر ما قرأناه بحث عظيم القيمة فى مجلة أرابيكا :

G. Potiron, *Éléments de Biographie et de Géographie des Banū Sa'id*, *Arabica*, XII, 1965, fasc. I, 78-91.

في معظم ما بقي لنا من كتاباته في التاريخ ناقل صرف وخاصة فيما كتبه عن غير بلده الأندلس ، فما لدينا عن مصر منه إنما هو نقل مباشر عن الحسن بن زولاق وغيره .

أما سر شهرة ابن سعيد بالأدب فترجع إلى أنه وفد إلى المشرق في عصر غلب على المثقفين فيه طابع الأدب والرغبة في تسجيل كل بيت من الشعر يرد ذكره مخافة أن يضيع ، وهو اهتمام غلب على الناس بعد سقوط بغداد في أيدي التتار وضياع ألوف الكتب أثناء هذه الكارثة المبيدة ، فاتجه هم الناس إلى استرجاع ما فات واستنقاذ ما أمكن انقاذه من حطام السفين الفارق ، ولهذا فاننا نرى في عالم العرب كله ابتداء من القرن السابع الهجري اهتماما بالتسجيل والجمع ربما أشبه في كثير من الوجوه اهتمامنا اليوم بنشر هذا التراث ، ومن فضائل النفس العربية ذلك التعلق بالماضي والحرص على المحافظة على التراث الفكري للأجداد ، ولما كان حرص العرب على الحفاظ على هذا التراث يبدو في أجلى صوره في المحافظة على اللغة — لغة القرآن الكريم — فقد اهتم الناس أكثر ما اهتموا بالشعر والنثر ، فكثرت مجموعات المختارات من أواخر القرن السادس الهجري وطلبها الناس بكل سبيل .

وفي هذا العصر بالذات أتى على بن سعيد إلى المشرق حاملا زادا ضخما من تراث الأندلس الفكري ، وكان إحساس الناس في المشرق بضياع الأندلس عميقا وان لم يستطيعوا عمل شيء لاستنقاذه ، لأنهم كانوا في مثل بلائه منذ تراءت في أفقهم السنة لهب الصليبيات وما أعقبها من كوارث غارات التتار ، فلا غرابة ان أقبل الناس على علي بن سعيد إقبالا عظيما وطار اسمه كل مطار ، وكان هو نفسه رجلا ذكيا نشيطا لسانا مقبلا على العمل ، فاصبح خلال النصف الثاني من القرن السابع الهجري علما من أعلام المجتمع والثقافة في المشرق العربي كله ، وذاع له الصيت العظيم ، ثم جاء المقرئ بعد ذلك بأربعة قرون فدعا لابن سعيد دعوة كبرى وأشاد بذكره في كل موضع نزل فيه ، فزاد ذكر الرجل

طيراناً ووصل إلينا اسمه في دوى عظيم على أنه من أكبر المؤلفين في تاريخنا الأدبي .
والحق — كما قلنا — أن هذه الشهرة بالأدب ليس لها في الواقع ما يبررها ،
ففي هذا الميدان بالذات لا يعد ابن سعيد من المجيدين ، وحتى في جزء كتاب
« المغرب » الخالص بالأندلس ، وهو أهم ما بقي لنا من كتب المختارات الأدبية
التي خلفها ، نلاحظ — بعد أن عثرنا على الكثير من الدواوين والأصول —
أن ابن سعيد لم يحسن الاختيار في أحيان كثيرة ، وحتى الجيد من مختاره نجد
أن مرجعه فيه مجموعات مختارات أخرى كالتيمة للثعالبي وكتاب البديع في فضل
الربيع لأبي الوليد الحميري والمسهب للحجاري وما إليها . ويبدو أنه صنف بعض
صغار كتبه مثل « عنوان المرقصات » و « الغصون الياقة » و « رايات المبرزين »
استجابة لطلب من كان يخدمهم بالأدب ، فجاءت — وخاصة الأولان من هذه —
مجموعات صغيرة سريعة الصنع ينقصها التجويد حتى لنجدده — رغم صغر هذه
الكتب — يكرر في بعضها ما أورده في بعضها الآخر . وكان للرجل عذره في
ذلك ، إذ أنه كان مضطراً في حياة الغربة التي كُتبت عليه إلى أن يكسب رزقه ،
وكانت هذه الكتب الصغيرة بعض وسائله إلى هذا الكسب ، وهذا يحدونا إلى
أن نجمل حياة الرجل لكي نقدر ظروفه التي عاش وعمل فيها ، وسنوجزها في
سطور ، لأن ابن الخطيب والمقرئ أفاضاً فيها بما يغنيان عن التفصيل ، ثم إن
غيرنا ممن كتب عنه أو نشر شيئاً من مؤلفاته أورد ترجمة حياته بما فيه
الكفاية ، وخاصة غرسية غومس في مقدمة « الرايات » وشوقي ضيف في مقدمة
« المغرب » وكراتشكوفسكي في الفقرة التي أدارها على ابن سعيد من الفصل
الثالث عشر من كتابه الفريد عن الأدب الجغرافي العربي (ص ٣٥٦ — ٣٥٩) ^(١) .

ولد علي بن سعيد سنة ٦٠٥/١٢٠٨ — ١٢٠٩ في قلعة يحصب أو قلعة
اسطيلير التي تسمى أيضاً بقلعة بنى سعيد وهي اليوم الكالا لاريال (القلعة الملكية)

(١) نشير هنا إلى المادة الطبية الخاصة ببني سعيد التي يوردها ج. بوتيرون في مقاله الآتف الذكر .

Alcalá la Real ، بلدة متوسطة ومركز إدارى فى محافظة جيان ، تقع على بعد ٥٦ كيلومتراً من عاصمة المحافظة وتقع على ٥٢ كيلومتراً شمال غربى غرناطة على الطريق منها إلى قرطبة ، وكانت هذه القلعة كما يتبين من آثارها التى زرتها قائمة على تل متوسط الارتفاع (٩٠٠ متر) ، وهى حصينة الموقع ، ولكنها ليست قط كما قال ابن فضل الله العمرى : « حصناً خيماً على الغيوم وتختم بالنجوم ، نافح الرياح ، وصافح بكفه الثريا راحا براح ، وعلا فما طلع إلا فى ذيل افقه الصباح... »^(١) ، فهذه مبالغات أديب سجّاع لم ير بعينه هذا الحصن أو رأى شئ آخر فى الأندلس ، وكأنه قدّر أن ميلاد الرجل فى « حصن خيّم على الغيوم » يستتبع بالضرورة أن يكون رجلاً عظيماً . ولكن العمرى كان صادقاً فى قوله بعد ذلك : « وهو صاحبه الذى أواقفه فى هذا الكتاب تارة وتارة وأخذه ، ومرة أعاهده ومرة أنابذه » وهى عبارة تدل على اعتماد العمرى على كتابات ابن سعيد فيما أورد عن الأندلس ، ولم يكن العمرى الوحيد فى الاعتماد على ابن سعيد ، فالحق أن مجموعات هذا الأخير ومختاراته كانت من أكبر المراجع عن الأدب الأندلسى من بعده ، وفى كلام المقرئ عن ابن سعيد فى النفح ما يدل على ذلك بأجلى بيان .

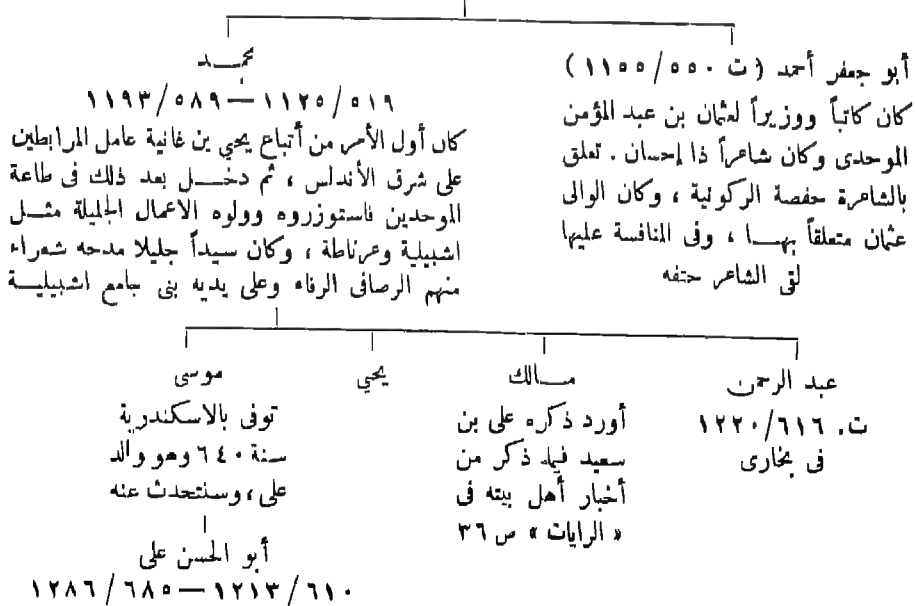
وينسب آل سعيد إلى الصحابى المعروف عمار بن ياسر ، وأول من نسمع عنه منهم فى الأندلس عبد الله بن سعيد بن عمار بن ياسر وهو الذى دخل الأندلس وغرس جذور بيت بنى سعيد فيه ، ويبدو كذلك أنه أول من احتل قلعة أسطير وسماها باسم بيته ، ولكن الأهمية السياسية لبني سعيد ترتبط بذكر عبد الملك بن سعيد بن خلف الذى استقل بالقلعة لأول عصر الطوائف ، وعلى

(١) رجة ابن سعيد فى « مسالك الابصار » ، نسخة مصورة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٥٦٧ تاريخ ، المجلد الثامن ، الورقة ٣٨٢ ، وقد نفضلت دار الكتاب المصرية فعملت صورة لمعهد الدراسات الإسلامية بمديرى من أجزاء مسالك الابصار الخاصة بالأندلس ، والفضل فى هذه الإشارة يرجع إلى الدكتور شوقى ضيف ، انظر مقدمة المغرب ص ٦ - ٧

هذه الصورة وجده. الأديب الرحالة الجوال إبراهيم بن وزمر الحجاري عندما وفد عليه سنة ٥٣٠ كما حكيناه في موضعه . وقد دخل عبد الملك في طاعة المرابطين ، ولكنه كان أشبه بالمستقل في حصنه على عادة أصحاب الحصون في ذلك العصر المضطرب ، فلما انتقل الأمر إلى الموحيدين انتقل إليهم بولائه وتوفى في مراكش سنة ١١٦٢/٥٦٢ ؛ وخلفه في ولاية الحصن ابنه محمد ثم حفيده موسى والد أبي الحسن على ، وفي عهده انتهت رئاسة البيت في القلعة المنسوبة إليهم ، وانتقل موسى إلى الجزيرة الخضراء والياً لها للمتوكل بن هود ، ثم غادر الأندلس إلى المغرب فالمشرق جملة . وقد تكررت النباهة وعلو الذكر بالأدب في هذا البيت ، ونورد فيما يلي جدول نسب نذكر فيه أهم من اشتهر من أهل هذا البيت حتى علي ابن سعيد وذلك مراعاة للاختصار وللمجرد التعريف :

عبد الملك بن سعيد

كان والياً لقلعة يصب سنة ٥٣٠/١١٣٥ - ١١٣٦ وكان واسع الشهرة بالعباية بالأدب وأهله ، وعليه وفد إبراهيم بن وزمر الحجاري



وكانت وفادة ابراهيم بن وزمر الحجارى على عبد الملك بن سعيد حادثاً فاصلاً فى تاريخ البيت كله ، فقد كانوا كما رأينا أهل أدب وعناية بالعلوم ، شأنهم فى ذلك شأن الكثيرين من سروات الأندلس وأهل الرياسة فيه ، ولكن أحداً من بنى سعيد لم يفكر قبل ذلك فى أن يؤلف كتاباً ، ثم أتاهم هذا الأديب الشاعر الرحال القلقى يحمل زاداً ضخماً من العلم بالأندلس وآداب أهلها ، فاقترح عبد الملك عليه أن يسجل شيئاً من علمه ومحفوظاته فى كتاب ، فعمله فى هيئة جدول جغرافى أدبى عام ، قسم الأندلس فيه إلى كوره وبلاده ، ووضع فى كل كورة أو بلدة من ذكّره من أهل الأدب من أبنائه ، فكان بذلك مبتكراً لشيء سميناه الجغرافية الفكرية ، واستودع كتابه صاحبه وراعيه عبد الملك بن سعيد ومضى لحال سبيله .

ومضى عبد الملك وأبنائه ينظرون فى ذلك الكتاب فراقهم نظامه ، وهو فى الواقع نظام مبتكر طريف ، ولكنهم وجدوا أن الحجارى أنسى الكثير وأهل الكثير ، فضوا يكلون فواته ، وقد اعتبروا أنفسهم من أول الأمر شركاء للرجل فى كتابه ، فضوا يعدّون فيه ويزيدون عليه ويحورون مادته كيفما راق لهم حتى أصبح « المسهب » على أيديهم شيئاً آخر يختلف فى تفاصيله عما وضعه مؤلفه ، ولكنهم احتفظوا على أى حال بهيكله العام ، وهو هيكل جغرافى ، وانصبت اضافاتهم وتعديلاتهم فى إطار هذا الهيكل ، ونحن إذا سألناهم فى إضافة ما أضافوا فأننا لا نفكر لهم حذف ما حذفوه من مادة الكتاب ، والبادى بهذا عبد الملك بن سعيد فالثابت من مقدمه « المغرب » أنه كان « مختصر ما لم يوافق غرضه ، وفيه تطويل غير مفيد » ، ولا شك أن أولاده جروا على ذلك ، فأصبح المسهب على أيديهم كتاباً آخر هو المغرب فى حلى المغرب ، وأصبح تأليفاً بالمشاركة بين رجل وأسرة ، وهو شيء طريف فى بابه مما كانت وجوه نقدنا له .

وكان موسى بن محمد بن عبد الملك بن سعيد أعظم أهل ذلك البيت عناية بالكتاب ، فقد كان فى نفسه علامة فاق المنقطعين للدرس فى إقباله على المطالعة والجمع والتقييد ، وهو يمثل لنا فى الأندلس هذا النزوع إلى تسجيل تراث الماضى تحت تأثير الخطر الملاحق ، وقد وصف لنا ابنه على بن موسى ابن سعيد ولعه البالغ بالمطالعة والقراءة وحرصه على تدوين كل ما وصل إلى علمه من الآثار الأدبية ، حتى لقد تحمل وهو والى على الجزيرة الخضراء جفوة رجل كانت لديه كرايس فيها تقييدات شعرية لكى ينسخ ما ند عنه من مادتها قبل أن تضع ، وكان عمره كله قارئاً كاتباً ، ومثل هذا الرجل ، وإن خلا جهده الطائل من الجديد والاصالة ، يمثل لنا هذا النزوع الذى وهبته أمة العرب إلى المحافظة على تراث الماضين من أبنائها ، وهو نزوع يرجع إليه الكثير من الفضل فى بقاء الأمة العربية نفسها وتجدد قواها وشبابها فى أوقات الأخطار وبعد عصور الركود والاضمحلال .

ولكننا إذا نظرنا فيما لدينا من قطع المغرب لم نلاحظ فيها ما يدل على تجميع واسع المدى أو حشد عظيم من المادة ، فإن ما تضمه صفحات هذه القطع لا يخرج عما يتيسر بالمشقة السيرة من مراجع معروفة لنا الآن ، وغالب النقول من مسهب الجبارى ومقتبس ابن حيان وحدث ابن فرج وخذوة الحميدى وذخيرة ابن بسام وقلائد الفتح بن خاقان ومطمح وما أشبه ، وهذه كلها مراجع نفترض بداهة أنها كانت بيد كل متأدب من أهل الأندلس إذ ذاك ، وهى لا تحتاج إلى العمر الطويل لقراءتها واستخلاص ما فيها ، فكيف قضى موسى عمره الطويل فى هذا العمل ؟ وأين هى الغرائب والشوارد التى يحدثنا على بن سعيد أن أباه وفق إلى جمعها ؟ الحق أننا نحس هنا بشئ من المبالغة لا نستبعده من أبى الحسن هذا ، فقد كان بطبعه صاحب دعاية واسعة وطبل وزمر يُسمعان من الأقاصى ، وحسبك أن تنظر فى بعض كتبه مثل « عنوان المرقصات والمطربات » أو « الفصول الياينة » لترى أنها ليست بكتب

مستقلة بحال ، إنما هي صفحات ومختارات من المغرب وغيره من كتبه الأخرى ، جمعها وجعل لها عنواناً طناناً رشيقياً بحسب مفهوم العصر ، وأسعد بها هذا أو ذاك من جماعة الكتّاب من سروات الناس ، بل إن تكوين كتاب المغرب نفسه يلقي في الروح هذا الاحساس ، فهذا رجل يجعل الأندلس ممالك كثيرة ، وما كان الأندلس على أيامه بممالك أو حتى بمملكة ، وإذا استجزنا أن يقال لمملكة قرطبة ومملكة اشبيلية ، فكيف يقال لمملكة شلب أو لمملكة باجة أو لمملكة اشبونة أو لمملكة مالقة ؟ وهذه لم تكن قط وحدات سياسية قائمة بذاتها لا أيام الطوائف ولا قبلها أو بعدها ؟ ثم ما هي هذه الكتب التي ملأ بها مؤلفه ؟ فلكل قرية كبيرة أو صغيرة ، ولكل حصن — هام أو غير هام — كتاب في حسابه ، والكتاب قد يكون صفحتين بل صفحة ، وكل كتاب من هذه يبدأ بتسمية وتصلية وتحميد كأنه مؤلف قائم بذاته ، بل لكل كتاب عنوان شامخ مسجوع ظاهر التكلف : « كتاب التعرّيش في حلى مدينة شريش » و « كتاب غفلة العجلان في حلى قلعة خولان » وكتاب « فجأة السرور في حلى كورة مورور » وما إلى هذا مما أثقل به عليّ بن سعيد المغرب حتى أصبح وكأنه أقرب إلى الهزل ؟ هذا كله ثمرة ولعه بالدعوة الواسعة والكلام الطنان ، وهذه خصلة من خصاله ، ولا نقول هذا لنعيها عليه ، فهي ليست عيباً وإنما جزء من شخصيته ، وربما كانت بعض أدواته لكسب عيشه ، والذي يهمنا هنا أن نحسب حسابها فيما يذكر عليّ بن سعيد عن أبيه موسى وعظيم اجتهاده في الدرس والتقيد ، ولا ننكر أنه قضى عمره في ذلك ، ولكننا لا نجد بين أيدينا إلا القليل من ثمرات هذا الجمع .

ظل موسى بن محمد بن عبد الملك بن سعيد في طاعة الموحدين حتى اضطرب عليهم الأمر في الأندلس بعد موت رابع خلفائهم محمد الناصر (توفي سنة ٦١٠/١٢١٤) فقد وقع الشقاق بينهم وتطاحنوا على الملك أو ما خيل إليهم أنه ملك ، حتى نهض أبو العلا بن أبي يعقوب المنصور وكان والياً على

اشبيلية وجمع قواته وأزمع العبور إلى المغرب للمطالبة بالعرش ، وثار عليه الثائرون وأكبرهم المتوكل بن هود (٦٢١ - ٦٣٥ / ١٢٢٨ - ١٢٣٨) وكان رجلا شهبا باسلا لولا طيش واندفاع كانا فيه ، فدخل موسى بن سعيد في طاعته ، فولاه على الجزيرة الخضراء ، فانتقل إليها بأهله وولده ، ويفهم من هذا أنه تخلى عن قلعة يحصب ، لأننا لا نجد لها بعد ذلك ذكراً في تاريخ ذلك البيت ، وربما يكون الموحدون قد استنزلوا بني سعيد منها ، ولم تدم ولاية الجزيرة الخضراء لموسى ، أو لم يستمسك هو بها بعد مقتل المتوكل بن هود ، لأن أمر الأندلس في الواقع صار إلى الفوضى التي سقط خلالها خط الوادى الكبير مع امتداده إلى بلنسية ومرسية ، وهى فوضى استمرت حتى تمكن محمد بن الأحمر من الثبات في حصون الحمراء وإنشاء الدولة النصرية التي انسات في عمر الأندلس حوالى القرنين ونصف .

في سنة ٦٣٨ / ١٢٤٠ - ١٢٤١ أزمع موسى بن سعيد الرحلة إلى المشرق في رفقة ابنة أبي الحسن على ، ويقال إن هذه الرحلة كانت للحج ولكن الواقع أنها كانت هجرة نهائية ، فبعد ضياع قلعة بني سعيد وذهاب أمر الموحدين وتلاشى الامسل الذى تراءى بظهور المتوكل ابن هود لم يبق لبني سعيد فى الأندلس إلا الذكر الطيب وما ادخروا من صُبابات المال . وكان نفر من أهل هذا البيت قد هاجر بالفعل إلى المشرق ، ومن هؤلاء أبو الحسن بن الحسين بن سعيد الذى استقر فى تونس وتوفى فيها سنة ٦٠٤ / ١٢٠٧ - ١٢٠٨ وهو ابن أخى عبد الملك بن سعيد وقد ذكره المقرئ (نفع الطيب ٦٤٠ / ١) بمناسبة الكلام على حفيد لابن عمه سعيد بن الحسن يسمى أبو عبد الله محمد بن الحسين الذى سيكون له شأن مع عليّ بن سعيد . وكان هذا الأخير من رجال أبي زيد بن الشيخ أبي محمد بن أبي حفص والمستنصر الحفصيين ، ويبدو أن موسى بن سعيد وابنه كانا يرجوان أن يستظلا برعاية قريبهما هذا ويستقرا فى تونس ، فقد كانت جماعات من مهاجرة الأندلسيين تفد إذ ذاك على عاصمة الحفصيين شيئا فشيئا .

وقد ذكر عليّ بن سعيد ذلك الرجل في الرايات ووصفه بأنه « الوزير العالم الرئيس . . . صاحب دولة ملك افريقية في هذا التاريخ وهو سنة أربعين^(١) وستائة » ، ولم يكن الرجل عند حسن الظن به ، إذ وقع بينه وبين عليّ شئ من متافرة ، فاضطر هذا إلى مغادرة تونس إلى المشرق^(٢) .

من تونس انتقل موسى بن سعيد وابنه إلى الأسكندرية فوصلها في ٢٧ ربيع الأول ٦٣٩/٥ أكتوبر ١٢٤١ ويبدو أن موسى مرض هناك ، لأنها أقاما بها حتى وفاته بها في ٨ شوال ٦٤٠/٣١ مارس ١٢٤٣ وبعد ذلك مباشرة انتقل عليّ بن سعيد إلى القاهرة ، ويبدو أن شيئاً من صيته وصيت أهله كان قد سبقه إلى عاصمة الديار المصرية ، لأنه لم يلبث أن ظهر أمره وداخل أهل العلم والفضل والرياسة ، ومن أهم هؤلاء أبو الفتح موسى ابن يغمور بن سليمان بن عبد الله ، وكان من كبار رجال الدولة الأيوبية ، إذ كان نائباً للسلطنة ، وقد ترجم له كمال الدين بن جعفر بن ثعلب الأدفوي في « الطالع السعيد الجامع لأسماء الفضلاء والرواة بأعلى الصعيد (القاهرة ١٩١٤ ص ٣٨١ — ٣٨٢) وذكر الوظائف الكبرى التي تولّاها ، فكان والياً للقاهرة أيام الملك الصالح أيوب ، ثم والياً لدمشق أيام تورانشاه ثم استاداراً (أي رئيس القصر السلطاني) أيام الظاهر بيبرس ثم نائباً للسلطنة إلى أن توفي في أول شعبان ٦٦٣/١٩ مايو ١٢٦٥

وكانت لابن يغمور فيما يظهر عناية بأهل الفكر ممن وفد على مصر من الأندلسيين ، فقد كان من بين ندمائه أبو الحجاج بن عتبة الإشبيلي الشاعر وأبو عبد الله محمد بن أبي الفضل الشلمي المرسى وكان شاعراً أيضاً ، وأندلسي ثالث يسمى ابن الجزائر . وكان من الطبيعي أن ينتفع ابن سعيد بصداقة هذا الرجل ، فألف له كتاب « رايات المبرزين وغايات المميزين » وهو كما يفهم من فاتحته

(١) رايات المبرزين لابن سعيد ، ص ٤٦

(٢) انظر فتح الطيب ، ٤٠/٣ — ٤١

مقتبس من «المغرب» ، وعلى طول حياة ابن سعيد كان «المغرب» هذا كنزه الذى يعتمد عليه وذخره الذى يستند إليه ، كلما حاجه الأمر إلى كتيب يلف به رئيساً مدَّ يده في المغرب وأخرج شيئاً ، ثم نسقه وزوقه بالسجلات وأهداه ، ولا ندرى إن كان المغرب إذ ذاك قد تم تأليفه أو أن علياً بن سعيد كان يحمل مادته وينتظر بها الفرصة المواتية للفراغ منها .

ويبدو من مقدمة كتاب «المشرق في حُلَى المشرق» أن موسى بن سعيد كان قد فرغ من «المغرب» قبل رحلته إلى الشرق ، بل خطر بباله وهو على أبواب هذه الرحلة أن يكمله بكتاب على نسقه يسميه «المشرق» يستكمل به التاريخ السياسى والأدبى للعالم الإسلامى بأسره ويسميه «فلك الأرب» ، المحيط بحلّى لسان العرب» ، ويبدو أن العمر لم يطل به لاتمام مشروعه ، لأن كل ما لدينا من قطع «المشرق» إنما هى من تصنيف عليّ بن سعيد . أما المغرب فيمكن القول بأنه من عمل موسى بن سعيد ومن سبقه ممن اجتهد في جمع مادة هذا الكتاب من آل سعيد على أساس ما عمله الحجارى . وقد أضاف عليّ إلى المغرب أشياء هنا وهناك ورتب ونسق ، وربما كانت العناوين المسجوعة من وضعه ، فقد كان بها جدّ مول .

ولم تسنح الفرصة لابن سعيد لإخراج المغرب وإتمام المشرق إلا بعد أن تعرف على صديق جديد هو كمال الدين بن عمر بن أبى جردة المعروف بابن العديم صاحب تاريخ حلب ، فقد وفد هذا على القاهرة رسولاً من الناصر الأيوبي صاحب حلب إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وهناك عرف ابن سعيد وما عنده من العلم والفضل فدعاه إلى الرحلة إلى حلب والدخول في خدمة صاحبها ، فذهب إلى هناك وقضى ثلاث سنوات من ٦٤٤ إلى ٦٤٧ / ١٢٤٦ - ١٢٤٩ ربما كانت أهدأ أيام حياته وأوفرها إنتاجاً ، فقد أتم إخراج المغرب وربما جزء من المشرق . ويبدو أنه لم يطمئن بعد ذلك للمقام في حلب ، فاتجه إلى دمشق ، وهناك دخل في خدمة السلطان العظيم توران شاه وأصبح

من ندمائه ، ولم يطل به المقام هناك أكثر من سنة ، فرحل سنة ١٢٥١/٦٤٨ إلى بغداد ومَرَّ في طريقه بإرمينية وأَرَجَّان ، ثم غادر بغداد إلى الحجاز حيث أدى الفريضة ، ثم كر راجعاً إلى تونس سنة ١٢٥٤/٦٥٢ حيث نزل أول الأمر على صديقه أبي العباس أحمد التيفاشي صاحب الموسوعة المعروفة .

وقد طالت إقامته بتونس هذه المرة ، فلم يرحل منها إلا سنة ١٢٦٧/٦٦٦ ونعتقد أنه اهتم بإتمام « المشرق » في هذه الفترة ، والغالب أيضاً أنه كتب في أثناء ذلك أحسن ما ألف في الجغرافية وهو كتاب « بسط الأرض في طولها والعرض » الذي سنتحدث عنه بعد قليل ، ونحيل إلى هذا الرأي لسببين رئيسيين : الأول أننا نلاحظ في الكتاب طابع المواد الموسوعية التي كان يكتبها أبو العباس التيفاشي ، وربما يكون ابن سعيد قد لاحظ أن مادة صاحبه في الجغرافية قليلة ، فأحب أن يستكمل هذا النقص بكتاب مختصر له قائم بنفسه في ذلك الموضوع ، والثاني هو أن الكتاب في مجلته قائم على أساس نزهة المشتاق ، ونظن أن هذا الكتاب وصل إلى تونس أول ما وصل من بلاد الإسلام .

وفي سنة ١٢٦٧/٦٦٦ رحل علي بن سعيد إلى المشرق مرة أخرى ، ولا نعلم ما الذي دفعه إلى القيام بهذه الرحلة الجديدة ، بل لا نكاد نصدق ما يقال من أنه أبعد في السفر هذه المرة حتى أوغل في إيران لكي يرى بعينه هولاءكو ، لأن هولاءكو توفي سنة ١٢٦٥/٦٦٣ أي قبل شروع ابن سعيد في رحلته بثلاث سنوات ، وقد لاحظ ذلك التناقض موريتز في دراسته عن الأجزاء الخاصة بصقلية من كتاب « بسط الأرض في طولها والعرض » لابن سعيد ، وقد سبق أن أشرنا إلى هذا المقال^(١) .

وعاد ابن سعيد بعد ذلك إلى تونس حيث أقام حتى آخر أيامه ، وقد اختلف المؤرخون في سنة وفاته ، فأما ابن شاكر الكتبي وابن تغري بردي

(١) رايات المبرزين ، بتحقيق غربية غومس ، ص ٦٤

فيقولان أنه توفي في دمشق سنة ٦٧٣/١٢٧٤ في حين أن ابن الخطيب والمقرئ وابن فرحون (الديباج المذهب ، ص ٢٠٨) والسيوطي (حسن المحاضرة ، ١/٣٢٠) يقولون إنه توفي في تونس سنة ٦٨٥/١٢٨٦ وقد رجح شوقي ضيف (مقدمة المغرب ، ص ٨) رأى الأخيرين بقرينة لا تحتمل الجدل وهي ما ورد في نهاية نسخة مصورة محفوظة بدار الكتب المصرية لأحد مخطوطات «الفصون الياينة في محاسن شعراء المائة السابعة» من أنه كتب سنة ٦٨٣/١٢٨٤ ، والمخطوط بخط ابن سعيد نفسه .

عاش ابن سعيد إذن حياة طويلة عريضة حافلة بالأحداث والتجارب والأسفار والعمل ، وهو دون شك من أعظم الأندلسيين الذين وفدوا على المشرق ومن أبعدهم أثراً فيه ، فقد أقبل إلى المشرق يحمل قطعة عزيزة من تاريخ بلده متمثلة في تاريخ بيت يمني قديم يرجع إلى آل عنس اليحصيين ويحمل في طياته عمار بن ياسر رمز المستضعفين في الأرض الذين منّ الله عليهم وجعلهم أغرة . انتقل آل هذا البيت إلى الأندلس وأقاموا هناك مجداً سياسياً ثم توفر الأخيرون من رجاله على إنشاء كتاب هو من مفاخر الأندلس بفضل ما يحمل من ثمرات قرائح أهله ، ثم عاد آخر أولئك الرجال إلى المشرق طاولاً أعلام المجد السياسي وناشراً صفحات المجد الفكري في تونس وفي عواصم الشرق : القاهرة ودمشق وحلب أتم الرجل عمل آبائه وختم تاريخهم أجمل ختام بفضل ما أوتي من الذكاء والنشاط وطرافة الشخصية وما حرص عليه من الدعوة العريضة لوطنه الأندلس وأهله ، فأما دعوته للأندلس فقد اتجهت نحو وصف الأرض والجو والمدن وما إلى ذلك فأمدتنا بمادة جغرافية صرفة من الطراز الأول ، وأما دعواه لأهله قاتجته إلى بيان امتيازهم الفكري ، فأمدتنا بمادة أدبية ذات قيمة لا تقدر .

لا عجب إذن أن نجد لعليّ بن سعيد صوتاً بعيداً وتقديراً عظيماً عند من أتى بعده من رجال الأدب في مغرب العالم الإسلامي ومشرقه ، فلسان الدين

ابن الخطيب يرى فيه « وَسَطَى عَقْد بَيْتِهِ ، وَعَلِمَ أَهْلُهُ ، وَدَرَّةُ قَوْمِهِ ، الْمَصْنُفُ الْأَدِيبُ الرَّحَالُ ، الطَّرْفَةُ الْإِخْبَارِي ، الْعَجِيبُ الشَّانُ فِي التَّجَوُّلِ فِي الْأَقْطَارِ وَمَدَاخِلَةِ الْأَعْيَانِ لِلتَّمَتُّعِ بِالْخَزَائِنِ الْعَالَمِيَّةِ ، وَتَقْيِيدِ الْفَوَائِدِ الْمَشْرِقِيَّةِ وَالْمَغْرِبِيَّةِ ^(١) » والمقرى أكبر من حمل لواء الدعوة للأندلس في الشرق بعد ابن سعيد يقول على طريقته في المبالغة الساذجة : « أديب زمانه غير مدافع ، من اعترف له أهل الشرق بالسبق ، وأهل المغرب بالإبداع المغرب . . . الشهير بالمغارب والمشارق ، الْمُحَلَّى بِجَوَاهِرِهِ صُدُورِ الْمَهَارِقِ ^(٢) » ، وابن فضل الله العمري يقول : « أديب مبدع ، ولبيب ممتع ، وكانوا من بيت ملك لا يُنْهَنَّهُ بِالْوَعِيدِ ، وكان لهم حصن سعيد بالأندلس . . . » ويقول الصفدي : « ابن سعيد من أئمة الأدب المؤرخين » وغير ذلك كثير .

وأحسب القارئ قد لاحظ أن أحداً من هؤلاء لم ينبه إلى ابن سعيد الجغرافى ، فكأن الصفحات الجغرافية المشرقة التي قدم بها للأقطار والتي أتى بذكرها في كتابه الكبير « فلك الأرب » والتي سنورد منها نماذج مما يتصل بالأندلس ، كأن هذه الصفحات كانت في حسابهم مداخل أو مقدمات لا أهمية لها ، حتى رجال موسوعيون كابن فضل الله العمري — المقروض فيهم أن ينبئوا طبيعة ما يقرأون ويميزوه عن غيره ويفيدوا منه في بابه — فاتهم أن يتنبهوا إلى ذلك ، وجعلوا الرجل أديباً ومؤرخاً ولا زيادة ، والحق أن ابن سعيد في الأدب ناقل متكلف وفي التاريخ حاطب متعجل وفي الشعر ناظم قل أن تظفر له بيت ذى قيمة شعرية حقيقية ، أما في الجغرافية فقد كان رجلاً أصيلاً وذهنًا جديراً بالاعجاب ، وقد بين ذلك ب. موريتز في دراسته عما كتب ابن سعيد عن صقلية وبارتولد في دراسته لما كتب عن أوروبا الشرقية

(١) رواء المقرى في النفع ، ٣٨/٣

(٢) نفس المرجع ، ٢٩/٣

وهو نَجْمَان في كتابه الفريد عن الأقاليم السبعة وجورج سارتون في مقدمة تاريخ العلم وغير هؤلاء كثيرون ممن أحصاهم اغناطيوس كراتشكوفسكي في عرضه الموجز المتمتع لأعمال ابن سعيد الجغرافي (ص ٣٥٦ - ٣٦٠ من كتاب الأدب الجغرافي العربي) .

المادة الجغرافية في كتاب المغرب في حلى المغرب

لن نذكر من أعمال علي ابن سعيد غير « فلك الأرب » و « بسط الأرض » : فقد أحصاها بروكمان واستوفى شوق ضيف بعض فوات العلامة الألمانية ، ودرس كذلك في مقدمة المغرب التكوين العام لهذا الكتاب مما يفتننا عن إعادته هنا ، ولكن بحسبنا العبارة التالية من مقدمة « المُشْرِق في حُلَى المشرق » وهو جزء من النصف الثاني من « فلك الأرب » ، المحيط بحلى لسان العرب « وهي تبين منهج علي بن سعيد في صياغة الكتاب في صورته التي وصلت إلينا ، وسنقسم العبارة إلى فقرات زيادة في الإيضاح . قال المؤلف :

١ - كل من التصنيفين (يريد المشرق والمغرب وهما القسمان الكبيران لكتاب فلك الأرب) مرتب على البلاد . متى ذُكر بلد ذكرت كُورَه ، وأتكلّم عليه وعلى كل كورة منه . . وأبتدى بكرسى مملكتها وقاعدة ولايتها بحسب مبلغ [على] من إعلام بمكانها من الأقاليم ، وما يحف بها من نهر أو مَنَزَرٍ أو خاصة معدنية أو نباتية .

٢ - ومَن تداول عليها من أبناء الملوك أولى التواريخ التي لا يجب إغفالها .

٣ - ثم نأخذ في الطبقات واحدة بعد أخرى ، وهي خمس : طبقة الأمراء ، وطبقة الرؤساء ، وطبقة العلماء ، وطبقة الشعراء ، وطبقة الفقهاء . [والأربع الأولى] مخصوصة بمن له نظم من أولى الخطط المذكورة ، ولها تفسير

تقف عليه في مواضعه . وطبقة اللقيف مخصوصة بمن ليس له نظم من أى صنف كان ، ممن لا يجب إغفاله ، وفيها من النوادر والمضحكات ما يكون [مثل] الاحاض^(١) .

فالفقرة الأولى من هذا المنهج خاصة بالمادة الجغرافية من الكتاب .

والفقرة الثانية خاصة بالمادة التاريخية .

والفقرة الثالثة خاصة بالمادة الأدبية مع إشارات تاريخية .

وإذا نحن أخذنا الأجزاء الخاصة بالأندلس من « المغرب » تبيننا أن المادة الجغرافية تنقسم إلى قسمين : مقدمة عامة مفصلة عن جغرافية الأندلس ، ثم تعريفات جغرافية مختصرة خاصة بكل بلد يرد ذكره .

فأما المقدمة الجغرافية فسنحدث عنها بتفصيل بعد يسير ، وأما المقدمات الجغرافية الصغيرة للبلدان فعظمها مأخوذ من مسهب الحجارى أو من جغرافية الرازى ، وقد تكون عبارات قصيرة مثل قوله عن كورة مُراد في منطقة قرطبة : « في غربى قرطبة ، الحالى منها حصن مراد ، سكنته قبيلة مراد فنسب إليها^(٢) » أو قوله عن مدينة قبرة : « مدينة ناهية ، هي قصبه الكورة^(٣) » أو قوله عن قرية مَقْرِينَة في كورة اشبيلية : « قرية في نطاق حضرة اشبيلية^(٤) » وما إلى ذلك من الإشارات التى لا تكاد تتضمن قيمة علمية حقيقية ، وهى لا تطول ونَعْنَى بعض الشيء إلا في الكلام على الكور ، ومثال ذلك قوله عن كورة قزمونة : « كورة مشهورة بكثرة الحرث وطيبه ، والحالى منها مدينة

(١) نقلت هذه الفقرة من مقدمة « المشرق » بنصها كما أوردها شوقي ضيف في مقدمة المغرب (ص ٦) وقد نقلها هو عن أصل مخطوط بالملكنة التيمورية بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٥٣٢ تاريخ ، وراجعها على ما أورده المقرئ منها في فتح الطيب .

(٢) المغرب ، ١/٢٢٨

(٣) المغرب ، ١/٢٣٠

(٤) المغرب ، ١/٢٨٨

قرمونة ، وهى مدينة من جهة ضخامة الأسواق والحمامات ، ومعتل عظيم من جهة الارتفاع والمنعة ، لا ترام بقتال ، وهى من حصون الإسلام المشهورة ، وقد كان امتنع فيها يحيى بن على بن حمود الفاطمى وجعل يقاتل ابن عباد فى اشبيلية حتى ضاق ابن عباد به ، ولم يكن له حيلة فيه لمنعة معقله ، إلى أن خرج ليلة وهو سكران بخيل ضربت من اشبيلية على قرمونة ، فوقع فى يدهم فقتلوه^(١) .

ويلاحظ على هذه الاشارات كلها — إلى جانب اقتضاها — طابع العجلة وقلة التحقيق والمراجعة حتى ليندر أن تجد واحدة منها دون خطأ ، وفى هذا القليل الذى ذكرناه أخطاء كثيرة ، فمن الواضح أنه لم تكن هناك فى الأندلس كورة تسمى كورة مُراد ، وإنما هى ناحية إلى شمالى قرطبة عرفت بهذا الاسم نسبة إلى من جماعة المراديين نزلتها ، ثم بُني بعد ذلك الحصن ، وقوله إن مقرينة قرية فى نطاق حضرة اشبيلية غير دقيق وإنما هى كانت حياً من أحياء اشبيلية ، وكذلك قوله عن قرمونة أنها من حصون الإسلام المشهورة يبدو أنه سهو صحته « من حصون الأندلس المشهورة » ، أما اشارته إلى نهاية يحيى بن على بن حمود فغير دقيقة ، لأنه لم يقع فى يد رجال ابن عباد ، بل سار هؤلاء إليه فخرج إليهم ووقع قتال قُتل فيه .

والحق — كما تبين شوق ضيف — أن نسخة الجزء الخاص بالأندلس من المغرب التى وصلت إلينا كُتبت على عجل ولم تُراجع بعد ، وربما كانت مسودة نقلها ابن سعيد بعد ذلك على صورة أحسن ، فإن النسخة التى كانت بين يدى المقرئ ونقل عنها أوفى وأصح من نسختنا بكثير (راجع مقدمة المغرب ، ص ٢٥ — ٢٦) .

(١) المغرب ، ١/ ٢٩٩

وقبل أن ننتقل لدراسة المقدمة الجغرافية المفصلة للأندلس نلاحظ أن القطعة الباقية بين أيدينا عن هذا القطر تبدأ في السفر الحادى عشر من كتاب المغرب وتستمر إلى الخامس عشر ، وقد افترض شوقى ضيف — وهو على حق — أن الجزء العاشر كان يتضمن المقدمات الجغرافية التى احتفظ لنا المقرئ بمعظمها لحسن الحظ ، فقيم كانت الأسفار التسعة الأولى ؟ الغالب أنه اختص بها مصر والمغرب ، ولا نعلم على وجه التحديد كيف قسمها ، ولكن صياغة ما عثرنا عليه ونُشر من الاقسام الخاصة بمصر لا تشبه أسفار الأندلس فى شيء ، ومعظمها نقل دون تمحيص ، مما يدل على أن صلب الكتاب الحقيقى هو الجزء الخاص بالأندلس ، وهو الذى ورثه ابن سعيّد عن آله ، ويغلب على الظن أن المقدمة الجغرافية العامة من عمله وحده فإن فيها نقولا عن الشريف الإدريسي ومناقشات لبعض ما أورد ، ولم يطلع على ابن سعيّد على نزهة المشتاق إلا حين أقام فى تونس .

على ابن سعيّد فى هذه المقدمة نظار محقق ذو فهم وحسّ جغرافيين ، وهذا يتضح للقارى من أول وهلة ، فهو يبدأ بمقدمات عن أصل اسم الأندلس وطولها وعرضها بحسب أقوال لأبى عامر الساملى فى كتابه المسمى « بدرر القلائد و غرر الفوائد » والمسعودى وابن اليسع ، وهو يروى قول هذا الأخير : « طولها من أربونة إلى أشبونه ، وهو قطع ستين يوماً للفراس المجد » ويعلق عليه بقوله وانتقد بأمرين : أحدها أنه يقتضى أن أربونة داخلية فى جزيرة الأندلس ، والصحيح أنها خارجة عنها ، والثانى أن قوله « ستين يوماً للفراس المجد » اعياء وافرط ، وقد قال جماعة إنها « شهر ونصف » ويضيف بعد ذلك : « وهذا يقرب إذا لم يكن للفراس المجد ، والصحيح ما نص عليه الشريف من أنها مسيرة شهر ، وكذا قال الجبارى ، وقد سألت المسافرين المحققين عن ذلك ، فعملوا حساباً بالمرآجل الجيدة أفضى إلى نحو شهر بنّيف^(١) قليل » ، وهذا كلام رجل يزن ما يصل

(١) برواية المقرئ فى نفح الطيب ، ٢٢٥/١

إليه من معلومات ويحققه ويسأل عنه من يعرفه . وقرق بين هذا الكلام وقول الحجارى إن طول الأندلس من الحاجز إلى أشبونة ألف ميل^(١) ونيف » ، لأن طول الأندلس لا يقاس من الحاجز — أى جبال البرت وهى المعروفة خطأ بالبرانس — إلى الاشبونة ، وحتى لو اعتمدنا قولهم أن الأندلس مثلثة الشكل فإن أحداً لم يقل أن الاشبونة كانت ركناً من أركان المثلث بحيث تتخذ المسافة منها إلى الحاجز ضلعاً من أضلاعه ، ومع هذا كله فالمسافة بين الاشبونة وجبال البرت لا تصل إلى ألف ميل أى ألفى كيلومتر على اعتبار أن الميل العربى كيلومترا .

وقد أورد المقرئ فى نفع الطيب بعد ذلك فقرة طويلة عن هيئة الأندلس وابعادها تعطينا نموذجاً طيباً من طريقة ابن سعيد فى الكلام فى هذه المقدمة ، نوردها على توالها ، فإن عرضها مع تعليق قصير يغنى عن كلام كثير ، قال : « ومسافة الحاجز^(٢) الذى بين بحر الزقاق والبحر المحيط أربعون ميلا ، وهذا عرض الأندلس عند رأسها من جهة الشرق^(٣) ، ولقلته سميت جزيرة وإلا فليست بجزيرة على الحقيقة لاتصال هذا القدر بالأرض الكبيرة .

وعرضُ جزيرة الأندلس فى مؤسَّطها عند طليطلة ستة عشر يوما^(٤) ، واتفقوا على أن جزيرة الأندلس مثلثة الشكل ، واختلفوا فى الركن الذى فى الشرق والجنوب فى حيز أربونة ، فمن قال إنه فى أربونة — وإن هذه المدينة

(١) نفس المرجع ، ١/٢٦٦

(٢) المراد بالحاجز هنا الطرف الجنوبي من شبه الجزيرة بين البحر الأبيض والمحيط الأطلسى ، وعرضه ٨٠ كيلومترا فى بعض المواضع .

(٣) هذا على مذهبهم فى أن جبال البرت تسير من الشمال إلى الجنوب فيقع الزقاق فى الفرق ، وقد تحدثنا عن هذه النظرية فيما سبق .

(٤) هذا التقدير واضح الخطأ ، لأن متوسط ما كان يقطعه المسافر فى اليوم ٤٠ كيلومترا ، فالمسافة على هذا التقدير ٦٤٠ كيلومترا ، وهى فى الواقع ضعف ذلك تقريباً .

تقابلها مدينة برديل^(١) التي في الركن الشرق الشمالى — أحمد بن محمد الرازى وابن حَيَّان ، وفي كلام غيرها أنه في جهة أربونة ، وحقق الأمر الشريف^(٢) ، وهو أعرف بتلك الجهة لترده في الأسفار براً وبحراً إليها وتفرّغه لهذا الفن . قال ابن سعيّد : وسألت جماعة من علماء هذا الشأن فأخبروني أن الصحيح ما ذهب إليه الشريف ، وأن أربونة^(٣) و برشلونة غير داخلتين في أرض الأندلس ، وأن الركن الموفى على بحر الزقاق بالمشرق بين برشلونة وطركونة في موضع يعرف بوادى رُبْلَقُطُو^(٤) وهناك الحاجز الذى يفصل بين الأندلس والأرض الكبيرة ذات الألسن الكثيرة .

وفي هذا المكان جبل البرت الفاصل في الحاجز المذكور وفيه الأبواب التي فتحتها ملك اليونانيين بالحديد والنار والخل ، ولم يكن للأندلس من الأرض الكبيرة قبل ذلك طريق في البر ، وذكر الشريف أن هذه الأبواب يقع في مقابلتها في بحر الزقاق البحر الذى بين جزيرتى ميورقة ومنورقة ، وقد أخبر بذلك جمهور المسافرين لتلك الناحية ، ومسافة هذا الجبل الحاجز بين الركن الجنوبي والركن الشمالى أربعون ميلاً^(٥) .

(١) برديل هي بوردو ، وقد احتفظت الصورة العربية بالرسم اللاتينى Burdigala ولهذا تكتب أحياناً بردال . وكان الجغرافيون العرب يظنون — كما رأينا — أن ضلعاً من أضلاع مثلث شبه الجزيرة يمتد من بوردو إلى أربونة في خط مستقيم من الشمال إلى الجنوب مخترقاً جبال البرت .

(٢) هذه أول مرة يشير مؤلف عربى إلى الشريف الإدريسى ، ولماذا كان المغرب قد كتب حوالى سنة ٦٤ - فيكون قد مضى نحو قرن من الزمن بين تأليف « نزهة المشتاق » وبدء الانتفاع به عند علماء العرب .

(٣) هذا صحيح ، فأربونة حارجة عن شبه الجزيرة ، أما برشلونة فكانت إذ ذاك تابعة للملك عالة (فرنسا) وتسمى منطقتها في بعض الأحيان بالأرض الصغيرة في حين أن عالة تسمى بالأرض الكبيرة .

(٤) هو نهر Llobregat واسمه باللاتينية Rubrucatus ومن هنا أتى الاسم العربى ، وقد صوبه دوزى على هذا النحو ، ولكن محي الدين عبد الحميد فضل متابعة رسم طبعة بولاق القديمة : زلفطو ، وزاد قبسط الاسم بفتح الزاى واللام وسكون النون وفتح القاف ليقطع الشك باليقين !

(٥) التقدير هنا بعيد عن الصحة فإن متوسط المسافة من البحر الأبيض إلى خليج بسكايّة في منطقة البرت حوالى ٤٠٠ كم. لا ٨٠ كما يقول ابن سعيّد .

قال : وشمال الركن المذكور عند مدينة برديل ، وهى من مدن الإفرنج مطلة على البحر المحيط فى شمال الأندلس ، قال : ويتفقر البر بعد تميّز هذا الركن إلى الشمال فى بلاد الفرنجة ، ولهم به جزائر كثيرة ، ودوكر^(١) من الركن الشمالى عند شنت ياقوه من ساحل الجلالة فى شمال الأندلس ، حيث تبتدئ جزيرة برطانية الكبيرة ، فيُتصور هنالك بحر داخل بين أرضين^(٢) ، من الناس من يجعله بحراً منفرداً خارجاً من البحر المحيط لطوله إلى الركن المتقدم الذكر عند مدينة برديل .

وذكر الشريف أن عند شنت ياقوه فى هذا الركن المذكور على جبل بمجمع البحرين صنماً مطلاً مشبهاً بصنم قادس .
والركن الثالث بمقربة من جبل الأغن حيث صنم قادس ، والجبل المذكور يدخل من غربه مع جنوبه بحر الزقاق من البحر المحيط ماراً مع ساحل الأندلس الجنوبي إلى جبل البرت المذكور .

ويورد المقرئ بعد ذلك (نفح ١ / ١٣٣ - ١٣٤) فقرة منقولة عن الشريف الإدريسي تدل على أن ابن سعيّد قرأه وفهم كلامه حق الفهم ، وهى فقرة خاصة بالأقاليم السبعة (شمال خط الاستواء) وموقع الأندلس منها ، وما يوازى مدنه من المدن الأخرى الواقعة فى نفس الإقليم ، وسنورد هذه الفقرة فيما يلى لأنها تدل على قدرة على بن سعيّد على تلخيص مادة الإدريسي ، وهو أمر سيعمله بصورة أوفى فى كتابه « بسط الأرض » ، قال :

« وقال ابن سعيّد : ذكر الشريف أن لا حظاً لأرض الأندلس فى الإقليم الثالث ، قال : ويمر بجزيرة الأندلس الإقليم الرابع على ساحلها الجنوبي وما

(١) كذا فى الأصل المطبوع .

(٢) المراد هنا بحر المانش أو القنال الانجليزى .

قاربه من قرطبة وإشبيلية ومرسية وبلنسية ، ثم يمر على جزيرة صقلية وعلى ما في سمتها من الجزائر ، والشمس مدبرة له .

والإقليم الخامس يمر على طليطلة وسرقسطة وما في سمتها إلى بلاد أرغون التي في جنوبها برشلونة ، ثم يمر على رومية وبلادها ، ويشق بحر البنادقة ، ثم يمر على القسطنطينية ، ومدبرته الزهرة .

والسادس يمر على ساحل الأندلس الشمالى الذى على البحر المحيط وما قاربه وبعض البلاد الداخلة في قشتالة وبرتقال وما في سمتها ، وعلى بلاد برجان والصقالبة والروس ، ومدبره عطارد .

ويعبر الإقليم السابع في البحر المحيط الذى في شمالى الأندلس إلى جزيرة انقلطرة وغيرها من الجزائر وما في سمتها من بلاد الصقالبة وبرجان . قال البيهقي : وفيه تقع جزيرة تُولِي وجزيرتا أجبال والنساء وبعض بلاد الروس الداخلة في الشمال والبلغار ، ومدبره القمر ، انتهى .

وإليك فقرة أخرى عن البحر الأبيض نرى منها أن تصور ابن سعيد لهذا البحر كان سليماً معقولاً ، وقد سبقه إلى هذا التصور السليم معظم النابهين من جغرافيينا ، وخاصة أبو عبيد البكرى ، وسيصوره ابن خلدون فيما بعد تصويراً هو الغاية في الدقة وحسن الفهم حتى بمقاييس العلم الجغرافى في أيامنا ، ولكننا نورد هذه الفقرة لأنها نموذج من طريقة ابن سعيد في المزج بين الحقائق الجغرافية وبعض حكايات التاريخ التي كانت تدخل عندهم في الجغرافية ، وهي تعطينا أيضاً أمثلة من ملاحظاته الشخصية القائمة على مشاهداته . ويلاحظ أن تصور ابن سعيد — والبكرى وابن خلدون — لهيئة البحر الأبيض أنه كان بيضاوياً على هيئة اللوزة أو العين مثلاً ، وطرف منه عند جبل طارق ، والطرف الآخر عند صور على ساحل الشام . وتحديد صور بالذات من دون موالى الشام راجع إلى بطليموس :

قال ابن سعيد : ومخرج بحر الروم المتصاعد إلى الشام هو بساحل الأندلس الغربى بمكان يقال له الخضراء ما بين طنجة من أرض المغرب وبين الأندلس فيكون مقدار عرضه هناك كما زعموا ثمانية عشر ميلا ، وهذا عرض جزيرة طريف إلى قصر مصمودة بالقرب من سبتة ، وهناك كانت القنطرة التي يزعم الناس أن الإسكندر بناها ليعبرَ عليها من بر الأندلس إلى بر العدو ، ويعرف هذا الموضع بالزقاق ، وهو صعب الجواز لأنه مجمع البحرين لا تزال الأمواج تتناول فيه والماء يدور ، وطول هذا الزقاق الذي عرضه ثمانية عشر ميلا مضاعفٌ ذلك إلى ميناء سبتة ، ومن هناك يأخذ البحر في الاتساع إلى ثمانمائة ميل وأزيد ، ومنتهاه مدينة صور من الشام ، وفيه عدد عظيم من الجزائر .

فإذا انتقل على بن سعيد إلى الكلام على مدن الأندلس وحاصلاته النباتية والمعدنية وحيوانه ونباته وصناعات أهله أتى من ذلك كله بمادة وافرة لم يوفق واحد من الجغرافيين قبله إلى الاتيان بمثله ، وهو يتحدث في معظم هذه الفقرات حديث العالم الثبت الذي يتكلم عما يعرف ، ولولا ولعه بإيراد الكثير من الشعر والحكايات في أثناء ذلك لكان كلامه أقرب ما يكون إلى مفهومنا في التأليف الجغرافى اليوم ، وعزائونا في هذه الاستطرادات الأدبية أنها تضم أحيانا فوائد جغرافية ، ومثال ذلك قوله في الكلام على قرية نارجة ، وهي Nerja على ٥٣ كيلومتراً إلى شرق مالقة على الشاطئ ، وهي نهاية ما يعرف اليوم بشاطئ الشمس - La Costa del Sol ، وهي مشهورة بمغارتها العميقة الفسيحة التي تعتبر اليوم من مقاصد السائحين ، قال : « وهي قرية كبيرة تضاهى المدن ، قد أحدثت بها البساتين ، ولها نهر يفتن الناظرين ، وهي من أعمال مالقة » ثم يذكر بعد ذلك كيف اجتاز عليها مع والده أبى عمران موسى : « وكان ذلك زمن صباغة الحرير عندهم ، وقد ضربوا في بطن الوادى بين مقطعاته خيما ، وبعضهم يغنى ويطرب ، وسئلوا : بم يعرف هذا الموضع ؟ فقالوا : الطراز ، فقال والدى : اسم طابق مسماه ولفظ وافق معناه :

وقد وجدت مكانَ القولِ ذا سعة فإن وجدت لسانا قائلا فقل

ثم قال : أجز : بنارجية ، حيث الطراز المنعم

فقلت : أقم فوق نهر ثغره يتبسم

إلى آخر هذا الشعر الذى اشترك هو وأبوه فى صياغته ، وهو شعر استغرق
صفحة كاملة (١) .

ومن نماذج كلامه عن المدن قوله عن بلنسية :

« كورة بلنسية من شرق الأندلس ينبت بها الزعفران ، وتعرف بمدينة
التراب ، وبها كمثرى تسمى الأرزة فى قدر حبة العنب ، قد جمع مع حلاوة
الطعم ذكاء الرائحة ، إذا دخل داراً عرف بريجه ، ويقال : إن ضوء بلنسية
يزيد على ضوء سائر بلاد الأندلس ، وبها منازرة ومسارح ، ومن أبدعها
وأشهرها الرصافة ومئية ابن أبى عامر » .

ثم تلى ذلك مقطعات شعرية لشرف الدين أبى جعفر بن مسعدة الغرناطى
وابن الزقاق البلنسى ومروان بن عبد الله بن عبد العزيز الذى ملك بلنسية
بعض الوقت وأبى عبد الله بن عياش وأبى الحسن بن حريق والرصافى الرفاء
و « بعضهم » .

ويستوقف النظر أن أول ما يذكره عن كورة بلنسية أنها تنبت الزعفران ،
ولا زالت تنبته إلى اليوم بكميات كبيرة ، وإلى وجوده مع الأرز بها ترجع
شهرة بلنسية بطبق الأرز المعروف بالبائيا paella ويقال أنه طبق عربى أصل
اسمه « البقايا » . أما الكمثرى التى يذكرها فوجوده فعلاً وتسمى فى الاسبانية
peras de San Juan ، ولكنها ليست فى حجم حبة العنب ، وإنما فى حجم البيضة
الكبيرة . وبكل ابن سعيد كلامه عن بلنسية بقوله بعد الاشعار : « وبرصافة

(١) رواه القرى فى نفح الطيب ، ١٦٦/١ - ١٦٨ .

بلنسية مناظر وبساتين ومياه ، ولا نعلم في الأندلس ما يسمى بهذا الاسم إلا هذه ورصافة قرطبة » ، وهى ملاحظة صحيحة .

وأورد ابن سعيد — نقلا عن « المسهب » للحجاري — فقرات طويلة عن حيوان^(١) الأندلس ، فذكر السمور « الذى يعمل من وبره الفراء الرفيعة يوجد فى البحر المحيط بالأندلس من جهة جزيرة برطانية ، ويجلب إلى سرقسطة ويصنع بها ، والقنطرية حيوان أدق من الأرنب وأطيب فى الطعم وأحسن وبراً وكثيراً ما يلبس فراؤها ، ويستعملها أهل الأندلس من المسلمين والنصارى ، ولا توجد فى بر البربر إلا ما جلب منها إلى سبتة ، فنشأ فى جوانبها » وأضاف بعد ذلك أن القنطرية جلبت فى هذه المدة إلى تونس حضرة افريقية ، ولفظ canalia لاتينى ومعناه الأرنب .

ويضيف : « ويكون بالأندلس من الغزال والابل وحمار الوحش وبقرة وغير ذلك مما لا يوجد فى غيرها كثير ، وأما الأسد فلا يوجد فيها البتة ، ولا الفيل والزرافة وغير ذلك مما يكون فى أقاليم الحرارة . ولها سبع يعرف باللب أكبر بقليل من الذئب فى نهاية من القحة ، وقد يفترس الرجل إذا كان جائعاً » .

وعبارته عن اللب جديرة بالملاحظة ، لأن اللب el lobo هو فى الحقيقة الذئب ، وهو من اللاتينية lopus ، ولكن الذئب فى اسبانيا وعامة أوروبا أكبر من ذئب البلاد المشرقية وأشد عدواناً فى حالة الجوع ، ولهذا ميزه ابن سعيد عن الذئب وذهب إلى أنه حيوان آخر ، وقد تسمى كثير من المسلمين باسم هذا الحيوان فقالوا لب بن سعيد مثلاً ، ولا زال الاسم مستعملاً فى الإسبانية : López ومعناه على الحقيقة ابن لب . ثم يقول : « وبغال الأندلس فارهة وخيلها ضخمة الأجسام ، حصون للقتال لخلها الدروع وتقال السلاح والعدو... »

ولها من الطيور الجوارح وغيرها ما يكثر ذكره ويطول ، وكذلك حيوان البحر . ودواب بجرها المحيط في نهاية الطول والعرض . قال ابن سعيد : عاينت من ذلك العجب . والمسافرون في البحر يخافون منها لثلاث تغلب المراكب فيقطعون الكلام ، ولها نَفَخٌ بالماء من فيها يقوم في الجو ذا ارتفاع مفرط « والكلام هنا على حيوان البحر المعروف بالعنبر ، وكان يسمى في الأندلس باسمه اللاتيني والإسباني البَلِينَة la ballena .

ولابن سعيد في هذه المقدمة فقرة عظيمة الأهمية عن فواكه الأندلس ، وما أظن أحداً من مؤلفينا — غير النباتيين — كتب شيئاً شبيهاً بهذا في الدقة عن فواكه بلده : « وأما الثمار وأصناف الفواكه ، فالأندلس أسعدُ بلاد الله بكثرتها ، ويوجد في سواحلها قصب السكر والموز ، ويوجدان في الأقاليم الباردة (يريد من الأندلس) ، ولا يعدم منها إلا التمر ، ولها من أنواع الفواكه ما يعدم في غيرها أو يقل كالنتين القوطى والنتين السَّقرى في اشبيلية . قال ابن سعيد : وهذان صنفان لم تر عيني ولم أذق لهما منذ خرجت من الأندلس ما يفضلها ، وكذلك التين المالحى والزبيب المنكَّجى والزبيب العسلى والمان السَّقرى ، والخواج والجوز واللوز ، وغير ذلك مما يطول ذكره ^(١) » . وقوله أنه لا يقدم من الأندلس إلا التمر يستوقف النظر ، فإن في اسبانيا اليوم من غابات النخيل التي تثمر التمر الجيد ما يدهش له الزائر لنواحي أَلش Elche ولقنت Alicante وامتداد الساحل حتى المرية ومرسية ، وهذا معناه أن التمر الاسباني الحالى شيء جديد استجد بعد أيام العرب . نعم كان في الأندلس دائماً نخل ، ولكنه فيما يبدو لم يكن يثمر ثمرأً يجدر بالذكر ، وإلا لما أبدى ابن سعيد هذه الملاحظة .

(١) رواه القرى في نفع الطيب ، ١٦٦/١

وقال عن معادن الأندلس : « إن الأرض الشمالية الغربية فيها المعادن السبعة ، وهى فى الأندلس التى هى بعض تلك الأرض ، وأعظم معدن للذهب بالأندلس فى شنت ياقوه Santiago de Compostela قاعدة الجلالة على البحر المحيط ؛ وفى جهة قرطبة الفضة والزئبق ؛ والنحاس فى شمال الأندلس كثير والصُّفْر (النحاس الجيد) الذى يكاد يشبه الذهب وغير ذلك من المعادن المتفرقة فى أماكنها^(١) » وهذه العبارة ضعيفة ، فهى لم تأت إلا على النزر اليسير من معادن الأندلس التى عرفها العرب واستخرجوها ، وإغفاله ذكر الحديد مثلاً لا يمكن تبريره ، وكان العرب يستخرجون منه مقادير طيبة من مناجم واقعة إلى شمال شرق قرطبة ، عند البلدة المعروفة اليوم باسمها العربى Almaden (المعدن) بل كانت جبال شيرًا مورينا كلها تسمى جبال المعدن لهذا السبب ، واستخرج العرب كذلك حديد سربيطر Murviedro التى تعرف حالياً باسمها اللاتينى Sagunte قرب بلنسية .

أما إشارة ابن سعيد إلى صناعات الأندلس فهى من أقيم ما لدينا عن هذا الموضوع ، وهى جديرة بأن نورد لها هنا :

« قال ابن سعيد : وإلى مصنوعات الأندلس ينتمى التفضيل ، وللمتعصبين لها فى ذلك كلام كثير ، فقد اختصت المرية ومالقة ومرسية بالموشى المذهب يتعجب من حسن صنعته أهل المشرق إذا رأوا منه شيئاً ، وفى نَفْتَالَة من عمل مرسية تعمل البُسُط التى يُقَالُ فى ثمنها بالمشرق ، ويصنع فى غرناطة وبَسْطَة من ثياب اللباس المحررة الصنف الذى يعرف بالملبد الختم ذو الألوان العجيبة ، ويصنع فى مرسية من الأسيرة المرصعة والحصير الفتانة الصنعة وآلات الصُّفْر والحديد من السكاكين والأمقاص المذهبة وغير ذلك من آلات العروس والجندي ما يبهّر العقل ، ومنها تجهز هذه الأصناف إلى بلاد إفريقية وغيرها ،

(١) المقرئ ، نفح الطيب ، ١٨٦/١

ويصنع بها وبالمرية ومالقة الزجاجُ الغريب العجيب وفخار مزجج مذهب ،
ويصنع بالأندلس نوع من المفضض المعروف في المشرق بالفُسْتَيْفَسَاء ونوع يبسط
به قاعات ديارهم يعرف بالزليجي يشبه المفضض ، وهو ذو ألوان عجيبة يقيمونه
مقام الرخام الملون الذي يصرّفه أهل المشرق في زخرفة بيوتهم كالشاذِرْوَانِ ،
وما يجري مجراه .

« وأما آلات الحرب من التّراس والرماح والسراوج والألجم والدروع والمخافر
فأكثرهم أهل الأندلس — فيما حكى ابن سعيد — كانت مصروفة إلى هذا
الشأن ، ويُصنع فيها في بلاد الكفر ما يبهز العقول ، قال : والسيوف البرذليات
مشهورة بالجودة ، وبرذيل : آخر بلاد الأندلس من جهة الشمال والمشرق ، والفولاذ
الذي بإشبيلية إليه النهاية ، وفي إشبيلية من دقائق الصنائع ما يطول ذكره .
ويطول بنا الأمر لو مضينا نعرض هذه المقدمة الطويلة في الجغرافية العامة
للأندلس التي سماها « كتاب وشى الطرس في حلى جزيرة الأندلس » وهي
السفر العاشر من المغرب كما قلناه . فقد أورد المقرئ في نفع الطيب معظمها
ناسباً الفقرات إلى ابن سعيد في الغالب ، وإن كان بين الحين والحين يغفل
ذلك ، ولن نورد هنا الفقرات الطويلة عن نظام الأندلس الإداري وخططه
وعادات أهله وخصائصهم الخلقية والعقلية ، فهذا كلام طويل كثير أحق بأن
يجمع في كتاب وحده حتى تظهر مزاياه ، ولكننا نختم هذه الدراسة عن
جغرافية الأندلس لابن سعيد بتلك الفقرات التي يذهب فيها مع الإعجاب ببلده
إلى درجة التعصب والمغالاة في إظهار الفضل والامتياز حتى لا يتخرج عن
المساس بالبلاد الشرقية التي كان يعيش فيها . وهذا الاستعلاء من الأندلسيين
على غيرهم وعدم تحرزهم مما يجرح مشاعر الغير كانا من بعض خصائصهم ، لا
مع غيرهم فحسب ، بل مع بعضهم البعض ، وإن الإنسان ليدش وهو يقرأ
سيرهم من الحاح الكثيرين منهم على ما يهين ويفضد دون حاجة في كثير
من الأحيان .

قال ابن سعيد : « وميزان وصف الأندلس أنها جزيرة قد أحدقت بها البحار ، فأكثر فيها الخصب والعارة من كل جهة ، فتي سافرت من مدينة إلى مدينة لاتكاد تنقطع من العارة ما بين قرى ومياه ومزارع ، والصحارى^(١) فيها معدومة ، وما اختصت به أن قراها في نهاية من الجبال لتصنع أهلها في أوضاعها وتبييضها ، لثلاث تنبو العيون عنها ، فهي كما قال الوزير بن الحمار فيها :

لَا حَتَّ قَرَاهَا بَيْنَ خُضْرَةِ أَيْكِهَا كَالدَّرِّ بَيْنَ زَبَرْجَدٍ مَكْنُوفِ

ولقد تعجبت لما دخلت الديار المصرية من أوضاع قراها التي تكدر العين بسوادها ، ويضيق الصدر بضيق أوضاعها . وفي الأندلس جهات تقرب فيها المدينة العظيمة المصّرة من مثلها ، والمثال في ذلك أنك إذا توجهت من اشبيلية فعلى مسيرة يوم وبعض آخر مدينة شريش ، وهي في نهاية من الحضارة والنضارة ، ثم يليها الجزيرة الخضراء كذلك ، ثم مالقة ، وهذا كثير في الأندلس ولهذا كثرت مدنها ؛ وأكثرها مسوّر من أجل الاستعداد للعدو ، فحصل لها بذلك التشييد والتزيين . وفي حصونها ما يبقى في محاربة العدو ما ينيف على عشرين سنة لامتناع معاقها ، ودرية أهلها على الحرب ، واعتيادهم لمحاربة العدو بالطعن والضرب ، وكثرة ما تنخزن الغلة في مطاميرها ، فمنها ما يطول صبره عليها نحواً من مائة سنة قال ابن سعيد : ولذلك أدامها الله تعالى من وقت الفتح إلى الآن ، وإن كانت العدو قد نقصها من أطرافها ، وشارك في أوساطها ففي البقية منعة عظيمة ، فأرض بقى فيها مثل اشبيلية وغرناطة ومالقة والمرية وما ينضاف إلى هذه الحواضر العظيمة المصّرة الرجاء فيها قوى بحول الله وقوته ، انتهى .

(١) هذه العبارة غير دقيقة ، ففي شبه الجزيرة مناطق صحراوية وصخرية فاحلة كثيرة تبلغ نسبتها ٨ ٪ من مساحتها الكلية .

قلت^(١) : قد خاب ذلك الرجاء ، وصارت تلك الأرجاء للكفر مفرجاً ،
ونسأل الله تعالى الذى جعل اللهم فرجاً ، وللضيق مخرجاً ، أن يعيد إليها كلمة
الإسلام حتى يستنشق أهله منه فيها أَرْجاً آمين .

قال ابن سعيد : « وأنا أقول كلاماً فيه كفاية : منذ خرجت من جزيرة
الأندلس وطفقت في بر العُدوة ، ورأيت مدنها العظيمة كمراكش وقاس وسلا
وسبتة ، ثم طفت في إفريقية وما جاورها من المغرب الأوسط فرأيت بجاية
وتونس ، ثم دخلت الديار المصرية فرأيت الإسكندرية والقاهرة والفسطاط ،
ثم دخلت الشام فرأيت دمشق وحلبا وما بينهما . لم أر ما يشبه رونق الأندلس
في مياها وأشجارها إلا مدينة فاس بالمغرب الأقصى ، ومدينة دمشق بالشام ،
وفي حماة مسحة أندلسية ، ولم أر ما يشبهها في حسن المباني والتشييد والتصنيع ،
إلا ما شُيد بمراكش في دولة بني عبد المؤمن ، وبعض أماكن في تونس ، وإن
كان الغالب على تونس البناء بالحجارة كالإسكندرية ، ولكن الإسكندرية أفسح
شوارع وأبسط وأبدع ، ومباني حلب داخلة فيما يستحسن ، لأنها من حجارة
صلبة ، وفي وضعها وترتيبها إتقان » .

وفي هذا كفاية لبيان القيمة العلمية لهذه المقدمة الجغرافية الطويلة للأندلس ،
ولم يستطع ابن سعيد أن يأتي بمثل هذه المعلومات في تقديمه لما تحدث عنه
من غير الأندلس من البلاد التي تناولها الكلام في قسمي « فلك الأرب » وهما
« المغرب والمشرق » وهو أمر طبيعي ، فإن الأندلس بلد وهو به أعرف ،
وفضله ظاهر في استطاعته جمع حشد عظيم من المعلومات الجيدة وسياقتها في
أسلوب سهل بسيط لا يخالطه حديث عجائب أو حكايات أساطير إلا في النادر .
وهو يسمو بهذه المقدمة إلى مستوى أعظم الجغرافيين الأندلسيين من أمثال
الرازي والعذري والبكري ويواصل تقاليد هذا العلم التي جرى عليها أقطابه في

(١) المتكلم هنا هو المقرئ صاحب النفع .

ذلك الصقع . بل هو يمتاز بتصور أوضح يدل على ملكة علمية أصيلة قادرة على تميز الخصائص وتبين الحقائق وربط الأمور بعضها ببعض وسياقة المعلومات الكثيرة في نطاق موجز دون إخلال .

ومن كلام ابن سعيد في هذه المقدمة ثم من تقسيماته للأندلس بعد ذلك نستدل على أنه رسم لنفسه مخططاً للأندلس ليُجرى في الكلام بمقتضاه ، ولسنا نقول ذلك استنتاجاً ، ولكنه حقيقة ، قال المقرئ في كلامه عن الكتاب : « وصور — رحمه الله تعالى — أجزاء الأندلس في كتاب وشى الطرس » ولكن يبدو أن خريطته كانت توضيحية لا جغرافية صرفة ، والخريطة التوضيحية هي رسم يعمل لمجرد توضيح الكلام لا لتصوير الهيئة الجغرافية لاقليم ما كهذه الرسوم التي أُثرت عن الخوارزمي مثلاً ، وكخرائط كتاب ابن حوقل ، فهي رسوم للتوضيح في ذهن القارئ ، وهي تقابل ما يقال مثلاً من أن هيئة الأرض على شكل طائر رأسه في العراق وذيله في الأندلس ، أو أن إيران شهر (هضبة إيران وما يليها شرقاً) وجزيرة العرب في هيئة الطيلسان ، وما إلى ذلك من التشبيهات التي نجد الكثير من نماذجها عند المسعودي في « مروج الذهب » ودليلنا على أن خريطة ابن سعيد كانت رسماً توضيحياً قول المقرئ بعد ذلك : « وقال أيضاً (أى ابن سعيد) إن كلا من شرق الأندلس وغربها ووسطها يقرب في قدر المساحة بعضه من بعض ، وليس فيها جزءا يتجاوز طوله عشرة أيام ، ليصدق التثليث في القسمة ، وهذا دون ما بأيدي النصارى^(١) » فهذا كلام رجل قسم الأندلس إلى ثلاثة أقسام متساوية ليسهل عليه الكلام ، وهو تقسيم سبقه إليه ابن بسام في الذخيرة ، وجعل ابن سعيد طول كل قسم عشرة أيام ، أى ٤٠٠ كيلومتراً على وجه التقريب . وإذا كان ابن سعيد قد أصاب في قياس عرض الأندلس هنا من البحر الأبيض إلى المحيط الأطلسي

(١) المقرئ ، نفع الطيب ، ٢١٠/١

لجعله ١٢٠٠ كيلومتراً ، وهو قريب من الصواب ، فإنه لم يكن موفقاً في هذا التقسيم الهندسى ، فإن البلاد لا تقسم جغرافياً على هذه الصورة المفتعلة ، وإنما تقسم إلى مناطق طبيعية أو أقاليم ذات خصائص متميزة أو أقسام إدارية لها حقيقة في الواقع ، ولكن عذره أن التقسيم هنا نظرى صرف لمجرد التقريب . ونختم كلامنا عن تلك المقدمة الجغرافية بعبارة للمقرئ تبين لنا أقسام كتاب المغرب الخاصة بالأندلس وصقلية والأرض الكبيرة (ما إلى الأندلس شمال جبال البرت من بلاد غرب أوروبا) ، ومن أسف أنه لم يأتنا بتقسيم المغرب كله . قال :

وقسمه إلى أقسام منها :

« وشى الطُّرس في حلى جزيرة الأندلس » وهو ينقسم إلى أربعة كتب :

الكتاب الأول كتاب : حلى العرس في حلى غرب الأندلس

» الثانى » : الشفاه اللّمس ، في حلى موسطة الأندلس

» الثالث » : الأنس في حلى شرق الأندلس

» الرابع » : لحظات المريب ، في ذكر ما حماء من الاندلس

عُبَاد الصليب .

والقسم الثانى كتاب : الألحان المسلية في حلى جزيرة صقلية ، وهو أيضاً ذو أنواع (أى يقع في كتب) .

والقسم الثالث كتاب : الغاية الأخيرة ، في حلى الأرض الكبيرة ، وهو أيضاً ذو أقسام » .

وإذن فقد كانت هناك أجزاء كبيرة من هذا الكتاب عن صقلية وغربى أوروبا ؛ أجزاء يسميها هو كتباً ولا ننتظر أن تكون مساوية في القيمة لهذا القسم الأندلسى الذى عرضنا أطرافاً منه ، ولكنه كان يضم على أى حال مادة علمية جديدة عن هذه الأقسام من الدنيا . وإنه لما هو جدير بالملاحظة أن المملكة الجغرافية العربية كانت أوسع أفقاً وأبعد طموحاً مما كانت عليه المملكة

التاريخية أو الأدبية مثلاً . فقد رأينا كم من الجغرافيين العرب وصفوا أوروبا أو بعض أجزائها في حين يندر أن نجد مؤرخاً عربياً طمح إلى أن يؤرخ للملك تلك القارة أو بعضها ، وإذا استثنينا ابن خلدون وابن الخطيب فإننا ينبغي أن ننتظر إلى عصر الموسوعيين : عصر القلقشندي والعمرى ومن إليهم حتى نقرأ شيئاً عما وراء حدود مملكة الإسلام يعود بنا إلى آفاق العلم العربى الواسعة في العصر الذهبي الأول ، أيام كان رجل كمحمد بن جرير الطبرى يكتب في استاذية تدعو إلى الإعجاب الحق تاريخاً لفارس قبل الإسلام يعتمد الناس إلى يومنا هذا فيما يكتبون عن الشرق القديم ، ويعتبره نولده وفستفدل من أعظم الأعمال التاريخية على إطلاق ، ونولده كان رجلاً يزن ما يقول بكل ميسور من موازين العلم ، وكذلك كان فردينان فستفدل ، وفي صفحات كتابه الذى لا تبلى جِدته عن المؤرخين العرب من مصاديق ذلك الشيء الكثير .

كتاب بسط الأرض في الطول والعرض

لاحظنا في كلامنا عن الأجزاء الجغرافية من « فلك الأرب » أن عليّاً ابن سعيد تأثر بالإدريسي تأثراً بعيداً ، وافترضنا أن يكون قد اطلع على نزهة المشتاق أثناء إقامته الطويلة في تونس ، وقلنا إن هذه أول مرة نجد فيها كتاب الإدريسي يدخل في الاستعمال في محيط العلم العربى ، وكان عمادنا في ذلك كله على ما ورد من الاشارات فيما نقله المقرئ من كلام ابن سعيد عن الأندلس . ولكن البرهان الأكبر على اعتماد ابن سعيد على الشريف الإدريسي في مادته الجغرافية هو كتابه المسمى ببسط الأرض في الطول والعرض الذى يسمى أيضاً بكتاب « جغرافيا في الأقاليم السبعة » .

وهذا الكتاب مشكلة حقيقية من مشاكل تاريخ العلم الجغرافى عند العرب ، لا بسبب اختلاف اسمه بين مخطوطة وأخرى أو بسبب المفارقات الجسيمة بين

نصوص هذه المخطوطات ، بل في نسبة الكتاب إلى علي بن سعيد إطلاقاً : فإن العارف بابن سعيد وأسلوبه الأدبي وطريقته في التفكير يشعر لأول ما يقرأ شيئاً من « بسط الأرض » أنه لا يمكن أن يكون لهذا الأديب المتأنيق المولع بالزينة اللفظية والسجع الأنيق على أسلوب أهل عصره ، فمن هنا أمام كتاب علمي خالص لا يحرص صاحبه إلا على إبراز الحقيقة العلمية ولو أدى الأمر إلى ركافة الأسلوب أو عاميته ، كقوله في الكلام عن نيل مقدشو والمراد به النيل الأزرق : « . . . وهو معوجاً ومستقيماً (كذا في النص المطبوع) ويخرج منه من الأنهار ما تصير به تلك الجهة كالديار المصرية في الشكر والموز وكاهند في المقل والتارجيل والقول ، فيه يسقى ذلك وغيره ، وهم يزرعون عليه وعلى المطر ، ويصب بالقرب من مقدشو في شرقها ، ويكون طوله نحو ٢٠٠٠ ميل^(١) » وأمثال ذلك كثير في الكتاب ، والفرق عظيم جداً بين هذا الأسلوب وأسلوب ابن سعيد في المغرب أو في مقدمته أو أسلوبه في « رايات المبرزين » أو « الفصول الياضة » وما إلى ذلك من كتبه الأخرى .

ثم ما الذي جعل ابن سعيد يؤلف هذا الكتاب الجغرافي الصرف الذي لا يصدر إلا عن منقطع لهذا الفن ؟ حقيقة أن معظم من مررنا بهم من الجغرافيين كانت لهم مجالات علمية أخرى ، وكان اشتغالهم بالجغرافية ارضاء لتطلع نبيل إلى المعرفة وتحقيقاً لرغبة كريمة في الإضافة إلى تراث البشر العلمي ولكننا نجد في حياتهم ونشاطهم ما يفسر لنا انصرافهم إلى الجغرافية والتأليف فيها . ونلاحظ في معظم الأحيان أن دافعهم إلى ذلك الانصراف كان الرغبة في استكمال عملهم الرئيسي من تاريخ أو أدب أو فقه وما إلى ذلك ، فالرازي مؤرخ كتب في جغرافية الأندلس مدخلاً لتاريخه على مذهبهم ، والعذري كان فقيهاً محدثاً ولكن وجوده في المرية ووفرة المعلومات الجغرافية من حوله

(١) كتاب بسط الأرض في الطول والعرض بتحقيق خوان إيرليت خيلس Juan Vernet Jines ، نشره معهد مولاى الحسن بطوان المغرب سنة ١٩٥٨ م ص ١٤

تَبَّهَ ملكته العلمية إلى هذا الفن ، فطلب ما وجد من الأصول والمراجع ، وأعانَه الحظ فوجد بين يديه شيئاً من سجلات الخلافة القرطبية فنقل منها ما تيسر ، ثم إنه كان ذا ميل إلى التاريخ والتأليف فيه ، وكان من العسير الفصل بين الجغرافية والتاريخ في تلك العصور ؛ والبكرى أخذ هذا النزوع إلى الجغرافية عن شيخه العذرى وعن ولعه بتحقيق الشعر القديم وما فيه من أسماء المواضع ، وهكذا الحال مع كل من اشتغل بالجغرافية من أحصيناه في هذا التأليف . ولو أن مساهمة ابن سعيد في الجغرافية اقتصرَت على كلامه عن الأندلس لما كان في الأمر إشكال ، فهذه مقدمة جغرافية لكتاب في أدب الأندلس وتاريخه ، ولكننا أمام كتاب جغرافي صرف لا يشبه في شيء تأليف ابن سعيد الأخرى ، ولا نجد لهذا الكتاب فاتحة طويلة أو قصيرة تفسر لنا السبب في تأليفه إياه ، فاعل أحداً من الناس طلب إليه أن يعمل ، ولا نجد كذلك عند أحد من مؤلفينا أى إشارة تنير لنا هذا الموضوع ، حتى أبو الفدا ، عماد الدين اسماعيل بن محمد بن عمر ، وهو أكبر من انتفع به — ونقده في نفس الوقت — من القدماء ، لم يشر إلى شيء من ذلك .

أمام هذا الغموض يبدو لنا أنه ليس من المستبعد أن يكون اهتمام على ابن سعيد بالتأليف في الجغرافية على هذا النحو أثراً من آثار صداقته لأبي الفضل أحمد بن يوسف التيفاشي الذي يمكن أن يوصف بأنه كان طليعة الموسوعيين العرب على الطريقة المنهجية التي ستجلى في صور أوضح عند أبي فضل الله العمري والقلقشندي والنويري .

ومع أن معلوماتنا عن التيفاشي قليلة جداً إلا أننا نستطيع القول بأنه كان طليعة مدرسة الموسوعيين المنهجيين الذين ذكرناهم ، فقد عاش ودرس وكتب الكتب في النصف الأول من القرن السابع الهجري وتوفي سنة ١٢٥٣/٦٥١^(١) ،

(١) انظر : بروكلمان ، ٦٥٢/١ ، وملحق ٩٠٤/١

فهو سابق على النويري أقدم الموسوعيين الكبار بنحو قرن من الزمان ، فقد توفي النويري سنة ٧٣٢/١٣٣٢ ، وسابق على العمري (توفي ٧٤٨/١٣٤٨) بمثل هذه المدة تقريباً ومتقدماً عن القلقشندي (توفي ٨٢١/١٤١٨) بقرابة القرن والنصف ، وقد كان التيفاشي مثلهم رجل كتابة ودواوين ، وهذا كان حافزه إلى تصنيف كتاب شامل يكون أشبه بالموسوعة التي يرجع إليها رجال الدولة وكتابها من الناحية الديوانية أولاً ثم الثقافية العامة ثانياً ، وقد تبينا الآن أن كل ما ينسب إليه من المؤلفات الصغيرة الحجم مثل «أزهار الأفكار في جواهر الأحجار» الذي يعرف أيضاً باسم «منافع الأحجار» و «مطالع البدور في منازل السرور» (وموضوعه المعادن) و «نزهة الألباب فيما لا يُجد في كتاب» (وموضوعه الأدب) كل هذه وغيرها مما تصح نسبته إليه إنما هي فصول من موسوعة عامة شاملة عنوانها «فصل الخطاب في مدارك الحواس الخمس لأولى الألباب» ، وقد عرفنا ذلك من دراسة ملخص هذه الموسوعة الذي عمله محمد بن مكرم بن منظور المصري (صاحب لسان العرب) في كتاب سماه «بسرور النفس بمدارك الحواس الخمس» تحتفظ دار الكتب المصرية بنسخة منه . وقد كان التيفاشي صديقاً حميماً لعلّ بن سعيد ، فقد كان هذا ينزل عليه إذا وفد على تونس ، وكان حريصاً على مديحه والاشادة بفضله في تأليفه ، فقال عنه مثلاً في «الرايات» (ص ١٠٩ من طبعة غرسية غومس) : المولى الفاضل العالم الحسيب شرف الدين أبو الفضل أحمد بن الرئيس الحسين القاضي أبي يعقوب يوسف بن أحمد التيفاشي ، من بيت علم شهير وشرف يحل عن الوصف . كان أحمد كاتب الملك ، فقصد المعتز بن الزند^(١) . وذكر الحماد في

(١) كذا في الأصل المطبوع ، وصحتها المعتز ابن الرند ، وكان بنو الرند كما ذكر ابن خلدون في تاريخه لمن افرد بأمر مدينة قصبة (١٦٦/٦) أصحاب دولة صغيرة قصيرة العمر في قفصة ، وكية المعتز هذا أبو عمر وهو ابن عبد الله بن محمد بن الرند مؤسس إمارة بني الرند ، وقد بدأت إمارة أبي عمر المعتز هذا في سنة ٤٦٥/١٠٧٢ . ومن المرجح أن يكون قد حكم إلى سنة ٥٠٠/١١٠٦ تقريباً ، والمقصود في هذه الفقرة هو أحمد التيفاشي جد شرف الدين أبي الفضل أحمد التيفاشي الذي نتحدث عنه .

« الخريدة » ابنه يحيى ومحمداً ، وأخبرنا أن محمداً لما أنشد عبد المؤمن بداية قصيدة مدحه بها وهي :

ما هنر عطفه بين البيض والأسل مثل الخليفة عبد المؤمن بن علي
أشار له بأن يقتصر على هذا البيت وأمر له بألف دينار . ويحيى ومحمد
هذان لابد أنهما كانا عتّى أبي الفضل التيفاشي وقد قتل واحد منهما في صقلية
هو يحيى كما ذكرنا في حديثنا عن الإدريسي . والشاهد من كلام علي بن سعيد
أن بيت التيفاشي كانوا — كبيت بني سعيد — أهل علم وأدب وفضل ورياسة
وصلات بعيدة بالبيوت الحاكمة ، وربما كان هذا هو الذي جعل علياً بن سعيد
ينزل على صاحبه أبي الفضل أحمد التيفاشي ويصطفيه من دون ابن عمه أبي
عبد الله محمد بن أبي الحسين الذي كان من أهل الدولة والصدارة في بلاط
الحفصيين (توفي سنة ٦٧١/١٢٧٢ — ١٢٧٣) ، وكان هذا أولى باستضافة
علي بن سعيد وتقديمه والرفع من شأنه ، ولكنه كما يبدو من كلام ابن سعيد
نفسه خشي منافسته وخشى أن يظهر عليه ، مما عجّل برحيله عن تونس عندما
وفد عليها أول مرة^(١) .

المهم لدينا أن صحبة ابن سعيد لأبي الفضل التيفاشي تنير لنا هذه المشكلة
بعض الشيء وتكشف الستار — إلى حد ما — عن الدافع الذي جعله ينصرف
إلى الجغرافية برهة من الزمان يكتب فيها هذه الرسالة العلمية الجغرافية الخالصة ،
فقد وجد ابن سعيد نفسه مع رجل موسوعي يجمع المعلومات من كل حذب

(١) هذا واضح من كلام ابن سعيد عن ابن عمه هذا كما رواه المقرئ في النسخ (٤٤/٣) وما بعدها
أما تعظيمه إياه في المادة التي اختصه بها في الرايات (رقم ٨٨ ص ٦٤) فربحه إلى الكياسة وبعد
النظر ، فقد كتب ابن سعيد هذا الكتاب وهو بمصر وأمله معلق بالعودة إلى تونس فكان حرياً بأن
يؤمن طريق العودة ، ومع ذلك فقد ختم عبارات مديحه له بقوله : « يقر له بالفضل من لا يوده » ،
ويقضى له بالسعد من لا يردده » . (قرأها غرسبة غومس : من لا ينجم ، والصواب ما أثبتناه وهو تعبير
مشهور) وهذه العبارة فيها ما يشتم منه عدم ارتياح ابن سعيد إلى ابن عمه هذا في أعماق قلبه .

وصوب. ويكتب فصلا عن المعادن وآخر عن الأحجار الكريمة وثالثا عن الصحة ورابعا عن الأدب ، ولما كان هو — أى ابن سعيد — رحالة ذا نظر فى أحوال الأرض وما عليها مُعَرِّىً بالسياحة وجوب الآفاق وركوب السبل ، فقد كان بطبعه ميالا إلى جمع المعلومات عن البلاد والعباد كما يقولون ، ثم أتاحت له فرصة العثور على نسخة من كتاب نزهة المشتاق فى تونس فاستهوته وأكب على دراستها . وهذا ليس مجرد فرض بل هو حقيقة يؤكدها كتاب « بسط الأرض » وما سيكتبه ابن سعيد بعد ذلك عن جغرافية الأندلس وهو فى المشرق ، ولا يبعد أن يكون أول ما قصد إليه اختصار « نزهة المشتاق » فى رسالة صغيرة كهذه التى كان يؤلفها صاحبه التيفاشى عن الأحجار أو المعادن أو الطب ، ثم وصلت إلى يده مراجع أخرى زادت تطلعا إلى هذا العمل ، فلم يلبث أن عكف عليه فكانت النتيجة هذا الكتاب المسمى « بسط الأرض فى الطول والعرض » .

وهذا الكلام لا يحل المشكلة حلا نستطيع الاطمئنان إليه تماما ، فلا زالت نسبة هذا الكتاب إلى على بن سعيد قلقة تحتاج إلى ما يثبتها ويؤكدها ، لأن النص نفسه بعيد عن أن يكون لابن سعيد كما نعرفه من طريقة تفكيره وأسلوبه فى التأليف .

فإذا تركنا موضوع هذه النسبة جانبا وتركناها على ما يجمع الناس عليه من أن الكتاب لابن سعيد وجدنا أنفسنا أمام كتاب يعتبر من أحسن ما ألف العرب فى الجغرافية ، ومن حسن الحظ أن عالما إسبانيا راسخ القدم فى تاريخ العلوم عند العرب وهو الدكتور خوان بيرنيت خينس الأستاذ بجامعة برشلونة قد عنى بتحقيقه ونشره ، وتولى معهد مولاي الحسن فى تطوان طبعه فى سنة ١٩٥٨ ، وعلى هذه الطبعة التى لا تضم إلا النص^(١) نعتمد فى دراستنا تلك وأملنا أن

(١) نشر الأستاذ خوان بيرنيت النص وحده دون أى تعليق أو بحث أو دراسة ، وقال فى مقدمته أنه سيصدر جزءا ثانياً يتضمن الدراسة والتعليق وترجمة إسبانية مع الفهارس .

يصدر الأستاذ خوانس بيرنيت مجلده الثاني الذى وعد به فى المقدمة حاوياً للدراسة والتعليقات والفهارس .

الكتاب يمكن وصفه بأنه جدول بالمدن والجبال والأنهار والبحار وغيرها من الأعلام الجغرافية موقّعة على أطوالها وعروضها فى دقة لم يحاولها أحد من الجغرافيين قبل ابن سعيد ، والأطوال مقدّرة بالنسبة لخط طول فرضى رئيسى يمر بالجزائر الخالدات ، أما العروض فمقدّرة بالنسبة لخط الاستواء . وهو يقسم المعمور من الأرض إلى أقاليم كالاحزمة العريضة تحيط بكرتها ، وعددها عنده تسعة : واحد جنوبى خط الاستواء وسبعة مسكونة شماله يليها إقليم ثامن شمال خط الاستواء لا يسكن لشدة برده ، ثم يقسم كلا من هذه الأقاليم إلى عشرة أجزاء بادئاً من جزائر الخالدات ومنتهياً إلى جزائر اليابان التى يسميها جزائر السّيل . وهذا المعمور يحتل عنده ١٨٠ درجة طولية أى نصف محيط الأرض ، والباقي عنده محيط واسع يمتد من جزائر الخالدات إلى ساحل الصين .

واليك كلامه بنصه فهو أكثر دلالة على طبيعة الكتاب من هذا التفسير : « الأرض ككروية محيط بها المساء ، ها ^(١) [واقفان بالمركز فى قلب الافلاك] ^(٢) ودورُها ٣٦٠ درجة ، وكل درجة ونصف ١٠٠ ^(٣) ميل ، والميل ٤٠٠٠ ^(٤) ذراع .

(١) أى الأرض والماء الذى يحيط بها . والتصور هنا أن الأرض وما يحيط بها من الماء كالمح و ما يحيط به من زلال البيض أو كأنها كرة فى طبق ماء ، وهما معاً سابجان فى الفضاء فى مركز الفلك ، وهذه هى نظرية من قالوا بكروية الأرض من جغرافي العرب من ابن رسته إلى الادريسي كما بيناه فيما سبق .

(٢) اعتمد الناشر مخطوطة بارس أساساً ، وأكملها وتارنها بالقطعتين المحفوظتين بالمتحف البريطانى والمكتبة البودلية فى أوكسفورد . والأقواس تعين الفقرات المضافة من القطعتين الأخيرتين . (٣) الدرجة الطولية على هذا الأساس ٦٦ ٢/٣ ميلاً . وغير ابن سعيد يرى أن اتساع الدرجة ٧٥ ميلاً .

(٤) تقدير الميل هنا بأربعة آلاف ذراع يفهم منه أن ابن سعيد يقدر الميل بنحو ٢ كيلومتر ، وهو طوله فى المتوسط .

« والمعمور منها طوله من الجزائر الخالدات التي بالبحر المحيط بالمغرب إلى جزائر السيلي [التي] في البحر المحيط بالشرق ١٨٠ درجة .
 « والظاهر منها مضرس لاستقرار البحار وسلوك الأنهار .
 « وعرض المعمور من أقصاه في الجنوب إلى أقصاه في الشمال ٨٠ درجة .
 [وما بعد ذلك في الجنوب لا يُسكن لقوة حر الشمس في الحضيض الذي لها هناك ، وما بعده في الشمال لا يسكن لقوة البرد والجمد] .
 « ومجموع المعمور مقسوم على تسعة أقسام : المعمور خلف خط الاستواء إلى الجنوب [واحد]^(١) ، والسبعة الأقاليم على التدرج من الخط^(٢) . ثم يكون القسم التاسع المعمور ما بعدها إلى أقصى العمار ، وفي التعليل تطويل » .
 ثم يلي ذلك الكلام بالتفصيل عن الأقاليم واحداً واحداً بادئاً بالإقليم المعمور خلف خط الاستواء ، وهو يقسمه — وكلا من الأقاليم التالية — إلى عشرة أجزاء تبدأ من خط الطول الوهمي المار بجزر الخالدات وتنتهي عند المحيط الأعظم شرقى بلاد الصين .

وهذا التصور وذلك التقسيم هما تصور الإدريسي وتقسيمه ، وحدود الأقاليم وأجزاؤها عندها متطابقة ، ومن هنا جاء القطع بأن ابن سعيد اعتمد على الإدريسي اعتماداً رئيسياً ، ولكنه خالفه بعد ذلك في كثير ، فهو لم يختصر « نزهة المشتاق » كما كان يظن ، بل أخذ هيكله العام ومنهجه في التقسيم ومفهومه للجغرافية ولهيئة الأرض ووضعها بالنسبة لنظام الأفلاك ، ثم أنشأ كتابه المختصر على أساس ذلك كله ، فنقل عن الإدريسي كثيراً جداً ولكنه نقل من غيره كثيراً جداً أيضاً ، وهذه النقول التي أضافها من غير الإدريسي تزيد

(١) هذا اللفظ ساقط من الأصول جميعاً ، ولكن المعنى لا يفهم بدونه .

(٢) المراد خط الاستواء .

في قيمة كتاب « بسط الأرض » كمصدر فريد لمعلومات ذات قيمة كبرى — وخاصة فيما يتصل بأفريقية — لأننا لم نعثر إلى الآن على بعض المراجع الهامة التي نقل عنها .

وقبل أن نعرض لهذه المراجع نستوفى الكلام عن نظام التقسيم إلى أقاليم عرضية وأجزائها ، ثم تقسيم هذه الأقاليم إلى درجات عرضية ، وتقسيم تلك الأجزاء إلى أطوال تحدد بالدرجات الطولية والدقائق .

هذا التقسيم كله يرجع — فيما يبدو لنا — إلى التضمنين المختصر الذي عمله الخوارزمي لجغرافية بطليموس مع تعديل مادته وتوسيعها فيما يتصل بالبلاد الإسلامية وهو المعروف باسم « كتاب صورة الأرض » الذي سبق أن تكلمنا عنه . ويكاد أن يكون من المحقق أن ابن سعيد نظر وهو يكتب بعض أقسام « بسط الأرض » إلى الخرائط التي رسمها الخوارزمي ثم أورد في كتابه قوائم بالاعلام الجغرافية الواردة في هذه الخرائط ، وقد بقيت لنا من هذه الخرائط أربع فقط ، واحدة ذائعة الصيت لنهر النيل ، وهي من مفاخر علم الخرائط العربية ، لأن النيل يبدو فيها قريباً إلى حد بعيد من رسمه على أيامنا ، فإذا قرأنا وصف ابن سعيد لمنابع النيل ومجاري هذه المنابع ونظرنا في نفس الوقت إلى خريطة الخوارزمي انتفى لدينا أى شك في أننا نقرأ وصفاً لهذه الخريطة ، فنقط الخلاف يسيرة يمكن ردها إلى خلاف في نقل النساخ المختلفين للخريطة نفسها ، وهذه الخريطة واردة ضمن ما ألحقناه بهذا البحث من رسوم وخرائط ، وإليك نص ابن سعيد لتقوم بالمطابقة ، ولتلاحظ أن التوافق يشمل أيضاً تحديد خطوط العرض وقد احتفظت بها الخريطة الخوارزمية .

الجزء الثالث [من الإقليم الأول المعمور خلف خط الاستواء إلى الجنوب] .

من أوله حيث الطول ٣٦ درجة [ودقائق إلى طول ٣٩ درجة] و ٢٠

دقيقة^(١) والعرض ١٦ درجة^(٢) ينابيع^(٣) أنهار النيل [الأربعة]^(٤) التي هي بعد الجزء الخامس^(٥) المتقدم الذكر [في آخر الجزء الثاني] ، وهي نابغة في بسيط . والخمسة^(٦) الأخر ينابيعها أيضاً في الجزء الثالث ، إلا أنها من^(٧) جبل القمر حيث الطول ٤٨ [درجة] إلى ٥٢ درجة و ٥ دقائق ، والعرض في [هذه] الينابيع [العشر لا يفارق] ١٦ درجة .
فالخمس الأنهار الأولى تصب في البطيحة^(٨) الغربية [الأولى وسركرها]^(٩) حيث الطول ٤٢ درجة والعرض ٧ درجة والقطر ٥ درجات .

(١) درجات الطول ودقائقها هنا محسوبة بالنسبة لخط الطول الرومي المار بجزائر السعادات اتباعاً لبطليموس ، ويقول ياقوت (معجم البلدان ٣٩/١) أنها تقع على ٢٠٠ درسخ من شاطئ المغرب والفرسخ ٣ أميال والميل ٢ ك.م . وإذن فبعد هذه الجزائر عن شاطئ إفريقية ١٢٠٠ ك.م . فإذا كان عرض الدرجة ٧٥ ميلاً أي ١٥٠ ك.م . كان بعد هذه الجزائر عن الشاطئ ٨ درجات ، ولكن ابن سعيد يقول في ص ٤٥ أن عرض الجزء الأول من الأقليم الأول ١٠ درجات ، وهذا على حسابه هو بعد هذه الجزائر عن الشاطئ بالدرجات ، ومن هنا نستنتج أن تقديرهم لبعد هذه الجزائر غير دقيق ، وقد سبق أن افترضنا أن المراد بهذه الجزائر (الخالدات) جزائر الأزورس ، وأن جزائر الكنارياس هي المسماة بالسعادات ، ودليل ذلك أن ابن سعيد يقول في كلامه عن الجزء الأول من الأقليم الثاني : (ص ٤٥) : الجزء الأول من الأقليم الثاني : تقع فيه الجزيرة السادسة من الجزائر الخالدات وأربع من جزائر السعادات . وينتهي صعود البحر المحيط فيه مشرقاً حيث الطول ١٠ درجات

(٢) الدرجة كما يقول ياقوت ٦٠ دقيقة ، فإذا كان عرض الدرجة ٧٥ ميلاً ، كان عرض الدقيقة ١,٢٥ ميلاً أي ٢,٥ ك.م . والدرجات المقصودة هنا عرضية واتساعها هو نفس اتساع الدرجات الطولية (٧٥ ميلاً عربياً أي ١٥٠ ك.م .) واتساع هذا الأقليم عندهم ١٦ درجة أي ٢٤٠٠ ك.م . وهو أعرض الأقاليم ، أما الأقاليم شمال خط الاستواء فتضيق شيئاً فشيئاً إذا اتجهنا شمالاً ، فعرض الأقليم الأول نحو ٤٠٠ ميل و عرض السابع نحو ١٥٠ ميل . انظر بيان ذلك عند ياقوت ٢٧/١ وما يليها .

(٣) يريد منابع الأنهار الصغيرة التي يتكون منها نهر النيل .
(٤) هكذا ، وهو يقول بعد ذلك أن عدد النهرات التي تصب في كل بطيحة خمسة ، وفي نهاية الفقرة يقول أن النهرين الثاني والثالث عن كل من المجموعتين يصيران نهراً واحداً ، فكأن القول بأنها أربعة صواب وكذلك القول بأنها خمسة ، وفي خريطة الخوارزمي عددها أربعة .

(٥) لا أدري ما المراد بالجزء الخامس هنا ، فلم يسبق له ذكر .

(٦) هنا يعود فيقول إن عدد النهرات ٥

(٧) يريد : إلا أنها تنبع من جبال القمر .

(٨) المراد بالبطيحة هما البحيرة .

(٩) أي أن مراكزها تقع عند التقاء خط طول ٤٢ بخط عرض ٧

« والبطيحة الشرقية [الثانية] بينها وبين الأولى درجتان ، و [المركز في] العرض واحد ، وكذلك القطر » .

« ويخرج من كل بطيحة كما يدخل إليها خمسة أنهار من الجانب الشمالى ، [إلا أن الثانى والثالث من البطيحتين يصيران نهراً واحداً عن قريب ، ويصب الجميع فى البطيحة الكبرى التى تركز فى الاقليم الأول] » .

« [وفى هذا الجزء الثالث من إقليم السودان^(١) رفة] وهى بين النهرين الأولين [بينها وبين البطيحة درجة ، وكوشة على عيون تمتد [آخر الأنهار] من البطيحة الثانية حيث الطول ٥٣ والعرض درجتان ، وتحتها يمر نيل مقدشو الخارج [فى شمال الخط ومجالات القمر بين البطيحتين ، ومجالات أكراو فى شمالها إلى بحيرة كوار^(٢)] »^(٣) .

ولنصف إلى ذلك أن تقديرات الطول والعرض عند ابن سعيد ومحمد بن موسى الخوارزمى تتطابق إلا فى حالات خطأ النساخ فى رسم الرموز التى استعملها هذا الأخير مكان الأرقام ، وهذا يدل بوضوح على أن علياً بن سعيد اعتمد على هذا الكتاب اعتماداً أساسياً فى عديده لعروض البلدان والأماكن وأطوالها على النحو الدقيق الذى نجده عنده ، فإذا ذكرنا أن الخوارزمى فى كلامه عن الأقاليم لا يورد لها أوصافاً مفصلة وإنما يورد جداول بما فيها من المدن والجبال والأنهار والبحار مع طول كل منها وعرضه تبين أن ما فعله ابن سعيد هو أنه بدأ أولاً برسم خطوط الطول والعرض ودرجات كل منها ودقاتها على صحيفة كبيرة ، ثم مضى يقرأ قوائم الخوارزمى موقعاً كل مدينة أو جبل أو

(١) جميع الأسماء هنا غير محققة ، وقد نقلها أبو الفدا (س ١٥١ وما بعدها) كما هى عن ابن سعيد ، ولم يستطع تحقيقها ناشراً النص .

(٢) يبدو أن المراد بهذا بحيرة الرت ، ورسمها أبو الفدا كورى .

(٣) ابن سعيد ، بسط الأرض ، س ١٢ — ١٣

نهر أو بحيرة في موضعها من الطول والعرض على الصحيحه ، وهكذا أصبحت أمامه خريطة هندسية للعالم .

ثم عاد فقسم الأقاليم إلى أجزائها متبعاً في ذلك الإدريسي ، ونهج نهج هذا بعد ذلك في الوصف المفصل لكل جزء من أجزاء الأقاليم ، فإذا وجد خلافاً بين ما يقوله الخوارزمي والإدريسي أشار إلى ذلك ، فيما عدا كلامه عن البلاد الأفريقية جنوبى خط الاستواء والاقليمين الأول والثاني شماله فقد فضل ابن سعيد الاعتماد في ذلك على الرحالة الجغرافى ابن فاطمة .

ومن ذلك قوله في الكلام على الجزء الرابع من الاقليم المعمور خلف خط الاستواء : « فيه انتهى جبل القمر على مذهب البطليموس ، حيث الطول ٥١ درجة و ٥٠ دقيقة والعرض ١١ درجة ، وجعله البيهقي وابن فاطمة يتصل من هنالك [بال] جبل الممتد مع أول العمارة إلى جبل الندامة^(١) . . . » والمراد بقول ابن سعيد : على « مذهب البطليموس » هو تضمين الخوارزمي هذا دون غيره من الصور العربية الأخرى التى عملها العرب لكتاب جغرافياً لذلك الجغرافى اليونانى المصرى الأشهر .

فلم يكن عمل على بن سعيد عملاً بسيطاً إذن . إنما كان عملاً دقيقاً معقداً يحتاج إلى فهم وإحساس جغرافيين ، ثم إلى دقة وصبر على متاعب مثل هذا العمل ، وبغير هذا ما كان من الممكن أن يخرج لنا هذه القطعة الممتازة من العمل العلمى الجغرافى التى يُعجب الإنسان لما فيها من تحقيقات وتدقيقات ويُعجب بالملكة العلمية التى دفعت إلى القيام بها .

ولم يقتصر على بن سعيد على الخوارزمي والإدريسي ، بل اطلع على تكاليف عدد كبير من الجغرافيين وأفاد منها على صورة تدل على معرفة بالمكتبة الجغرافية العربية وحسن اختيار من مادتها وانتفاع طيب بهذا المختار ، وهذه كلها

خصائص تزيد من تقديرنا للجانب الجغرافى من نشاط ذلك العلامة الأندلسى المتعدد الجوانب والملكات .

وأولى مراجع ابن سعيد بالاهتمام هو كتاب رحلة ابن فاطمة الذى يعد — بدلالة ما نقل ابن سعيد عنه — من أحسن أصحاب الكتب من رحالة العرب والمسلمين ، ومن أسف أننا لا نعرف عن هذا الرجل أو كتابه شيئاً على الاطلاق حتى اسمه لا نعرفه إلا منقوصاً . ويكاد ابن سعيد وابن خلدون أن يكونا أكبر من اعتمدوا عليه ونقلوا عنه ، وحكما هنا قائم على هذه النقول . ابن فاطمة فيما يبدو من أهل السودان الغربى ، وربما كان أصله مما يعرف اليوم بالسنگال أو ما يليه جنوباً ، وربما كان من أهل غانة الإسلامية ، وكانت تشمل معظم ما يعرف اليوم بجمهورية مالى على وجه التقريب ، فإن نسبة الناس إلى أسهاتهم كانت شائعة فى هذه النواحي خاصة ، ولدينا أسماء مثل ابن الصحراوية وابن غانئة وابن عائشة وابن قنؤ بنت يوسف ابن تاشفين وكلها شبيهة باسم ابن فاطمة ، ويستدل من الاشارات التاريخية الواردة فى كتابه أنه كان سابقاً على ابن سعيد بقليل أى أنه من أهل القرن السادس الهجرى / الثانى عشر الميلادى فى الأغلب .

ويدل كلام ابن فاطمة على علم دقيق بأحوال افريقية وأهلها مما يلى الحزام الصحراوى جنوباً ، فهو من أهل السودان الغربى أولاً ثم أنه كان رحالة لا يكل ثانياً ، وقد طاف فى رحلاته بالسواحل الافريقية كلها حتى وصل إلى الصومال والحبشة ثم أوغل داخل القارة ورأى منابع النيل ، وكلامه وملاحظاته تدل على ذلك دلالة صريحة ، ولا ينقض هذا رأى أنه يقول إن منابع النيل تتكون من مجموعتين من الأنهار تتألف كل منها من خمسة أو أربعة تصب فى بطيحة (بحيرة) ثم تخرج من كل بطيحة خمسة أنهار أخرى أو أربعة وتتلاقى هذه النهرات كلها فى بحيرة رئيسة تسمى بحيرة كورا ، فإن الوهم فى عدّ مجارى الماء التى يتكون منها نهر النيل فى المنطقة الاستوائية هو أقل ما ينتظر من

رحالة في تلك الأيام مها بلغت قوة ملاحظته ، وقد نقل عنه ابن سعيد هذا القول مراجعاً على خريطة الخوارزمي والمهم أنه تنبه إلى أن منابع النيل تتألف من مجموعتين من مجارى الماء تتلاقيان آخر الأمر في بحيرة رئيسة يخرج النهر منها بعد ذلك ويسير في مجرى واحد ، وهذه البحيرة على ذلك تقابل بحيرة ألبرت . وهذا المفهوم ل منابع النيل يرجع أساساً إلى بطليموس كما قلنا ، وهو يصور معلومات المصريين القدماء عن النهر العظيم ، وهي معلومات معقولة إلى حد كبير ، اكتشفها المصرى القديم المغامر المتطلع في عصور الشباب والمغامرة والطموح من تاريخه واثبتها الجغرافى الاسكندراني بطليموس ، ثم جردها الافريقى العربى ابن فاطمة الذى عاش في عصر النهضة الافريقية الغربية الأولى وقيام مملكة غانة الأولى التى قضى عليها سون — ديانا ملك مالى سنة ١٢٤٠^(١) والطريف أن ابن سعيد لاحظ أن ابن فاطمة يكمل عمل بطليموس فيما يتصل بافريقية فيقول في كلامه عن الجزء الرابع من الاقليم الأول وراء خط الاستواء : « فيه انتهى جبل القمر [على مذهب البطليموس] حيث الطول ٥١ درجة و ٥٠ دقيقة والعرض ١١ درجة [وجعله البيهقي وابن فاطمة يتصل من هنالك بالجبل الممتد مع أول العمارة إلى جبل الندامة ، فيرجع من الحد الذى وقف عنده بطليموس بانحراف إلى العرض الذى بدأ منه ، ويعمر ويجاوز الرابع (يريد الجزء) مستقيماً مع أول العمارة ، ثم الجزء الخامس... »^(٢) .

وقد عرف ابن سعيد قيمة نص ابن فاطمة فقبس منه فقرات طوالا هي معظم ما يذكره عن الاقليم الاول المصور جنوب خط الاستواء والاقليم الاول شماله في أجزائها الستة الاولى ، أى أجزائها الخاصة بافريقية ، فإذا ذكرنا أن أقدم معلوماتنا الجديرة بالثقة عن هذه النواحي ترجع إلى أبى عبيد البكرى

(١) Vincent Monteil, *L'Islam Noir* (Paris, 1964), pp. 58-62

(٢) ابن سعيد ، بسط الأرض ، ١٣

(القرن الخامس/الحادى عشر) ثم يكملها الإدريسي (القرن السادس/الثانى عشر) ثم ابن فاطمة (النصف الثانى من نفس القرن) برواية ابن سعيد (النصف الاول من القرن السابع/الثالث عشر) ثم ابن خلدون (القرن التاسع/الخامس عشر) تبيننا أن أربعة من هؤلاء مؤرخون وجغرافيون أندلسيون أو من أصول أندلسية ، وأهم تعاونوا على اختلاف العصور التى عاشوا فيها وتباين البلاد التى كتبوا فيها على أن يقدموا سلسلة معقولة مترابطة من المعلومات الجغرافية والتاريخية عن بلاد كان مجرد دخول الغريب إليها مغامرة لا تؤمن عواقبها ، فكيف بجمع المعلومات والربط بينها وسياقها ذلك المساق اللطيف الذى نجد نماذج ممتازة منه فيما نقل ابن سعيد عن ابن فاطمة فى الأجزاء التى ذكرناها ؟

وسنكتفى هنا بمثال واحد مما نقله ابن سعيد عن ابن فاطمة فى وصف جزء من الصحراء الكبرى يذهب كتاب الغرب إلى أن رجالهم هم كانوا أول من اكتشفه وعرف الناس به تعريفاً علمياً مقبولا ، وهو ذلك الجزء المجهول من الصحراء الكبرى الذى يمتد من جنوبى جمهورية الجزائر عند مرتفعات آهَجَّار ويتصل شرقاً بهضبة جادو ثم جبال تَبَسْتِي ويستمر فيطل على حوض النيل عند مرتفعات دار فور :

« الجزء الثانى من الاقليم الثانى : قال ابن فاطمة فى وصفه : « لا ماء ولا سرعى ولا عمارة بل رمال سائلة وطرق مضلة طامسة . وأكثر ما يكون فيه اللمط^(١) لأنه صابر على العطش وهو على شبه الغزال لكنه أغلظ منه » .

« وأول ما تلقاك من هذا الجزء شجر اليسر^(٢) (التى تقطعها المسافرون) ما بين سجلماصة وغانة (وهى) طويلة عريضة يكابدون فيها شدة العطش ووهج

(١) اللمط نوع من الوعول سميك الجلد يعيش فى منطقة السهوب فى حوض النيجر الأوسط ، وكانت تصنع من جلده دروع تعرف بالدروع اللمطية .
(٢) كذا فى الأصل المطبوع ولم أستطع التحقق من صحته ، وربما كانت صحته : صحراء تيرى الواقعة بين مرتفعات آهجار وهضبة جادو .

الحرور بما هبت فيها ريح جنوبية تنشف المياه التي في القرب . فهم يعدون لها المياه التي في بطون الابل ويجعلون على أفواهها [كأثم] ليلا تأكل شيئاً فإذا نشف الريح مياههم نحروا جملاً جملاً وشربوا ما في بطنه .

وليس في هذا الجزء مدينة مذكورة غير مدينة أودغشت يسكنها أخلاط من (البرابر المسلمين والرياسة لصنهاجه) (ولهذه المدينة وصاحبها نهاية) كما ورد^(١) في كتاب المسالك والممالك للبكري . وهي مع خط الاقليم الثاني حيث الطول ٢٢ درجة (وفي عرضها مدينة) زافون (وهي) لسودان كفار ولصاحبها صيت بين ملوك السودان^(٢) .

ويمتد في هذا الصحراء جبل الكاف^(٣) من شرق جبل لمبونة^(٤) إلى أن يسامت أودغشت ثم يهرج إلى الجنوب فيبقى بينه وبين زافون ٥ مراحل وبه يهتدون في تلك الصحارى إلا أنهم لا يقربونه في تعريس^(٥) لكثرة ثعابينه وفي ظهره الشمال^(٦) جبل مزاب وهو عال وعمر يعتصم به أهل واركلان إذ دهمهم جور من ذى سلطان وبينهما ٤ أيام .

ولا تقل هذه الدقة في كلام ابن سعيد عندما يترك المناطق التي وجد عنها مادة طيبة عن ابن فاطمة فطلب مادة طيبة أخرى في مصادر أخرى ، ويلاحظ هذا ابتداء من وصف الجزء الرابع من الاقليم الثاني (ص ٤٩ وما بعدها) . فان معتمده هنا على الإدريسي بصورة رئيسية مع إضافات من ابن حوقل في الغالب ، ولكنه ينظر دائماً إلى خرائط كتاب الخوارزمي ويتابع تحديد الأماكن مستعيناً بها وبخرائط الإدريسي ، ولهذا يقول بين الحين والحين : « على ما

(١) أضفت هذه العبارة للسياق .

(٢) يراد بالسودان هنا كل ما إلى الحزام الصحراوي جنوباً .

(٣) المراد بهذا في الغالب جبال تبستي .

(٤) هضبة جادو ؟

(٥) أى عندما يضربون خيامهم .

(٦) أى إلى شمال هذه الجبال في جنوبى المملكة الليبية .

صَوَّرَ في الجغرافيا . ولا يتسع المقام لایراد أمثلة من كلامه عن مصر والشام والعراق وما يليه شرقاً فهو حافل بالتقول عن معظم من نعرف من أصحاب كتب المسالك والممالك ، ومن اليسر أن نقبين آثار هؤلاء فيما كتب .

ولكننا سنقف وقفة قصيرة عند جزء مما كتب عن الأندلس ، لأنه يتضمن مشكلة لها أمثلة كثيرة في كتابات الكثيرين من جغرافيينا ، وهي التناقض الواضح بين ما يكتبونه عن الاقليم الواحد في كتابين من كتبهم ، وهو أمر لوحظ عند المسعودي في كتابيه « مروج الذهب » و « التنبيه والإشراف » ، وسبب ذلك التناقض في المادة عن الموضوع الواحد أن الكتاب من هؤلاء كان يكتب كتاباً معتمداً على مراجع ومصادر معينة ، ثم يمضي الزمان وينسى ما كتب لقلة المراجعة ، فإذا كتب كتاباً آخر تعرض فيه لنفس الاقليم رجع إلى ما تيسر له من المراجع في ذلك الوقت ، فأثبت أشياء أخرى ، وعذرهم في ذلك مقبول ، فقد كان يحدث أن يكتب الواحد منهم كتاباً في العراق وآخر في مصر ، وأين له وهو في هذا البلد أن يحصل على المراجع التي اعتمد عليها وهو في العراق ؟ وعلى ابن سعيد مثال حي لذلك ، فإن كتابه المغرب وُلد وأُنعى كما رأينا في الأندلس قرب غرناطة ، في قلعة يحصب ، ثم كتبت أجزاء منه على طول رحلات ذلك السفار الذي لا يهدأ من تونس إلى حلب . وهنا نقطة جديرة بأن تدخل في الحساب ونحن ندرس أولئك العلماء وأعمالهم ، فإن الكثيرين من الباحثين يدرسونهم في إطار من ظروفنا الراهنة وما فيها من تيسيرات : إذا حاجنا كتاب لا تحويه مكتبتنا ألتمسناه في المكتبات العامة وما أكثرها ، فإذا لم نجده طلبناه بالبريد من ناشره أو مؤلفه ، وإذا احتجنا إلى مخطوط حصلنا على صورة منه إذا شئنا ، أما هؤلاء فما أعسر الظروف التي عملوا فيها ! فقلما احتاجوا إلى كتاب فوجدوه في الوقت القريب ، فإذا عثروا عليه كانت نسخة أخرى غير التي أطلعوا عليها أولاً وبين الاثنين بون بعيد ، وقلما أتاحت لهم فرصة العمل في مكاتب أو خزائن كتب فيها

ما يحتاجون من أصول ومراجع ، ورحم الله ياقوت ! ما إن رأى مكتبات مرو حتى ملأ نفسه الطرب كأنه وجد كنوز الدنيا ، وعلى ضوء هذه الكتب الكثيرة نشأت في ذهنه فكرة تأليف معجمه العظيم ، وشرع بالفعل يعمل . كان ذلك سنة ١٢١٥/١٢١٨ ، ولكن ما كاد الحول يدور حتى ترامت إليه أنباء زحف المغول على عالم الإسلام ، فأسرع ناجياً بنفسه إلى الشرق بلداً بلداً حتى دخل الموصل خالي اليد من كل ما ملك ، ثم تداركته عناية الله بالوزير ابن القفطى وزير صاحب حلب ، فأتيحت له فرصة مواصلة ما حالت الاخطار بينه وبين عمله ، فأكب على العمل حتى أتم المعجم في عام ٦٢١/١٢٢٤ ، بعد خمسة أعوام من الشروع فيه ، وذلك رغم الأخطار والأسفار ومصائب الأيام ، ولو طُلب إلى أحدنا اليوم أن يكتب مثل هذا المعجم في عشر سنوات ويُسرت له وسائل العمل أكثر مما هي ميسورة بالفعل ، فأغلب الظن أنه لن يستطيع .

نقول هذا لأننا نلاحظ اختلافاً غريباً بين مادة ابن سعيد عن بلده الأندلس في « المغرب » وفي « بسط الأرض » ، فنحن في الكتاب الاول مع رجل يكتب جغرافية إقليمية وصفية كأحسن ما كتب الناس في هذا الفرع من الجغرافية في العصور الوسطى : معلومات غزيرة قائمة على مشاهدة حينا وعلى اطلاع واسع حينا ، وأحكام عامة تنبئ عن معرفة حقيقية وثيقة وملاحظات ذكية تدل على تفتح ذهن ودقة ملاحظة ، كل ذلك في أسلوب سهل يشوق ويمتّع ، أما في « بسط الارض » فنحن أمام رجل مُقَيّد يفضل ما يقرأ في الكتب التي ينقل عنها على ما يعرفه بتجربته الشخصية ، وناقِل لا يفكر في تحقيق ما ينقل ، فهو يبدأ في الكلام على الأندلس في الجزء الاول من الاقليم الخامس ، ويبدأ عند شاطئه الغربى عند مصب نهر الوادى الكبير ، وهو لا يسميه باسمه بل يقول « نهر اشبيلية وقرطبة » ، ولا نعرف لماذا بدأ عند مصب الوادى الكبير ، لانه ما دام يصف الاقليم مقسمة إلى أجزاء بادئا من أقصى

الغرب فكان ينبغي أن يبدأ الكلام عن الاندلس بذكر الاشبونة أو رأس كنيسة الغراب وما إليها ، ولكنه يبدأ عند مصب الوادى الكبير ثم يسير إلى الغرب في عكس الاتجاه الذى نتظره متابعاً الساحل الجنوبى لشبه الجزيرة فيذكر جزيرة شلطيش ثم مصب نهر يانه (واد يانه) الكبير الذى يمر على ماردة وبطليوس ٩ أميال ، ثم إلى مدينة طيّيرة Tavira ٢٣ ميلا ، وهى على غربى نهر يانه وشماله ، ثم إلى مصب نهر شنتمرية (Faro) ثم إلى مصب نهر شلب ٢٨ ميلا ، ثم إلى جون الريحانة ١٥ ميلا ، ثم إلى طرف العبران (رأس كنيسة الغراب) ٨٠ ميلا . والمسافات كلها غير دقيقة ، وإذا كان من الممكن التسامح في فروق الميلى والثلاثة ، فكيف لم ينتبه ابن سعيد إلى أن المسافة بين جون الريحانة وطرف كنيسة الغراب لا يمكن أن يكون ٨٠ ميلا أى ١٦٠ كيلومترا ؟ إن هذا الجون لابد أن يكون أحد الخلجان الواقعة بين ميناء بورتيماو ورأس سان بيثنى Cabo San Vicente وهى المسى عند الغرب برأس كنيسة الغراب وهو أقصى طرف جنوبى غربى لشبه الجزيرة .

غير أن الذى يستوقف النظر هو دقة ابن سعيد في توقيع المدن والمعالم الجغرافية بالنسبة لخطوط الطول والعرض التى سار عليها ، ولسنا نقاش هنا الاساس الذى اتخذته في تصورها ، فإن خطوط الطول والعرض — أيا كانت — خطوط وهمية رسمها الناس لمجرد تحديد مواضع الاماكن بعضها بالنسبة لبعض ، فسواء أرسمت خطوط الطول بالنسبة لخط مار بالجزائر الخالدات أو بالخط المار بقية أرين أو بالخط المار بجرينتش فإن العبرة الحقيقية إنما هى في سلامة تطبيق هذا الأساس بعد ذلك ، وفي تيسيره لنا معرفة مواقع المواضع بعضها بالنسبة لبعض ، وهنا ، وفيما يتصل بالاندلس بالذات — نجد ابن سعيد قد وفق توفيقاً عظيماً في استعمال خطوط طوله وعرضه بحيث اننا لو أخذنا ورقة ورسمنا فيها تلك الخطوط ثم وقّعنا الاماكن عليها كما حددها هو بالدرجات والدقائق ، ثم قارنا أوضاع هذه المدن بالنسبة بعضها لبعض بأوضاعها على خريطة معاصره لما وجدنا كبير

فرق إلا في حالات قليلة ، وهذه الدقة لا تصدق مع الاسف على المسافات كما ذكرها ابن سعيد مقدرة بالدرجات ودقائقها ، وربما كان مرد ذلك إلى أن الطرق التي كان الناس يسلكونها إذ ذاك للانتقال من مدينة لأخرى كانت تختلف عن الطرق التقليدية المعروفة في شبه الجزيرة .

هذا التوقيع للمدن الاندلسية على خطوط طول وعرض ابتكره علي بن سعيد ابتكاراً ، فإن المدن التي يذكرها بطليموس في شبه الجزيرة قليلة جداً ، والإدريسي لم يحدد مواقع البلاد الاندلسية من الاطوال والعروض ، وإذن فلم يبق إلا أن ابن سعيد عمل ذلك الحساب بنفسه ، وأنه لما يدعو إلى الإعجاب به أنه عرف كيف يقيم التقديرات على هذا المستوى من الدقة وحسن التصور ، ومصدقا لذلك أورد فيما يلي البلاد والاعلام الجغرافية التي ذكرها في الجزء الاول من الاقليم الخامس وهو يمثل ما يقع من شبه الجزيرة بين خطي عرض ٣٧ و ٤٠ والباقي إلى الشمال ذكره في الجزء الاول من الاقليم السادس متابعاً في ذلك التقسيم العام للإدريسي :

الموضع		الطول		العرض	
		دقيقة	درجة	دقيقة	درجة
مصب الوادي الكبير		١٥	٨	٤٥	٣٦
جزيرة شلطي		٢٠	٧	١٢	٣٧
طرف الميراث			٦		
اشبيلية		١٠	٩	٣٠	٣٧
بطلوس			٩	٠٥	٣٨
مساردة			١٠٠ (غير دقائق)		٣٩
قرطبة			١٠	٣٠	٣٨
غرناطة		٤٠	١١	٣٠	٣٧
جيات		٤٠	١١		٣٩ (غير دقائق)
مرسية			١٨	دقائق	٣٩
منبع نهري الوادي الكبير وشقورة			١٥	٤٠	٣٨

وفي أثناء هذا الكلام الموجز يورد ابن سعيد تفصيلات جغرافية وتاريخية ذات قيمة عظيمة ، وبعض هذه التفصيلات مقتبس عن الإدريسي أو ابن حوقل أو البكري ، ولكن بعضه الآخر من معلوماته الخاصة ، وفيما يلي نماذج من هذه المعلومات :

سكان الاقليم الخامس : بياضُ أهله ممتزج بالحمرة ، وفيهم شُقْرَةٌ وزُرْقَةٌ (عيون) في غالب الحال ، ولا سيما فيما يلي (الاقليم) السادس .

حدود الاقليم الخامس : عند آخره من خط الاستواء ٤١ درجة و ٣١ دقيقة ، ووسعه ٥ درجات . (أى أنه يبدأ عند خط عرض ٣١° ٣٦°) . طرف الغراب : ويدخل في البحر من هذا الطرف ٢٢ ميلاً^(١) ، وهو آخر عرض الاقليم الخامس ، والطول هناك ٦ درجات .

النهر الكبير : الذى عليه اشبيلية ، وهذا النهر إنما حُسن جانبيه عند اشبيلية ، ويصعد المد فيه من البحر المحيط ٧٢ ميلاً ، وتصعد مرآكب الفرنج الكبار بوسقتها إلى باب اشبيلية .

جبل سُكْلير وغرناطة : في جنوبى غرناطة لا يفارقه الثلج ، وحكى ابن اليسع أنه ينزل منه نيف على ٢٠ نهراً منها نهر الذهب^(٢) الذى يشق غرناطة ، ونهر شَنْيَل الذى يمر مع سورها ، وكلاهما عليه الأرحاء والبساتين ، وهذه المدينة في عصرنا هي قاعدة ابن الأحمر مَلِكٍ ما بقي من المسلمين بالأندلس .

سرسية ونهرها (شقورة) : وهي (سرسية) على شمالى نهر ملبح عليه النواصر والبساتين ، أخو نهر اشبيلية (الوادى الكبير) منبعهما من جبل شقورة حيث

(١) الأصل المطبوع طرف العران والصواب طرف الغراب ، والمراد كنيسة الغراب وهو يقابل رأس سان بثنى ، وتقدير ابن سعيد لطول هذا الطرف خاطئ ، وربما كانت ٨ أميال لا ٨٠ ميلاً ، فإذا صدق هذا القرض كان التقدير معقولاً ، لأن ٨ أميال تساوى ١٦ ك.م . ، وطول الطرف من قرية Vila de Bispo إلى نهايته نحو ذلك .

(٢) المراد بذلك نهر حداره el Darro ويسمى بذلك لما كان يستخرج من مائه من برادة الذهب الخالص ، ويعرف بالذهب المدنى (الروض المعطار ، ص ٢٤)

الطول ١٥ درجة والعرض ٣٨ درجة و ٤٠ دقيقة ، يخرجان من عين واحدة ، فيشرّق نهر مرسية ويصب في بحر الزقاق ، ويغرّب نهر اشبيلية ويصب في البحر المحيط^(١) .

ولا يتسع المجال هنا ليراد أمثلة أخرى من ذلك الكتاب الفريد ، فهو مطبوع متداول بين أيدي القراء اليوم ، وجدير بالذكر أن أجزاء هذا الكتاب متناسبة من حيث الدقة أو عدمها أو غزارة المادة وقلتها ، لأن عليّاً بن سعيد جمع مادة طيبة عن كل قطر تقريباً ، وكما انتفع بكتب البلدانين والمسالكين فيما يتصل بالمواضع والطرق والابعاد في قلب مملكة الإسلام ، فقد انتفع بالإدريسي عن بلاد أوروبا والبالكري عن الشمال الأفريقي وبابن فاطمة عن بقية إفريقية وبالبيروني عن الهند وإيران وبالمسعودي عن بحار الهند والصين وببطليموس عن نواح أخرى بعيدة لم يكن لدى العرب مرجع آخر عنها مثل جزائر الخلدات وجزائر السعادات . وعرف ابن سعيد كيف يصب هذه المادة كلها على قالب واحد ، ولهذا فهذا الكتاب من الكتب الجغرافية العربية القليلة التي تتناسب أجزاؤها جميعاً ، ومن هنا فإن ذلك الكتاب يمكن أن يؤخذ كنموذج للتأليف العلمي العربي في أحسن صوره . وقد تنبه إلى ذلك أبو الفدا ، فجعل كتاب عليّ بن سعيد أساس عمله واغترف من مادته بكتلتا يديه وقرر ذلك في عشرات المواضع على طول كتابه « تقويم البلدان » ، وقد وجه إليه بعض النقد على بعض هنات وجدها عنده ، ولكنه نقد يؤكد الاعتراف بالفضل ، وأنه لمن حسنات ذلك العلامة الأديب الرحالة الأندلسي أنه استطاع في فترة من فترات الهدوء القليلة من حياته أن يسكن برهة ليهدى المكتبة العربية الجغرافية فيها أحسن رسالة مختصرة جامعة ألفها عربي في تقويم البلدان .

(١) التصور هنا صحيح إلى حد كبير ، فإن الوادي الكبير ينبع من جبال كاثورلا Sierra de Cazorla ونهر شقورة من سيرا سيكا Sierra Seca المتفرعة من جبال شقورة Sierra de Segura وكلها أجزاء من سلسلة جبال واحدة . وانظر بسط الأرض ، ص ٩٩ — ١٠٠

إلى هنا نقف بالكلام على على بن سعيد الجغرافى بعد أن بينا خصائصه فى القسم الجغرافى من كتابه الرئيسى « فلك الأرب المحيط بجلى لسان العرب » وفى رسالته المبدعة « بسط الأرض فى الطول والعرض » التى فرغنا من الكلام عليها ، ومن الواضح أن هذا الرجل الفذ سار بتيار التأليف الجغرافى العلمى فى الطريق الجاد متابعاً لتقليد الرازى والعذرى والبكرى والإدريسى ومن إليهم من المهجيين الأصوليين من أهل الأندلس محافظاً على جوهر العلم الجغرافى من أن يتحدر فى الطريق السهل الفسيح الحظر الذى فتحه صاحبه وبلديه الفرناطى مثله أبو حامد ، فيندر أن نقرأ عند ابن سعيد شيئاً خرافياً أو كوزموغرافياً مما أورده أبو حامد وأبو بكر الزهرى . وإذا كان « المسالك والممالك » لأبى عبيد البكرى يمثل لنا قمة ما وصل إليه أهل الأندلس من التأليف فى الجغرافية قبل الإدريسى ، فإن عليا ابن سعيد يمثل قمة من القمم التى وصلها العرب فى التأليف الجغرافى بعد الإدريسى مستعينين بمنهجه منتفعين بمادته . وكتاب بسط الأرض إنما هو فى الحقيقة إبتكار . إبتكار فى التأليف الموجز المركز الغزير المادة القائم على التفكير السليم والحساب الدقيق والتصور الواضح^(١) .

لقد رأينا فيما مضى كيف ابتكر أبو حامد فن التأليف الكوزموغرافى أو الكوزموجينى ، وكيف أعطانا أبو بكر الزهرى نموذجاً من كتب الجغرافية الشعبية التى كان التجار والسفار والملاحون يعتمدون عليها ، وكيف اخترع أبو بكر بن العربى أدب الرحلة فى الأندلس ، فوصل به ابن جبير إلى قمته وهما هو على بن سعيد يضيف إلى المكتبة العربية الجغرافية رسالة فريدة فى بابها ستكون عظيمة الأثر عند كل من سيؤلفون فى الجغرافية على المذهب الجاد بعده . وفى فقرة تالية سنرى كيف حدد أندلسى آخر هو ابن عبد المنعم الحميرى مستوى عالياً لفن المعاجم الجغرافية عند العرب .

(١) من المفيد هنا أن نشير إلى مقدمة الجزء الخامس بمصر (مطبوعات جامعة القاهرة ١٩٥٣) .

أبو عبد الله محمد العبدري (١) ورحلته

وقد جرت العادة عند الكلام على الجغرافيين والرحالة من أهل الأندلس أن يؤتى بذكر أبي عبد الله محمد العبدري صاحب « الرحلة المغربية » على اعتبار أنه بلنسى الأصل ، ولكن الأستاذ محمد الفاسي نفي هذه النسبة الأندلسية عن الرجل في بحث له عن العبدري وقرر أنه مغربي من أصل عربي قرشي يرجع إلى بني عبد الدار . وذهب الأستاذ أحمد بن جدو الذي نشر هذه الرحلة أخيراً في الجزائر إلى أن الرجل قد يكون أصل بيته من بلنسية ، ثم هاجر

(١) اسمه الكامل محمد بن محمد بن علي بن أحمد بن مسعود - أو سمود - العبدري وكنيته أبو عبد الله ، لا أبو محمد كما قال محمد بن شلب في المادة التي أدارها عليه في دائرة المعارف الإسلامية ، وينفي التحرز من الخلط بينه وبين عبدريين آخرين من أهل الرحلة والعلم مثل محمد بن إبراهيم بن أحمد العبدري الأبي ، وهو أندلسي من أبه Avila هاجر به أهله من الأندلس إلى تلمسان واستقروا بها ، ومحمد بن إبراهيم العبدري هذا هو شيخ ابن خلدون ، ومثل أبي العباس العبدري الميورقي الأندلسي مؤلف بهجة المهج في بعض فضائل الطائف ووج ، ولا نعلم سنة ميلاد أبي عبد الله محمد العبدري الرحالة أو سنة وفاته ، ولكنه يقول في فاتحة رحلته أنه بدأها في ٢٥ ذي القعدة سنة ٦٨٨ / ١١ ديسمبر ١٢٨٩

مراجع : نشر الرحلة المغربية للعبدري - وهي أحسن مرجع عنه - أحمد بن جدو في الجزائر سنة ١٩٦٥ ، وقدم له مقدمة قيمة ، وكتب عنه بحثاً قيماً الأستاذ محمد الفاسي في صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد (مجلد ٩ - ١٠ سنة ١٩٦١ - ١٩٦٢) ص ١ - ١٤ ، ابن القاضي ، جذوة الانتباس (طبع حجر ، فاس ١٣٠٩) ص ١٧٩ - ١٨٠ ، تاج العروس ، تحت لفظ عبدري - بروكلمات ، دائرة المعارف الإسلامية (الطبعة الأولى) مادة عبدري بقلم محمد بن شلب ، وقد ترجم شيربونو فقرات من رحلة العبدري ونشرها في المجلة الآسيوية :

Cherbonneau; Notice et Extraits des Voyages d'El-Abdery; dans Journ. AS. 5ème Série IV, 144 sqq.

وتوجد فقرات أخرى مترجمة إلى الفرنسية في مقال :

Motylnski, Itinéraires entre Tripoli et l'Egypte: El Afachi, Moulai Ahmad et al-Ouartilani (Extrait du Bulletin de la Société de la Géographie d'Alger) Alger 1904, p. 4.

W. Honerbach, Itinerar des 'Abdari; ZDMG, XLIV, p. 193, sqq.

Pons-Boigues, no. 261 p. 310-313.

وقد ترجم بولس قطعة كبيرة من رحلة العبدري إلى الإسبانية ، وتاريخ لشكر الأندلسي لجندالك بالنيثا ، ترجمتنا العربية ، فقرة ٩٩ ص ٣١٨ وكراشكوفسكي ، الأدب الجغرافي العربي ، ص ٣٦٧ - ٣٦٨

أهله به وهو صغير إلى المغرب حيث استقروا في الاقليم الذي ينسب إلى قبيلة حاحة المصمودية حول مدينة الصويرة الحالية المعروفة باسم موجدور أيضاً شمالاً مدينة أغادير ، وهناك نشأ محمد العبدري عربياً مغربياً يعتبر منطقة حاحة بلده ومنشأه ، وهو تعليل مقبول لنسبة البنسى التي حملها الرجل ، وهي نسبة نجدها في بعض المراجع القديمة مثل كتاب المؤنس لابن أبي دينار القيرواني . وسواء أكان الرجل أندلسياً بنسى الأصل ثم نشأ في المغرب أو كان عربياً مغربياً لا صلة له بالأندلس ، فإنه يعد في المغاربة ولا مكان له والحالة هذه في بحثنا هذا ، وإنما نذكره في هذا الموضع لعرض موضوع الخلاف في نسبه وأصله ، ولأنه منظوم في سلك الأندلسيين عند بونس بويجس وشهروبوو وبروكلان وجندالث بلنسية وكراتشكوفسكى ، ومن الحق أن يصحح هذا الخطأ ويوضع الرجل في إطاره الصحيح ، وإن كان تاريخ الثقافة العربية في الغرب الإسلامى كله لم يعرف التفرقة الحاسمة بين أندلسى ومغربى .

وما دما قد وقفنا بهذا الرجل هذه الوقفة القصيرة فلا بأس بوضع ملاحظات على رحلته وهي في الصميم من ذلك التاريخ الذى تتولاه ، فقد رأينا كيف ولد أدب الرحلة في الأندلس على يد أبى بكر بن العربى وكيف سما إلى ذروة سامقة عند ابن جبير ، ومن المفيد بعد ذلك أن نرى كيف لم يوفق من جاء بعد ابن جبير من الرحالة في السير في طريقه الذى حدد مستوى رفيعاً في الأدب العالمى كله لا بالنسبة للأدب العربى فحسب (في حدود عصره طبعاً) ، وهو طريق يبدو لنا بسيطاً ونحن نقرؤه ، ولكن قيمته وصعوبته تتجلى إذا قرأنا رحلات غيره كرحلة العبدري هذه ، فإذا جاز أن يوصف شيء بأنه سهل ممتنع فذلك دون ريب وصف رحلة ابن جبير .

فابن جبير رجل صافى القلب صافى النظر يأخذ الجانب الطيب من الحياة والناس ، ولا تشغله عواطفه وتأثيراته بما يلقى من الناس عن أن يصفح وينسى ويأخذ البشر على أنهم بشر فيهم الصالح وفيهم أيضاً غير الصالح ، ومن ثم

فهو لا يقسو في التقدير إلا إذا ضاق ذرعه بالفعل كما حدث له وهو بين يدي رجال الحدود وهو داخل إلى مصر ، أو هو يتأهب لركوب السفينة الرهيبة من عذاب إلى جدة ، أما العبدري فرجل غاضب ساخط بمرور لا يكاد يلتقي ما يرضيه إلا في النادر ، ورأيه في أهل زمانه يوجزه قوله : « وقد تعطل في هذا العصر موسم الأفاضل ، وتبدد في كل قطر نظام الفضائل ، وتفرق أهلها أيادي سباً ، وصاروا حديثك في الناس مستغرباً ، فعادوا إسماً بلا مسمى ، وحرفاً مادل على معنى ، فالحديث عنهم في مشرق أو مغرب كالحديث عن عتقاء المغرب ، ولو طاب الورد لجل الرى وقديماً قال أبو العلاء المعري . . »

فهذه مبالغة في الحملة على أهل عصره تجعل القارئ في شك من صحة أحكامه وآرائه ، وإلا فكيف يرمى أهل زمانه بهذا العنف عن قوس واحدة ثم يقول بعد ذلك أنه يحق الحق ويلتزم الصدق ؟ ومن غريب أحكامه على المغرب كله قوله : « أو ليس من الأمر الأمر الخارج عن كل قياس أن المسافر عند ما يخرج عن أنظار مدينة فاس لا يزال إلى الاسكندرية في خوض ظماء وخبط عشواء ، لا يأمن على ماله ولا على نفسه ، ولا يؤمل راحة في غده إذ لم يرها في يومه وأمسه ، يروح ويفدو ولحمه على وضهم ، يظلم ويحفي فيه تضم ، تتعاطاه الأيدي الغاشمة ، وتهاواه الأكف الظالملة ، لا منجد له ولا مغيث ، ولا ملجأ يعتصم به المسكين ، فيستنجد ويستغيث ، وأنى له بالمنجد المغيث ، ينادي وهو في قبر المظالم يرسف : الا ناصر ينجد ؟ الا راحم يرؤف . . »

فهذا كلام لا يمكن أن يصدق لأنه يصور جزء ضخماً من عالمنا العربي الإسلامي في صورة لم يبلغ في وصفها بهذا السوء عدو ولا غريم . والغريب بعد ذلك أننا نجد يلتقي الفضلاء وأهل الخير والصلاح على كل مرحلة من مراحل الطريق ويطيّل في الكلام على ما وجد عندهم من الفضل والخير والعلم ! والحقيقة أن العبدري كان رجلاً متشاكماً سيء الظن في الدنيا والناس ، وكان من أولئك الناس الذين لا يدرون ما يريدون ، فهم دائماً في سأم وقلق وضيق وإسراع إلى النفور

واللزامة ، فهو لا يكاد يلتقي في طريقة رجالا يوصف بالعلم إلا في النادر ، فيقول بمناسبة تلمسان : « ما رأيت بمدينة تلمسان من ينتمى إلى العلم ولا من يتعلق منه بسبب سوى صاحبنا أبي عبد الله محمد بن عمر بن خيس » ويقول عن مدينة ملىانه « وما بقى بها من له بالعلم أدنى عناية » وعن مدينة الجزائر : « فلم يبق بها من هو من أهل العلم محسوب ، ولا شخص إلى فن من فنون المعارف منسوب ، وقد دخلتها سائلا عن عالم يكشف كربه أو أديب يؤنس غربة ، فكأنى أسأل عن الأبلق العقوق ، أو أحاول تحصيل بعض الأنوق » ، ثم يصل إلى بجاية فيرضى عن أهلها بعض الشيء ويصفهم بالمواظبة على الصلوات ، ثم يعود إليه سخطه ونفوره ويقول : « غير أنه اعتراه من الغيرة ما شمل في هذا الأوان البدو والحضر ، قد غاض بحر العلم الذى كان به حتى عاد وشلا ، وعفا رسمه حتى عاد طللا » ويصل إلى قسطنطينة فيقول : « ولم أر بها من ينتمى إلى طلب ، ولا من له في فن من فنون العلم أرب سوى الشيخ أبي على حسن بن بلقاسم بن باديس » وهكذا في كل البلاد تقريبا فيما عدا تونس ، فهذه — من دون ما رأى من بلاد الدنيا — أعجبت فأتنب في مديحتها ومديح أهلها إلى درجة تعدل سخطه على غيرها من بلاد الله .

وقد قرأت في بحث الأستاذ محمد الفاسى عبارة نقلها عن رحلة ابن عبد السلام الناصرى تفسر لنا بعض الشيء سبب سخط العبدري على الناس ، قال تعليقا على ذمّه لمصر وأهلها : « ... جرياً على عادته عفا الله عنه في ذم البلاد وأهلها ، وما كان ينظر إلا بعين السخط إليها ، فليته مدح من يستحق المدح ، وذم من يستحق الذم ، أو يتغافل عنه إلا بقصد البيان ، وما رأيته مدح بلدة ولا سكانها إلا مدينة تونس ، ولو أمكنه أن يقول في الحرمين هجواً لقال ، وما ذاك إلا أن الرجل بربري الأصل من سكان الجبال لم يألف الناس ولا البحث عنهم ولا الذهاب إليهم ، إنما ينزل بمدرسة من جملة الطلبة ، أو بفندق من جملة العرياء ، ولا يتفطن له عالم ولا ذو مروءة حتى إذا صدر عن البلد قال فيه ما شاء » .

فإذا وضعنا إلى جانب ذلك بعض ما قاله عن تونس تبيننا صدق ملاحظة الناصري وسبب رضاه عن تونس وأهلها : « وما رأيت لأهلها نظيراً شرقاً وغرباً : شيئاً فاضلة وخاللاً حميدة ومعاشرة جميلة ، وقد كان الاخلاق بمن شاهد أخلاقهم أن يطنب في وصفهم ويُطرى^(١) على من يمنحهم الوداد وينصفهم ، إذ ذاك من بعض واجبهم وأقل مراتبهم . ولكن الزمان لا يعين على توفية الحقوق . ولا يعتمد بالقراغ إلى أهل العقوق^(٢) . وناهيك من بلد لا يستوحش به غريب ولا يُعدم فيه كل فاضل أريب ، يبدوون من طراً عليهم بالمداخلة ويخطبون منه لفضل طباعهم الموصلة ، فهو منهم بين أهل مشفق ورفيق مرفق . وقد كان بعض أختيار طلبتها وحسابهم لازمني مدة الإقامة بها ، وترك لأجلى مهمات أموره ، وعرفني بفضلائها وكان لا ينفصل عني عامة النهار . وكثيراً ما كنت أَسْرِبُ من لا يعرفني من أهلها ، فأسأله عن الطريق إلى ناحية منها ، فيقوم من حانوته ماشياً بين يدي ، يسأل الناس عن الطريق ويدلني ، وهذا من أغرب ما بسمع من جيل الاخلاق ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء » .

وإذن فقد وجد العبدري في تونس ما لم يجده في غيرها من البلاد ، وجد ناساً يحتفلون به ويؤنسونه بل يتركون أعمالهم ليقفوا على خدمته ، ويمرّفونه بالفضلاء من أهلها ، فأنس بهم واستروح ، ولم يشعر بهذا الخمول الذي كان يملأ نفسه إذا نزل بمدرسة في جملة الطلبة أو بفندق من جملة الغرباء ، وهذا ما كان يثير نفسه ويملؤها سخطاً . أما إطلاقه لسانه في أهل البلد بعد رحيله عنه ، فهو نفسه يقرر ذلك فهو يقول في مستهل رحلته « وهذه الرحلة بدأتُ بنقيدها في تامسان ، ولم يمكنني اظهارها هنالك ، وأظهرتها بعد خروجنا منها^(٣) » .

(١) في الأصل المطبوع : يضرب ، وما أثبتناه أشبهه بالمعنى وإن كان قلماً (انظر الرحلة ص ٣٧) .

(٢) كذا في الأصل المطبوع ، وهو غير واضح .

(٣) الرحلة الغربية ، ص ٥

وكان ابن عبد السلام الناضري أقرب ما يكون إلى الصواب في الحكم على العبدري عند ما قال : « وما ذاك إلا أن الرجل بربرى من سكان الجبال لم يألف الناس ولا يبحث عنهم والذهاب إليهم » وهى عبارة تفهم حق الفهم ويُدرك عمقها إذا فسرنا كلمة « بربرى » هنا بأنها « ريفى من سكان الجبال » فإن العبدري كان فى حقيقةه رجلاً ريفياً ألفت العيش فى الجو الطاق الصاحى فى الجبال بعيداً عن زحمة الناس وضجيج المدن ، ولهذا فقد كان يحس بأنه فى جوه الذى يألفه إذا خرج من المدن وضرب فى الطرق على وعورتها ، فإذا دخل مدينة عاوده الانقياض والنفور ، وزاد شعوره بذلك عمقاً اضطرابه إلى المبيت فى بيوت الطلاب أو الفنادق ، مما كان يُشعره بمهانة وضياح ، فتمتلئ نفسه مرارة يصعبها بعد ذلك على الورق ، وهذا التناقض هو الذى يضى على رحلته طرافة فريدة فى بابها تنأت من انتقاله من الاسترواح والاطمئنان خارج المدن إلى الكتابة والسخط فى داخلها ، وإذا كنا قد قلنا أن كلام العبدري عن المدن والناس مليء بالمرارة والذم والسخط فانتا ينبغى أن نقرر أن كلامه عن الطبيعة ومناظر السهول والجبال والبحار وهيئات المدن كما تبدو له من بعيد كلامٌ كله اشراق وانفعال يدل على حساسية مرهفة بكل ما هو طبيعى طلق ، وهنا — والرجل على سجيته وراحته نفسه — يتكشف لنا العبدري عن جغرافى طبيعى لماح يدرك بالنظرة الواحدة ما لا يدركه غيره بالتأمل الطويل .

هنا موضع القيمة الجغرافية للرحلة المغربية للعبدري ، فإن الأوصاف الدقيقة التى قدم بها لأحاديثه عن المدن ومن وجده (أو من لم يجده بتعبير أصح) بها من أهل العلم تعتبر خير ما فى الكتاب وأعظمه قيمة ، لأن الرجل كان بطبيعته الريفية الجبلية السليمة قديراً على أن يستبين من دقائق ما تقع عينه عليه من المناظر ما لا يستبينه غيره من أهل المدن ، وهو يصف ما يرى وصفاً ساذجاً واضحاً ينقل للقارى ما رآه بعينه وأحس به ، فى حين أن غالبية الجغرافيين فى تلك العصور كانوا ينقلون من كتب ؛ ومن أمثلة ذلك قوله فى وصف مدينة

آنسا من مدن إقليم السوس في جنوبي القطر المغربي : « وأما بلد آنسا — جبره الله — فهو بلد منفسح منشرح في بسيط مليح طيب التربة يغل كثيراً ، وبه ماء جارٍ كثير ونخل وبساتين ، وهو آخر بلاد السوس من أعلاه ، متصل بالجبل مشرف على بلاد السوس ، وكان فيما مضى مدينة كبيرة ، فتبالت عليها الخطوب المجتاحة ، ونزل الأقدار المتساحة ، حتى صارت رؤيتها قذى في المقلتين » . وقد يورد في غضون هذا الوصف من ملاحظاته الساذجة الصادقة ما يتضمن حقائق عظيمة القيمة لا نجدها عند غيره من أهل البحث والتكلف ، ومثال ذلك قوله في وصف مدينة تلمسان : « ثم وصلنا إلى مدينة تلمسان فوجدناها بلداً حلت به زمانة الزمان . وأخلت به حوادث الحدثنان . فلم تبق به علاقة . ولا تبصر في أرجائه للظلمتان بلالة . وقد شاهدت جمعاً من الحجاج ينيفون على الألف وردوها فوقفوا إلى ملكها ، فأعطاهم ديناراً واحداً . وأغرب من هذا ما شهدته من منصور صاحب مليكتس ، وهو أن جماعة من الحجاج نحو العشرين وقفوا إليه في محله عند بيته ، فكلموه في عشائهم ، فرحب بهم ، واحتفل في السلام عليهم ، ثم أخذ ينادى يا أهل الدوار : هؤلاء ضيفان الله ، من يحمل منهم إلى بيته واحداً ؟ وجعل يكرر ذلك كما يصنع المدرون أهل المدر . فلما لم يجبه أحد منهم ولى عنهم ووراء جمع كثيف من الفرسان . وهو سلطان تلك النواحي . وتلمسان مدينة كبيرة سهاية جبلية جميلة المنظر مقسومة باثنتين بينهما سور ، ولها جامع عجيب مليح متسع ، وبها أسواق قائمة . وأهلها ذوو ليانة ، ولا بأس بأخلاقهم . وبظاهرها في سناد الجبل موضع يعرف بالعباد وهو مدفن الصالحين وأهل الخير ، وبه مزارات كثيرة ، ومن أعظمها وأشهرها قبر الصالح القدوة فرد زمانه أبي مدين رحمه الله ورضي عنه ورزقنا بركته . وعليه رباط مليح مخدوم مقصود ، والدائر بالبلد كله مغروس بالكرم وأنواع الثمار ، وسوره من أوثق الأسوار وأصحها ، وبه حمامات نظيفة ومن أحسنها وأوسعها وأظفها حمام العالية وهو مشهور ، قل أن يرى له نظير . وهذه

المدينة بالجملة ذات منظر ونخبر وأقطار متسعة ومبانيها مرتفعة ولكنها مساكن بلا ساكن ، ومنازل بغير نازل ، ومعاهد أفقرت من معاهد^(١) .

ويصل إحسانه في الوصف إلى مداه عندما يصل إلى الاسكندرية ، فإن منظر البلد يروقه أول ما يهل عليه فيقول أنه « بلد الاشراق اللامع والطلاقة ، وطلاوة المنظر وحلاوة المذاقة^(٢) » ويستمر في هذا المدح المعجب صفحتين متواليتين يصف فيهما شوارع البلد وبيوته بأحسن ما وصفها به رحلة عربي قبله ، وتستوقف النظر دقته في وصف عمود السورى ومنار الاسكندرية . ووصفه لهذا الأخير قريب من وصف ابن جبير . ولا يكاد يفرغ من هذا الوصف الجميل المشرق حتى تحتويه المدينة الكبيرة بين دفتيها ويضيع في زحمتها ، فيقلب إشراق نفسه عبوساً وانقباضاً فيمضى يقول : بيد أنها الآن بلد زادت صورته على معناه ، واستأثر بالفضائل مغناه ، فهو كجسم حسن لا روح فيه ، أو برد مفوف خلا من التحفيه ، أو غمد مرقد اندق الصارم الذي كان يخفيه ، أكثر أهلها راع ، ضرر بلا انتفاع ، مع سوء أخلاق وصرارة مذاق...^(٣) »

ولا نلبث أن نعثر على علة سخطه على أهل الاسكندرية إلى هذا الحد ، وذلك حيث يقول : « الخير فيهم فعل لا يتصرف ، والغريب فيهم نكرة لا تتعرف . إن رأوه زادوا الوجوه جهامة ، ونكروا منها ما قد نكرته الدمامة ... » ولو قيض الله له من يرافقه وبصاحبه ويخفف عنه عناء الغربة لما اندفع مع الزم هذا الاندفاع . وفيما عدا هذه الأوصاف للمناظر الطبيعية والمدن وتلك الحملات القاسية على من فيها من الناس والبشر ، ملأ العبدري رحلته بكلام كثير في الفقه والنحو واللغة والأدب والشعر ، وانفق صفحات بأسرها في مناقشة دقائق من هذه العلوم أو في رواية أشعار له ولغيره ، وهذه الفقرات والأدبيات واللغويات وما

(١) الرحلة المغربية ، ص ٩ — ١٠

(٢) الرحلة المغربية ، ص ٨٣

(٣) الرحلة المغربية ، ص ٨٥

ينتثر في الكتاب من سير الصالحين وأخبار العلماء هي التي حببت الكتاب إلى الناس في الأعصر الخالية ، فقد كانت هذه المواد هي أهم ما يعينهم في مثله ، وللعبدري في نقده لبعض من لقي من الفقهاء والقضاة عبارات تستثير الضحك لسذاجتها ، ومن ذلك قوله في ذم قاض يسمى العمراني لقيه « بحضرة مراکش ، كلاًها الله ولا كلاً القاضى المذكور حياً وميتاً ، فإنه منجنيق ظلم تُرمى به قواعد الدين ، ونفط فساد يُضرم قلوب المهتدين » وقد أضع العبدري في أمثال ذلك الكلام ثلاثة أرباع الكتاب .

الممت بذكر العبدري ورحلته بسبب نسبته البلسية أولاً ، وهي موضع مناقشة كما رأيت ، وثانياً — وهو المهم — لكي يرى القارى نموذجاً لأدب الرحلات في الغرب الإسلامى يختلف كل الاختلاف عن طراز ابن جبیر ، ويختلف أكثر عن رحلة ابن بطوطة أمير رحالة المسامين باطلاق ، فإن العبدري — بسبب هذا البحث المضى عن الدقائق الفقهية واللغوية والأدبية التي كانت كلهم — قد جعل رحلته وكأنها سياحة عقلية عاطفية لا رحلة سفر وضرب في مناكب الدنيا واكتشاف للأرض وأهلها . والعبدري رغم هذا كله مشكور فقد رأى من الأرض والناس شيئاً تكلم عنه — على طريقته — ولكن رحالة آخرين بعده كابن رُشيد السبتي سيفعلون ذكر الأرض والناس تماماً ، ولا يتحدثون إلا عن يلقونه من العلماء كأهم مطالعون في مكتبة ، وعند هؤلاء تنقطع الصلة تماماً بين أدب الرحلات والجغرافية . ونورد بهذه المناسبة ملاحظة تفسر لنا سبب السخط الشديد الذي عبر عنه الكثيرون من أهل الأندلس والمغرب الذين رحلوا إلى المشرق في تلك العصور ، فإن القارى لتراجم مهاجرة الأندلس والمغرب إلى المشرق أو رحلتهم خلاله والمطالع لكتبهم يشعر أن معظمهم يشترك مع العبدري في هذا الضجر بالشرق وأهله ، والكثيرون منهم يشاركون العبدري في الشكوى من مصر خاصة . لقد لاحظنا شيئاً من ذلك عند ابن جبیر وابن سعيد ، ونلاحظه أيضاً عند أبي الحجاج ابن عتبة الاشبيلي وعند أثير الدين أبي حيان وأحمد بن محمد المقرئ ، وتفسير هذه

الظاهرة أن أولئك المهاجرين والرحالة جميعاً كانوا يدخلون مصر وآمالهم واسعة في أن يجدوا فيها أكبر قدر من الاحترام والأكرام وتوسعة العيش ، لأنها كانت كعبة العلم وأهله في ذلك الحين ، ولكن الواحد منهم كان إذا وصل إلى القاهرة وجد نفسه في بحر مضطرب من العلماء من المصريين والوافدين عليهم من كل حذب وصوب ، وكلما قصد باباً من أبواب الدولة وجد عنده العشرات من أمثاله يتزاحمون للدخول ، فإذا قصد رجلاً من السروات ممن عرفوا باكرام أهل العلم وجده مثقلاً بالوافدين ، فإذا اتجه إلى الجامع الأزهر وغيره من المدارس وجدها تعج بالعلماء والطلاب ، فيسقط في يده ويشعر بخيبة الآمال ، وقد يجد بعد ذلك كله أن ما عنده من زاد العلم قليل بالنسبة إلى الفيض الذي يحيط في القاهرة فتتجهجهم نفسه ويتعزى بالحيلة على البلد وأهله وخاصة إذا كان من دخلوا ميدان المنافسة للوظائف كما حدث لابن خلدون . ولنضيف إلى ذلك أن أهل مصر — لكثرة الوافدين عليهم في تلك العصور من الشرق والغرب — أضحى من نفوسهم الشعور بالغريب ، فكل من حلوا في وطنهم من المسلمين فهم مواطنون مثلهم ، ومن ثم فلا معنى للاحتفال باستقبالهم والاجتهاد في اكرامهم ، بعكس ما كان أهل تونس مثلاً يفعلون مع العلماء الوافدين ، كانوا يعاملونهم بسبب قتلهم على أيهم ضيوف غرباء ويظنون يعتبرونهم غرباء ، ومن هنا فالقليلون من أولئك الوافدين هم الذين أقاموا بتونس في راحة زمنًا طويلاً ، إنما كانت الإقامة والاستقرار والتوطن في مصر وبلادها في الغالب ، فهنا في المكان الأول كان وطن العربي أو المسلم الغريب ومنتهاه . وقد أحصينا في الدرر الكامنة لابن حجر فوق المائتي مهاجر أندلسي إلى المشرق في القرن الثامن الهجري ، وتسعون في المائة منهم أقاموا بمصر واستقروا بها . ومن أطرف ما نلاحظه أن المصريين في تلك العصور لم يكونوا يأخذون ما يقوله عنهم بعض الساخطين من أولئك الغرباء على أنه قدح مقصود أو إهانة صادرة عن سوء نية ، وإعسا على أنها نفثات أخ متألم جدير بالمواساة ثم

النسيان . وسنكتفى هنا بمصداق واحد يغنى عن كثير ، وهو خبر يرويه على ابن سعيد عن صاحبه أبي الفضل التيفاشي — وكلاهما لجأ إلى مصر وعاش فيها — قال : قدم علينا بالقاهرة الطبيب الجراح أبو الحجاج (يوسف) بن عتبة (الاشبيلي) فلم يجد من يُقبل عليه إلا كهف المغاربة الرئيس السيد جمال الدين بن يغمور . فصَيَّرَهُ مشاركاً مع أطباء المارستان ، وكان يأنس به في بعض الأوقات مؤانسة الاخوان ، فسأله مرة عن أخبار بلاده ، فقال فارقت الأندلس مضطربة بدولة ابن هود ، ومع ذلك فأنى أشتهى الرجوع إليها لما أعان هنا من أشغال النصرارى في الدولة واليهود ، ثم قال :

أصبحت في مصر مستضماً أرقص في دولة القرد
واضيعة العمر في أخير مع النصرارى أو اليهود

إلى آخر الأبيات . ومثل هذه العبارة كانت جديرة بأن تغضب جمال الدين بن يغمور ، فهو مصرى صميم من أهل الصعيد ، ثم هو من كبار رجال الدولة التى يصفها هذا الأندلسى بأنها دولة القرد ، وكان جديراً بأن يغضب على ابن عتبة ، ولكنه لم يغضب ، ولم يحمل لهذا الأخ الأندلسى ضغناً ، بل أخذ كلامه على المأخذ الذى ذكرناه . وبقيّة الخبر أوقع في النفس من حكايتنا له : قال التيفاشي : أنشد هذه الأبيات جمال الدين لاحتفاله وحبه في طرائف الأدب كيفما جاءت ، فقال أتدرى ما أراد الخليل في البيت الأول ؟ قلت المثل السائر : يرقص للقرد في دوله ، فقال : قد أشار إلى شكل القز وتسميرهم ، قال ، فهجبت من فهمه وحمة^(١) .

(١) على بن سعيد ، اختصار القدح الملى (بتحقيق الأستاذ ابراهيم الأياري ، القاهرة ، ١٩٥٩) ، ص ١٦٣ — ١٦٤ ، والمراد بالقرص هنا المالك ، وكان ابن يغمور من رجالهم . وما يؤيد ما ذكرناه قول ابن سعيد في الكلام عن أندلسى آخر ممن وفد على مصر : « لقيته بالقاهرة ، وكأنه لا خبر عنده عن الآخرة ، شيخ قد طال عمره في أكل الأعراض ، ووجد في تلك البلاد التناقل فانتفض في صنعة الذميمة أى اتهاض . . » اختصار القدح الملى ، ص ٢١٢

محمد بن عبد المنعم الصنهاجى الحميرى وتطور فن المعاجم الجغرافية فى الغرب الاسلامى

وإذا كانت « الرحلة المغربية » لأبى عبد الله محمد العبدرى تصور لنا مشكلة نفسية كان الكثيرون من علماء القرن السادس وما بعده من أهل الأندلس يعانون منها بسبب ما نزل ببلادهم واضطراهم إلى الهجرة وتبدل أوطان بأوطان ، فإن الجغرافى الذى سنتناوله بالحديث بعده يصور لنا مشكلة من المشاكل العويصة التى لا تزال تعترض من يؤرخ للعلم والعلماء فى تلك العصور ، وهى مشكلة حقيقة المؤلف وعصره ، وقد رأينا لتلك المشكلة وجهاً فى حديثنا عن أبى بكر الزهرى والآن نرى لها وجهاً آخر لا يقل غرابة وطرافة عن الوجه الأول .

ذلك أن الكتاب الذى نتعرض له الآن وهو « الروض المعطار فى خبر الأقطار » يبدو للناظر لأول وهلة وكأنه كتابان لمؤلفين يحملان نفس الاسم مع خلاف طفيف . وأصل اللبس يرجع إلى حاجى خليفة ، فقد أورد ذكر كتابين : واحد هو « الروض المعطار فى أخبار الأقطار لأبى عبد الله محمد بن محمد بن محمد الحميرى المتوفى سنة ٩٠٠/١٤٩٤ - ٩٥ والثانى يسمى روض المعطار فى خبر الأقطار للشيخ العمدة أبى عبد الله محمد بن عبد المنعم الحميرى ، ولم يذكر سنة وفاة هذا الأخير . وزاد الأسر تعقيداً أن القلقشندى أخذ عن هذا الكتاب وذكره فى صبح الأعشى الذى فرغ من تأليفه سنة ٨١٤/١٤١٢ ، ثم إن كتاب « جنى الأزهار من الروض المعطار » كان يُظن أنه اختصار لكتابنا هذا صنعه تقي الدين المقرئى ، حتى أثبت جاستون فييت وجيوفانى أومان أنه اختصار لنزهة المشتاق صنعه رجل يسمى شهاب الدين أحمد المقرئى لا تقي الدين عميد مدرسة المؤرخين المصريين فى القرن التاسع الهجرى (انظر ص ٢٢٩ من بحثنا هذا) .

وقد جهد في حل هذا المعضل ثلاثة من المستشرقين هم جودفروا ديمومبين وجاستون فييت وليفي بروفنسال ناشر المواد الأندلسية من «الروض» ، وقد أسعفه الحظ فوجد ترجمة للؤاف (محمد بن عبد المنعم الصنهاجى) فى الورقة ١٣٢ من مخطوط الاحاطة المحفوظ بمكتبة الاسكوريال تحت رقم ١٦٧٣ ، ويقرر ابن الخطيب فى هذه المادة أنه نقلها من كتاب آخر له — لم نعثر عليه الآن — هو «عائد الصلة» . وما دام ابن الخطيب قد توفى سنة ٧٧٦/١٣٧٤ فلا بد أن محمدا بن عبد المنعم الحميرى هذا مات قبله . وقد كان ديمومبين قد ذهب إلى أن سنة ٩٠٠ هـ. التى وردت فى احدى مادتي «كشف الظنون» عن الروض ومؤلفه لابد أن تكون تصحيحاً لسنة ٧٠٠/١٣٠٠ — ١٣٠١ فأخذ ليفي بروفنسال بهذا الرأي وأيده بقوله إنه لم يجد فى الاستطرادات التاريخية التى يتضمنها النص ذكراً لأى حادث بعد سنة ٧٠٠ هـ. أما ما ورد فى آخر بعض مخطوطات الروض من أن مؤلفه ابن عبد المنعم الحميرى فرغ من جمعه سنة ٨٦٦/١٤٦١ — ١٤٦٢ فقد فسرها بروفنسال بأن هذا الأخير لابد أن يكون أحد أحفاد المؤلف قام بإعادة كتابة الكتاب مضيفاً إليه أشياء طفيفة ثم وضع عليه اسمه ، وهو تفسير معقول مقبول^(١) .

(١) انظر عن محمد بن عبد المنعم الحميرى وكتابه الروض المطار ، حاجى خليفة ، كشف الظنون ، طبعة استامبول (١٣١٠ هـ) ، ١/٥٨٠ — بروكلمان ، تاريخ الأدب العربى ، ٤١/٢
نفع الطيب للعقري (أوروبا) ٢/٦٨٠
ابن الخطيب ، الاطاسة ، مخطوط الاسكوريال رقم ١٦٧٣ ورقة ١٣٢

Gaudefroy - Demombynes, *La Syrie à l'époque des Mamlouks d'après les auteurs arabes*, (Paris, 1923), f. XI-XII.

وقد نشر ليفي بروفنسال المواد الأندلسية من الروض فى لايدن سنة ١٩٣٦ بعنوان صفة جزيرة الأندلس منتخبة من كتاب الروض المطار فى خبر الأقطار ، وهو معجم جغرافى تاريخى لأبى عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم الحميرى . جمعه سنة ٨٦٦ هـ. وقد أحسن بطبع النص العربى فى القاهرة . وطبع الترجمة الفرنسية مع المقدمة والتعليقات فى لايدن ونشر المجموع تحت عنوان :

La Péninsule Ibérique au Moyen - Age d'après le Kitāb al-Rawḍ al-Miṣṣār fī Ḥabar al-Aḥḡār, d'Ibn 'Abd al-Mun'im al-Ḥimyarī (Leiden, 1938).

ونورد فيما يلى مادة ابن الخطيب فهى — رغم قلتها — جل — بل كل — ما لدينا عن المؤلف :

« محمد بن عبد المنعم الصنهاجى الحيرى يكنى أبا عبد الله ويعرف بابن عبد المنعم من أهل سبتة ، الأستاذ الحافظ . حاله : من العائد : كان رحمه الله رجلاً صدق ، طيب اللهجة ، سليم الصدر ، تام الرجولة ، صالحاً ، عابداً ، كثير القرب والأوراد فى آخر حاله ، صادق اللسان ؛ قرأ كبيراً وسنه تنيف على سبع وعشرين ، فشأى أهل الدرب والسابقة ، وكان من صدور الحفاظ ، لم يستظهر أحد فى زمانه من اللغة ما استظهره ، فكان يستظهر كتاب التاج للجوهري وغيره ، آية تنلى ومثلاً يضرب ، قائماً على كتاب سيبويه يسرده بلفظه ، اختبره الفاسيون فى ذلك غير ما مرة ، طبقة فى الشطرنج يلعبها محبوباً ، مشاركاً فى الأصول ، آخذاً فى العلوم العقلية مع الملازمة للسنة ، يعرب أبداً كلامه ويزنه . مشيخته : أخذ ببلده عن الأستاذ أبى إسحق الغافقى ولازم أبا القاسم بن الشاط واتفّع به وبغيره من العلماء . دخوله غرناطة : قدم غرناطة مع الوفد من أهل بلده عند ما صار إلى إيالة الملوك من بنى نصر لما وصلوا بالبيعة . وفاته : كان من الوفد الذين استأصلهم الموتان منصرفهم عن باب السلطان ملك المغرب بأحوال تيزى حسباً وقع التنبيه على بعضهم » . ونلاحظ أولاً أن هذه المادة لا تنسب لمحمد بن عبد المنعم الحيرى هذا كتاباً فى الجغرافية ، وإنما تقول انه من أهل سبتة وانه كان عضواً فى الوفد السبتي الذى وفد على غرناطة ببيعة أهل بلدهم ، وانه توفى فى الموتان (أى

== ومقدمة هذه الترجمة الفرنسية تتضمن كل ما أوردناه عن تاريخ مشكلة الكتاب ومؤلفه مع دراسة وافية للكتاب ومادته ، أما التعليقات الإضافية التى وضعها على الترجمة فقد أصبحت من يوم نشر الكتاب مرجعاً أساسياً لجغرافية الأندلس وتاريخه ، ويعتبر ذلك العمل من أجل ما خلف لنا ذلك المستشرق الفرنسى الجليل .

والظركراشكوفسكى ، تاريخ الأدب الجغرافى العربى تعريب الأستاذ صلاح الدين عثمان هاشم

الوباء) الذى استأصل رجال ذلك الوفد عند ما انصرفوا عن باب السلطان ملك المغرب بأحواز تيزى (أو تازا) .

فأما إهمال ابن الخطيب ذكر اشتغال محمد بن المنعم الحميرى بالجغرافية فلا ينفى هذه الحقيقة ، فإن الناس — كما رأينا — كانوا لا يرون كتب الجغرافية وعلوم الأوائل والفلسفة مما يستحق الذكر بين أعمال العلماء ، لأن الاشتغال بذلك كان — فى رأى الكثيرين — مضيعة للوقت فيما لا ينفع ، وسرى أن هذا كان رأى الحميرى نفسه ! بل ربما كان اشتغال الرجل بهذه العلوم مدعاة للشك فى صحة عقيدته ، وقد رأينا بعض من أرخوا للعدوى والبكرى أهملوا ذكر مؤلفاتهم الجغرافيات كأن ذلك كان لوثاً من صون السمعة ، بل إن ابن أبى أصيبعة أهل ذكر كتاب نزهة المشتاق عند ما تكلم عن الإدريسى ، وكثيرون ممن ترجحوا لابن رشد أهملوا ذكر اشتغاله بالفلسفة إكراماً لذكراه ، بل أن محمد بن عبد المنعم الحميرى نفسه اعتذر فى آخر فاتحته للروض المعطار عن اشتغاله بالجغرافية ، وقال كلاماً يصح أن يروى مثلاً لنظرة الناس إلى الاشتغال بذلك العلم فى تلك العصور ، قال : « . . ومع هذا فقد لُمتُ نفسى على التشاغل بهذا الوضع الصاد^(١) عن الاشتغال بما لا ينفى عن أمر الآخرة والمهم من العلم المُرَاف عند الله تعالى ، وقلت : هذا من شأن البطالين وشغل من لا يهتبه وقته ؛ ثم رأيت ذلك من قبيل ما فيه ترويح لهذه النفوس ، ومن حسن تعليمها بالمباح حتى تنشط إلى ما هى به أعنى ، ثم هو مهيع يسلكه الناس واعتنى به طائفة من العلماء وقيدة جماعة من أهل التحصيل ، فلا خرج فى الاقتداء بهم بل أقول : أعوذ بالله من علم لا ينفع ! وأستغفره وأستقيله ، وأسأله التجاوز عن الهفوات ، والصفح عن الاشتغال بما لا يفيد فى الآخرة ، فيارب عفواً عن اقتراف ما لا رضى لك فيه ، فأنت على كل شيء قدير ! » .

(١) كذا فى الأصل كما نشره ليني برونسال ، وربما كانت صحته : الصادر .

وهذا أغرب ما قاله أحد من جغرافيينا في شأن اشتغاله بذلك العلم ، حقيقة كان بعض الأوائل ممن اشتغلوا به يجتهدون في فوائح كتبهم في تبرير اشتغالهم به بمبررات هي أقرب للاعتذار ، ولكن مؤلفنا هذا ذهب إلى ما لم يذهب إليه أحد من اعتبار الاشتغال بالجغرافية « من شأن البطالين ومن لا يهتمه وقته » ثم يمضى يعتذر عن تأليفه الكتاب ويرجو الله سبحانه الصفح عنه كأنه اقترف جريمة . ويغلب على ظني أن هذه العبارة أضافها ابن عبد المنعم الحميري الثانى ، أى الذى كان من حَفَدَةِ الأول ، لأننا إذا طالعنا مواد الكتاب وجدنا رجلا يجمع ويصنف ويكتب في شغف وراحة نفس واستمتاع بما يكتب يدل على إحساس بفائدته ، ثم إن جانباً كبيراً من مادة الكتاب تاريخ ، ولم يكن التاريخ قط من العلوم التى يعتبر الناس الاشتغال بها مضيعة للوقت ، ومثل هذا الرجل لا يعتذر عما يكتب قط ، وإنما يصدر هذا عن حفيد جاء بعد قرنين انحدر خلاهما مستوى العلم والمعرفة ، وأجال قلمه في عمل جده مضيئاً شويثات هنا وهناك ومن بينها تلك الخاتمة التى تتناقض في الروح والمعنى مع بقية الفاتحة .

وأما أن الرجل من أهل سنتة فلا يقطع صلة نسبته إلى الأندلس ، فقد كانت سبته في بعض سنوات المؤلف جزءاً من الأندلس ، وكانت أجزاء كثيرة من الأندلس تابعة لسلطين المغرب من آل سمرين في ذلك العصر الذى أسندت بقية الأندلس خلاله ظهرها إلى المغرب لتظل في قيد الوجود ، وفي عصر مؤلفنا هذا دخلت سبته في طاعة بنى نصر فيما بين سنتى ٧٠٥ و ٧٠٩ / ١٣٠٦ و ١٣٠٩ وكان هو من بين أعضاء وفد سبته الذين جاءوا ببيعة بلدهم إلى غرناطة . وقد كانت وفاته بعد ذلك بسنوات في وباء نزل بالقطر المغربى ، وقد اسبعد ليفي برونفسال أن يكون هذا الوباء هو الموت الأسود الذى اجتاحت حوض البحر الأبيض بين سنتى ٧٤٨ و ٧٥٠ / ١٣٤٧ و ١٣٤٩ والذى وصف المقرئى

وأبو المحاسن افاعيله في شرق المملكة الإسلامية ، وفصل ابن الخطيب وابن خاتمة ما أنزله بالمغرب الأقصى والأندلس .

ثم اننا إذا القينا نظرة عامة على مواد الكتاب رأينا أن حظ الأندلس منها أوفى من حظ أى قطر آخر بما في ذلك المغرب ، وقد أورد ليفي بروفنسال احصاء بمواد حرف الألف وتوزيعها على الأقطار ما بين شرق وغرب ، فكان حظ الأندلس ٣٤ مادة والمغرب ٣٢ وجزيرة العرب والعراق ٣٣ وبلاد آسيا الوسطى ٣١ والشام ١٧ ومصر ٩ وكل من السودان (الغربي) وشرقي آسيا وغربي أوروبا ٥ وصقلية ٣ ، ولا يعلل هذا إلا بأن معلومات الرجل عن الأندلس كانت أوسع من معلوماته عن غيره ، واستطراداته التاريخية بالذات تنم عن أن كاتبها أندلسي يعرف دقائق بلده الذي يتحدث عنه ، ولا نجد مثل هذا في مواده المغربية ، بل إن مادته عن سبتة ليست بالغنى الذي ينتظر من رجل سبتى .

كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار

فإذا فرغنا من هذه الملاحظات عن المؤلف والتفتنا إلى كتابه وجدنا أنفسنا أمام معجم جغرافى مرتب على الحروف كأحسن ما تكون معاجم الجغرافية ، ولا يقلل من سلامة هذا الحكم أن معظم الكلام فيه نقل عن الإدريسي والبكري وكتاب الاستبصار في عجائب الأمصار (الذى ألفه مغربي لا نعرف اسمه سنة ٥٨٧/١١٩١) ومراجع أخرى سنذكرها فيما بعد ، بل لا يضيره أن الرجل نقد الإدريسي في فاتحة كتابه نقداً عنيفاً ، ثم اعترف من كتابه بكلتا يديه دون اشارة إلى الأصل المنقول عنه في معظم الأحيان ، فلم يكن هذا بعيب كبير في التأليف في تلك العصور ، والمهم أن الرجل قدم لنا بهذا الجمع مادة جغرافية صحيحة دسمة عن المواضع التي اختارها لمعجمه ، وعرف كيف ينسق هذه المادة ويسوقها على نحو مترابط متكامل بحيث تبدو بعض مواده وكأنها دراسات

قصيرة عن هذا العلم الجغرافى أو ذاك . وما يزيد معجبه قيمة أنه لم يقتصر على المدن أو الأقطار بل شمل بعض المحيطات والبحار والجزر وما إليها من الأعلام الجغرافية ، وأورد فى هذه المواد معلومات جغرافية تدل على فهم وتصور علميين صحيحين ، ومن أمثلة ذلك كلامه عن أقيانس ، والمراد به البحر العظيم الذى كان يظن إنه محيطٌ باليابس كله — ومن هنا جاءت ترجمته العربية بالحيط — وأقيانس هو الرسم العربى لاسمه اللاتينى Oceanus ولم يكن الرومان يسمون الماء محيطات كالأطلسى والهادى والهندي ، وإنما كان عندهم بحراً واحداً هو أقيانس هذا ، وأخذ بعض علماء العرب هذا المفهوم عنهم . وماذا ابن عبد المنعم الحميرى تعرض هذا التصور عرضاً واضحاً .

قال : « هو اسم لبحر الظلمات ، ويقال له البحر الأخضر ، والمحيط الذى لا يدرك له غاية ، ولا يحاط بمقداره ، ولا فيه حيوان ، وهو الذى يخرج منه البحر الرومى الذى هو بحر الشام ومصر والمغرب والأندلس ، فإنه خليج يخرج من هذا البحر . وقد خاطر بنفسه خشخاش من الأندلس ، وكان من فتية قرطبة ، فى جماعة من أحداثها ، فركبوا مراكب استعدوها ، ودخلوا هذا البحر ، وغابوا فيه مدة ، ثم أتوا بفنائم واسعة وأخبار مشهورة . إنما يُركب من هذا البحر مما يلى المغرب والشمال ، وذلك من أقاصى بلاد السودان إلى برطانية ، وهى الجزيرة العظمى التى فى أقصى الشمال . وفيه ست جزائر تقابل بلاد السودان تسمى الخالدات ، ثم لا يعرف أحد ما بعد ذلك . وسنأتى إن شاء الله تعالى بحكاية أخرى عن دخول هذا البحر أطول من هذه فى موضعها فى ذكر الاشبونه » .

ومن العسير علينا أن نتصور اليوم ذلك البحر المحيط أو الاقيانوس الذى كان يدور بالأرض وتتشعب منه بحارها ، ولكن كتاب الجغرافية لأبى بكر الزهرى يقرب لنا هذا المفهوم بعض الشيء ، فهو يقسم الماء المحيط باليابس من الأرض إلى طَوقين : الطوق الأزرق « وهو الدائر بجميع أجزاء الأرض ، وهو

صفة البحر المعروف ببحر الظلمة » ، والطوق الأخضر ، « وهو صفة البحر المحيط بالأرض وأجزائها » وعلى هذا يكون اليابس محاطا ببحر كبير دائر حوله هو المعروف بالطوق الأزرق ، وهذا الطوق المحيط باليابس جزء من الأرض نفسها وهو الذى تنفرع منه البحار التى تتخلل اليابس كالبحر الأبيض وبحر الهند وبحر الصين ، فقد كانت هذه البحار عندهم أشبه بخلجان تنفرع عن بحر الظلمة أو بحر الظلمات وهو الطوق الأزرق هذا . ويحيط بهذا الطوق الأزرق بحر أوسع وأشمل هو المعروف بالطوق الأخضر ، وهذا الطوق الأخضر هو البحر الكبير الذى يحيط بكرة الأرض من الجهة الأخرى كما يحيط الماء فى طبق بأسفل كرة وضعت فيه ، وهذا مجرد تشبيه ، لأن ذلك الغلاف المائى المحيط بالجهة الأخرى من الأرض شبيه بغلاف الثلج الذى يغطى القطب الجنوبى مثلا . والتقسيم إلى نطاق أزرق ونطاق آخر إنما هو تقسيم بالنسبة للقرب من شواطئ اليابس والبعد عنها ، فالمياه القريبة من اليابس زرقاء والبعيدة عنه خضراء . وإقيانس هذا ، أو الطوق — أو البحر — الأخضر كان المجهول الأكبر فى نظر الجغرافيين جميعاً خلال العصور القديمة والوسطى ما بين مسلمين وغير مسلمين ، ويصور لنا الإدريسي موقف الحيرة والرعبة الذى وقفه العقل البشرى من هذا المجهول الأكبر إلى أيامه ، قال فى كلامه عن الأندلس :

« وسميت جزيرة الأندلس بجزيرة لأنها شكل مثلث وتضيق من ناحية شرق الأندلس حتى تكون بين البحر الشامى والبحر المظلم المحيط بالأندلس خمسة أيام ، ورأسها العريض نحو من سبعة عشر يوماً ، وهذا الرأس هو فى أقصى المغرب فى نهاية انتهاء المعمور من الأرض محصور فى البحر المظلم ، ولا يعلم أحد ما خلف هذا البحر المظلم ، ولا وقف منه بشر على خبر صحيح لصعوبة عبوره وإظلامه ، وتعاظم موجه وكثرة أهواله وتسلبت دوابه وهيجان رياحه » (١) .

(١) الإدريسي ، صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ، مأخوذة من كتاب « نزهة المشتاق فى اختراق الأفاق » بتحقيق رابهارت دوزى ودى خويه ، ليدن ١٨٦٤ ، ص ١٦٥

أما التصور الشعبي ، وهو قائم على حكايات الملاحين والشُّفَّار ، فلا يعطى عن هذا المحيط هذه الصورة الرهيبة ، بل يرسمها في صورة شاعرية نسجها الخيال الساذج على أساس بعيد من تجارب حقيقية ، وهذه الصورة نجدها بالذات عند محمد بن عبد المنعم الحميرى في كلامه عن قادس وصنمها الذى كان موضعاً لأساطير وحكايات وتخيلات كثيرة عند أهل الأندلس ، وقد رأينا بعضها فيما نقلناه عن أبى بكر الزهرى ، ونورد فيما يلى فقرة الروض المعطار ، وهى من الفقرات القليلة التى لا نعرف الأصل الذى نقلت عنه ، قال : « ويزعم أهل جزيرة تادس أنهم لن يزالوا يسمعون أن الراكب فى هذا البحر إن ألجَّ فيه وغاب عنه صنم قادس ، بدا له صنم ثانٍ مثله ، فإذا وصلوا إليه وجاوزوه حتى يغيب عليه ^(١) ، بدا له صنم ثالث ، فإذا تجاوزوا سبعة أصنام صاروا فى بلاد الهند . وهذا مستفيض عندهم ، معروف جارٍ على ألسنتهم ، ولما يزل يأخذه آخرهم عن أولهم ^(٢) » .

وقد درس ليفى بروفنسال فى مقدمته المستفيضة لما نشر من الروض المعطار موضوعَ المراجع التى استقى المؤلف منها المادة الجغرافية فى كتابه ، وهى على الترتيب : نزهة المشتاق للدريسي والمسالك والممالك للبكرى ونظام المرجان للعذرى وكتاب الاستبصار فى عجائب الأمصار لمؤلف مغربى من أهل القرن السادس الهجرى لا نعرف اسمه إلى الآن . وأما المادة التاريخية فيرجع معظمها إلى كتابين أولهما مجهول المؤلف وهو « مجموع المفترق » والثانى « كتاب المغرب فى أخبار المغرب » لأبى التقي طاهر بن عبد الرحمن ، والكتابان فى عداد مفقودات المكتبة العربية إلى الآن . ومن الواضح أن كلام بروفنسال منصبٌ على الأجزاء الأندلسية من الكتاب ، وهى الوحيدة التى درسها دراسة وافية ، لأن الحقيقة

(١) يلاحظ هنا اضطراب السياق من ناحية النحو والصياغة ، وسبب ذلك — فيما يبدو — أن المؤلف يثبت رواية شعبية كما سمعها .
(٢) الروض المعطار ، ص ١٤٨

أن لكتاب الروض المعطار مراجع أخرى كثيرة فيما يتصل بمواده غير الأندلسية ، وخاصة فيما يتصل ببلاد الشرق العربية والإسلامية ، وكذلك مادته المغربية تعتمد على مراجع أخرى غير البكرى والاستبصار ، فقد اطلع الحيرى دون شك على مؤلفات أصحاب « أطلس الإسلام » — وهم أبو زيد أحمد بن سهل البلخى وأبو إسحاق إبراهيم الاصطخرى وأبو القاسم محمد بن حوقل ومحمد بن أحمد بن أبي بكر المقدسى — فإن كتابه حافل بالاقتراسات منهم وإن لم يصرح بذلك .

وعدم التصريح بذكر المراجع هذا آفة من آفات هذا الكتاب ، حقا أن ذلك عيب شائع في الكثير جداً من الكتب التي كتبت في هذه العصور ، ولكن ابن عبد المنعم الحيرى يضيف إلى إغفال ذكر الأصول عيب النقد العنيف لأصحابها ، ومن ذلك مثلاً قوله في المقدمة مشيراً إلى نزعة المشتاق للادريسي بعد أن نقل عنه أكثر من ثلث مادته الجغرافية عن الأندلس على الأقل : « ثم إنى قسنته (أى كتاب الروض المعطار) بالكتاب الأجارى ^(١) المعروف بنزهة المشتاق فوجدته أعظم فائدة وأكثر أخباراً وأوسع في فنون التواريخ وصنوف الأحداث مجالا حتى في وصف البلاد ، فإنه إنما ذكر نبذةً منها وشيئاً قليلاً في مواضع مخصوصة معدودة ، بل إنما عظم حجمه بما اشتمل عليه من قوله : « من فلانة إلى فلانة خمسون ميلاً أو عشرون فرسخاً ، ومن فلانة إلى فلانة كذا وكذا » ، أما الخبر عن الأصقاع مما يحسن إيرادها ، ويلد سماعه ، من خبر طريف ، أو وصف يستغرب أو يستملح ، فإنما يوجد فيه في مواضع قليلة معدودة ، إلى ذلك من عُسر وجدان الناظر فيه بمطلوبه بأول وهلة بل بعد البحث والتفتيش ^(٢) » .

(١). في الأصل المطبوع : الأخبارى ، ولا معنى له هنا ، وإنما هو الأجارى أو الرجارى نسبة إلى أجار ومى لغة في رجار ، والمراد روجر الثانى ملك النورمان الذى تحدثنا عنه فيما سبق .

(٢) الروض المعطار ، مقدمة المؤلف ، ص . ح

وهذا كلام يستكثر من رجل أغترف من الإدريسي حتى ثقل كتابه بما أخذ ، ثم إن الروض المعطار أيضاً مليء بقوله « من فلانة إلى فلانة خمسون ميلاً أو عشرون فرسخاً » وانظر على سبيل المثال كلامه عن مواضع مثل بَيْتَارَه وَبَيْتَاسَة وطرطوشة وطركونه وما إليها .

أما أن كتاب الإدريسي لا يستكثر من التاريخ والأخبار فرجعه كما رأينا إلى أنه كان يرى نفسه جغرافياً لا مؤرخاً ، وربما كان أول من فصل بين التاريخ والجغرافية بوضوح ، وهذه حقيقة لم يتبينها محمد بن عبد المنعم الحميري لأنه كان يرى أن التاريخ جزء لا يتجزأ من الجغرافية — أو هي جزء منه بتعبير أدق — ولهذا يقول في المقدمة : « ورتبته على حروف المعجم ، لما في ذلك من الإحماض ^(١) المرغوب فيه ، ولما فيه من سرعة هجوم الطالب على اسم الموضوع الخاص من غير تكلف عناء ولا تجشم تعب ، فقد صار هذا الكتاب محتوياً على فنين مختلفين : أحدهما ذكر الأقطار والجهات ، وما اشتملت عليه من النعوت والصفات ، وثانيها الأخبار والوقائع المختلفة بها ، الصادرة عن مجتليها ^(٢) » .

وإذن فمحمد بن عبد المنعم الحميري يرى أن وصف البلاد لا يكتمل إلا إذا أضيف إلى « ذكر الأقطار والجهات » سرد « الأخبار والوقائع المختلفة بها » أما الاختصار على الوصف الجغرافي وحده والاجتهاد في تعرف المسافات وقياس الأبعاد فعييب يأخذه هو على الإدريسي . وهكذا نعود إلى الوراء مرة أخرى ونُبهم مفهوم الجغرافية كعلم قائم بذاته مستقل عن التاريخ والأدب .
غير أن ترتيب الأماكن على حروف المعجم يعتبر في ذاته الميزة الأولى لكتاب الروض المعطار ، ومن الحق أن تقرر أن محمداً بن عبد المنعم الحميري

(١) كلمة « الأحماض » هنا لا معنى لها . ولا بد من الرجوع إلى المخطوط لتصويبها .

(٢) مقدمة الروض المعطار ، ص . ح .

قد خطا في الغرب الإسلامي خطوة واضحة بفن المعاجم الجغرافية بعد البداية الطيبة التي قام بها أبو عبيد البكري في «معجم ما استعجم»، فإن هذا رغم اجتهاده في احصاء الأماكن وترتيبها ابجدياً نادراً ما يستوفى الكلام عن مكان في موضعه، بل يحيل على مواد أخرى له، فأنت تبحث فيه عن موضع يسمى المَرْقعة، فيقول لك أنه موضع قد تقدم ذكره في رسم أُبْلَى، وتبحث تحت أُبْلَى فيقول لك موضع تنسب إليه رحلة أُبْلَى، وهو مذكور في حرف الراء، وتبحث في حرف الراء تحت «رحلة أُبْلَى»، فلا تجد إلا ما يلي: قال أبو حنيفة: هي أرض مشهورة، ثم يستشهد ببيت شعر للراعي ورد ذكرها فيه ويضيف: «والرجلة مسيل ينبت البقل»، وهكذا تخرج بعد البحث أربع مرات دون نتيجة، وحتى في الحالات التي تخرج فيها بنتيجة لابد أن يحيلك مرة أو مرتين إلى مواد أخرى، فإذا طلبت «رُحْبَه» أحالك على رسم ضَرْيَّة، وبالفعل تجد ما تريد تحت هذه المادة، وأنت تبحث عن فيفاء الخيل فيحيلك على «فَيْف» حيث تجد بعض ما تريد، ولكنك لابد أن ترجع إلى مادة «الحشا» لتستكمل ما تطلب. أما مواد «الروض المعطار» فستؤافة دون إحالة أو حاجة إلى الرجوع إلى مواد أخرى، وهذا المذهب الصحيح في عمل المعاجم يشبه ما نجده عند ياقوت. فهل نستطيع أن نفترض أن صاحب الروض المعطار رأى معجم ياقوت وأفاد منه؟

الحق أن هذا سؤال تعسر الإجابة عليه، ولا يمكننا نفى هذا الاحتمال مستندياً إلى أن الحميري لم يشر إلى ياقوت مرة واحدة، لأنه — أي الحميري — طالما أخذ عن الناس دون أن يشير، ثم إن اطلاعه على ذلك المعجم الكبير غير مستبعد أصلاً، فقد أتمه ياقوت سنة ٦٢٤/١٢٢٤ وذاع صيته بعد ذلك مباشرة، وقد عاش محمد بن عبد المنعم الحميري في النصف الثاني من ذلك القرن السابع الهجري، بل زار الحجاز وأدى الفريضة وأطال المقام في الأرض المقدسة وختم معجمه في جدة كما تدل على ذلك عبارة الختام، ومن المستبعد

جداً أن يكون شيخ طالب علم كـؤلف الروض موجوداً في الحجاز مشغولاً بمعجمه ويغيب عنه ذكر معجم ياقوت وكان إذ ذاك ملء أسماع الناس ، وهناك قرينة واضحة تؤيد ذلك الفرض هي أن ابن عبد المنعم الحيرى يخلط الأدب بالجغرافية مثل ياقوت ، ويندر أن يذكر موضعاً نجم فيه أديب دون أن يذكر هذا ويروى له شعراً ما أمكن ، بل في بعض الأحيان تقتصر المادة على ذكر شاعر نشأ في الموضع وذكر بعض شعره .

فإذا تركنا هذا البحث وراء المراجع ونظرنا في المواد نفسها وجدنا أنفسنا أمام ثروة جغرافية عظيمة القيمة ، عرف المؤلف كيف يجمعها ويسوقها في نسق مترابط ، بل أعاد سياغة بعض الفقرات التي أخذها عن غيره لكي تنسجم مع المجموع ، وخير ما يعطينا فكرة عن طريقة تأليف هذا الكتاب ومنهج تصنيفه أن نحلل المادة الأولى من مواد القسم الخاص بالأندلس التي نشرها ليفي بروفنسال في كتاب « صفة جزيرة الأندلس » ، وزردها إلى أصولها ما تيسر ذلك ، ولن نستطيع إيرادها هنا على تواليها ، فهي تحتل قرابة العشر صفحات من ذلك الكتاب ذى القطع الكبير ، والكتاب مطبوع متداول بأيدي الناس . تتكون مادة « أندلس » هذه كما يلي :

تبدأ المادة بمجموعة من الفقرات التمهيدية (١ - ١٠) التي تساق عادة كدخول للكلام على الأندلس في كتب الجغرافية الأندلسية ، وهذه الفقرات مقتبسة من الرازى وصاعد بن أحمد الأندلسى والبكرى وعبد الملك بن حبيب وأبى القاسم خلف بن بشكوال وابن حيان وآخرين أقل من هؤلاء أهمية . وهي خليط من الجغرافية الطبيعية والفلكية والمباحث الفيلولوجية في أصل اسم الأندلس والتاريخ المحقق والأسطوري والأحاديث النبوية التي أوردها عبد الملك بن حبيب وأبو القاسم بن بشكوال في فضل الأندلس . وهذه الفقرات تجمع هذه الأشتات من المعلومات العامة عن الأندلس وموقعه من الأقاليم ومكانه من الأرض والهيئة

المثلثة لشبه الجزيرة وما يحيط بها من البحار ، وجوّ الأندلس وهوائه وبعض ميزاته الطبية وفضل أهله في الجهاد ومسافة ما يملكه المسلمون منه والاجناس التي سكنته قبل العرب . كل ذلك مسوق في نسق واحد لا يخلو من بلاغة ونحن نجد في هذه الفقرات كل العبارات المحفوظة عن الأندلس ، والتي أصبحت كقضايا مسلم بها أو « كليشيات » تتردد دون تغيير كلما جاء ذكر الأندلس مثل : « واسم الأندلس في اليونانية إشبانيا ... » (البكرى) و « الأندلس آخر المعبور في المغرب لأنها متصلة ببحر أوقيانوس ... » (الرازى) ، « وقيل اسمها في القديم إبارية ... » (البكرى) ، « وسميت جزيرة الأندلس بجزيرة لأنها شكلت مثلث ... » (الرازى والإدريسي) ، « ويحيط بها البحر من جميع جهاتها الثلاث » (الإدريسي) ، « والأندلس أقاليم عدة ورساتيق جملة ... » (الرازى) ، « والأندلس شامية في طبيعتها وهوائها ... » (البكرى) ، « والأندلس دار جهاد وموطن رباط ... » (عبد الملك بن حبيب وابن بشكوال) ، « أول من سكن الأندلس بعد الطوفان — على ما يذكره علماء عجمها — قوم يعرفون بالأندلس (بشين معجمة) بهم سُمي البلد ثم عُرب ... » (الرازى) ، إلى آخر هذه العبارات التي كانوا يعتبرونها جُماع ما يمكن قوله كمدخل للكلام عن الأندلس ، وهي عبارات ذات قيمة جغرافية وتاريخية واضحة ، ولكن الذي يستوقف النظر أنها ظلت تكرر وتعاد قرناً بعد قرن من الرابع الهجري إلى آخر العصور الوسطى ، فلم يدخل على هذه الطريقة تغييراً إلا الإدريسي كما بينا ذلك بتفصيل ، وإن كنا ينبغي أن نقرر أن التغيير الذي أدخله الإدريسي مسّ طريقة الوصف أكثر مما مسّ مادته نفسها ، فقد اختبر أطوال المسافات والحقائق الصغيرة عن المدن ، ولكنه لم يختبر الحقائق الكبرى الخاصة بشبه جزيرة إيبيريا مثلاً ، ومن هنا قلل ظل يقول أنها مثلث ذو ثلاثة أركان .

وبعد هذه الفقرات يسترسل محمد بن عبد النعم الحيرى مع التاريخ ويصل إلى فتح العرب للأندلس فيذكره بتفصيل كبير .

وهذه الطريقة التي اتبعها في تأليف المدخل هي التي سار عليها في الكلام على كل موضع بعد ذلك : يقرأ كل ما تيسر له من الأصول الجغرافية والتاريخية ويوجزها أو يختار منها ما يرى أنه أساسى ، ثم ينظم ما يوجز وما ينقل في نسق واحد . وهنا يتفاوت حفظه من التوفيق وعدمه ، ففي أحيان كثيرة يكتفى بوضع كلمات لا تفيد كثيراً مثل قوله : « أُبْدَة (Ubéda) : مدينة بالأندلس ، بينها وبين بياضة سبعة أميال ، وهي مدينة صغيرة على مقربة من النهر الكبير ، ولها مزارع وغللات قح وشعير كثيرة جداً ^(١) » او « أبطير : حصن بالأندلس بمقربة من بطليوس من بناء محمد بن أبى عامر من جليل الصخر ، داخله عين ماء خراة ، وهو اليوم خال ^(٢) » وهذه إشارات لا تقدم ولا تؤخر ، ويتضح لنا عجزه عن الاختيار أو التلخيص عند ما نجد ياقوت يقول عن أبدة مثلاً (يكتبها بالدال) : « اسم مدينة بالأندلس من كورة جيان تعرف بأبدة العرب ، اختطها عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن ابن معاوية بن هشام بن عبد الملك ، وأتمها ابنه محمد بن عبد الرحمن ^(٣) » . وأمثال هذه التعريفات الهزيلة كثيرة في الروض المعطار .

وفي بعض الأحيان يوفق توفيقاً طيباً في الاختيار والاختصار فن أمثلة اختياره الجيد قوله عن بلدة أبال ناقلًا عن الإدريسي ^(٤) :

(١) الروض المعطار ، ص ١١

(٢) نفس المرجع والصفحة ، ولم يستطع ليني برونسسال تحقيق هذا الموقع ، وهذا لا يستغرب لأنه لم يكن إلا حصناً بناء المنصور محمد بن عامر لبعض أغراضه السياسية والعسكرية ، ثم خلا وهجر بعد ذلك كما يتضح من النص .

(٣) ياقوت ، معجم البلدان ، ١ / ٧٣

(٤) صفة الأندلس والغرب ، ص ٢١٣ — ٢١٤

وذهب ليني برونسسال (الترجمة الفرنسية للروض المعطار ، هامش ١) أن أبال تقابل اليوم بلدة Obejo أو Ovejo إلى الشمال قليلاً من قرطبة . واعتمد في ذلك على ما ذكره اليمان بولوفر في بحثه الذي أشرنا إليه مراراً عن جغرافية شبه الجزيرة عند جغرافي العرب :

José Alemany Bolufer: *La Geografía de la Península Ibérica en los Escritores Arabes*, Granada, 1921. (Separata de la Revista del Centro de Estudios Históricos de Granada y su Reino), p. 64.

« حصن بالأندلس في شمال قرطبة وعلى مرحلة منها ، وهو الحصن الذى فيه معدن الزئبق .

وفيه يعمل الزنجفور ومنه يتجهز بالزئبق والزنجفور^(١) إلى جميع أقطار الأرض ، ويخدم هذا المعدن أكثر من ألف رجل ، يقوم للنزول وقطع الحجر ، وقوم لنقل الحطب لحرق المعدن ، وقوم لعمل أوائى السبك والتصفية ، وقوم لبنيان الأفران والحرق ، ومن وجه الأرض إلى أسفله فيما حكى أكثر من مائة قامة .

فهذه المادة تعتبر من أحسن ما أورده الإدريسي في كلامه عن « الأندلس » فهى وصف فريد فى بابها للمناجم ونظام العمل فيها فى الأندلس ، وقد أكد الباحثون المعاصرون التفصيلات التى أوردها الإدريسي فى سطورہ القليلة هذه وقالوا إن هذا التنظيم للعمل فى المناجم كان متبعاً فى كل مناجم إسبانيا إلى حين قريب ، ويذكر الإدريسي أنه كان بنفسه فى أبال ورأى العمل فى ذلك « المعدن » ويراد به المنجم ، وقد عرف محمد بن عبد المنعم الحيرى أهمية هذه السطور فأوردها فى كتابه .

ومن أمثلة تلخيصه الجيد كلامه عن أرشدونه Archidona (ص ١٢) وهى اليوم بلدة صغيرة فى مديرية مالقة ، ولكنها كانت أيام العرب كورة صغيرة شرقى كورة مورور Moron تصل إلى البحر عند مالقة . فقد عرف الحيرى كيف يفرق بينها وبين شذونه Medina Sidona وكانت أيضاً كورة صغيرة جنوبى الوادى الكبير ثم ضمت إلى كورة اشبيلية ، وهى الآن بلد صغير فى

(١) والزنجفور أو الزنجفر هو كبريتات الزئبق الحمراء red mercuric sulfide وكان من أهم المواد التى استعملها الناس منذ الزمن القديم للصباغ الأحمر ، ولهذا يسمى بالأحمر الطبيعى native vermillion ومناجمه فى جبال المدن Sierra Morena مشهورة فى الدنيا كلها ، ومدينة المعدن Almaden فى هذه الجبال لا زالت إلى الآن من أكبر مراكزه . (انظر دائرة المعارف البريطانية تحت لفظ Cinnabar) وانظر عن هذه المناجم وأهميتها المراجع التى أوردها بروفيسال فى تعليق رقم ١ ص ١٥ من الترجمة الفرنسية .

مديرية قادس في منتصف المسافة بين الجزيرة الخضراء وشريش Jerez de la Frontera ، وقد خلط الكثيرون من الجغرافيين القدامى بين البلدين .
 وأمثلة توفيقه في الاختصار والاختيار — أو عرض خلاصة قراءات شتى — كثيرة ويبدو هذا في صورة واضحة عند كلامه على أعلام جغرافية تتعلق ببحار أو أقاليم واسعة أو صغيرة أو جبال وما أشبه ، فمن أمثلة كلامه على البحار مادة أقيانس التي ذكرناها ، ومن أمثلة كلامه عن أقاليم صغيرة كلامه عن إقليم الشرف (رقم ٩٠ ص ١٠١ من النص العربي) وهو إقليم الزيتون الواقع شمال اشبيلية وشمالها العربي ممتداً إلى البرتغال ، ولا زال يسمى إلى الآن باسم Ajarafe أو Aljarafe (انظر الترجمة الفرنسية للروض ، ص ١٢٤ تعليق ٤) ومن أمثلة كلامه على أقاليم كبيرة كلامه عن « افرنجة » (رقم ٢١ ص ٢٦ — ٢٨) ، وقد ذهب ليفي بروفنسال (ص ٣٢ من الترجمة الفرنسية) أن المراد بها فرنسا ، ولكننا نحسب أن المراد هنا بلاد غربي ووسط أوروبا (عدا اسبانيا والجزر البريطانية وبلاد الشمال وإيطاليا) حتى حدود بلاد الصقالبة الروس ، وإليك نص القسم الجغرافي من المادة لتتبين قيمته :

« إفرنجة : في وسط الإقليم الخامس ، هواؤها غليظ لشدة بردها ، وصيفها معتدل ، وهي بلاد كثيرة الفاكهة ، غزيرة الأنهار المنبعثة من ذوب الثلج ، ومدائنها متقنة الأسوار ، محكمة البناء ، وآخر حدودها البحر الشامي بقبليها ، والبحر المحيط بجوفها ، وتتصل ببلاد رومة أيضاً من ناحية القبلة ، وتتصل أيضاً من ناحية الجوف ببلاد الصقالبة^(١) ، بينهما شعراء ملتفة مسيرة الأيام الكثيرة ، وتتصل في الشرق بالصقالبة^(١) أيضاً ، وتتصل في الغرب بالبشكنش^(٢) ، وتتمادى أعمال إفرنجة في الطول والعرض مسيرة شهرين في

(١) هذا التحديد يؤيد ما ذهبنا إليه من المراد ببلاد افرنجة هنا .

(٢) المراد بهم البسكوت Los Vascos الاسبان والفرنسيون ، ويسمى الاسبان منهم أيضاً Vascones ومن هنا أتت هذه الصورة العربية للاسم .

شهرين ، ويحجز بين بلاد إفرنجة وبلاد الصقالبة من الجوف والشرق^(١) الجبل المعترض بين البحرين^(٢) ، فيتمادي بلاد الإفرنج مع ساحل البحر الشامي حتى يلزق بجزيرة رومة^(٣) وبلاد أنقُزْدِيَّة^(٤) ، ويتمادي مع الجبل المعترض في الجوف إلى البحر المحيط ، ويتصل بالصقالبة بلاد المجوس المعروفين بالأنقلش^(٥) ؛ وسيوف إفرنجة تفوق سيوف الهند ، ومنها يرد الرقيق من بلاد الصقالبة ، ولا يكاد يرى ببلاد إفرنجة زمن ولا ذو عاهة ، والزني في غير ذوات الازواج عند الإفرنج غير منكر ، وإذا حلف أميرهم أو كبيرهم حائثاً استهانوه ، ولم يزالوا يعبرونه بذلك . وأبناء الاشراف عندهم يسترضعون في الألباعد ، ولا يعرف الابن أبويه حتى يعقل ، وإذا عقل رد إليهما ، فيراهما كالسيدين ويكون لهما كالعبد .

وقد نبه ليفي بروفنسال إلى أن جزءاً من هذه المادة منقول عن البكري ، ونضيف إلى ذلك أن البكري أخذ معلوماته عن تلك البلاد عن إبراهيم بن أحمد الطرطوشي . والغالب أن محمداً بن عبد النعم الحيمري أطلع على رحلة الطرطوشي بنفسه ، وهذا ظاهر من سياق كلامه عن مدينة لورقة (انظر ص ١٧١) ، وسواء أخذ الحيمري عن البكري أو الطرطوشي فالمادة نفيسة تدلنا على أن معلومات أهل الأندلس عن بقية أوروبا كانت صحيحة في مجموعها ،

(١) أي من الجنوب المشرق والفرق .

(٢) ذهب بروفنسال إلى أن المراد بهذه الجبال جبال الألب ، ولكننا نظن أن المراد جبال الكربات .

(٣) أي شبه جزيرة إيطاليا .

(٤) سهل لمبردية لسبة إلى اللباردين ، والصورة العربية هي رسم لاسمهم في اللاتينية Lungubardi ويكتبونه في بعض الأحيان المتكبرة (يضم الكاف وفتح الباء) .

(٥) الانقلش هنا تعريف للاسم القديم لقبائل الأنجلز Angles الذي اشتق منه اسم الأنجلز ، والمراد هنا ليس الأنجلز وحدهم بل شعوب الشمال أهل اسكنديناوة أيضاً ، وكانوا يعرفون عند الأندلسيين بالمجوس كما يبناء في بحثنا عن يحيى الغزال ورحلته إلى بلاد الشمال .

وهذا أمر لا يستغرب من قوم كانوا أول من نقل إلى العربية كتاباً في وصف أوروبا . وقد رأينا كذلك أطرافاً مما كتبه إبراهيم بن أحمد الطرطوشي والبكري ، ومن أسف أننا لم نعثر إلى الآن على الجزء الذي كتبه ابن سعيد عن الأرض الكبيرة .

هذه صورة عامة عن تكوين ذلك المعجم الجغرافي ومادته ، وكلامنا مبني في الأغلب على المواد الخاصة بالأندلس كما نشرها ليفي بروفنسال ، ولم نستطع الاطلاع إلا على جزء من الأصول التي نشر عنها ، ولا شك أن الكتاب كله في حاجة إلى نشر عندما يتيسر جمع المخطوطات المتفرقة التي كانت في حوزة هذا العلامة الفرنسي وحقق الكتاب عليها .

وبهذه المناسبة لا بد أن نذكر أن الترجمة الفرنسية التي قام بها للمواد الأندلسية من الروض المعطار والتعليقات التي أضافها إليها زادت في قيمة الكتاب وأظهرت فضله ، وهذا مثال على العمل العلمي الجيد القائم على الاخلاص في خدمة النص وقارئه ، ومن أحسن ما عمله بروفنسال بالإضافة إلى مقدمته للكتاب ذلك التحليل الدقيق لمادته (ص ٢٨ — ٣٤) في آخر الترجمة الفرنسية ، فقد عمل ثباتاً بكل مواضع الكتاب التي وردت فيها معلومات جغرافية أو تاريخية أو أدبية ، وسأورد فيما يلي ترجمة للأبواب الجغرافية من ذلك التحليل ، وقد أوردتها هو مشيراً إلى صفحات الكتاب ، وسنكتفي نحن هنا بذكر عدد المواضع في كل حاله ، لأن غرضنا هو بيان قدر المادة العلمية للكتاب .

أولاً : مصادر الثروة الطبيعية

- ١ — المعادن والتعدين : يرد الكلام عنها في ٢٣ موضعاً .
- ب — عيون المياه المعدنية في ١٠ مواضع .
- ج — نبات الأندلس الطبيعي : يتحدث عن ٤ نباتات في ٨ مواضع .

- د — زراعة الحبوب (القمح والشعير خاصة) في ٨ مواضع .
- هـ — الشجريات (وخاصة شجر الفاكهة) ، يتحدث عن ٧ أنواع من الأشجار في ٢٦ موضعاً .
- و — الكروم في ١٢ موضعاً .
- ز — الزيتون في ١٢ موضعاً .
- ح — شجر التوت وتربية دود القز في ٥ مواضع .
- ط — زراعات أخرى ذات قيمة إقتصادية مثل الصبغ السماوى والزعفران وما إليها في ٦ مواضع .
- ى — الرى : نظامه في ١١ موضعاً من الأندلس .
- ك — تربية الماشية في ٥ مواضع .
- ل — تربية النحل واستخراج عسله في ٣ مواضع .
- م — مصائد السمك في ٥ مواضع .

ثانياً : النشاط الصناعى

- ا — التعدين في ٥ مواضع .
- ب — مواد البناء والحاجر في موضعين .
- ج — الطواحين في ٩ مواضع .
- د — دور الصناعة والصناعات البحرية (مثل استخراج الملح) في ٨ مواضع .
- هـ — محصولات تصدر إلى خارج الأندلس : ١٠ محصولات .

ثالثاً : معلومات عن المدن

- ا — تحقيقات لغوية عن أصول اسمائها في ٩ مواضع .
- ب — أمثال خاصة بالمدن : ٣ أمثال .

- ج — مواقع أثرية في ٢٣ موضعاً .
 د — أسوار قديمة ظلت قائمة في العصر الإسلامي إلى أيام المؤلف في ٢٦ موضعاً .
 هـ — بوابات : ٧ بوابات .
 و — قلاع : ١٣ قلعة .
 ز — قناطر وجسور قوارب : ٦ .
 ح — مجارى مياه في ٧ مواضع .
 ط — مواضع امتشقاء بالمياه في ١٠ مواضع .
 ي — مساجد ومساجد جامعة : ٣٠ مسجداً موصوفاً .
 ك — كنائس وأديرة ومواضع مسيحية ذات قداسة : ١٠ .
 ل — أسواق : ٢١ سوقاً .

رابعاً : معلومات عن الضرائب

- أ — إشارات إلى أقسام إدارية ضرائبية في ١٣ موضعاً .
 ب — إشارات إلى ضرائب في ٧ مواضع .
 وهذا الأحصاء يعطى القارئ فكرة عن قيمة الثروة الجغرافية والحضارية التي تضمها مواد هذا الجزء الخاص بالأندلس من الروض المعطار ، فإذا ذكرنا أن مواد المغربية تضم مثل هذا القدر من المعلومات ، وأن البلاد التي تيسرت له عنها مادة وافرة — مثل مصر — حظيت بمثل هذا القدر الوافر من التفاصيل تبيننا بالفعل أن محمد بن عبد المنعم الحميرى أهدى المكتبة الجغرافية معجماً يعتبر بحق خطوة واسعة إلى الأمام في تاريخ المعاجم الجغرافية العربية .
 ولم نشر في الكلام إلى مادته التاريخية لأنها خارجة عن موضوع هذه الدراسة ، ولكنها ينبغي أن تدخل في الاعتبار عند التقدير العام لذلك المعجم ،

ومن حسن الحظ أن معظم المادة التاريخية التي ساقها في هذا الكتاب تتناول
عصرى المرابطين والموحدين وتعتمد على كتب لم نجدها أو لم نجد بعض أجزائها
إلى الآن مثل تاريخ أبي مروان بن صاحب الصلاة وأبي التقى طاهر بن
عبد الرحمن .

الاشارات الجغرافية في كتابات ابن الخطيب

ونصل إلى لسان الدين بن الخطيب وهو آخر من سنتعرض لهم بالكلام في هذا التاريخ ، لا لأننا نقطع بأنه آخر أندلسي نعرف له إسهاماً في الجغرافية والرحلات ذات القيمة الجغرافية ، بل لأننا ينبغي أن نقف بالكلام عند نقطة ما ، وليس لدينا بعد ذلك شيء أندلسي يحقق في الجغرافية إلا مختصر جيد لجغرافية الأندلس وتاريخه كتبه رجل نحسب أنه عاش بعد ابن الخطيب ، ولم نثر على اسم المؤلف أو عصره ، فإن القسم التاريخي من الكتاب يقف عند نهاية هشام المعتد آخر خلفاء المروانية الأندلسيين في حين أننا نقرأ بخط مخاف على ظهر غلاف الكتاب أنه يصل بالحوادث إلى نهاية القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي ، وسنلم بذكره بعد أن نفرغ من ابن الخطيب .

ثم إن ابن الخطيب نهاية معقولة لمثل هذا التاريخ ، فهو دون شك آخر السلسلة الذهبية من أعلام الفكر الأندلسي ، وعنده ينتهي علم التاريخ وفنون الأدب فيه ، ولا نعي بذلك أنه لم يظهر بعده في الأندلس مؤرخ أو ناثر أو شاعر ، بل معناه أنه آخر من انتهى إليه التجويد في هذه الفنون ، فقد قال الشعر الجيد في الأندلس بعد موت ابن الخطيب أبو عبد الله محمد بن يوسف الشريحي المعروف بابن زمرك (٧٣٤-٧٩٦ / ١٣٣٣-١٣٩٣) وكتب في التاريخ بعده كذلك أبو الحسن علي الثبائي المالقي (توفي ٧٩٤ / ١٣٩١) ولكن هذين — وأمثالهما كثيرون — يبدوون وكأنهم أصداء مترددة بل متلاشية بعد حفوت

الصوت الجهير وانقطاعه ، وهم بالنسبة لابن الخطيب كـنيسة سلاطين غرناطة بعد محمد بن يوسف الغنى بالله إلى من قبله ، فإن عصر محمد الغنى بالله هذا هو الفاصل بين فترة الاستقرار والأمل في البقاء قبله وخلال حكمه وفترة الفوضى والتراجع واليأس التي بدأت في عهد ابنه وخليفته أبي الحجاج يوسف (الثاني) ابن محمد الغنى بالله (٧٩٣ — ٧٩٧ / ١٣٩١ — ١٣٩٤) واستمرت بعد ذلك قرناً من الزمان في اضمحلال وتناقص مستمرين فيما خلا فترات قليلة قصيرة حتى انتهت بزوال مملكة غرناطة في ٢ ربيع الأول ٨٩٧ / ٢ يناير ١٤٩٢

وكان ابن الخطيب معاصراً لمحمد الغنى بالله هذا ، وكان من كتّابه ووزرائه كما كان من كتاب أبيه أبي الحجاج يوسف (الأول) بن أبي الوليد . وأخذ ابن الخطيب بنصيب وافر من الأهوال التي خاض غمارها سلطانه محمد الغنى بالله . ومن سوء الحظ أن مملكة غرناطة ابتليت من مولدها إلى مماتها بنقمة الشقاق والنزاع بين حكامها وأصحاب الأمر فيها ، ولم يستطع ابن الخطيب أن ينجو بنفسه من معاطب هذه المنازعات ، لأنه كان بطبعه طموحاً إلى السلطان والجاه حريصاً على المال والثراء ، وقد أشقاه هذا الطموح وذلك الحرص فدخل في منازعات خطيرة وتعرض لخطوب وألوان من الهوان ما كان أغناه عنها .

ولن نقص هنا حياة لسان الدين أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد ابن محمد بن عبد الله السلماني ، فقد أتينا بموجزها في كتاب تاريخ الفكر الأندلسي (فقرة ٨١ ص ٢٥٢ — ٢٥٩) ، ورواها محمد عبد الله عنان في مقدمة الجزء الأول من « الإحاطة » الذي حققه ونشره سنة ١٩٥٥ (٣٠ — ٥٨) ، وفي كتابه « نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين » (الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٥٨ ، ص ٤٥٣ — ٤٦١) ، وأتى كذلك بدراسة شاملة مستفيضة لمؤلفاته في الأدب والتاريخ والطب والموسيقى وما إلى ذلك مما شملته عبقرية ابن الخطيب وروى حياته بتفصيل كبير فرانشيسكو بونس بويجس في كتابه الحافل الذي يستغنى عنه دارس في تاريخ الفكر الأندلسي (رقم ٢٠٤ ص ٣٣٤ — ٣٤٦) ،

وقصّها أحمد مختار العبادي ومحمد إبراهيم الكتاني في مقدمة الجزء الذي نشره من « أعمال الأعلام » (الدار البيضاء ١٩٦٤) ، هذا بالإضافة إلى مادة بروكلمان عنه^(١) .

وهذا كله يغنيننا عن رواية تاريخ حياته وسرد مؤلفاته وهي كثيرة جداً ، لأن لسان الدين بن الخطيب كان رجلاً واسع الثقافة متعدد الجوانب والاهتمامات الفكرية ، فكان شاعراً مترسلاً مؤرخاً جغرافياً طيباً عالماً بالموسيقى ، وكانت له معرفة بشئون الإدارة واطلاع على مسائل السياسة والحكم ، ومن حسن الحظ أنه كان مولعاً بالكتابة ، فألف في ذلك كله وأفاض ، ولم يترك فكرة دارت في ذهنه إلا كتبها أو معنى جال في خاطره إلا أثبتته ، ولو أحصينا صفحات ما كتب من المؤلفات العلمية لبلغت ألوفاً غير رسائله الديوانيات والإخوانيات وقد جمع منها الكثير في مجلدات ، وأورد لنا المقرئ في « نفعه » عدداً كبيراً منها ، ثم ديوان شعره ، ولا بد أنه كان ضخماً ، فقد كان الرجل مكثراً من الشعر يقوله في كل مناسبة ، وإن لم يصل إلى مراتب الفحول إلا في أبيات قلائل من ذلك الشعر الكثير ، ولم يكن ذلك — أحسبُ — عن قصور في الملكة ، بل عن جمود في العاطفة ، فأنت مهما تقرأ لابن الخطيب لا تحس أن قلبه وراء شيء مما يكتب ، وكل ما تقرأه صادر عن مهارة ذهن وصنعة لسان ، وهذا في وقت لم يكن ينفع غرناطة فيه غير القلب والاحساس .

وكان من الطبيعي أن يختص لسان الدين ابن الخطيب الجغرافية بشيء من الكثير الذي كتب ، فهذا الكثير لم يفادر ضرباً من ضروب العلم العربي إلا تناوله ، فكان من البديهي أن يكتب في الجغرافية والرحلات ، فإن الأولى كانت أخت التاريخ في الأندلس ، وأما الثانية فقد عاش ابن الخطيب عمره

(١) تاريخ الأدب العربي ، ج ٣٣٧/٢ — ٣٤٠ والملحق ٣٧٢/٢ وكذلك مادة دائرة المعارف الإسلامية بقلم فردينان زابولد ، الطبعة الأولى ج ٤٢١/٢

كله في رحلة وتنقل ، وكان كما ذكرنا مُغرى بالكتابة لا يكاد يدور في ذهنه خاطر إلا أودعه الورق ، ومن ثمّ فله في وصف رحلاته أكثر من رسالة ونستطيع أن نحصى كتاباته في الجغرافية فيما يلي :

١ — المقدمة الجغرافية لكتاب الاحاطة في تاريخ غرناطة ، وهو معجم تراجم لأعلام الغرناطيين ومن حل بغرناطة من غيرهم .

٢ — المقدمة الجغرافية لكتاب اللوحة البدرية في الدولة النصرية ، وهو تاريخ لسلطين بنى الأحمر إلى أيامه .

٣ — رسالة خطرة الطيف ورحلة الشتاء والصيف .

٤ — رسالة معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار .

٥ — وصف رحلة قصيرة في المغرب ضمّنه كتابه المسمى 'نفاضة الجراب في علالة الاعترا ب' .

٦ — مقامة مفاخرات مالقة وسلا .

فأما القطعتان الأولى والثانية فهما في وصف غرناطة ، والثانية منهما مختصر للأولى مع إضافات مختلفة ، فهما في الحقيقة عمل واحد يدخل في صميم العلم الجغرافي كما نعرفه اليوم .

وأما القطعتان الثالثة والرابعة فهما وصف رحلتين في قالب أدبي مسجوع هو أقرب إلى طريقة المقامات ، فهما بذلك أدخل في ميدان الأدب منها في الجغرافية .

والقطعة الخامسة وصف رحلة في نثر مرسل قريب مما نعرفه عند المجيدين من أصحاب أدب الرحلات عندنا .

والسادسة مقامة ، تمس الجغرافية من بعيد ، فهي محاورة بين الأندلس والمغرب متمثلين في مدينتي مالقة وسلا ، وكل منهما تجتهد في إظهار فضائلها ووجوه امتيازها على صاحبها .

وعلى هذا فكتاباتة فى الجغرافية والرحلات تقع فى أربعة أنواع : الوصف الجغرافى الخالص والرحلة الأدبية المسجوعة والرحلة العادية ثم المقامة الجغرافية .

١ — الوصف الجغرافى الخالص :

المقدمة الجغرافية لكتاب الاحاطة

على عادة الأندلسيين فى التقديم للتاريخ بالجغرافية حرص ابن الخطيب على أن يورد فى مقدمة « الاحاطة » وصفاً مطولاً للمنطقة التى شملها سلطان مملكة غرناطة ، واختص العاصمة نفسها بوصف مطول . وهذه المقدمة الجغرافية تعتبر عنصراً فريداً فى بابها لا فى علم الجغرافية عند الأندلسيين فقط ، بل فى تاريخ العلم الجغرافى فى أوروبا كلها إلى أواخر العصور الوسطى ، فللمرة الأولى نجد بين أيدينا وصفاً جغرافياً مفصلاً لاقليم صغير وعاصمته ، وقد جرى ابن الخطيب فى هذا على تقليد اتبعه بعض المشارقة ، فلدينا مثلاً وصف مكة للأزرق ووصف المدينة للسهمودى وخطط بغداد لأبى طاهر طيفور ، وقد جود الأندلسيون قبل ابن الخطيب فى وصف المدن الكبيرة وأقاليمها ، فللرازى كما ذكرنا كتاب فى وصف قرطبة وخططها ، ولأبى جعفر بن خاتمة معاصر ابن الخطيب كتاب فى وصف المرية وفضائلها يسمى مزية المرية^(١) ، بل سبق ابن الخطيب إلى صفة غرناطة والتاريخ لها أبو القاسم محمد بن عبد الواحد الغافقى المعروف بالملاحى فى مقدمة كتابه « تاريخ علماء البيه » والبيه كانت بلدة صغيرة على بعد أربعة كيلومترات شمالى غرناطة ، كانت قبل ذلك عاصمة الاقليم ،

(١) يلاحظ أن الأندلسيين أخذوا فن التأليف فى وصف المدن والتاريخ لها عن المشارقة ، وهم أئمة هذا الفن دون شك ، وإلى مطالع العصر الحديث لا نجد فى أوروبا كتاباً يشبه ما كتبه الأزرق والسهمودى وأبى طاهر طيفور فى مكة والمدينة وبغداد ، بل لا يوجد فى التراث العلمى العالمى فى تلك العصور ما يشبه كتاب خطط المقرئى وهو من أعظم المؤلفات فى تاريخ العرب الفكرى .

ثم نخل أسرها وانتقلت الأهمية إلى غرناطة^(١) ، ويبدو أن اعتماد ابن الخطيب على كتاب الملاحي كان كبيراً ، فهو يشير إليه في مواضع كثيرة من الاحاطة . ويعطينا ابن الخطيب في كلامه المفصل في الاحاطة وصفاً جغرافياً كاملاً لغرناطة والاقليم الداخل في مملكتها على أيامه ، ولا يشوب الطابع العامي لهذا الوصف إلا حرص ابن الخطيب على إظهار بلاغته واهتمامه بعرض محصوله الوفير من اللغة ما بين ألفاظ وعبارات وتضمينات ، ولكننا نحمد الله على أنه تخلى في كتابي الاحاطة والللمحة البدرية عما أوقع به من السجع ، فارسل كلامه طلقاً لا يشوبه غير الاسهاب وكثرة المترادفات .

(١) أورد ابن الخطيب في مقدمة الاحاطة (ج ١ / ٨٩ — ٩٣) ثبوتا للمراجع التي اعتمد عليها المؤلفات في تواريخ المدن وأوصافها التي سبقت كتابه . وهذا الثبت في غاية الأهمية لمن يريد التأليف في المدن وتاريخها عندنا . ويتبين من هذا الثبت اطلاع ابن الخطيب الواسع واحاطته بالدارة المكتبة العربية في التاريخ والجغرافيا .

والبيرة أو لبيرة أو يلبيرة كانت العاصمة القديمة للأكورة التي سميت فيما بعد بغرناطة ، وكانت في أصلها بلدة من انشاء الايبيريين القدماء قبل الرومان ، واسمها في القديم Eliberri أو Iliberi ، والاسم مكون من مقطعين : ili = مدينة و berri بمعنى قديمة ، ثم عمرها الرومان وجعلوها قاعدة فيها مجلس بلدى وسميت في نصوصهم Municipium Florentinum Iliberritanum . وعندما فتح العرب الأندلس سكنها الكثير من الجند الشاميين وموالى بني أمية ، ثم اهتم بها عبد الرحمن الداخل وعمرها وابتنى جامعها وجعلها عاصمة كورة البيرة ، وقد ظلت لها هذه المكانة حتى قامت الفتنة الكبرى وأوائل القرن الخامس الهجرى ووقعت الحرب بين العناصر الأندلسية والعناصر البربرية من قوات الخلافة المنتشرة ، فحمل البربر على البيرة وخربوها ، وعمر امراؤهم غرناطة التي تقع على نحو ٤ كيلومترات جنوبها وابتنوا فيها الحصون فأصبحت عاصمة الأكورة ودخل أمر البيرة شيئاً فشيئاً حتى لم يعد لاسمها وجود الآن إلا في قرية آبار البيرة Pozos de Elvira ، وباب من أبواب غرناطة العربية يسمى باب البيرة .

انظر المادة الوافية التي كتبها عنها فرديناند زايبولد في الطبعة الأولى من دائرة المعارف الاسلامية ج ٢ ص ٢٦ — ٢٧ ، والروض المعطار لابن عبد المنعم الجعفي تحت إعرناطة رقم ١٩ ص ٢٣ — ٢٤ واللبيرة رقم ٢٥ ص ٢٩ — ٣٠ والترجمة الفرنسية والتعليقات بقلم ليفي بروفنسال ص ٢٩ — ٣١ و ص ٣٧ — ٣٩ من القسم الفرنسى .

وخير ما بين أيدينا الآن عن البيرة وإقليمها — إلى جانب ما يقدمه ابن الخطيب من معلومات — الفصل الذى أداره العذرى على البيرة (نصوص عن الأندلس بتحقيق الدكتور عبد العزيز الاخوانى ، مدريد ١٩٦٥) ص ٨١ — ٩٤

ولم يستطع ابن الخطيب الفصل بين الجغرافية والتاريخ ، وهو معذور في هذا فقد كان ذلك هو التقليد الجارى — كما رأينا — حتى أن مادة العُذرى عن كورة البيرة (وهو الاسم القديم لكورة غرناطة) معظمه تاريخ . وابن الخطيب يبدأ بتحقيق أصل الاسم ويشير إلى البيرة قائلًا : « يقال غرناطة ويقال إغرناطة ، وكلاهما أعجمى ، وهى مدينة كورة إلبيرة فينبها فرسخان وثلاثا فرسخ . وإلبيرة من أعظم كور الأندلس وموسطة ما اشتمل عليه الفتح من البلاد ، وتسمى في تاريخ الأمم السالفة من الروم سنم^(١) الأندلس ، وتدعى في القديم بقسطيلية^(٢) . وكان لها من الشهرة والعمارة ، ولأهلها من الثروة والعدة ، وبها من الفقهاء والعلماء ما هو مشهور . . . » ثم ينقل بعد ذلك فقرة عن عمارة إلبيرة ومسجدها الجامع . ويذكر كيف خمل أمرها خلال القرن الخامس الهجرى أثناء الفتنة الكبرى وانتقلت الأهمية إلى غرناطة ، ويختم هذه النقول بفقرة من كتاب تاريخ علماء البيرة لأبى القاسم محمد بن عبد الواحد الغافقى المعروف بالملاحى — نسبة إلى الملاحه La Mala قربة لا تزال قائمة إلى

(١) كذا في مخطوط الاحاطة المحفوظ في أكاديمية التاريخ (ورقة ١٨) وأثبتها عنان على هذه الصورة (الاحاطة ٩٩/١) ولم أجد ما يؤيد هذه التسمية فيما كتبت عن غرناطة في القديم . وقد ورد هذا اللفظ في أحد مخطوطات «اللمعة البدرية» التى اعتمد عليها عب الدين الخطيب في نشرها (القاهرة ١٣٤٧) : شام الأندلس (ص ١٢ تعليق ١) وهى صورة لا بأس بها ، غير أنها لا تنسجم مع الكلام قبلها .

(٢) تناول دوزى هذا اللفظ بالتعليق في أبحاثه ٣٣١/١ — ٣٣٢ ودرس موضوعها بتفصيل فراثيسكو خابير سيمونث في كتابه عن صفة مملكة غرناطة :

Francisco Javier Simonet, *Descripción del Reino de Granada, Sacada de los Autores Arábigos* (Granada, 1872).

ومعظم مادته مستقى من كتابات ابن الخطيب عن غرناطة . وخلاصة رأيه (ص ٣١ — ٣٣) أن قسطيلية — ومعناها القلعة Castellón - Castilla — كانت قلعة في حوز بلدة إلبيرة القديمة ، وكان حاكم البلد يقيم فيه ويعتصم به أثناء الحروب العنيفة بين العرب والبربر . ثم غاب اسم إلبيرة وهى الحاضرة على اسم تلك القلعة وقد اعتمد سيمونيت في ذلك على شواهد من كلام الرحالة لويس دى مارمول الذى طاف بنواحي غرناطة بعد خروجها من يد العرب بوقت قصير .

اليوم جنوب غربى غرناطة — ومن أسف أن هذا الكتاب قد ضاع فهو النموذج الذى احتذاه ابن الخطيب فى كتابته « الاحاطة » ولو عثرنا عليه لعرفنا إلى أى حد اعتمد ابن الخطيب على سابقه هذا فى تأليف كتابه .

وتلى ذلك فقرة طويلة تعتبر من أحسن ما لدينا من أوصاف البلدان ، وقد احتفل ابن الخطيب فى جمع مادتها من شتى المراجع التى كانت فى متناول يده ، ولكن المرجع الأكبر كان دون شك علمه وخبرته ، فقد نشأ ودرس فى غرناطة وتقلب فى شتى وظائف الدولة حتى وصل إلى الوزارة ، وملك زمام الإدارة فترات متطاولة ، وكان بطبعه ذا اهتمام بالمال والعقار والضياع والأرض والزروع والحصائل وما أشبه ، فتجمعت لديه معلومات وافرة عن تلك الموضوعات الداخلة فى صميم الجغرافية وعرف كيف يصوغها فى قالب محكم ، ومن أسف أنه لم يعطينا كل ما عنده فى هذا الباب ، لأنه ساق المادة الجغرافية كمقدمة لما يليها من حديث التاريخ والأدب والتراجم .

ورغم هذا الإيجاز فإن هذه المقدمة الجغرافية غنية بالمادة والمعلومات الدقيقة النافعة ، وهى تتضمن كل النقط التى كانت تدخل إذ ذاك تحت مفهوم الجغرافية ، ولن نستطيع إيراد هذا الوصف لأنه يقع فى نحو خمسين صفحة من النص المطبوع ، ولهذا فسكتفى بإيراد النقط الرئيسية التى يحتوئها :

١ — تحقيق عن أصل اسم غرناطة والبيرة (وقد ذكرناه) .
٢ — مكان الأندلس من الأقاليم : يقع فى الاقليم الخامس ويقول صاعد ابن أحمد أن معظمه فى الخامس وجزء منه فى الرابع . تحديد الاقليم الخامس بصورة عامة (نقلا عن ابن سعيد فى الغالب) .

٣ — طالع غرناطة نتيجة للاقليم الذى تقع فيه .

٤ — موقع غرناطة من خطوط الطول والعرض . يلاحظ أنه يقول هنا ان غرناطة مساوية فى الطول بأمر يسير لقرطبة وميورقة والمرية . وهذا الكلام لا يفهم إلا إذا ذكرنا ما قلناه آنفاً من أنهم كانوا يتصورون أن شبه الجزيرة

مثلث وأن ساحله الشرق يسير في خط مستقيم من الشرق إلى الغرب وهذا يستتبع تصور أن قرطبة وقرطبة والمرية تقع على خط رأسى واحد تقريباً ، ولما كانوا يتصورون أن الجزائر الشرقية (البليار) في مواجهة المرية فقد قالوا إن ميورقة أيضاً تقع على نفس الخط ، إلى جنوبى المرية طبعاً .

وهو يقول أيضاً أنها مساوية في العرض لاشبيلية والمرية وشاطبة وطرطوشه وسردانية . وهذا الطول أيضاً ناتج من ذلك الخطأ في التصور .

٥ — تحديد للمسافات بين قرطبة وقرطبة (٩٠ ميلاً) والبحر (٤ بُرْد) فاما الميل فكيلومتران وأما البريد فأربعة وعشرون ، وتقدير هذه المسافات يتوقف على الطريق الذى كان يتبع ، وبين قرطبة وقرطبة اليوم على الطريق الرئيسى ١٦١ ك. م. وبينها وبين أقرب نقطة إليها على البحر عند مطريل ٧٠ ك. م.

٦ — موقع قرطبة بين الجبال (يريد جبل الثلج أو شلير أو سيرا نيفادا) والبراجلات ، جمع برجيلة أو برجاله وهو لفظ لاتينى معرب parcella ويراد به قطعة الأرض ، ولا يزال يستعمل إلى الآن في هذا المعنى في اللغة الاسبانية parcela ، وقد كان العرب عند ما نزلوا إقليم البيرة (أى قرطبة) قسموا بعض الأراضى قطعاً فنسبت إلى القبائل أو البطون فقالوا برجيلة قيس وبرجيلة أبى جرير ، واللفظ وارد عند ابن جيان في كلامه عن ثورة عرب البيرة أيام الأمير عبد الله ، وقد كتب عنه سيمونت في معجمه (٢٦٩—٢٧٠) ودوزى في ملحق القواميس (٦٥/١) .

ويحدد ابن الخطيب موقع قرطبة من الكنابانية ويراد بها سهل قرطبة وكان يعرف أيام العرب بالكنبانية أو القنبانية ، معرب عن Campinia ويراد به السهل الفسيح ، ثم يذكر نتائج هذا الموقع الفريد لقرطبة بين السهل والجبل وقرب البحر ، وهى نتائج اقتصادية تتلخص في وفرة المياه والزراعات في إقليمها ، فهى دائمة الفواكه و « بحر من بحور الخنطة » وهو لا ينسى هنا ذكر ما يمتاز به إقليمها من النباتات الترياقية أى ذات الخواص الطبية

ويختتم ذلك بقوله : « فحسوم أهلها لصحة الهواء صلبة وسخنهم خشنه وهضومهم قوية ونفوسهم لمكان الحر الغريزي جَرِيَّة .

٧ — معادن إقليم غرناطة كما ترد في فقرة للرازي وأخرى لمؤلف لم يذكر اسمه وأهمها الذهب والفضة والرصاص والحديد والتوتيا والمرقشيتا^(١) واللازورد . وفي هذه الفقرة يرد ذكر كثير من النباتات الطبية وغيرها التي اشتهر بها إقليم غرناطة .

٨ — وبعد فقرتين طويلتين عن فتح العرب لغرناطة واستقرار طوائف من العرب في اقليمها ووضع النصارى المعاهدين بها وما أصابه من تغيير نتيجة لحوادث معروفة رواها ابن الخطيب وغيره بالتفصيل .

٩ — يورد بياناً بما يحيط بغرناطة من الجَنَّات والمَدارج والغابات وبحار الماء ، والجَنَّات جمع جنة ويراد بها المزرعة ، ويقابل في الإسبانية اليوم huerta ، وقد تسمى الجنة أيضاً بالقَدَّان ، والمَدارج جمع مدرج والمراد به سفح الجبل المزروع ، وقد ذكر ابن الخطيب عدداً كبيراً من هذه بأسمائها ، والمفروض أن هذه كلها كانت داخلة في زمام البلدة نفسها .

١٠ — المرتفعات المحيطة بسهل غرناطة من ناحية الشرق وهي التي تستمر حتى تتصل بمرتفعات البَشَارَات ، وهو يصفها وصفاً دقيقاً ذاكراً تحصيناتها بالأبراج والخنادق والحصون وما تضمه من المزارع والرياح والأشجار . ويتحدث كذلك عن المرتفعات أو التلال الواقعة شمال غرناطة وجنوبها مثل البياسين وجبل الفخار وجنة العريف وما يتصل بها من الكَدَى (جمع كدية وهي التل من الحجر الرملی ، والكدي في الغالب أقل ارتفاعاً من العروق) وكانت الكدي في إقليم غرناطة خضراء مسكونة تقوم عليها المزارع والغابات ، وقد وصفها ابن

(١) المرقشيتة أو المرقشيطة حجر ذو خواص طبية يغلب على الظن أنه البزموت ، وذكر ابن سينا أنه يوجد على أنواع مختلفة . راجع عنه جامع المفردات في آخر كتاب « ضوابط دار السكة » لعلی ابن يوسف الحكيم بتحقيقنا ، مدريد ١٩٦٠

الخطيب وصفًا مفصلاً وبَيَّن ما فيها من المزارع والمساكن والبساتين والمنازه وما تضمه من ثمار وأشجار وزهور ورياحين .

١١ — ما يقع خارج أسوار البلد من قرى وضياع ، والضيعة هنا تسمى الدار وكانت لبعضها أسماء معروفة فيقال : الدار المنسوبة إلى هذيل والدار البيضاء والدار المنسوبة إلى السَّيَّات ويقابل مصطلح الدار في الإسبانية اليوم casería ، وشبيه بالدار البيدر ويراد به الدار الريفية تحيط بها ضيعة صغيرة ، وهي تقابل ما يعرف اليوم باسم cortijo . وهنا يذكر ابن الخطيب أسماء نحو ١٤٠ قرية من قرى إقليم غرناطة مع تفصيلات عن بعضها ، ويختم هذا الكلام بعبارة إحصائية عما يرتفع إلى خزانة الدولة من ضرائب هذه الأراضي والقرى وانتاجها من القمح وما إلى ذلك .

١٢ — ويخصص ابن الخطيب الفقرة الأخيرة من هذه الدراسة الجغرافية لغرناطة للكلام على السكان ، وهو شديد الإعجاب بهم يثنى عليهم ثناء قل أن قرأنا مثله لرجل في أهل بلده ، وهذه سمة كريمة من سمات خلق ابن الخطيب ، ونحن إذا أسفنا لانطلاقه مع المدح انطلاقاً حال دون الوصف الدقيق للغرناطين بما لهم وما عليهم ، فإنه لا يفوتنا أن نقدر هذه العاطفة القومية في ذلك الرجل الكبير ، ويستوقف نظرنا قوله : « وصورهم حسنة ، وأنوفهم معتدلة ، وألوانهم زهرٌ مشربة بحمرة ، وألسنتهم فصيحة عربية يتخللها غَرْبٌ كثير ، وتغلب عليهم الإمامة ، وأخلاقهم ابَّية في معاني المنازعات ، وأنسابهم عربية ، وفيهم من البربر والمهاجرة كثير ، ولباسهم الغالب على طرقاتهم الفاشي بينهم المَلْفُ المصبوغ شتاء ، وتتفاضل البزة بتفاضل الجِلْدَةِ والمقدار ، والكتان والحرير والقطن والمرعى والأردية الإفريقية والمقاطع التونسية والمآزر المشفوعة صيفاً ، فتبصرهم في المساجد أيام الجمع كأنهم الأزهار المفتحة في البطاح الكريمة تحت الأهوية المعتدلة » فهذه صورة كأنها لوحة بريشة مصور ، وهي في هذا الكتاب تحل محل الصور والرسوم التي لا تخلو منها

كتب الجغرافية ، وهذا في ذاته عنصر هام من عناصر التأليف في الجغرافية ، وقد أورد مثل هذه الصور الكثير من مؤلفينا ، ولكن هذه الصورة الدقيقة التي جلاها ابن الخطيب فريدة في بابها ، فنحن نرى من خلالها أهل غرناطة تلك بملابسهم وهياكلهم وملابسهم وأشكالها وألوانها كأنهم أحياء يسعون أمامنا .

وفي هذه الفقرة يتحدث ابن الخطيب عن أشكال أزياء الملابس وعن طعام أهل غرناطة ثم عن النقود المستعملة فيها ، ويُجمل بالكلام على بعض عاداتهم وتقاليدهم ثم يتحدث عن نسائهم ، وهو شديد الإعجاب بهن ، لا يكاد يأخذ على أوصافهن إلا ميلهن إلى القصر ، ثم يختم هذه المقدمة الجغرافية بعبارة ثم عما كان يحس به من الخوف الدائم على بلده غرناطة ورجائه أن يكلأها الله بعنايته ويحجبها شر ما يحوم حولها من الأخطار : « وقد بلغن — أى نساء غرناطة — من التفنن في الزينة لهذا العهد والمظاهرة بين المصبغات والتنقيش بالذهبيات والديباقيات ، والتماجن في أشكال الخلى إلى غاية نسأل الله أن يفض عنهن فيها عين الدهر ويكفكف الخطب ، ولا يجعلها من قبيل الابتلاء والفتنة ، وأن يعامل جميع من بها بسأره ، ولا يسلبهم خفي لطفه ، بعزته وقدرته » .

هذه اذن دراسة جغرافية نستطيع أن نقول إنها كاملة ، فإنه لا ينقصها شيء أساسى مما تتضمنه الأوصاف الجغرافية الحديثة للبلدان فيما عدا العناصر التي تعتمد على العلم الحديث وأدواته مثل الاحصائيات والرسوم البيانية والبيانات الجوية ومقاييس الحرارة والضغط الجوى والأمطار وما إلى ذلك . ومع هذا كله فإن القارئ لا يكاد يحس بنقص هذه العناصر ، لأن ابن الخطيب عرف كيف يعرض ذلك بأسلوبه السليم المحكم ، ولا أبالغ إذا قلت أن أحداً من الجغرافيين لم يجمع بين البلاغة العالية وإحكام الكلام ودقة التعبير كما تيسر لابن الخطيب في هذه المقدمة ، وهو يحدد بها مستوى من المستويات الرفيعة التي بلغها العلم الجغرافى في تاريخ الفكر العربى .

المقدمة الجغرافية لكتاب اللجة البدرية

اللجة البدرية من أصغر كتب ابن الخطيب ، ولكنه من أكثرها فائدة وأغزرها مادة ، فهو تاريخ مختصر لبنى نصر أوجز فيه تاريخ هذه الأسرة إلى أيامه ، وقد قدم له بمقدمة جغرافية شبيهة بمقدمة « الاحاطة » وربما يترامى إلى الظن أول الأسر أنها مختصر لها ، ولكن الحقيقة أن هذا لا ينطبق إلا على فقراتها الأولى ، ثم تنفرد بعد ذلك بمعلومات لا تقل في القيمة عما وجدناه في مقدمة الاحاطة .

ومن حسن الحظ أن ابن الخطيب صاغ هذا الكتاب كله في نثر مرسل لا تشوبه عقبات السجع والتكلف ، وأرسله في أسلوب فخم متين هو دون شك من أجمل نماذج النثر العربي العلمي الرصين ، ومثال ذلك قوله :

« وأما ما حازه السهل من جوفية^(١) ففنى عظيمة الخطر ، متناهية القيم ، تضيق جدّة^(٢) من عدا أهل الملك عن الوفاء بأثمانها . منها ما يغل في السنة شطر الألف من الذهب^(٣) على خمول أثمان الخضر بهذه المدينة ، يختص منها بمستخلص^(٤) السلطان ما ينافس ثلاثين مئنة^(٥) . ويحيط بها ويتصل بأذيالها من العقار الثمين الذى لا يعرف الجمام^(٦) ولا يفارق الربع ما ينتهى المرجع^(٧) »

(١) المراد هنا سهل غرناطة ، وجوفية معناها غريه .

(٢) الجدة هنا الثروة أو القدرة المالية .

(٣) أى ٥٠٠ دينار في السنة .

(٤) أى أملاك السلطان .

(٥) المنية في الأندلس هى البيت الرينى تحيط به أرض واسعة يزرعها صاحبها لنفسه خاصة فيجعل بعضها حديقة والبعض الآخر يزرع فيه ما يحتاج إليه ، وهى تقابل في المصطلح الاسباني huerta والجمع مئى .

(٦) أى الذى يزرع باستمرار .

(٧) المرجع مقياس للارض يعدل نحو ٥٠٠ متراً مربعاً تقريباً ، وقد انتقل إلى اللغة الاسبانية في صورة Marjal ، وكانت قيمة الأرض الزراعية في فخص غرناطة تختلف بحسب خصبه وما فيه من الماء ، وفي الوثائق الترناطية الخاصة بالقرن الخامس عشر الميلادى تراوحت أثمان المراجع بين =

العملي منه إلى نحو خمسة وعشرين ديناراً من الذهب لعهدها هذا ، وفيه من مستخلص السلطان ما تضيق عنه بيوت الأموال ذرعاً وغبطة وانتظاماً ، يرجع إلى دور ناجحة وبروج سامية وبيادر فسيحة وقصاب للحجائم والدواجن ماثلة ، منها في حى البلدة وطوق سورها من مستخلص السلطان ما ينيف على العشرين ، بها الجمل الضخمة من الرجال والفحول الفارهة من الحيوان للاثارة وعلاج الفلاحة ، وفي كثير منها الحصون والارحاء والمساجد . ويتخلل هذا المتاع القبيط الذى هو لباب الفلاحة وعين هذه المدرة الطيبة سائر القرى والبلاد التي بأيدي الرعية ، مجاورة لحدود ما ذكر بلاد عريضة وقرى أهلة : منها ما انبسط وتمدن فاشترك فيه الألوف من الخلق وتعددت فيه الأشكال ، ومنها ما انفرد بمالك واحد أو اثنين فصاعداً وتنيف أسماؤها على ثلاثمائة ، تنصب في نحو خمسين منها منابر الجمعات [تقام فيها الصلوات^(١)] وتمتد الأكف البيض وترفع الأصوات الفصيحة لله . ويشتمل سور هذه المدينة وما وراءه من الارحاء الطاحنة بالماء المعين على أزيد من مائة وثلاثين رَحَى .

وهذا الوصف يعتبر من أحسن وأدق ما لدينا من أوصاف المواضع الصغيرة المحددة مثل فخص غرناطة الأفصح وكان يعرف أيضاً بالبقاع ، وهذا اللفظ الأخير هو الأصل الذى حرف عنه لفظ فيجا الاسباني وجمعه las vegas ، وكلام ابن الخطيب يدل على تصور سليم لمطالب الوصف الجغرافى .
وتكلم هذا الوصف فقرة تعتبر وثيقة جغرافية تاريخية ، فإن ابن الخطيب يذكر فيها أقاليم مملكة غرناطة التي يسميها « الوطن الشريف » وهي تسمية

== ٤ و ٦ دنانير ، وكان وزن الدينار ٢,٢٢ جراماً من الذهب عيار ٢٢ قيراطاً ، وكانت العادة أن يشامل الناس بدنانير الدراهم ، أى بقيمة الدينار بدراهم الفضة ، وكان الدينار يعادل بعشرة دراهم فضة ، وقيمة الدرهم الواحد ١٧٠ ومن جرام الذهب عيار ٢٢ قيراطاً :

انظر ترجمتنا لمقدمة الوثائق العربية الغرناطية ، بتحقيق لويس سيكو دى لوتينا ، مطبوعات معهد الدراسات الاسلامية بمدريد ١٩٦١ ص ١٩ - ٢٠ م.
(١) أضفت هذه العبارة للسياق .

جميلة تدل على حب ابن الخطيب لوطنه الأندلسي واعتزازه به ، وهذه الوطنية تعتبر من خصائص ابن الخطيب ، لا يزال يرددها في كتاباته ، وهي مرتبطة عنده بمعنى « العروبية » أى ما نسميه نحن اليوم بالعروبة .

والإقليم فى المصطلح الإدارى الأندلسى هو القسم الإدارى فى مصطلحنا اليوم ، وعندما كان الأندلس بكامله كان مقسماً إلى كور والكور إلى أقاليم وأجزاء ، فالأقاليم بحسب ما انتهى إليه بحثنا أقسام إدارية ، كل قسم (أو إقليم) منها حوز مدينة ، أى المنطقة التى تتبع المدينة إدارياً ومالياً ، والجزء منطقة أحرش وغابات ومراع مشاع لاهل الإقليم المحيط بها ، وهى تقابل ما يسمى باسم Compascua فى المصطلح اللاتينى ولفظ — أرض الكلال فى المصطلح العربى ، ولكن عندما اقتصر الأندلس على منطقة غرناطة ، وكانت تضم كورتين أو ثلاثاً من صغار كور الأندلس الكبير القديم ، لم يعد الأمر يحتمل التقسيم إلى كور أو مديريات ، فاقصر على الأقاليم — وقد ذكر ابن الخطيب أن مملكة غرناطة كانت مقسمة إلى ٣٣ إقليماً ذكر معظمها وأضاف إلى بعضها ملاحظات ذات قيمة جغرافية أو تاريخية ، وقد حققها فرانسيسكو خابيير سيمونيت فى كتابه العتيق الذى جمع فيه أوصاف غرناطة عند نفر من مؤلفينا القدامى ، وسنورد فيما يلى أسماء هذه الأقاليم ومقابلاتها الأسبانية الراهنة وملاحظات ابن الخطيب وسيمونيت عليها ، راسمين للاول بحرف خ وللثانى بحرف س :

اسم الإقليم	مقابل الاسم العربى إن وجد	ملاحظات ابن الخطيب وسيمونيت
أونيل	لا يوجد حالياً ولا فى النصوص القشتالية القديمة اسم موضع على هذه الصورة . س	
الفحص	Albox ؟ اسم قرية . س	

اسم الاقليم	مقابل الاسم العربي إن وجد	ملاحظات ابن الخطيب وسيمونيت
تاجرة الجبل	Tachara	حصن كان موجوداً إلى حين قريب قرب الحامة .
مسنيط	Loja	وهو بلدنا لوشة . قال ابن حمادة في تاريخه : لوشة من البيرة غرباً ، وقبلة من قرطبة على نهر شنيل ، بنيت عام ٢٨٠ زمن عبد الله بن محمد جد الناصر . قاله عمريب في كتابه ، وهي بلد كثير الخصب متدفق المياه كثير الحصون والقرى جامع للمرافق . خ
برجيلة قيس	Berchul - Berchules	ذهب س إلى أن لفظ برجيلة لا يعرف له أصل ، وسبق أن ذكرنا أنه معرب من parcella وفيه حصن منت لوزنه el Castillo de Monte Luzena . خ - س
برجيلة اندره	Andaral ؟	حصن اندرال الذي ذكره س قريباً من غرناطة ، وقربها قرية قنالش بني حربون التي ذكرها خ la aldea de Canales . س
برجيلة أبي جرير	Albunieleles	وهي حصن « بكور » . خ
برجيلة البنيول		في بعض النسخ ورد البيلول والنليول والموضع الحالي ضيعة صغيرة cortijada كانت تعرف قبل العرب باسم Viniolis . س وفيه حصن منتشاقر Montexicar . خ

اسم الاقليم	مقابل الاسم العربي إن وجد	ملاحظات ابن الحطيب وسيمونيت
قلعة يحصب	Alcalá la Real	بين غرب وجوف من البيرة على ٢٠ ميلا . خ
باغه	Priego	وهذان الإقليمان استولى عليها العدو على عهدنا عقب الكائنة بطريف ، فعظم فيها الفجع . خ
مشيلية	Benamegí	غرق هذا الموضع في المدونات الاسبانية باسم Benamexil وفي بعض النصوص العربية : بنو مشيل . س
القيداق	Alcaudete	وهو أيضاً مما تقدم التغلب عليه . خ
قنب قيس	Cambea o Quempe	معرب من Campus . س
قنب اليمين		
الأثر	Aluchar o Luchar	وفيه حصن نوالش خ = Nigüelas . س
شلوبانية	Salobreña	وفيه المعقل العظيم بشاطئ البحر ، فيه للسلطان قصور نبيهة وبسانين عظيمة . خ
المنكب	Almuñecar	وفيه المدينة العتيقة ذات الآثار العجيبة . خ
بشرة بنى حسان		وفيه حصن برجة Berja والعذراء Adra والقلعة Alcolea وحصن شبالش Xupiles ودلاية Dalías خ و س .
		وبهذا الإقليم غبط كثير وعمران عظيم وهو معدن من معادن الحديد .
بريرة	Fereira	وفيه حصن أرجيه Orgiva والأنجرون

اسم الاقليم	مقابل الاسم العربي إن وجد	ملاحظات ابن الخطيب وسيمونيت
أرش قيس	Orce	Lanjarón وحسن أندرش Andaráx وهو جليل المجبي عظيم المشونة خ. س. الأرش هو عطية الأرض أو الأقطاع وكانت في الأندلس أروش كثيرة واللفظ من عربية النين . وفيه مرشانة Marchena ومندوش وحسن بلذوذ Alboloduy خ. س. وفيه مدينة المرية معقل الإسلام ذات القصبة الشهيرة والجباية الغزيرة والبساتين النخيرة والزمر (جمع زمام) الخطيرة . ويرجع إليها من الحصون بشرقيها وغربيها عدد كثير كطبرنش Tabernas وهي بلد كبير فيه المساجد والحمام . خ. س.
أرش النينين		فيه مدينة بنى سام بن مهمل وهي مدينة وادي آش Guadix إحدى قواعد الإسلام لا نظير لها سقياً ومتمعة ونضارة ، ويرجع إليها من الحصون النبيلة الجليلة جملة . خ
أرش اليمان		فيه القليمة Alcolya ومنت روبي Monterrubio فيه مدينة فنيانه Fiñana وهي كلها غزيرة السقيا والثمار . خ
فزارة		

اسم الاقليم	مقابل الاسم العربي إن وجد	ملاحظات ابن الخطيب وسيمونيت
بنى أوس بنى أمية		من هذه الناحية جاء ابن أمية Aben Humeya صاحب Válor زعيم الموريسكيين الذين ثاروا أيام فيليب الثاني س .
فرنش دور والفحص	Fornex o Fornes	وفيه حصن الصخرة خ .
		وأقليم الفحص خمسة أقاليم (صغار) : همدان Alhendín والفخار Alfacar وانبلاط وقلوبش والكنائس خ (١).

وأضاف ابن الخطيب بعد ذلك : « ذكر ذلك أبو القاسم الملاحى وغيره ،
وأغفل أكثر مما أثبت ، وجلالة هذه المدينة أعظم . وهذه الأقاليم منها ما
استمرت إلى الآن شهرته بما دُعيَ به ، ومنها ما عَمَّ الجهل به على عادة الدهر
مُبلي الأسماء والسميات ، وما حى الأعزَم والسمات ، والبقاء لله » .

هذا البيان يصور لنا إحاطة ابن الخطيب بجغرافية بلده وقدرته على عرض
حقائقها في أسلوب دقيق يمكن أن يوصف بأنه علمى . ومن الواضح أن سياق
كلامه والمصطلح الذى يستعمله ينبئ عن تطور واسع المدى في طريقة الكتابة
في الجغرافية ، فإن ابن الخطيب لا يكاد يخلط بالجغرافية شيئاً من مادة علم
آخر ، ولا أثر لأحاديث العجائب في كلامه ، بل لا نلمح عنده أى ميل إلى

(١) ابن الخطيب ، المعجة البدرية ، بتحقيق الشيخ محب الدين الخطيب ، القاهرة ١٣٤٧ س

المقامات الجغرافية

البلاغة الكلامية التي لا تنطوي على مادة نافعة ، ثم إن اهتمام ابن الخطيب بالناحية الاقتصادية والفلات والزروع واضح ، وهو اهتمام يمكن أن يرد إلى عنايته الشخصية بكل ما يتصل بالأموال والعقار والفلات ، ولكنه يدل على وعى إلى الحقائق الاقتصادية .

فإذا أضفنا تلك المادة الجغرافية في « اللوحة البدرية » إلى ما ذكرناه متصلاً بهذه الناحية في « الاحاطة » تكونت لدينا فكرة واضحة عن ابن الخطيب الجغرافي وتبيننا أن هذه الناحية من ملكاته تحدد مستوى رفيعاً في الكتابة الجغرافية في الأندلس ، وهو مستوى وصل إليه الأندلس بعد تجارب الأجيال في معاناة التأليف في الجغرافية . وليس بغريب أننا لا نجد بعدُ مَنْ تخطى هذا المستوى وأعلى عليه ، إذ هو في الحقيقة أعلا ما كان يمكن الوصول إليه في تلك الأزمان ، وإذا كان ابن الخطيب آخر فحول المفكرين الأندلسيين ، فإن هذه الناحية الجغرافية تكشف لنا عن جانب من أحسن جوانب فحولته ، وتضيف إلى تاريخ العلم الجغرافي في الأندلس كسباً عظيماً يمكن أن يوصف بحق إنه مسك الختام .

٢ — المقامات الجغرافية

وربما لم يتنبه ابن الخطيب نفسه إلى هذه الملكة التي أوتيها ، فقد كان رغم تعدد ميادين امتيازته كالطب والأعشاب والتاريخ (والجغرافية هذه) يرى نفسه أديباً شاعراً ، وقد ألف ما قدر عليه في هذه الميادين بعقلية الأديب الشاعر وذوقه ، ومن ثم فهو لا يزال في كتاباته يجود ويتأنق حتى تكاد كتاباته العلمية أن تكون أدباً صرفاً في بعض الأحيان ، ومن حسن الحظ أن كتابيه الاحاطة واللمحة البدرية وبعض مؤلفاته الصغيرة الأخرى نجت — إلى

حد ما — من ذلك الانسياق مع طبع الأديب فسلمت مادتها العلمية من طوفان السجعات والمترادفات .

ولكن طائفة أخرى من كتاباته الجغرافيات وأوصافه للرحلات لم تستطع الفكك من أسر النزوع الأدبي ، فجاءت أدباً خالصاً كادت معه المادة الجغرافية أن تضيع أو مسخت مسخاً مؤسفاً ، ونحب أن ننبه إلى أننا نعني بالأدب هنا مفهومه في عصر ابن الخطيب ، أى أدب السجع والبهارج اللفظية التي أولع الناس بها من أيام بدیع الزمان الهمداني والصاحب بن عباد في المشرق ، ثم انتقلت إلى المغرب والأندلس فغلبت على فن النثر في أندلس القرن الخامس الهجري وما تلاه ، ولم يزل سلطانها يشد حتى بلغت ذروتها على يد ابن الخطيب ، ولا نعني بالأدب مفهومه السليم كتجويد للتعبير النثري والاقتراب به من مثله الأعلى ، وهو أن يكون الكلام مطابقاً للمعنى مع الجمال والتناسق والبلاغ الذكي كما نرى عند رجل مثل الجاحظ ، لأن هذا الطراز من البلاغة السهلة الممتعة إنما هو المطلوب عند التأليف في العلم .

كتابات ابن الخطيب الأدبية في الجغرافية والرحلات كثيرة ، وهي تتفاوت في طرازها الأدبي وخضوعها للسجع والذينة اللفظية أو تحررها منها ، ولكنها تشترك في صفة واحدة ، وهي أن الغاية من كتابتها لم تكن بيان حقيقة جغرافية أو تاريخية وإنما عرض مهارة ابن الخطيب الأدبية ، والحقائق النافعة تبقى عفواً أو ضمناً ، وهي في كثير من الأحيان تبدو لنا وكأنها حطام متناثر في ماء مضطرب ، فهي لا تجمع إلا في مشقة .

وهذه الكتابات الأدبية الجغرافية يمكن تقسيمها إلى ضربين : « المقامة الجغرافية » و « الرحلة الأدبية » ، ولدينا من كل من هذين الضربين نماذج وافية نستطيع الاعتماد عليها ، ومن حسن الحظ أن الدكتور أحمد مختار العبادي جمع أربعاً من هذه النماذج ونشرها مع مقدمات وتعليقات في كتاب لطيف

عنوانه « مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في بلاد المغرب والأندلس » نشرته جامعة الاسكندرية سنة ١٩٥٨ ، وعلى هذا التحقيق معولنا فيما يلي من الكلام .

كتب ابن الخطيب مقامات كثيرة ، ومن الطبيعي ألا يجد أى صعوبة في كتابتها ، لأن هذا اللون من التأليف لا يتطلب من الجهد إلا البحث عن الألفاظ ، وكانت ثروة ابن الخطيب منها وافرة ، ولهذا فقد أجاد في هذا الباب وأكثر . ولم يدع ضرباً من ضروب تأليف المقامات إلا تناوله ، فكتب مقامة الرحلة ومقامة المفاخرة ومقامة السؤال والجواب ومقامة القصة ، وهذه الثلاثة كانت فيما نعتقد أحسن أنواع المقامات وأقربها إلى نفوس القراء في تلك العصور .

ويهمنا من هذه المقامات الخطيبية هنا ثلاث هي :

١ — خطرة الطيف في رحلة الشتاء والصيف .

٢ — مفاخرات مالقة وسلا .

٣ — معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار .

خطرة الطيف في رحلة الشتاء والصيف (١)

هذه المقامة تصف رحلة ابن الخطيب في رفقة سلطان غرناطة أبى الحجاج يوسف بن نصر (٧٣٣ — ٧٥٥ / ١٣٣٣ — ١٣٥٤) لتفقد أحوال الجانب الشرقي من مملكة غرناطة .

(١) اورد الدكتور العبادى في مقدمة « مشاهدات ابن الخطيب » دراسة وافية لهذه المقامة وتفصيلاً عن الأصول التي اعتمد عليها في نشرها ، وهي المخطوط رقم ٤٧٠ بمكتبة الاسكوريال (ورقة ٥١ — ٦٩) ونصها الوارد في كتاب « ريحانة الكتاب ونجمة المنتخب » (مخطوط بالاسكوريال رقم ١٨٢٥ (لوحة ٢٢٠ — ٢٢٧) ، وقد سبق إلى نشرها على أصل الريحانة فقط ماركوس يوسف مولر : *Marcus J. Müller, Beiträge zur Geschichte der westlichen Araber, I (München, 1866), 15-40.*

بدأت الرحلة من غرناطة في ١٧ محرم ٧٤٨/ ٣٠ أبريل ١٣٤٧ واتجهت نحو وادي آش ثم بسطه Baza وبرشانه Purchena ومرت بعد ذلك ببلدة بيرة Vera ، وهي بلد صغير قرب شاطئ البحر الأبيض ، وكانت إذ ذاك آخر حدود مملكة غرناطة شمالا في هذه الناحية الشرقية ، ولهذا يصفها ابن الخطيب بأنها « الثغر الأقصى ، ومحل الرباط الذي أجز ساكنه لا يحصى » وهي عبارة تدعو إلى العبدة والأسى إذ أن بيرة لا تبعد عن العاصمة غرناطة كثيراً ، ولكن تضائل مساحة الأندلس الإسلامي أيام مملكة غرناطة جعلها تبدو في نظر ابن الخطيب ثغراً أقصى ، ثم عاد الراكب عن طريق المرية — وكانت إذ ذاك من أكبر مدن المملكة — وبجانه Pechina ومرشانه Marchena وفتيانه Fiñana فغرناطة . وقد فرع ابن الخطيب من تدوين الرحلة في ٨ صفر ٧٤٨ أى قبل أن تنقضى ثلاثة أسابيع على بدئها ، ويمكن القول بهذا أنها دامت أسبوعين قطع الراكب فيها حوالى ٢٠٠ كيلومتراً ، فهي على الحقيقة رحلة صغيرة في الزمان والمكان . وقد زادها ابن الخطيب قصراً باستعماله السجع في وصفها ، فضاع معظم الحيز في سجعات ومترادفات وما لا يد منه في المقامات من مقطعات الشعر ، وفي غمار هذه ضاعت دقة الوصف وصدق التفصيل ، فهو يصل مثلاً إلى نهر صغير متفرع من شليل يسمى قَرْدَس Río Fardes فيقول : « وكان بوادى فردس النزول ، منزل خصيب ومحل له من الحسن نصيب » ، ثم يسترسل في سجعاته حتى يمر بوادى الحامة ، وهو نهر صغير تقع عليه بلدة الحامة ، حيث قضى الراكب ليلته الثانية بعد أن عرض السلطان الجند ونظر في أحوال البلد ، وكلام ابن الخطيب هنا ذو قيمة تاريخية ، لأنه يصف استقبال الناس للراكب ويذكر شيئاً من هياتهم ، أما المادة الجغرافية قليلة : « نخيماً ببعض رُباها المطلة ، وسرحنا العيون في تلك العمالة المغلة ، بالزروع المستغلة ، فحياها الله من بلدة أنيقة الساحة ، رحبة المساحة ، نهرها مطرد ، وطائرها غرد ، يبكي السحاب فيضحك نورها ، ويدندن النسيم فترقص حورها . . » ، وهذا كله

كلام يمكن تلخيصه في مثل قولنا إن الحامة كانت تقع وسط إقليم خصب وافر المياه غنى بالزروع والحصلات .

وفي بعض الأحيان يسترسل مع موسيقى السجعات المتشابهة فيغرق في المبالغة إغراقاً يتلاشى معه كل معنى من معاني الحقيقة الواقعة ، ومن أمثلة ذلك قوله في الأراضي المحيطة ببلد بسطة :

« وكان ملق الجران منابت الزعفران بسطة حرسها الله ، وما بسطة ؟ محل خصيب ، وبلدة لها من اسمها نصيب ، بحر الطعام ، وينبوع العيون المتعددة بتعدد أيام العام . ومعدن ما زين للناس حبه من الحرث والأنعام . يالها من عقيلة ، صفحتها صقيلة ، وخريذة محاسنها فريدة ، وعشيقه (نزعاتها) رشيقه ، لبست حلّ الديباج الموشى ، مفضضة بلجين الضحى . . » .

فهذا كلام كله مبالغات وتهويلات ، ومهما قيل في غنى الأراضي حول بسطة فإنها لا تصل إلى قريب من ذلك الوصف .

وهنا وهناك ، وعند ما ندقق النظر نعثّر على بعض المعلومات ذات القيمة ، ففي كلامه عن بسطة هذه نقرأ أنه كان فيها مسجد يعرف بمسجد الجنة وأن أحد أبوابها كان يسمى باب المسك ، وأن قرية قنالش Canales كانت « كبرى بنات » بسطة ، أى أكبر القرى التابعة لها إدارياً ، وأنه كان إلى جانبها سهل فسيح يسمى فخص الأنصار وفيه غابة تسمى المضير قرب حصن شيرون Serón ويلى ذلك نهر يسمى وادى المنصورة ولا يزال يسمى الى الآن Guadalmanzor أو Río de Almanzor وكان يعرف عند العرب كذلك باسم وادى بيرة نسبة إلى مدينة بيرة Vera ، وهنا يبلغ ابن الخطيب في الاغراق في زينة اللفظ حداً يصعب معه أن نجد أى حقيقة جغرافية ذات بال . . إليك على سبيل المثال القطعة التالية يصف فيها مرور الراكب بنهر المرية ووصوله إلى مرشانة ، قال :

« ... إلى مرشانة وهى الكوكب الأعلى ، والأشهب الحلى ، والصبح إذا تجلى ، والعروس على المنصة تجلى . وبها حلت الغيوم سموطها ، ومدت عناكب

السحاب خيوطها ، فبتنا وعيون المزن باكية ، والمنازل من توقع فراقنا شاكية واستقبلنا الوادى نجعله دليل تلك الطريق ، ونتبعه فى السعة والضيق ، فكم مخاضة منه عبرنا ، وعلى مشقتها صبرنا ، حتى قطرت الأذبال والأردان ، وشكت أذى الماء الأبدان . . . » .

مفاخرات مالقة وسلا

هذه المقامة أغنى مادة وأكبر قيمة من مقامة « رحلة الصيف » ربما لأنها اقتصرت على بلدين اثنتين واحدة من الأندلس وهى مالقة والأخرى من المغرب وهى سلا ، ولهذا السبب لقيت من عناية الباحثين أكثر مما لقيت سابقها ، فقد نشرها معاً كل من ماركوس مولر والعبادى فى كتابيهما الآنفى الذكر ، وتناول راينهارت دوزى تحقيق مولر بنقد طويل فى مجلة جمعية الاستشراق الألمانية (مجلد ٢٠ ص ٦١٦ وما يليها) ، وعكف على دراستها فرانثيسكو خابيير سيمونيت واستخلص مادتها لكتابه عن صفة مملكة غرناطة ، وانتقى منها دوزى ما حازه من الألفاظ لدبله المعروف على القواميس العربية ، ثم ترجمها إلى اللغة الإسبانية الأستاذ إميليو غرسية غومس ، وقدم لترجمته بدراسة وعلق عليها شروحاً وافية^(١) ، فهى والحالة هذه أسعد ما كتب ابن الخطيب حظاً من النشر والترجمة والدراسة والشروح .

ولا ندرى شيئاً عن السبب الذى حفز ابن الخطيب على إنشاء هذه المقامة ، فهو يقول فى مستهلها أن واحداً من أصحابه سأله أن يقوم بهذه المفاضلة ،

(١) نشرها العبادى فى « مشاهدات ابن الخطيب » ص ٥٧ — ٦٦ ، أما مقال غرسية

غومس فهو :

Emilio García Gómez, *El Parangón entre Málaga y Salé de Ibn al-Jafiz, Al-Andalus*, II, 1934 fasc. 1, pp. 183-194.

وقد أورد كلاهما فى مقاله بياناً بالمراجع الخاصة بهذه المقامة .

فاستجاب لما طلب إليه ، ولكن الأغلب أن هذه تعلقة لما رى إليه من تفضيل الأندلس على المغرب في صورة مفاخرة بين ميناءين : أندلسى هو مالقة ومغربى هو سلا ، نقول هذا لأن المقامة في الحقيقة ليست مفاضلة وإنما هي تعظيم مبالغ فيه لمالقة وحملتها تخلو من الذوق على سلا ، وهى مدينة طالما آوت ابن الخطيب وأحسن إليه ، ولكن هكذا كان شأن الكثيرين من الأندلسيين مع المغرب — وغير المغرب — من البلاد وخاصة في العصور المتأخرة ، فهم يزعمون عليها جميعاً ، ولا يرون أن في الدنيا كلها ما يعدل بلدهم ، وهو مذهب مشكور لو أن الأندلسيين أيده بالثغافى وبذل الارواح . ولو فعلوا لنجت غرناطة قطعاً من الهلاك . المهم أن ابن الخطيب قرر قبل البداية أن يميل بالميزان ناحية بلدة مالقة ، وهذا في ذاته يقتضى التقليل من شأن سلا ، والنهيجة أن المقارنة غير سليمة من أول الأمر ، وقد كنا نتوقع على الأقل ألا يكون هذا مبلغ الحساسية الفنية عند ابن الخطيب ، فإن المقارنة بين الجيد جداً والسيء جداً لا تستقيم ، وتلوين اللوحات بالألوان المتعارضة المتناقضة ليس شأن الفنان الأصيل ، وليست هذه ملاحظة على فن ابن الخطيب بقدر ما هى استغفلات للذهن إلى المبالغة الظاهرة في كلامه ، فإن قارىء هذه المقامات لا يكاد يصدق أنها صدرت عن نفس القلم الذى كتب مقدمتى الإحاطة واللمحة البدرية ، ولكن هذا كان مفهوم الناس للانشاء الأدبى في ذلك العصر : تهويل ومبالغة وبُعد عن الحقيقة وسعى وراء زينة اللفظ وبهارج الكلام ، فإذا لم يفعلوا هذا لم يكن ما يكتبونه أدباً ، وواضح أن ابن الخطيب عند ما كتب اللمحة والإحاطة لم يتصور أنه يكتب أدباً ، بل جغرافية وتاريخاً ، ومن ثم فقد أراح نفسه من عناء التكلف والتصنع وأرسل قلمه على سجيته ، وما أظن أنه خطر بباله أنه سيجىء زمان ينظر أهله إلى كلامه السهل البسيط هذا على أنه أحسن ما كتب .

غير أن ابن الخطيب بعد ديباجة قصيرة يؤكد فيها ألاَّ وَجْهَ للمقارنة أصلاً بين مالقة وسلا — يقول عبارة تعطينا فكرة عن تصوره للمدن ومقاييس أهميتها

وعدم أهميتها ، قال :- « فنقول : الأمور التي تتفاضل بها البلدان ، وتتفاخر منها به الاخوان ، وتعرفه حتى الولائد والولدان هي : المنعة والصنعة والبقعة والشنعة ، والمساكن والحصارة والعمارة والامارة والنضارة » وهي عبارة طيبة لولا هذا السجع الذي أفسدها ، فهو يريد بالمنعة الموقع الجغرافي ، وكانت أهم خصائص الموقع الجغرافي الجيد عندهم الحصانة والمنعة ، لأن هاتين كانتا أساس الأمان والسلامة من العدوان ، وبدونهما لا تنمو بلدة أو تتحضر ، وأما الصنعة فيريد بها الصناعات وما تشتهر به البلدة منها .

وأما البقعة فيراد بها بقية خصائص الموقع الجغرافي بعد الحصانة ، وليس المراد بها خصوبة الأرض^(١) فقط ، بل كل ميزات الموقع الجغرافي وإليك ما يقول عن كل من مالقة وسلا بهذا الخصوص .

سلا :

« وسلا بلد الرمال ، ومراعي الجبال ، بطيخة لا تنجب السبابل ، وإن عرفت المطر الرابل ، جرد الخارج وبحرها مكفوف بالعتب والمدارج وواديها ملح المذاق ، مستمد من الأجاج الزعاق ، قاطع بالرقاق من الآفاق ، إلى بعد الانفاق ، وتوقع الاغراق . وشابلها مقصور على فصل وكم لشوكه من شبا نصل ، عدمت الفاكهة ، والمتزهات النابهة » .

مالقة :

« خص الله مالقة بما افترق في سواها ، ونشر بها المحاسن التي طواها إذ جمعت بين رمث الرمال وخصب الجبال ، وقاسرة الفلاحة المخصوصة بالاعتدال ، والبحر العديم الصداع ، الميسرة مراسية للحط والاقلاع ، والصيد العميم الانتفاع ، جبالها لوز وتين ، وسهلها قصور وبساتين ، وبحرها حيتان مرتزقة في كل حين ، ومزارعها المغلة عند اشتداد السنين » .

(١) ذهب إلى ذلك غرسية غومس في ترجمته التي سبقت الإشارة إليها ، فقد ترجم لفظ البقعة

بعبارة la fertilidad de su tierra

وطريف أن ابن الخطيب لم يشر هنا إلى أهمية المواصلات كجزء أساسي في الموقع الجغرافي ، وقد كان حريا أن يلاحظ ذلك ، لأن هذه الناحية كانت في ذلك العصر أكبر ميزات مالقة ، فقد كانت ميناء مملكة غرناطة الأكبر وبابها الأول إلى إفريقية والمشرق ، أي باب الأمداد العسكرية والمتاجر والأسفار في حين أن سلا لم تكن تمتاز من ذلك بشيء ، وإلى ذلك العصر لم يكن لوقوعها على البحر من قيمة إلا أنه جعلها مركزاً لصيد السمك . وقد فاتت هذه الناحية ابن الخطيب ، إذ لو ذكرها لوجد مجال القول فيها ذا سعة .

ثم تأتي بعد ذلك المقارنة بين البلدين من ناحية ما سماه بالشنعة وهو لفظ تكلفه ابن الخطيب حرصاً على السجع ، ولم يكن موقفاً فيه ، فقد أراد به طائفة من المعاني مثل الشهرة والتاريخ والأعجاد والأهمية العسكرية ووفرة الجنود وكثرة الخيل وقوة السلطان . ونغوض هذا المعنى هو الذي جعل ماركوس مولر يقرر أنه محرف غير صحيح ، وقد ناقضه دوزي في ذلك في نقد تحقيقه لمفاخرة مالقة وسلا في مجلة جمعية المستشرقين الألمان (ج ٢٠ ص ٦١٦) ، وذهب إلى أن الشنعة لفظ واضح المعنى ، فهو مقابل للشهرة *célébrité* (راجع ذيل القواميس ، ٧٩١/١) وهو ادعاء طويل منه فإن اللفظ مبهم قلق ، وإذا قرأنا ما يذكره ابن الخطيب تحته وجدنا أنه يمكن إيجازه في قولنا : المكانة التاريخية والأهمية العسكرية .

وزيادة على هذا الإغماض في التسمية نجد أن ابن الخطيب لا يذكر هنا شيئاً يستحق الذكر ، فقد كنا ننتظر أن يقول لنا بماذا اشتهرت مالقة في تاريخها وما أساس هذه الشهرة ، ولكنه يقدم كلاماً عاماً تشوبه المبالغات مثل : « إذ مالقة دار الملك في الروم ، ومثوى المصاعب والقروم ، تشهد بذلك كتب الفتح المعلوم ؛ وذات ملك في الإسلام ، خافق الأعلام ، غنى بالشهرة عن الإعلام .. » إلى آخر هذا الكلام الواسع غير المحدد .

وكلامه عن فضل مالقة من ناحية الحضارة قريب من هذا في التعميم وقلة الضبط ، ومن أسف أنه عندما يقارنها بسلا يقسو في الكلام ويشدد حتى يصل إلى الاهانة والتجريح .

ثم يتكلم عن الامارة كلاماً عاماً يعتمد على اللفظ دون المعنى ، وجدير بالملاحظة أن غرسية غومس قرأ هذا اللفظ « الإثارة » وهي قراءة معقولة يستعملها ابن الخطيب في معنى الفلاحة والزروع ، ويترجمه غومس بعبارة *la vida económica* أى الحياة الاقتصادية .

ويؤيد هذا الرأي أن ابن الخطيب يقارن بين البلدين من ناحية ما سماه « النضارة » ، ويريد بذلك جمال المنظر وغزارة النبات ووفرة الأزهار والأضواء ، وقد ترجم غرسية غومس هذا اللفظ بقوله *el esplendor* أى الفخامة والبهاء ، وهي ترجمة موفقة . وجدير بالملاحظة هنا أن العرب في أوصافهم للمدن شديداً العناية بما يسمونه الضوء ، فيصفون بعض البلاد — دون بعض — بكثرة الضياء ، وقد اشتهرت بذلك عندهم بلنسية ومالقة ، وهذا المعنى غير واضح لنا تماماً لأن ضوء الشمس الذى يغمر كل البلاد الأندلسية واحد ، فلا يقال مثلاً إن قادس أضواً من شلب ، ولكن الغالب أنهم يريدون ذلك الضوء الروحي الذى يحس به المسلمون في « المدينة » مثلاً ، وهي تلقب لهذا بالمنورة ، وهي صفة تعبر عن أساس نفسى لا عن ضوء حقيقى ملموس ، وهذا واضح من مثل قولنا : فلان وجهه منير ، فالمراد بهذا أنه رجل طاهر القلب صافى النفس نبيل الخلق .

وكنا ننتظر أن يورد ابن الخطيب في فقرة « المساكن » شيئاً من عمائر مالقة ومنشآتها ومساجدها وحصونها وما إلى ذلك مما يفيد في التعريف بهذا البلد في عصوره العربية ، ولكنه لم يذكر شيئاً محدداً غير مبنى سماء « جنة السيد » ويراد بذلك قصر ريفى تحيط به حديقة واسعة بناه أحد أمراء الموحديين .

وربما كانت الكلمات القلائل التي اختص بها سلا أكثر فائدة في هذا المعنى ، فهو يقول : « وأما سلا وإن كان بها للملك دور وقصور ، ولاهل الخدمة بناء مشهور ، فمهل قليل ، وليس بالجمهور إليه سبيل » .

ولا حاجة بنا إلى عرض بقية المفاضلة ، فهي من هذا القبيل ، والطريف أنه بعد أن يوجه إلى سلا كل مساء ويجاوز في ذلك ما تتوسمه في رجل مثله من اللباقة وحلاوة اللسان والمراعاة لبلدة تربطه بها صلات كثيرة ولها عليه فضل ، نجده يختم الكلام بعبارة فيها بعض الترضية لها ، كأنه أراد أن يخفف بذلك وقع ما سبق من قوله ، قال :

« ولسلا ، الفضل ، لكن على أمثالها ونظرائها من بلاد المغرب وأشكالها إذ لا ينكر فضل اعتدالها ، وأمنها من الفتن وأهوالها عند زلزالها ، ومدفن الملوك الكرام بجبالها .

ومالقة ، قطر من الأقطار ، ذوات الأقدار والأخطار ، وتحصيل الأوطار . وسلا ، مصب الأمطار ، ومرعى القطار ، وبادية بكل اعتبار » .

مقامة معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار

هذه المقامة التي تسمى في بعض الأحيان كتاباً هي أقرب كتابات ابن الخطيب إلى طريقة المقامات وأسلوبها وروحها ، وإذا كان هناك تجوز في حسابان القطعتين السالفتين مقامتين فإن « معيار الاختيار » مقامة من الطراز الأصيل الذي نجده عند أساطين ذلك الفن ، وهي تنقسم إلى مجلسين لكل منهما بطل من طراز أبطال المقامات وإن لم يبتكر لهما ابن الخطيب أسماء ، ولكنهما قريبان من أبي زيد السروجي وأبي الفتح الاسكندراني وعيسى بن هشام : الأول رحالة جواب آفاق ومغامر لا يتردد في الإلقاء بنفسه في المخاطر ، والثاني ساحر

طبيب عالم لا يستعصى عليه مُحال أو يُحَيَّرُهُ مرض أو يعجزه الجواب على سؤال الأول يتحدث عن المدن الأندلسية والثاني يتحدث عن المغربية^(١).

والقيمة الفنية والعلمية لهذه المقامة تزيد كثيراً عن قيمة سابقتها ، فقد تضمنت السجعات والمتراجات قدراً طيباً من المعلومات الجغرافية ، وهى لهذا جديرة بأن تعد فى أحسن ما كتب العرب من مقامات .

والحق أن ابن الخطيب شأى فى « معيار الاختيار » أحسن المستويات التى وصل إليها المقاميون ، ولكنه آذى مادته الجغرافية وأغرقها فى سيل من المتردفات ، وأذل المعانى للألفاظ حتى لا نكاد نستخرج فائدة جغرافية إلا فى جهد ، وتكفى للتدليل على ذلك نماذج قليلة . قال عن جبل الفتح ، أى جبل طارق ، على لسان صاحبه العلامة السواح الجوال : « وفاتحة الكتاب من مصحف ذلك الإقليم (يريد الاندلس) ، ولطيفه السميع العليم ، وقصص المهارق ، وأفق البارق ، ومتحف هذا الوطن المباني للأرض الفارق ، مأهل العميق وبارق ، ومَحَطَّ طارقها بالفتح. طارق . إرْمُ البلاد التى لا يخلق مثله فيها ، وذو المناقب التى لا تحصرها الألسنة ولا توفيقها . . .^(٢) » ويقول عن سهيل ، وهى قرية صغيرة على شاطئ البحر الأبيض على نحو ٣٥ ك. م. من مالقة ، تسمى اليوم Fuengirola « حصن حصين ، يضيق عن مثله هند وصين ، ويقضى بفضل كل ذى عقل رصين^(٣) » ولولا طلب السجعات ما أجاز ابن الخطيب لنفسه — أو لأى رجل ذى عقل رصين ، على حد تعبيره — أن يقول إن قرية مثل سهيل تضيق عن مثلها الهند والصين . وأطرف مثل للانطلاق مع اللفظ دون تحفظ قوله عن مدينة « سلا » التى أزرى بها على أسوأ صورة

(١) اطر عن مخطوطات هذه المقامة ونشرها : العبادى ، مشاهدات لسان الدين بر الخطيب ، ص ١٢ ، وقد حققها تحقيقاً جيداً وعلى حواشيتها ، ص ٦٩ — ١٦٥ وعلى هذا التحقيق معولنا هنا .

(٢) معيار الاختيار ، ص ٧٤

(٣) نفس المصدر ، ٧٥

عند ما فاضل بينها وبين مألقة : « قلت : فمدينة سلا ؟ قال : العقيلة المفضلة ،
والبطيحة المحضلة ، والقاعدة المؤصلة ، والسورة المفصلة ، ذات الوسامة والنضارة ،
والجامعة بين البداوة والحضارة ، معدن القطن والكتان ، والمدرسة والمارستان ،
والزاوية كأنها البستان ، والوادي المتعدد الأجفان ، والقطر الآمن عند الرجفان ،
والقصيد عظيم الشأن ، والاسواق الممتازة حتى بريق الحباشان ، اكتنفها المسرح
والخصب الذي لا يبرح ، والبحر الذي يأسو ويخرج ... »^(١).

ولكن أطواء هذا الحديث الفضفاض تضم كما قلنا علماء واسعاً بهذه
البلاد جميعاً ، ولو أن ابن الخطيب خفف عن نفسه وحط عن كاهله أثقال
هذه السجعات لكانت هذه الرسالة ذخراً عظيماً عن جغرافية الأندلس والمغرب ،
ومصدق ذلك أن للرجل في ثنايا هذه الزخارف لمحات تنبئ عن الكثير . ولهذا
رأيت أن استخرج أهم ما تضمنه بعض الفقرات من مادة ذات قيمة بالنسبة
للجغرافي ، وذلك لظهور القيمة العلمية لهذه الرسالة :

مدينة جبل الفتاح (جبل) طارق : حصانها — الماء يحيط بها من ثلاث
جهات — سورها عظيم مرتفع — رباط للعبادة والحراسة — نقاء هوائها —
بعدها عن مصادر الزاد ولا بد من تموينها من الخارج — فقيرة في ذاتها .
اسطوبونه Estepona : كانت ذات خير وفير قبل أن يستولى القشتاليون
على الجزيرة الخضراء .

مربله Marbella : مركز عظيم لصيد السردين والسمك المختلف الالوان .
تمتاز بالعنب الجيد إلا أن أرضها ليست خصبة وحصنها ليس منيعاً .
سُهيَل Fuengirola : — تمتاز بالحصانة وبمزارع الشعير وأشجار التين —
غنية بالمياه وتوجد بأرضها الحبوب وواديها وافر السمك ، ولكن سواحلها
معرضة للغارات .

مالقة : قصبتها في غاية الحصانة — مشهورة بصناعة الفخار المذهب والوانى المختلفة الانواع وحلل الديباج المطرزة والنسيج المختلف الاصناف ؛ يزيد في حصانتها وجود جبل الرحمة خلفها . « دار العجائب المصنوعة والفواكه غير المقطوعة ولا الممنوعة » — شوارعها ضيقة غير نظيفة — منطقتها المزروعة صغيرة وخيرها قليل ، وهى مجاورة لأرض الأعداء ومن ثم فهى معرضة للأخطار .

بليش Vélez-Málaga : بلد طيب غزير الامطار حصين الموقع آمن السرب يشتهر بأشجار اللوز والتين . أرضها خصبة عالية الثمن كثيرة الفواكه والحقول ، وفي أخلاق أهلها عنف وشدة .

قمارش Comares : حصن كبير قرب غرناطة وافر الماء والزروع والكروم والزيتون واللوز والتين والحبوب ، إلا أن أراضيها سفوح لا يستطيع فلاحها إلا أهلها .

المنكب Almuñécar : مرفأ كبير مشهور يفد إليه الكثير من سفن بلاد النصرانية . تشتهر بجمال المناظر وحصانة معقلها وجمال مسجدتها ، والبلد كله عال مرتفع فيبدو مسجدته شاهق العلو ، وأشهر زراعتها قصب السكر والزبيب . هواؤها غير صحي بسبب ضيق مساحتها وتلاصق بيوتها وصغرها . يستورد الزيتون والقمح .

شلوبانية Salobreña : مدينة حصينة أعلى تل تمتاز بعيون ماء ينحدر منها على السفوح — ووفرة الأسماك مشهورة بزراعة الخضر — على مقربة منها حصن مئزابل Motril . معظم أرضها ملك لسلطان غرناطة ولهذا فكل أهلها زراع فقراء ، وفيها مبان عظيمة يبدو أنها للسلطان ، ويرى ابن الخطيب أن أهلها لا يمتازون بجمال .

برجة Berja : بلدة جميلة كثيرة الزروع والزهور ، موقعها حصين آمن ، تشتهر بالعنب وأرضها مرتفعة لا يركبها ماء المطر وهى لهذا أرض أشجار ووفرة

المياه ، مزارعها فسيحة تنتثر فيها البيوت ، أهلها ميسير يشتغل الكثيرون منهم بتجارة الحرير ، ونظراً لارتفاعها وعلو أراضيها لا بد من نقل الماء إليها ولا تجود فيها الحبوب فلا بد من استقدامها من نواح أخرى .

دلالية Dalías (التي ينسب إليها الجغرافي العذري الدلائي) : بلد وافر الخيرات يشتهر بصناعة الحرير واستخراج الملح ، أرضها ذات مراعي تشتهر بمنتجات الالبان ، ولكنها معرضة لغارات الاعداء من البحر .

ألمرية : بلد غني حصين ومركز الأساطيل الحربية لمملكة غرناطة ، أهلها مشهورون بطيب الخلق والشجاعة في الحرب ذيداً عن دينهم ، والكثيرون منهم يتزهدون ويرابطون . مرفأها واسع أمين معد للإيواء السفن الكبار ، وقصبتها غاية في الحصانة والسعة بحيث تخزن فيها مقادير عظيمة من الأطعمة . أشهر حاصلاتها العنب والزيتون والكتان ، والرخام وتجارتها ذور رؤوس أموال ضخمة ولكنها شديدة الحر قليلة المطر عمادها على نهريها وحده .

وهذه مجرد أمثلة مما نستطيع استخلاصه من المواد الأندلسية الاربع وثلاثين التي يضمها المجلس الاول من تلك المقامة وهي بعد ما ذكرناه منها : طبرنش Tabernas ، بيرة Vera ، مجاقر Mujácar أو Mohacar ، قنتورية Cantoria ، برشانة Purchena ، أوربة Oria ، بليش Vélez Rubio ، بسطة Baza ، لورقة Lorca ، أشكر Huéscar ، اندرش Andarax ، شبالش Jubiles ، وادي أش Guadix ، فنيانة Fíñana ، غرناطة ، الحمة Alhama ، صالحة Zalia ، إليرة Illora ، منتفريو Montefrío ، لوشة Loja ، (بلد ابن الخطيب) ، أرجذونة Archidona ، انتقيره Antequera ، ذكوان Coín ، قوطمة Cártama ، رندة Ronda .

وهذه على وجه التقريب كل مدن مملكة غرناطة فيما بين سنتي ٧٦٠ و ٧٦٣ / ١٣٥٨ - ١٣٦٢ وهي فترة إقامة ابن الخطيب في المنفى بسلا ، وفي أثنائها كتب هذه المقامة .

وجدير بالملاحظة أن المادة التي يوردها ابن الخطيب عن البلاد المغربية لا تقل قيمة عما تتضمنه المواد الغرناطية ، وهذا إن دل على شيء ، فعلى أن ابن الخطيب كان رجلاً طلبة حريصاً على أن يعرف ويدرس ، دقيق الملاحظة متفتح الذهن لا يفوته شيء مما يرى ويسمع ، وسنرى ذلك بوضوح عندما نتكلم عن رحلته ، أى عندما يريحنا من عناء السجعات ويرسل نفسه على سجيته ويتكلم في نثر طلق مريح .

كتب ابن الخطيب في المجلس الثاني — أى النصف الخاص بالمغرب من « معيار الاختيار » — عن ست عشرة مدينة وقرية ، ومواده عنها أطول في الجملة من مواده عن المدن الأندلسية وأبلغ — بمقياس بلاغة المقامات — منها ، وهو يسرف فيها في المديح إلى درجة تختلط معها المعاني ويدعو البلد الصغير في أهمية الكبير لكثرة الكلام وعدم تدقيق ابن الخطيب فيما يقول ، وسبب ذلك واضح ، فقد كتب هذه المقامة وهو في سلا تحت كنف سلطان المغرب وفي رعاية أهله ، ومن ثم فقد كان حقيقاً بأن يتلطف ويتمدح ويبتكر الحاسن إذا لم يجدها ، ويجوز القول كذلك أن احتمال الإقامة الدائمة في المغرب كان يراود نفس ابن الخطيب بعد ما رأى من الحن في الأندلس ، ومن هنا فقد درس أحوال المغرب واستقصى وكتب هذه السطور مستجلباً لحبة الناس ومهدداً للعيش في أكنافهم .

وفي السطور التالية سنستخلص الحقائق الجغرافية من بعض المواد المغربية من هذه المقامة لكي نستطيع القارئ مقارنتها بالمادة الأندلسية ، مع ملاحظة أن ما سنذكره مستخلص من كلام كثير جداً معظمه لا ينطوي على معنى ذى بال كقوله عن سبتة : عروس الجلى ، وثنية الصباح الأجلى ، تبرجت تبرج العقيلة ، ونظرت وجهها من البحر في المرآة الصقلية ، واختص ميزان حسناتها بالأعمال الثميلة ؛ وإذا قامت بيض أسوارها مقام سوارها ، وكان جبل بنيونش

شمامة أزهارها ، والمنارة منارة شوارها ، كيف لا ترغب النفوس في جوارها ،
وتنجيم الخواطر بين انجاده وأغوارها..^(١) .

وإليك الحقائق الجغرافية التي يمكن استخلاصها من الفقرات :

سبتة : ميناء كبير ترسو فيه سفن كثيرة ؛ حولها غابات ممتدة يؤخذ منها
الخشب للوقود ؛ مركز قوافل وتجارة برية ومحطة صيد للأسماك . معتدلة الجو
لأنها كما قال « الوسيطة لخامس أقاليم البسيطة » ولكن أمطارها غزيرة ورياحها
عنيفة مستمرة ثم إن أهلها معروفون بالتدبير الشديد .

طنجة : مدينة قديمة تقوم في منطقة وسط بين الجودة والرداءة ، كان
أهلها يقدون على الأندلس ليشتركوا في الجيوش وكانوا يسمون بالطنجيين أو
الطنجاليين . تشتهر بمنارها العالي ومرساها الكبير ، وهي قريبة الشبه من جارتها
سبتة ، وفيها عين ماء غزيرة تعرف بعين برقان .

قصر كتامة (المسماة اليوم بالقصر الكبير أو قصر عبد الكريم) : بلدة تقوم
في منطقة غنية بالقمح والمراعي والألبان والفواكه الطيبة وخاصة التفاح ، ويصاد في
مياه المحيط إلى جوارها سمك طيب وافر . وهي محطة قوافل ومركز تجارة مع
الجبال المجاورة وخاصة جبال غمارة ، ولكن جوها غير صحي ويكثر بها البعوض .
أصيلا : المادة عن هذا البلد قصيرة عظيمة القيمة ، ولهذا أوردتها بتمامها :
« كثيرة المرافق ، رافعة الخصب في اللواء الخفاف : العصور^(٢) الأثير والحوت
الكثير ، واللبن الغزير ، والإدام الذي يرمى به من حُكم عليه بالتعزيز ،
والسفن المترددة ، وفيها الملف (أى الأقشة) والأبازير (أى الجيوب) . إلا أن
حصنها من المتعة برى وساكنها بربرى ، وجارؤها من غمارة جرى » .

(١) معيار الاختيار ، ص ١٠١-١٠٢ . وبيولش قرية كانت مجاورة لسبتة لا زالت آثارها
باقية إلى اليوم . تعليق للبادئ اعتياداً على دراسة للني بروفنسال :

Lévi-Provençal, *las Ciudades y las Instituciones Urbanas del Occidente Musulmán en la
Edad Media.* (Tetuan 1950), p. 45.

(٢) العصور هنا هو التين الأخضر .

سلا : بلد حصين يجمع بين البداوة والحضارة يشتهر بالقطن والكتان ، واديه (أى نهريه ، ويراد به نهر أبى الرقاق أو بورجرج) واسع تدخله السفن الكبيرة ، والبلد آمن تحيط به المزارع والمراعى .

شالة : بلدة غنية كثيرة المياه تقوم فيها مدافن بنى مرين ، مشهورة بسمك الشابل ، ولكن الماء فيها قليل وأسعار الحياة مرتفعة .

أنفّا (الإسم القديم للدار البيضاء) : ميناء واسع النشاط يكثر توارد السفن إليه ، يكثر حولها حيوان الصيد وطيره ، كثيرة الفواكه والأعشاب وافرة موارد الحياة إلا أن مياهها غير صالحة ومناعها غير ملائم للصحة ، وتقيم إلى جوارها جماعات من البدو تهدد أمنها .

آزمور : بلد غنى تحيط به أراض واسعة خصبة ، يمر به نهر غزير المياه ، وله مراعى غنية بالماشية ، وأهله يتصفون بالحرص الشديد . « ويعدم ببلدهم الماء والملح والفخار » .

وتكفى هذه النماذج من المادة الجغرافية التى تضمها فقرات هذه المقامة . وبقية المدن التى تتكلم عنها هى : تيط ، رباط ، آسفى ، مراكش ، أغمات ، مكناسة ، فاس ، فاس الجديدة ، آقر سلوين ، سجلماسة ، تازة ، غساسة .

وإذن فمجموع المدن التى يتكلم عنها ابن الخطيب فى هذه المقامة ٥٥ مدينة مغربية وأندلسية ، يقدم لنا عن كل منها معلومات طيبة ، ولو جمعناها بعضها إلى بعض لخرجنا بحصيلة لا بأس بها من العلم بالجغرافية الطبيعية والبشرية لمملكة غرناطة والمغرب الأقصى أيام بنى مرين . وأنه لمن المستبعد أن تتحصل عفواً هذه المعلومات الكثيرة لابن الخطيب عن كل بلد من تلك التى ذكرها ، لأنها معلومات دقيقة لا تجتمع إلا بالالتفات والعناية ، فهو يعرف أرض كل بلد منها وزراعته وحاصلاته وتجارته وشيئاً من عوائد أهله ، وهو يفرق بين خصائص هذا البلد وخصائص ذاك ، بحيث يتجلى بوضوح أنه يتكلم عن أشياء

يعرفها ولا يخلط بين بعضها وبعض . وهذا المستوى من العلم لا يتحصل إلا عن قصد ولا يتأتى إلا لمن صرف إليه البال والاهتمام ، وابن الخطيب من هذه الناحية جغرافى بالطبيعة ، يتبين حقائق ما يراه من الأرضين وما عليها دون مشقة ، ويدفعه الطبع والحرص والولع بالمال والعقار إلى السؤال والاستفسار والنظر فيما يمر بين يديه من أوراق الدولة وما تعرضه من أمور الجباية وشئون المحاصيل ، ويتأمل هذه الحقائق بعين المولع المتذوق قبل أن يدرسها بعين رجل الدولة الإدارى .

ابن الخطيب الرحالة

لا نقصد بالرحالة فى بحثنا هذا مجردَ السَّفار أو جواب الآفاق ، بل نقصد من وصَفَ رحلة قام بها أو كتب عنها شيئاً يدخل فى نطاق الجغرافية التى تؤرخ لها فى الأندلس ، لأن الرحالين كثيرون ولكن الذين كتبوا رحلات منهم قليلون ، وما وصلنا من كتابات هذا القليل إنما هو جزء يسير مما كتبوا .

وقد كان ابن الخطيب صاحب رحلات وأسفار ، وكان إلى ذلك مُغرى بالكتابة يجد فيها لذة كبرى كأنها كانت مراحه ومتنفس صدره عما كان ينقله من هموم ومتاعب وخاوف ، ومن مظاهر ذلك أن الرجل كان مصاباً بالأرق لا يكاد ينص من الليل إلا الوقت القليل ، وهذا الأرق إنما مرده إلى الخواف والهموم التى تقض المضجع ، فإن ابن الخطيب كان من أولئك الذين ابتلوا بالعيش طول العمر وسيف دقيانوس معلق بشجرة فوق رؤوسهم ، لأن مطامحه فى المال والسلطان كانت واسعة ، وكان نطاق أعدائه لهذا فسيحاً ، ولم تخل حياته لحظة من ناس يدبّرون مصرعه ويطلبون دمه ، وكانت حياته كلها فراراً من الشراك والأحاييل ولعباً حزيناً مريراً مع الموت المتكالب ، وكان لا بد أن

يدركه المصير الملاحق يوماً ما . ولا يخفف الأسى على ما أصاب ابن الخطيب إلا عرفاننا أنه كان أيضاً غريماً مطالباً للكثيرين ، يتعقبهم بكأس الحمام ، وصاحب مثل هذه الحياة الضارية لا يكون قط صاحب نوم هنىء أو حتى أرق هادىء ، وإنما هو أرق الخائف الوجل الذى يتوقع وراء كل قدم تقترب من داره فى سكون الليل طرق الباب وهجوم أعوان الموت . وكان ابن الخطيب يُدافع الروح بالكتابة والتأليف ، فطالت ليلاليه والسراج موقد وهو بين الكتب ينظر ويروى ويكتب فى انتظار غمضة من نعاس مع شعاع نور الصباح ، ولهذا فقد لقب بذى العُمَريين : عمر بالنهار وآخر بالليل .

وهذا فيما يبدو هو السبب فى ضحالة الكثير مما كتب ابن الخطيب ، فهى ألفاظ تلتقط من مطالعات أو تلتمس فى أركان ذاكرة واعية ، وليست معاني تتولد وتجوّد مع التفكير الطويل الهادىء ، والسجعات فى كثير من الأحيان إنما هى ستار على خلاء المعانى وقلة البضاعة ، وقد رأينا أمثلة من ذلك فيما سلف مما عرضناه من كلام ابن الخطيب وخاصة ما أتينا به من « خطرة الطيف ورحلة الشتاء والصيف » ، فهذا وصف رحلة قصيرة دامت بضعة أيام ، ومع هذا فقد سماها « رحلة الشتاء والصيف » انسياقاً مع سجة يسيرة لم يكلفه العُشور عليها جهداً .

وفى قطعة الرحلة التى نتحدث عنها الآن لنختم بها الكلام عن ابن الخطيب ناس هذه الظاهرة بوضوح ، فإن ابن الخطيب كتب هذه الصفحات حول رحلته فى جزء من جبال الأطلس الغربية هو المعروف بجبل هنتاتة نسبة إلى قبيلة مصمودية صنهاجية كبيرة تحمل هذا الاسم ، وكان لها دور عظيم فى تاريخ المغرب أيام الموحدين ، فقد كانت قبيلة فصكة بن ومزال الذى سماه محمد بن تومرت بِعَمَرٍ إِبْنَتِي أو يَنْتِي أو الهَنْتَاتِي ، وكلها صيغ مغربية ومعربة لاسم هذه القبيلة ، وهو الذى تلقب بعد ذلك بأبى حفص وأصبح جد بنى حفص أصحاب

الدولة المعروفة في تونس^(١) وقد كان لهنتاتة بعد ذلك دور كبير في تأييد دولة بنى مرين ، ومن هنا فقد كانت منازلها موضع عناية ورعاية من سلاطين هذه الأسرة ، خاصة وهذه المنازل تقع على الطريق الرئيسى من مراکش عاصمة الدولة إلى فاس ومكناس وطنجة وغيرها من عواصم الإقليم الشمالى من مُلك بنى مرين ، ولم يكن في يوم من الأيام مُلكاً مستقر القواعد أو شاملاً لنواحي البلاد ، إذ هو اعتمد على ولاء بعض القبائل الكبرى ومنها هنتاة هذه .

ولا ندرى لماذا ذهب ابن الخطيب إلى هذه الناحية ، فقد كان إذ ذاك لاجئاً إلى المغرب مع سلطانه الخلوع محمد الغنى بالله بن الأحمر ، وقد ظل هناك من ٧٦٠ إلى ٧٦٣ (١٣٥٩ إلى ١٣٦٢) ثم عاد إلى ما كانا عليه قبلاً في غرناطة : هذا سلطاناً وذاك وزيراً ، ولم تكن أحوال الدولة النصرية قد تدهورت بعدُ إلى ما صارت إليه عند ما هرب منها ابن الخطيب مرة أخرى سنة ١٣٧١/٧٧٣ فقد كانت الأحوال إذ ذاك قد بلغت — بالنسبة لابن الخطيب على الأقل — إلى درجة اليأس وانقطاع الرجاء ، ومن ثم فقد كان شديد الحرص أثناء إقامته الأخيرة تلك في المغرب على أن يقتنى الأموال والضياع والأرضين تمهيداً للإقامة الدائمة ، فلو أن ابن الخطيب قام برحلته تلك في هذه الفترة الأخيرة كما كان يُظن لقلنا إنه ذهب يبحث عن أرض يقتنيها أو عقار يضمه إلى أملاكه^(٢) ولكن عبارة له في خطاب أورده في سياق الكلام ربما تكشف لنا عن حقيقة الهدف الذى رعى إليه من وراء هذه الرحلة ، فقد قال في خطابٍ بعث به قبل رحيله إلى عامر بن محمد بن على الهنتائى شيخ ذلك

(١) انظر عنه التعليق الإضافى الحافل بالمراجع بقلم الدكتور محمود على مكي في حواشيه على نظم الجمان ، الذى نشر جزء منه في تطوان ١٩٦٤ ، ص ٨٠ .
(٢) انظر عن تحديد تاريخ هذه الرحلة : البادى ، مشاهدات ، ص ١٣ - ١٤ . وقد فصل ابن الخطيب الكلام عن أحوال غرناطة أيام هربه الأول مع سلطانه إلى المغرب في نفاضة الجراب كما قال هو في الصفحة البدرية ، انظر ص ١١٣

الجيل ووالى القبيلة ومنطقتهما : « فلما حُمّ الواقع وعجز عن خرق الدولة الأندلسية الراقع وأصبحت ديار الأندلس وهى البلاقع ، وحسّنت من استدعائك إياى المواقع ، قوى العزم وإن لم يكن ضعيفاً ، وعرضت على نفسى السفر بسببك فألفيته خفيفاً ، والتمست الاذن حتى لا ترى فى قبلة السداد تحريفاً ، واستقبلتك بصدر مشروح ، وزند العزم مقدوح ، والله يحقق السؤل » .

ومعنى هذا أن ابن الخطيب سعى إلى أن يستدعيه هذا الشيخ لزيارته فى منازل قبيلته وجبلها ، فلما وصلت إليه الدعوة عجل بتلييتها أملاً فى أن يكسب صداقة هذا الشيخ القوى فيجد فى بلاده حى ومأمناً من الفتن والمخاوف التى كان يجتازها ، وهو نفسه يشهر إلى حال الدولة الأندلسية الحزن إذ ذاك « فلما حمّ الواقع ، وعجز عن خرق الدولة الأندلسية الراقع » مما يفهم منه أنه كان يلتمس فى واقع الأمر أمناً من خوف وقراراً من فرار ، وربما كشف لنا ابن الخطيب عما كان يساوره من الآمال والمخاوف قوله « والتمست الاذن حتى لا ترى فى قبلة السداد تحريفاً » ومعنى ذلك أنه يُطمئن ذلك الشيخ إلى أنه استأذن السلطان قبل أن ينهض إلى تلك الزيارة حتى لا يساء الظن بدوافع رحلته وحتى لا يحسب الشيخ الهنتاى أن ابن الخطيب هارب إليه من ذلك السلطان .

على أى الأحوال لا يسمع الإنسان إلا أن يأسى لحال هذا الرجل الموهوب وهو يعانى ما قدّرت عليه ظروف حياته النكدة من آلام ومخاوف وتطأين عن قدره عله يظفر بأمان كان إذ ذاك محالاً .

فى ظروف كهذه لا نتطلب من ابن الخطيب التفاتاً إلى خصائص طبيعية أو ظواهر جغرافية ، بل أننا نكلفه شططاً إذا انتظرنا منه أن يصف لنا فى دقة ما رأى وما شهد ، فقد كتب هذه الصفحات ليعرض على هذا الشيخ مثلاً من بلاغته وعلمه الواسع ، ثم لكى يُفرغ عليه وعلى قبيلته وأصحابه وكل من يلوذ به مديحاً بالغاً يفتح له قلبه وقلوبهم ويقيم له بينهم مكاناً آمناً ، ومن

ثم فهو يطرى كل شيء اطراءً يجاوز الحد المقبول ، فالشيخ عامر بن محمد ابن علي الهنتائي : « عميد تلك البقعة وشاه تلك الرقعة ، صدرُ هذه الحدود القصوى ، المتميز بالرجاحة والرأى والسياسة . . . » وقريبه ومتبوعه وحارس المجاز إلى منازل هنتاته عبد العزيز بن محمد الهنتائي « صنوه وحافظ شيعته ، وقسيمه في قعساء عزته ، الحسنُ الوجه ، الراجحُ الوقار ، النبيه المركب ، الملوكي البزة ، الظاهر الحياء . . » والطريق إلى منازل هنتاته جميل يشرح الصدر رغم صعوبة اجتيازه : « ولما بلغنا درج الجبل ، وانتحينا طريقه من السفح ، وهي تركب ضفة الوادي الملتف بعاذى شجر الحور والطرفاء وشجر الخلاف والدردار ، وأمعنا كابدنا عنتاً في اقتحام الوادي ذى الجرية الكثيرة الصبب ، المسوقة المد ، العظيمة التيار ، المجهولة الخاض ، ونقتحم منه أزرق شفافاً عن الحصباء ، كثير الجلبات ، أملس الصفاح ، لذاع البرد ، عبرناه نحواً من ثلاثين مرة في أماكن يتخللها الدّوح ، ويعظم الرّيح ، ونَحْصُرُ الحرباء ، وتسمو عن جانبها الجبال الشم ، والشعبات التي تزل بها العصماء ، وتفضى دروبه إلى أغوار فسيحة ، وأجواء رحيبة ، يكتنفها العمران ، ويموج بها السنبُل . »

ومحل سكنى عبد العزيز بن محمد الهنتائي ومضارب خيامه هي الغاية في الجبال والرواء : « وصعدنا الجبل إلى حلة سكناه ، المستندة إلى سفح الطّود ، وقد هياً ببعض السهل الموطأ للاعتماد بين يدينا من المضارب كلّ ساعى العماد ، بعيد الطنب ، سوى القامة ، مقدر التفاصيل ، بديع النقش والصنعة ، ظاهر الجدة ، مصون عن البذلة ، بظُلُلٍ من مراتب الوطاء الرفيع ، ولحف الحرير ومساند الوشي ، وانطاع سزعفر الجلد ما تضيق عنه القصور المحجبة والأبهاء المنضدة . »

ويتصل بهذا المعنى أن ابن الخطيب يصف ما قدم له من الطعام في تفصيل طويل فيه مبالغة ظاهرة ، فإن من يقرأ هذا الكلام بحسب ابن الخطيب لم يشهد قبل هذا ولية كهذه أو خواناً من هذا الطراز ، وهذا أمر لا يجوز

في خلد أحد ، فقد كان الرجل أندلسياً فخلاً ووزيراً خطيراً ممن سئمت نفوسهم هذه الموائد فضلاً عما يقوله من « وقوع البهت » لدى رؤياها .

ويشعر القارىء وهو ينتقل بين صفحات هذه الرسالة أن ابن الخطيب حقق ما رجاه من كسب ود أولئك السادة الهنئيين والاطمئنان إلى أن له مكاناً في جبلهم « الذى يعصم من الطوفان » ، ويواصل أمنه بين النوم والاجفان » كما قال هو بنفسه في رسالته التى أوردنا طرفاً منها ، فقد انشרכת نفسه بعد ذلك ومضى يصف ما يمر به في تودة وتدقيق ، شأن خلى البال صافي النفس ، وهنا — أى بعد الوصول إلى جبل هنتانة — يبدأ الجزء العظيم القيمة من هذه الرسالة ، ولكنها قيمة تاريخية في الأغلب ، لأن طريق العودة إلى مراكش كان حافلاً بمشاهد العبرة التاريخية ، فهناك الموضع الذى لجأ إليه السلطان أبى الحسن على بن عثمان بن عبد الحق المرينى ومات فيه بعد ما كابد من أهوال الهزيمة في الأندلس وقيام ابنه أبى فارس عنان عليه ، وهناك مسجد المهدي بن تومرت وضريحه في تينملل وما إلى ذلك من المواضع التى تثير شجون الذكريات ، وفي هذا العمر من العبر اندفع ابن الخطيب مع عباب التاريخ فلم يترك للجغرافية إلا القليل ، ولكن هذا القليل جيد يعود بنا إلى بحولة ابن الخطيب في مقدمتي « الاحاطة » و « اللوحة » . ومن أجود أمثلة ذلك كلامه عن أغمات بجزايرها : أغمات وريكة أو أوريكة وأغمات هيلانة أو عيلان أو إيلان . وأغمات كما يفهم من السياق لفظ بربرى قديم يراد به سياج المدينة البدائية المعروفة بالكراال Kraal وهى أقدم طرز المدن البدائية ، وكانت هاتان الأغماتان (أو السياجان) تقعان إلى جنوبى مراكش كأنهما ريسان أو ضاحيتان لها . وقد زار ابن الخطيب أغمات بعد أن خطت في سبيل التمدن خطوات فأنشئت في كل من جزئها قصبة أى حصن وجامع . ووصف ابن الخطيب لهاتين البلديتين في غاية الأهمية في هذا الباب ، فهو يرينا نموذجين لبلديتين بدأتا سياجين لقبيلتين ثم سارتا في طريق التمدن دون أن توفيا على الغاية لسبيين

رئيسيين ، الأول عدا ما بين القبيلتين والثاني قريهما من مدينة كبيرة رئيسة هي سراش ، ولولا تكلف ابن الخطيب في اختيار الفاظه ورصف عبارته لكان هذا الوصف نموذجاً بديعاً لوصف بلد صغير عند جغرافيينا .

وما دنا بصدد هذه الفقرة العظيمة الأهمية بالنسبة لمن يدرسون المدن وقيامها وتطور نظمها — وهي دراسة حضارية مشتركة بين الجغرافية والتاريخ والاجتماع والسياسة — فهاتنا فقرة أخرى أوردها ابن الخطيب بعد ذلك يصف لنا مدينة في طور الكُرَال ، أى في طور الأول لنشوتها ، أى وهي مجرد حوز مسوّر تضع القبيلة داخله حصاد محصولها ونساءها والمضنون به من ماشيتها وسلاحها ويلجأ إليه رجال القبيلة للتحصن به في أوقات الحروب . وابن الخطيب يستعمل هنا مصطلحاً عربياً يقابل الأعنات أو الكُرَال فيقول « السور » أو « المجمع » أو « المجمع » أو « الحلق » وفيما يلى نص هذه الفقرة التى نعتقد أنها فريدة فى بابها بالنسبة لتاريخ المدن :

« ثم سافرنا منه إلى سور موسى من مجامع دُكَّالة ، وهو حَلَقٌ ذو شرفات وأبراج ، بادی الانثلام والتشعيث غير حرز الغلق للجهل هذه الأمة المُضَحَّرَة بالتحصين ، وهو بعض ما يلجأ إليه أهل هذا الوطن المتكاثف العمارة ، الجهم الماشية ، المنبت الحلل ، الغاص على انفساح مداه بالراغية والثاغية والصاهلة والناهقة ، البالغ عدد أزواجه لاثارة الأرض ومعالجة الحرث ، ثلاثة آلاف زوج من أزواج الثيران تثير أرضه وتعالج حرثه ، يُتَحَرَّم به عند الغارة الشعواء المصمثلة يطرقهم بها عدوهم من بنى الحارث وأحلافهم من سكان السهل والجبل فيسد عندها » .

ونختم الكلام عن هذه الرسالة الفذة لابن الخطيب بعبارة أخرى ذات قيمة خاصة بالنسبة لمن يدرسون تاريخ المدن فى عالمنا الإسلامى ، أنها تدور حول مشروع إنشاء مدينة والأسباب التى حفزت الناس على العمل على إنشائها ولماذا استجاب السلطان لرغبتهم ، والقواعد التى ساروا عليها فى اختيار موضع المدينة

وما إلى ذلك . ويلاحظ أن المدينة لم يتم إنشاؤها بسبب موت السلطان الذي فكر في اختطاطها ، وهو أبو عنان فارس المريني المتوفى سنة ١٣٥٨/٧٥٩ ، وهذه في ذاتها حقيقة تتعلق بتاريخ المدن عندنا ، وهي أنها كانت في أحيان كثيرة تقوم وتخفى تبعاً لرغبات السلاطين . قال ابن الخطيب :

« وقد كان رُفِعَ إلى السلطان المَغْرِبِي بالبناء وتحليل الآثار أبي عنان رحمه الله ، خَبَرُ ما عليه الناس من إخافة عدوهم ، واهتضام عَرَصَتِهِم واستهداف عقوبتهم ، فأمر بارتداد محل لتأسيس مدينة ، فاخْتِيرَ على غلوات منهم ، محلٌّ أرضه صخر منطبق على تراب ، يتأنى فيه اتخاذ الخندق غير مثلولم الشفا ، بعيد المهورى ، يبنى السور بما يخرج منه من الثرى ويصون الأطباق المعدة للاختزان عن أضرار السماء ، ويكون سطح الأرض على خمس قامات من منبع الماء . فُشِرِعَ في البناء واستبعد الفضاء ، ومُنَّتْ الأبواب العديدة ، والأبراج المشيدة . وعاق عن إتمامها هجوم حَمَامِهِ وانصرام أيامه ، فرغب أهله في التنبيه على تكميل نقيصته واحتياز حسنته » .

إلى هنا نقف بالكلام عن ابن الخطيب الجغرافى ، وكان ينبغى أن نقف كذلك بالكلام عن الجغرافية فى الأندلس ، فقد كان ابن الخطيب كما قلنا خاتمة الفحول من أهل الفكر فى ذلك البلد ، وجانبه الجغرافى يعين لنا بالفعل نهاية الفحولة والابتكار والتجويد فى تاريخ العلم الجغرافى هناك ، ولكن لا بد لنا قبل أن نضع القلم من أن نقول كلمتين عن كتاب الجغرافية والتاريخ المجهول المؤلف الذى أشرنا إليه قبل ذلك .

وجماع القول فى سهم ابن الخطيب فى ثروة الجغرافية الأندلسية أنه سهم وافر ساقه الله على لسانه عن غير قصد ، ولكنه أجاد فيه ، بل كانت مقدمات الاحاطة والمحة البدرية من أحسن ما كتب ابن الخطيب عموماً ، وفى مقاماته شوارد وأوابد تُجمع بالصبر والتدقيق فى النصوص ، ووصف رحلته دون شك يدخل فى حصاد الجيد من أدب الرحلات فى الأندلس .

جغرافية الأندلس وتاريخه لمؤلف مجهول

هذا الكتاب مخطوطٌ محيّرٌ محفوظ في الخزانة العامة في رباط الفتح^(١) ، وهو مخطوط جيد لم نجد صعوبة كبيرة في تحقيق الجزء الجغرافي منه تمهيداً لنشره في القريب ، ولكننا لم نستطع رغم المطالعة المتصلة أن نصل إلى مؤلفه ، ثم إننا تحيرنا في عصر هذا المؤلف وأصله ، فإن الإشارات التاريخية الواردة في صلب مواد القسم الجغرافي منه لا تشظى عصر الخلافة ، وقسمه التاريخي كذلك يقف عند خلافة هشام المعتد آخر خلفاء بني أمية في الأندلس ، ولكن صفحة العنوان تقول بعد البسملة : « ذكر بلاد الأندلس وفضلها وصفتها وذكر أصقاعها ومدنها وجبالها وأنهارها ومعجائبها وما خصت به من الفضائل والبركات والجواهر والمعادن والأشجار والنبات ؛ وذكر من نزلها من الأمم والملوك من بعد الطوفان إلى أن فتحها الإسلام ؛ ومن وليها من أسراء العرب بعد الفتح ، ومن ملكها من خلفاء الأمويين والحمويين العلويين ، وذكر الدولة العامرية القائمين بدولة هشام المؤيد بها ، وذكر الثوار المتغالبين عليها بعدهم ، ومن ملكها من ملوك المرابطين والموحدين وبني مرين وبني هود وبني نصر وبني اشقيولة ، والله سبحانه المعين لا رب غيره » ، ومعنى هذا أن مؤلف الكتاب عاش في العصر الغرناطي أو بعده ، وهو أمر لا نجد ما يؤيده في النص نفسه .

وبهنا هنا أن نذكر الحقائق الرئيسية المتعلقة بطبيعة هذا الكتاب وبنائه ومادته ، لأن هذا هو الذي يدخل في نطاق هذا البحث ، وأملنا لا زال قوياً في التعرف على صاحبه :

(١) نحن مدينون في الحصول على نسخة مصورة من هذا المخطوط القيم لإخواننا المشرفين على الخزانة العامة في الرباط وخاصة الأستاذين إبراهيم الكتاني وعبد الله الرجراجي ، وهما حقيقان منا بكل شكر . وقد يسر لي الحصول على النسخة المصورة أخی الدكتور محمود على مكي مضيفاً بذلك فضلاً جديداً إلى سوابق عوارفه .

١ — أول ما نلاحظه أن مادة الكتاب جغرافية تاريخية ، فهو يجرى إذن من حيث بنائه على تقليد الجمع بين الجغرافية والتاريخ الذى جرى عليه معظم الجغرافيين والمؤرخين الأندلسيين ، ولكن مؤلف الكتاب ارتد إلى القاعدة الأولى التى وضعها أحمد بن محمد الرازى وهى إيراد المادة الجغرافية أولاً ثم التاريخية بعد ذلك ، ومن هنا فإن كتابنا هذا ينقسم قسمين منفصل أحدهما عن الآخر تمام الانفصال حتى ل يبدو كتابين ، فالجغرافية قائمة بذاتها ويليهما التاريخ مرسل فى نسق واحد ، ولا نجد فى القسم الجغرافى إلا أقل الإشارات التاريخية ، وكذلك القسم التاريخى يخلو من الجغرافية تماماً .

وتلك هى الطريقة التى سار عليها أحمد بن محمد الرازى ، فكان المؤلف احتذاه وصار على طريقه ، وهذا واضح يؤيده النص ، فإن المؤلف لا يزال يقول فى قسمه التاريخى : « قال صاحب التاريخ » فإذا جاء إلى سنة ٣٢٦ هـ . قال : وفى هذه السنة توفى « صاحب التاريخ » فالمراد به إذن الرازى لأنه توفى بالفعل فى تلك السنة (٩٣٨ م) .

وإذن فهذا الكتاب — إلى تلك السنة على الأقل — ملخص لكتاب الرازى ، وهذا واضح تماماً من مادة قسمه الجغرافى ، فهو نقل من الرازى أو اختصار لكلامه مع زيادات كثيرة . ومن أسف أن الخطوط لا يبدأ بصفحات الكتاب الأولى ، وقد كان من الممكن أن تعيننا على معرفة مؤلفه وشيء عن طبيعته .

وهذه العلاقة الوثيقة بين القسم الجغرافى من هذا الكتاب وجغرافية الرازى تجعل له أهمية خاصة ، فهو من الأصول التى نعتد عليها فى إعادة تكوين هذه الجغرافية الهامة ، وسنوفى هذه الناحية حقها فى الدراسة الخاصة التى سنقدمها بين يدي تحقيقنا للنص .

٢ — إن المؤلف ليس مجرد ناقل أو موجز وإنما هو رجل عارف بما يكتب مطلع على أحوال الأندلس ملم بتاريخها ، وعنده تصور سليم لحياتها ،

فهو يقول في فقرة من الفاتحة مبثورة البداية : « ... ثم طرطوشه ثم برجلونه ثم بجانة ثم [لفظ غير واضح] والمرية ثم غرناطة ثم جيان ثم اسججه ثم لبله ثم الخضرا ثم مالقة ثم قرطاجنة ثم برجلونة ثم بيونه ثم قشتيله ثم جليقية ثم شامنكه ثم طليبة (الأصح هنا طليبة) ثم تطلية (تطيلة ؟) ، ومدينة تطلية وهي آخر بلد الأندلس شرقاً على حد بلد الأفرنج ، ومدينة تطيلة وهي آخر بلد طركونة هي آخر ما فتح الإسلام بالأندلس ، وإليها انتهى ملك المسلمين . وأما المدن المتوسطة مثل شريش وقرمونة وبسطة وطلاطة وأبده وبياسة وباجة وكبشور وأرجونة وقيجاطة وطريف فما يحدهم عددهم الحصر » . وواضح أن هذه الفقرة تتكلم عن مدن الأندلس وترتيبها بحسب الأهمية ، ولا يكتب مثل هذه العبارة إلا من عرف الأندلس معرفة طيبة ، وفي كلام المؤلف بعد ذلك ما يؤيد أنه أندلسي من العصر الغرناطي المتأخر .

٣ — ويعتمد المؤلف في مقدمات القسم الجغرافي على طائفة كبيرة من المؤلفين مثل ابن خرداذبة وابن بشكوال وابن سيده والحسن بن محمد بن مفرج وغيرهم إلى جانب أحمد بن محمد الرازي وهو مرجعه الأكبر . والفقرات التي ينقلها عن هؤلاء فقرات هامة نجد الكثير منها في نقول المقرئ وغيره ولكنه يتفرد ببقيتها ، ومعنى هذا أنه يقدم لنا مادة تسد فراغات واسعة فيما بين أيدينا مما كتب الأندلسيون عن جغرافية بلادهم .

٤ — وأوفي فصول المقدمات ذلك الذي يدور على « فضل الأندلس وما يُنقل في شأنها وفضلها من الأحاديث الواردة » وقد نقل المؤلف هذا الفصل كله عن أبي القاسم بن بشكوال وأضاف إليه أشياء قليلة ، وهو يورد لنا ثبثاً كاملاً بكل الأحاديث النبوية التي تتحدث عن فضل الأندلس ، وكلها أحاديث موضوعة طبعاً ، ولكنها تعطي فكرة عن نظرة واضعها إلى بلدهم وفضائله . ومن المعروف أن هذه الأحاديث مشتركة بين الكثير من بلاد الإسلام ، أي أن أهل كل بلد يعدلون الحديث وينسبونه إلى بلادهم ، ولكن الغريب أن

محدثين ناقدين عارفين بالجرح والتعديل مثل ابن بشكوال يوردون هذه الأحاديث أى يقولون بصحتها وهم أعرف — فيما نحسب — بموقعها من الصحة والسلامة ، ولكن حب الوطن يغلب على قواعد العلم عندهم ، وهى نزعة عاطفية تجعلنا نقرأ مثل هذا الفصل بشعور عميق من التقدير بصرف النظر عن الصحة أو عدمها فى هذه الحالات .

ويدخل فى باب الفضائل هذا ذكر ما يمتاز به الأندلس من المحاصيل والمعادن والخيرات وما إلى ذلك ، مما يدخل فى صميم المعلومات الجغرافية .

٥ — إن القسم الجغرافى من الكتاب ينتهى بفقرة عن « نزها من الأمم والملوك بعد الطوفان إلى أن فتحها الإسلام » . وواضح أن مثل هذا الفصل يدخل فى باب التاريخ ، ولكن الرازى اعتبر ما وقع من الحوادث قبل الفتح الإسلامى جزء من المقدمات العامة وأدرجه فى الجغرافية على اعتبار أن التاريخ الحق يبدأ مع الإسلام ، وهى ظاهرة جديرة بالملاحظة نجد شيها لها فى موقف العلم الحديث من عصور ما قبل التاريخ ، فهناك من يعتبر دراسة هذه العصور داخلة فى العلم الجغرافى وهناك من يرى أنها من التاريخ ، وهناك من يرون أنها أدخل فى الأركيولوجية أى الآثار ، وعلى هذا الاعتبار نستطيع القول بأن مؤلفينا كانوا يعتبرون ما قبل الإسلام عصر ما قبل التاريخ ، وهى حقيقة طريفة جديرة بأن يشار إليها .

٦ — وقد أحصى المؤلف حديث العجائب وجعله كله فى فصل واحد من فصول المقدمات ، وفرغ بهذا للمادة الجغرافية الصرفة بعد ذلك .

٧ — وبعد هذه الفصول التقديمية يبدأ القسم الجغرافى الحقيقى من الكتاب ، والمؤلف يجعل عنوانه : « الخبر عن بلاد الأندلس على التفصيل . مدينة بعد مدينة ، وما اختصت به كل مدينة من الفضائل والخاصن » ويبدوه بعبارة يذكر فيها مراجعه أو بعضها : « قال المؤلف عفا الله عنه : ذكر أحمد ابن أبى الفياض والدلائى (أى العذرى) وابن القوطية وابن حيان والرازى

وابن مزين والمزني وابن الزقاق وغيرهم مما (كذا) عنى بتاريخ الأندلس أن المعمور من الأرض مقسوم على سبعة أقاليم ...»

وبعد سطور قليلة من التقديم يأخذ في الكلام عن المدن بادئاً بقرطبة ، والفصل الذي مخصصه لها وجامعها ولأقاليمها هو دون شك أوفى ما لدينا عن تلك العاصمة الأندلسية الكبرى ، فهو يقع فيما يزيد على سبع ورقات ، ولولا طوله لأوردته هنا على تواليه . ولهذا فسكتني الآن بإيراد النقط التي يتكون منها هذا الفصل الطويل عن قرطبة ليأخذ القارئ فكرة عن أهميته وقيمه : مقدمة قصيرة عن قدر قرطبة وفضلها — بعض غرائبها — فقرة من كلام الرازي عنها — فقرة من كلام العذري — فقرة لابن حيان — بعض أبعاد قرطبة — مدة بقائها في حوزة الإسلام : من ٩٢ هجرية إلى ٢٣ شوال ٦٢٣ — وصفها العام وأرباضها — احصاء دورها ومساجدها وقصور الخلفاء بها — اضمحلها — وصف جامعها بتفصيل — أقاليم قرطبة .

وهذه المادة الوافرة التي يأتينا بها المؤلف عن عروس مدائن الغرب الإسلامي تستوقف نظرنا من ناحية هامة جدية بالملاحظة ، وهي أن المؤلف يصف البلد كأنه لا يزال قائماً كاملاً كما كان في أيام أوجه ، مع أن قرطبة في أيامه كانت قد خرجت من دار الإسلام بعد أن مرت بعصر اضمحلال طويل نتيجة للمحن التي عبرت بها ، ولكن المؤلف لا يذكر عن ذلك شيئاً ، لأن إحساسه بالزمان وفعله قليل ، وما دام ابن بشكوال قال إن قرطبة وُصفُها كذا وكذا فلا بد أن يورد وصفها على هذه الصورة ولو بعد ألف سنة ، وهذا ناشئ من تلاشي البعد الزمني عند كتاب العصور الوسطى ، فإن الزمن عندهم مفهوم غامض معقد شرير ، فبالنسبة للأحياء يعتبر الزمن هو الموت ، وبالنسبة للتاريخ لا عمل للزمن إلا تخريب ما هو قائم ، فإذا قامت دولة فلا بد أن تبلغ أوجها ثم تنحدر ، لا لأن هذا له أسبابه بل لأنه فعل الزمن الذي لا مفر منه ، وإحساسهم بالأطوال الزمنية قليل فيستوى عندهم القرن والقرنان ، ومن ثم فهم لا يستغربون

حكاية شجرة تزهو وتثمر ويؤكل ثمرها في ليلة واحدة ، وهذا موضوع طويل نرجو أن نكتب فيه شيئاً يوماً من الأيام ، والمهم لدينا هنا أن قرطبة بقيت في أذهان المسلمين في صورتها أيام عبد الرحمن الناصر بدون تغيير . نعم لأنهم يقررون في بعض الأحيان أن التهدم والتخريب نالا منها ، ولكنهم عند ما يصفونها يصفونها في صورتها تلك الخالدة التي لا تتغير .

ولا تتضح الأهمية الحقيقية لهذا الفصل إلا إذا نشرناه كاملاً مع ما لا بد منه من التعليق والتفصيل ، ولكن يكفي أن نقرر الآن أن مؤلف الكتاب جمع فيه مادة وافرة جداً من كلام ابن الفرضي وابن حيان والعذري وابن بشكوال ، وهذا الأخير هو معتمده الأكبر عن قرطبة ، وواضح أن المؤلف اعتمد على كتابه الخاص بها الذي أشرنا إليه في حديثنا عن الجانب الجغرافي من ابن بشكوال .

أما المواد المخصصة للمدن الأندلسية الأخرى فقصيرة في مجموعها ، ولكنها غنية بالمادة النافعة ، وفي أحيان كثيرة تنفرد بأشياء لا نجدها في غير هذا الكتاب . وعلى سبيل العلم فحسب نورد أسماء المدن التي يتكلم عنها بعد قرطبة : قبلة ، أبدة ، جيان ، طليطلة ، الأشبونة ، قنطرة السيف ، شنترين ، شلب ، بطليوس ، برتقال ، باجة ، ماردة ، شنتبرية ، كورة مدينة الفرج ووادي الحجارة ، لبلة الحمراء ، اشبيلية ، مورور ، شذونة ، حصن روطة ، جزيرة قادس ، الجزيرة الخضراء ، رية وهي مالقة ، كورة تاكرنا ، مدينة البيرة ، اسجة ، سرقسطة البيضاء ، افراغ ، لاردة ، طرطوشة ، دانية ، مرسية ، طركونة ، برطاقه (بريطانية ؟) ، بلنسية ، تَطْلِيَّة (تطيله) ، شاطبة ، بسطة ، طلياته ، المرية .

وجملة القول في هذا الكتاب أنه جمع وتأليف من مصادر شتى ، وهو يجري في ذلك على سنن التقليديين من الجغرافيين ، أي الذين يأخذون على الدرب المطروق كما بدأه أحمد بن محمد الرازي من تقديم عام لشبه الجزيرة ثم

الكلام عن المدن والكور واحدة فواحدة مورداً في كل فقرة ما يتيسر من النقول دون أن يضيف من عند نفسه شيئاً جديداً . وهذا لا يعنى أن الكتاب قليل القيمة إذ الواقع أن نقوله عظيمة الفائدة ، فقد كانت بين يديه مراجع وأصول شتى ضاع الكثير منها .

ولكنه بصورته تلك لا يعين تقدماً أو تجديدًا في طريقة الدراسة أو أسلوب المعالجة ، ولا نعتز فيه على شيء شخصى ذى قيمة كهذه اللحات التي وجدنا عند الكثيرين ممن ذكرناهم وآخرهم ابن الخطيب ، وهذا هو الطبيعى والمعقول ، فقد توفى ابن الخطيب سنة ٦٧٧/١٣٧٤ أثناء الحكم الثانى لأبى عبد الله محمد الغنى بالله ، ثامن سلاطين بنى نصر ، وهو — رغم اضطراب أيامه واستمرار تدهور الدولة على عهده — آخر كبار سلاطين بنى نصر ، وليس لدينا بعده إلا حكام صغار ضعاف أسرعت الدولة أيامهم إلى النهاية . ولم يظهر بعد ذلك فى الأندلس من يدانى ابن الخطيب أو يقارب أحداً من الفحول الأول ، وخلال القرن ونيف التى بقيت من عمر الأندلس الإسلامى لا نجد رجال الفكر إلا مقلدين للماضين وطامحين إلى الوصول إلى مستواهم دون توفيق ، وكتاب الجغرافية والتاريخ هذا إنما نموذج من حصاد عصر الاحتضار هذا ، وهو على هذا الاعتبار نهاية مناسبة نقف عندها بالكلام .

بكل ما جد من الابحاث والكتب فى موضوع هذا الكتاب
منذ صدور طبعته الاولى الى الآن

عندما تفضلت المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بالموافقة على اعادة نشر هذا الكتاب ضمن سلسلة منشوراتها العلمية القيمة، وجدت لزاما على ان اعيد النظر فى الكتاب كله، فأصلح ما فيه من اخطاء موضوعية ومطبعية، واستدرك فى هذه الطبعة الثانية أهم ما تفضل به من نصح وتوجيه السادة العلماء الافاضل، الذين كلفوا انفسهم عناء قراءة هذا الكتاب وارشادي الى ما تراءى لهم من وجوه الرأي، واخص بالذكر منهم السيد الاستاذ الدكتور عبد العزيز كامل العلامة الجغرافى النابه، والصديق الكريم الاستاذ صلاح الدين عثمان هاشم الذي اضاف إلى المكتبة العربية كتابين يعتبران من اجمل ما أهدي الى المكتبة العربية فى ميدان تاريخ علم الجغرافية عند العرب والمسلمين عامة، وكلا الكتابين ترجمة من الروسية الى العربية : الاولى تاريخ الادب الجغرافى العربى والثانية كتاب تركستان الاسلامية من الفتح العربى الى الغزو المغولى، وسأتحدث عنهما فى هذا التمهيد.

وكان على كذلك ان اضمن الكتاب ما عسى ان يكون قد ظهر من الكتب فى ميدان الجغرافية العربية منذ صدور الطبعة الاولى لهذا الكتاب الى الآن، وعندما احصيت ما بلغ الى علمى من تلك الكتب والابحاث ودرستها، تبينت - لحسن الحظ - ان ما فيها - رغم قيمته العلمية العظيمة - لا يغير شيئا من صلب الكتاب، وانما يضيف اضافات لابد من التنويه بها فى مثل هذه الطبعة.

وقد استقر رأيى على ان اجعل هذا الاحصاء فى هذا الذيل، وإن اقسمه إلى فقرات بحسب ترتيب فصول الكتاب، ورأيت ان ذلك افضل من التدخل فى صلب الكتاب نفسه، فقد ترى المنظمة ان خير ما تفعله فى اعادة الطبع هو تنفيذ ذلك بطريقة الاوفست، لان الكتاب مثقل بالنصوص واسماء المراجع غير العربية، وقد بذلت فى الطبعة الاولى جهدا مضنيا فى جمع اسماء تلك النصوص، وتصحيح سياقها وطباعتها على احسن مستوى فى كفاية النصوص غير العربية، وهذا كله متعذر اعادة عمله اذا جمع الكتاب فى مطبعة عربية مهما كانت عدتها الطباعية.

٦٠٤ ولا يخفى على القارىء ان الطبعة الاولى عملت فى مدريد، وتحت يدي كل اصناف الحروف غير العربية، من اليونانية واللاتينية الى الالمانية والبرتغالية. وقد بذلت اقصى الجهد فى ضبطها ولهذا فقد جاءت الاخطاء فيها قليلة جدا، وقد صوبتها قبل تقديم الكتاب لهذه الطبعة الثانية بدل المرة مرات.

وفيما يلى أورد اهم تلك الاضافات :

(١) فيما يتعلق بالتاريخ العام لعلم الجغرافية فى الاندلس لابد من الاشارة الى كتاب : تاريخ الادب الجغرافى العربى للمستشرق الروسى اجناتايوس يوليانونوفتش كراتشكوفسكى الذى ترجمه من الروسية الى العربية الاستاذ الدكتور صلاح الدين عثمان هاشم واصدرته لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة فى مجلدين، صدر الاول منهما سنة ١٩٦١ والثانى سنة ١٩٦٥. والكتاب جزئيه يعتبر الآن من كلاسيكيات المكتبة الثقافية العربية، فان المترجم بذل اقصى الجهد فى عمله، سواء فى النقل من الروسية الى العربية أم فى مراجعة كلام المؤلف الروسى على الاصول العربية أم فى صياغة النص العربى فى قالب عربى سليم. وهذا كله جهد رفيع يستحق عليه صاحبه كل ثناء وتقدير.

وظاهر من تواريخ صدور تلك الترجمة العربية وسنوات تأليف كتابنا هذا اننا تعاصرنا فى العمل، فكان كل منا يعمل دون ان يعلم عن عمل صاحبه شيئا، ولم اطلع قبل الفراغ من كتابى هذا الا على الجزء الاول من كتاب كراتشكوفسكى، وكان ذلك قبل الفراغ من كتابى بوقت قصير، فلم تتيسر لى فرصة الافادة منه، ولكنى تيقنت ان النتائج التى وصل إليها المؤلف الروسى لا تتعارض فى شىء عما وصلت اليه فى كتابى فيما يتعلق بعلم الجغرافية عند الاندلسيين، وقد زدت عليه فى الحقائق والتفاصيل، وهذا طبيعى، فكتابى كتاب تخصص، ولم يفتنى شىء من الأصول او الدراسات.

ولكنى اضيف الآن ان أراء كراتشكوفسكى فى الجغرافيين الاندلسيين جيدة صافية تدل على فهم واستقصاء. ونحن نختلف معه فى آرائه عن أثر الجغرافية اليونانية فى اصول علم الجغرافية عند المسلمين، وفيما دخل على الجغرافية العربية من عناصر غير سليمة

متصلة بالجغرافية الفلكية اليونانية. كان لابد ان اختلف معه، فهو مستشرق غير عربى، ونحن عرب تهمننا مسألة الاصاله فيما يتعلق بعلمنا العربى. ولهذا، فهو يؤكد الأثر اليونانى فى الجغرافية العربية، اما نحن فقدردنا ذلك الأثر الاغريقى قدره الصحيح، وبيّنا انه أضر بمسار العلم الجغرافى عند العرب. ثم ان كراتشكوفسكى لم يقدر كتاب كارلو الفونسو ناللينو عن «علم الفلك وتاريخه عند العرب فى القرون الوسطى» حق قدره، ولعله لم يقرأه قراءة تدقيق، ولو فعل لافاد منه فى تصحيح بعض آرائه.

وبهذه المناسبة، احب ان ابنه القارىء الى التعليق القيم الذى قامت به العلامة العربية الاستاذة الدكتور عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطىء) من التعليق على ما وقع فيه كراتشكوفسكى من الاخطاء فى حق الاسلام والقرآن الكريم، متعلقا بالاشارات الجغرافية فى القرآن الكريم، وهو تعليق وتصويب تسأهل عليه العالمة الكريمة كل تقدير. وهو ذيل على الجزء الثانى من ترجمة الدكتور صلاح الدين هاشم ابتداء من ص ٨٦٩، وهو فى ذاته مبحث قيم عن الاشارات الجغرافية فى القرآن الكريم.

وكلام كراتشكوفسكى عن علم الجغرافية فى الاندلس والمغرب موزع فى فصول متعددة من كتابه، يستطيع القارىء التعرف عليها من قراءة فهرس الكتاب، وقد قرأتها ولم اجد فيها زيادة على ما ذكرته فى هذا الكتاب

اما الكتاب الثانى الذى اهداه الدكتور صلاح هاشم للمكتبة العربية فهو ترجمته البديعة لكتاب المستشرق الروسى فاسيلى فلاديميروفتش بارتولد عن تركستان من الفتح العربى الى الغزو المغولى، وقد نشر هذه الترجمة قسم التراث العربى بالمجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب سنة ١٩٨١.

ومع ان الكتاب لا يدخل فى دائرة كتابنا هذا، الا اننا ينبغى ان نشير الى الدراسة الضافية لجغرافية بلاد ما وراء النهرين ومعظم آسيا الوسطى الاسلامية التى كتبها بارتولد وتكلف الدكتور صلاح الدين

عثمان هاشم عناء بالغاً في تعريبها، وهي الفصل الاول من الكتاب من ص ١٤٥ الى ٢٩٧، فهي على هذا كتاب قائم بذاته، حافل بالفوائد عن جغرافية المشرق الاسلامي.

(٢) وقد تناولت في بحثي جغرافية بطليموس وترجماتها الى العربية وما كان لها من الأثر في علم الجغرافية عند المسلمين، وصححت الكثير من المفهومات الشائعة عند الغرب، من القول بان جغرافية بطليموس اصح من جغرافية الادريسي مثلاً، وأثبت بالبرهان العلمي ان الادريسي أصوب وأكمل، بل برهنت على ان الخرائط المنسوبة الى بطليموس والمتداولة الآن بين الناس ليست اصيلة، وانها في الغالب منقولة عن خرائط الادريسي.

وقد اطلعت بعد نشر كتابي على كتاب «صفة جزيرة العرب للحسن بن احمد بن يعقوب الهمداني (٢٨٠ - ٣٦٠ هـ ٨٩٣/٤ - ٩٧٠ م) الذي حققه الاستاذ محمد بن علي الاكوع الحوالي، واشرف على طبعه وراجعته وقدّم له عالم الجزيرة الاستاذ العلامة حمد الجاسر، تلخيصاً فيما لجغرافية بطليموس لم يشر اليه احد من قبل، ولم يذكر الهمداني اصل الترجمة التي اطلع عليها وقبس منها ما قبس، ولكن عرض الهمداني لجغرافية بطليموس عرض جيد، بل يكاد ان يكون افضل ما لدينا في العربية، وقد احببت ان اضيف هذه الملاحظة هنا، مع ان جغرافية بطليموس تخرج عن موضوع هذا الكتاب، ولكنني اشرت الى بطليموس كثيراً في كتابي بسبب احتفال الجغرافيين العرب بكتبه واقبالهم على ترجمة كتابيه في الجغرافية والفلك واقتباسهم منهما.

واقْتباس الهمداني من بطليموس وارد في كتاب صفة جزيرة العرب ابتداء من ص ١١ وما بعدها.

(٣) فيما يتعلق بكلامنا عن ابي عبيد عبد العزيز البكري، ص ١١٢ وما يليها من هذا الكتاب.

توفر الاستاذ الدكتور عبد الله يوسف الغنيم على دراسة البكري وإدار عليه رسالتيه للماجستير والدكتوراه، ووصل في ابحاثه الى معلومات قيمة عن البكري لم نوردّها في هذا الكتاب، واهمها تحقيقه القيم

٦٠٧

لمصادر البكري فيما يتعلق بما كتبه عن جزيرة العرب في «معجم ما استعجم» و «المسالك والممالك» من امثال ابي زياد الكلابي وعبد الملك بن قريب الاصمعي وابن دريد، ابي بكر محمد بن الحسن، والازهري ابي منصور محمد بن احمد، وعزام بن الاصمغ السلمي، والسكوني، ابي عباد عمرو بن بشر والحربي، ابي اسحاق ابراهيم بن اسحاق بن ابراهيم بن بشير، والهجرى، ابي على هارون بن زكريا وغيرهم، وهذه كلها اضافات قيمة احب ان اتوه بها لقيمتها العلمية، وهى كلها اضافات لم تتطلب منى تصحيح شىء مما اوردت فى هذا الكتاب، فيما عدا ما ذهب اليه من التشكيك فى ان البكرى توفى سنة ٤٨٧هـ/١٠٩٤م وقد صححه هو الى ٤٩٦هـ/١١٠٢م. وهو تصويب معقول.

وقد حسب الدكتور الغنيم فى بعض دراساته اننى خلطت بين ولبّة وأوبنة، وأحب ان اقول هنا ألا خلط هناك فان أوبنة هى ولبّة من مدائن جنوب غربى الاندلس، فان أوبنة هو الاسم اللاتينى القديم Unuba الذي حل محله اسم ولبّة Hualva فى العصور الاسلامية وبقي الى اليوم، ولا زالت التسمية الى ولبّة فى الاسبانية مشتقة من الاسم القديم فيقال للوكبى unubense.

واضيف هنا ان الاستاذ محمد الجاسر يصحح الكثير من مفاهيم البكري وتحديثاته اعتمادا على علمه الواسع بالجزيرة العربية واسماء المواضع فيها، وهو يشك فى صحة الكثير من تعريفات البكري وتحديثاته فيما ذكره عن جزيرة العرب وخاصة فى الفصل القيم الذي كتبه (البكري) عنها فى معجم ما استعجم.

وكتابا الدكتور عبد الله يوسف الغنيم المشار اليهما هما :

- حصاد البكري ومنهجه الجغرافى، منشورات دار ذات السلاسل فى الكويت، ١٩٧٤.
- جزيرة العرب من كتاب «المسالك والممالك» لابي عبيد البكري، منشورات دار ذات السلاسل، الكويت، ١٩٧٧

وفى سنة ١٩٦٨ قام الاستاذ الدكتور عبد الرحمن على الحجى بنشر ما تيسر له جمعه مما بقى من جغرافية البكري عن الاندلس واوروبا، وبذل جهدا

مشكورا في ذلك، واضاف اليها الدكتور الحجى اضافة قيمة من العلم بكتاب «المسالك والممالك» لابي عبيد البكري.

وقد نشر هذه الاجزاء في كتاب عنوانه «جغرافية الاندلس واوروبا من كتاب المسالك والممالك لابي عبيد البكري»، دار الارشاد للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ١٩٦٨.

(٤) فيما يتعلق بكلامنا عن الادريسي ص ١٦٥ وما بعدها، نضيف ان نص نزهة المشتاق للادريسي قد نشر كاملا محققا اجود تحقيق باشراف معهدين من اعظم معاهد الاستشراق في ايطاليا هما :

Instituto Universitario Orientale di Napoli

Instituto Italiano per il Medio ed Estremo Oriente

فيما بين سنتي ١٩٧٠ و ١٩٧٥ وقد اشرفت على العمل لجنة من اكابر اهل الاستشراق في ايطاليا وهم :

E. Cerulli, F. Gabrieli, G. Levi Della Vida, L. Petek, G. Tucci, A. Bombaci, U. Razitano, A. Rubinacci, L. Veccia Vaglieri.

وقام بتحقيق الاجزاء الخاصة بكل مجلد رجل من علماء أهله أو من المتخصصين في دراساته. وصدرت الطبعة في ثمانية فصول، جمعت بعد ذلك في مجلدين كبيرين عدا الفهارس.

وقد كان لي شرف تحقيق الاجزاء الخاصة بمصر، ثم ترجمت النص بعد ذلك الى الانجليزية، وعلقت عليه بدراسات مستفيضة تقع في كتاب كامل باللغة الانجليزية، ينشره المعهدان الانفا الذكر.

وقد الف العلامة العراقي المرحوم الدكتور احمد سوسة كتابا عن الشريف الادريسي ونشره في مجلدين في بغداد، الاول مدخل الى عصر الادريسي، والثاني عن الادريسي نفسه وعنوان الكتاب :

الشريف الادريسي في الجغرافية العربية بغداد ١٩٧٤.

وقد نشر الكتاب على نفقة جمعية المهندسين العراقية في طبعة

فاخرة مزينة بعشرات اللوحات والخرائط الجغرافية العربية ملونة وغير ملونة.

والجزء الاول دراسة لتاريخ العلم الجغرافى عند العرب، وهى دراسة قيمة فعلا. اما الثانى فيدور كله حول الادريسي، ولم يصف المؤلف عن الادريسي شيئا على ما قلناه، وان كانت طريقته فى الدراسة تتميز بدقة واسلوب جيد. وقد تفضل فإشار الى كتابنا هذا مرة بعد اخرى. والكتاب بجزئيه يعتبر الآن من امهات المؤلفات عن علم الجغرافية عند العرب، وخاصة فيما يتعلق بالخرائط واللوحات التى جمعها المؤلف من مصادر شتى بعضها لم يعرفه كونراد ميلر عندما نشر كتابه المعروف عن الخرائط العربية.

ولما كانت المعلومات القليلة عن حياة الادريسي واتصاله بملكه رجاء النورماندى وعمله معه قد وردت متفرقة فى بحثنا الطويل عنه، فقد رأيت ان أوردها هنا مجموعة فى بيان واحد :

اسمه الكامل : ابو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن ادريس الشريف الحسنى.

- ٤٩٣ هـ/١١٠٠م مولى الادريسي فى سبته بشمال المغرب الاقصى
- ٥١٠ هـ/١١١٦م كان فى آسيا الصغرى من بلاد الشرق فى اول رحلته المشرقية
- ٥١٢ هـ/١١١٨م نهاية رحلته المشرقية ومروره بصقلية فى طريق عودته الى المغرب
- تعرفه على القاسم بن حمود فى صقلية، وتقديم هذا اياه الى رجار القانى النورماندى واعجاب هذا به ودعوته إياه الى الإقامة فى صقلية والعمل بها
- ثم عودته الى المغرب وذهابه بعد ذلك، ورحلته القصيرة الى الاندلس. ثم عودته الى صقلية واقامته بها للعمل مع رجار
- ٥٣٣ هـ/١١٣٨م بداية عمل الادريسي فى صقلية. صنعه كرة الارض من

٦١٠
الصفحة ثم تسطيح الكرة رسماً على لوح الترسيم ثم كتابة
وصف لهذه الخريطة المسطحة. وهذا الوصف هو الذي
عرف بنزهة المشتاق في اختراق الآفاق، وتلك هي
جغرافية الإدريسي المشهورة

٥٤٨ هـ / ١١٥٣ م فراغ الإدريسي من كتاب نزهة المشتاق
٥٦٠ هـ / ١١٦٤ - وفاة الإدريسي في مدينة بلرم في الغالب وقد يكون عاد
١١٦٥ إلى المغرب ومات فيه.

ويجد القارئ مناقشة هذه التواريخ كلها في كتابنا هذا.

(٥) عن أبي عبد الله محمد العبدري الرحالة

كتب الأستاذ العلامة المغربي تعليقا على ما ذكرناه في كتابنا هذا
عن الحالة النفسية التي جعلت العبدري عنيفا في أحكامه على بعض
البلاد بحثا نشرناه في المجلد السادس عشر من صحيفة معهد
الدراسات الإسلامية في مدريد. والبحث من أبحاث الرأي، وهو جيد
كما هو عهدنا بكل ما ينشره العلامة المغربي الكبير.

(٦) كتاب الجغرافية المنسوب إلى محمد بن أبي بكر الزهري

نشر نص هذا الكتاب في بيروت نشرة غير محققة تحقيقا علميا،
وقد اطلعنا عليها فلم نجد فيها أو في مقدمتها إضافة جديدة، ونحن في
انتظار الطبعة المحققة التي يعدها الأستاذ جون هوبكنز الأستاذ بجامعة
كمبريدج.

وفيما يتعلق بما كتبه عن أبي بكر العربي وفضله في قيام جغرافية
الرحلات في الغرب الإسلامي، نشر الأستاذ الدكتور احسان عباس،
الذي طالما اغنى المكتبة العربية بعلمه، بحثا قيما عن رحلة بن العربي
كما صورها كتاب قانون التأويل (مجلة الأبحاث، السنة ٢١، الأجزاء ٢
و٣ و٤، كانون الأول (ديسمبر) ١٩٨٦).

والمقال يعتمد على نص جيد عثر عليه الدكتور احسان وهو يكمل ما
قلته عن أبي بكر بن العربي.

(٧) ابن بطوطة

لاحظ بعض اهل العلم الافاضل اننا ما دمنا قد كتبنا عن الشريف الادريسي في كتابنا فقد كان من المناسب ان نكتب عن ابن بطوطة، وكنا قد كتبنا عن الادريسي لانه قمة العلم الجغرافى عند المسلمين، ثم ان اصله اندلسى. ومع ذلك فقد استجبت لهذا الرأي، وكتبت كتابا كاملا عن «ابن بطوطة ورحلاته»، تحقيق ودراسة وتحليل. وقد نشرت الكتاب دار المعارف بالقاهرة سنة ١٩٧٧.

(٨) كتاب الروض المعطار لمحمد بن عبد المنعم الصنهاجى الحميري

نشر النص الكامل لهذا المعجم القيم الاستاذ الدكتور احسان عباس فى بيروت سنة ١٩٧٣، والطبعة محققة تحقيقا علميا دقيقا، وقد قدم لها الاستاذ الكبير بمقدمة ضافية يبدو من اطلعنا عليها انه لم يطلع على كتابنا هذا او قرأ ما فيه، ولكنه اطلع على تحقيق الاستاذ ليفى بروفنسال من الاعلام الاندلسية فى كتاب مشهور اشرنا اليه فى كتابنا هذا، واطلع كذلك على بحث عن الاعلام الجغرافية فى جزيرة صقلية، نشره المستشرق الايطالى اومبرتو ريزيتانو نشر فى صحيفة كلية الآداب بجامعة القاهرة.

هذا ما انتهى الى علمى من الدراسات والتحقيقات التى ظهرت عن الجغرافية والجغرافيين فى الاندلس الى الآن، ونضيف الى ذلك ما نشر فى مجلة الاندلس من ابحاث عن الجغرافية الاندلسية وهو كثير، ولكن معظمه يدور حول تحقيقات لبعض الاعلام الجغرافية الاندلسية، والكثير من هذه الدراسات جيد جدا، ولكنه لا يدخل فى موضوع كتابنا وان لم يخل الامر من بعض الاشارات الى الجغرافيين المسلمين، ونخص بالذكر تحقيقات الاساتذة Felix Hernandez, Joaquin vallvé, Leopoldo Torres Babas, Luis Seco de Lucena

وقد نشر الاستاذ الدكتور احمد مختار العبادي القسم الخاص بالاندلس من

كتاب الاكتفاء في اخبار الخلفاء في صحيفة معهد الدراسات الاسلامية في مدريد سنة ١٩٨٠ والحق به تعليقات عن اعلام اندلسية وجدها في شرح القصيدة الشقراطية لابن الشباط، وفي النصين معلومات عن جغرافية الاندلس، كلها مستقاة من مراجع اندلسية وغير اندلسية.

وفيما عدا ذلك يبقى صلب كتابنا هذا سليما مستوفى قدر الطاقة في تاريخ العلم الجغرافي واهله في الاندلس، مع اضافات عن مساره في بلاد المغرب. ومع ذلك فان هذا لا يمنع ان يكون قد عذب عن علمنا غير شيء مما ينشر الناس في هذا المطلب ومعظمه مقالات في صحف ثقافية قيمة، ولكن علمها لا يصل إلينا، لان عالمنا العربي واسع بل شاسع، والعلم فيه كثير والنشر وافر، ولكن وسائل الاتصال بين اهل العلم ضعيفة واهية، ولا مجال للشكوى فهذا هو الواقع ولا حيلة لنا فيه.

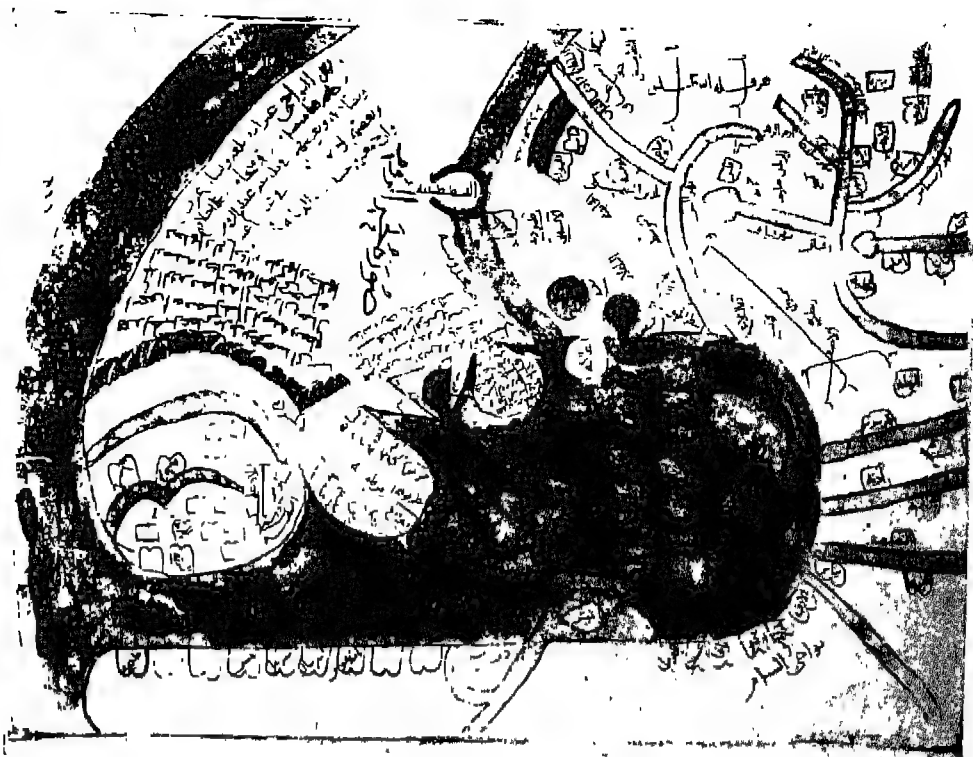
والله سبحانه من وراء القصد والنية، وهو سبحانه المستعان على كل خير.

خَرَائِط

ملاحظة : لما كانت العرب وأهل العصور الوسطى يرسمون الخرائط في وضع معاكس لوضعها اليوم ، فالشمال فيها جنوب وبالعكس ، فقد تمخبت في معظم الخرائط استعمال مصطلحات الاتجاهات كالشرق والغرب وما إليها وقلت بدلا من ذلك : إلى يمين الرسم أو يساره ، وذلك كله بالنسبة للقارئ الناظر إلى الرسم ، ويستثنى من ذلك الخريطة رقم ١ (صورة الأرض للادريسي) فقد وضعناها على هيئة خرائط اليوم) وكذلك الخريطة رقم ٩

César Dubler, *Der Afro-Indo-Malaysische Raum bei Idrisi*, Francke Verlag, Bern, 1957.

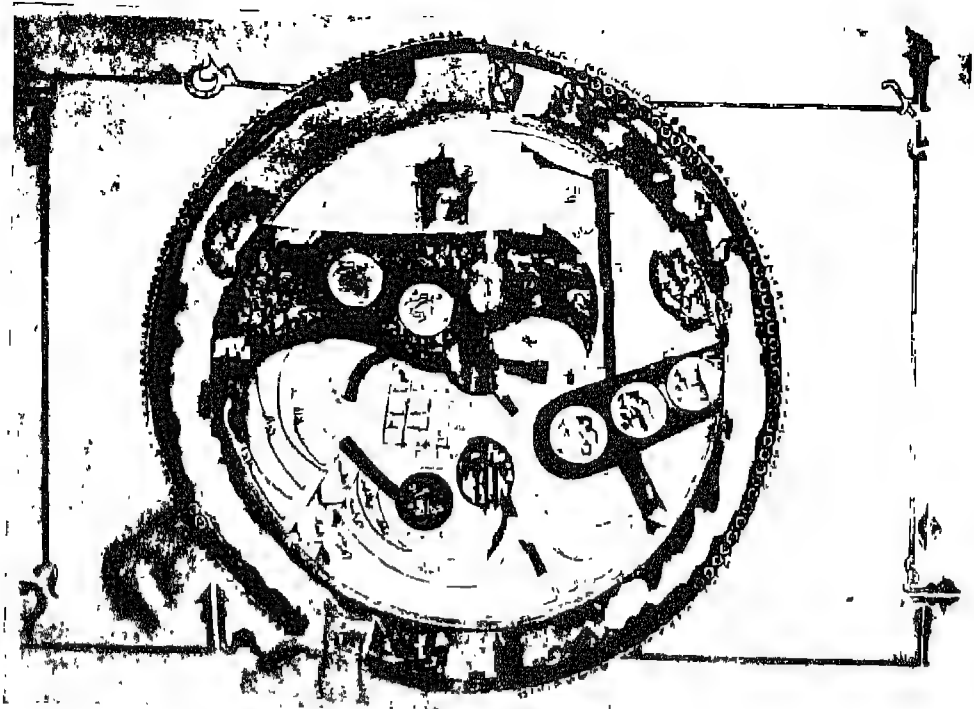
وقد وردت هذه الخريطة في صور شتى يختلف بعضها عن بعض اختلافاً واضحاً في شتى المراجع مما دفعنا إلى الشك في حقيقتها والبحث عن أصولها . وقد أتينا في هذا الكتاب (ص ٢٣٣ - ٢٣٥) بتحقيق تاريخها وأثبتنا بالفعل أنها ليست من عمل بطليموس ، فإن الخرائط البطلمية كانت تكون الجزء الثامن من جغرافيته ، ولم يصلنا من هذه الخرائط إلا ٩٠ واحدة في المجموع ، عمل منها العلماء خلال القرن الخامس عشر نسخاً ، ثم صاعت الصور الأصلية ، وأعاد العلماء بعد ذلك عمل هذه الخرائط معتمدين على الأوصاف الواردة في النص ، وعدلها بعضهم على أساس من الخرائط البورنولالية ، وأضاف آخرون خرائط لم يعرفها بطليموس ، ومن هنا فهي منحولة ومسوبة إلى الرجل على غير حقيقة ، ولا يجوز لهذا أن يقال - كما يرد في كثير من الكتب - أنها رغم قدمها أدق من خريطة الأرس للادريسي .



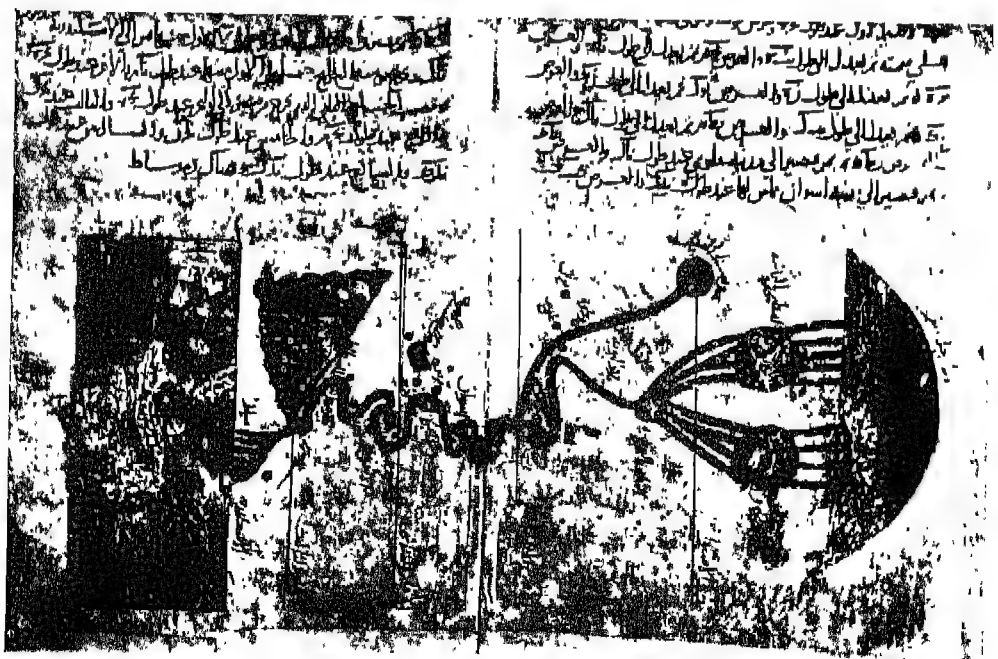
(٣) البحر الأبيض كما ورد مصوراً في المخطوط رقم ٣٣٤٦ بمكتبة سراي في الاستانة . هذه الرسوم لم تكن خرائط جغرافية بالمعنى الصحيح ، وإنما هي رسوم توضيحية عملها المؤلفون لتوضيح الكلام



(٤) صورة الأرض كما رسمها البيرونى . نموذج آخر من الخرائط التوضيحية التى كان علماء المسلمين يرسمونها ل إعطاء القارئ فكرة عن الصورة العامة للأرض ومواقع الاقطار ونهار بعضها بالنسبة لبعض



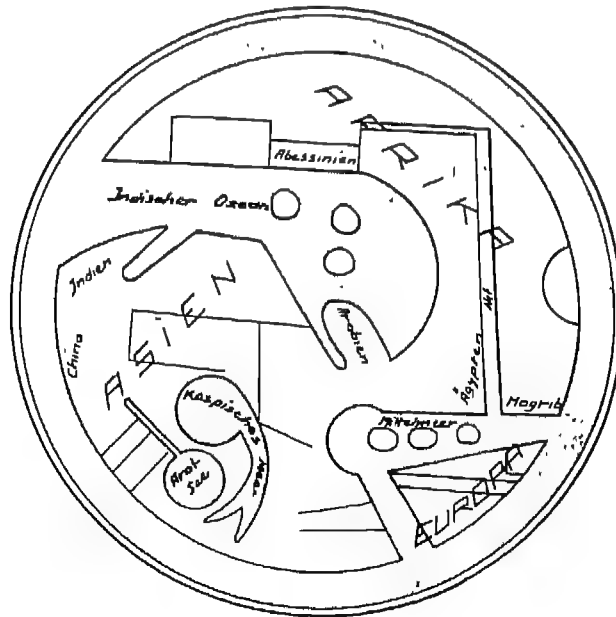
(٥) صورة الأرض للاصطخري : خطوة انتقال من الرسوم التوضيحية إلى الحرائط الجغرافية . في وسط الخريطة ترى البحر الأبيض على اليمين ثم بحر الهند إلى اليسار وهذا الوضع هو الخاصة المميزة لحرائط الأرض في أطلس الإسلام



(٦) خريطة النيل كما رسمها الخوارزمي في كتاب صورة الأرض الذي اختصر فيه جغرافية بطليموس . ولم ينقل الخوارزمي هذا الرسم عن بطليموس إذ هو تصوير لمعلومات المسامين عن النيل ومناجبه



(٧) رسم لهيئة الأرض وجد في أحد مخطوطات جغرافية هروشيوش اللاتينية . الرسم لا يزيد على مستطيل مقسم إلى ثلاثة أقسام : الأول في أعلاه وهو إفريقية وتحتها أوروبا على اليسار وآسيا على اليمين . المخطوط المتعرجة حول الرسم ليست إطاراً ، وإنما هي ماء البحر الذي يحيط بدائرة الأرض ، وقد كتب هروشيوش في أعلى الرسم لفظ Oceanus أى المحيط



(٨) رسم توضيحي لهيئة الأرض وجد في إحدى مخطوطات الأصطخري ونشره كونراد ميللر في مجموعة الجرائد العربية . إلى اليمين ترى نهر النيل منحدراً عامودياً من البحر الأبيض ثم منحرفاً إلى اليسار . (لاحظ أن وضع الخريطة مقلوب) وإلى شرق النيل ترى البحر الأحمر متصلاً بالمحيط الهندي — نقلاً عن رسم عملة سيزار دوبلر



(٩) صورة الأرض كما نشرت في طبعة القاهرة من كتاب خريدة المعجائب وفريدة العرائب للشهاب الدين أبي حفص عمر بن الوردى المتوفى في ذي القعدة ٨٦١ / سبتمبر - أكتوبر ١٤٥٧ وهي إحدى الخرائط العربية التي ترجع إلى أصول فارسية بدليل أنها تجعل إيران وسط الأرض ، ويرى البحر الأبيض في النصف الشرقى من الرسم . لاحظ كيف يرسم المؤلف الأندلس وبلاد الأفرنج والموره ناسياً شبه جزيرة إيطاليا . ويرى النيل منحدراً من البحر الأبيض في صورة خط رأسى ينحرف إلى الشرق حتى منبعه أو يخرج منه عند جبال القمر ، وإلى شمال هذه الجبال تضع الخريطة البحر الأحمر في صورة قرن ينسج ويسير شرقاً مكوناً المحيط الهندى الذى تقع عليه الهند والتبت والصين وتقع فيه جزر سيلان وسومطرة وجاوة . وإلى شمال الهند والتبت والصين تقع إيران وأفانيتها ، وهي في مجموعها تعدل الهند والتبت والصين معاً وتمتد حتى بحر خوارزم . كتاب ابن الوردى نفسه نموذج من تأليف عصر الاضمحلال في علم الجغرافية . يلاحظ أن الخرائط العربية ترسم مقلونة ، فأوروبا أسفل بلاد العرب ومملكة الإسلام - عدلنا وضع الخريطة هنا - تقلا عن ملحن دائرة المعارف الإسلامية ، الطبعة الأولى



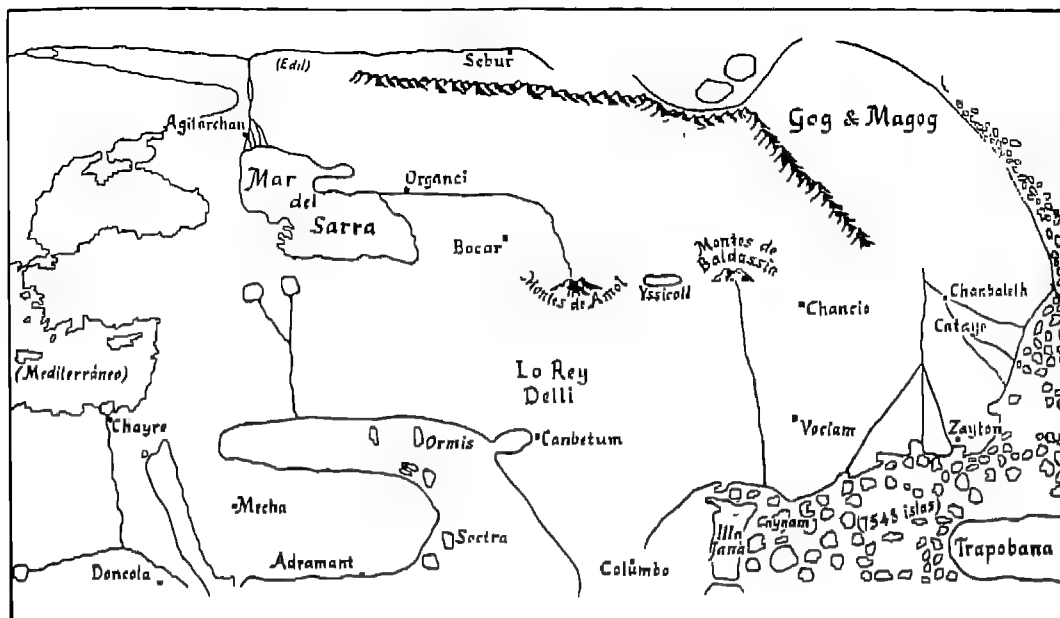
(١٠) صورة للأرض فريدة في بابها عملها أحد المستعربين الأندلسيين ، أوردها جنزالو مننثت بيدال في دراسة له عن ثقافة المستعربين (وهم نصارى الأندلس الذين دخلوا في طاعة الاسلام ودولته في الأندلس) والصورة تقوم على أساس من تصور إيزيدور للأرض (راجع الخريطة ٦) . وهو أن الأرض تنقسم إلى ثلاثة أقسام كبيرة هي إفريقيا وأوروبا وآسيا ، وأضاف المستعرب إلى هذا التصور عنصرين رئيسيين : الأول أنه جعل الأرض مستديرة ، والثاني أنه استبدل أسماء القارات بأسماء الأجناس التي تسكن كلا منها ، وفي القسم الأعلى وهو الأكبر كتب : وسط الأرض لبي سام وهم العرب الشام والحجاز ويثرب ومكة وأرض فارس وأرمينية إلى البحرين . وفي القسم الأسفل إلى اليسار كتب : ولبي يافث - وهم العجم - من عند البحر الضيق : الحزر وياجوج وماجوج والروم وبلد الصقالية والأندلس إلى بحجم البحرين . وكتب في القسم الأيمن : ولبي حام وهم البربر من ملتي البحر الضيق الهندي : الهند والزنغ والحبشة والقيط والسودان والبربر إلى المغرب . وفي الشريط الأفقي وسط الدائرة كتب : جميع الأرض أربع وعشرين فرسخ (كذا) وهو قياس محيط الأرض عند الكثيرين من جغرافينا . وفوق ذلك كتب نفس العبارة باللاتينية الدارجة بتغيير طفيف : *Exactius terre mensura geometrica CLXXXM stadia* : وهو طول محيط الأرض على قول بطليموس بالاصطادات . وفي محيط الدائرة كتب مقاييس أخرى بالعربية لا تصعب قراءتها ، انظر :

Gonzalo Menéndez Pidal: «Mozárabes y Asturianos en la Cultura de la Alta Edad Media, en relación especial con la historia de los conocimientos geográficos». Bol. de la Real Academia de la Historia (1954).

وكذلك بحث دوهرل الآنف الذكر .



(١١) رسم الإدريسي صورة الأرض مرتين ، الأولى في صورة كرة أو دائرة ، هي المنشورة أعلاه — نقلا عن بحث لسيار دوبلر — وهي من الناحية الجغرافية أقرب للدقة من الصورة الثانية ، أما هذه الثانية فهي مبسطة على طريقة مركاتور وهي الأشهر والأكثر تداولاً بين الناس ، وقد نشرناها في أول هذا الكتاب نقلا عن رسم ممتاز لها نشره المجمع العلمي العراقي ، وفي أثناء كلامنا عن الإدريسي شرحنا كيف عملها الإدريسي ، وبيننا فضله في ذلك



(١٢) في تاريخ علم الخرائط يحتل القطلونيون (ومعهم الأرغونيون) والجنوبيون وأهل الجمهوريات الإيطالية مكاناً ممتازاً ، فهم الذين حملوا لواء هذا الفن بعد العرب ابتداء من القرن الرابع عشر ، وليس من الثابت أنهم انتفعوا بخرائط الإدريسي ، لأن هذه لم تعرف في أوروبا إلا بعد ذلك بزمان طويل ، ولكنهم حافظوا لمدة طويلة على العنصر المسير للخرائط العربية للأرض وهو أن وسط الأرض يحتله بحران كبيران الأول يسير من الشرق إلى الغرب ، وهو البحر الأبيض ، والثاني يقع شرقة - وهو أكبر منه حجماً - يسير من الشمال إلى الجنوب ثم ينحرف إلى الشرق في اتساع ويحيط باليابس كله من الشرق (البحر الأحمر ثم المحيط الهندي) . واعتماداً على مملومات الرحالة مثل ماركو پولو وأوديريكو دوبردونو Oderico de Pordenone وسير جون ماندفيل Sir John Mandeville أدخلوا تعديلات هامة وأضافوا زيادات كثيرة إلى ما عرف العرب كما ترى في هذه الخريطة التي رسمت حوالي سنة ١٣٧٥ . لاحظ كيف كتبت القاهرة Chayre وبحر قزوين Mar Sarra ونهر أوكسوس Organci وبحار Bocar ونهر سيبيريا Sebur . وفي أقصى الخريطة إلى الشرق كتبت بكين Chanbaleth وهي شان بالق عند العرب والصين Catayo وهي بلاد الخطأ عند العرب . الخ . لاحظ دقة الرسم في هذه الخرائط وهذا دليل على تأثرها بالخرائط البورتولانية .

Cf. G. R. Crone. *Historia de los Mapas. México, 1956, pp. 44 sqq.*

النصوص الواردة في تضاعيف الكتاب

صفحة

١٠٧	ابن الأبار : ترجمته لابن أبي الفياض
١١٤	كلامه عن عبد العزيز البكري
٢٨٣ ، ٢٨٢	كلامه عن ابن بشكوال
٢٩٦	كلامه عن اليسع بن عيسى النافقي
٢٩٧	ترجمته لأبي حامد الغرناطي
٢١٣	الإدريسي : وصفه لطريقة تنفيذ خريطته
٢٢٢ ، ٢٢١	كلامه عن هيئة الأرض
٢٦٦	كلامه عن سلسلة جبال كنتبرية
٢٦٩	مثال من دقته في الوصف وتحديد المسافات
٢٧٤	كلامه عن الطرق المؤدية من فرنسا إلى شنت ياقب
٢٨٦	قوله إن قرطبة خمس مدن يتلو بعضها بعضاً
٥٣٦	كلامه عن البحر المحيط
١٣	الاصطخري : أطلس بلاد الإسلام
٣٥	ابن أبي أصيبعة : كتاب هرويش صاحب القصص
٣٥	ترجمة كتاب « تفسير أسماء الأدوية المفردة » لديسقوريدس
٢٤٠	أماري ، ميكيلي : رأيه في كتاب « نزهة المشتاق » للإدريسي
١١١	ابن بسام : كلامه عن أبي زيد عبد العزيز بن محمد البكري
٨١	ابن بشكوال : ترجمته لأحمد بن عمر بن أنس العذري

صفحة

١٢٧	البكرى ، أبو عبيد : كلامه عن تهامة
١٣٤	كلامه عن كروية الأرض
١٣٥	كلامه عن النيل
١٣٥	كلامه عن علة المد والجزر
١٣٨	كلامه عن أسماء شبه جزيرة إيبيريا
١٤١	كلامه عن برقة والجبل الأخضر
١٤٢	كلامه عن طرابلس
٢٢٤	كلامه عن كروية الأرض
٢٦٨	بيرنيت ، خوان : كلامه عن كتب المسالك والخرائط البحرية
٢٧١	كلامه عن معرفة العرب للبوصلة في القرن الحادى عشر
٤٩٦	تحقيقه لكتاب بسط الأرض
٤	البيرونى : خطأ الحساب البطليموسى
٦	كروية الأرض
٦	القول بأن الكثير من الأرضين كانت أصلها قيعان بحار
٤٣٤	ابن جبير : وصفه للسفينة التى نقلته من عيذاب إلى جدة
٤٣٥	وصفه للسفينة التى نقلته من عكا إلى مسينة
٤٣٩	مثال على يقظته وحرصه على أن يعرف ويسجل ما يعرفه دائماً
٤٤٠	كلامه عن مهاب الريح
٤٤١	مثال لاستعماله المصطلح البحرى
٤٤٢	وصفه حلقة من حلقات عوده من عكا إلى قرطاجنة الأندلسية
٤٤٣ ، ٤٤٢	وصفه للاسكندرية
٤٤٤	كلامه عن عمران الطريق من قوص إلى عيذاب
٤٤٦	كلامه بعد أن وصل إلى الحلة
٤٤٧	وصفه قرية القنطرة
٤٤٩	وصفه للخليفة العباسى أبى العباس أحمد الناصر لدين الله

صفحة

- وصفه لموكب الخاتونين سلجوقه بنت السلطان مسعود وأم
الأتابك عز الدين صاحب الموصل ٤٤٩ ، ٤٥٠
- الحجاري ، ابراهيم بن وزمر : كلامه عن حال عصره ١٥٠
- ابن حزم : فضل الأندلس ١٢
- كلامه عن أحمد بن محمد الرازي وكتبه ٥٧ ، ٥٨
- الحميدى : كلامه عن أحمد بن محمد الرازي وكتبه ٥٨
- الحميري ، ابن عبد المنعم : جزيرة شقر ٨٧
- اعتذاره عن اشتغاله بالجغرافيا ٥٣٢
- كلامه عن أقيانس ٥٣٥
- كلامه عن صنم قادس ٥٣٧
- نقده للادريسي ٥٣٨
- مترجه التاريخ بالجغرافيا ٥٣٩
- كلامه عن « إفريقيا » ٥٤٥
- ابن حوقل : لماذا ألف كتابه « صورة الأرض » ٣
- ابن حيان ، أبو مروان : مدينة الزهراء ١٠١
- كلامه عن عبد العزيز البكري (برواية ابن بسام) ١١٣
- ابن خاقان ، كلامه عن أبي عبيد البكري ١١٥ ، ١٢٠
- ابن الخطيب : كلامه عن محمد بن المنعم الحميري ٥٣١
- وصفه لفرناطة ٥٥٧
- وصفه لأهل غرناطة ٥٦١
- خوفه على بلاده غرناطة ٥٦٢
- وصفه سهل غرناطة ٥٦٣
- كلامه عن مرور الركب بنهر الريه ووصوله إلى مرشانة ٥٧٤
- قوله في الأراضي المحيطة ببلد بسطة ٥٧٤
- تصوره للمدن ومقاييس أهميتها وعدم أهميتها ٥٧٧

صفحة

- ٥٨٢ ، ٥٨٠ ، ٥٧٧ قوله في سلا
- ٥٨٠ ، ٥٧٧ قوله في مالقة
- ٥٩٢ وصفه محل سكنى عبد العزيز بن محمد الهنتاني
- ٥٩٢ » الطريق إلى منازل قبيلة هنتانة
- ٥٩٤ فقرة فريدة في بابها بالنسبة لتاريخ المدن
- ٥٩٥ قوله إن المدن كانت تقوم أو تختفى تبعاً لرغبات السلاطين
- ٣٧ ابن خلدون : كلامه عن هروشيش وكتابه
- ٤٠٧ حديثه عن علاقة يوسف بن تاشفين بأبي بكر بن العربي ووالده
- ٣٩ ، ٣٣ دلافيدا : حديثه عن هروشيش وكتابه
- ٢٧١ دويلر ، سيزار : كلامه عن استخدام الإدريسي للخرائط الملاحية
- ٣٥٤ ، ٣٥٦ رأيه في أبي حامد الفرناطي
- ١٢٩ دوزي ، راينهارت : رأيه في « معجم ما استعجم » لأبي عبيد البكري
- ١٢٩ دى سلان : قوله عن « معجم ما استعجم » لأبي عبيد البكري
- ٢٤٠ رأيه في كتاب « نزهة المشتاق » للإدريسي
- ٦٣ الرازي ، أحمد بن محمد : كلامه عن جبال اسبانيا
- ٦٥ نهر الوادي الكبير
- ٦٦ كورة بلنسية
- ٦٩ مدينة تطيلة
- ٣٥٩ الزهري ، محمد بن أبي بكر : شرحه لطبيعة كتابه
- ٣٦٧ ، ٣٦٦ ، ٣٦٥ ، ٣٦٤ كلامه عن الجغرافية
- ٣٧٣ وصفه للأندلس
- ٣٧٩ كلامه عن كروية الأرض
- ٣٨٠ » » تقسيم الأرض
- ٣٨٢ » » المرية
- ٣٨٣ » » أشبونة

صفحة	
٣٨٤	كلامه عن قرطبة
٣٨٦	كلامه عن غرناطة
٣٨٨	حديثه عن صنم قادم
٣٩١ ، ٣٨٩	» » » « البيهقيين » في طليطلة
٣٩٣	» » » جزائر السند
٣٩٤	» » » جنوب خط الاستواء
١٥٠	ابن سميذ : كلامه عن ابن وزمر الحجاري
١٥٩	» » » طريانة
١٦١	» » » تأليف كتاب « المغرب في حلى المغرب »
٤٧٧	منهجه في صياغة كتاب « المغرب في حلى المغرب »
٤٧٨	قوله عن كورة قرمونة
٤٨٣	قدرته على تلخيص مادة الإدريسي
٤٨٥	وصف البحر الأبيض
٤٨٧	حيوان الأندلس
٤٨٨	فواكه الأندلس
٤٨٩	صناعات أهل الأندلس
٤٨٩	معادن الأندلس
٤٩١	إعجابه بوطنه الأندلس
٤٩٢	نخره بوطنه الأندلس
٥٠١	تقسيم المعمور من الأرض إلى تسعة أقاليم
٥٠٥ ، ٥٠٣	تأثره ببطلميوس في تقسيم المعمور إلى أقاليم
٥٠٩	مثال مما نقله عن ابن فاطمة في وصف جزء من الصحراء الكبرى
٥١٥	نموذج من ثروة المعلومات الجغرافية عنده
١٨٩ ، ١٧٧	الصفدي : حكايته عن ترغيب رجار الثاني للادريسي في الإقامة في صقلية
٨٠	الطرطوشي : بلاد الجليقيين وغيرهم من قبائل النصاري

صفحة

- ١٢٦ عبد العزيز الميعنى : كلامه عن أبي عبيد البكرى
- ١٤٨ كيف كان أبو عبيد البكرى يؤلف كتبه
- ٥٢٠ المبدري : رأيه في أهل زمانه
- ٥٢٢ رضاه عن تونس وأهلها
- ٥٢٤ قوله في وصف تلمسان
- ٨٦ ، ٨٥ المذري : وصف بلنسية
- ٨٦ كلامه عن جزيرة شقر
- ٨٦ أهل بلنسية
- ٨٩ أقاليم قرطبة
- ٤٠١ ابن العربي : حديثه عن اقتحام العامة داره
- ٤٠٧ ، ٤٠٥ حديثه عن كتابه « ترتيب الرحلة للترغيب في الملة »
- ٤٠٩ حديثه عن مشاهدته المائدة بطورزيتا
- ٤١٠ حكايته عن دخوله بعض بيوت الأكابر في دمشق
- ٤١٤ حديثه عن غرق سفينته في رحلته من الهدية إلى الإسكندرية
- ٤١٥ وصفه للقائه للغزالي
- ٣٠٧ الفرناطي ، أبو حامد : كلامه عن جزيرة سردانية
- ٣١٠ ، ٣٠٨ وصفه للإسكندرية
- ٣١٢ حديثه عن إيران
- ٣١٤ وصفه لناحية سجستان
- ٣١٥ وصفه للبرد في جنوب روسيا
- ٣١٨ ، ٣١٦ كلامه عن بلغار
- ٣١٧ » » بلاد البلغار
- » » عظام الحيوانات المنقرضة التي توجد في أرض
- ٣١٨ بلاد البلغار
- ٣٢٢ ، ٣١٩ كلامه عن بلاد أنقورية

النصوص الواردة في الكتاب

٦٢٩٢

صفحة

٣٢٧ ، ٣٥١

كلامه عن الأندلس

٣٢٩

نماذج من نقله عن أبي عباس الحجازي

٣٣٤

كلامه عن الإسكي ski

٣٣٤

» » حيوان يشبه العظاية وعن الثيتل

٣٣٠

» » جبل الراهون الذي نزل عليه آدم عليه السلام

٣٣٥

ختم كتابه « العرب »

٣٣٨

فاتحة كتابه « تحفة الألباب »

٣٤٣

كلامه في ترتيب العقول

٣٤٤

حديثه عن أمم السودان

٣٤٥

حديثه عن أمة من العرب يقال لهم « وبار »

٣٤٥

كلامه عن الصين

٣٤٧

» » البحار

٣٤٩

حديثه عن طاووس البحر

٣٤٩

» » منطقة البترول قرب باكو

٥٧

ابن الفرضي : كلامه عن أحمد بن محمد الرازي وكتبه

١٠٠

جامع مدينة الزهراء

١٢٨

فستيفلد : تعليقه لاختلاف نسخ مخطوطة « معجم ما استمعجم » للبكري

٢٤٠

كاترمير ، إتيين : رأيه في كتاب « زهرة المشتاق » للادريسي

٣٥٧

كرانشكوفسكي : رأيه في أبي حامد الفرناطي

٤٥٤

لطف عبد البديع : قوله عن كتاب ابن غالب الفرناطي

٢٨

محمد بن عبد الوهاب النسائي : إشارة إلى « كتاب الرايات » للرازي

٧

المسمودي : القول في الفلك

٣

المقدسي : لماذا ألف كتابه « أحسن التقاسيم » ؟

٢٢١

كلامه عن هيئة الأرض

٢٦٧

» » المحيط الهندي

صفحة

- المقرى : كلام ابن بشكوال عن أبواب قرطبة ٢٨٤
- كلام ابن بشكوال عن أرباض قرطبة ٢٩٠
- فقرة قبسها من « فرحة الأنفس » لابن غالب تدل على تقدير
- العرب لما وجدوه في شبه الجزيرة من معالم العمران ٤٥٨ ، ٤٥٩
- فقرة من كلام ابن سميذ عن هيئة الأندلس وأبعادها ٤٨١ ، ٤٨٣
- عبارة تبين أقسام كتاب المقرب لابن سميذ الخاصة بالأندلس
- وصقلية والأرض الكبيرة ٤٩٤
- الناصرى ، ابن عبد السلام : نفور العبدى من المدن ٥٢١
- هرودشيش (الترجمة العربية) : تقسيم العالم القديم إلى ثلاثة أقسام ٤١
- قسم أوروبا ٤١
- وصف أوروبا ٤٣ ، ٤٧
- وصف اسبانيا ٤٧ ، ٤٩
- ياقوت الحموى : كلامه عن أحمد بن عمر بن أنس العذرى ٨٣
- اليسع الفافى : أمثلة من مبالغاته ٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣٠١
- اليمقوى : منهجه في فاتحة كتاب « البلدان » ٨

المراجع

١ - مراجع عربية :

ابن الأبار : التكملة لكتاب الصلة . نشر جزءاً منه كوديرا في المكتبة الأندلسية (ج ٥-٦ ، مدريد ١٨٨٧-٩٠) ، ونشر قطعة أخرى الأركون وجنثالث بالثيا في كتاب Miscelanea (مدريد ١٩١٥) ، ونشر قطعة ثالثة عن مخطوط فاسي ألفريد بل ومحمد بن شنب في الجزائر ١٩٢٠ . وطبعة القاهرة ١٩٥٦

ابن الأبار : الحلة السراء ، بتحقيق حسين مؤنس . القاهرة ١٩٦٤

» » : المعجم في أصحاب القاضي أبي علي الصدي (ضمن المكتبة الأندلسية) .

ابن الأثير الجزري : الكامل في التاريخ . طبعة لايدن ١٨٦٧-١٨٧٦ وطبعة القاهرة ١٩٤٩

إحسان عباس : العرب في صقلية . القاهرة ١٩٥٩

أحمد مختار المبادي : مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في بلاد المغرب والأندلس . جامعة الإسكندرية ١٩٥٨

إخوان الصفاء : رسائل إخوان الصفاء . القاهرة ١٩٢٨

الإدريسي : صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ، مأخوذة من كتاب « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » بتحقيق راينهاردت دوزي ودي خويه . ليدن ١٨٦٦

الإدريسي : نزهة المشتاق في اختراق الآفاق . روما ١٥٩٢

الاستبصار في عجائب الأمصار . بتحقيق سعد زغلول عبد الحميد . جامعة
الاسكندرية ١٩٥٨

ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، قطعة نشرها نور
الدين عبد القادر وهنرى جاهيه — وهي الباب الثالث عشر في أطباء إفريقية
والأندلس — وترجمتها الفرنسية . الجزائر ١٩٥٨

بالنثيا ، آنخل جنتال : تاريخ الفكر الأندلسي ، نقله عن الإسبانية
حسين مؤنس . القاهرة ١٩٥٥

البتاني ، محمد بن جابر بن سنان : الزيج الصابي . روما .

ابن بسام الشنتريني : الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، المجلدات الثلاثة
المنشورة بعناية كلية الآداب بجامعة القاهرة . وما نشر منه في موسوعة دوزى
عن بنى عباد . Hist. Abbad. والقسم المخطوط المحفوظ بمكتبة أكاديمية التاريخ
بمدرسة (مجموعة جايانجوس) .

ابن بشكوال : الصلة ، بتحقيق كوديرا ، مدريد ١٨٨٢ . وطبعة القاهرة ١٩٥٥
البكرى ، أبو عبيد : صفة إفريقية (مستخرجة من كتاب المسالك والممالك
نشرها دى سنان فى الجزائر ١٩١٠) .

البكرى ، أبو عبيد : اللآلى فى شرح أمالى القالى ، نشره عبد العزيز الميمنى
القاهرة ١٩٣٦

البكرى ، أبو عبيد : معجم ما استعجم ، نشره مصطفى السقا . القاهرة ١٩٤٥

بهجة الأثرى : الجغرافيا عند المسلمين ، مجلة المجمع العلمى العراق سنة ١٩٥٢

البندق ، أبو بكر الصنهاجى : أخبار المهدي ابن تومرت وابتداء دولة
الموحدين ، بتحقيق لطفى پروفنسال . باريس ١٩٢٨

بيرنيت ، خوان : هل هناك أصل إسباني عربى لقن الخرائط البحرية .
صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد . المجلد ١ ص ٨٠—٨١

- ابن تفرى بردى : النهل الصافى . مخطوطة المكتبة الأهلية بباريس (رقم ٢٠٧١ من فهرس دى سلان) .
- ابن تفرى بردى : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة . طبعة دار الكتب المصرية .
- التيجاني : تحفة العروس . مخطوطة مكتبة الجزائر الأهلية (رقم ١٧٨٤ من فهرس فانين) .
- ابن جبير : رحلة ابن جبير . طبعة وليام رايت ، لندن ١٨٥٢ . وطبعة دى خويه ١٩٠٧ . وطبعة حسين نصار . القاهرة ١٩٥٥
- ابن جلجل : طبقات الأطباء والحكماء ، بتحقيق فؤاد السيد . القاهرة ١٩٥٥
- حاجى خليفة : كشف الظنون . طبعة فاوجل ، لايدن ١٨٣٥ - ١٨٥٨ وطبعة استامبول ١٣١٠ هـ .
- حسين مؤنس : الثغر الأعلى الأندلسى وسقوط سرقسطة .
- » » سبع وثائق جديدة عن دولة المرابطين وأيامهم فى الأندلس صحيفة معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد ، مجلد ٢ عدد ١ - ٢
- حسين مؤنس : فجر الأندلس . "إهرة ١٩٥٩
- الحلل الموشية فى ذكر الأخبار المراكشية . تونس ١٣٣٧
- الحمدى : جذوة المقتبس ، طبعة محمد بن تاويت الطنجي . القاهرة ١٩٥٣
- الحيرى ، ابن عبد المنعم : الروض المطار فى خبر الأقطار . نشر المواد الأندلسية منه لىنى بروفنسال فى لايدن سنة ١٩٣٦ . وطبعة القاهرة ١٩٤٨
- ابن حوقل : صورة الأرض ، بتحقيق كرامرز . لايدن ١٩٣٨
- ابن خاقان ، الفتح : قلائد العقيان . القاهرة ١٢٨٣
- ابن خرداذبة : المسالك والممالك ، بتحقيق دى خويه . لايدن ١٨٨٩

- ابن الخطيب : الإحاطة في أخبار غرناطة . مخطوط الاسكوريال رقم ١٦٧٣ والطبعة المحققة بناية محمد عبد الله عنان ، القاهرة ١٩٥٦
- ابن الخطيب : أعمال الأعلام . بيروت ١٩٥٦
- » » : اللحة البدوية . بتحقيق محب الدين الخطيب .
- ابن خلدون : كتاب العبر . طبعة بولاق ١٢٨٤
- » » : المقدمة . بولاق .
- ابن خلكان : وفيات الأعيان . طبعة بولاق ١٢٩٩ . وطبعة جوتنجن ١٨٣٥-١٨٤٣ . وطبعة القاهرة ١٩٤٨
- الخوارزمي ، محمد بن أحمد بن يوسف : صورة الأرض . طبعة هانز فون بچيك - لايبسك ١٩٣٦ . وأعيد طبعه بطريقة الأوفست في مطبعة الرابطة في بغداد سنة ١٩٦٢
- الخوارزمي ، محمد بن أحمد بن يوسف : مفاتيح العلوم . لايدن ١٨٩٥ ، والقاهرة ١٣٤٤
- ابن خير ، أبو بكر محمد : فهرست ما رواه عن شيوخه ، بتحقيق كوديرا ورييرا ، الطبعة الثانية .
- دائرة المعارف الإسلامية ، الطبعة الأولى .
- ابن رشيد الفهرى : رحلة ابن رشيد . مخطوطة الاسكوريال رقم ١٧٣٧
- ابن أبي زرع الفاسى : الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ، بناية كارل تورنبرج . أبسال ١٨٤٣
- السبكي : طبقات الشافعية . القاهرة ١٩٠٦-٧
- ابن سعيد : اختصار القدر الملقى ، بتحقيق ابراهيم الايبارى . القاهرة ١٩٥٩
- » » : بسط الأرض في الطول والعرض ، بتحقيق خوان بيرنيت خينيس . نشره معهد مولاي الحسن بتطوان المغرب سنة ١٩٥٨

٦٣٥٠

المراجع

ابن سعيد . رايات المبرزين وغايات الميزين ، بتحقيق إميليو غرسية غومس
مدريد ١٩٤٢

ابن سعيد : المشرق في حلى المشرق . مخطوط بالمكتبة التيمورية . بدار
الكتب المصرية تحت رقم ٢٥٣٢ تاريخ .

ابن سعيد : المغرب في حلى المغرب ، بتحقيق شوقي ضيف . القاهرة
١٩٥٣ و ١٩٥٥

السيوطي : بغية الوعاة . القاهرة ١٣٢٦

ابن شاكر الكتبي : فوات الوفيات . بولاق ١٢٩٩

ابن الشحنة ، محمد : الدر المنتخب في تاريخ حلب . بيروت ١٩٠٩

الصفدي : الوافي بالوفيات ، نشر التراجم الخاصة بصقلية ميكيلى أمارى في
المكتبة الصقلية . لايسك ١٨٥٧

الضبي : بغية الملتبس في تاريخ رجال الأندلس . طبعة ريبيرا ، مدريد
١٨٨٤-١٨٨٥

عبد الله كنون : الشريف الإدريسي ، سلسلة ذكريات مشاهير رجال المغرب ،
رقم ٢٤ ، تطوان ، بدون تاريخ .

ابن عبد الواحد المراكشي : المعجب في تلخيص أخبار المغرب . طبعة
دوزى ، لايدن ١٨٨١ . وطبعة سعيد العريان ، القاهرة ١٩٤٤

العبدري : الرحلة المغربية ، بتحقيق أحمد بن جدو . الجزائر ١٩٦٥

ابن عذارى المراكشي : البيان المغرب في أخبار ملوك الأندلس والمغرب
(الجزء الأول والثاني المنشوران بعناية دوزى ، ليدن ١٨٤٨-١٨٥١ ،
والجزء الثالث المنشور بعناية ليني بروفسال ، باريس ١٩٣٠ . وقد أعاد بروفسال
وكولان نشر الجزئين الأول والثاني في ليدن ١٩٥١-١٩٥٢

ابن العربي : شواهد الجلة والأعيان في مشاهد الإسلام والبلدان . نسخة مصورة عن مخطوط في مكتبة القرويين في فاس .

ابن العربي : عارضة الأحوذى بشرح صحيح الترمذى . القاهرة ١٩٣١

» : العواصم من القواصم . طبعة محي الدين الخطيب . القاهرة .

» : قانون التأويل . طبعة ليدن .

علي بن يوسف الحكيم : ضوابط دار السكة ، بتحقيق حسين مؤنس ،

مدير ١٩٦٠

المعاد الأصفهاني : الخريدة ، نسخة مصورة عن مخطوطة باريس رقم ١٣٧٥

وقطعة نشرها أمارى في المكتبة الصقلية ص ٦١٠-٦١١

المعاد الحنبلي : شذرات الذهب في أخبار من ذهب . القاهرة ١٣٥٠

الفرناطى ، أبو حامد : العرب عن بعض عجائب المغرب . مخطوط أكاديمية

التاريخ في مدريد (رقم ٣٢ مجموعة جايانجوس) .

أبو الفدا : تقويم البلدان ، طبعة م. رينو ودى سلين . باريس ١٨٤٠

ابن فرحون : الديباج المذهب .

ابن الفرضى : تاريخ علماء الأندلس ، بتحقيق كوديرا . مدريد ١٨٩٠-١٨٩٢

ابن القاضي : جذوة الاقتباس . طبع حجر ، فاس ١٣٠٩

قدامة بن جعفر : كتاب الخراج وصنعة الكتابة ، بتحقيق دى خويه ،

ليدن ١٨٨٩

القزويني : عجائب المخلوقات .

ابن القطان : نظم الجان ، الجزء السادس بتحقيق محمود على مكى . تطوان ١٩٦٤

كراتشكوفسكى : تاريخ الأدب الجغرافى العربى ، ترجمه من اللغة الروسية

صلاح الدين عثمان هاشم . القاهرة ١٩٦٣

لطفى عبد البديع : « تعليق منتقى من فرحة الأنفس في تاريخ الأندلس ،
للحافظ محمد ابن أيوب بن غالب النراطي » . مجلة معهد المخطوطات ، مجلد ١
ج ٢ ص ٢٨٥ . مجلة المجمع العلمى العراق . مجلد ١١ (سنة ١٩٦٤)

محمد بن عبد الوهاب النسائي : رحلة الوزير في افتكاك الأسير . طبعة
الفريد البستاني ، المرائش ١٩٤٠

مسالك الأبصار : نسخة مصورة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٥٦٧
تاريخ ، المجلد الثامن .

المسعودى ، أبو الحسن على : التنبيه والإشراف .

المسعودى أبو الحسن على : الجمان في مختصر أخبار الزمان (ويعرف أيضاً
بكتاب العجائب أو أخبار الزمان وعجائب البلدان) نشره عبد الله الصاوى في
القاهرة ١٩٣٨ . وفي المكتبة الأهلية بباريس مخطوطة لمختصر صغير له كان قد
ترجمه كارا دى فو إلى الفرنسية ونشره في باريس سنة ١٨٩٨ بعنوان :
L'Abregé des Merveilles.

المسعودى ، أبو الحسن على : مروج الذهب . طبعة بارييه دى مينار
وبافيه دى كورتى . باريس ١٨٦١-١٨٧٦

المقدسى : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، بتحقيق دى خويه ، ليدن ١٩٠٦
المقرى ، أبو العباس أحمد : أزهار الرياض في أخبار القاضى عياض .
القاهرة ١٩٣٩

المقرى ، أبو العباس أحمد : نفح الطيب ، طبعة محي الدين عبد الحميد .
القاهرة ١٩٤٩

المقرئى ، تقى الدين أحمد بن على : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط
والآثار . طبعة القاهرة ١٩٠٦-١٩٠٨

المكتبة الأندلسية : نشر كوديرا وريبييرا في مدريد وسرقسطة من سنة
١٨٨٣ إلى ١٨٩٥ . عشرة أجزاء .

ابن منظور : لسان العرب .

ناليو ، كارل : علم الفلك ، تاريخه عند العرب في القرون الوسطى .
(طبع بالعربية في روما سنة ١٩١١ ، وأعدت نشره مكتبة المثنى في بغداد ١٩٦٣) .

النباهي ، أبو الحسن : تاريخ قضاة الأندلس المسمى المرقبة العليا فيمن
يستحق القضاء والفتيا . نشره ليفي بروفنسال . القاهرة ١٩٤٨

العذري ، أحمد بن عمر : نصوص عن الأندلس ، بتحقيق عبد العزيز
الأهواني ، مدريد ١٩٦٥

نفيس أحمد : جهود المسلمين في الجغرافيا ، ترجمة فتحى عثمان (مجموعة
الألف كتاب ، رقم ٢٧٢) القاهرة ، بدون تاريخ .

هروشيش : الترجمة العربية لتاريخه . مخطوطة محفوظة في مكتبة جامعة
كولومبيا في نيويورك تحت رقم X, 993-712, II .

الوثائق العربية الفرناطية ، بتحقيق لويس سيكو دى لوثينا . معهد الدراسات
الإسلامية بمدريد ١٩٦١

ياقوت الحموى : معجم البلدان . القاهرة ١٩٠٦

اليعقوبى : كتاب البلدان ، طبعة دى خويه ، ليدن ١٨٩٢

ابن يونس المصرى : الزيغ الحاكى الكبير (نسخة خطية في مكتبة ليدن
رقم ١٠٥٧ من فهرست مخطوطات هذه المكتبة) .

* * *

ب — مراجع أجنبية :

Aḥmad Zaki Pasha: *Une seconde tentative des Musulmans pour
decouvrir l'Amérique*, dans Bulletin de l'Institut d'Égypte, 1920,
pp. 57-59.

Aḥmad Zaki Walidī: *Der Islam und die geographische Wissenschaft*,
Geographische Zeitschrift, 1934.

- Almagia, R.: *Monumenta Italica Cartographica*. Firenze, 1929.
- Amari, M.: *Bibliotheca Arabo-Sicula*. Leipzig, 1857.
- Amari, M.: *Storia dei Musulmani di Sicilia*. Firenze, 1872.
- Alemany Bolufer, José: *La Geografía de la Península Ibérica en los escritores cristianos, desde San Isidoro hasta el siglo XVI*, Revista del Centro de Estudios Históricos de Granada y su Reino, tomo XII, 1922, núms. 1, 2, p. 5-6.
- Alemany Bolufer, José: *La Geografía de la Península Ibérica en los escritores Árabes* (Revista del Centro de Estudios Históricos de Granada y su Reino), tomo IX, fasc. 3-4, 1919.
- Alemany Bolufer, José: *La Geografía de la Península Ibérica en los textos de los escritores griegos y latinos*. Separata de la Revista de Archivos, Bibliotecas y Museos. Madrid, 1911.
- Bagrow, L.: *Geschichte der Kartographie*. Berlin, 1951.
- Basset, R.: *Documents géographiques sur l'Afrique Septentrionale*. Paris, 1898.
- Basset, R.: *Extrait de la Description de l'Espagne*, tiré de l'ouvrage du Géographe Anonyme d'Almerie, Homenaje a Codera. Madrid, 1904.
- Beazley, C. R.: *The Dawn of Modern Geography*, III, 1906.
- Berger, H.: *Geschichte der wissenschaftlichen Erdkunde der Griechen*. Leipzig, 1903.
- Bloch, É.: *Bibliothèque Nationale - Catalogue des Manuscrits Arabes des nouvelles acquisitions (1884-1924)*, Paris, 1925.
- Brockelmann, C.: *Geschichte der Arabischen Literatur*. Weimar, 1898. Supplément bände, Leiden, 1937-1938, 4 vols.
- Bücher, K.: *Die Entstehung des Volkswirtschaft*, 7^o Auflage, Tübingen, 1910.
- Casiri: *Biblioteca Árabe-Hispana Escorialensis*.
- Centenario della nascita di Michele Amari. Palermo, 1910.
- Chalandon, F.: *La Domination normande en Italie et Sicile*, 1009-1094. Paris, 1907.
- Cherbonneau: *Notices et Extraits des Voyages d'El-Abdery*, dans Journ. As. 5^{ème} Série IV, 144 sqq.

Conde, José Antonio: *Descripcion de España de Xerif Aledrisi*, conocido por el Nubiense, con traducción y notas. Madrid, 1799.

Crone, G. R.: *Maps and their makers*. London, 1953.

Cuntz, O.: *Die Geographie des Ptolemaios*. Berlin, 1923.

De la Roncière, Ch.: *La découverte de l'Afrique au Moyen Age, Cartographes et Explorateurs*. Le Caire, 1924-5.

De Sacy, Silvestre: *Relation de 'Abd Allatif*.

De Slane: *Description de l'Afrique Septentrionale par Abou Obeid el Bakri*. Paris, 1875.

De Slane: *Geographie d'Idrisi*, traduite en français par Mr. Jaubert dans *Journal Asiatique*, 1841, III, Série, vol. XI, pp. 372-387.

Della Vida, G. Lévi: *La Tradizione Araba della Storia di Orosio*. Al-Andalus, vol. XIX, fasc. 2, pp. 257-265.

Dölger, F.: *Rom in der Gedankenwelt der Byzantiner*, in *Zeitschrift für Kirchengeschichte*, LVI (1937), 1-42.

Dopsch, A.: *Virtschaftliche und Soziale Grundlagen der Europäischen Kulturentwicklung aus der Zeit von Kaiser bis auf Karl den Grossen*. Wien, 2^o Auflage, 1923-1924, 2. Bände.

Dozy, R. P. A.: *Recherches sur l'histoire politique et litteraire de l'Espagne pendant le Moyen Age*, Leyden, 1849.

Dozy, R. P. A.: *Scriptorum Arabum Loci de Abbadides*.

Dozy, R. P. A. et de Goeje, M. J.: *Description de l'Afrique et de l'Espagne par Edrisi*. Leiden, 1866.

Dubler, César E.: *Abū Hānīd el Granadino y su Relación de Viaje por Tierras Euro-asiáticas*. Madrid, 1953.

Dubler, César E.: *La Materia Médica de Dioscorides*. Barcelona, 1953.

Dubler, César E.: *Las Laderas del Pirineo según Idrisi*, en *Al-Andalus*, XVIII, pp. 337-373.

Dubler, César E.: *Los Caminos a Compostela en la Obra de Idrisi*, *Al-Andalus*, XIV, 1949, fasc. 1, p. 70.

Encyclopædia Britannica.

Ferrand, Gabriel: *L'Élément Persan dans les Textes Nautiques Arabes des XV et XVI Siècles*, dans *Journal Asiatique*, 1934, fasc. 1, pp. 193-257.

Ferrand, Gabriel: *Le Tuhfat al-Albāb de Abū Hāmid al-Andalusī al-Garnāṭī*, *Journal Asiatique*, Juillet-Septembre, 1925.

Ferrand, Gabriel: *Notes d'Histoire Orientale*. Contribution à l'histoire de la boussole, dans *Mélanges René Basset*. Paris, 1923.

Freeman, E. A.: *History of Sicily*. London, 1891-1894.

Gallios, L.: *Les Géographes Allemands de la Renaissance*. Paris, 1903.

García Gómez, Emilio: *El Parangón entre Málaga y Salé de Ibn al-Ḥaṭīb*, *Al-Andalus*, II, 1934, fasc. 1, pp. 183-194.

Guidi, Michelangelo: «Roma e gli arabi», in *Roma*, *Revista di Studi e di Vita Romana*, 20 (1942), 17-18.

Haskins, C. H.: *The Normans in European History*. Boston, New York, 1915.

Hinz, Walther: *Islamische Masse und Gewichte*. Leiden, 1955, pp. 16-17.

Hönerbach, W.: *Itinerar des 'Abdārī*; *ZDMG*, XLIV, p. 193, sqq.

Houdas et René Basset: *Mission Scientifique en Tunisie*, II^e partie, Alger, 1883, p. 154, sqq.

Hurtado Juan, J. de la Serna y González Palencia: *Historia de la Literatura Española*, 6.^a edición. Madrid, 1949.

Huici Miranda, Ambrosio: *Historia política del Imperio Almohade*. Tetuán, 1956.

Jacob, Georg: *Der Nordisch-Baltische Handel der Araber im Mittelalter*. Leipzig, 1887.

Jacob, Georg: *Studien in arabischen Geographien*. Heft 1, Berlin, 1890; Häfte II, III, IV, Berlin, 1892.

Journal of American Oriental Society, 59 (1939).

Jwaideh, Wadie: *The introductory chapters of Yaḳūt's Mu'djam al-Buldān*. Leiden, Brill, 1959.

Kimble, G. H.: *Geography in the Middle Ages*, 1938.

Le Strange, Guy: *Palestine under the Moslems*, 1890.

Lerchundi y Simonet: *Chrestomatía Árábigo-Española*. Granada, 1881.

Lévi-Provençal, E.: *En relisant le «Collier de la Colombe»*, Al-Andalus, vol. XV (1950), fasc. 2, pp. 335-377.

Lévi-Provençal, E.: *Histoire de l'Espagne Musulmane*. Paris, 1950.

Lévi-Provençal, E.: *La Description de l'Espagne de Razi*, Al-Andalus, vol. XVIII, fasc. 1, pp. 101-104.

Lévi-Provençal, E.: *La Péninsule Ibérique au Moyen Age d'après le Kitāb ar-Rawḍ al-Mi'tār*. Leiden, 1938.

Lévi-Provençal, E.: *Las Ciudades y las Instituciones Urbanas del Occidente Musulmán en la Edad Media*. Tetuán, 1950, p. 45.

Lelewel, Joachim: *Geographie du Moyen-Age*. Bruxelles, 1852.

Lewicki, Tadeutz: *Polska i Kraje Sasiedmie w Swietle a Ksiegi Rogera*, geografa arabeskiego 2, XII w. al-Idrīsī ego. Czesc I, Krakow, 1945, Czesc II, Warsowa, 1945.

Linam, E.: *The first engraved atlas of the world; the Cosmographia of Claudius Ptolomaeus*. Bolonia, 1477. Jenkintown, 1941.

Machado, O. A.: *La Historia de los Godos, según Ibn Jaldūn*, en Cuadernos de Historia de España, 1-11 (1944), 143-144.

Madoz, Pascual: *Diccionario Geográfico, Estadístico, Histórico de España...* Madrid, 1818.

Maqbūl Aḥmad: *India and the neighbouring territories in the Kitāb Nuzhat al-Mushtāq fi 'Kbtirāq al-Āfāq*. Leiden, Brill, 1961.

Marquart, J.: *Eransbahr in Abhandlungen der Gesellschaft der Wissenschaften zur Göttingen*, 1901.

Marquart, J.: *Osteuropäesche und Ostasiatische Streifzüge*. Leipzig, 1903.

Mayerhof, Max: *Eine Arzneimittellehre des arabischen Geographen Edrīsī*, in *Forschungen und Fortschritte*, 5° Jahr 1929, Heft 28.

Mieli, A.: *La science arabe et son rôle dans l'évolution scientifique mondiale*. Avec quelques additions de H. P. J. Renaud, M. Meyerhof, J. Ruska. Leiden, 1939.

Miller, Konrad: *Mappae Arabicae*, Arabische Welt und Länderkarten, 6 vols. Stuttgart, 1926-1930.

Malaterra, G.: *La Conquista de Sicilia*, Collezione d'Opere inedite o Rare. Bologna, 1865; lib. IV, cap. 5.

Martínez de Arizala y Castejón, Rafael: *Guía de Córdoba*. Madrid, 1930.

Martínez de Arizala y Castejón, Rafael: *Córdoba Califal*. Córdoba, 1930.

Monés, Hussain: *La División Político-Administrativa de la España Musulmana*, en *Revista del Instituto de Estudios Islámicos*, vol. V, (1957), pp. 102, sqq.

Monteil, Vincent: *L'Islam Noir*. Paris, 1964.

Montylinski: *Itinéraire entre Tripoli et l'Egypte*: El Afachi, Mou-lai Aḥmad et al-Ouartilāni (Extrait du Bulletin de la Société de la Géographie d'Alger). Alger, 1904, p. 4.

Moritz, B.: *Ibn Sa'ids Beschreibung von Sicilien*, Centenario della nascita di Michele Amari, I. Palermo, 1910, pp. 292-305.

Menéndez Pidal, Ramón: *Historia de España*, tomo II, España Romana, Madrid, 1935, pp. 567-574.

Nallino, C.: *Al-Ḥawarizmī e suo rifacimento della Geografia di Tolomeo*. R. A. L., serie V, vol. 2, 1ª Roma, 1895-96.

Ninck, M.: *Die Entdeckung Europas durch die Griechen*. Basel, 1945.

Oman, Giovanni: *Notizie bibliografiche sul geografo arabo al-Idrīsī (XII secolo) e sulle sue opere*. Estratto dagli Annali dell'Istituto Universitario Orientale di Napoli. Nuova serie, volume XI, Roma, 1961.

Ocaña Jiménez, Manuel: *Las puertas de la Medina de Córdoba*, Al-Andalus, III, 1935, pp. 143-151.

Pérez de Urbel, Justo: *Las Letras en la Época Visigoda en Historia de España*; dirigida por Ramón Menéndez Pidal.

Pirenne, H.: *Les Villes du Moyen Age*. Essai d'histoire économique et sociale (Bruxelles, 1927).

Pirenne, H.: *Un contraste économique: Mérovingiens et Carolingiens*, dans *Revue Belge de philologie et d'histoire*, tome I (1922) et II (1923).

Potiron, G.: *Eléments de Biographie et de Généalogie des Banū Sa'id*, Arabica, XII, 1965, fasc. 1, pp. 78-91.

Ramsay, W. M.: *The Historical Geography of Asia Minor*, in *Royal Geographical Society Supplementary Papers*, IV, London, 1890.

Reinaud, M.: *Géographie d'Aboulféda*. Paris, 1848.

Revue Critique d'Histoire et de Littérature, N. S. 96 (1929), p. 262.

Ribera y Tarragó Julián: *Disertaciones y Opúsculos*, II (Madrid, 1928).

Ruska, Georg: *Zur geographischen literatur im islamischen Kulturbereich*. Geographische Zeitschrift. Band 33 (1927).

Ruska, Georg: *Neue Bausteine zur Geschichte der arabischen Geographie*. Geographische Zeitschrift, 1918.

Sánchez Albornoz, Claudio: *Fuentes para el estudio de las divisiones eclesiásticas visigodas*. (Boletín de la Universidad de Santiago, 1934), p. 44, sqq.

Sánchez Albornoz, Claudio: *Fuentes latinas de la historia romana de Rasis* (Publicaciones del Instituto Argentino Hispano-Árabe), Buenos Aires, 1942.

Sánchez Albornoz, Claudio: *San Isidoro, Rasis y «La Pseudo-Isidoriana»*, en *Cuadernos de Historia de España*, IV (1946), 73-113.

Seco de Lucena, Luis: *Los Hamūdīs de Málaga y Algeciras*. Málaga, 1955.

- Saavedra, Eduardo: *La España del Edrisi*. Madrid, 1881.
- Sarton, George: *Introduction to the History of Science*. Baltimore, 1927-1931.
- Schaube, A.: *Handelsgeschichte der romanischen Völker des Mittelmeergebiets bis zum Ende der Kreuzzüge*. München-Berlin, 1906.
- Schiaparelli, Luigi: *L'Italia descritta nel Libro del Re Ruggero Compilato da Edrisi*. Relazione preceduta da un cuadro degli studi geografici in Occidente dall principio dell' Impero romano al secolo XIII. Torino, 1883.
- Schulten, Adolf: *Iberische Landeskunde; Geographie des Antiken Spanien*. Strasbourg-Kehl, 1955.
- Seippel, A.: *Rerum Normannicarum Fontes Arabici*. Oslo, 1896-1928.
- Seybold, C. F.: *Hispano-Arábica*, I, en la Revista del Centro de Estudios Históricos de Granada y su Reino, tomo III.
- Simonet, Francisco Javier: *Descripción del Reino de Granada, sacada de los Autores Arábigos*. Granada, 1872.
- Simonet, Francisco Javier: *Glosario de Voces Ibéricas y Latinas*.
- Simonet, Francisco Javier: *Historia de los Mozárabes de España*.
- Steinschneider: *Die arabische Übersetzungen aus dem Griechischen*, in Beihefte zum Centralblatt für Bibliothekswesen, V (1890), 18-19.
- Stevens, H. N.: *Ptolemy's «Geography»: a brief account of the printed editions to 1730*. 2^a edition, 1908.
- Tallgren, Tuulio: *Du Nouveau sur Idrisi*.
- Terés, Elías: *Linajes Árabes en Al-Andalus*. Segunda parte Al-Andalus, XXIII, fasc. 1, 1958.
- Tomaschek, Wilhelm: *Zur Kunde de Hámus-Halbinsel*. Die Handelswege im 12. Jahrhundert Nach der Ehrkundigungen des Arabers Idrisi Apud Sitzungsberichte der Philosophisch-Historischen Classe der Kais. Akademie der Wissenschaften, vol. 113, Vienna, pp. 275-373.
- Tomaschek, Wilhelm: *Zur historischen Topographie von Gleinasien im Mittelalter* Apud Sitzungsberichte der Kais. Akademie der Wissenschaften in Wien (phil-hist. Classe), 124 (1891).

Vidal de la Blache, P.: *Géographie Universelle*. Vol. VII, 1ère partie (1934).

Von Rosen Kunik, A.: *Izvestija al-Bakri i drugich avotrov o Rusi i Slavjanach*. St. Petersburg, 1878.

Vollers, K.: *Bericht über die Handschriften und das Leben des Ahmad ibn Tūlūn*. Berlin, Felber, 1894.

Vollers, K.: *Fragmente aus dem Mugrib des Ibn Sa'id*, I, Berlin, 1894.

Vollers, K.: *Note sur un manuscrit arabe attribué à Maqrīzī*, dans *Bulletin de la Société Khediviale de Géographie*, III^e Série, Le Caire, 1893, pp. 131-139.

Von Schack, A. F.: *Geschichte der Normannen in Sācilien*. Stuttgart, 1889.

Wiet, Gaston: *Un résumé d'Idrīsī* dans *Bulletin de la Société Royale de Géographie d'Egypte*, tome XX, 2^a, fasc. 1939, pp. 161-210.

Wüstenfeld, Ferdinand: *Geographische Wörterbuch des Abū Obeid Allāh ibn 'Abd el-Aziz al-Bakri*, nach den Handschriften zu Leiden, Cambridge, London und Mailand. Göttingen-Paris, 1876-1877.

Youssef Kamāl : *Monumenta Cartografica Africae et Aegypti*. Leiden, 1935.

أسماء الكتب الواردة ذكرها في الكتاب

صفحة	
٣٥٤	« آثار البلاد » للقزويني
١٩٧	« آكام المرجان في ذكر المدائن المشهورة بكل مكان » لإسحاق بن الحسن (أو حسين) المنجم
١٢٦	« الإبدال » لابن السكيت
	« الإحاطة في أخبار غرناطة » لابن الخطيب :
٥٩٥ ، ٥٩٣ ، ٥٧٦ ، ٥٧٠ ، ٥٦٣ ، ٥٥٦ ، ٥٥٤ ، ٤٦٢ ، ٩٨ ، ٢٣	« أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم » للمقدسي :
٢٦٨ ، ٢٢١ ، ٢٢٠ ، ٢٠١ ، ١٩٦ ، ١٣ ، ١٠ ، ٣ ، ٢	
١٢٢	« الإحصاء لطبقات الشعراء » لأبي عبيد البكري
٤١٣	« أحكام القرآن » لابن العربي
٤٠٠	« إحياء علوم الدين » للغزالي
٢٣	« أخبار الأندلس » لإسحاق بن سلمة الليثي
٣٦١	« أخبار الحكماء » للقفطي
٩٨ ، ٢٣	« أخبار ريه » لإسحاق بن سلمة الليثي
١٩٦	« أخبار ازمان ومعجائب البلدان » للمسعودي
٢٨٥ ، ٢٨٣	« أخبار قضاة قرطبة » لابن بشكوال
٥٩	« أخبار ملوك الأندلس » للرازي
٥٢٨	« اختصار القدر المعلي » لعلي بن سعيد
١٩٥	« الأدوية المفردة » للادريسي
٤٩٨	« أزهار الأفكار في جواهر الأبحار » للتيفاشي

صفحة

- « أزهار الرياض » للمقرى ٤١٥ ، ٤١٣ ، ٤١٠
- « أساليب النفاية فى أحكام الآفة » لمحمد بن أبى محمد بن ظفر ١٨٧
- « إسبانيا فى عصر السّيد » لرامون منندز بيدال ٦٠
- « الاستبصار فى عجائب الأمصار » لمؤلف مجهول ٥٣٨ ، ٥٣٧ ، ٥٣٤
- « أسنى المتاجر » للونشريشى ٤٦٢
- « الإشارة وشرحها » للحداد الخولانى المقرىء ٣٩٧
- « اشتقاق الأسماء » لأبى عبيد البكرى ١٢٢ ، ١١٧
- « إصلاح المنطق » برواية القالى ١٢٦
- « أصول الكلمات » Etimologías لايزيدور الباجى ١٤٠ ، ١٣٩
- « الأعلاق النفيسة » لابن رسته ٢١٧ ، ١٩٨
- « أعلام النبوة » للمعزى ٨٣
- « أعلام نبوة نبينا محمد » لأبى عبيد البكرى ١٢٣ ، ١١٧
- « الإعلان بالتوبيخ » للسخاوى ٤٥٣
- « أعمال الأعلام » لابن الخطيب ٥٥٣ ، ٢٩٢ ، ٢٩٠ ، ٩٩
- « أعيان الموالى بالأندلس » للرازى ٥٩
- « أعيان النبات والشجريات الأندلسية » لأبى عبيد البكرى ١٢٣
- « افتضااض أبكار أوائل الأخبار » للمعزى ٨٣
- « ألف ليلة وليلة » :
- ١١ ، ٣٣٧ ، ٣٤٢ ، ٣٤٧ ، ٣٤٨ ، ٣٥٠ ، ٣٥١ ، ٣٥٦ ، ٣٥٨ ، ٣٩٣
- « الأمالى » لأبى على القالى ١٢٢
- « أمالى » ابن الأنبارى ١٢٦
- « الإمامة والسياسة » لابن قتيبة ٢٧
- « الأموال » لأبى عبيد القاسم بن سلام ١١٧
- « الإنجيل » ٣٤
- « الأنساب » للسمعانى ٣٣٠

الكتب الوارد ذكرها

٦٤٩

صفحة

- « أنساب الأمم والعرب والعجم ، المسمى بالشجرة » لمحمد بن عبد الواحد
٢٤ ابن ابراهيم بن مفرج الملاحى
- « أنساب البربر »
٧٥
- « أنساب عبد شمس » للأصبهاني
١٢٧
- « الأنساب فى معرفة الأصحاب » لأبى بكر الصنهاجى المكنى بالبيدق
١٧٥
- « أنس المهج وروض الفرج » للادريسي
٢٣٧، ١٨٣
- « الأنواء » لأبى حنيفة الدينورى
٢٦
- « الأنواء » لابن قتيبة
٢٦
- « البديع فى فضل الربيع » لأبى الوليد الحميرى
٤٦٥
- « بسط الأرض فى طولها والعرض » لابن سعيد :
٥١٧، ٥١٢، ٥٠٣، ٥٠٠، ٤٩٥، ٤٨٣، ٤٧٧، ٤٧٤
- « بغية الملتبس » للضبي
٨١، ٧٣، ٥٩، ٣٢
- « بغية الوعاة » للسيوطى
٣٢
- « البلدان » لابن الفقيه
١٩٨
- « البلدان » لابن واضح
٨، ٣
- « البلدان » لليعقوبى
٥١، ٩
- « بهجة الأنس » للادريسي
١٩٥
- « بهجة المهج فى بعض فضائل الطائف ووج » للعبدري الميورى
٥١٨
- « البيان والتبيين » للجاحظ
٢
- « البيان المغرب » لابن عذارى
١٨٥، ١٧٢، ١٧١، ١٤٦، ٧٤، ٧٣
- « تاج العروس »
٥١٨
- « تاريخ الأدب الجغرافى العربى » لكراتشكوفسكى :
٥١٨، ٤٧٧، ٤٦٥، ٤٥٢، ٣٩٥، ٣٥٧، ٣٣١
- « تاريخ الأدب العربى » لبروكلان
٥٥٣
- « » « التاريخ عند المسلمين » لروزنتال ، ترجمة أحمد صالح العلى
٤٥٣

صفحة

- « تاريخ ابن حبيب » ، « مبتدأ خلق الدنيا » لعبد الملك بن حبيب ٢٧
- « » « خب » لابن العديم ٤٧٣
- « التاريخ الصغير في أحوال الأندلس » لابن بشكوال ٢٨٥ ، ٢٨٣
- « تاريخ بنى الطويل » ٢٤
- « » « العلم » لجورج سارتون ٤٧٧
- « » « علماء البيرة » لابن عبد الواحد النافق ٥٥٧ ، ٥٥٥ ، ٢٤
- « » « علماء الأندلس » للضبي ٩٩ ، ٩٨
- « » « علماء الأندلس » لأبي الوليد بن الفرضي ٢٨٣ ، ٥٧ ، ٣٢ ، ٣١
- « » « غرناطة » لمحمد بن إبراهيم بن خيره ٢٤
- « » « فقهاء البيرة » لأبي الأصبح عيسى بن محمد ٢٣
- « » « فقهاء ريه » لقاسم بن سعدان ٢٣
- « » « فقهاء طليطلة وقضاها » لابن المطاهر ٩٨ ، ٢٤
- « » « الفكر الأندلسي » لجندالك بالنثيا ، ترجمة حسين مؤنس :
- ٥٥٢ ، ٥١٨ ، ٣٩٥ ، ٣٦٨
- « تاريخ قرطبة » لعمر بن عبيد الله بن يوسف الزهراوى ٢٣
- « » « قضاة الأندلس » للنباى ٤٠٣
- « التاريخ الكبير » للبخارى ٣١
- « تاريخ لوشة » لابن حمامة ٢٤
- « » « مالقة ، أو الإكمال والإتمام في صلة الأعلام من أهل مالقة الكرام »
- « » « لأبي عبد الله محمد بن علي بن خضر المالكي المعروف بابن عسكر ٢٤
- « تاريخ المرية وبجاجة » لابن الحاج البليقي ٢٤
- « » « مستعربى إسبانيا » لسيمونيت ٣٦٨ ، ٣٤
- « » « مسلمى صقلية » ليكيلى أمارى ١٩٣ ، ١٨٢
- « » « المنزىين والقائمين بالأندلس » لابن فرج الجياني ٢٤
- « تحفة الألباب » لأبي حامد النرناطى : ٣١٢ ، ٣٠٧ ، ٣٠٥ ، ٣٠٣ ، ٢٧٥
- ٣٥٧ ، ٣٣٨ ، ٣٢٥ ، ٣٢٣ ، ٣١٩ ، ٣١٨ ، ٣١٧ ، ٣١٦ ، ٣١٤

صفحة

- ٤٦٢ « تحفة العروس » للتيجاني
- ٣٢٥ « تحفة الكبار في أسفار البحار » المنسوب إلى أبي حامد الفرناطي
- ٦ « تحقيق ما للهند من مقولة ، مقبولة في العقل أو مرذولة » للبيروني
- ١٢٣ « التدريب والتهذيب في ضروب أحوال الحروب » لأبي عبيد البكري
- ٤١٢ ، ٤٠٥ ، ٣٩٧ ، ٣٩٥ « لابن العربي »
- ٤١٥ « ترتيب المدارك » للقاضي عياض
- « تعليق منتقى من فرحة الأنفس في تاريخ الأندلس » للحافظ محمد بن أيوب بن غالب الفرناطي : ٦٦ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٤٥٢ ، ٤٥٤ ، ٤٥٥ ، ٤٥٦
- ٣٥ « تفسير أسماء الأدوية المفردة » لديسقوريدس
- ٥١٦ ، ١٥ « تقويم البلدان » لأبي الفدا
- ٢٩٧ ، ٢٩٦ ، ٢٩٥ ، ١٠٣ ، ٧٣ ، ٢٧ « التكملة » لابن الأبار
- ٤١٣ « التكميل » لابن غازي
- ٣٥٣ « تلخيص الآثار وعجائب الواحد القهار » للباقوي
- ٥١١ ، ٣٦٥ ، ١٣٢ ، ٨ ، ٧ « التنبيه والإشراف » للمسعودي
- ١٢٢ « التنبيه على أغلاط أبي علي في أماليه » لأبي عبيد البكري
- ٢٨٤ « التنبيه والتعنين لمن دخل الأندلس من سبعين » لابن بشكوال
- ١٩ « تواريخ أورويزوس » لهروشيش
- ١٥١ « جامع أخبار بني عباد » لدوزي
- ٢٢٥ « الجامع لأشتات النبات » ، « كتاب المفردات » للادريسي
- ٥ « جامع الرياضيات » ، « المجسطي » لبطلميوس الإسكندري
- ٣٥٤ « جامع الفنون وسلوة المحزون » لمؤلف مجهول
- ٥١٨ « جذوة الاقتباس » لابن القاضي
- ٤٦٩ ، ٨١ ، ٧٣ ، ٥٨ ، ٥٧ ، ٣٢ « جذوة المقتبس » للحميدي
- ٤٩٥ « جغرافيا الأقاليم السبعة » لابن سعيد
- ٢٦ « الجغرافيا عند المسلمين » لهجة الأثرى

صفحة

- « الجغرافية » لبطلميوس الإسكندري : ٤ ، ٥ ، ١٣٤ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٢٣
 ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٣٦١ ، ٣٦٢ ، ٣٦٥ ، ٣٦٩ ، ٥٠٣ ، ٥٠٦
 « الجغرافية » لمحمد بن أبي بكر الزهرى ٢٢ ، ٣٥٨ ، ٣٩٤ ، ٥٣٥
 « الجغرافية العالية » لفيدال دى لابلاش ٤٢٤
 « الجغرافية الكلية » لمقرديج الكسيح الأرمنى ٣٦٩
 « الجمان فى مختصر أخبار الزمان » للمسمودى ١٩٦
 « جمهرة أنساب العرب » لابن حزم ٢٩ ، ٨٢ ، ٤٥٧
 « جنى الأزهار من الروض المطار » المنسوب لتقى الدين أحمد بن على
 المقرزى ٢٢٩
 « جنى الأزهار من الروض المطار » لشهاب الدين أحمد المقرزى ٥٢٩
 « جهود المسلمين فى الجغرافية » لنفيس أحمد ، ترجمة فتحى عثمان ٢٠٢ ، ٣٦٢
 « جوامع الحكايات » لمحمد الوافى ٢٧٢
 « حاشية على رسالة خليل » للرهنوى ٤١٣
 « الحدائق » لابن فرج الجيانى ١١٧ ، ٤٦٩
 « حدود العالم » ١٩٧ ، ٣١٦
 « حديث الإفك » لابن العربى ٤٠٤
 « حديقة الارتياح فى وصف الراح » لأبى عامر بن مسلمة ١٠٣
 « حسن المحاضرة » للسيوطى ٤٧٥
 « الحلل الموشية » ٤٠٢
 « الحلة السراء » لابن الأبار ١٠٦ ، ١١٠ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١١٨
 « حياة الحيوان الكبرى » للدميرى ٣٤١ ، ٣٤٨ ، ٣٥٤
 « الخراج » لقدامة بن جعفر ١٠ ، ٢١٧
 « خريدة العجائب وفريدة الفرائب » لابن الوردى ٣٥٤
 « خريدة القصر » للمهاد الأصفهاني : ١٦٨ ، ١٨٨ ، ١٩١ ، ١٩٢ ، ٤٦٢ ، ٤٩٩
 « خطرة الطيف ورحلة الشتاء والصيف » لابن الخطيب ٥٨٩ ، ٥٧٢ ، ٥٥٤

- « خطط » المقرئى ٥٥٥
- « خطط بغداد » لأبى طاهر طيفور ٥٥٥
- « دائرة المعارف الإسلامية » ٢٢٧، ٢١٦، ١٣، ١١
- « درر القلائد و غرر القوائد » لأبى عامر السالى ٤٨٠
- « الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة » ٥٢٧، ٣٠٢
- « الديباج المذهب » لابن فرحون ٤٧٥، ٣٢
- « الذخيرة » لابن بسام ٤٩٣، ٤٤٩، ١١٧، ١٠٩
- « ذيل الصلة » لابن بشكوال ٢٨٤
- « ذيل كشف الظنون » لاسماعيل باشا ٤٥٣، ٤٥٢
- « الرايات » لمحمد بن موسى الرازى ٢٩، ٢٨
- « رايات البرزين و غايات الميزين » لابن سعيد :
- ٤٩٨، ٤٩٦، ٤٧٤، ٤٧٢، ٤٦٧، ٤٦٥، ٤٦٣
- « رحلة » ابن بطوطة ٥٢٦
- « رحلة » ابن جبير ٥١٩، ٤٣٠، ٤٢٨، ٤١٩، ٣٨٩، ١٨٧
- « رحلة » ابن رشيد الإفهرى ٤٦٢
- « رحلة » ابن عبد السلام الناصرى ٥٢١
- « رحلة » ابن فاطمة ٥٠٧
- « الرحلة المغربية » للعبدى ٥٢٩، ٥١٨
- « رحلة الوزير فى افتكاك الأسير » لمحمد بن عبد الوهاب النسائى ٢٨
- « رسائل » إخوان الصفاء ٣٦٦
- « رسالة فى فضل الأندلس » لابن حزم ٣٥٢
- « رسالة » ابن فضالان ٥١
- « رسم الربع المعمور المعروف بصورة الأرض » لمحمد بن موسى الخوارزمى : ١٩٨
- « روض الأنس و نزهة النفس » ، « المسالك و الممالك » للادريسي
- ٢٢٧، ١٩٣

صفحة

٢٢٧	« روض الفرج وثره المهج » للادريسي
١٠٧	« روض القرطاس »
	« الروض المطار » لابن عبد المنعم الحيري : ١٥ ، ٢٢ ، ٦١ ، ٦٣ ، ٦٥
٣٧٥ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٨٧ ، ٩٨ ، ٢٢٩ ، ٢٧٥ ، ٢٨٥ ، ٣٥٢ ، ٣٧٥	
٥٥٦ ، ٣٨٤ ، ٣٨٥ ، ٣٩٢ ، ٥٢٩ ، ٥٣٠ ، ٥٣٢ ، ٥٣٤ ، ٥٥٦	
٥٧٢	« ربحانة الكتاب ونجعة المتناهب »
٣٦٢ ، ٣٦١	« الزيج » للفزاري
٣٦٠	« الزيج الحاكي الكبير » لابن يونس المصري
٣٦٠	« الزيج الصابي » لمحمد بن جابر بن سنان البتاني
٣٦٣ ، ٣٦٠ ، ٣٥٩	« الزيج المتحن »
٥	« السادهانتا » ، « السند هند »
٤٩٨	« سرور النفس بمدارك الحواس الخمس » لابن منظور
١١	« سلسلة التواريخ » لسليمان التاجر
١٨٧	« سلوان المطاع في عدوان الأتباع » لمحمد بن أبي محمد بن ظفر
١٢٢ ، ١٢٠	« سمط الآلى » لعبد العزيز اليمنى
٥	« السند هند » ، « السادهانتا »
٤١٣	« شجرة النور الزكية » للشيخ مخلوف
٤١٥ ، ٣٢	« شذرات الذهب في أخبار من ذهب » للعماد الحنبلى
٤٠٤	« شرح حديث جابر في الشفاعة » لابن العربى
٤٠٤	« شرح حديث أم زرع » لابن العربى
١٢٢ ، ١١٧	« شفاء عليل العربية » لأبى عبيد البكرى
	« شواهد الجلة والأعيان في مشاهد الإسلام والبلدان » لابن العربى :
٤١٣ ، ٣٩٥ ، ٤٠٠ ، ٤٠٢ ، ٤٠٥ ، ٤٠٦ ، ٤٠٨ ، ٤١٠ ، ٤١٣	
٣٩٨	« شيوخ العصر في الأندلس » لحسين مؤنس
٥٢٩	« صبح الأعشى » للقلقشندي

٦٥٥

الكتب الوارد ذكرها

صفحة

« صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد » ٢٧ ، ٢٦٨ ، ٤٠٨ ، ٥١٨

« صفة الأندلس » لأبي عبيد البكري ٢٢ ، ٥٤١

« صفة جزيرة العرب » للهمداني المعروف بابن الحائك ١٢٥

« الصلة » لابن بشكوال :

٨١ ، ١٠٧ ، ١١٠ ، ١١٥ ، ١١٧ ، ١١٩ ، ٢٨٣ ، ٢٨٥

« صلة المفصول في شرح أبيات الغريب المصنف » لأبي عبيد البكري :

١١٧ ، ١٢٢

« صناعة الكتابة » لقدامة بن جعفر ١٠

« صور الأقاليم » لابن سهل البلخي ١٣

« صورة الأرض » لابن حوقل ٣ ، ٥١ ، ١٣٧ ، ٢١٩ ، ٢٨٩

« صورة الأرض » للخوارزمي :

٤ ، ١٩٨ ، ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٣٦٠ ، ٣٦٢ ، ٣٦٥ ، ٥٠٣

« ضوابط دار السكة » لعلي بن يوسف الحكيم ٥٦

« الطالع السعيد الجامع لأسماء الفضلاء والرواة بأعلى الصعيد » للأدقوي : ٤٧٢

« طبقات الأطباء والحكماء » لابن جلجل ٣٦

« طبقات الشافعية » للسبكي ٣٩٨

« طوق الحمامة » لابن حزم ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠٩

« عارضة الأحوذى بشرح صحيح الترمذي » لابن العربي ٤٠٤ ، ٤٠٥

« عائد الصلة » لمحمد بن عبد النعم الحميري ٥٣٠

« العبر » لابن خلدون ١٩١

« العبر » لابن أبي الفياض ١٠٧

« عجائب البلدان » لابن الجزار ٣٩٠

« عجائب المخلوقات » المنسوب إلى أبي حامد الغرناطي ٣٢٥

« عجائب المخلوقات » للقزويني ٨٧ ، ٢٧٥ ، ٣٤١ ، ٣٤٣ ، ٣٥٤

« العرب في صقلية » لإحسان عباس ١٨٢

الكتب الوارد ذكرها

٦٥٦١

صفحة

- ٣٠ « العقد الفريد » لابن عبد ربه
- ٢٦٨ « علم البحر » لابن ماجد
- « علم الفلك ، تاريخه عند العرب في القرون الوسطى » لكارلو نالينو :
- ٣٦٧ ، ٣٦٣ ، ٣٦١ ، ٣٦٠
- ٤٦٩ ، ٤٦٥ « عنوان المرقصات والمطربات » لابن سعيد
- « المواسم من القواصم » لابن العربي :
- ٤١٣ ، ٤٠٤ ، ٤٠١ ، ٣٩٩ ، ٣٩٨ ، ٣٩٦
- ١٩١ ، ٣٦ ، ٣٥ « عيون الأنباء في طبقات الأطباء » لابن أبي أصيبعة
- « العيون الدعج في تاريخ بني طنج » ، جزء من « المغرب في حلي
- ٤٦٣ المغرب » لابن سعيد يتضمن تاريخ الإخشيديين
- ١١٧ « الفريب المصنف » لأبي عبيد القاسم بن سلام
- « النصوص الياقة في محاسن شعراء المائة السابعة » لابن سعيد :
- ٤٩٦ ، ٤٦٩ ، ٤٦٥
- ٢٨٤ « النواص والمبهات » لابن بشكوال
- ١٤٤ « فتوح » ابن عبد الحكم
- ٤٥٧ ، ٨٨ ، ٧٢ ، ٦٦ « فجر الأندلس » لحسين مؤنس
- « فرحة الأنفس » لابن غالب الفرناطى :
- ٤٦٠ ، ٤٥٨ ، ٤٥٧ ، ٤٥٥ ، ٤٥٢ ، ٢٩
- ٤٩٨ « فصل الخطاب في مدارك الحواس الخمس لأولى الألباب » للتيفاشي
- ١٢٢ « فصل المقال في شرح كتاب الأمثال » لأبي عبيد البكري
- ٥٧ ، ١٢ « فضل الأندلس » لابن حزم
- « فلك الأرب ، المحيط بحلى لسان العرب » لابن سعيد :
- ٥١٧ ، ٤٩٥ ، ٤٩٢ ، ٤٧٧ ، ٤٧٦ ، ٤٧٣
- ١١٧ ، ٨٣ ، ٢٦ « فهرسة » ابن خير
- ٣٩ « الفهرست » لابن النديم

صفحة

- ٤٦٢ « فوات الوفيات » لابن شاكر الكتبي
- ٢٨٥ ، ٢٨٤ « الفوائد المنتخبة والحكايات المستغربة » لابن بشكوال
- ٣٦٩ ، ٣٦٨ Vocabulista in arabico « الفوكابوليستا »
- « قانون التأويل في تفسير القرآن » لابن العربي :
- ٤١٥ ، ٤١٣ ، ٤٠٩ ، ٣٩٧ ، ٣٩٥
- ٦ « القانون المسعودي » للببروني
- ٢٦ « القبلة » لأبي حنيفة الدينوري
- ٤٦٤ ، ٣٢٨ « القرآن الكريم »
- ٤٦٩ ، ١١٦ « قلائد العقيان » للفتح بن خاقان
- ١٨٦ ، ١٨٤ « الكامل » لابن الأثير
- ٥٣٨ « الكتاب الأجارى » ، « زهرة المشتاق » للادريسي
- ٢٤ « كتاب في أصحاب المعامل والأجناد الستة بالأندلس »
- « كتب التاريخ السبعة في الرد على الوثنيين » لهرويش :
- ٣٤ ، ١٩ Historiarum Adversus Paganos Libri VII (Septem)
- ٢٢٥ « كتاب رجار » ، « زهرة المشتاق » للادريسي
- ٥٣٨ ، ٢٢٥ « الكتاب الرجارى » ، « زهرة المشتاق » للادريسي
- « كتاب في كائنة ميورقة وتغلب الروم عليها » لأبي المطرف بن أحمد
- ٢٤ ابن عبد الله بن عميرة
- ١٨ « كتاب المديح » لهرويش Apologeticus Contra Pelagium
- « كشف الظنون في أسامي الكتب والفنون » لحاجي حليفة :
- ٥٣٠ ، ٣٦٢ ، ١٩١ ، ١٦٨ ، ٣٩ ، ٣٢
- ٢٧٢ « كنز التجار » لبليق القبشاق
- « الآلى في شرح أمالى القالى » لأبي عبيد البكرى :
- ١٤٧ ، ١٢٦ ، ١٢٢ ، ١٢١ ، ١١٧ ، ١١٦
- ٤٩٨ « لسان العرب » لابن منظور

صفحة

- « اللوحة البدرية في الدولة النصرية » لابن الخطيب :
٥٥٤ ، ٥٥٦ ، ٥٥٧ ، ٥٦٣ ، ٥٦٩ ، ٥٧٠ ، ٥٧٦ ، ٥٩٠ ، ٥٩٣ ، ٥٩٥
- « مبتدأ خلق الدنيا » المعروف بتاريخ ابن حبيب ، لعبد الملك بن حبيب : ٢٧
« مباحج الفكر ومناهج العبر » للوطواط : ٣٠٢
« المجسطى » ، « جامع الرياضيات » لبطلميوس الإسكندري :
٤ ، ١٣٤ ، ٢٢٣ ، ٣٦٢ ، ٣٦٣ ، ٣٦٥ ، ٣٦٦
- « المجلة الأسبوعية » : ٥١٨
« مجلة الأندلس » : ٣٢ ، ٤٥٥
« مجلة جمعية مدريد الجغرافية » : ٣٧٠
« مجلة جمعية المستشرقين الألمان » : ٥٧٥ ، ٥٧٨
« مجلة المجمع العلمي العراقي » : ٢٦ ، ٤٢٢
« مجلة معهد المخطوطات العربية » : ٦٦ ، ٤٥٣
« مجموع المقتطف » لمؤلف مجهول : ٥٣٧
« المحاسن والفضائل في معرفة العلماء الأفاضل » لابن بشكوال : ٢٨٤
« مختار من مختصر تحفة الألباب لمجالسة الأحياب » عمل محمد بن عاصم
ابن عبيد الله ... الرندي : ٣٤٠
« المختار في النظم والنثر لأفاضل أهل العصر » لابن بشرون : ١٩١
« مخطوط المرية المجهول المؤلف » El Anónimo de Almería : ٣٥٨
« مدونة أوزيب » : ١٩
« مدينة الله » لهرويش : ١٩
« مذكرات » الأمير عبد الله الزيري : ١٤٧
« مرصدا الاطلاع » : ١٣٠
« المرشد إلى صورة الأرض » لبطلميوس : ٣٦٢
« مركز الإحاطة » لبدر الدين البشتكي : ١٥١ ، ١٥٢
« مروج الذهب » للمسعودي : ١٣٢ ، ٣٤٩ ، ٣٦١ ، ٣٦٥ ، ٤٩٣ ، ٥١١

الكتب الوارد ذكرها

٦٥٩

صفحة

٥٥٥

« مزنية المرية » لابن خاتمة

٤٦٦، ١٣٧، ١٣

« مسالك الأبصار » لابن فضل الله العمري

٥٨

« مسالك الأندلس » للرازي

٢١٧

« المسالك والممالك » للاصطخري

« المسالك والممالك » للبكري : ٧٣، ٧٧، ٧٨، ١٢٣، ١٣٢، ١٤٨، ٢٢٣

٥٣٧، ٥١٧، ٥١٠، ٣٥٢، ٢٨٥، ٢٢٤

٢١٨

« المسالك والممالك » لابن حوقل

٢١٥، ١٠

« المسالك والممالك » لابن خرداذبة

٧٥

« المسالك والممالك » لمحمد بن يوسف الوراق

٣٥٤، ٣٤٩

« المستطرف من كل شيء مستطرف » للابشيهي

« المسهب في غرائب المغرب » لعبد الله بن ابراهيم بن وزمر الحجاري : ١٤٩

٤٨٧، ٤٧٨، ٤٦٩، ٤٦٨، ٤٦٥، ١٦٤، ١٦١، ١٥٦، ١٥٣، ١٥٠

« مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في بلاد المغرب والأندلس » لأحد

٥٩٠، ٥٨١، ٥٧٥، ٥٧٢

نختار العبادي

« المشرق في حلى المشرق » لابن سعيد : ١٦١، ٤٧٣، ٤٧٤، ٤٧٧، ٤٧٨، ٤٩٢

٢٩٤

« مصحف عثمان »

٢٧

« مصر وأصول التاريخ في الأندلس » لمحمود علي مكي

٤٩٨

« مطالع البدور في منازل السرور » لالتيفاشي

٤٦٩، ٩٩

« مطامح الأنفس » للفتح بن خاقان

٢٦

« المعارف » لابن قتيبة

« المعارف في أخبار كورة إلبيرة وأهلها وفوائدها وأقاليمها وغير ذلك من

٢٣٠

منافعها » لطرف بن عيسى الفسافي

١٠٦، ٩٨

« المعجب في تلخيص أخبار المغرب »

« معجم منا استعجم من أسماء الأمكنة والبقاع » لأبي عبيد البكري :

٥٤٠، ٤٤٦، ١٤٧، ١٣٣، ١٣١، ١٢٣، ١٠٩

صفحة

- « المعجم في أصحاح أبي علي الصدقي » لابن الأبار ٢٩٦، ٢٩٥
 « معجم البلدان » لياقوت الحموي :
 ٥-٤، ٣٦٦، ٢٣٩، ٢٠٧، ٢٠٥، ١٣٧، ٩٨، ٦٧، ٢
 « معجم الملابس العربية » لدوزي ٣٥٣
 « العرب عن أحوال أهل المغرب » لليسع الغافقي ٣٠٢
 « العرب عن بعض عجائب المغرب » لأبي حامد الغزنائي :
 ٣٢١، ٣١٩، ٣١٨، ٣١٧، ٣١٦، ٣١٤، ٣١٢، ٣١١، ٣٠٥، ٣٠٣
 ٣٥٤، ٣٥١، ٣٥٠، ٣٤٧، ٣٤٦، ٣٣٨، ٣٣٧، ٣٢٦، ٣٢٥، ٣٢٣
 « معيار الاختيار في ذكر المعاهد والآثار » لابن الخطيب : ٥٨٠، ٥٧٢، ٥٥٤
 « مغازي » ابن إسحاق ٢٦
 « مغازي » ابن عقبة ٢٦
 « المغرب في أخبار المغرب » لأبي التقي طاهر بن عبد الرحمن ٥٣٧
 « المغرب في حلى المغرب » لبني سعيد : ١٥٦، ١٥٥، ١٥١، ١٥٠، ١٤٩
 ٤٦٥، ٤٦٣، ٤٥٦، ٤٥٤، ١٦٤، ١٦١، ١٦٠، ١٥٩، ١٥٨، ١٥٧
 ٥١٢، ٥١١، ٤٩٦، ٤٩٢، ٤٧٨، ٤٧٧، ٤٧٣، ٤٧٠، ٤٦٩، ٤٦٨
 « المغرب أو (المغرب) في محاسن المغرب » لليسع بن عيسى الغافقي :
 ٢٩٩، ٢٩٧، ٢٩٥
 « مغنطيس الأفكار فيما تحتوى عليه مدينة الفرج من النظم والنثر والأخبار »
 لإبراهيم بن وزمر الحجاري ١٥١، ٢٤
 « مفاتيح العلوم » للخوارزمي ٣٦٦
 « مفاخر البربر » ٤٠٦، ٧٥
 « مفاخرات مألقة وسلا » لابن الخطيب ٥٧٥، ٥٧٢
 « المفردات » ، « الأدوية المفردة » للادريسي ٢٢٥
 « المفردات » ، « الجامع لأشتات النبات » للادريسي ٢٢٥
 « المقتبس » لابن حيان ٤٦٩، ١٠٢، ١٠١، ٢٩

صفحة

« مقدمة » ابن خلدون
« المكتبة الصقلية » :

١٧٧ ، ١٧٩ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ، ١٨٤ ، ١٨٦ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩١

١٩٢ ، ١٩٤ ، ٢٠٠ ، ٢٠٦ ، ٢١٠ ، ٢١١ ، ٢١٤ ، ٣٦٧ ، ٣٧١

« ملحق — أو ذيل — القواميس العربية » لدوزي :

٣١٥ ، ٣٦٨ ، ٣٦٩ ، ٥٥٩ ، ٥٧٥ ، ٥٧٨

« منافع الأحجار » للتيفاشي
٤٩٨

« مناهج الفكر ومباهج العبر » للوطواط
٣٠٢

« المنهل الصافي » لابن تغري بردي
٤٦٢

« المهج والفرج » للدريسي
١٩٧

« المؤتلف والمختلف من أسماء الشعراء » للآمدي
١٢٢

« المؤنس » لابن أبي دينار القيرواني
٥١٩

« النبات » لأبي حنيفة الدينوري
٢٦

« النبات » لأبي عبيد البكري
١٢٣

« النجوم الزاهرة » لأبي المحاسن بن تغري بردي
٢٩٨

« نخبة الأذهان في عجائب البلدان » لأبي حامد الفرناطي
٣٢٦

« نخبة الدهر في عجائب البر والبحر » لمؤلف مجهول
٣٥٤

« نزهة الألباب فيما لا يجاد في كتاب » للتيفاشي
٤٩٨

« نزهة القلوب » لحد الله المستوفي
٣٥٤

« نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » للدريسي :

١٠ ، ٢٢ ، ٨٣ ، ٩٨ ، ١٦٨ ، ١٧٠ ، ١٧٣ ، ١٧٦ ، ١٨٣ ، ١٩٠ ، ١٩١

١٩٣ ، ١٩٥ ، ١٩٩ ، ٢٠٦ ، ٢١١ ، ٢١٢ ، ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢١٧ ، ٢٢١

٢٢٢ ، ٢٢٤ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٧٣ ، ٢٩٤ ، ٣٦٩ ، ٣٧٧ ، ٤٧٤

٤٨٠ ، ٤٨٢ ، ٤٩٥ ، ٥٠٠ ، ٥٠٢ ، ٥٢٩ ، ٥٣٢ ، ٥٣٦ ، ٥٣٧ ، ٥٣٨

صفحة

٢٢٩ ، ٢٢٨	« تزهة المشتاق في ذكر الأمصار والبلدان والجزر والمدائن والآفاق »
٣٠٢	للادريسي
٥٥٦	« نشق الأزهار في عجائب الأقطار » لابن إياس المصري
٥٩٠ ، ٣٠١	« نصوص عن الأندلس » بتحقيق عبد العزيز الأهواني
٥٣٧ ، ٨٣ ، ٢٢	« نظم الجمان » لابن القطان
٥٩٠ ، ٥٥٤	« نظم المرجان في المسالك والممالك » للعنزي
٩٨ ، ٣٢ ، ٢٩ ، ٢٨ ، ٢٢	« نفاضة الجراب في علالة الاعترا ب » لابن الخطيب
١٥٧ ، ١٥٦ ، ١٥٠ ، ١٤٩ ، ١٣٧ ، ١١٥ ، ١٠٣ ، ١٠٢ ، ١٠١ ، ١٠٠	« نفح الطيب » للمقري
٣٥٨ ، ٣٥٢ ، ٣٢٥ ، ٣٠٥ ، ٣٠٣ ، ٣٠٢ ، ٢٩٥ ، ٢٩٤ ، ٢٩٣ ، ٢٨٤	
٤٥٤ ، ٤٥٣ ، ٤٣٣ ، ٤١٣ ، ٤١١ ، ٤١٠ ، ٤٠٩ ، ٣٨٩ ، ٣٧٦ ، ٣٧٥	
٥٥٣ ، ٤٩٢ ، ٤٩٠ ، ٤٨١ ، ٤٧٨ ، ٤٧١ ، ٤٦٦ ، ٤٦٢ ، ٤٥٩ ، ٤٥٧	
٥٥٢	« نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين » لمحمد عبد الله عنان
١٢٦	« نوادر » ابن الأعرابي
١٢٦ ، ١٢٢	« النوادر » لأبي علي القالي
	« الوافي بالوفيات » للصفدي :
٢١٠ ، ٢٠٦ ، ١٩٤ ، ١٩٣ ، ١٩٠ ، ١٨٩ ، ١٧٧ ، ١٦٨	
٣٣٨ ، ٣٢٣	« وسيلة المتعبدين » للأردبيلي
٥٥٥	« وصف المدينة » للسهمودي
٥٥٥	« وصف مكة » للأزرق
٣٦٠	« وفيات الأعيان » لابن خلكان
٣٦٥	« اليتيمة » للثعالبي

كشاف عام

آهجار ، مرتفعات : ٥٠٩	« ١ »
آواى ، جزيرة : ١٤٥	آبار البيرة Pozos de Elvira : ٥٥٦
ابن الأبار : ٢٧ ، ٢٩ ، ١٠٧ ، ١١٠	آدم ، عليه السلام : ١٩ ، ٣٢٨ ، ٣٣٠
١١٤ ، ١١٥ ، ١١٨ ، ١٤٧ ، ٢٨٢	آذربيجان : ٢٠٢ ، ٢١٩ ، ٢٢٠
٢٨٣ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦	آرال ، بحيرة : ٣٤٧
٢٩٧ ، ٢٩٩	آرل Arles ، مدينة : ٤٧
إبانية Hibernia ، جزيرة (وهى	آزمور : ٥٨٧
إيرلندا) : ٤٩ ، ٥٠	آزوف ، بحر : ٣١٤ ، ٣٢٤
إبارية Iberia : ١٣٨ ، ٥٤٢	أسفى : ٢٧٥ ، ٥٨٧
أبال Ovejo : ٢٤٧ ، ٥٤٣ ، ٥٤٤	آسيا ، آسية : ٤٢ ، ٥١ ، ٢٣٣ ، ٢٣٨
أبدة : ٥٤٣ ، ٥٩٨	٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٢٧٦ ، ٥٣٤
أبدة العرب : ٥٤٣	آسيا الصفري : ١٧٠ ، ١٧٣ ، ٢٠٢
أبدة Ubéda : ٥٤٣ ، ٦٠١	٢٣٠ ، ٢٤٤ ، ٣١٤ ، ٣٢٣
إبراهيم ، عليه السلام : ٣٩٠	آسيا الوسطى : ٥٣٤
» الإيبارى : ٤٦٢ ، ٥٢٨	آش : ٢٦٥
» بن تاشفين ، أبو إسحاق : ٤٠٢	آقرسلوين : ٥٨٧
» » حبيب الفزارى = الفزارى	الآمدى : ١٢٢
» » سعدان : ١٣٦	الآمر بأحكام الله ، أبو على منصور
» » محمد بن يحيى ، المعروف	— الخليفة الفاطمى : ٣٠٩
بائن السقاط = ابن السقاط	آنسا ، مدينة : ٥٢٤

أجدابية : ١٧٨
 الأجور ، شعب Ogor : ٣٣٤
 إحسان عباس : ١٨٢
 أحمد بن جدو : ٥١٨
 » الحجام : ٢٣
 » بن خالد : ٥٧
 » » زهير بن حرب ، المعروف
 بابن أبي خيشمة = ابن أبي خيشمة
 أحمد بن سعيد بن محمد بن عبد الله بن
 أبي الفياض = ابن أبي الفياض
 أحمد الصالح العلي : ٤٥٣
 » بن طولون : ٤٦٣
 » » عبد الرحمن بن المطاهر
 الأنصاري : ٢٤
 أحمد بن عبد الملك بن سعيد ، أبو
 جعفر : ١٥٧ ، ٤٦٧
 أحمد بن عمر بن أنس العذري = العذري
 » » فضلان = ابن فضلان
 » » محمد التاريخي = أحمد بن محمد
 الرازي
 أحمد بن محمد الرازي = الرازي ،
 أحمد بن محمد
 أحمد بن محمد بن عبد البر = ابن عبد
 البر ، أحمد بن محمد
 أحمد بن محمد بن عبد ربه ، أبو عمر
 = ابن عبد ربه

إبراهيم بن وزمر الحجاري = الحجاري
 إبراهيم بن يعقوب الطرطوشي : ٧٦
 ٥٤٧ ، ٥٤٦ ، ١٣٧ ، ١٣٦ ، ٨٠
 إبره ، أو إبرو ، نهر : ٦٩ ، ٦٣ ،
 ٢٦١ ، ٥١٠
 إبره ، وادي Ebro : ١٣٨
 الإبيشي : ٣٥٧ ، ٣٥٤ ، ٣٤٩
 أبطير : ٥٤٣
 أبلة Avila : ٥١٨
 الأبله : ٣٥٣
 أبلي : ٥٤٠
 أبينية ، جبل Alpes Penninas : ٤٦
 أبهر ، مدينة : ٣٤٦ ، ٣١٢
 الأبواب ، جبال : ٣٧٤ ، ٢٥١
 أبواقة Isla Boega : ٢٦٩
 أبوليا : ١٧٨
 أبيانوس Appianus : ١٧
 الأتابيك عز الدين ، صاحب الموصل
 ٤٤٩
 الأتابكة : ٤٢٧
 الأتراك : ٤٤٩ ، ٤٢٥ ، ٤٢١ ، ٣٢٢
 إتل ، نهر : ٣٥٠ ، ٣١٥ ، ٣١٤
 أتلاتش ، جبل : ٤٨
 إتنا ، بركان : ٤٣٥ ، ٣٠٧
 ابن الأثير : ١٨٦ ، ١٨٤ ، ١٨٣ ، ١٨٢
 أجبال ، جزيرة : ٤٨٤

بنو إدريس : ١٨٦
 إدريس الثاني = إدريس العالى
 » الحودى الأول ، الملقب بالتأييد
 ١٧٢
 إدريس العالى ، ويعرف بإدريس الثاني
 ١٧٢ ، ١٧١
 إدريس الفاطمى : ٣٦١
 » بن يحيى الثانى ، الملقب بالقائم
 ١٧٢
 الإدريسي ، الشريف : ١١ ، ١٠
 ٩٨ ، ٨٣ ، ٥٤ ، ٤٣ ، ٢٢ ، ٢١
 ١٥٨ ، ١٤٤ ، ١٣٧ ، ١٣٥ ، ١١٢
 ٢٩٢ ، ٢٨١ ، ٢٨٠ ، ١٦٥ ، ١٦٤
 ٣١٩ ، ٣١٣ ، ٣٠٣ ، ٢٩٤ ، ٢٩٣
 ٣٦٦ ، ٣٥٨ ، ٣٤٢ ، ٣٣٢ ، ٣٣١
 ٣٧٧ ، ٣٧٥ ، ٣٧٤ ، ٣٧٢ ، ٣٦٩
 ٤١٩ ، ٤١٨ ، ٤١٧ ، ٤١٦ ، ٣٩٤
 ٤٨٠ ، ٤٤٣ ، ٤٢٥ ، ٤٢٢ ، ٤٢٠
 ٥٠١ ، ٤٩٩ ، ٤٩٥ ، ٤٨٣ ، ٤٨٢
 ٥١٤ ، ٥١٠ ، ٥٠٩ ، ٥٠٦ ، ٥٠٢
 ٥٣٤ ، ٥٣٢ ، ٥١٧ ، ٥١٦ ، ٥١٥
 ٥٤٢ ، ٥٣٩ ، ٥٣٨ ، ٥٣٧ ، ٥٣٦
 ٥٤٤ ، ٥٤٣
 الأدفوى ، كمال الدين بن جعفر ابن
 ثعلب : ٤٧٢
 أدلة الموانى ، المعروفة بالأدلة البورتولانية

أحمد بن محمد المقرى = المقرى
 » مختار العبادى : ٥٧١ ، ٥٥٣
 ٥٨٦ ، ٥٨١ ، ٥٧٥
 أحمد بن المعدل = ابن المعدل
 » » يحيى بن عميرة الضبي =
 الضبي أحمد ...
 أحمد بن أبى يعقوب بن واضح الكاتب
 = اليعقوبى
 بنو الأحمر : ٥٥٤ ، ٣٨٦
 ابن الأحمر ، محمد بن يوسف : ٣٨٦
 ٥٩٠ ، ٤٧١
 أحمد بن موسى العروى : ٢٣
 » » يحيى اليحصبي : ١١٣ ، ١١٢
 » » يحيى بن يزيد ، المعروف
 بـ ثعلب : ٣١
 أخشتين ، أو أخشينيوس ، بحر
 Pontos Euxinus : ٤٤ ، ٤٢
 الإخشيديون : ٤٦٣
 أخلاط ، بحر : ٣٤٧
 إنجيم : ٤٤٤ ، ٣٤٦
 الأدارسة : ١٧٧ ، ١٧٥ ، ١٧٢ ، ١٤٦
 ٣٦١ ، ١٨٦
 الأدارسة الحمديون : ١٧٢ ، ١٧١
 الأدرىاتى ، البحر : ٣١٩ ، ٧٧
 أدرياطقو ، خليج Adriaticum :
 ٤٦ ، ٤٥

١٩٧، ١٩٦
الأرش : ٥٦٨
أرش قيس : ٥٦٨
» اليماني : ٥٦٨
» اليمن : ٥٦٨
» اليميني : ٥٦٨
أرشذونة Archidona : ٢٥٨، ٥٤٤
أرض السحارة : ٣٨١
الأرض الكبيرة : ٢٨٨، ٢٨٧، ٢٨٤
٤٩٤، ٤٨٢، ٤٨١
الأرض كرة : ٢٧٦
» كرية : ٣٦٨، ٣٦٧، ٣٦٤
٥٠١
أرض الكلا : ٥٦٥
» مدن : ٣٨١
أرطانة : ٨٨
أرغون : ٤٨٤، ٢٤٩، ٢٤٧
أرغيرة Enguiera : ٦٦، ٦٨، ٢٥٨
الأركاذيين ، جزائر Orchney=
٥٠ : Arcadas
أرلطة ، بلد : ٤٧
إرم بن سام : ٣٤٥، ٥٨١
أرمانوس ، ملك قسطنطينية : ٣٥
أرمينية : ٣٥٣، ٤٧٤
أرمية ، بحر : ٣٤٧
أرنيط Arnedo : ٧٠، ٢٦١

٢٧١، ٢٦٧ : Portulani
أديليد Adelaide ، ملكة صقلية :
١٨٧، ١٨٨
الأذر ، نهر Rio Lerez : ٢٧٠، ٢٧١
الأذفونش : ٣٩١
إراتوستينس : ١٤، ١٦، ١٨، ١٣٤
٣٦٦
إرازموس : ٢٣٣، ٢٣٥
أريونة : ٢٨٧، ٢٨٤، ٧٠، ٦٤
٤٨٢، ٤٨١، ٤٨٠، ٢٩٩، ٢٨٨
أرتيميدور Artimidor : ١٧
أرجان : ٤٧٤
أرجبه ، حصن Orgiva : ٥٦٧
أرجذونة (أرشذونة) Archidona :
٥٨٤
أرجون : ١٥٣
أرجونة : ٥٩٨
أرخبيل بحر إيجة (الجزائر المؤلفة) : ١٤٥
أردبيل : ٣١٣، ٣٤٦
الأردبيلي ، معين الدين أبو حفص عمر
ابن محمد بن الخضر : ٣٣٨
الأردمون Artémone : ٤٤١
إردوستانس (إراتوستينس) : ١٣٤
أرزن : ٣٥٣
أرسطوطاليس : ٧
أرسبوس الأنطاكي (= هروشيث) :

أريتريا : ٢٣٣	استاديوم Stadium : ١٧، ١٦، ١٥
أرن : ٣٩١، ٣٩٠، ٥	٦٣
الأزرق : ٥٥٥	استامبول : ٢٣٠، ٢٢٨، ٢٢٧، ١٩٧
الأزهر ، الجامع : ٥٢٧، ٣٠٩	استجهه : ٢٨٨، ٢٥٨، ١٠٧، ٦٥
الأزورس ، جزائر : ٢٧٦، ٢٠٧	٤٥٩، ٢٨٩
٥٠٤، ٢٧٧	استرابون ، أو اسطرابون : ١٧، ١٤
الإسبان : ١٤٠، ١٢ (وانظر :	٢٤٠، ٢٠، ١٨
الإشبان)	استرامادوره : ١٠٤
إسبانيا : ١٩، ١٨، ١٧، ١٦، ١٥	استرخان : ٣١٤
٨٨، ٧٧، ٦٣، ٦٠، ٢١، ٢٠	أسترق Astorga : ٢٦٥
٢٦٠، ٢٤٩، ٢٤٨، ١٤١، ١٤٠	إسترية Istria : ٤٦ (وانظر : إشترية)
٣٦٨، ٢٨٧، ٢٧٨، ٢٦٣، ٢٦٢	الأستيا كوس ، شعب : ٣٣٤
٣٧٠ (وانظر : إشبانيا ، إشبانية)	إسجهه : ٦٠١، ٥٩٨
إسبانيا الإسلامية : ٢٥٠	إسحاق بن سلامة اللبي : ٩٨، ٢٣
La España At- » الأطلسية	أبو إسحاق الحربى : ١٢٨
٦٠ : lántica	إسحاق بن الحسن (أو حسين)
Provincia Hispania إسبانيا الدنيا	النجم : ١٩٧، ١٩٦
٩٢ : Citerior	بنو إسرائيل : ٣٧
إسبانيا الشمالية : ٢٧٤	استبونة Estepona : ٥٨٢
Provincia Hispania » القصوى	الاسطرولاب : ٣٦٨، ٣٦٤، ١٩٩
٩٢ : Ulterior	استمبة Estumba : ٦٤
La España Medi- إسبانيا المتوسطة	الأسطولية : ١٨٦
٦٠ : terránea	الإسكندر الأعظم : ٤٨٥، ٤١
إسبانيا المسيحية : ١٣٩	الإسكندرانى ، أبو الفتح : ٥٨٠
» النصرانية : ٢٦٣، ٢٥٠	الإسكندرية : ٣٠٦، ٢٩٧، ٢٩٦
٢٦٦	٣٤٦، ٣١١، ٣٠٩، ٣٠٨، ٣٠٧

١٦٣، ١٥٩، ١٤٠، ١٣٤، ١١٩

٢٥٨، ٢٥٥، ٢٥٤، ٢٥٣، ٢٤٨

٣٩٦، ٣٨٥، ٣٨٤، ٣٨٨، ٢٨٣

٤١٨، ٤٠٨، ٤٠٢، ٤٠١، ٣٩٩

٤٧٨، ٤٧١، ٤٧٠، ٤٦٧، ٤١٩

٤٩١، ٤٩٠، ٤٨٨، ٤٨٤، ٤٧٩

٥٥٩، ٥٤٥، ٥٤٤، ٥١٥، ٥١٤

٦٠١

إشبيلية، شهر : ٥١٥، ٥١٢، ٣٧٦

٥١٦

اشتاینشایدنر : ٣٩

أشتريس، بلد : ٢٤٩، ٦٤

أشتريس، جبال Les Monts

d'Asturies : ٣٧٤

إشترية Istria : ٤٥، ٤٤ (وانظر :

إسترية)

اشتقـاذس، جزائر Insulas Ste-

chadas : ٤٧

اشتورية : ٤٨

الأشـر Aluchar, Luchar : ٥٦٧

الأشراف : ٤٢٦

اشطلمبار : ٦٤

أبو الأشعث الكندي : ٢٦

إشفارن Schwerin : ٧٧

أشفاروش قيصـ Septemius Seve-

rus : ١٤٢

٤٠١، ٤٠٠، ٣٩٧، ٣٨٥، ٣٨٢

٤٦٧، ٤٤٣، ٤٤٢، ٤٣٨، ٤١٣

٥٢٥، ٥٢٠، ٤٩٢، ٤٧٢

الإسكندرية، منارة : ٥٢٥، ٤٤٣

اسكنديناوة : ٥٤٦

الاسكوثيون Scotti : ٥٠

اسكيا باريلي : ٤٥١

أسلن Aselin : ٢٤٤، ١٤٤

إسماعيل بن جعفر : ٣٠٩

إسماعيل بن حسن بن سهل بن أبان :

٢٦٨

إسماعيل بن عباد : ١١١

أسوان : ٤٤٣

إشبارية Hesperia : ١٤٠، ١٣٨

إشبان : ١٣٩، ١٣٨

الإشبـاب : ١٣٩، ١٣٨ (وانظر :

الإسبان)

إشبـانيا، إشبـانية Hispania : ١٣٨

٢٥٦، ٢٥٥، ٢٥١، ٢٥٠، ١٣٩

٥٤٢ (وانظر : إشبـانيا)

أشـبرش Haspéros : ١٤٠

الأشـبونة : ٢٤٧، ٦٤، ٦٣، ١٦

٢٧٦، ٢٧٥، ٢٦٧، ٢٦٣، ٢٤٨

٤٧٠، ٣٨٣، ٣٧٣، ٢٩٩، ٢٨٨

٦٠١، ٥٣٥، ٥١٣، ٤٨١، ٤٨٠

إشبيلية : ١١٢، ٩٣، ٨٣، ٦٥، ٢٨

٥٣٨، ٣٦٣، ٢٢٥، ٢٢١، ٢٢٠
 أطلس الحرائط العربية : ٢٢٧
 أطلس العالم : ٢٢٥
 ابن الأعرابي : ١٢٧
 الأعمى الخزومي ، أبو بكر محمد : ٤٥٥
 أغادير : ٥١٩
 إغرناطة : ٥٥٧، ٥٥٦
 إغريطة : ١٠٤
 الإغريق : ١٤٠ ، ١٣٨ ، ١٢ ، ٥
 ٢٧٢، ٢٤١
 أغمات : ٥٨٧، ٣٩٦، ١٨٥، ١٤٧
 ٥٩٣
 أغمات أوريكّة ، أو وريكّة : ٥٩٣
 أغمات إيلان ، أو عيلان ، أو
 هيلان : ٥٩٣
 الأغن ، جبل : ٤٨٣
 الأفارق : ١٤٢
 افراغ : ٦٠١
 إفراغة Fraga : ٢٦١، ٢٤٧
 الإفرنج : ٤٣٥، ٣٧٣، ١٩٢، ٨٠
 ٥٩٨، ٥٤٦، ٤٨٣
 إفرنجة : ٥٤٦، ٥٤٥، ٦٤، ٦٣
 إفرنجة العظمى : ٢٦٣
 إفريقية : ٤١، ٣٦، ٢٨، ١٩، ١٨
 ٧٣، ٦٦، ٥١، ٤٩، ٤٨، ٤٢
 ١٣٩ ، ١٣٧ ، ٧٦ ، ٧٥ ، ٧٤

أشقه : ٦٩
 بنو اشقيولة : ٥٩٦
 الأشكال : ٢١٨، ٢١٧
 أشكر Huéscar : ٥٨٤
 أشونة Osuna : ٢٥٨، ١٥٩
 أشيه : ٤١
 أبو الأصبغ عيسى بن محمد : ٢٣
 أصبهان : ٣٨١، ٣٥٣، ١٤٠
 أصحاب الأخدود : ١٣٢
 الاصطخرى ، أبو إسحاق إبراهيم
 ابن محمد : ٢١٨، ٢١٧، ١٣٠، ٢
 ٥٣٨، ٢٢٠، ٢١٩
 اصطف بن بسيل الترجان : ٣٥
 أصفهان : ٣٢٣، ٣١٩، ٣١٢
 الأصمى : ١٢٨
 ابن أبي أصيبعة : ١٢٣، ٣٦، ٣٥
 ٥٣٢، ٢٢٦، ١٩٥، ١٩١
 أصيلا : ٥٨٦، ٧٤
 أضنة : ١٧٣
 الأطالس : ٢٢٤، ٢١٩
 إطرابلس : ١٤٢
 إطرابنش Trapani : ٤٣٥
 أطرابجوش ، جبال Targios : ٣٧٣
 ٣٧٥، ٣٧٤
 الأطلس ، جبال : ٥٨٩
 أطلس الإسلام : ٢١٩، ٢١٨، ١٣

أكاديمية التاريخ بمدريد : ٣٠٣، ١٥١

٥٥٧، ٣٨٨، ٣٢٦

الانية Alania ، بلد : ٤٤

الألب أو ألبة ، جبال Alpes : ٤٦

٥٤٦، ٦٣، ٤٧

الإلب ، نهر : ٧٧

ألبرت ، بحيرة : ٥٠٨، ٥٠٥

ألبش ، جبل Alpes Penninas : ٤٦

إلبيرة : ٦٤، ٢٩، ٢٨، ٢٤، ٢٣

٥٥٧، ٥٥٦، ٢٥٥، ٢٥٤، ٨٣

٦٠١، ٥٦٧، ٥٦٦، ٥٥٩، ٥٥٨

إلبيرة ، جبل La Sierra de Elvira :

٦٥، ٦٣

إلبيرة ، مسجدتها الجامع : ٥٥٧

ألس Elche : ٤٨٨

الألف كتاب : ١٩٧، ٦٠١

الفارو ، حضن Faro : ٢٦٦

ألفريد الكبير : ٢٤٣، ٣٤

ألفونسو رايونديث ، ملك قشتالة : ١٥٣

ألفونسو السابع ، ملك قشتالة :

٢٦٣، ٢٤٧

ألفونسو السادس ، ملك قشتالة وليون :

١٥١

ألفونسو العاشر : ٥٥

ألفونسو المحارب ، ملك أراجون

١٥٣ : Alfonso el Batallador

١٧٩، ١٧٨، ١٧٦، ١٧١، ١٤٥

٢٧٥، ٢٦٦، ٢٣٣، ١٩٣، ١٩٢

٣٣٢، ٣٠٧، ٢٧٩، ٢٧٨، ٢٧٦

٤٠٦، ٣٨٥، ٣٧٢، ٣٥٣، ٣٥١

٤٩٢، ٤٨٩، ٤٨٧، ٤٧٢، ٤٤٤

٥١٦، ٥٠٨، ٥٠٧، ٥٠٤، ٥٠٣

٥٧٨

إفريقية الشمالية : ٢٧١

الأفضل شاهنشاه ابن أمير الجيوش

بدر الجالى : ٣٤٨، ٣٠٩

أفلاطون : ٣٦٦، ٧

أفينوس Avienus : ٦٢، ١٥

أقاليم الأرض التسعة : ٥٠١

الأقاليم السعة : ٢٠٦، ١٩٩، ٥، ٤

٢٢٣، ٢١٦، ٢١٥، ٢١٤، ٢١٣

٤٨٣، ٤٧٧، ٣٣٣، ٣٣٢، ٢٣١

٦٠٠، ٥٠٢، ٤٩٥

أقايية Achaia ، بلد : ٤٥

إقريطش : ٤٤٢

الأقشتين = محمد بن عاصم

أقطانية Aquitania ، بلد : ٤٨، ٤٧

أقطانية ، رأس : ١٤

أقلج ، أقلش Uclés : ٣٠٦، ٢٦١

الإقليم : ٥٦٥، ٨٨

إقليم الأصنام : ٤٥٨

أقيانس ، بحر أقيانس : ٥٤٥، ٥٤٢

ابن أمية Aben Humeya صاحب
 Valór : ٥٦٩
 بنو أمية : ٣٧ ، ٥٥٦ ، ٥٦٩ ، ٥٩٦
 أناس ، مدينة : ١٤٢
 أناشت ، حصن Castellum Honesti :
 ٢٧٠
 أناشت ، نهر : ٢٧٠
 انبلاط : ٥٦٩
 أنتقيرة Antequera : ٥٨٤
 الأنجرون Lanjarón : ٥٦٧
 انجلترا : ١٧٠ ، ١٨٠ ، ٢٣٠ ، ٢٤٤
 الإنجليز ، قبائل Angles : ٥٤٦
 أندرال ، حصن Andaral : ٥٦٦
 أندرش ، حصن Andarax : ٥٨٤ ، ٥٦٨
 الأندلس Hispania : ٤٢ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٥٠
 الأندلس ، طرقه : ٢٨٧ ، ٢٨٩
 » وصفه بالتفصيل : ٢٥٧ ، ٢٦٣
 » الأدنى Espania Citerior :
 ٤٨ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٣
 الأندلس الإسلامي : ٧١ ، ٩٠ ، ٩٣
 ١٠٢ ، ١١٢ ، ١١٩ ، ١٦٤ ، ٢٤٦
 ٢٥٥ ، ٢٨٩ ، ٣٧٢ ، ٥٧٣ ، ٦٠٢
 أندلس إشبانيا : ٢٥١
 الأندلس الأعلى : ٤٦
 » الأقصى : ٤٩ ، ٦٠ ، ٩١ ، ٩٣
 » الأول : ٩١ ، ٩٢

١٥٤ ، ١٥٥ ، ٢٤٧
 ألكالا لا ريال : ٤٦٥
 الألمان : ١٧٨ ، ١٧٩
 ألمانيا : ٧٦ ، ٧٧ ، ١٣١ ، ٢٣٠
 إلبيرة Illora : ٥٨٤
 أليمانى ، بولوفر خوسيه Alemany
 Bolufer José : ٢٠ ، ٢٤٦ ، ٢٥٤
 ٥٤٣
 أم القرى : ٢١٨
 الإمارة : ١٦٦
 أمارى ميكيلي Amari, Micheie :
 ١٦٨ ، ١٧٧ ، ١٨٢ ، ١٨٥ ، ١٨٦
 ١٩٠ ، ١٩١ ، ١٩٢ ، ١٩٣ ، ٢٠٠
 ٢١٠ ، ٢١٤ ، ٢٢٦ ، ٢٣٠ ، ٢٤٠
 ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤ ، ٢٨٠
 ٣٥٨ ، ٣٦٧ ، ٣٧٠ ، ٣٧١ ، ٤٥١
 أمالفي : ٤٢٣
 الأمايه : ١٢٧
 الإمبراطورية الرومانية : ١٩
 أمبرياش Ampurias : ٢٨٧ ، ٢٨٨
 ٢٨٩
 أسراء الإقطاع : ٤٢٥ ، ٤٢٦
 امرؤ القيس : ١٢٧
 أمريكا : ٢٧٦
 أمريكا الشمالية : ٢٧٦
 الأمويون : ٣١٣ ، ٥٩٦

أورانوس : ٤
أورتجال ، رأس : ١٧ ، ١٦ ، ١٥
أوروبا : ٣٣ ، ١٦ ، ١٤ ، ١٢ ، ٥
٥١ ، ٥٠ ، ٤٩ ، ٤٣ ، ٤٢ ، ٤١
١٣٤ ، ٨٤ ، ٧٩ ، ٧٧ ، ٧٦ ، ٥٢
٢٣٠ ، ٢٠٨ ، ١٩٨ ، ١٣٦ ، ١٣٥
٢٧٤ ، ٢٧١ ، ٢٤٤ ، ٢٣٨ ، ٢٣٤
٤٢٥ ، ٤٢٤ ، ٣٢٠ ، ٣١٢ ، ٢٧٦
٥١٦ ، ٤٩٥ ، ٤٩٤ ، ٤٨٧ ، ٤٢٦
٥٥٥ ، ٥٤٧ ، ٥٤٦ ، ٥٤٥ ، ٥٣٤
أوروبا الشرقية : ٤٧٦
أوروزيوس = Horosius = هرونشيش
الأوريطيون : ٤٩ ، ٤٨
أورية : Oria : ٥٨٤
أوريولة : ٩٥ ، ٩٣ ، ٩١
بنو أوس : ٥٦٩
أوسبة ، مغارة : ٢٦٦
أوش : Ouch : ٢٦٥
أوغسطين ، القديس : ٣٣ ، ١٩ ، ١٨
٤٠ ، ٣٤
أوكسفورد : ٢٤٥ ، ١٧١
أومان ، جيوفاني : Oman, Giovanni
٥٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٢٩ ، ٢٢٨ ، ٢٢٥
أونبة : ١٦٣
أونجريا : ٣١٩
أونيل : ٥٦٥

الأندلس الشرق : ٩١
» الغربى : ٩١
أندلس قشتالة : ٢٥١
» بن يافت : ٤٦٠
الأندلس : ٥٤٢
الأندليش : Vandali : ١٤١ ، ١٣٨
أنده : ٤٣١ ، ٦٧
أنطاكية : ٢٨٩ ، ٢٨٨ ، ١٤٥
أنطالية : Anatolia : ١٤٥
أنطونيا ، ملشور : ٤٦٢ ، ١٠٢
أنفا : ٥٨٧
أنقارية : ٣١٩
الأنقلش : ٥٤٦
انقلطرة ، جزيرة : ٤٨٤
الأنقليشيون : ٢٥١
أنقورية : ٣١٩
أنكبرده : ٥٤٦ ، ١٩٩
أنكرية : ٣١٩
الأهرام : ٣٤٦
الأهواز : ٣٨١ ، ٣٧٨ ، ٣٥٣ ، ٢٠٢
أغشتين (القديس أو غسطين) : ٤٠
أويوه ، بلد : ٤٥
أوتو الكبير ، الإمبراطور : ٧٦
٧٩ ، ٧٧
أودغشت : ٥١٠
الأوديل ، نهر : Odiel : ١١٢

« ب »	أويا ، مدينة Oea : ١٤٢
باب الأبواب : ٣١٣ ، ٣٦١	أياس ، مدينة : ١٤٢
» إشبيلية : ٢٨٥ ، ٥١٥	ابن إياس المصرى ، أبو البركات محمد
» إليرة : ٣٨٦ ، ٥٥٦	ابن أحمد : ٣٠٢ ، ٣٠٣ ، ٣٥٧
» بطليوس : ٢٨٥	أياؤه (بحر إيجة) : ٤٤ ، ٤٥
» البنيذة : ٣٨٦	إبيروس : ١٣٨
» بيطالة : ٨٦	إبيريا : ١٤ ، ١٥ ، ١٦ ، ١٣٨ ، ٢٧٧
» الجزيرة الخضراء : ٢٨٤ ، ٢٨٦	إيجة ، بحر : ٤٤ ، ١٤٤ ، ١٤٥
» الجوز : ٢٨٥	إيران : ٣ ، ١٣٦ ، ٢٣٨ ، ٣١٢
» الحديد : ٢٨٤ ، ٢٨٦	٣١٣ ، ٣١٤ ، ٣٢٠ ، ٤٧٤ ، ٤٩٣
» الحجر : ٣٨٦	٥١٦
» الحنش : ٨٥	إران شهر : ٢٠٢ ، ٢٣٨ ، ٣٣٢ ، ٣٣٣
» الدباغين : ٣٩٠	٤٩٣
» رومية : ٢٨٤ ، ٢٨٧	إرلندا : ٥٠
» زايدة Bib Ceida : ٣٨٦	إيزيدور الإشبيلي : ٣٤
» سرقسطة : ٢٨٤ ، ٢٨٦	إيطاليا ، إيطالية : ٤٦ ، ١٤٠ ، ١٧٧
» الشرق Bib Axarc : ٣٨٦	١٧٨ ، ١٨٠ ، ١٩٩ ، ٢٠٢ ، ٢٢٢
» الشريعة : ٣٨٦	٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢٦٣ ، ٢٨٨ ، ٤٢٦
» الشمس Puerta del Sol : ٣٨٦	٤٢٧ ، ٥٤٥ ، ٥٤٦
» ابن صخر : ٨٥	أيلة : ٣٨١ ، ٤٣٢
» طلبيرة : ٢٨٥	إينوخوسا دل دوك Hinojosa del
» طليطلة : ٢٨٤ ، ٢٨٧	Duque : ٢٥٩
» عامر القرشي : ٢٨٥	أيوب بن تميم بن المعز الزيرى : ١٨٦
» ابن عبد الجبار : ٢٨٤ ، ٢٨٧	» » عمر الكندى : ١١٠
٤٥٩	الأيوبيون : ٢٠١ ، ٤٢٢ ، ٤٢٧
باب المطارين : ٢٨٥	

كشاف عام

٦٧٤

٣٨٩
باشفرد ، باشفورد : ٣٢١ ، ٣١٩
٣٣٩ ، ٣٣٦ ، ٣٣٤ ، ٣٢٣ ، ٣٢٢
٣٥١
باطقة Betica : ٩٣ ، ٩٢ ، ١٣٨
٢٨٧ ، ١٣٩
باغة Priego : ٥٦٧
الباقوى : ٣٥٤
باكتريا Bactria : ٣١٩
باكه ، باكو ، باكوه : ٣٤٩
بالدى ، برناردينو Baldi, Bernardino :
٢٢٨
بالثيا ، جنشالت Palencia,
González : ٥١٩ ، ٥١٨
بان ، إله : ١٤٠
باولوس أوروزيوس (= هروشيوس) :
٣٤ ، ٣٣ ، ١٤
البائيا paella : ٤٨٦
ببستر Bobastro : ٢٥٨
البتاني ، محمد بن جابر بن سنان :
٣٦٠ ، ١٣٣
بجاجة Pechina : ٢٥٨ ، ٢٥٥ ، ٢٤
٥٩٨ ، ٥٧٣
البجاة : ٤٤٥
بجاية : ٥٢١ ، ٤٩٢ ، ٣٩٧ ، ١٤٤ ، ٢١
البجة : ٤٤٥

باب القنطرة : ٢٨٦ ، ٢٨٤ ، ٨٥
٤٥٩
باب القيسارية : ٨٦
» ليون : ٢٨٦ ، ٢٨٥
» المسك : ٥٧٤
» اللندب : ٢٣٣
» مورور : ٣٨٦
» الوادى : ٢٨٤
» الوراق : ٨٥
» اليهود : ٢٩٢ ، ٢٩٠ ، ٢٨٦
٢٩٣
بابل : ٤١٢ ، ٣٨٢ ، ٣٧٨
الباوية : ١٨١ ، ١٧٩ ، ١٧٨ ، ١٧٧
باجة : ٦٠١ ، ٥٩٨ ، ٤٧٠ ، ٦٤
البايجى ، أبو الوليد : ٤١٠ ، ١٦٦
باخور ، رأس Cabo Bajur : ١٥
ابن باديس ، أبو على حسن بن
بلقاسم : ٥٢١
بارتولد : ٤٧٦ ، ٤٦٣ ، ١٩٦
باريس : ٣٥١ ، ٢٢٨ ، ١٥١ ، ١٣٧
٣٧٠ ، ٣٦١
بازل : ٢٣٥ ، ٢٣٣ ، ٥
بسكوال دى جاينجوس = جاينجوس ،
بسكوال
باسيه ، رينه Basset, René : ٣٧٠
٣٨٣ ، ٣٧٦ ، ٣٧٥ ، ٣٧٤ ، ٣٧٣

بحر الروم ، البحر الرومي : ٢١٩ ، ٥١

٣٤٧ ، ٣٣١ ، ٣٢٨ ، ٣٠٧ ، ٢٢٠

٥٣٥ ، ٤٨٥ ، ٣٨٢

البحر الشامي : ٥٤٥ ، ٥٣٦ ، ٢٥١

٥٤٦

بحر الصّين : ٣٤٧ ، ٢٧١ ، ٢٣٢

٥٣٦ ، ٣٤٨

بحر الظلمات ، بحر الظلمة ، البحر

المظلم : ٥٣٥ ، ٣٤٧ ، ٣٢٨ ، ١٣٥

٥٣٦

البحر القالي : ٤٧

» الكاريبي : ٢٧٦

» المحيط : ٤٦ ، ٤٣ ، ٤٢ ، ٤١

١٥٩ ، ١٣٤ ، ٦٠ ، ٥٠ ، ٤٩ ، ٤٧

٤٨٣ ، ٤٨١ ، ٤٥٨ ، ٣٤٧ ، ٢٣٢

٥١٥ ، ٥٠٤ ، ٤٨٩ ، ٤٨٧ ، ٤٨٤

٥٤٦ ، ٥٤٥ ، ٥٣٥ ، ٥١٦

بحر مرتبه Myrtoum mare : ٤٥

البحر الميت : ٣٤٧

بحر الهند ، البحر الهندي : ٢٣٢

٣٤٩ ، ٣٤٧ ، ٣٤٥ ، ٣٢٨ ، ٢٣٣

٥٣٦

البحر اليوناني Ionium mare :

٤٥

البحرين : ٣٤٧

بحيرة إشفارن : ٧٧

البحر الأبيض ، البحر الأبيض

المتوسط ، البحر المتوسط Mare

Nostrum : ٤٢ ، ١٦ ، ١٥ ، ٥

٤٨ ، ٤٧ ، ٤٦ ، ٤٥ ، ٤٤ ، ٤٣

١٤٤ ، ١٠٤ ، ٦٤ ، ٦٣ ، ٥١

٢٢٣ ، ٢٠٣ ، ١٧٩ ، ١٧٧ ، ١٤٥

٢٦٧ ، ٢٥٨ ، ٢٤٦ ، ٢٤٣ ، ٢٣٢

٣٣١ ، ٢٧٣ ، ٢٧٢ ، ٢٧١ ، ٢٦٩

٣٨٢ ، ٣٧٨ ، ٣٧٤ ، ٣٧٢ ، ٣٤٧

٤٤٢ ، ٤٢٦ ، ٤٢٢ ، ٤٢٠ ، ٣٨٣

٥٣٣ ، ٤٩٣ ، ٤٨٥ ، ٤٨٤ ، ٤٨١

٥٨١ ، ٥٧٣ ، ٥٣٦

البحر الأحمر : ٤٣٢ ، ٤٢١ ، ٣٤٧

٤٤٤ ، ٤٤٢

البحر الأخضر : ٥٣٥ ، ٣٣١ ، ١٣٥

» الأسود : ٣٢٣ ، ٣١٤ ، ٢٣٩

٣٤٧ ، ٣٢٨

بحر الأصنام : ٣٦٥

البحر الأعظم : ٣٨٨ ، ٣٧٣

بحر الأتليشين : ٢٥١

البحر التيراني : ٤٩

بحر جزيرة قريطش mare Creticum :

٤٥

بحر الخزر : ٣١٤ ، ٢٢٠ ، ٢١٩

٣٤٩ ، ٣٤٧

بحر خوارزم : ٣٤٧

كشاف عام

٦٧٦

برجة ، حصن Berja : ٥٨٣ ، ٥٦٧
 برجيلة parcela : ٥٥٩
 » أندره : ٥٦٦
 » البنيول Albunies : ٥٦٦
 » أن جرير : ٥٦٦ ، ٥٥٩
 » قيس : ٥٦٦ ، ٥٥٩
 ابن برد : ١٢٧
 بردال : ٤٨٢
 البردوية : ٣٨٦
 برديل : ٤٨٣ ، ٤٨٢
 برديل : ٤٩٠
 برشانة Purchena : ٥٨٤ ، ٥٧٣
 برشتر : ١٨
 برشلونة Barcelona : ٢٥٥ ، ٧٠
 ٢٨٩ ، ٢٨٧ ، ٢٧٤ ، ٢٦٤ ، ٢٦١
 ٤٨٤ ، ٤٨٢
 البرطاش ، قبيل : ٣١٥
 برطاقة : ٦٠١
 برطانية ، بريطانيا ، بريطانية : ٤٦
 ٤٥٦ ، ١٧٠ ، ٥٠ ، ٤٩ ، ٤٨
 ٥٣٥ ، ٤٨٧ ، ٤٨٣
 برطانية ، بحر : ٤٦
 برغش Burgos : ٢٦٥
 برغنسية (بريجانتيوم) : ٤٨ ، ٢٠
 برغواطة ، قبيلة : ١٤٦ ، ٧٥ ، ٧٤
 ١٧٢

بخاري : ٤٦٧ ، ٣٢٤ ، ٣٢٣
 البخاري : ٢٩٦ ، ٢٩٥ ، ٨١
 البرابر المسلمون : ٥١٠
 براج : ٧٧
 براميرة : ٢٥٥
 البرانس ، جبال : ٤٨١ ، ٣٧٤ ، ٢٦١
 بربا أخيم : ٤٤٤ ، ٣٤٦
 البربر : ٥٥٦ ، ٤٨٧ ، ٣٦٩ ، ٧٥
 ٥٦١ ، ٥٥٧
 بربرة : ٢٣٣
 بربري : ٥٢٣ ، ٥٢١
 البرت ، جبال : ١٨ ، ١٧ ، ١٦ ، ١٤
 ٢٦١ ، ٢٥١ ، ٦٣ ، ٢١ ، ٢٠
 ٣٧٤ ، ٢٧٤ ، ٢٦٦ ، ٢٦٤ ، ٢٦٣
 ٤٩٤ ، ٤٧٣ ، ٤٨٢ ، ٤٨١
 برت أشبره Portus Asperi : ٢٧٤
 » بيونه : ٢٧٤
 » جاقه Puerta de Jaca : ٢٧٤
 » برت شيزرو Portus Cisereus :
 ٢٧٤
 البرتات ، إقليم : ٢٦١
 البرتغال ، برتقال : ١٥٨ ، ١٠٤
 ٦٠١ ، ٤٧٤ ، ٣٧٣ ، ٣٠٠ ، ٢٦٠
 برجالة parcela : ٥٥٩
 برجان : ٤٨٤
 برجلونة : ٥٩٨

بسطة Baza : ٥٧٤ ، ٥٧٣ ، ٤٨٩

٦٠١ ، ٥٩٨ ، ٥٨٤

بسقايه ، بسكايه ، خليج : ١٥ ، ١٤

٤٨٢ ، ٢٦٧ ، ١٥٤ ، ١٨ ، ١٦

بسكوال دى جاينجوس = جاينجوس ،
بسكوال .

البسكيون Los Vascos : ٥٤٥

البسيط Albacete : ٢٥٩

البشارات Las Alpujarras : ٢٥٥

٥٦٠ ، ٢٥٨

البساكسة : ٨٠

البشتكى ، بدر الدين : ١٥١

ابن بشر السكونى ، أبو عبيد عبد
الله : ١٢٨

بشرة بنى حسان : ٥٦٧

ابن بشروت : ١٩٣ ، ١٩٢ ، ١٩١
٢٢٧

بشقايه Vizcaya ، بلد : ٦٤

البشقنس ، البشكس : ٤٩ ، ٤٨
٥٤٥ ، ١٥٤

البشكنس ، جبال : ١٠٥

البشكة : ٨٠

ابن بشكوال ، أبو القاسم بن خلف :

١١٥ ، ١١٠ ، ١٠٣ ، ٨٢ ، ٨١

٢٩٤ ، ٢٨١ ، ١٢٣ ، ١١٩ ، ١١٧

٥٤١ ، ٤٦٠ ، ٤٥٩ ، ٣٥٨ ، ٢٩٥

برقة : ١٤٢ ، ١٤١

البركان : ٣٣١

البرنيو (البريبيوس) ، جبال : ٤٨

٢٦٦ ، ٢٦١ ، ٢٥١

البروز الأعظم Promentium Mag-

١٧ : num

بروفنسال ، لفي Provençal, Lévi .:

٦٦ ، ٦٥ ، ٦٤ ، ٦٣ ، ٦١ ، ١٥

١٤٦ ، ١٣٥ ، ٩٩ ، ٧٤ ، ٧٠ ، ٦٩

٣٥٢ ، ٢٩١ ، ٢٢٩ ، ١٧٥ ، ١٤٧

٥٣٣ ، ٥٣٢ ، ٥٣٠ ، ٤٥٥ ، ٤٠٦

٥٤٤ ، ٥٤٣ ، ٥٤١ ، ٥٣٧ ، ٥٣٤

٥٨٦ ، ٥٥٦ ، ٥٤٧ ، ٥٤٦ ، ٥٤٥

بروكلان : ٣٠٣ ، ٣٠٢ ، ١٩٧ ، ٧٨

٣٧١ ، ٣٣٨ ، ٣٢٥ ، ٣٢٣ ، ٣٠٦

٥٥٣ ، ٥١٩ ، ٥١٨ ، ٤٧٧ ، ٤٦٢

بريانه : ٦٧

بريشانى : ١٨ ، ١٦

بريجانتيوم = Brigantium برغنسية

البريد : ٥٥٩

بريرة Ferreira : ٥٦٧

بزتان ، وادى Baztán : ٢٧٤

بزرج بن شهریار : ١١

ابن بسام الشترينى : ١٠٩ ، ١٠٨

١١٧ ، ١١٦ ، ١١٣ ، ١١٢ ، ١١١

٤٩٣ ، ٤٦٩ ، ١٦٢

٤٣٣، ٤٣٢، ٤١٥، ٤١٢، ٤٠٥

٤٥٠، ٤٤٨، ٤٤٧، ٤٤٦، ٤٤٥

٤٧٤، ٤٦٤، ٤٦١

البقاع las vegas : ٥٦٤

بقيرة Viguera : ٧٠

بكر بن حماد التاهرتي : ٣١

أبو بكر الصنهاجي ، المكنى بالبندق =
البندق

أبو بكر عبد الله بن عبد الحكم ،
المعروف بابن النظام = ابن النظام

أبو بكر بن عمار : ١٠٨

» » » عمر اللمتوني : ١٤٧

١٨٥

أبو بكر اللخمي : ١٢٢

بكر وائل ، قبيلة : ١١٠ ، ٢٢٠

البكري ، أبو عبيد : ٢٠ ، ٢١ ، ٢٧

٧٥ ، ٧٣ ، ٦٣ ، ٦١ ، ٥٤ ، ٤٠

٨٣ ، ٨٠ ، ٧٩ ، ٧٨ ، ٧٧ ، ٧٦

١٥٨ ، ١٤٨ ، ١٠٨ ، ٩٧ ، ٩٣

٢٤٥ ، ٢٢٤ ، ٢٠٣ ، ٢٠١ ، ١٩٨

٣٠٨ ، ٢٨٥ ، ٢٧٦ ، ٢٦٠ ، ٢٤٩

٤٢٤ ، ٤١٨ ، ٣٧٢ ، ٣٧١ ، ٣٥٢

٤٨٤ ، ٤٦٠ ، ٤٤٦ ، ٤٤٣ ، ٤٢٥

٥١٦ ، ٥١٥ ، ٥٠٨ ، ٤٩٧ ، ٤٩٢

٥٣٨ ، ٥٣٧ ، ٥٣٤ ، ٥٣٢ ، ٥١٧

٥٤٧ ، ٥٤٦ ، ٥٤٢ ، ٥٤٠

٦٠١ ، ٦٠٠ ، ٥٩٩ ، ٥٩٨ ، ٥٤٢

البصرة : ٣٤٧ ، ٣٢٣

البصرة (المغربية) : ٧٤ ، ٧٣

البصل ، إقليم : ٣٧٥ ، ١١٤

بطرسبرج : ١٣٧

بطروش Pedroche : ٢٦٠

بطامبوس الإسكندري أو الأفلودي

أو القلوذي = كلاوديوس بطامبوس

Claudius Ptolemaeus : ١٨ ، ١٥

١٦٧ ، ١٣٤ ، ٩٤ ، ٦٣ ، ٤٠ ، ٢٠

٢٠٢ ، ١٩٩ ، ١٩٨ ، ١٩٧ ، ١٩٦

٢٠٨ ، ٢٠٧ ، ٢٠٦ ، ٢٠٥ ، ٢٠٣

٢٣٢ ، ٢٢٣ ، ٢١٥ ، ٢١٠ ، ٢٠٩

٢٦٧ ، ٢٥٢ ، ٢٤٩ ، ٢٤٣ ، ٢٣٥

٣٦٢ ، ٣٦١ ، ٣٤١ ، ٢٧٨ ، ٢٧٣

٥٠٣ ، ٤٨٤ ، ٣٦٩ ، ٣٦٦ ، ٣٦٥

٥١٦ ، ٥١٤ ، ٥٠٨ ، ٥٠٤

بطلبيوس Badajoz : ١٠٤ ، ٢٤٦

٦٠١ ، ٥٤٣ ، ٥١٤ ، ٥١٣ ، ٢٦٠

ابن بطوطة : ٣٢٤ ، ٣١٥ ، ٣٠٤ ، ١١

٥٢٦ ، ٤٢٨ ، ٤١٧ ، ٣٤٢ ، ٣٣٧

بعلبك : ٣٤٦ ، ٣١٠ ، ٢٩٧

بنداد : ٣١٠ ، ٢٩٨ ، ٥٨ ، ٥٧ ، ٣٥

٣٢٤ ، ٣٢٣ ، ٣١٩ ، ٣١٢ ، ٣١١

٣٥٣ ، ٣٣٨ ، ٣٣٦ ، ٣٢٦ ، ٣٢٥

٤٠١ ، ٤٠٠ ، ٣٩٩ ، ٣٨١ ، ٣٦١

البغار، أمة : ١٠ ، ٥١ ، ٧٧ ، ٢٣٩

٤٨٤ ، ٣٢٤ ، ٣١٨ ، ٣١٧ ، ٣١٤

البلقان : ٥١

بلنسية Valencia : ٦٤ ، ٦٦ ، ٦٧

٨٣ ، ٨١ ، ٧٢ ، ٧١ ، ٧٠ ، ٦٨

٩٢ ، ٩١ ، ٨٨ ، ٨٧ ، ٨٦ ، ٨٥

٢٨٨ ، ٢٥٩ ، ٢٥٥ ، ٢٥١ ، ٢٤٦

٤٥٣ ، ٤٣١ ، ٤٢٩ ، ٣٦٨ ، ٢٩٥

٤٨٩ ، ٤٨٦ ، ٤٨٤ ، ٤٧١ ، ٤٥٧

٦٠١ ، ٥٧٩ ، ٥١٨

بلوشية Blochet, E. : ٢٢٩

البوط ، إقليم : ٣٧٥

البليار ، جزائر : ٤٢٤ ، ٥٥٩

بليش Vélez - Málaga : ٥٨٣

بليش Vélez Rubio : ٥٨٤

بلينيوس : ١٤ ، ٤٩

البيلول : ٥٦٦

بنات نمش : ٧

بنبلونة Pamplona : ٢٧٤ ، ٢٦٥

بنت لريئة Puente la Reina : ٢٦٥

البندقية : ٤٢٣ ، ٤٢٨

بنطابلس : ١٤١

بنو مشيل Benamexil : ٥٦٧

بنونية Pannonia ، بلد : ٤٤ ، ٤٦

البيندة : ٣٨٦

بنينوفش : ٥٨٥ ، ٥٨٦

بكور ، حصن : ٥٦٦

بلاجيوس : ١٩

البلاذري : ١٤٤

البلاط ، إقليم Campana de Albalat :

٢٦٠ ، ٢٦١

البلاط ، مدينة Albalate : ٢٦٠

بلاط مغيث : ٢٩٠

بلاطة ، إقليم : ٢٦١

البلاطة ، إقليم : ٢٥٩ ، ٢٥٥ ، ٢٦١

بلاي Pelayo : ٢٦٦

بلجيكا : ٤٣

البلجيون Belgae ، قبائل : ٤٣

بلخ : ٣٥٣ ، ٣٥١ ، ٣١٩

البلخي ، ابن سهل : ١٣ ، ٥١ ، ٢٠٢

٢١٨ ، ٢٢٠ ، ٥٣٨

بلد نوبه Villa Nova (Villeneuve) أو

(Villa Nueva)

البلدان ، علم : ٨ ، ٩ ، ١٠ ، ١١

١٢ ، ٢٦ ، ٢١٧

البلدانيوت : ٧٩ ، ٢١٦ ، ٢١٧

٢٨١ ، ٣٣٧ ، ٥١٦

بلدوذ ، حصن Alboloduy : ٥٦٨

بلم ، بلارمة : ١٧٨ ، ١٩٢ ، ١٩٣

١٩٥ ، ٤٣٥

بلغار ، مدينة : ٣١٥ ، ٣١٦ ، ٣٢٤

٣٣٥

بورتا دل بينو : ٣٨٦
 بومبة (بوهيميا) : ٧٩
 بيسار ، رأس : ١٧ ، ١٦ ، ١٥
 ٢٠ ، ١٨
 بيارة : ٥٣٩
 بياسة Baeza : ٥٤٣ ، ٥٣٩ ، ٣٨٧
 ٥٩٨
 البياسين ، حي : ٥٦٠ ، ٣٨٧ ، ٣٨٦
 بيانة : ٣١
 البيت الحرام ، بيت الله الحرام :
 ٤٣٨ ، ٣٣٢ ، ٨٢
 البيت العتيق : ٤٤٥
 بيت فرعون : ٤١٠
 » لحم : ٣٩٨
 » المقدس : ٣٩٩ ، ٣٩٨ ، ٨٠ ، ١٨
 ٤٥١ ، ٤٣٧ ، ٤٣٦ ، ٤٣٥ ، ٤٠١
 بيتياس Pytheas : ١٨ ، ١٦
 البيداء : ٤٤٦
 البيدر cortijo : ٥٦١
 البندق = أبو بكر الصنهاجي : ٧٥
 ١٧٥
 بيرنيت ، خوان : ٢٧٨ ، ٢٧١ ، ٢٦٨
 بيرة Vera : ٥٨٤ ، ٥٧٤ ، ٥٧٣
 البيروني ، أبو الريحان : ٦ ، ٥ ، ٤
 ٣٤١ ، ٣٣٤ ، ٢٢٣ ، ٢٠٧ ، ٢٠١
 ٥١٦ ، ٤٢٠

بهجة الأثرى : ٢٦
 بوترون ، ج Potiron, G. : ٤٦٢
 ٤٦٥
 بوخارست : ٣١٩
 بورتياو ، ميناء : ٥١٣
 بورجرج ، نهر : ٥٨٧
 بوردو : ٤٨٢
 بور فيرو جينيروس = قسطنطين السابع
 بوزايدينيوس : ١٨ ، ١٧
 البوصلة : ٢٧٢ ، ٢٧١ ، ٢٥٢ ، ٢٤٣
 ٢٧٦ ، ٢٧٣
 بوغو ، نهر Rio Vouga : ٢٦٩
 بوكوك ، إدوارد : ٢٣٠
 بولاق : ٣٦٩
 بولندا : ١٧٧
 بولونيا (إيطاليا) : ٢٣٤
 بوليبيوس : ٣٥٦ ، ١٧ ، ١٦
 بولية Apulia : ١٨٦
 بومباي : ٣٤٧
 بومبي : ٠٤١
 بوهيميا : ٧٩
 بونس ، بويجس فرنسيسكو Pons
 ١٠٢ ، ٢٨ : Boigues Francisco
 ٣٩٥ ، ٣٢٥ ، ٢٨٣ ، ١٥٥ ، ١٠٧
 ٥١٨ ، ٤٦٢ ، ٤٥٤ ، ٤٥٣ ، ٤٥٢
 ٥٥٢ ، ٥١٩

التتار : ٤٦٤ ، ٤١٨
 التجاني : ٤٦٢ ، ٧٥
 التجيبي ، أبو عبد الله : ٢٩٦ ، ٢٩٥
 ٢٩٧
 تدمر : ٣١٠
 تدمير : ٢٥٦ ، ٩١ ، ٨٣ ، ٧٨ ، ٦٦
 ٣٩٠ ، ٢٥٨
 ترجمان النصاري : ٣٨ ، ٣٧
 الترك : ٣٢٨ ، ٣٢١ ، ٣١٥ ، ٣١٤
 ٣٣٢
 تركستان : ٣٣٣ ، ٣١٢
 ترويل : ١٠٤
 تشاد ، بحيرة : ٣٤٧
 تشو-يو Chu-Yo : ٢٧١
 ابن تغري بردى ، أبو الحسن يوسف :
 ٥٣٤ ، ٤٧٤ ، ٤٦٢ ، ٢٩٨ ، ٢٩٧
 تطيلة Tudela : ١٥٣ ، ٧٠ ، ٦٩
 ٦٠١ ، ٥٩٨ ، ٢٦١ ، ١٥٤
 تفاح شنترة : ٣٨٣
 التقسيم الإداري : ٢٥٥ ، ٢٥٤
 » » العربي : ٢٥٣
 تقسيم الأرض : ٢٠٧ ، ٤
 تقسيم إسبانيا : ١٠٥ ، ٦١
 » الأندلس : ٢٥٤ ، ٢٥٣ ، ٢٥٢
 ٢٥٦
 تقسيم بطامبوس أو التقسيم البطامبوسى :

بزا : ٤٢٣
 البزنطيون : ٤٢٢ ، ١٧٩ ، ١٧٨ ، ٥٣
 ٤٢٦
 ابن البيطار : ٣٢٥ ، ٣٢٦ ، ١٩٥
 بيطل ، نهر Baetis : ١٣٩ ، ٦٥
 بيطل ، وادي : ١٣٩ ، ١٣٨
 بيلق القيشاقى : ٢٧٢
 البهقي : ٥٠٨ ، ٥٠٦
 بيونة Bayonne : ٥٩٨ ، ٢٦٦

« ت »

تاترا Tatra : ٣١٩
 تاجرة الجبل Tachara : ٥٦٦ ، ٧٠
 تاجه ، نهر : ٣٨٩ ، ٣٨٣ ، ٢٦١
 التاريخ العالمى : ٨
 تازا ، تازة : ٥٨٧ ، ٥٣٢
 تاشفين بن علي : ٤٠٢ ، ٤٠١
 تاكرنا : ٦٠١ ، ٣٧٥ ، ١٥٩
 تاكورنة : ٣٧٥ ، ٣٧٣
 تالجرين ، توليو Tallgren, Tunkio :
 ٢٢٧
 تالكفيس : ٤٦٢
 تانسفت ، نهر : ١٨٥
 التبت : ٣٨٢ ، ٣٦١ ، ٣٥٢
 تبريز : ٣١٢
 تبسقى ، جبال : ٥١٠ ، ٥٠٩

التبير ، نهر : ٢٤٣
 يتوس ليفيوس : ١٣٣ ، ١٩
 تيران ، بحر : ٤٩
 تيزي : ٥٣٢
 تيط : ٥٨٧
 التيفاشي ، أبو الفضل : ١٩٢ ، ١٥٨
 ٤٩٩ ، ٤٩٨ ، ٤٩٧ ، ٤٧٤ ، ١٩٣
 ٥٢٨ ، ٥٠٠
 تيماء : ٣٨١
 تيمة : ٣٨١
 تينملل : ٥٩٣
 تيهرت : ٧٤ ، ٧٣
 تيزي ، صحراء : ٥٠٩
 « ث »
 ث . فيجريس : ٧٨ ، ٧٦
 ثابت الجرجاني : ١٢٧
 ثامسطيوس : ٧
 ثمة : ٤٣٥
 الثغر الأعلى : ١٥٣ ، ١٥٤ ، ٢٤٦
 ثمود بن سام : ٣٤٥
 ابن الثيري القرطبي ، محمد بن محمد :
 ١٩١ ، ١٩٢
 ثيوداد ريال Ciudad Real : ٣٨٥ ، ٥٢٩
 « ج »
 جابريلي : ٤٥١

٨٤ ، ١٣
 تقسيم الرازي : ٢٥٣
 التقسيم الكنسي : ٩٢
 تقى الدين أحمد بن علي القريري =
 القريري ، تقى الدين
 تكرور ، قوم : ٣٤٤
 تكريت : ٤٣٣
 تلسان : ٥١٨ ، ١٨٥ ، ١٤٥ ، ١٤٤
 ٥٢٤ ، ٥٢٢ ، ٥٢١
 ثلية Thulia ، جزيرة : ٥٠
 تميم بن المز : ٣٩٧
 التنتو ، نهر : Rio Tinto : ١١٢
 تنس : ٧٣
 تنوني : ١٢٧
 تهامة : ٣٨١ ، ١٣١ ، ١٢٧
 تورانشاه : ٤٧٣ ، ٤٧٢
 توكيديد : ٣٥٦
 تولى ، جزيرة : ٤٨٤
 توليو : ٢٠٩
 ابن توصرت ، محمد : ٣٩٩ ، ١٧٥ ، ٧٥
 ٥٨٩ ، ٤٠٣
 تونس : ٣٦٩ ، ٣٥١ ، ٣٠٧ ، ١٧٨
 ٤٧٥ ، ٤٧٤ ، ٤٧٢ ، ٤٧١ ، ٣٧٠
 ٤٩٨ ، ٤٩٥ ، ٤٩٢ ، ٤٨٧ ، ٤٨٠
 ٥٢٢ ، ٥٢١ ، ٥١١ ، ٥٠٠ ، ٤٩٩
 ٥٩٠ ، ٥٢٧

جبهة إسبانيا Frons Hispaniae : ١٧
 ابن جبير ، محمد : ١١ ، ١٨٧ ، ١٨٨
 ١٩٥ ، ٤١٢ ، ٤١٦ ، ٤١٩ ، ٤٢٠
 ٤٢١ ، ٤٢٥ ، ٤٢٧ ، ٤٢٨ ، ٤٢٩
 ٤٥٢ ، ٤٥٣ ، ٤٦١ ، ٥١٧ ، ٥١٩
 ٥٢٥ ، ٥٢٦
 ابن الجدة ، أبو بكر : ٤٠٣
 جدة : ٣٦١ ، ٤٣١ ، ٤٣٢ ، ٤٣٤
 ٥٢٠ ، ٥٤٠
 الجند الشاميون : ٥٥٦
 ابن أبي جراحة ، كمال الدين بن عمر :
 ٤٧٣
 جراوة : ٧٤
 جربة : ١٧٦ ، ١٧٩
 جرجنت Girgente : ١٨٤ ، ١٨٦
 ١٨٧
 الجرمان : ٨٤
 جرمانوس ، دومينيكيوس نيكولاوس
 Germanus, Dominicus Nicolaus :
 ٢٣٤
 الجرمي ، محمد بن أبي مسلم : ١٩٨
 جرندة Geronda : ٢٦٤
 جريدوس ، سلسلة جبال Serranía
 de Gredos : ١٠٤
 جريفيني : ٣٦٥ ، ٣٦٧ ، ٣٦٩ ، ٣٧٠
 جرينتش : ٥١٣

الجاحظ ، أبو عثمان عمرو بن بحر :
 ٢ ، ٦ ، ٣٤٨ ، ٣٥٣ ، ٥٧١
 جادو ، هضبة : ٥٠٩ ، ٥١٠
 جاقة Jaca : ٢٥١ ، ٢٦١ ، ٢٧٤
 جامع عمرو بن العاص : ٣٠٩
 جامعة الإسكندرية : ٥٧٢
 جامعة الزيتونة : ٣٧٠
 جامعة القاهرة : ٥١٧
 جايانجوس ، بسكوال : ٢٨ ، ٦١
 ٦٤ ، ٧١ ، ٧٢ ، ١٠٧ ، ١١٥
 ٣٢٥ ، ٣٢٦ ، ٣٧٠
 جبرائيل صهيون Gabriel Sionta :
 ٢٢٨
 الجبرقي ، عبد الرحمن : ٤٣٣
 جبريل ، الملك : ٣٢٩
 الجبل الأخضر : ١٤١ ، ١٤٢
 جبل الثلج Sierra Nevada : ٦٣
 ٦٤ ، ٣٢٦ ، ٣٨٤ ، ٥٥٩
 جبل الرحمة : ٥٨٣
 جبل طارق : ١٥ ، ٣٢٨ ، ٣٤٦
 ٤٨٤ ، ٥٨١ ، ٥٨٢
 جبل الفتح : ٥٨١
 جبل الفخار : ٥٦٠
 جبل النار : ٣٠٧
 جبل الندامة : ٥٠٦ ، ٥٠٨
 جبلانية ، جزيرة Cephalonia : ٤٥

الجغرافية الإسلامية : ١٣، ٩، ٨
 الجلالة ، الجليقيوت : ١٣٦، ٨٠
 ٤٨٩، ٤٨٣
 ابن جلجل = أبو داود سليمان :
 ٣٦، ٣٥
 جليقية Galicia : ٩٢، ٦٤، ٦٣، ٤٨
 ٣٧٤، ٢٦٦، ٢٦٣، ٢٤٩، ٩٣
 ٥٩٨، ٤٥٩
 جمال الدين محمد .. بن علي الأنصاري
 المعروف بالطواط = الطواط
 الجمهوريات الإيطالية : ٤٢٣، ٤٢٢
 ٤٢٨
 الجمهوريات البحرية الإيطالية : ٤٢٥
 الجنباب : ١٢٧
 جنديسابور : ٣٥٣
 الجنة (في الأندلس) : ٥٦٠
 جنة السيد : ٥٧٩
 جنة العريف : ٥٦٠
 جنوا ، خليج : ١٤
 جنوة : ٤٢٣
 أبو جهل : ٣٥٠
 جهور ، أبو الوليد : ١١٤ ، ١١٢
 ١١٧
 ابن جهير ، محمد بن محمد بن محمد :
 ٤٠٠ ، ٣٩٥
 جواداراما ، جبال : ٢٤٦

الجزء ، الأجزاء (في الأندلس
 Compascua) : ٥٦٥ ، ٨٨
 ابن الجزائر : ٣٩١ ، ٣٩٠ ، ٣٧١
 ٤٧٢ ، ٣٩٢
 الجزائر ، جمهورية :- ٣٧٠ ، ٣٥١
 ٥١٨ ، ٥٠٩
 الجزائر ، مدينة : ٥٢١
 جزائر بحر الهند : ٢٠٩
 الجزائر الزرقاء : ٢٧٦
 الجزائر الشرقية : ٤٢٤ ، ٥٥٩
 الجزائر المؤلفة (أرخيل بحر إيجة) :
 ١٤٥
 الجزر البريطانية : ٥٤٥ ، ٢٠٨
 الجزيرة ، مدينة : ٦٦
 جزيرة أم حكيم : ٢٥٧
 الجزيرة الخضراء : ٨٣ ، ٦٤ ، ٢٨
 ٤٦٩ ، ٤٦٧ ، ٢٨٩ ، ٢٨٨ ، ٢٥٥
 ٦٠١ ، ٥٨٢ ، ٥٤٥ ، ٤٩١ ، ٤٧١
 جزيرة العرب ، الجزيرة العربية : ١
 ٢٣٨ ، ١٣٦ ، ١٣٣ ، ١٣١ ، ١٢٥
 ٥٣٤ ، ٤٩٣ ، ٣٩٢ ، ٣٨١ ، ٣٤٥
 جزيرة البنم : ٢٧٧ ، ٢٧٦ ، ٢٧٥
 ابن جزى : ٣٣٧
 الجيرة : ٢٢٠
 أبو جعفر بن عبد الملك بن سعيد :
 ١٦١

بنو الحارث : ٥٩٤
 حام بن نوح : ٤١
 أبو حامد القرناطى = القرناطى ،
 أبو حامد
 الحامة ، الحمة Alhama : ٥٧٣ ، ٥٦٦
 ٥٨٤ ، ٥٧٤
 ابن الحائك = أبو محمد الحسن بن
 أحمد بن يعقوب بن يوسف بن
 داوود الحمدانى المينى : ١٢٥
 الحبشة : ٤ ، ٣٤٧ ، ٣٩٣ ، ٣٩٤
 ٥٠٧
 ابن حبيب ، عبد الملك : ٢٧ ، ٥٤١
 ٥٤٢
 أبو الحجاج يوسف (الأول) ابن أبي
 الوليد : ٥٥٢
 أبو الحجاج يوسف (الثانى) ابن محمد
 الفنى بالله : ٥٥٢
 الحجارى ، إبراهيم بن وزمر : ١٥١
 ١٦٤ ، ٢٩٩ ، ٤٦٥ ، ٤٦٧ ، ٤٦٨
 ٤٧٣ ، ٤٧٨ ، ٤٨٠ ، ٤٨١ ، ٤٨٧
 الحجازى ، أبو عباس : ٣٢٩ ، ٣٣٠
 ٣٣٢ ، ٣٣٦ ، ٣٤٧ ، ٣٤٨ ، ٣٤٩
 ابن حجر : ٥٢٧
 الحداد الخولانى المقرئ ، أبو الحسن
 على بن محمد بن ثابت : ٣٩٧
 حداره ، نهر el Darro : ٥١٥

جوازير بن يوسف الأريكي : ٢٦٨
 الجوانشى : ٢٧٧
 جوتنجن : ١٣١ ، ٣٦٠
 جوركان : ٣٢٤
 جوستاف فلوجل = فلوجل
 الجوف ، إقليم el Algarve : ٤١
 ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨
 ٤٩ ، ٥٠ ، ٦٤
 جون الريحانة : ٥١٣
 جيان Jaén : ٢٥٨ ، ٢٩٥ ، ٤٦٦
 ٥١٤ ، ٥٤٣ ، ٥٩٠ ، ٦٠١
 الجيخان ، أبو نصر سعيد : ١٩٦
 ١٩٧ ، ١٩٨
 جيرولامو : ٣٤
 جيروم ، القديس : ١٨
 جيلان : ٣١٦

« ح »

ابن الحاج البليقى ، أبو البركات محمد
 ابن محمد بن إبراهيم : ٢٤
 الحاجز : ٤٨١ ، ٤٨٢
 حاجى خليفة : ٣٩ ، ١١٧ ، ١٢٢
 ١٦٨ ، ١٩١ ، ٢٨٣ ، ٣٠٣ ، ٣١١
 ٣٦٢ ، ٤٥٤ ، ٥٢٩ ، ٥٣٠
 حاجى طرخان : ٣١٤
 حاحة المسمودية ، قبيلة : ٥١٩

حفص بن ألب (أو ألفارو) :

٤١٨ ، ٣٨

حفصة الركونية : ٤٦٧

الحفصيون : ٤٧١ ، ٤٩٩

الحكم المستنصر : ٢٣ ، ٣٠ ، ٣١

٧٤ ، ٧٣ ، ٥٦ ، ٥٥ ، ٣٨ ، ٣٧

٢٩٤ ، ١٤٦ ، ٩٨ ، ٧٦ ، ٧٥

٤٥٥

ابن الحكيم الرندي : ٢٣

حلب : ٤٣٣ ، ٤١٨ ، ٣٢٣ ، ٤٧٣

٥١٢ ، ٥١١ ، ٤٩٢ ، ٤٧٥

الحلق : ٥٩٤

الحلة : ٤٤٦ ، ٤٤٧

حام الإلبيري : ٢٩٠

ابن حماسة : ٢٤

حاه : ٤٣٣ ، ٤٩٢

الحراء : ٣٨٧ ، ٤٧١

الحرّة : ٣٨٦

حصص : ٣٤٦ ، ٣٥٢ ، ٤٣٣

آل حمود ، بنو حمود ، الحموديون :

١٨٨ ، ١٨٥ ، ١٨٤ ، ١٧٢ ، ١٧١

١٩٤ ، ١٩٣

الحموديون الأدارسة ، الحموديون

الإدريسيون : ١٧٢ ، ١٨٧

الحموديون العلويون : ٥٩٦

الحميدي ، محمد بن فتوح : ٥٨ ، ٥٧

حران : ٤٣٣ ، ٣٥٣

الحروب البونية : ٩٢

الحروب الصليبية : ٤٢٧ ، ٤٥١

ابن حريق ، أبو الحسن : ٤٨٦

ابن حزم ، أبو محمد علي : ١٢ ، ٢٩

١٠٠ ، ٩٩ ، ٩٠ ، ٨٣ ، ٨٢ ، ٥٧

١٨٥ ، ١٦٦ ، ١٦٣ ، ١٠٩ ، ١٠٨

٣٥٧ ، ٣٥٢

حسن حسني عبد الوهاب : ٣٤

أبو الحسن بن الحسين بن سعيد : ٤٧١

حسن بن علي بن أبي الحسين

الكلابي : ١٧٩

حسن محمود : ٤٦٣

الحسن الممداني : ٢٦

الحسن الوزان ، المعروف بليون

الإفريقي : ١٦٩ ، ١٩٢ ، ١٩٣

الحسين بن حرث : ٣٢٩

حسين مؤنس : ٣٩٥ ، ٣٩٨

حسين نصار : ٤١٩ ، ٤١٨ ، ٤٣١ ، ٤٤٨

حسين بن يحيى الأنصاري : ٩٦

حصن ابن هارون El Castillo de

Aznarón : ٢٦٠

حصن بشير : ٤٤٨

حصن العقبين : ١٥٩

الحضري ، محمد بن عبد الله : ٣٢٨

بنو حفص : ٥٨٩

« خ »

خايبير سيمونيت ، فرانثيسكو Javier

٣٨،٣٤ : Simonet, Francisco

٥٦٦،٥٦٥،٥٥٩،٥٥٧،٣٦٨

٥٧٥،٥٦٩،٥٦٧

ابن خاتمة ، أبو جعفر : ٥٥٥،٥٣٤

خاتون السعودية : ٤٥٠

ابن خاقان ، الفتح : ١١٦،١١٥،٩٩

٤٦٩،١٢١،١٣٠،١١٨،١١٧

ابن خافان الكيمياء ، جاناخ : ١٩٧،١٩٦

الخاليدات ، الجزائر : ٢٠٥،١٣٤،٥

٥٠٢،٥٠١،٢٣٥،٢٣٢،٢٠٨

٥٣٥،٥١٦،٥١٣،٥٠٤

خايميه ، الملقب بالغازي Jaime el

٧١ : Conquistador

خرائط الإدريسي : ٢٤٢،٢٣٥،٢١٣

٣٣٢،٢٧٣،٢٧١،٢٧٠،٢٥٢

٥١٠

الخرائط الإسلامية : ٢٢٠

الخرائط البحرية : ٢٦٩،٢٦٨،٢٦٧

٢٧٦،٢٧٢،٢٧١،٢٧٠

خرائط بطليموس : ٢٣٣،٢١٠،٢٠٥

٢٣٥ ، ٢٣٤

الخرائط البورتولانية Portolani أو

المرفئية : ٤٢٤،٢٣٤

خرائط الخوارزمي : ٥١٠،٥٠٨،٥٠٣

٤٦٩،١٠٣،٨٣،٨١،٧٣،٥٩

الحيرى ، ابن عبد المنعم : ٦١،٢٢

١٠٠،٩٨،٨٣،٧٨،٧٧،٧٠

٢٨٦،٢٨٥،٢٧٥،٢٢٩،١١٦

٤٢٧،٣٩٢،٣٨٤،٣٧٥،٣٥٢

٥٥٦،٥٥٠،٥٢٩،٥١٧

الحفابلة : ٤١١

أبو حنيفة ، الإمام : ٤١١ ، ٣١٥

أبو حنيفة الدينورى = الدينورى

حنين بن إسحاق : ٣٥

ابن الحواس = على بن نعمة : ١٨٦

حوران : ٣٤٦

الحوز (فى الأندلس) : ٦٧ ، ٦٦

حوز مدينة (فى الأندلس) : ٥٦٥

ابن حوقل ، أبو القاسم محمد : ١٠ ، ٣

١٤٣ ، ١٤٢ ، ١٣٧ ، ٥١ ، ١٣

٢١٩،٢١٨،٢١٧،١٩٧،١٩٦

٢٦٧،٢٥٨،٢٣٨،٢٣٦،٢٢٠

٤٤٣،٤١٧،٣١٦،٢٨٩،٢٨٨

٥٣٨،٥١٥،٥١٠،٤٩٣

الحوقلى البغدادي = ابن حوقل

ابن حيان ، أبو مروان : ٢٩ ، ٢٨

١٠٨،١٠٣،١٠٢،١٠١،٩٨

١١٦،١١٥،١١٣،١١١،١١٠

٤٥١،١٦٠،١٥٨،١١٨،١١٧

٦٠١،٦٠٠،٥٩٩،٤٨٢،٤٦٩

خط الأستواء : ٢٠٤، ١٣٥، ٧، ٥ :
٢٠٩، ٢٠٨، ٢٠٧، ٢٠٦، ٢٠٥
٢٣٧، ٢٣٥، ٢٣٣، ٢٣٢، ٢٢١
٥٠١، ٤٨٣، ٣٩٤، ٣٩٣، ٢٤١
٥٠٨، ٥٠٦، ٥٠٤، ٥٠٣، ٥٠٢

٥١٥

خط جرينتش : ٢٠٧

خطة الرد : ١١٠

ابن الخطيب : لسان الدين : ٩٨، ٤٣
١٥٧، ١٥٥، ١٥٢، ١٥١، ٩٩
٤٦٣، ٤٦٢، ٤٢٧، ٢٩٢، ٢٩٠
٥٣٠، ٤٩٥، ٤٧٦، ٤٧٥، ٤٦٥
٥٩٥، ٥٥١، ٥٣٤، ٥٣٢، ٥٣١
ابن خفاجة ، أبو إسحاق : ٢٩٥
الخليفة : ١٦٦، ١٦٢، ٣٩٨، ٤٥٦

٥٩٦

الخليفة العباسية : ٤٠٧

ابن حلدون : ٣٩، ٣٨، ٣٧، ٣٦، ٢٠ :
١٧٢، ١٢٩، ٩٨، ٥٤، ٥٣، ٤٣
٣٦٨، ٣٦٦، ٣٤٢، ٢٠٢، ١٩١
٤٩٥، ٤٨٤، ٤٠٨، ٤٠٧، ٣٦٩
٥٢٧، ٥١٨، ٥٠٩، ٥٠٧، ٤٩٨

الخلعي ، القاضي أبو الحسن علي بن
الحسين بن محمد : ٣٩٧

خلف بن سعيد : ١٥٢

الخلفاء ، قصور : ٦٠٠

خرائط ابن سهل البلخي : ٢١٧
الخرائط العربية : ٥٠٣، ٢١٢، ٢٠٥
» العلمية : ٢٦٨، ٢٦٧
» الفنية : ٢٦٨
» الملاحية : ٢٧٨، ٢٧٣، ٢٧١
» النظرية : ٢٦٨، ٢٦٧

ابن خرداذبة ، أبو القاسم عبيد الله :
٢٠٢، ١٩٧، ١٩٦، ١٠٧، ١٠

٥٩٨، ٣١٦، ٢٥٨، ٢٣٨، ٢١٥
الخريطة الأندلسية Carta Arábigo
Española : ٢٧٣

الخريطة البيزية Carta Pisana : ٢٧٣
خريطة جغرافية : ٣٦٣

خريطة الدنيا : ٣٦٦، ٣٦٥، ٢٤٣
٣٦٨ ، ٣٦٧

خريطة الزهري : ٣٦٧

» ابن سعيد : ٤٩٣

» العالم : ٢٠٨، ١٩٦

» مريتنوس الصوري : ٢٠٥

الخريطة المغربية Carta Mogrebina :
٢٧٣

الخزانة العامة في الرباط : ٥٩٦

الجزر : ٣٩٠، ٣٨٩، ٣١٥، ٣١٤، ٧٧
خسحاس : ٢٧٨

خشخاش : ٥٣٥، ١٣٥

الخضراء : ٥٩٨ ، ٤٨٥

« د »

- داجية Dacia ، بلد : ٤٤
 الدار casería : ٥٦١
 دار الإسلام : ٣٢٤ ، ٦٠٠
 الدار البيضاء : ٥٦١ ، ٥٨٧
 دار السنات : ٥٦١
 دار الكتب المصرية بالقاهرة : ١٣٢
 ٤٧٨ ، ٤٧٥ ، ٢٣٠ ، ٢٢٩ ، ٢٢٣
 ٤٩٨
 دار هذيل : ٥٦١
 دار فور : ٥٠٩
 ابن أبي دانس : ٢٥٩ ، ٢٦٠
 دانشمند : ٤١١ ، ٤١٥
 أبو داوود سليمان ، المعروف بابن
 جليجل = ابن جليجل
 ابن داوود الفارسي ، أبو الحسن :
 ٣٩٨
 دائرة المعارف الإسلامية : ٤٦٢ ، ٥١٨
 ٥٥٦ ، ٥٥٣
 دائرة المعارف البريطانية : ٥٤٤
 دبوكره Dabawkarah : ٢٦٨
 دجلة : ١٣٥ ، ٢٢٠ ، ٣٨٤
 ابن دحون الفقيه : ١٠١
 درب المقرورين : ٢٧٥
 دربلو d'Herbelot : ٣٥٧
 الدررند : ٣١٣

- ابن خلكان : ٢٨٣ ، ٣٦٠
 خليج الروكسلانيين : ٤١
 الخليج الفالقي Sinum Gallicum : ٤٦
 الخليج الفارسي : ٢٧٢ ، ٣٤٧
 خليج مدينة قرنته Corynthium : ٤٥
 خليص : ٤٤٦
 ابن خميس ، أبو عبد الله محمد بن
 عمر : ٥٢١
 خوارزم : ٣١٣ ، ٣١٤ ، ٣١٨ ، ٣٢٢
 ٣٢٣ ، ٣٣٣ ، ٣٣٥ ، ٣٣٦ ، ٣٤٦
 خوارزم شاه : ٣٢٨
 انطوارزي ، محمد بن موسى : ٤ ، ١٣٣
 ١٩٨ ، ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢٢٢ ، ٢٢٤
 ٢٣٢ ، ٢٦٧ ، ٣٦٠ ، ٣٦٢ ، ٣٦٥
 ٣٦٦ ، ٤٩٣ ، ٥٠٣ ، ٥٠٥ ، ٥٠٦
 ٥٠٨
 ابن أبي خيشمة = أحمد بن زهير بن
 حرب : ٣١
 ابن خير : ٨٣ ، ١١٧ ، ١٢٢ ، ١٢٣
 ١٢٦
 خير بن خير : ١٤٦
 خيمينيث ، مانويل أوكانيا Jiménez,
 Manuel Ocaña : ٢٨٩ ، ٢٩١
 خينيس ، خوان بيرنيت Jinés, Juan
 Vernet : ٤٩٦ ، ٥٠٠ ، ٥٠١

الدولة البابوية : ٤٢٣
 » البيزنطية : ٣٣ ، ٣٦ ، ٥١
 ٢١٩ ، ٣٢٠ ، ٤٢٧
 الدولة التيتونية : ٧٩
 » الرومانية : ٢٠ ، ٨٤ ، ٣١٩
 » الرومانية المقدسة : ٧٩
 » العاصرية : ٥٩٦
 » النصرية : ٤٧١ ، ٥٩٠
 دويره ، نهر : ١٠٥ ، ٢٦٩
 دى خويه ، ميخائيل يانوس
 De Goeje, M. J. : ٣ ، ٩ ، ١٠
 ٧٨ ، ٢١٥ ، ٢٢٠ ، ٢٤٠ ، ٢٤٥
 ٢٥٦ ، ٢٦٠ ، ٤١٩ ، ٥٣٦
 دى ساسى ، سلفستر De Sacy
 Silvestre : ٣٥ ، ٣٩ ، ٣١٢
 دى سكارباريا ، يعقوب أنجيلوس
 De Scarparia, Jacobus Angelus :
 ٢٣٣ ، ٢٣٤
 دى سلان ، ماك كوجين De Slane
 Mac Guckin : ٣٩ ، ١٢٩ ، ١٣٦
 ١٣٩ ، ١٩٢ ، ٢٤٠ ، ٢٦٢
 دى شتورر : ٢٢٨
 دى فو ، كارا : ١٩٦
 دى لا بلاش ، فيدال : ٤٢٤
 دى مارمول ، لويس : ٥٥٧
 دى مينار ، باربييه : ٣٦١

دربندا : ٣١٣ ، ٣٤٦
 الدرجة الطولية : ٥٠١ ، ٥٠٤
 الدرجة العرضية : ٥٠٤
 دردانية Dardania ، بلد : ٤٥
 دروكة Daroca : ٢٦١
 ابن دريد : ١٢٦
 الدعوة الفاطمية : ٣٩٧
 دقيانوس : ٣٠٦ ، ٥٨٨
 الدقيقة : ٥٠٤
 دلاية Dalias ، قرية : ٨١ ، ٨٢
 ٥٦٧ ، ٥٨٤
 الدلتا : ٢٣٧
 دلماتيا Dalmatia ، بلد : ٤٤ ، ٤٥
 اللون : ٤٤١
 الدميرى : ٣٤١ ، ٣٤٨ ، ٣٥٤ ، ٣٥٧
 دنوبية Danubium ، نهر : ٤٣
 ٤٤ ، ٤٦
 الدينير ، نهر : ٤٣ ، ٣٢٤
 دوبلر ، سينار Dubler, César : ١١
 ١٦٨ ، ١٧٣ ، ٢٤٦ ، ٢٤٨ ، ٢٦٢
 ٢٦٤ ، ٢٦٧ ، ٢٦٩ ، ٢٧١ ، ٢٧٤
 ٣٠٣ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣١٢ ، ٣١٤
 ٣١٦ ، ٣١٨ ، ٣١٩ ، ٣٢١ ، ٣٢٣
 ٣٢٥ ، ٣٣٣ ، ٣٣٤ ، ٣٣٤٠ ، ٥٤
 ٣٥٧
 الدولة الأيوبية : ٤٧٢

كشاف عام

٦٩١

١٦٤، ١٦٠، ١٥٩، ١٥٨، ١٤١
 ٢٥٣، ٢٤٩، ٢٤٨، ٢٤٥، ٢٠٢
 ٣٧٢، ٣٧١، ٢٦٢، ٢٥٨، ٢٥٧
 ٤٧٨، ٤٦١، ٤٥٧، ٤٥٦، ٤٥٥
 ٥٤١، ٥١٧، ٤٩٦، ٤٩٢، ٤٨٢
 ٥٩٨، ٥٩٧، ٥٦٠، ٥٥٥، ٥٤٢
 ٦٠١، ٦٠٠، ٥٩٩
 الرازي ، عبد الله : ٣٠٨
 الرازي ، محمد بن موسى : ٢٧، ٢٩، ٥٦
 الرأس الأبيض : ٢٧٩
 رأس الجدى : ٧
 رأس الرجاء الصالح : ٢٧٨
 رأس السرطان : ٧
 رأس العين : ٤٣٣
 راسية Raetia أو Rhetia ، بلد : ٤٦
 بنو راشد ، مدينة : ٦٥
 الراضى بن المعتمد : ٢٨
 رامسرى ، و. م. Ramsay W. M. :
 ١٧٠
 رامون بيرنجير الرابع ، صاحب قطلونية :
 ٢٤٧ ، ٢٦٣
 رانه ، نهر (Rhenus = الرين) : ٤٦
 الراهون ، جبل : ٣٢٨ ، ٣٣٠ ، ٣٤٧
 رايت ، وليام : ٣٨٩ ، ٤١٩
 رايموند ، ا. و. Raimond I. W. :
 ٣٤

ديار ربعة : ٢٢٠
 الديار المصرية : ٤٩١ ، ٤٩٢ ، ٤٩٦
 الديبل ، ميناء : ٣٤٧
 ديرنبور ، هارتويج : ٣٢٦
 ديستوريدس : ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧
 ديسم بن إسحاق : ٩٦
 الديلم : ٢١٩ ، ٢٢٠
 ديمومبين ، جودفروا Demombynes,
 Gaudefroy : ٣٤٧ ، ٥٣٠
 ابن أبي دينار القيروانى : ٥١٩
 الدينورى ، أبو حنيفة : ١ ، ٢٦
 ديودور الصقلى : ٤
 « ذ »
 ذات عرق : ١٢٧
 ذكوان Coín : ٥٨٤
 « ر »
 الرابطة La Rábida : ١٣٤
 راتيه ، بلد : ٤٦
 الرازي ، آل : ١١
 الرازي ، أحمد بن محمد : ١ ، ٨ ، ١٤
 ٢٠ ، ٢١ ، ٢٣ ، ٢٦ ، ٢٧
 ٢٩ ، ٣٠ ، ٣٢ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤٢
 ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٥
 ٨١ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٩٣
 ٩٥ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١١٩ ، ١٣٨

ربض منية عجب : ٢٩٠٠
 » منية عبد الله : ٢٩١
 » منية المغيرة : ٢٩١
 » مورور : ٣٨٦
 ابن ربوة اليهودي ، حنين : ٣٩١
 رجار الإفرنجى = رجار الثانى ، ملك
 صقلية
 رجار الأول : ١٨٧ ، ١٨٦ ، ١٧٨
 رجار (روجر) الثانى ، ملك صقلية :
 ١٧٨ ، ١٧٧ ، ١٧٦ ، ١٧٥ ، ١٦٩
 ١٨٣ ، ١٨٢ ، ١٨١ ، ١٨٠ ، ١٧٩
 ١٩٠ ، ١٨٩ ، ١٨٨ ، ١٨٧ ، ١٨٤
 ١٩٩ ، ١٩٤ ، ١٩٣ ، ١٩٢ ، ١٩١
 ٢٢٧ ، ٢١٠ ، ٢٠٦ ، ٢٠٤ ، ٢٠٠
 ٢٤٣ ، ٢٤٤ ، ٢٢٢
 رجار ملك الفرنج ، صاحب صقلية =
 رجار الثانى ، ملك صقلية
 رجال الدين : ٤٢٥ ، ٤٢٦
 رجوا ، بلد : ٤٤
 الرحالة المسلمون : ٩
 الرحلات ، أدب : ٩ ، ١٠ ، ١١
 ١٢ ، ٥١
 رحلات العلم : ١١
 رحناش Rahmanach : ٢٦٨
 ردان ، نهر Rhodanus : ٤٧
 ابن رز ، أبو القاسم بن عبد الرحمن :

رباط : ٥٨٧
 الرباط : ٨٠
 رباط أبى سعيد : ٤١١ ، ٤١٥
 رباط الفتح : ٥٩٦
 الربض : ٢٩٢
 ربض باب اليهود : ٢٩٠ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣
 » البرج : ٢٩١
 » بلاط مفيت : ٢٩٠
 » حمام الإلبيرى : ٢٩٠
 » حوائت الرياحى : ٢٩٠
 » الدقايق : ٢٩٠
 » الرصافة : ٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣
 » الروض المحدث : ٢٩٠
 » الزاهرة : ٢٩١
 » السجن القديم : ٢٩٠
 » شبلاز : ٢٩١
 » شقنده : ٢٩٠
 » قرن بريل : ٢٩١
 » قوت راشه : ٢٩١ ، ٢٩٣
 » المدينة المتيقة : ٢٩١
 » مسجد أم سلمة : ٢٩١ ، ٢٩٢
 ٢٩٣
 » مسجد الروضة : ٢٩٠
 » مسجد سرور : ٢٩٠
 » مسجد الشفاء : ٢٩٠
 » مسجد الكهف : ٢٩٠

كشاف عام

٦٩٢

الزمان ، حصن : ٣٨٧
 ابن الرند ، المعتر : ٤٩٨
 ابن أبي رندقة = الطراطوشى ، أبو
 بكر محمد بن الوليد
 رندة Ronda : ١٦٢ ، ٣٧٥ ، ٥٨٤
 رندة ، جبال La Serranía de Ronda :
 ٣٧٥
 رنشالة ، جبل ، ممر Roncevalles :
 ٢٧٤ ، ٢٦٤ ، ٦٤
 الرواقيون : ٧
 روبرت جسكار : ١٧٨ ، ١٧٧
 الروبشكين (الروبيكون Rubicon) ،
 نهر : ٤١
 روجر الأول = رجار الأول
 روجر الثانى ، ملك صقلية = رجار
 الثانى
 الروحاء : ٤٤٦
 رودنه (Rhodanus) ، نهر : ٤٣ ، ٤٧
 روزن ، البارون فون : ٧٦ ، ٧٨
 ١٣٧ ، ١٣٦ ، ٧٩
 روزنتال ، فرائتس : ٤٥٣
 الروس : ٧٨ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ٣٢٣
 ٤٨٤ ، ٣٤٩ ، ٣٣٤
 روسيا : ٢٠٨ ، ٢٣٠ ، ٣١٢ ، ٣١٤
 ٣٤٠ ، ٣٣٣ ، ٣١٩
 روط Rhutubi Portus ، مدينة

٣٨٩ ، ٣٩٠
 ابن رزين ، محرز بن خلف : ٣٠٧
 الرستاق : ٨٨
 بنو رستم : ٧٤
 ابن رسته ، أبو على أحمد : ٢ ، ٦
 ١٩٨ ، ٢٠٢ ، ٢١٧ ، ٢٢٢
 ٢٢٤ ، ٢٣٨ ، ٣٧٩ ، ٥٠١
 ابن رشد : ٢٧ ، ٥٣٢
 ابن رشيد السبتي : ٥٢٦
 ابن رشيد الفهرى : ١١ ، ٤١٢ ، ٤٥١
 ٤٦٢
 الرصافة : ٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣
 رصافة بلنسية : ٤٨٦
 رصافة قرطبة : ٤٨٧
 الرصافى الرفاء : ٤٦٧ ، ٤٨٦
 الرصف (الطرق) الرومانية : ٢٨٨
 ٢٨٩
 رصيف أغسطس Via Augusta أو
 الرصيف الأغسطى : ٢٨٧ ، ٢٨٨
 ٢٨٩
 رصيف هرقل Via Hercúlea : ٢٨٧
 رفاعة رافع الطهطاوى : ٤٠
 رفاية ، جبال : ٤٣
 أبو الرقراق ، نهر : ٥٨٧
 الرقيق : ٧٦ ، ٧٩
 رمادة ، ١٦٣

الزجاج : ١٢٧
 زرادشت : ١٣٢
 زريه كاران : ٣١٣
 الزقاق ، بحر : ٤٨٢ ، ٤٨١ ، ٣٨٨
 ٥١٦ ، ٤٨٥ ، ٤٨٣
 ابن الزقاق البلنسى : ٤٨٦ ، ٦٠٠
 زكريا ، عليه السلام : ١٣٢
 زكى محمد حسن : ٤٦٣ ، ٤٦٣
 زكى وليدى : ٣١٥
 الزلاقة ، موقعة : ١٤٧
 زلقطو : ٤٨٢
 ابن زمرك = الشريحي ، أبو عبد الله
 محمد بن يوسف : ٥٥١
 الزنج : ٢٣٣ ، ٢٧٨ ، ٣٤٧
 زنجاب : ٣١٢
 الزنجفور : ٥٤٤
 الزهراء ، مدينة : ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٢
 الزهراوى ، عمر بن عبيد الله بن
 يوسف : ٢٣
 الزهرة ، هيكل : ١٥
 الزهرى ، محمد بن أبى بكر : ٢٢
 ٢٨١ ، ٢٨٢ ، ٣٠٤ ، ٣٥٨ ، ٣٩٤
 ٥١٧ ، ٥٢٩ ، ٥٣٥ ، ٥٣٧
 ابن زولاق ، الحسن : ٤٦٤
 زويلة : ١٤٣
 ابن الزيات : ٢٧٩

روطة : ١٥٣ ، ١٥٤ ، ٦٠١
 روكا ، رأس Cabo Roca : ١٦ ، ١٧
 الروم النريقيون Graeci : ٤٥
 الروم القشتاليون : ٢٥٠
 رومانوس الأول ليكاينوس : ٣٦
 رومانوس الثانى : ٣٦
 روفع بن ثابت الأنصارى : ١٤٢
 الرى : ٣٢٣ ، ٣٢٤ ، ٣٥٣
 ريبيرا ، خوليان Ribera, Julián :
 ٤٥٧
 أبو الريحان البيرونى = البيرونى
 ريكة : ١٨٥
 رعيه ، موضع : ٦٥
 الرين ، نهر : ٣٤
 رينو ، م. Reinaud, M. : ١٧٠
 ٢٤٠
 ريه : ٢٣ ، ٦٠١
 ريه ، جبل Sierra de Málaga :
 ٦٣ ، ٦٤

« ز »

زافون : ٥١٠
 الزاهرة : ٢٩١
 الزاوية ، قرية : ١٦٣
 زايبولد ، فرديناند : ٢٢٧ ، ٢٩١
 ٥٥٣ ، ٥٥٦
 ابن الزبير ، أبو جعفر أحمد : ٢٨٤

ستروزی ، پالا Strozzi, Palla :
٢٣٤

سجستان : ٢٠٢، ٢١٩، ٢٢٠، ٣٥٣

سجسین : ٣١٤، ٣١٥، ٣٢١، ٣٢٢
٣٢٣، ٣٢٤، ٣٣٦

سجلماسة : ٧٣، ٧٤، ١٤٥، ١٤٦

٣٠٧، ٣٢٤، ٣٤٤، ٥٠٩، ٥٨٧

السخاوی : ٤٥٣

سجسین : ٣١٤، ٣٤٦

سر من رأی : ١٢

السراة ، جبل : ١٢٧، ٣٢٨

سرتة Almonacid de Zurita : ٢٥٩

السرخی ، أحمد بن محمد بن مطیب :
٢١٦

سردانية ، جزيرة : ٤٧، ٣٠٧، ٣٤٧

٤٤٠، ٤٤١

سرقسطة Zaragoza : ٦٩، ٧٠

٨٣، ٨٥، ٩١، ٩٣، ٩٦، ١٥٣

١٥٤، ٢٤٦، ٢٦١، ٢٨٤، ٢٨٦

٢٨٧، ٢٨٨، ٣٢٧، ٤٥٦، ٤٨٤

٤٨٧، ٦٠١

سرمن : ٣٨١

سرندیب ، جزيرة : ٢٠٩، ٣٢٨

٣٣٠، ٣٤٧، ٣٥٣

السروچی ، أبوزید : ٥٨٠

السطاسی ، أبو موسى عیسی بن داوود

الزیتون : إقليم : ٢٦١، ٣٧٥، ٥٤٥

الزیتون ، جبل : ٤٠٩

الزیتون ، نهر el Cinca : ٢٦١

الزیج ، الزیوج : ١٩٩، ٣٥٩، ٣٦٠

٣٦١، ٣٦٢، ٣٦٣

بنو زری : ١٧٨، ١٧٩

زیلع : ٣٤٥

« س »

سادو ، نهر Rio Sado : ٣٨٣

سارتون ، جورج Sarton, Georges :

٣٠٦، ٤٦٢، ٤٦٣، ٤٧٧

سافدرا ، إدواردو Saavedra, Eduardo :

٢٤٦، ٢٥٣، ٢٥٤، ٢٦٦

٢٦٩، ٢٧٤

الساقية : ٩٥

سام بن نوح : ٤١

السامویون ، شعب : ٣٣٤

سان بیثنی (فیثنی) ، رأس Cabo

San Vicente : ١٥، ١٧، ١٨

٥١٣، ٥١٥

سان لوکار San Lúcar : ١٣٤

سانتاماریا ، سفينة : ٤٢٥

سبته : ١٤٥، ١٧٢، ١٧٥، ٤٣٧

٤٣٩، ٤٤٠، ٤٨٥، ٤٨٧، ٤٩٢

٥٣١، ٥٣٣، ٥٣٤، ٥٨٥، ٥٨٦

السیكة ، جبل : ٣٨٦

سقوت = سواجات البرغواطي
 سكسيني : ٣١٤
 سقوت = سواجات البرغواطي
 سكياباريلي ، لويجي Schiaparelli,
 Luigi : ٣٦٨، ٢٣٠، ٢٢٢، ٢١٣
 ابن السكيت : ١٢٧
 سلا : ٥٧٥ ، ٥٧٢ ، ٥٥٤ ، ٤٩٢
 ٥٨٠ ، ٥٧٩ ، ٥٧٨ ، ٥٧٧ ، ٥٧٦
 ٥٨٦ ، ٥٨٥ ، ٥٨٤ ، ٥٨٢ ، ٥٨١
 سلاجقة الروم : ٣٢٣
 سلجوقه بنت السلطان مسعود : ٤٤٩
 سلسلة الجبال الإيبيرية El Sistema
 Ibérico : ١٠٥
 سلمندر Salamander : ٣٣٤
 سلمنقة : ٢٨٩
 السلمي المرسى ، أبو عبد الله محمد بن
 أبي الفصل : ٤٧٢
 السليطين ١٥٣
 بنو سليم : ٤١٤ ، ٤١٥
 سليم الأسواني : ٢٧٨
 سليمان ، عليه السلام : ٣٢٧
 سليمان التاجر : ١٩٨ ، ١١
 سليمان بن الحكم المستعين : ١٧١
 السمعاني : ٣٣٠
 السمهودي : ٥٥٥
 سمورة Zamora : ٢٨٩ ، ٢٦٩

ابن عشرين : ١٤٦
 السعادات (فرطناطش ، فورتوناتوس) ،
 جزائر : ٥٠٤ ، ٢٧٦ ، ٢٠٧ ، ٥
 ٥١٦
 بنو سعيد : ١٥٦ ، ١٥٢ ، ١٥٠ ، ١٤٩
 ١٦١ ، ١٦٠ ، ١٥٩ ، ١٥٨ ، ١٥٧
 ٤٧١ ، ٤٦٨ ، ٤٦٦ ، ١٦٤ ، ١٦٢
 أبو سعيد بن الأعرابي : ٣١
 سعيد بن خلف : ١٥٢
 أبو سعيد السكري : ١٢٦
 أبو سعيد بن عبد المؤمن : ٤٢٩
 ٤٥٣ ، ٤٣٦ ، ٤٣١
 سعيد العريان : ١٠٧
 ابن سعيد المغربي ، أبو الحسن علي
 ابن موسى (انظر على بن سعيد) :
 ١٧٤ ، ٤٣ ، ٥٩ ، ١٣٧ ، ١٧٤
 ٤٢٧ ، ٢٩٩ ، ٢٤٤ ، ٢٣٦ ، ٢٣١
 ٤٦١ ، ٤٥٨ ، ٤٥٤ ، ٤٥٣ ، ٤٣٣
 ٥٥٨ ، ٥٤٧ ، ٥٢٨ ، ٥٢٦ ، ٥١٧
 سفنتم ، سفونتوم Saguntum ، بلدة :
 ٩٢ ، ٨٨
 السنوتيون Los Saguntinos : ٨٨
 سفالة : ٢٧٨ ، ٢٣٣
 ابن السقاط = إبراهيم بن محمد بن
 يحيى : ١١٧ ، ١١٨
 سقسين : ٣١٤ ، ٣١٨

سويجين ، بلد : ١٤٣
 سويسرا : ٢٣٣، ٥
 السويف ، قبائل : ١٨
 سيبيريا : ٣٣٤، ٣١٢
 السيجر ، نهر el Segre : ٢٦١
 سيجونتو : ٢٤٦
 السيد القمبيطور : ٢٤٦
 سيدة الكاشف : ٤٦٣
 ابن سيده الرسي : ٥٩٨، ١٦٦
 سيرا سيكا Sierra Seca : ٥١٦
 سيكو دي لوثينا ، لويس Seco de
 Lucena, Luis : ١٧٢ ، ٥٦٤
 سيراف : ٣٤٧
 السيراتي ، أبو زيد : ١٩٨
 سيرا مورينا ، جبال Sierra Morena :
 ٤٨٩، ٣٨٥
 سيرانيافادا : ٥٥٩
 سيسموندى : ٤٢٣
 السيف ، قنطرة Alcacer do Sal :
 ٦٠١، ٤٥٩، ٣٨٣، ٢٦٠
 السيلي ، جزائر : ٥٠٢، ٥٠١
 سيمون بن روجر الأول : ١٨٧، ١٧٨
 سيميرسك : ٣١٦
 ابن سينا : ٥٦٠، ٢٢٦
 سيناء : ٤٣٢
 السيوطى : ٤٧٥، ١٢٢، ١١٧

سنجيل : ٦٥
 السند : ٣٩٣، ٣٨٠، ٢٢٠، ٢١٩
 سندباد : ٤١٩
 السنغال : ٥٠٧
 سنقفون Sahagón : ٢٦٥
 السهلة : ١٠٤
 سهلة بنى رزين (اليوم Albarracín) :
 ١٠٤
 سهم (= قسم = قارة) : ٤١
 سهيل ، قرية Fuengirola : ٥٨١
 ٥٨٢
 سهيل ، النجم : ٣٣١
 سواجات البرغواطى ، ويسمى أيضاً
 سقطت أو سكوت : ١٧٥، ١٧٢
 سواش : ٣١٥
 السودان : ٢٤٨، ٢٤٥، ٢٠٩، ٨٦
 ٥٠٥، ٣٨٠، ٣٤٥، ٣٤٤، ٢٥٠
 ٥٣٥، ٥١٠
 السودان الغربى : ٥٣٤، ٥٠٧
 السور : ٥٩٤
 سوريا Soria : ٢٦١
 السوس ، إقليم : ٥٢٤، ٣٥٣، ١٤٧
 السوس الأقصى : ٣٧١، ٣٧٠
 سولى Sansol : ٢٦٥
 سومطرة : ٢٧١
 سون -- ديانا ، ملك مالى : ٥٠٨

شبه الجزيرة الإيبيرية : ١٤، ١٢
 ٤٧، ٤٢، ٣٢، ٢١، ٢٠، ١٨
 ٦٥، ٦٣، ٦٢، ٦٠، ٥٩، ٥٤
 ١٠٥، ١٠٤، ١٠٣، ٩٤، ٩١
 ١٧٥، ١٧١، ١٤٠، ١٣٩، ١٣٨
 ٣٠١، ٢٦٤، ٢٦٣، ٢٤٥، ٢١٢
 ٥٤٢، ٤٥٧
 شبه الجزيرة الإيطالية : ١٨٦
 شبه الجزيرة العربية : ١٣٥، ١٢٦، ٤٤٦
 الشجر ، بلاد : ٣٤٥
 شذونة : Medina Sidoña : ٨٣
 ١٥٩، ٢٥٤، ٢٥٥، ٢٨٩، ٥٤٤
 ٦٠١
 شرشال : ٢٣٦، ٢٣٧
 الشرف ، إقليم Aljarafe أو Ajarafe :
 ٣٨٤، ٣٨٥، ٥٤٥
 شرف إشبيلية : ٢٥٧، ٢٥٨
 ابن شرف ، أبو الحسن علي : ٣٩٨
 شرمطغم Sarmaticum : ٤١
 شروان : ٣٤٩، ٣٥٠
 الشريحي ، أبو عبد الله محمد بن يوسف
 المعروف بابن زمرك = ابن زمرك
 شريش Jerez de la Frontera : ٤٧٠
 ٤٩١، ٥٤٥، ٥٩٨
 شريشة Jerez de los Caballeros :
 ٢٦٠

« ش »

الشارات ، إقليم : ٢٦١
 الشارات ، جبال : ٢٤٦، ٢٥٠، ٢٥٥
 ٣٧٣
 شارقة : ٦٧
 الشاشي ، أبو بكر : ٤١١
 ابن الشاط ، أبو القاسم : ٥٣١
 شاطبة : ٦٧، ٨٦، ٨٧، ٩١، ٩٢
 ٢٥٨، ٤٢٩، ٥٥٩، ٦٠١
 شاطي الشمس La Costa del Sol :
 ٤٨٥
 الشافعي ، الإمام محمد بن إدريس :
 ٣١٥، ٣٩٧
 ابن شاعر الرياضي ، محمد بن موسى :
 ٣٦٠
 ابن شاعر الكتي : ٤٦٢، ٤٧٤
 شالاندون : ١٧٩
 شالة : ٥٨٧
 الشانون ، نهر : ٥٠
 شاويه : ٤٤٢
 شبالش Jubiles : ٥٨٤
 شبالش Xupiles : ٥٦٧
 شبرب : ٦٧
 شبلاز : ٢٩١
 شبه الجزيرة = شبه الجزيرة الأندلسية =
 شبه جزيرة إيبيريا (إيبيرية) =

كشاف عام

٦٩٩

Algarve : ٢٦٠
 سنت ياقب ، ياقوب ، ياقوه Santiago
 de Compostela : ٢٦٣ ، ٢٥١
 ٤٨٣ ، ٢٧٤ ، ٢٧٠ ، ٢٦٩ ، ٢٦٤
 ٤٨٩
 سنت ياقوب ، نهر Rio de Santiago :
 ٢٧٠
 شنتبرية Santaver : ١٠٤ ، ٦٠١
 سنطرة Cintra : ٣٢٧ ، ٣٠٠ ، ٢٦١
 ٣٨٣
 شنترين Santarem : ٢٤٧ ، ٢٤٦
 ٦٠١ ، ٢٦١
 شنتمرية ، بلد : ١٠٤
 شنتمرية Faro ، نهر ٥١٣
 شنتمرية الشرق : ١٠٤
 شنتمرية الغرب : ١٠٤
 شنيل ، نهر : ٥٧٣ ، ٥٦٦ ، ٥١٥ ، ٦٥
 شهاب الدين أحمد القرزي : ٢٢٩
 شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت
 الحموي = ياقوت الحموي
 شهزور : ٣٥٣
 الشواين Suevi ، قبائل : ٤٤
 شواز : ٣١٥
 شوقي ضيف : ١٥٧ ، ١٥٠ ، ٤٥٦
 ٤٧٧ ، ٤٧٥ ، ٤٦٦ ، ٤٦٥ ، ٤٦٢
 ٤٨٠ ، ٤٧٩ ، ٤٧٨

الشريف الإدريسي = الإدريسي ،
 الشريف
 الشعبي : ١٢٨
 شفلودي : ٤٣٥
 شقر ، جزيرة : ٨٦ ، ٦٨ ، ٦٧
 شقر ، نهر : ٦٦
 شقنדה Seconda : ٤٥٩ ، ٢٩٢ ، ٢٩٠
 ٤٦٠
 الشقندي : ١٥٨
 شقورة ، جبل Sierra de Segura :
 ٥١٦ ، ٥١٥
 شقورة ، نهر : ٥١٦ ، ٥١٥ ، ٥١٤
 شلب Silves : ١٦٣ ، ١٥٥ ، ١٥٢
 ٥٧٩ ، ٥١٣ ، ٤٧٠ ، ٢٨٨ ، ٢٦٠
 ٦٠١
 شلطيش ، جزيرة : ١١٢ ، ١١١
 ٥١٣ ، ٤١٨ ، ١١٥ ، ١١٤ ، ١١٣
 ٥١٤
 شلمنكة : ٥٩٨
 شلة : ١٤٦
 شلوبانية Salobreña : ٥٨٣ ، ٥٦٧
 شلير ، جبل : ٥٥٩ ، ٣٧٠
 الشمال ، بلاد : ٢٤٩ ، ٢٤٤
 شنا ، نهر Scenae Flumen : ٥٠
 ابن شنب ، محمد : ٥١٨
 شنت مارية Santa María de

الصخرة ، حصن : ٥٦٩
صرت : ١٧٨
الصعيد : ٥٢٨
الصعيد الأعلى : ٤٣٢
صفاقس : ١٩٥
الصفدي ، صلاح الدين حليل بن أيك :
١٩٠ ، ١٨٩ ، ١٧٧ ، ١٦٨ ، ١٢٠
١٩٣ ، ١٩٤ ، ٢٠٦ ، ٣١٠ ، ٣١٣
٤٧٦
الصفراء : ٤٤٦
الصفراوي ، أبو القاسم : ٢٩٧
صفة الأرض : ٣٥٩ ، ٣٦٤
صفة صورة الأرض : ٣٥٩
الصفحة : ١٩٩
صقالبة الغرب : ٧٧
صقلية الإسلامية : ٢٤١
صلاح الدين الأيوبي : ٢٩٦ ، ٢٩٧
٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٣٠٢ ، ٤٢٧ ، ٤٣٦
٤٣٧ ، ٤٣٨ ، ٤٥١
صلاح الدين عثمان هاشم : ٣٥٧
٣٩٥ ، ٥٣١
الصليبيون : ٤٣٣ ، ٤٤٥
بنو صمادج : ١١٩
صنماء : ٣٤٥ ، ٣٨١
صنم جليقية : ١٥
صنم قادس : ١٥ ، ٣٨٧ ، ٣٨٨

شولتن ، آدولف : Schul'ten, Adolf :
١٤٠ ، ٢٠
شبيه ، جبل Mons Aseuva : ٢٦٦
٣٧٤
ابن الشيخ البلوي : ١٢٢
الشيخ القادسي : ٢٦٩ ، ٢٧٨
شيربونو Cherbonneau : ٥١٨ ، ٥١٩
شرون ، حصن Serón : ٥٧٤
شيزروا ، ممر : ٢٦٤
الشيعة : ٢٩٧
شيفر ٧٨

« ص »

ابن صاحب الصلاة ، أبو مروان :
٥٥٠
الصاحب بن عباد : ٥٧١
صاعد بن أحمد الأندلسي : ٥٤١ ، ٥٥٨
أبو صالح زموور البرغواطي : ١٤٦ ، ٧٤
صالح بن عبد الله بن الحسن بن الحسن
ابن علي بن أبي طالب : ٢٣٦
الصالح نجم الدين أيوب : ٤٧٢ ، ٤٧٣
صالحه Zalia : ٥٨٤
صبرة Sabratha : ١٤٢
صحراء Zafra : ٢٨٨
الصحراء الكبرى : ٢٣٦ ، ٢٣٩ ، ٣٠٧
٥٠٩
ابن الصحراوية : ٥٠٧

طاهر بن عبد الرحمن ، أبو التقي :
٥٥٠ ، ٥٣٧
الطبائع الأربع : ٧
طبرستان : ٣١٦ ، ٢٢٠
طبرنش Tabernas : ٥٨٤ ، ٥٦٨
الطبرى ، محمد بن جرير : ٤٩٥
طبيرة Tavira : ٥٩٨ ، ٥١٣ ، ٣٨٣
طرابلس : ١٧٩ ، ١٧٨ ، ١٧٦ ، ١٤٢
٤١٣ ، ٣٩٧ ، ١٩٥
طراجية Thracia ، بلد : ٤٥ ، ٤٤
طربليطه Tripolitania : ١٤٢
طرخان خاقان : ٣١٤
طرسونة : ٧٠ ، ٦٩
طرطوشة Tortosa : ٧٦ ، ٦٤ ، ٦٣
٢٨٨ ، ٢٦٣ ، ٢٦١ ، ٢٤٧ ، ٨٥
٦٠١ ، ٥٩٨ ، ٥٥٩ ، ٥٣٩ ، ٢٨٩
الطرطوشى ، أبو بكر محمد بن الوليد
المعروف بابن أبي رندقة : ٣٠٨
٤٠٨ ، ٤٠٠ ، ٣٩٨ ، ٣٣٠
الطرف الأغرى ، رأس : ٣٧٣ ، ١٨
طرف العران : ٥١٥
» الغراب : ٥١٥
» الزيران : ٥١٤ ، ٥١٣
» اليهودى : ٣٧٣
الطرق الرومانية Viae Romanae :
٢٨٧

صنم هركلش : ٤٢
صنهاجة : ٥١٠ ، ٣٤٥
صوار : ٣١٥
صواز : ٣١٥
صور : ٤٨٥ ، ٤٥٠
صور الأقاليم : ٢١٧
صورة الأرض : ١٩٠ ، ١٣٣ ، ١٣ ، ٤
٢١٩ ، ٢٠٤ ، ٢٠٣ ، ١٩٩ ، ١٩٤
٣٦٦ ، ٣٦٥ ، ٣٦٤ ، ٣٥٤ ، ٢٣١
٣٦٨ ، ٣٦٧
صورة العالم : ٢١٣ ، ٢٠٦
الصوف ، جبال : ٣٧٥ ، ٣٧٣
الصولياني ، جزيرة : ٣٤٨ ، ٣٤٧
الصومال : ٥٠٧ ، ٢٣٢
الصويرة : ٥١٩
» ض «
الضبي ، أحمد بن يحيى بن عميرة :
١٠٣ ، ١٠٢ ، ٩٨ ، ٨١ ، ٥٩
الضيعة : ٥٦١
» ط «
طاروس الرياح الشرقية : ٢٧٥
طالعة بلج : ٤٢٩
طاليس الملطى Thales of Miletus :
٣٤١
ابن أبي طاهر : ٥٧

٤٥٦، ٤٠٨، ٤٠٣، ٢٩٤، ٢٥٩

٤٧٠، ٤٦٦

طودوشية Theodosia ، مدينة : ٤٢

الطور : ٣٩٨

الطورانيون ، شعب : ٣٣٤

طوس : ٣٩٩

الطوفان : ٥٩٩، ٥٩٦، ٥٩٣، ٥٤٢

الطوق الأخضر : ٥٣٦

الطوق الأزرق : ٥٣٦، ٥٣٥

الطونة ، نهر : ٤٣

طيوطوش : ٨٠

طيفور ، أبو طاهر : ٥٥٥

طيماوس Timoteo الجائليق النسطوري :

٣٥

« ظ »

الظافر إسماعيل بن ذى النون : ٤٥٥

الظاهر بيبرس : ٤٧٢

ظفار : ٣٥٣

« ع »

عاد بن سام : ٣٤٥

العالم الجديد : ٢٧٦

أبو عامر السالى : ٤٨٠

عامر بن محمد بن على الهنتاقى : ٥٩٠

٥٩٣

أبو عامر بن مسلمة : ١٠٢

طركونة Tarragona : ٧١، ٧٠، ٢١

٤٥٨، ٢٨٩، ٢٨٧، ٢٨٤، ٢٦١

٦٠١، ٥٩٨، ٥٣٩، ٤٨٢

طرون ، نهر : ٢٦٩

طريانة : ١٥٩

طريف Tarifa ، جزيرة : ٣٧٣، ٢٥٨

٥٩٨، ٥٦٧، ٤٨٥، ٣٨٨

طشتكين ، الأمير : ٤٤٧

طشقند : ٣٠٦

طشكر ، حصن Tiscar : ٢٦٢

طلائع بن رزيك : ٢٩٨

طلبيرة Talavera de la Reina : ٢٦١

٥٩٨، ٣٨٣، ٢٨٦

طليانه ، طلياطه Tejada : ١١٤

٦٠١، ٥٩٨

طليطلة Toledo : ٨٢، ٧١، ٢٤

١٦٦، ١٥٨، ١٥١، ١٠٤، ٨٥

٢٦١، ٢٥١، ٢٥٠، ٢٤٨، ٢٤٦

٣٩٠، ٣٨٩، ٣٢٧، ٢٨٨، ٢٨٧

٦٠١، ٤٨٤، ٤٨١، ٤٥٦، ٣٩١

طليطلة ، قنطرة : ٤٥٩

طنائى ، نهر Tanai : ٤٣، ٤١

طنجة : ٣٨٨، ٣٦١، ٢٢٠، ١٤٥

٥٩٠، ٥٨٦، ٤٨٥

طنطور : ٤١٠

الطوائف : ١٧٢، ١٦٦، ١١٩، ١٠٩

كشاف عام

٧٠٣

عبد العزيز بن أحمد المغربي : ٢٦٨
 عبد العزيز الأهواني : ٨٣، ٢٢، ٥٥٦
 عبد العزيز البكري : ١١١، ١١٣، ١١٤
 عبد العزيز بن محمد الهنتائي : ٥٩٢
 عبد العزيز الميمنى : ١٢٠، ١٢١، ١٢٢، ١٤٧
 عبد القادر نور الدين : ١٩١، ١٩٥
 عبد اللطيف البغدادى : ٣١٢
 عبد الله الزيرى ، الأمير : ١٠٢، ١٤٧، ٥٥٩
 عبد الله بن إبراهيم بن وزمر الحجارى :
 ٢٣، ١٤٩، ١٦٤
 أبو عبد الله الإشبيلي : ٤٠١
 عبد الله بن بشر السكونى ، أبو عبيد :
 ١٢٨
 أبو عبد الله التجيبي = التجيبي
 عبد الله بن حسين بن عاصم اللقوى :
 ١٢٧
 أبو عبد الله الداعى : ٧٣
 عبد الله الرجراجى : ٥٩٦
 عبد الله بن سعيد بن عمار بن ياسر :
 ٤٦٦
 عبد الله الصاوى : ١٩٦
 عبد الله بن عبد الحكم بن النظام ،
 أبو بكر = ابن النظام

ابن عائشة : ٥٠٧
 بنو عباد : ٣٩٦
 عبادان : ٢٦٧، ٣٤٧
 بنو العباس : ٤٤٨
 أبو العباس أحمد بن الحسين الرازى : ٨٣
 أبو العباس الصينى : ٣٣٠
 العباسيون : ٢٩٦، ٢٩٧، ٢٩٨
 ابن أبي عبد الأعلى : ٣١
 ابن عبد البر ، أحمد بن محمد : ٣١، ٨٣
 ابن عبد البر النمرى ، أبو عمر يوسف :
 ١٦٦
 ابن عبد الحكم : ١٤٤
 ابن عبد ربه ، أحمد بن محمد : ٣٠
 عبد الرحمن الداخل : ١٥٧، ٥٤٣، ٥٥٦
 عبد الرحمن بن رمضان المعروف
 بالقاضى : ١٨٨
 عبد الرحمن بن محمد بن عبد الملك بن
 سعيد : ٤٦٧
 عبد الرحمن بن محمد بن عمر البشيرى
 الصقلى : ١٨٨
 عبد الرحمن الناصر : ٣٠، ٣١، ٣٥
 ٣٧، ١٣٦، ٣٨٢، ٤٥٥، ٦٠١
 ابن عبد السلام الناصرى : ٥٢١، ٥٢٣، ٥٢٢

عبد المؤمن بن علي : ١٩٣ ، ٣٩٩

٤٠٢ ، ٤٠٣ ، ٤٣٠ ، ٤٩٩

ابن عبد الواحد الفافقي ، أبو القاسم

محمد — المعروف باللاحى = الملاحى

عبد الواحد المراكشى : ٩٨ ، ١٠٦

١٠٧

العبدري ، أبو عبد الله محمد : ٤٥٣

٥٢٨ ، ٥١٨

العبدري الميورقي ، أبو العباس : ٥١٨

بنو عبيد : ٢٩٦

أبو عبيد البكرى : ١١ ، ١٣ ، ١٥

٢٢ ، ٦٠ ، ٧٢ ، ١٠٦ ، ١٠٨

١١٤ ، ١١٥ ، ١٢٤

أبو عبيد القاسم بن سلام : ١١٧

عبيد الله الشيبى : ٧٣ ، ٧٤

أبو عبيدة السكونى : ٢٦

العبيديون : ٢٩٧

ابن عتبة الإشبيلي ، أبو الحجاج :

٤٧٢ ، ٢٥٦ ، ٥٢٨

عثمان بن ربيعة : ٣٠

عثمان بن عبد المؤمن الموحدي : ٤٦٧

أبو عثمان عبيد الله بن عثمان : ٦٩

عثمان بن عفان : ٤٠١

المعجائبيون : ٢٨١ ، ٣٤٨

عجرد ، جبل : ٣٣٣

عدن : ٣٨١

عبد الله بن عمر : ٣٥٠

أبو عبد الله محمد بن أحمد المقدسى =

المقدسى

أبو عبد الله محمد بن أبي القاسم بن

علي بن حمود : ١٨٧ ، ١٨٨

١٨٩ ، ٢٢٧

أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد

الرحمن القرشى ، المعروف بابن

الأحمر : ١٢٢

أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله

ابن إدريس الحسى = الإدريسي ،

الشريف : ١٩٢

عبد الله بن مسلم بن قتيبة : ٣١

عبد الله بن وهب : ١٢٨

عبد المجيد بن عبدون : ١٠٨

عبد الملك بن حبيب = ابن حبيب

عبد الملك بن سراج بن عبد الله بن

محمد ، أبو مروان — المعروف

بابن المطاهر : ٩٨

عبد الملك بن سعيد بن خلف : ١٥١

١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٥٧

١٦١ ، ١٦٣ ، ٤٦٦ ، ٤٦٧ ، ٤٦٨

عبد الملك بن قطن الفهرى : ٢٥٩

عبد الملك بن مروان : ٢٨

ابن عبد المنعم الحميرى = الحميرى

بنو عبد المؤمن : ٤٩٢

المروس ، جيل : ٢٨٦	العدوة : ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٩٠ ، ٢٠٦
المروق : ٥٦٠	٤٩٢ ، ٤٨٥
العريف : ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤	ابن العديم = ابن أبي جرادة ، كمال
العرين : ٤ ، ٥	الدين بن عمر : ٤٧٣
عسفان : ٤٤٦	ابن عذارى : ٧٣ ، ٧٤ ، ١٠٥ ، ١٤٦
ابن عسكر = محمد بن علي بن خضر	١٨٥ ، ١٧٢ ، ١٧١
المالكي ، أبو عبد الله : ٢٤	العذراء Adra : ٥٦٧
المشارى : ٤٤١	بنو عذرة : ٨٢
عصر الخلافة : ١٠٩	العذرى ، أحمد بن عمر : ٢٠ ، ٤٠
العصر العباسى : ٤٤٩	٤٣ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٧ ، ٧٨
العصر العباسى الثانى : ٤٢١	١٠٨ ، ١٠٧ ، ٩٧ ، ٩٦ ، ٨١ ، ٧٩
المصور القديمة : ٥٣٦	١١٦ ، ١١٩ ، ١٢٣ ، ١٣٣ ، ١٤١
ابن عطية ، القاضى أبو محمد عبد	١٦٤ ، ١٧٣ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ٢٠٢
الحق : ٤٣١	٢٢٣ ، ٢٤٥ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٤
عظوم التونسى : ٣٧٠	٢٥٧ ، ٢٦٢ ، ٣٧١ ، ٣٧٢ ، ٣٧٨
ابن عفيف = أبو عمر أحمد بن محمد	٣٧٩ ، ٤١٨ ، ٤٦٠ ، ٤٩٢ ، ٤٩٦
ابن عقيل ، أبو الوفاء : ٤١١	٤٩٧ ، ٥١٧ ، ٥٣٢ ، ٥٣٧ ، ٥٥٦
العقاب ، موقعة : ١٦١	٥٥٧ ، ٥٨٤ ، ٥٩٩ ، ٦٠٠ ، ٦٠١
عقرووف ، تل : ٣٤٦	العرب العاربة : ١٣٣
عك : ١٢٧	ابن العربى ، أبو بكر : ٢٨٣ ، ٣٩٤
عكا : ٤٢٠ ، ٤٣٣ ، ٤٣٥ ، ٤٤٠	٤١٦ ، ٤١٩ ، ٤٢٨ ، ٤٣٨ ، ٥١٧
٤٤١ ، ٤٤٥	٥١٩
أبو العلاء بن أبى يعقوب النصور :	ابن العربى ، عبد الله بن محمد : ٣٩٦
٤٧٠	٤٠٧ ، ٤٠٨
علم الخرائط : ٣٦٧	المرج : ١٢٧
علم الفلك : ٧ ، ٣٦٢ ، ٣٦٣	عرفة : ٤٠٥

علم الكون : ٣٤٠
 علي : ١٢٧
 علي بن إدريس المتأيد : ١٨٦
 علي بن حمود بن ميمون : ١٧١
 علي بن سعيد المغربي : ١٣ ، ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٥٣ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٥٧
 ١٥٨ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٣ ، ٣٠١
 علي بن أبي طالب : ٣٥١
 علي بن عثمان بن عبد الحق المريني ،
 أبو الحسن : ٥٩٣
 علي بن عيسى بن ميمون : ٣٨٩
 أبو علي النساني : ٨٢
 أبو علي القالي : ١١٧ ، ١٢٦
 علي الناصر لدين الله : ١٧٢
 علي بن نعمة = ابن الحواس
 علي بن يوسف بن تاشفين : ٤٠١ ، ٤٠٢
 علي بن يوسف الحكيم : ٥٦٠
 العماد الأصفهاني : ١٦٨ ، ١٨٨ ، ١٩١
 ١٩٢ ، ١٩٣ ، ٤١٥ ، ٤٦٢ ، ٤٩٨
 عمار بن ياسر : ١٥٢ ، ٤٦٦ ، ٤٧٥
 العالقة : ٣٨١
 أبو عمر أحمد بن يوسف الدلائي : ٢٢
 عمر لائتي ، أو يئتي : ٥٨٩
 عمر بن حسن النحوي الصقلي ، أبو
 حفص : ١٨٨

عمر بن الخطاب : ٤٠٩
 أبو عمر بن دراج القسطلي : ١٠٨
 ١٠٩
 أبو عمر الطلمنكي : ١٠٧
 أبو عمر بن عبد البر : ٣١ ، ٨٢
 عمر بن عبيد الله بن يوسف الزهراوي =
 الزهراوي
 أبو عمر بن عفيف : ٨٢ ، ٩٨ ، ١٠٧
 عمر الهنتاتي : ٥٨٩
 العمري ، ابن فضل الله : ٤٦٦ ، ٤٧٦
 ٤٩٥ ، ٤٩٧ ، ٤٩٨
 عمرو بن العاص : ٣٠٩
 عمروس بن يوسف : ٦٩
 عمود السواري : ٥٢٥
 ابن عميرة = أبو المطرف بن أحمد بن
 عبد الله
 عنان ، أبو فارس : ٥٩٣ ، ٥٩٥
 آل عنس اليحصيون : ٤٧٥
 عنصر النهر : ٩٥
 عوف بن محلم الشيباني : ١١٥
 عون الدين بن هيرة ، الوزير : ٣٠٩
 ٣١١ ، ٣٢٣ ، ٣٢٥ ، ٣٢٦ ، ٣٣٠
 ٣٣٦
 عونة Aonios : ٢٧١
 ابن عياش ، أبو عبد الله : ٤٨٦
 عياض بن موسى بن عياض ، القاضي

غالية ، بلد : ٤٩
 غانة : ٣٧٢، ٣٤٤، ٢٣٦، ١٤٧، ٨٦
 ٥٠٩، ٥٠٨، ٥٠٧، ٣٨١
 غانة ، خليج : ٢٧٩
 ابن غانية : ٥٠٧
 غدامس ، قوم : ٣٤٤
 غرانة : ٣٨١
 الغرب الإسلامي : ١، ٧٥، ٢٢٣
 ٥١٩، ٣٧٢، ٣٦٨، ٣٦٥، ٢٧٩
 ٦٠٠، ٥٤٠، ٥٢٩، ٥٢٦
 غرسية غومس، إميليو، García Gómez
 Emilio : ٤٧٤، ٤٦٥، ٤٦٢
 ٥٧٩، ٥٧٧، ٥٧٥، ٤٩٩، ٤٩٨
 غرمان : ٣٤٤
 غرناطة : ١٥٥، ١٥٢، ١٤٧، ٢٤
 ٢٥٨، ٢٥٥، ٢٥٤، ٢٤٨، ١٥٩
 ٣٥٠، ٣٢٦، ٣٠٦، ٣٠٥، ٢٨٨
 ٤٣٥، ٤٣١، ٤٣٠، ٤٢٩، ٣٨٦
 ٤٦٦، ٤٥٣، ٤٥٢، ٤٣٧، ٤٣٦
 ٥١٤، ٥١١، ٤٩١، ٤٨٩، ٤٦٧
 ٥٥٣، ٥٥٢، ٥٣٣، ٥٣١، ٥١٥
 ٥٥٨، ٥٥٧، ٥٥٦، ٥٥٥، ٥٥٤
 ٥٦٤، ٥٦٣، ٥٦٢، ٥٦٠، ٥٥٩
 ٥٧٥، ٥٧٣، ٥٧٢، ٥٦٦، ٥٦٥
 ٥٨٧، ٥٨٤، ٥٨٣، ٥٧٨، ٥٧٦
 ٥٩٨، ٥٩٠

أبو الفضل : ٤١٢، ١٦٦، ١٢١
 ٤١٥
 عذاب : ٤٤٥، ٤٤٤، ٤٣٤، ٤٣٢
 ٥٢٠
 عيسى ، عليه السلام : ٣٩٨، ١٣٢
 عيسى بن أحمد بن محمد الرازي : ٢٣
 ١٠١، ٨٤
 عيسى بن أبي الأنصار... بن طريف ،
 أبو منصور : ١٤٦
 عين برقان : ٥٨٦
 عين الزاج : ٣٨٤
 عين شمس : ٣٤٦، ٣١٠
 « غ »
 غاطة ، رأس : ١٨، ١٥
 غافق : ٢٦٠
 الغافقي ، أبو إسحاق : ٥٣١
 ابن غالب الغرناطي ، محمد بن أيوب :
 ٤٦١، ٤٥٢، ٦٦، ٢٩
 غالة : ٤٨٢، ٢٨٨، ٤٣
 غالليش ، غاليش ، بلد : ٥٠، ٤٦
 ٦٣
 غالية بليقة ، Gallia بليقة
 Belgica ، بلد : ٤٧، ٤٦، ٤٣
 غالية لندون Gallia Lugdunensis .
 بلد : ٤٧

فارو Varro : ١٧ ، ١٨
 فاس : ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٨٥ ، ٤٠٣
 ٥٩٠ ، ٥٨٧ ، ٥٢٠ ، ٤٩٢ ، ٤٣٧
 فاس الجديدة : ٥٨٧
 فاسكوداجاما : ٢٦٨ ، ٢٧٨
 فاسكونتي ، بيترو Vasconti
 Pietro : ٢٣٤
 ابن فاطمة : ٢٣٦ ، ٢٧٩ ، ٥٠٦ ، ٥٠٧
 ٥١٦ ، ٥١٠ ، ٥٠٩
 الفاطميون : ٧٣ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، ٢٩٦
 ٤٢٢ ، ٣٠٩
 فافان ، تل : ٣٥٣
 فاقولي ، جبل : ٢٣٢
 فاوة ، قوم : ٣٤٤
 فتحى عثمان : ١ ، ٦ ، ١٩٧ ، ٢٠٢
 ٣٦٢
 فته Hita : ٢٥٩
 الفتية المغرورون : ٢٧٥ ، ٢٧٦
 الفحص : ٥٦٥
 الفحص ، إقليم : ٥٦٩
 فحص الأنصار : ٥٧٤
 فحص السلوط Valles de los
 Pedroches : ٢٥٩
 فحص غرناطة : ٥٦٤
 المبخار Alfacar : ٥٦٩
 أبو القدا : ١٧٠ ، ٢٣١ ، ٢٤٠ ، ٢٤٤

الفرناطى ، أبو حامد : ١٠ ، ١١
 ٢٧٥ ، ٢٨١ ، ٣٠٣ ، ٣٥٧ ، ٣٥٨
 ٤١٩ ، ٤١٢ ، ٣٩٤ ، ٣٩٣ ، ٣٨٣
 ٥١٧ ، ٤٢٠
 الغز : ٣١٥ ، ٥٢٨
 الغزال ، يحيى : ٥٤٦
 الغزالي ، أبو حامد : ٣٩٩ ، ٤٠٠
 ٤١٥ ، ٤١١ ، ٤٠٨ ، ٤٠٣ ، ٤٠١
 الغزيرى Casiri : ١٦٩ ، ١٧٣ ، ٢٧٩
 غساسة : ٥٨٧
 الغساني = أبو على الغساني
 غليالم الأول ، ملك صقلية : ١٩٢
 ١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ٢٢٧
 غمارة ، قبيلة : ١٧٢ ، ٥٨٦
 الغنى بالله ، أبو عبد الله محمد : ٥٥٢
 ٦٠٢
 غوركومان : ٣٣٣
 غوشيه Gothia ، بلد : ٤٤
 غيقه : ١٢٧
 « ف »
 فارس : ١١ ، ١٣٦ ، ٢٠٢ ، ٢١٩
 ٢٢٠ ، ٣٣٣ ، ٣٤٦ ، ٣٥٣ ، ٣٧٨
 ٤٩٥ ، ٣٨١
 فارس ، بحر : ٣٤٧
 فارة : ٧٠
 فارو ، حصن Faio : ٢٦٦

٥١٥ ، ١٩٠ ، ١٨٦
فرنسا : ٢٦٣ ، ٢٤٤ ، ١٨٠ ، ١٧٠ :
٤٢٦ ، ٢٧٤ ، ٢٦٧ ، ٢٦٥ ، ٢٦٤
٥٤٥ ، ٤٨٢
فرنش : Fornes ، Fornex : ٥٦٩
فريرة : Ferreira : ٢٥٨
فريش : Firrix : ٢٥٨ ، ٦٩
فرين : ٣٤٠
فزارة ، قبيلة : ١٢٧ ، ٥٦٨
الفزاري ، إبراهيم بن حبيب : ٥
٣٦٧ ، ٣٦٣ ، ٣٦٢ ، ٣٦١ ، ٣٥٩
فستنفلد ، فرديناند ، Wüstenfeld
Ferdinand : ١٣١ ، ١٢٨ ، ١٢٥
٤٩٥ ، ٢٨٣
القساط : ٣٠٩
فصكة بن ومزال : ٥٨٩
ابن فضل الله العمري : ١٣ ، ١٣٧
ابن فضلان ، أحمد : ١٠ ، ٥١ ، ٢٣٩
٣١٦ ، ٣١٥ ، ٣٠٤
ابن الفقيه الحمدي ، أبو بكر بن
محمد بن إسحاق : ١٩٨ ، ٢١٧
فلسطين : ٢٣٠ ، ٣٨٠ ، ٣٩٨
فلوجل ، جوستاف : ٣٩
فليستر ، جيوم : Fillestre, Guillaume
٢٣٤
الفنت : Alpuente : ٢٥٩

٥٠٥ ، ٤٩٧ ، ٤٦٣ ، ٣٣٧ ، ٣١٣
٥١٦
الفدان : ٥٦٠
الفراغة : ٣٨١
فران ، جابرييل : Ferrand, Gabriel
٣٠٦ ، ٣٠٥ ، ٣٠٣ ، ٢٧٢ ، ٢٢٧
٣٥١ ، ٣٤٥ ، ٣٤٠ ، ٣١٩ ، ٣٠٨
٣٥٣
فرانكو ، الجنرال : ٢٨
فراي : ١٩٦
ابن فرج الجياني : ٢٤ ، ١١٧ ، ٤٦٩
أبو الفرج قدامة بن جعفر : ١٠
ابن فرحون : ٤٧٥
فردس ، نهر : Rio Fardes : ٥٧٣
الفرسخ : ٥٠٤
ابن الفرضي ، أبو الوليد : ٢٣ ، ٣١
٢٨٣ ، ١٠١ ، ٩٩ ، ٩٨ ، ٥٧
٦٠١
فرطناطش ، جزائر : ٥
الفرع : ١٢٧
فرغانة : ٣٦١ ، ٣٨١
فرناندو وإزابيلا : ١٣٤
فرناندث جرا ، أوريليانو : Fernández
٢٥٣ : Guerra, Aureliano
٢٥٤
الفرنجة ، الفرنجة : ٥٠ ، ٦٤ ، ١٨٤

« ق »

- قابس : ١٩٢
 القادر بن ذى النون : ١٥١
 قادس : ٢٨٧، ٢٨٤، ٤٩، ٤٨، ٤٢
 ٣٥٨، ٣٤٦، ٣١١، ٣٨٩، ٢٨٨
 ٤٥٨، ٣٨٩، ٣٨٨، ٣٨٧، ٣٨٦
 ٥٧٩، ٥٤٥، ٥٣٧، ٤٨٣، ٤٥٩
 ٦٠١
 قادش Gades : ١٣٩، ٢٠، ١٧، ١٦
 فارة (= قسم = سهم) : ٤١
 قازان : ٣١٦
 بنو قاسم Beni Cásin ، بلد : ٢٥٩
 قاسم بن أصبغ البياني : ٥٦، ٥٥، ٣٠
 ٤١٨، ٥٧
 قاسم بن سعدان : ٢٣
 أبو القاسم الشيعي : ٧٤
 القاسم بن أبي عبد الله محمد بن محمد بن
 أبي القاسم بن حمود : ١٩٥
 أبو القاسم بن علي بن حمود : ١٨٤
 ١٨٧، ١٨٦، ١٨٥
 ابن قاسم القردي ، موسى : ١٩٦
 القاضي ، قنطرة : ٣٨٦
 قاضي القضاة : ١١٠، ١٦٢
 قاضي النصارى : ٣٨، ٣٧
 قاف ، جبل : ٣٤٦، ٢٠٥
 القاهرة : ٢٩٦، ٢٩٥، ٢٤٤، ٤٠

- الفندون : ٩٥
 فنستر ، رأس Cabo Finisterre : ١٥
 ابن فنو : ٥٠٧
 فنيانة Fiñana : ٥٨٤، ٥٧٣، ٥٦٨
 الفهمين Alfamín : ٢٦١
 فؤاد السيد : ٣٦
 فورتوناتوس (السعادات) ، جزائر :
 ٢٠٧
 فورلاني ، جويسبي : ١٦٨
 القولجا ، نهر : ٣١٤، ٣١٢، ١٠
 ٣٥٠، ٣٣٤، ٣٢٤، ٣١٧، ٣١٥
 فولز ، ك. Vollers, K. : ٢٢٩
 ٤٦٢
 ابن أبي الفياض ، أبو بكر أحمد بن
 سعيد بن محمد بن عبد الله : ٩٨
 ٥٩٩، ١٠٧، ١٠٦
 فيتشيزا : ٢٣٤، ٢٣٣
 فيثاغورس : ٣٦٦
 فيشر ، ج. ا. Fischer, J. E. : ٣٣٤
 فيليب الثاني : ٥٦٩
 فيليب حتى : ٣٣
 فيليب الملقب بالهدوى : ١٨٣
 الفينيقيون : ١٤
 فييت ، جاستون Wiet, Gaston :
 ٥٣٠، ٥٢٩، ٣٠٨، ٢٢٩

١٠٠، ٩٤، ٩٠، ٨٩، ٨٣، ٧٣
١١٤، ١١٣، ١١٢، ١١٠، ١٠٣
١٢٠، ١١٨، ١١٧، ١١٦، ١١٥
١٦٣، ١٥٧، ١٤٦، ١٣٨، ١٣٥
٢٤٩، ٢٤٨، ٢٤٦، ١٧٥، ١٧٠
٢٥٩، ٢٥٨، ٢٥٥، ٢٥٣، ٢٥١
٢٨٨، ٢٨٧، ٢٨٤، ٢٨٣، ٢٨٢
٣٨٤، ٣٨٣، ٢٩٤، ٢٩٠، ٢٨٩
٤٦٦، ٤٦٠، ٤٥٩، ٤٠٢، ٣٨٥
٤٨٧، ٤٨٤، ٤٧٩، ٤٧٨، ٤٧٠
٥٤٤، ٥٤٣، ٥٣٥، ٥١٤، ٤٨٩
٦٠٠، ٥٦٦، ٥٥٩، ٥٥٨، ٥٥٥

٦٠١

قرطبة ، أبوابها : ٢٨٩، ٢٨٧، ٢٨٤
قرطبة ، أرباضها : ٢٩٢، ٢٩٠
قرطبة ، جبلها Sierra Morena :
١٠٠ ، ٦٤

قرطبة ، جسرها : ١٠١
قرطبة ، طبوغرافيتها : ٢٩٤، ٢٩٠
قرطبة ، قصبتها : ٢٩١
قرطبة ، قصور الخلافة فيها : ٢٩٣
٢٩٤

قرطبة ، مسجدتها الجامع : ١٠٠
٦٠٠، ٢٩٤، ٢٩٣، ٢٩٢
قرطبة ، نهريها : ٥١٢، ٦٥
قرطمة Cártama : ٥٨٤

٤٤٣، ٤٠٤، ٣٩٧، ٣٠٩، ٢٩٧

٥٢٧، ٤٩٢، ٤٧٥، ٤٧٣، ٤٧٢

٥٢٨

القبايل الجرمانية : ٤٤

القبايل : Alcaudete : ٥٦٧

قبر أبسلوم : ٤١٠

قبرة : ٦٠١، ٤٧٨، ٤٥٦، ٢٥٨

قبة أرين : ٥١٣، ٢٠٧

قبة العرين : ٢٠٧

قبة الفلك : ٢٠٨، ٢٠٧

قبو سمرکه : Capo Sammarco : ٤٤١

ابن قتيبة : ٢٧، ٢٦، ١

قدامة البصرى = قدامة بن جعفر ،
أبو الفرج

قدامة بن جعفر ، أبو الفرج : ١٩٦
٢١٧، ١٩٧

القدس : ٤٣٨

القرازي : ٣٦٣، ٣٥٩

القردي ، موسى بن قاسم : ١٩٧

قرطاجنة Cartagena : ٩٢، ٨٨، ٤٨
٥٩٨، ٤٤٢، ٤٣٥، ٣٩٠

قرطاجنة إسبانيا : ٩٢

قرطاجنة الجديدة : Cartago Nova : ٩٢

قرطاجنة الحلفاء : ١٠٤، ٩٢، ٩١

قرطبة : ٣٧، ٣٦، ٣١، ٢٣، ١٢

٦٩، ٦٦، ٦٤، ٥٩، ٥٧، ٥٦

القشتاليون : ٥٨٢	القرم : ٣١٤
قشتيلة : ٥٩٨	قرمونة : ٢٨٨ ، ٢٨٧ ، ٢٨٤ ، ١١٤
القصب ، إقليم : ٨٩	٥٩٨ ، ٤٧٩ ، ٤٧٨ ، ٤٥٩
القصبه : ٢٩٢	ذو القرنين : ٣٠٨
القصر ، إقليم : ٢٦١ ، ٢٦٠	قريش : ٢٨
قصر إيش (= قصرش = قصر يش)	قريون : Carrión : ٢٦٥
٢٦٠ ، ١٠٤ : Cáceres	قزوين ، بحر : ٣١٧ ، ٣١٤ ، ٧٧
قصر ابن أبي دانس : Alcocer de Sal	٣٤٧ ، ٣٢٤ ، ٣١٨
٢٦٠ ، ٢٥٧	القزويني : ٣٤٣ ، ٣٤١ ، ٢٧٥ ، ٧٨
قصر عبد الكريم : ٥٨٦	٣٥٧ ، ٣٥٤
القصر الكبير : ٥٨٦	قسيورية ، جزيرة : Castiopa : ٤٥
قصر كتامة : ٥٨٦	قسطاليون : ٦٧
قصر مصمودة : ٤٨٥	قسطنطين السابع ، المعروف بيورفيرو
قصر الناعورة : ١٠٠	جينيوتوس : ٣٦
قصرش = قصر إيش	قسطنطين الكبير ، إمبراطور الدولة
قصر يش = قصر إيش	البيزنطية : ٩١ ، ٣٣
قصريانه : Castrogiovanni : ١٨٤	قسطنطينية : ٥٢١ ، ٣٠٧ ، ٤٤
١٨٧ ، ١٨٦	القسطنطينية : ٤٥٠ ، ٣٥١ ، ٤٢ ، ٣٦
القضاعي ، أبو جعفر أحمد بن حسان :	٤٨٤
٤٣١ ، ٢٠١	قسطيلية : ٥٥٧ ، ٢٦٥
ابن القطان : ٣٠١ ، ٢٩٩ ، ١٧١	قسم (= سهم = قارة) : ٤١
القطب : ٢٠٤	قسم إداري : ٩٤
القطب الجنوبي : ٥٣٦	قسمة قسطنطين : ٩١ ، ٨٤ ، ٧٢ ، ٧١
القطب الشالي : ٢٠٨	١٤١ ، ٩٤ ، ٩٣ ، ٩٢
القطبان : ٧	قشتالة : Castilla : ٢٤٧ ، ١٥٣ ، ١٥١
قطلونية : ٢٦٤ ، ٢٦١ ، ٢٤٩ ، ٢٤٧	٢٨٤ ، ٦٥١ ، ٢٥٠

قنجة St. Bertrand de Cemingés :

٢٦٥

قمة أبو الحسن Mulhacén : ٣٨٤

القنال الإنجليزي : ٤٨٣

قناش Canales : ٥٧٤ ، ٥٦٦

قنب قيس : ٥٦٧

قنب اليمين : ٥٦٧

القنبانية Campinia : ٥٥٩

قنتابرية ، مدينة : ٤٨

قنتورية Cantoria : ٥٨٤

القنطرة ، قرية : ٤٤٧

قنطرة الحرائين : ٣٨٦

القنلية (حيوان) : ٤٨٧

القواطم : ٢٥٨ ، ٢٥٥

قوته راشه : ٢٩٣ ، ٢٩١

قوتش ، جبل Cottias : ٤٧

قورية Coria : ٢٨٩ ، ٢٦٠

قوسمرکه = قبوسمرکه

قوص : ٢٣٧ ، ٤٣٢ ، ٤٤٣ ، ٤٤٤

ابن القوطية : ٣٠ ، ٥٩٩

القوقاز : ٣١٤ ، ٣١٧ ، ٣١٨ ، ٣٢٠

٣٣٣

قوقو ، قوم : ٣٤٤

قونية : ٣٢٢ ، ٣٢٣ ، ٣٣٦

القياس البحري : ٢٧١

قيجاطة : ٥٩٨

بنو قطن : ٢٥٩

القفر ، إقليم : ٢٦٠ ، ٢٦١

قفصة : ١٩٣ ، ٤٩٨

ابن القفطى : ٣٦١ ، ٤١٨ ، ٥١٢

القلمزم ، بحر : ٢٦٧ ، ٣٤٧ ، ٣٧٨

٣٨٠ ، ٣٨١

قلعة أسطير : انظر قلعة بنى سعيد

قلعة أيوب Calatayud : ٧٠ ، ٢٦١

قلعة خولان : ٤٧٠

قلعة رباح Calatrava : ٢٥٩

قلعة بنى سعيد ، المرووفة بقلعة

يحبس ، وتعرف اليوم باسم

Alcalá La Real : ١٥٣ ، ١٥٢

١٥٩ ، ٤٦٥ ، ٤٦٧ ، ٤٧١ ، ٥١١

٥٦٧

قلعة يحبس = قلعة بنى سعيد

القلقشندى : ٤٩٥ ، ٤٩٧ ، ٤٩٨

٥٢٩

قلمرية Coimbra : ٢٥٠ ، ٢٦١ ، ٢٦٩

قلمهرة : ٧٠

قلوبش : ٥٦٩

قلورية : ١٩٩

القلية Alcolea : ٥٦٧ ، ٥٦٨

قاراش Comares : ٥٨٣

القمر ، جبل : ١٣٥ ، ٢٣٢ ، ٥٠٤

٥٠٨ ، ٥٠٦

- كتامة ٥٨٦
 كترمير ، إتيين : ١٦٨ ، ٢٤٠
 كتندة Cutanda : ٢٦٢
 كدية : ٥٦٠
 كراتشكوفسكي ، إجناس (إغناطيوس)
 يوليانيوفتش : ٣٣ ، ٣٠٦ ، ٣٥٧
 ٤٥٢ ، ٤٣٠ ، ٤٢٩ ، ٣٩٥ ، ٤٦٢
 ٥١٨ ، ٤٧٧ ، ٤٦٥ ، ٤٦٣ ، ٥١٩
 ٥٣١ ، ٥١٩
 الكرال Kraal : ٥٩٤ ، ٥٩٣
 كرامرز ، ج. ه. : Kramers, J. H.
 ٢٢٧ ، ٢١٩ ، ٥١ ، ١٣ ، ١١ ، ٣
 ٣٦٢ ، ٢٢٨
 الكربات ، جبال : ٣١٩ ، ٣٢٤
 ٥٤٦
 كرمان : ٢٠٢ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٣٤٧
 ٣٥٢
 كروماندل : ٣٤٧
 كروية الأرض : ٦ ، ١٣٤ ، ٢٠٤
 ٣٤٦ ، ٢٢٤ ، ٢٢٢ ، ٢٠٦ ، ٢٠٥
 ٣٧٩ ، ٣٤٩
 كرة الأرض : ٢٢١ ، ٥٣٦
 الكرة الأرضية : ٢٠٤ ، ٢٤٢
 كسرى ، إيوان : ٣٤٦
 كسرى ، طاق : ٣٤٦
 كشطالي Castello de Chiver : ٢٦٢
- القيروان : ٣١ ، ٧٣ ، ١٤٣ ، ١٩٢
 ٣٧٠ ، ٣٥١ ، ٣٠٧ ، ٢٢٠
 قيس ، جزيرة : ٣٤٧
 قيس قرية : ٣٠٦
 قيس عيلان : ٣٠٦
 القيطوم : ٣٨٢
 « ك »
 كابل : ١٩٦
 الكاتا كومب : ٤٤٣
 كاثورلا ، جبال Sierra de Cazorla :
 ٥١٦
 كارلوس الثاني ، ملك اسبانيا : ٢٨
 كازارا Cazzara ، حي المسلمين في بلرم :
 ١٩٣
 ابن الكازروني : ٣٩٨
 كاستيخوت ، رافائيل Castejón,
 ٢٩١ : Rafael
 الكاف ، جبل : ٥١٠
 كالابريا : ١٩٩
 كالينيو ، أمبروز Calpinus,
 ٣٦٢ : Ambrosius
 كالش ، نهر Queiles : ٦٩
 الكاليكستيني Calixtino : ٢٧٤
 كاتون : ٢٧١
 كاوار : ١٤٣
 كبتور : ٥٩٨

- كودازى ، انجيلو : ١٩٧
كوديرا ، فراثيسكو : ١٠ ، ٣٨٣
٣٨٩
كورونيا : ٢٠
الكورة الثغرية : ٩٥
الكورة العسكرية : ٦٨
الكوزموجرافية Kosmographie
Cosmography : ٣٤٠ ، ٣٤١
٣٥٧ ، ٣٥٣ ، ٣٤٢
الكوزموجونية Cosmogony : ٣٤١
الكوزمولوجية Cosmology : ٣٤٠
الكوفة : ٤٤٦ ، ٤٣٢
الكوكو ، قبيلة : ٣٠٧
كولان : ١٤٦ ، ٧٤
كولوملا Colomella : ٣٤
كولومبوس ، كريستوفر : ١٣٤ ، ٢٧٦
٤٢٤
كوندى ، يوسف أنطونيو Conde,
José Antonio : ٢٤٦
كونك ، ا. : ٧٨ ، ٧٩
كونكة Cuenca : ٢٥٨ ، ٢٥٦ ، ٢٥٥
٣٠٦
كونيك ، ا. Kunik, A. : ٧٦
١٣٧ ، ١٣٦
كيس ، جزيرة : ٣٤٧
كيف : ٣١٧ ، ٣٢٤ ، ٣٣٤ ، ٣٤٤
- كعب بن سليم : ٤١٣ ، ٤١٤
بنو كعب بن سليم : ٣٩٧
كلابريا : ١٧٨
كلاوديوس بطليموس = بطليموس
الاسكندرى : ١٥ ، ٤
كلاوديو سانشيث ألبرنوث Claudio,
Sánchez Albornoz : ٧٢
كلب ، قبيلة : ١٢٧
الكلت ، رأس Promentium
Celticum : ١٨
الكلدانيون : ٧
كثرى الأرزة peras de San Juan :
٤٨٦
الكلنارياس ، جزر : ٢٠٧ ، ٢٧٦
٢٧٧ ، ٢٧٨ ، ٥٠٤
الكنائس : ٥٦٩
الكنبانية Campinia : ٢٥٨ ، ٢٥٥
٥٥٩
كنتيرية ، جبال Pirineos Cantabrios :
١٠٥ ، ٢٦٦ ، ٣٧٤
كنون ، عبد الله : ١٧٣
كنيسة الغراب ، رأس : ١٥ ، ٥١٣
٥١٥
الكنيسة المسيحية : ١٨
كوار ، بحيرة : ٥٠٥ ، ٥٠٧
كوبرنيك : ٢٢٤

لشدانية Lusitania : ٩٣ ، ٩٢
 لطفى عبد البديع : ٤٥٣ ، ٤٥٢ ، ٦٦
 ٤٥٥ ، ٤٥٤
 لفشتقو ، خليج Ligusticum sinum :
 ٤٦
 لقنت Alicante : ٤٨٨
 اللكام ، جبل : ٣٢٨
 لكليرك : ١٩٥
 لبردية ، لومبارديا ، سهل : ١٩٩
 ٥٤٦
 اللبارديون Lungubardi : ٥٤٦
 لطة ، قبيلة : ٣٤٥
 لميونة ، جبل : ٥١٠
 لنقبرذية : ٥٤٦
 ابن لميعة : ١٤٤
 لواتة : ١٤٢
 لوح الترسيم : ٢١٢ ، ٢١١ ، ١٩٩
 ٢١٤
 لورقة Lorca : ٩٥ ، ٩٢ ، ٩١ ، ٧٨
 ٥٨٤ ، ٥٤٦ ، ٩٦
 لورة Lora : ٢٥٨
 لوشة Loja : ٣٥٠ ، ٣٢٦ ، ٢٤
 ٥٨٤ ، ٥٦٦
 لويس ، أرشيبالد : ٤٤٢
 الليث بن سعد : ١٤٤
 ليفيكي ، تادويتس Lewichi, Todeusz :

« ل »

اللاب ، بلاد Lapland : ٢٠٨
 لاينتا ، سفينة : ٤٢٥
 لآرى ، البارون ماس : ٤٤٢
 اللاتين : ٧٦ ، ٦٢ ، ١٢
 اللاذقية ، بحر : ٣٤٧ ، ٣٠٧
 لاردة Lérida : ٢٨٨ ، ٢٦١ ، ٢٤٧
 ٦٠١ ، ٤٥٦ ، ٢٨٩
 لانيليا ، سفينة : ٤٢٥
 لب بن سعيد : ٤٨٧
 ابن لبابة = أبو عبد الله محمد بن عمر
 لبدة Leptis Magna : ١٤٢
 لبرنقش ، جزائر Liburnicas : ٤٥
 لبرنقو ، خليج Sinum Liburnicum :
 ٤٦
 لبلة Niebla : ١١٢ ، ١١٠ ، ٨٣
 ٦٠١ ، ٥٩٨ ، ١٦٣ ، ١١٣
 لبوريه ، خليج Sinum Liburicum :
 ٤٥
 لبيرة : ٥٥٦
 لجار = رجار = روجر الثانى ملك
 صقلية
 اللجاة ، مدينة : ٣٤٦
 لجرونيو Logroño : ٢٦١
 لسان الدين بن الخطيب = ابن الخطيب
 لشبونة : ٢٦١ ، ٢٥١

مالك ، الإمام : ٣١٥
مالك بن محمد بن عبد الملك بن سعيد :
٤٦٧
مالى ، جمهورية : ٥٠٨ ، ٥٠٧
المأمون ، الخليفة : ٣٥٩ ، ٨١ ، ٥
٣٦٧ ، ٣٦٤ ، ٣٦٣ ، ٣٦٠
المأمون بن ذى النون : ١٥١
مان ، جزيرة : ٥٠
المانش ، بحر : ٤٨٣
ما وراء النهر : ٢٢٠ ، ٢١٩
مايرهوف ، ماكس : Mayerhof, Max :
٢٢٥
المتحف البريطانى : ٥٠١ ، ٣٨٨
مترابل : Motril : ٥٨٣
المتنبى ، أبو الطيب : ٤١٤ ، ١٥٠
المتوكل ، الخليفة : ٣٥
المجازة : ١٢٧
مجاقر : Mohacar, Mujácar : ٥٨٤
مجالات أكرأو : ٥٠٥
مجالات القمر : ٥٠٥
المجامع : ٥٩٤
مجامع دكالة : ٥٩٤
مجدبورج : ٧٩ ، ٧٧
مجدونية ، بلده : ٤٤
مجدونية ، حليج : ٤٥
مجدونية ، بلده : ٤٥

١٧٩ ، ١٧٧ ، ١٦٨
ليويل : Lelewele : ٢٤١ ، ٢٢٨
ليون : León : ٢٨٦ ، ٢٦٥ ، ٢٤٩ ، ١٥١
ليون الإفريقى = الحسن بن الوزان
« م »
ابن ماجد : ٢٧٨ ، ٢٦٨
مادوث ، بسكوال : Madoz, Pascual :
٢٦٠ ، ٨٨
مادى فرغ (مجد بورج) : ٧٩
ماديرا ، جزر : ٢٧٨ ، ٢٧٧
مارتلة : Mertola : ٢٦٠
مارتين ، رايونديو : ٢٦٨
ماردة : Mérida : ٢٤٦ ، ٩٣ ، ٩٢
٦٠١ ، ٥١٤ ، ٥١٣ ، ٤٥٩ ، ٢٦٠
مارسيانوس : ١٤
ماركارت : Marquart, J. : ٢٣٨
ماركوبولو : ٤٢٨
المازرى ، أبو عبد الله محمد بن علي : ٣٩٧
مالاتيرا ، جودفروا : ١٨٤ ، ١٨٠
مالطة ، جزيرة : ٣٤٧ ، ٣٣١
مالقة : ٢٨٧ ، ٢٥٨ ، ١٧٢ ، ٢٤ ، ٢٨٨
٤٨٩ ، ٤٨٥ ، ٤٧٠ ، ٤٣٧ ، ٢٨٨
٥٧٢ ، ٥٥٤ ، ٥٤٤ ، ٤٩١ ، ٤٩٠
٥٧٩ ، ٥٧٨ ، ٥٧٧ ، ٥٧٦ ، ٥٧٥
٥٩٨ ، ٥٨٣ ، ٥٨٢ ، ٥٨١ ، ٥٨٠
٦٠١

محمد بن عاصم ، المعروف بالأقشطين : ٣٠
 » » أبي عامر : ٥٤٣
 » » عبد الرحمن الأوسط : ٢٩
 » » عبد الله البرزالي : ١١٤
 » » عبد الله عنان : ٥٥٢ ، ٥٥٧
 » » بن عبد الملك بن سميد : ١٥٧
 ٤٦٧ ، ١٦١
 محمد بن عبد الواحد بن إبراهيم بن
 مفرج الملاحى : ٢٤
 محمد بن عبد الوهاب النسافى : ٢٨
 أبو محمد على بن حزم = ابن حزم ،
 أبو محمد على
 محمد بن على بن خضر المالكي ، أبو
 عبد الله = ابن عسكر
 محمد بن عمر بن لبابة ، أبو عبد الله :
 ٣٠
 محمد بن عمرو البكرى : ١١٠
 » » الفاسى : ٥١٨ ، ٥٢١
 » » بن فتوح الحميدى = الحميدى
 » » محمد ، يعرف بابن الثيرى
 القرطبي = ابن الثيرى القرطبي
 محمد بن أبي محمد بن ظفر : ١٨٧
 » » محمد بن عبد الله الأندلسى
 الحسينى : ٢٢٦
 محمد بن مزين : ٢٣ ، ٢٨ ، ٢٩
 » » أبي مسلم الجرمى : ١٩٨

المجر : ٣٢٤ ، ٣٢٢ ، ٣١٩ ، ٣١٢ ، ٧٧
 ٣٥٦ ، ٣٣٩ ، ٣٣٤ ، ٣٣٣
 المجرى : ٤٤٠ ، ٤٣٩
 مجريط Madrid : ٢٦١
 المجمع : ٥٩٤
 مجمع البحرين : ٣٢٨ ، ٣٣٠ ، ٣٤٦
 ٤٨٥ ، ٤٨٣ ، ٣٤٧
 مجمع التاريخ الإشباني : ٦١
 المجوس : ٥٤٦
 مجيك ، هانز فون : ٢١٦ ، ٣٦١
 محب الدين الخطيب : ٣٩٥ ، ٣٩٨
 ٥٥٧ ، ٤١٣ ، ٤٠٩ ، ٤٠٤ ، ٣٩٩
 ٥٦٩
 المحجة العظمى : ٢٩٣
 محرز المعلم : ٣٥١
 المحروق ، باب : ٤٠٣
 ابن محلم = عوف بن محلم الشيباني
 محمد ، صلى الله عليه وسلم : ٣٢٩
 محمد بن إدريس المتأيد : ١٧٢
 » » أئمن : ٣١
 » » أيوب بن غالب الغرناطى =
 ابن غالب الغرناطى
 محمد بن البصع : ٣٩٧
 » » أبي بكر الزهرى = الزهرى
 » » البكرى ، أبو زيد : ١١١
 » » بن تاووث الطنجى : ٥٨ ، ٨١

كشاف عام

٧١٩ .

المدرسة النظامية : ٤١٥
 مدريد : ٢٨٣، ٢٤٦
 مدلين Medellín : ٢٨٨، ٢٦٠
 المدور Almodóvar : ٢٦٠، ٢٥٩، ٨٩
 ابن مدير : ١٠٧
 أبو مدين : ٥٢٤
 مدينة الأطيناشيين Atenai : ٤٥
 المدينة البيضاء : ٣٢٧
 مدينة التراب : ٨٨، ٨٥، ٦٨، ٦٦
 ٤٨٦
 مدينة جبل الفتح : ٥٨٢
 » سالم Medinaceli : ٢٥٠
 » بني سام بن مهمل : ٥٦٨
 » السلام : ٤١١
 » الفرج : ٦٠١، ١٥٥، ١٥١
 » فرعون : ٣٤٦
 » كورة : ٦٩
 المدينة المنورة : ٤٤٦، ٤٤٥، ٤٣٢
 ٥٧٩
 مدينة الدحاس : ٣٤٧
 مذهب البطلموس : ٥٠٦
 مراد ، حصن : ٤٧٨
 مراد ، قبيلة : ٤٧٨
 مراد ، كورة : ٤٧٨
 مراکش : ٤٠٢، ١٩٧، ١٨٥، ١٥٢
 ٥٢٦، ٤٩٢، ٤٦٧، ٤٣١، ٤٠٣

محمد بن معن : ١١٨ .
 » » موسى الخوارزمي = الخوارزمي
 » » موسى الرازي = الرازي ،
 محمد بن موسى
 محمد الناصر ، الخليفة الموحدى : ٤٧٠
 » بن يحيى اليحصبي : ١١٣
 » » يزيد المبرد : ٣١
 » » يزيد المعلم : ٣١
 » » يوسف الوراق = الوراق ،
 محمد بن يوسف
 محمود على مكي : ٤٠٦، ٣٠١، ٢٧
 ٥٩٦، ٥٩٠
 المحيط : ١٣٥، ١٧، ١٥
 محيط الأرض : ٢٠٧
 المحيط الأطلسي : ٢٠٧، ١٣٥، ١١٢
 ٢٦٧، ٢٥٨، ٢٣٥، ٢٣٢، ٢٠٨
 ٢٧٩، ٢٧٨، ٢٧٧، ٢٧٥، ٢٧١
 ٥٣٥، ٤٩٢، ٤٨١، ٤٤٥، ٣٢٨
 المحيط الأعظم : ٥٠٢، ٢٣٢
 » الشمالى : ٤٣
 » الهادى : ٥٣٥
 » الهندى : ٢٦٨، ٢٦٧، ٢٠٧
 ٥٣٥، ٢٧٨
 محي الدين عبد الجيد : ٤٨٢، ٤١٤
 مخطوطة نانسى : ٢٣٤
 مخلوف ، الشيخ : ٤١٣

آل مرين ، بنو مرين : ٥٨٧ ، ٥٣٣ :

٥٩٦ ، ٥٩٠

مرينوس الصوري : ٢٣٣ ، ٢٠٥ ، ٥ :

المرية : ١٠٧ ، ٨٣ ، ٨٢ ، ٨١ ، ٢٤ ، ١٥ :

٢٥١ ، ٢٤٨ ، ١٢٣ ، ١١٩ ، ١١٨

٣٧١ ، ٢٩٥ ، ٢٦٣ ، ٢٥٨ ، ٢٥٣

٣٨٧ ، ٣٨٣ ، ٣٨٢ ، ٣٧٨ ، ٣٧٢

٤٩١ ، ٤٩٠ ، ٤٨٩ ، ٤٨٨ ، ٤١٨

٥٦٨ ، ٥٥٩ ، ٥٥٨ ، ٥٥٥ ، ٤٩٦

٦٠١ ، ٥٩٨ ، ٥٧٤ ، ٥٧٣

مزاب ، جيل : ٥١٠

ابن مزين : ٦٠٠

المسالك البحرية : ٢٧٠ ، ٢٦٨

المسالك والممالك ، علم : ١٠ ، ٩ ، ٨ ، ٦ :

٢١٧ ، ١٠٧ ، ١٠٦ ، ١٢ ، ١١

المسالكيون : ٢٢٤ ، ٢١٧ ، ٢١٦ ، ٧٩

٥١٦ ، ٣٣٧ ، ٣٣٣ ، ٢٢٥

المستظهر ، الخليفة : ٣٩٩ ، ٣٩٥

٤٠٨ ، ٤٠٠

المستعربون : ٢٦٣ ، ٣٥

المستعين بن هود : ١٥٣

المستنجد ، الخليفة : ٣١١

المستنصر ، الخليفة : ٣٩٧ ، ٧٧

المستنصر بن هود : ١٥٤ ، ١٥٣

المسجد الأقصى : ٣٩٨

مسجد الجنة : ٥٧٤

٥٩٣ ، ٥٩٠ ، ٥٨٧

مرباطر Murviedro : ٢٥٨ (وانظر

مريبطر)

مربله Marbella : ٥٨٢ ، ٢٥٨

مريبطر Murviedro : ٨٧ ، ٦٨ ، ٦٧

٤٨٩ ، ٤٥٩ ، ٢٤٦ ، ٨٨

المرجع (مقياس للأرض) : ٥٦٣

مرسية Murcia : ٨٣ ، ٧٨ ، ٦٦

٤٧١ ، ٢٨٨ ، ٢٥٩ ، ٢٥٨ ، ٢٥٥

٥١٥ ، ٥١٤ ، ٤٨٩ ، ٤٨٨ ، ٤٨٤

مرشانة Marchena : ٥٧٣ ، ٥٦٨

٥٧٤

المرقة : ٥٤٠

مرلانس Morlaas : ٢٦٥

المرمان (التورمان) : ٧٩

مرمريرة ، إقليم : ٢٦٢

مرمرية ، إقليم : ٢٦٢ ، ٢٥٥

مرو : ٣٨٦ ، ٣٥٣ ، ٣٢٤ ، ٣٢٣

٥١٢ ، ٤١٨

بنو مروان : ٢٨

مروان بن عبد الله بن عبد العزيز :

٤٨٦

الرواية : ٥٥١

الروزي ، أبو العباس جعفر بن محمد :

٢١٦

الروزي ، هدية بن عبد الوهاب : ٣٢٩

ابن المطاهر = أبو مروان عبد الملك
ابن سراج بن عبد الله بن محمد :
٩٨

أبو المطرف بن أحمد بن عبد الله بن
عميرة : ٢٤

مطرف بن عيسى. النسائي : ٢٣
مطريل : ٥٥٩

المظفر بن الأنطس : ١١٢
معاجم التراجم : ٩٩

المعاجم الجغرافية ، المعجم الجغرافي :
٥٤٩ ، ٥٤٧ ، ٥٤٠ ، ٥٣٤ ، ٥٢٩

معارك بن مروان : ٢٧
المعتصم بالله محمد بن معن بن صمادح : ٨٢
المعتضد بن عباد : ١١٣ ، ١١٢ ، ١١١
٣٩٦ ، ١١٩ ، ١١٥ ، ١١٤

المعتمد بن عباد : ١٠٨ ، ١١٩ ، ١٤٧
٣٩٦ ، ٣٠٠ ، ١٥٩

المدن ، المعادن = النجم المفاجم :
٥٤٤ ، ٢٩٥ ، ٢٣٧

المدن ، بلدة Almaden : ٤٨٩
٥٤٤

المدن ، جبال Sierra de Almaden :
٥٤٤ ، ٤٨٩ ، ٣٨٥ ، ٣٨٤ ، ٢٥٩

ابن المعدل ، أحمد : ١٢٨
المعري ، أبو العلاء : ٥٢٠
المعز الفاطمي : ١٧٩

مسجد ذي الحليفة : ٤٤٦

» الرايات : ٢٨

» الروضة : ٢٩٠

» سرور : ٢٩٠

» أم سلمة : ٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣

» الشفاء : ٢٩٠

» القدس : ٤٠٩

» الكهف : ٢٩٠

» المهدي بن تومرت : ٥٩٣

ابن مسعدة القرناطلي : ٤٨٦

المسعودي ، أبو الحسن : ٧ ، ٨

٢٣٣ ، ٢١٦ ، ١٩٦ ، ١٣٦ ، ١٣٢

٣٤٩ ، ٣٤١ ، ٣٢٤ ، ٣٠٤ ، ٢٣٩

٤١٧ ، ٣٩٠ ، ٣٧١ ، ٣٦٥ ، ٣٦١

٥١١ ، ٤٩٣ ، ٤٨٠ ، ٤٦٠ ، ٤٢٠

٥١٦

مسلمة بن عبد الله العريف المهندس :

٣١٣ ، ١٤٤ ، ١٠٢

مسنيط : ٥٦٦

المسيحية : ٣٤ ، ٣٥ ، ٨٤

مسينة : ٤٣٣ ، ٤٣٥

مشيلية Benamejí : ٥٦٧

مصطفى السقا : ١٢٥ ، ١٣١

المضير : ٥٧٤

ابن أبي المضاء ، محمد بن الحسن :

٢٩٨ ، ٢٩٧

المعهد الإيطالي للشرقين الأدنى
والأقصى : ٢٣٠
معهد الدراسات الإسلامية في مدريد :
٥٦٤، ٤٦٦، ٤٠٦، ٢٦٨، ٨٣، ٢٧
معهد مولاي الحسن بتطوان المغرب :
٥٠٠، ٤٩٦
معين الدين أبو حفص عمر . . الأردبيلي :
٣٢٣
المغاربة : ٤٢٨، ٢٣٠، ٣١٥
المغرب الأدنى : ١٩٢
المغرب الأعلى : ٣٥١
المغرب الأقصى : ١٨٥، ١٧٥، ١٧٣ :
٤٩٢، ٣٦١، ٣٠٧، ٣٠٥، ٢٣٢
٥٨٧، ٥٣٤
المغرب الأوسط : ٤٩٢
المغول : ٥١٢، ٤٦١، ٣١٤
المغيرة بن عبد الرحمن : ١٢٨
المفاضة : ٢٦٠
مفانية ، جزيرة Mevania : ٥٠
ابن مفرج ، الحسن بن محمد : ٥٩٨
ابن مفرج ، أبو الملا عبد الحق خلف :
٤٥٦، ٤٥٥
المقاميون : ٥٨١
مقبرة الحوض بالرية : ٨٢
مقبرة الربض : ١١٠
مقبول أحمد : ٢٢٢، ١٧٧

المقتدر بالله ، أبو الفضل جعفر (الخليفة
العباسي) : ٤٤٩
المقتدى ، الخليفة : ٣٩٩
المقتنى ، الخليفة : ٣١١
المقدس ، أبو عبد الله محمد بن أحمد :
١٩٦، ٩٠، ٥١، ١٣، ١٠، ٢
٢٢١، ٢٢٠، ٢١٧، ٢١٥، ٢٠١
٢٦٨، ٢٦٧، ٢٣٨، ٢٣٥، ٢٢٢
٥٣٨، ٤١٧، ٣٢٤، ٣٠٤
مقدمشو : ٤٩٦
مقدم Praetor : ٩٢
مقدريج الكسيح الأرمني : ٣٦٩
المقريزي ، تقي الدين أحمد بن علي :
٢٢٩، ٢٠٢، ١٢٦، ٩٥، ٥٤
٥٥٥، ٥٣٣، ٥٢٩، ٣٤٢، ٣٠٨
مقرينة : ٤٧٩، ٤٧٨
مقة : ١٤٢
مقياس الرسم : ٢٢٥، ٢١١
مقياس الروضة : ٣٠٩
مكتبة آل مديتشي في روما : ٢٢٨
مكتبة الإسكندرية : ١٦٩، ١٢٢
٥٧٢، ٥٣٠، ٤٦٢، ٢٧٩
مكتبة أكاديمية التاريخ في مدريد :
٣٧٠، ٣٢٥
المكتبة الأمبروزية في ميلان : ١٩٧
٢٧٣

مكتبة المني في بغداد : ٣٦٠
 مكناسة Mequenza : ٢٤٧، ٢٦١
 ٥٨٧، ٥٩٠
 الملاحة La Mala : ٥٥٧
 الملاحى = ابن عبد الواحد الفافقى :
 ٥٥٥، ٥٥٧
 الملاحى ، أبو القاسم : ٥٦٩
 ملتان : ٢٢٠
 المثلثون : ١٥٢
 ملشور أنطونيا = أنطونيا ، ملشور
 ملى ، قوم : ٣٤٤
 مليانة : ٥٢١
 مليلة : ١٤٥
 المالك : ٥٢٨، ٤٢٧، ٤٢٥
 ممبسة : ٢٣٣
 مملكة الإسلام ، المملكة الإسلامية :
 ٢٢١، ٢٨١، ٣٠٢، ٣٢٤، ٤٢١
 ٤٢٧، ٤٩٥، ٥١٦، ٥٣٤
 المملكة الليبية : ٥١٠
 المن البندادى : ٣١٧
 المن العراقى : ٣١٠
 المن المصرى : ٣١٠
 منبج : ٤٣٣
 منت راد Ponferrada : ٢٦٥
 منت روبي Monterrubio : ٥٦٨
 منت فبراير Monte Febrero : ٢٦٥

المكتبة الأهلية بباريس : ١٣٦، ١٩٦
 ٢٢٩، ٢٤٤، ٢٤٥، ٣٣٩، ٣٧٠
 ٣٧٦، ٤٦٢
 المكتبة الأهلية بالجزائر : ١٣٦، ٣٣٩
 ٣٧٠، ٤٦٢
 المكتبة البودلية فى أو كسفورد : ٣٢٥
 ٥٠١
 المكتبة التيمورية : ٤٧٨
 مكتبة جامع سيدى عقبة بالقيروان : ٣٤
 مكتبة جامع نوري عثمان بالاستانة : ٧٨
 ١٣٢
 مكتبة الجامعة فى تورين : ٢٤٣
 مكتبة جامعة كيمبردج : ٣٢٦
 » جامعة مونبليه : ٢٢٨
 المكتبة الجغرافية الأندلسية : ٥٤
 مكتبة جوتا : ٣٢٦، ٣٣٩
 » حكيم أوغلو فى استامبول :
 ١٩٧، ٢٢٧
 مكتبة فاتح فى استامبول : ٢٢٥
 » القرويين بفاس : ١٣٦، ٤٠٦
 » القصر الملكى فى مدريد : ٣٧٠
 » لا له لى : ١٣٦
 » لايدن : ٣٦٠
 » لينجراى : ٣٣٩
 » المتحف البريطانى : ١٣٦، ٣٣٩
 ٣٧٠

المهدي ، الخليفة العباسي : ٣٥
 الهدية : ١٤٣ ، ١٧٩ ، ١٩٢ ، ١٩٥
 ٤١٣ ، ٣٩٧
 المهلب بن أبي صفرة : ١٠٧
 مواشية Moesia ، بلد : ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦
 موالى بنى أمية : ٥٥٦
 مويذ المجوس : ١٣٢
 الموت الأسود : ٥٣٣
 موجدور : ٥١٩
 مورافا ، شهر : ٣١٩
 مورور Morón : ١٥٩ ، ٢٨٩ ، ٣٨٦
 ٤٧٠ ، ٥٤٤ ، ٦٠١
 موريتز ، ب. : ٤٦٢ ، ٤٦٣ ، ٤٧٤
 ٤٧٦
 الموريسكيون : ٥٦٩
 الموسوعيون النهجيون : ٣٣٧
 موسى بن سعيد : ١٦١
 موسى بن محمد بن عبد الملك بن سعيد :
 ١٥٧ ، ١٦٣ ، ٤٦٧ ، ٤٦٩ ، ٤٧٠
 ٤٧١ ، ٤٧٢ ، ٤٧٣
 موسى بن نصير : ٢٧ ، ٢٨ ، ١٠٦
 ٣٢٧
 الموصل : ٢٠٢ ، ٣٢٣ ، ٣٢٤ ، ٣٣٨
 ٤١٨ ، ٤٣٣ ، ٤٤٩ ، ٥١٢
 مؤطدش Maeotides ، سهول : ٤١
 ٤٣

منت لوزنة Monte Lucena : ٥٦٦
 منت ميور ، حصن Mons Major :
 ٢٦٩
 منتشاقر Montexicar : ٥٦٦
 المنذر بن محمد ، الأمير : ٢٨ ، ٢٩
 منتفريد Montefrio : ٥٨٤
 مندوشر : ٥٦٨
 منندز بيدال ، رامون Menéndez
 ٢٨٨ : Pidal, Ramón
 المنصور ، أبو جعفر (الخليفة العباسي) :
 ٥٧ ، ٣٦١
 المنصور ابن أبي عامر : ٨٥ ، ١٠٠
 ١١٠ ، ١١١ ، ٢٩٤
 المنصورة : ٢١٩
 ابن منظور المصري ، محمد بن مكرم :
 ١١٥ ، ٤٩٨
 المنكب Almuñécar : ٥٦٧ ، ٥٨٣
 المنهر : ٩٥
 منورقة ، جزيرة : ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٣٩
 ٤٤٠ ، ٤٨٢
 منى : ٤٠٥
 المنية huerta : ٥٦٣
 منية ابن أبي عامر : ٤٨٦
 منية عبد الله : ٢٩١
 منية عجب : ٢٩٠ ، ٢٩٢
 منية المغيرة : ٢٩١

« ن »

ناجرة Nájera : ٢٦٥ ، ٧٠
 نارجة Nerja : ٤٨٦ ، ٤٨٥
 ناريجة Nariga ، رأس : ١٨
 الناصر لدين الله ، أبو العباس أحمد
 (الخليفة العباسي) : ٤٤٨ ، ٤٤٩
 ناصري خسرو : ٤١٠
 الناعورة : ٩٥
 نالينو ، كارلو Nallino, Carlo :
 ٣٦٦ ، ٣٦٥ ، ٣٦٣ ، ٣٦٠ ، ٢٢٧
 ٣٦٧
 نانسي : ٢٣٤
 نبارة ، نبرة : ٣٧٣ ، ٢٤٩
 النباهي ، أبو الحسن علي : ٤٠٣
 ٥٥١
 ابن نهان ، أبو اليسر عطاء : ٣٤٦
 نجد : ١٢٧
 النجم الأحمر : ١٣٨ ، ١٤٠
 ندافان : ٣٥٣
 ابن النديم : ٣٩
 نربونة Narbona : ٩٢ ، ٤٧ ، ٤٦
 نربونة بحر : ٤٨
 النومان ، النورمان : ١٧٧ ، ٧٩
 ١٨٢ ، ١٨١ ، ١٨٠ ، ١٧٩ ، ١٧٨
 ١٩٤ ، ١٨٨ ، ١٨٧ ، ١٨٦ ، ١٨٤
 ٤٢٥ ، ٤٢٢ ، ١٩٥

موفق الدين أحمد بن أبي القاسم ،
 المعروف بابن أبي أصيبعة = ابن
 أبي أصيبعة
 المولدون : ٢٩
 مولر ، ماركوس Müller, Marcus :
 ٥٧٨ ، ٥٧٥ ، ٥٧٢
 مؤمن بن يومر الهواري : ١٤٧
 مونتي ، جبل Monti : ٨٨
 ميفارقين : ٣٥٣
 الميل : ٥٥٩ ، ٥٠٤ ، ٥٠١
 » البحري : ٤٤٠
 » الروماني : ٢٤١
 » الصقلي : ٢٤١
 » العربي : ٤٨١ ، ٤٤٠ ، ٢٤١
 ميلا Mela : ١٨
 ميلاطو Mileto : ١٨٦
 ميلان : ٢٧٣
 ميلر ، كونراد Miller, Konrad :
 ٢١٣ ، ٢١٢ ، ٢٠٥ ، ١٦٨ ، ١٣
 ٢٧٠ ، ٢٢٧ ، ٢٢٠
 ميليدا ، خوسيه رامون Mélida,
 José Ramón : ٢٨٨
 ميديو ، نهر El Minio : ٤٦٩
 مينورسكي : ٣٠٦ ، ٢٢٢
 ميورقة ، جزيرة : ٤٨ ، ٤٧ ، ٢٤
 ٥٥٩ ، ٤٨٢ ، ٤٣٩

نوح ، عليه السلام : ١٣٢
 نور الدين عبد القادر : ٣٦
 نور الدين محمود : ٢٩٦ ، ٤٢٧
 نورقش ، بلد : ٤٦
 نول ، مدينة : ١٤٥
 تولدكه : ٤٩٥
 النويرى : ٤٩٧ ، ٤٩٨
 النيجر ، نهر : ٢٠٩ ، ٢٣٢
 النيجر الأوسط : ٥٠٩
 نيسابور : ٣٢٣ ، ٣٥٣
 النيل : ٩٥ ، ١٣٥ ، ٢٠٩ ، ٢١٦
 ٢٣٢ ، ٢٣٥ ، ٢٣٧ ، ٢٩٦ ، ٢٩٧
 ٢٩٩ ، ٣٠٨ ، ٣٠٩ ، ٣١٠ ، ٣٤٩
 ٣٨١ ، ٣٨٤ ، ٣٩٣ ، ٤٤٢ ، ٥٠٣
 ٥٠٤ ، ٥٠٧ ، ٥٠٨ ، ٥٠٩
 النيل الأزرق : ٤٩٦
 نيل غانة : ٢٣٢
 نيل مقدشو : ٤٩٦ ، ٥٠٥

« ه »

هادريان ، الإمبراطور : ١٣٩
 هارون الرشيد : ٣٤٩ ، ٣٦١
 هاسكنجز ، س. ه. : ١٧٩
 ابن هذيل ، أبو المجد : ٢٩٥ ، ٢٩٦
 هرقل ، أعمدة Columnae Herculis :
 ١٥ ، ١٦ ، ١٧ ، ١٨ ، ٣٧٠ ، ٣٨٧
 هرؤشيش (أروزبوس = هرؤسيس) :

نرماني ، نرمانديا : ١٨٠
 النساء ، جزيرة : ٤٨٤
 بنو نصر : ٣٨٧ ، ٥٣١ ، ٥٣٣ ، ٥٦٣
 ٥٩٦ ، ٦٠٢
 ابن نصر ، أبو الحجاج يوسف :
 ٥٧٢
 النصرانية : ١٦١ ، ٢٤٦
 نصيبين : ٤٣٣
 ابن النظام ، عبد الله بن عبد الحكم :
 ٢٢ ، ٦١ ، ٩٨ ، ١٠٢ ، ١٠٦
 نبطويه : ١٣٦
 نفوسة ، جبل : ١٤٣
 نفيس أحمد : ١٩٧ ، ٢٠٢ ، ٣٦٢
 نكور : ٧٤ ، ١٤٥ ، ٧٣
 ابن النمرود : ٣٩٠
 النمرى ، أبو عبد الله : ٢٨٣
 النليول : ٥٦٦
 ننتالة : ٤٨٩
 النهاوندى ، أحمد : ١٣٣
 نهاية الأرض : ١٥
 النهر الأحمر Guadalahmar : ١٣٨
 نهر الذهب : ٥١٥
 نهر الزيت Oluem flumen : ٦٣
 النهر الكبير : ٥٤٣
 نوالش ، حصن Nigúelas : ٥٦٧
 النوبة : ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣٧ ، ٣٩٤

كشاف عام

٧٢٧

الهنود الحر : ٢٧٦
 بنو هود : ٥٩٦ ، ١٥٣
 ابن هود ، المتوكل : ٤٧١ ، ٤٦٧
 الهوزني ، الحسن بن عمر بن الحسن :
 ٣٩٦
 الهوزني ، عمر بن الحسن بن عمر : ٣٩٦
 هولكو : ٤٧٤
 هونجيان : ٤٧٧
 هونزباخ ، فلهم : ١٦٨
 الهوهنتاوفن : ١٧٨
 هويد : ٤٤٢
 هويي ، ميراندا أمبروزيو Huici,
 ١٨٥ : Miranda Ambrosio
 هيباركوس : ٥
 هيربنشتاين ، الرحالة Herbenstein :
 ٣٣٤
 هيرودوت : ٣٥٦ ، ٣٥٥
 هيكل ، جبال : ٣٧٤
 هيكل الزهرة ، جبل : ٢٦٦
 هيئة الأرض : ٢٧٢ ، ٢٢١ ، ٢٠٢
 ٥٠٢ ، ٣٧٨ ، ٣٧٧
 « و »
 الواصل ، الخليفة العباسي : ١٩٨ ، ٩
 ابن واجب : ٢٩٥ ، ٢٨٤
 وادي آس Guadix : ٥٧٣ ، ٥٦٨
 ٥٨٤

٣٣ ، ٣٢ ، ٣٠ ، ٢٠ ، ١٩ ، ١٨
 ٥٥ ، ٥٤ ، ٥٣ ، ٥١ ، ٣٦ ، ٣٥
 ٢٤٩ ، ١٩٧ ، ١٣٦ ، ٦٠ ، ٥٦
 ٤١٨ ، ٢٦٣ ، ٢٥٧ ، ٢٥٢
 الهروي ، أبو بكر : ٣٢٥ ، ١٨٨
 هسبانيا : ١٤٠
 هشام بن عبد الرحمن الداخل : ١٥٧
 ابن هشام ، عيسى : ٥٨٠
 هشام بن محمد بن السائب الكلبي :
 ١٢٨ ، ١
 هشام المتد : ٥٩٦ ، ٥٥١
 هشام المؤيد : ١٧١ ، ١١١ ، ١١٠
 بنو هلال : ٤٦١ ، ١٩٢
 همدان Alhendín : ٥٦٩
 الحمداني ، بديع الزمان : ٥٧١
 هنتاة ، جبل : ٥٩٣ ، ٥٨٩
 هنتاة ، قبيلة : ٥٩٢ ، ٥٩٠ ، ٥٨٩
 الهنترلاند : ٦٧
 هنري جاهيم : ١٩٥ ، ١٩١ ، ٣٦
 هنري السادس ، إمبراطور
 الهوهنتاوفن : ١٧٨
 هنغاريا الكبرى Hungria Magna :
 ٣١٩
 الهنكر ، بلاد : ٣١٩
 الهنود : ٣٤١ ، ٣٠٧ ، ١١ ، ٥ ، ٤ ، ١
 ٣٦٢

وادی موسى : ٣٩٨ ، ٤٠٩ ، ٤١٠
 » النيل : ٢٣٧
 وادیانه = وادی آنه
 وارنگلان : ٥١٠
 ابن واضح اليعقوبی : ٢١٦ ، ١
 واق الواق : ٢٣٩ ، ٢٣٣
 وان ، بحيرة : ٣٤٧
 وبار ، أمة : ٣٤٥
 وبذة : Huete : ٢٦١
 وجدة : ١٤٥
 الوجه البحري : ٢٥٤
 الوجه القبلي : ٢٥٤
 الوجول ، شعب Woguls : ٣٣٤
 ودان : ١٤٣
 ودیع جویدة : ٣٦٦ ، ٢٠٥
 الوراق ، محمد بن يوسف : ٧٣ ، ٢٢
 ١٤٥ ، ١٤٤ ، ١٤٣ ، ١٤١ ، ٧٦
 ١٤٧ ، ١٤٦
 ابن الوردی : ٣٥٧ ، ٣٥٤
 ابن وزمر الحجاری = عبد الله بن
 إبراهيم بن وزمر الحجاری
 وشقة Huesca : ٢٦١ ، ٨٣ ، ٦٩
 ٤٥٦
 ابن وضاح : ٩٥
 الوطواط ، جمال الدين محمد ... بن علي
 الأنصاری : ٣٠٣

وادی آنه ، وادیانه ، نهر : ٥١٣ ، ١٠٥
 الوادی الأبيض Guadalaviar : ٣٨٤
 الوادی الأحمر Guadalahmar : ٣٨٤
 وادی الأردن : ٣٨٤
 » الأرز Guadalthorce : ٣٨٤
 » بيرة : ٥٧٤
 » جهنم : ٤٠٩
 » الحجارة Guadalajara : ٧٣
 ٦٠١ ، ٤٥٦ ، ٢٦١ ، ١٥٥ ، ١٥١
 وادی درعة : ١٨٥
 » ربلقطور : ٤٨٢
 » الرمل ، الرملة ، جبال
 ٢٦١ ، ٢٥٠ ، ٢٤٦ : Guadarrama
 وادی السوس : ١٤٥
 » شنیل ، نهر : ٣٨٦
 » العقیق : ٤٤٦
 » فرار ، نهر Rio Ferreira :
 ٢٧٠
 الوادی الكبير ، نهر : ٩٢ ، ٦٥
 ٢٨٧ ، ١٣٩ ، ١٣٨ ، ١١٢ ، ١٠٥
 ٣٨٤ ، ٣٨٣ ، ٣٧٥ ، ٢٩٢ ، ٢٩٠
 ٥١٤ ، ٥١٣ ، ٥١٢ ، ٤٧١ ، ٤٦٠
 ٥٤٤ ، ٥١٦ ، ٥١٥
 وادی المدينة Guadamedina : ٣٨٤
 » ملویة : ١٨٥
 » المنصورة Guadalmanzur : ٥٧٤

٢٣٢، ٢٣١، ٢٢٣، ٢٠٧، ٢٠٥
٣٣٧، ٣١٩، ٣١٣، ٢٤٤، ٢٣٩
٤١٨، ٤٠٩، ٣٦٩، ٣٦٦، ٣٤٢
٥٤١، ٥٤٠، ٥١٢، ٥٠٤، ٤٥٤

٥٤٣

يا كوب ، جيورج Jacob, Georg :

٣٤٠، ٧٩، ٧٦

يانه ، شهر : ٥١٣

يحيى بن أحمد بن يحيى اليحصبي :

١١٢

يحيى بن علي بن حمود الفاطمي : ٤٧٩

يحيى بن غانية : ٤٦٧

يحيى بن محمد بن عبد الملك بن سعيد :

٤٦٧

يحيى المقتلى : ١٧٢

يحيى بن هبيرة الشيباني : ٣١١

يرمانية Germania ، بلد : ٤٦، ٤٤

يزن : ١٢٧

ابن اليسع : ١٥٨، ٤٨٠، ٥١٥

اليسع بن عيسى بن حزم النافقي :

٣٢٧، ٣١٠، ٣٠٣، ٢٩٥، ٢٨١

٣٨٣

اليسع بن مدرار : ٧٣

اليسع بن موسى بن عبد الله بن اليسع :

٢٢

يشكر ، حصن : ٣٧٠

الوقشي ، أبو الوليد : ٨٢

ولايات أسقفية : ٩٣

ولبة Huelva : ١١٢، ١١١، ١٤٠

١٣٤، ١١٤

الولجة : ٢٥٩، ٢٥٥

ولجة بلنسية La Huerta de

٢٥٩ : Valencia

ولجة مرسية La Huerta de Murcia :

٢٥٩

وليام مارسية : ٣٩

الوليد بن خيزران (كان يسمى أيضاً

ابن مفيت) : ٥٦، ٤٠، ٣٨

الوليد بن عبد الملك : ٢٨

أبو الوليد بن الفرضي = ابن الفرضي

الونشريشي : ٤٦٢

وهران : ٤٠٢، ٧٣

ويمة ، موضع : ٦٥

« ي »

اليابان : ٥٠١

يابسة ، جزيرة : ٤٣٩

يابورة Evora : ٢٦٠

يأجوج ومأجوج : ٣٤٤، ٢٤٣، ١٠

يافث بن نوح : ٤١

ياقوت الحموي : شهاب الدين أبو عبد

الله : ٨٣، ٦٩، ٦٧، ٦٥، ٢

٢٠٢، ١٤٢، ١٣٧، ٩٨، ٨٨

اليورا ، شعب : ٣٣٤ ، ٣١٢
 اليوراك ، شعب Yorak : ٣٣٤
 يوسف بن تاشفين : ١٨٥ ، ١٤٧
 ٤٠٨ ، ٤٠٧ ، ٤٠٠ ، ٣٩٩ ، ٣٩٦
 يوسف بن عمرو : ١٠٧
 يوسف كمال : ٢٢٧
 يوشع : ٣٧
 يوليش المعروف بجاشر : ٤٥٩
 يوليوس قيصر : ١٩ ، ٤٥٩
 اليونان : ١ ، ٧ ، ١١ ، ١٤ ، ٣٤ ، ٥٣
 ٦٢ ، ٧٦ ، ١٣٩ ، ٢٠٧ ، ٢٢٤
 ٢٤٤ ، ٣٣٢ ، ٣٤١ ، ٣٥٣ ، ٣٥٥
 ٣٥٦ ، ٣٦٢ ، ٤٢٧
 ابن يونس المصرى ، طلى : ٣٦٠

يعقوب بن طارق : ٥
 يعقوب بن النعمان : ٣١٦
 يعقوبى ، أحمد بن أبى يعقوب : ٣
 ٩٠ ، ٩١ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ٢٣٥
 ابن ينمور ، أبو الفتح موسى :
 ٤٧٢ ، ٥٢٨
 يلبيرة : ٥٥٦
 اليمين : ١٢٦ ، ١٣١ ، ٣١٠ ، ٣٥٣
 ٣٨٠ ، ٣٨٥ ، ٣٩٣ ، ٤٣٤ ، ٤٤٤
 ٥٦٨
 اليهود : ٥٢٨
 يوجرا ، شعب Jugra : ٣٣٤
 يوحنا حزون Johannus Hesronita :
 ٢٢٨

محتويات الكتاب

صفحة	
١	أصول التأليف الجغرافي عند الأندلسيين
١	تمهيد : ١ — الجغرافية عند المسلمين وراث الهنود والفرس واليونان
٢	الدافع الرئيسي للتأليف في الجغرافية
٣	الاتجاه العربي الخالص
٤	أثر نظريات الهنود والفرس واليونان
٨	ارتباط الجغرافية بالتاريخ
٩	كتب الرحلات
١٢	٢ — أسس التأليف الجغرافي عند الأندلسيين
١٣	أطلس الإسلام
١٤	٣ — أوصاف الفينيقيين واليونان والرومان لشبه جزيرة إيبيريا
١٨	٤ — كتب هروشيئش
٢٠	رأيه في هيئة شبه الجزيرة
٢١	٥ — التراث الجغرافي للأندلس
٢٦	ميلاد التأليف في الجغرافية في الأندلس
٢٧	١ — محمد بن موسى الرازي
٣٠	٢ — قاسم بن أصبغ البيان وترجمة كتب هروشيئش
٣٤	الترجمة العربية لكتاب هروشيئش
٤١	القسم الجغرافي من هذه الترجمة
٤٣	أول وصف لأوروبا في العربية

صفحة	
٤٧	وصف إسبانيا
٥١	قيمة عمل قاسم بن أصبغ وزميله
٥٦	أحمد بن محمد الرازي ومعاصروه
٥٦	أحمد بن محمد الرازي
٥٩	وصف الرازي للأندلس
٧٣	الوراق ، أبو عبد الله محمد بن يوسف
٧٦	إبراهيم بن يعقوب الطرطوشي
٨١	أحمد بن عمر بن أنس المذري الدلائل
٨٤	كتاب نظام المرجان للمذري
٨٥	وصفه بلبنسية
٨٨	خصائص جغرافية المذري
٩٧	بين المذري والبكري
٩٩	ابن الفرضي
١٠١	أبو مروان بن حيان ، جغرافياً
١٠٢	أبو بكر عبد الله بن عبد الحكم بن النظام
١٠٦	أبو بكر أحمد بن سعيد بن أبي الفياض
١٠٨	أبو عبيد البكري
١٠٩	جيل أبي عبيد البكري
١١٠	تاريخ إمارة البكرين
١١٥	ترجمة أبي عبيد البكري
١٢١	مؤلفات البكري
١٢٢	مؤلفات لغوية وأدبية
١٢٣	مؤلفات جغرافية
١٢٣	« معجم ما استعجم »
١٣٢	« المسالك والممالك »

صفحة	
١٤٩	عبد الله بن إبراهيم بن وزمر الحجارى
١٥٠	ترجمة حياته
١٥٦	كتاب « السهب »
١٥٨	الحجارى الجغرافى
١٦٠	الجغرافية الفكرية
١٦٢	جغرافية الحجارى
١٦٤	دور الحجارى فى علم الجغرافية
١٦٥	الشرىف الإدريسى : قة علم الجغرافية عند المسلمين
١٦٦	الاتجاه إلى التخصص
١٦٨	قلة معلوماتنا عن حياة الإدريسى
١٧٠	حياة الإدريسى
١٧٤	الإدريسى فى الشرق
١٧٥	عودة الإدريسى إلى المغرب
١٧٦	كيف اتصل الإدريسى برجار
١٧٨	رجار الثانى
١٧٩	دولة النرمان فى إيطاليا وصقلية
١٨١	دولة النرمان فى صقلية
١٨٢	علاقة الإدريسى برجار
١٨٣	أدارة صقلية
١٨٨	الإدريسى وبنو حمود
١٨٩	الإدريسى ورجار
١٩٠	حياة الإدريسى فى صقلية
١٩٢	أخريات أيام الإدريسى
١٩٥	منهج الإدريسى فى الدراسة والعمل
١٩٧	مراجع الإدريسى

صفحة	
١٩٩	فاتحة « زهرة المشتاق »
٢٠١	مراجع الإدريسي
٢٠٣	مفهوم الجغرافية عند الإدريسي
٢٠٥	منهج الإدريسي وطريقته في العمل
٢١٥	عمل الإدريسي وعلاقته بما قبله
٢١٧	المسالكيون ورسم الخرائط
٢١٨	أطلس الإسلام
٢٢١	الإدريسي وأصحاب أطلس الإسلام
٢٢٢	الإدريسي ومن سبقه من الجغرافيين
٢٢٣	قمة العلم الجغرافي عند المسلمين
٢٢٥	مؤلفات الإدريسي
٢٢٦	« الجامع لأشتات النبات »
٢٢٧	« روض الأنس وزهرة النفس »
٢٢٨	مختصر « زهرة المشتاق »
٢٢٩	« زهرة المشتاق »
٢٣١	تحليل لكتاب زهرة المشتاق
٢٣٤	حقيقة خريطة الدنيا المنسوبة لبطلميوس
٢٣٦	تحليل لكتاب زهرة المشتاق
٢٣٩	دراسات عن زهرة المشتاق
٢٤٠	آراء ميكيلي أماري
٢٤٥	وصف الإدريسي لشبه جزيرة إيبيريا
٢٤٩	المشاكل التي واجهت الإدريسي في هذا الوصف
٢٥٣	أقاليم الأندلس عند الإدريسي
٢٥٥	محاولة لفهم حقيقة هذا التقسيم
٢٥٧	وصف الأندلس بالتفصيل

٧٣٥

محتويات الكتاب

صفحة

٢٦٣

وصف إسبانيا النصرانية عند الإدريسي

٢٦٧

اعتماد الإدريسي على خرائط بحرية

٢٧١

العرب واستخدام البوصلة

٢٧٢

استخدام الإدريسي للبوصلة

٢٧٣

مدى تجديد الإدريسي في علم الجغرافية

٢٧٤

الطرق إلى شنتياقب عند الإدريسي

٢٧٥

خبر القتيبة المروزي أو المروزي

٢٧٧

أول وصف لمياه المحيط الأطلسي

٢٧٨

فضل العرب في استكشاف المحيط الأطلسي

٢٧٩

حكم عام على عمل الإدريسي

٢٨١

معاصرو الإدريسي

٢٨٢

الجانب الجغرافي من ابن بشكوال

٢٨٣

مؤلفات ابن بشكوال

٢٨٤

إشارات الجغرافية

٢٨٥

أبواب قرطبة

٢٨٧

طرق الأندلس

٢٩٠

طبوغرافية قرطبة

٢٩٤

قصور الخلافة

٢٩٥

اليسع بن عيسى بن حزم النافقي

٢٩٦

حياة اليسع بن عيسى النافقي

٢٩٧

اليسع النافقي ونهاية النظام الفاطمي

٢٩٩

إشارات الجغرافية

٣٠١

مبالات اليسع

٣٠٢

هدف هذه المبالغات

٣٠٣

أبو حامد الفرناطي

محتويات الكتاب

صفحة	
٣٠٥	حياته ورحلاته
٣٠٧	أبو حامد في مصر
٣٠٨	أبو حامد ووصف مصر
٣١١	أبو حامد في العراق
٣١٢	رحلاته في إيران
٣١٣	حديث أبي حامد عن خوارزم
٣١٤	أبو حامد في القوقاز وجنوب روسيا
٣١٦	أبو حامد في بلغار
٣١٧	مشاهدات أبي حامد في هذه النواحي
٣١٩	في بلاد البحر
٣٢٣	أبو حامد يعود إلى بغداد ثم يهجر
٣٢٤	حياة أبي حامد كلها سمي وراء المجهول
٣٢٥	مؤلفات أبي حامد
٣٢٦	كتاب « العرب في بعض عجائب المغرب »
٣٢٩	تحليل لمادة كتاب المغرب
٣٣٣	الجزء الأساسي من كتاب المغرب
٣٣٦	مكان أبي حامد بين الجغرافيين
٣٣٨	كتاب « تحفة الألباب »
٣٤١	أبو حامد والكوزموجرافية
٣٤٣	تحليل لمادة « تحفة الألباب »
٣٤٥	نماذج من كلامه عن الشعوب
٣٤٦	عجائب البلدان والبنين
٣٤٧	حديثه عن البحار
٣٤٨	حديثه عن الكركدن
٣٤٩	كلامه عن طيور عجيبة وحديثه عن البترول

محتويات الكتاب

صفحة	
٣٥٠	الحفائر والقبور وعقاب الظالمين
٣٥١	كلام أبي حامد عن الأندلس
٣٥٢	أحكام موجزة عن بعض البلاد
٣٥٣	آراء ختامية في أبي حامد
٣٥٤	رأى دوبلر
٣٥٧	رأى كراتشكوفسكي
٣٥٨	كتاب «الجغرافية» المنسوب إلى محمد بن أبي بكر الزهرى
٣٥٩	أصل الكتاب
٣٦١	الخلط بين الزوج وتقاويم البلدان
٣٦٢	الزوج وتقاويم البلدان
٣٦٣	طبيعة كتاب الزهرى
٣٦٤	تحليل خطبة الكتاب
٣٦٦	لفظ «جغرافيا» واستعماله عند مؤلفينا
٣٧٠	عود إلى طبيعة كتاب الزهرى
٣٧٣	نموذج من وصفه الجغرافى
٣٧٤	تحليل لهذا النموذج
٣٧٥	اهتمام الكتاب بالحصالات والمتاجر
٣٧٦	حقيقة كتاب الزهرى وأصوله
٣٧٩	كلامه فى الجغرافية الطبيعية
٣٨٢	وصفه لبلنسية
٣٨٤	قرطبة وإشبيلية
٣٨٦	غرناطة
٣٨٧	غرناطة وصنم قانس
٣٨٩	بلتا طليطلة
٣٩٢	تكوين الكتاب

صفحة	
٣٩٣	خلاصة الرأي في جغرافية الزهري
٣٩٤	أبو بكر بن العربي وميلاد أدب الرحلات في الأندلس
٣٩٦	حياة ابن العربي
٤٠٠	دوافع ابن العربي إلى التأليف
٤٠١	نشاطه العام في إشبيلية
٤٠٢	ابن العربي والموحدون
٤٠٣	نهاية ابن العربي
٤٠٣	كتابات ابن العربي في الرحلات
٤٠٥	كتاب « ترتيب الرحلة للترغيب في الملة »
٤١٢	أدب الرحلة في الأندلس
٤١٣	كتاب « قانون التأويل »
٤١٧	
٤١٧	الجغرافية وتطور التاريخ العالمي
٤١٨	عصر ما بعد الإدريسي
٤٢٦	التطور السياسي والاجتماعي في أوروبا
٤٢٧	أثر هذا التطور في سير العلم الجغرافي
٤٢٩	أبو الحسين محمد بن جبير الكفائي
٤٣٠	حياة ابن جبير ورحلاته
٤٣٧	الخصائص الجغرافية لرحلة ابن جبير
٤٤٢	كلامه عن البحر الأبيض والاسكندرية
٤٤٤	الطريق من القاهرة إلى قرص وعيذاب
٤٤٥	كلامه عن مكة والمدينة
٤٤٦	الطريق من مكة إلى المدينة إلى الكوفة
٤٤٧	عمران العراق في عصر ابن جبير
٤٤٨	يقظته ودقة ملاحظته

بعد الإدريسي

صفحة	
٤٤٩	تطلع ابن جبير
٤٥٢	محمد بن أيوب بن غالب الفرناطى
٤٥٤	كتابه « فرحة الأنفس »
٤٥٥	التعليق المنتقى من فرحة الأنفس
	كلام ابن غالب عن قبائل العرب التى نزلت الأندلس
٤٥٧	ومنازلها فيه
٤٥٨	الآثار الأولية فى الأندلس
٤٦٠	نظرة عامة على عمل ابن غالب
٤٦١	أبو الحسن على بن سعيد ، جغرافياً
٤٦٣	جوانب إنتاج ابن سعيد
٤٦٤	عمله الأدبى
٤٦٦	تاريخ آل سعيد
٤٦٩	بنو سعيد ومسهب الحجارى
٤٧١	رحلة ابن سعيد إلى الشرق
٤٧٣	ابن سعيد وابن العديم
٤٧٤	عودته إلى تونس ، إلى الشرق
٤٧٥	شهرة ابن سعيد
٤٧٦	ابن سعيد جغرافياً
٤٧٧	المادة الجغرافية فى كتاب « المغرب فى حلى المغرب »
٤٨٠	مقدمة ابن سعيد فى جغرافية الأندلس
٤٨٤	وصف البحر الأبيض
٤٨٦	وصف ابن سعيد لبلنسية
٤٨٧	حيوان الأندلس
٤٨٨	فاكهة الأندلس
٤٨٩	معادن الأندلس وصناعاته

صفحة	
٤٩٠	إعجاب ابن سعيد بوطنه الأندلس
٤٩٢	نفر ابن سعيد بوطنه
٤٩٣	هل رسم ابن سعيد خريطة للأندلس ؟
٤٩٤	أقسام كتاب المغرب الخاصة بأوروبا
٤٩٥	كتاب « بسط الأرض في الطول والعرض »
٤٩٦	نسبة الكتاب إلى ابن سعيد
٤٩٨	أثر التيفاشي في ابن سعيد
٤٩٩	آل التيفاشي
٥٠٠	التيفاشي الموسوعي
٥٠١	دراسة لكتاب « بسط الأرض »
٥٠٢	تأثر ابن سعيد بالادريسي
٥٠٣	تأثره بيطلموس
٥٠٧	اعتماد ابن سعيد على ابن فاطمة
٥٠٨	ابن فاطمة الرحالة
٥١٠	دقة ابن سعيد
٥١١	ملاحظة عن التناقض بين كتبه
٥١٣	توقيع الأماكن على خطوط الطول والعرض
٥١٥	ثروة المعلومات الجغرافية عنده
٥١٦	نظرة ختامية على كتاب « بسط الأرض »
٥١٧	نظرة عامة على عمل ابن سعيد الجغرافي
٥١٨	أبو عبد الله محمد العبدري
٥١٩	رحلته
٥٢١	نفور العبدري من المدن
٥٢٣	تعليل هذه الحالة النفسية
٥٢٤	أوصافه الجغرافية

٧٤١	محتويات الكتاب
صفحة	
٥٢٥	إحسانه في الوصف الجغرافي
٥٢٧	أهل المغرب في مصر وبقية المشرق
	محمد بن عبد المنعم الصنهاجي الحميري وتطور فن
٥٢٩	المعاجم الجغرافية في الغرب الإسلامي
٥٢٩	الحميري
٥٣٢	اعتذاره عن الاشتغال بالجغرافية
٥٣٤	« الروض المطار »
٥٣٥	كلامه عن أقيانس
٥٣٧	مراجع « الروض المطار »
٥٣٩	نقد الحميري للادريسي
٥٤٠	معجم الحميري
٥٤١	تحليل لمادة المعجم
٥٥١	الإشارات الجغرافية في كتابات ابن الخطيب
٥٥٢	ابن الخطيب والجغرافية
٥٥٣	موسوعية ابن الخطيب
٥٥٤	كتابه الجغرافية
٥٥٥	الوصف الجغرافي
٥٥٦	وصفه لقرنطرة في « الإحاطة »
٥٥٨	تحليل مادة هذا الوصف
٥٦٣	مقدمة « المسحة البدرية »
٥٦٤	قيمة هذه المقدمة
٥٦٥	أقاليم قرنطرة
٥٧٠	القمامات الجغرافية
٥٧٢	« خطرة الطيف في رحلة الشتاء والصيف »

صفحة	
٥٧٤	المادة الجغرافية في « خطرة الطيف »
٥٧٥	« مفاخرات مالقة وسلا »
٥٨٠	« معيار الاختيار »
٥٨٢	المادة الجغرافية في « معيار الاختيار »
٥٨٨	ابن الخطيب الرحالة
٥٩٠	رحلته إلى جبل هنتاة
٥٩١	أسباب قيامه بالرحلة
٥٩٣	فقرات هامة عن تاريخ المدن
٥٩٦	« جغرافية الأندلس وتاريخه » لمؤلف مجهول
٥٩٩	تحليل مادة الكتاب
٦٠٢	حكم عام عليه
٦٠٢	خـرائط :

- رقم ١ — خريطة الإدريسي مقابل صفحة ١
- » ٢ — صورة الأرض المنسوبة إلى بطليموس
- » ٣ — البحر الأبيض
- » ٤ — صورة الأرض كما رسمها البيروني
- » ٥ — صورة الأرض للأصطخري
- » ٦ — خريطة النيل كما رسمها الخوارزمي
- » ٧ — رسم هيئة الأرض لهروشيوش
- » ٨ — رسم توضيحي لهيئة الأرض للأصطخري
- » ٩ — صورة الأرض كما نشرت في كتاب ابن الوردى
- » ١٠ — صورة الأرض كما رسمها أحد المستعربين
- » ١١ — صورة الأرض على هيئة كرة للإدريسي
- » ١٢ — نموذج من الخرائط القطلونية

٧٤٣

محتويات الكتاب

الفهارس والمراجع

صفحة

٦١٣

النصوص الواردة في تضاعيف الكتاب

٦٢١

مراجع البحث : أ - مراجع عربية

٦٢٨

ب - مراجع إنجليزية

٦٣٧

أسماء الكتب الواردة ذكرها في الكتاب

٦٥٣

كشف عام

